

الفائزة بجائزة البوليتزر
مؤلفة رواية «الحسّون»

الصديق الصغير



دونا تارت

«فاتنة»
السلبيغراف

«عملٌ أزلِي»
داني مبرور

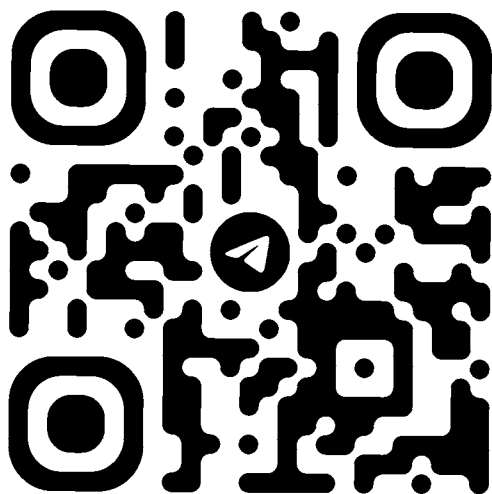
«أسرة لأبعد الحدود»
الأنديبندت

ترجمة: الحارث النبهان

مكتبة

kalemat

الكتاب كامل



سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

الصديق الصغير
The Little Friend



T2539

الصديق الصغير

The Little Friend

دونا تارت

Donna Tartt

ترجمة: الحارث النبهان

دار كلمات للنشر والتوزيع

البريد الإلكتروني:

Dar_Kalemat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:

www.kalemat.com

المملكة العربية السعودية

Copyright © 2002 by Donna Tartt

مكتبة الملك فهد الوطنية

رقم الإيداع: 1446/11373

ردمك: 978-603-92216-8-5

مكتبة

t.me/soramnqraa

5 8 2026

الصديق الصغير

The Little Friend

رواية

دونا تارت
Donna Tartt

ترجمة:
الحارث النبهان

2025

مكتبة
t.me/soramnqraa

//kalemat

إلى فيل

أدنى معرفة قد يمكن استقاؤها من أسمى الأمور أحبُّ إليَّ من
المعرفة الأكيدة الواثقة المستقاة من أمور صغيرة.
-القديس توما الأكويني .. «الخلاصة اللاهوتية»

سيداتي سادتي، يداي الآن في أصفاد استغرق صانع بريطاني
خمس سنين لينجزها .. لا أدري إن كنت قادرًا على الإفلات منها أم
لا، لكنني أستطيع التأكيد لكم أنني سأبذل قصارى جهدي.
-هاري هوديني، لندن هيبودروم
يوم القديس باتريك، 1940

مكتبة
t.me/soramnqraa

تمهيد مكتبة

t.me/soramnqraa

سوف تمضي تشارلوت كليف بقية حياتها تلوم نفسها على موت ابنها، لأنها غيرت موعد عشاء عيد الأم من وقت الظهر (بعد الكنيسة كما اعتادت الأسرة) إلى الساعة السادسة مساءً. لم يعجب هذا التغيير أفراد آل كليف الأكبر سنًا واشتكوا منه، على الرغم من أن اعتراضهم كان بسبب أنهم يتوجسون من الأفكار الجديدة. اعتقدت تشارلوت لاحقًا أنها كان يجب أن تستمع إلى شكواهم، لأنها كانت بمثابة تحذير صغير ولكنه مهم لما سيحدث. صحيح أن ذلك التحذير كان مبهمًا في ذلك الوقت (حتى عندما تستعيد ذكراه)، ولكنه كان الإشارة الوحيدة التي لديها وكان ينبغي أن تهتم بها مثل أي رسالة أخرى ترسلها الحياة.

كانت عائلة كليف تحب التحدث عن جميع التفاصيل الصغيرة في تاريخ عائلتهم، حتى أئفه الأشياء التي حدثت قبل مئة عام مثل اللحظات الأخيرة قبل وفاة أحد أفراد الأسرة أو الخطوبات والزيجات. كانوا يروون هذه القصص مرارًا وتكرارًا، ويضيفون لمسات درامية واستطرادات بلاغية في كل مرة. لكن الأحداث المروعة التي جرت في عيد الأم لم يتحدث أحد عنها قط، حتى في المحادثات الخاصة بين فردين من الأسرة عندما يجتمعان في رحلة طويلة بالسيارة أو في وقت متأخر من الليل في المطبخ، كان هذا غريبًا لأن هذه الأحاديث العائلية كانت طريقة آل كليف في فهم العالم.

حتى المآسي الحزينة وغير المتوقعة (مثل وفاة ابنة عم تشارلوت الرضيعة في حريق، أو حادث الصيد الذي تعرض له

عمها عندما كانت لا تزال في المدرسة الابتدائية) كانت تتحدث عنها العائلة مرارًا وتكرارًا. أعيد سرد هذه القصص مرات عديدة، مع إضافة كل شخص لتفاصيله الخاصة، صوت جدتها الناعم ونبرة والدتها الصارمة وصوت والدها العميق وثرثرة خالاتها كلها امتزجت معًا. في بعض الأحيان كان شخص ما يضيف تفصيلًا دراميًا، فيبني بقية أفراد العائلة عليه بحماس، حتى يشكلون معًا أغنية مشتركة يحفظها الجميع عن ظهر قلب، ومع مرور الوقت تلاشت الذكريات الحقيقية، وحلت هذه القصص محلها.

على سبيل المثال، بكى رجل الإطفاء الذي لم يتمكن من إنقاذ الطفل بكاء مريزًا بدلًا من حقيقة أنه كان غاضبًا فقط، وأصبحت كلبة الصيد التي أصيبت بالارتباك بعد وفاة صاحبها شخصية أسطورية في قصص العائلة: محطمة القلب، تعوي طوال الليل وتبحث عن محبوبها في أرجاء المنزل، وتتوح طيلة الليل في وجارها دون أن يستطيع أحد مواساتها، حتى أنها كانت ترى شبح صاحبها في الفناء! كانت خالة تشارلوت تات التي كانت تؤمن بالأشياء الغامضة تقول دائمًا في اللحظة المناسبة تمامًا في القصة: «يمكن للكلاب رؤية أشياء لا نستطيع رؤيتها»، كانت الخالة تات تؤمن بالروحانيات وكان الشبح هو لمستها الخاصة.

فماذا عن روبين.. صغيرهم الغالي روبين؟ حتى بعد أكثر من عشر سنوات ظل موته عذابًا، ولم يستطيعوا تخفيف أو تغيير أي تفصيل منه، ولم يحاولوا إعادة سرد قصته المرعبة كما فعلوا مع قصص العائلة الأخرى، ولأنهم رفضوا الحديث عنه لم تتحول قصة وفاة روبين إلى واحدة من تلك القصص العائلية المريحة

التي تجعل حتى أقسى الأحداث أسهل تقبلاً واستيعاباً، وبدلاً من ذلك كانت ذكريات ذلك اليوم فوضوية ومكسورة مثل قطع حادة من كابوس يلوح في عبير أزهار الويستيريا، وفي رفرقة حبل الفسيل، وفي ضوء الربيع الساطع.

في بعض الأحيان بدت هذه الومضات الحية من الذاكرة كأنها أجزاء من حلم سيئ، كأنه لم يحدث شيء منها يوماً، ومع ذلك بدا من نواح كثيرة أنه الشيء الحقيقي الوحيد الذي حدث في حياة تشارلوت.

كانت الشيء الوحيد الثابت في هذه الذكريات المشوشة هو تقاليد العائلة التي بقيت كما هي منذ أن كانت طفلة: الاجتماعات العائلية المعتادة، لكن حتى هذا لم يساعد كثيراً، ففي ذلك العام أهمل روتين العائلة المألوف، وكُسرت القواعد المعتادة، بالنظر إلى الوراء بدا كل شيء كأنه إشارة تحذيرية للكارثة التي كانت ستحدث. لم يكن العشاء في منزل جدها كما كان معتاداً بل في منزلها، وبدلاً من براعم الورد المعتادة أحضروا باقات الزنبق. وقدموا كروكيت الدجاج الذي أحبه الجميع، وكانت آيدا ريو تعدّه بشكل ممتاز. كانت عائلة كليف تأكله عادة في عشاءات أعياد الميلاد أو في ليلة عيد الميلاد، لكنهم لم يتناولوه قط في يوم عيد الأم، فقد كانوا لا يأكلون في ذلك اليوم شيئاً غير البازلاء الحلوة وهريس الذرة وشرائح اللحم، هذا ما يعلمونه جميعاً.

كان عصرًا ربيعياً عاصفًا لكنه مشرق، وكانت السماء مليئة بالغيوم المنخفضة الداكنة التي تتخللها أشعة الشمس الذهبية، وزهور الهندباء والبصل تلمع في حديقة المنزل، كانت رائحة

الهواء منعشة ومشبعة بالرطوبة كأن المطر على وشك الهطول. داخل المنزل، كان هناك ضحك وثرثرة، ارتفع صوت الخالة ليبي متذمرًا: «لم أفعل قط شيئاً كهذا يا أديليد، لم أفعل شيئاً كهذا في حياتي!» كان جميع أفراد عائلة كليف يحبون مضايقة الخالة ليبي. كانت عانسًا تخشى كل شيء؛ تخشى الكلاب والعواصف الرعدية وحلوى الفاكهة المصنوعة بشراب الروم والنحل والرجال الزنوج والشرطة. هبت رياح قوية هزت حبل الغسيل وثبت الأعشاب الطويلة في بقعة الأرض الخالية في الناحية الأخرى من الشارع، أغلق روبين الباب الشبكي المنزلق وركض إلى الخارج ضاحكًا بصوت عالٍ على نكتة أخبرته بها جدته («لماذا كانت الرسالة مبلة؟ لأن عليها رسوم بريديّة»⁽¹⁾)، ونزل الدرجات قافزًا.. درجتين درجتين.

على أقل تقدير كان ينبغي وجود شخص في الخارج ليراقب الأطفال، ففي ذلك الوقت كانت هاربيت لم تتجاوز سنة واحدة من العمر، طفلة صغيرة هادئة وجادة بشعر أسود كثيف لا تبكي أبدًا، كانت في الممر الأمامي مربوطة بأحزمة أرجوحاتها تتأرجح جيئةً وذهابًا كلما دفعها أحد، وكانت أختها أليسون في الرابعة من عمرها، تلعب صامتة عند درجات السلم مع قط روبين ويني، كانت أليسون فتاة خجلى وجملةً خلافًا لروبين (عندما كان في مثل سنّها كان يتحدث دون توقف، وكان صوته الصغير مضحكًا عندما يتمرغ بالأرض مسرورًا بالنكات التي يحكيها)، كانت أليسون تبكي

(1) كلمة "رسوم" هي "due"، ويمائل نطقها نطق كلمة "dew" التي تعني "ندى".

كلما حاول أحد تعليمها حروف الأبجدية، لذا تجاهلتها جدتها (التي لم تكن تتحمل مثل هذا السلوك).

في وقت سابق، كانت الخالة تات في الخارج تلعب مع روبين، وكانت تشارلوت تتنقل بين المطبخ وغرفة الطعام وقد أطلت من الباب برأسها لتفقد روبين عدة مرات، ولكنها لم تتبته جيداً إلى أن مدبرة المنزل آيدا ريو (التي قررت أن تغسل الملابس يوم الأحد بدلاً من الاثنين) كانت تدخل البيت وتخرج منه لتعليق الملابس على الحبل في الخارج. كانت تشارلوت مطمئنة لهذا لأن آيدا في يوم الغسيل المعتاد (يوم الاثنين) تظل قريبة منها بحيث تستطيع أن تناديهما: تكون في الحديقة، أو عند الغسالة على الشرفة الخلفية، لذا يكون من الآمن ترك الأطفال في الخارج، ولكنها كانت طمأنينة زائفة! ففي ذلك اليوم كانت آيدا في عجلة من أمرها، في عجلة قاتلة، فقد كان عليها رعاية الضيوف ومراقبة الموقد فضلاً عن مراقبة الطفلة. ثم إنها كانت في مزاج عكر، لأنها عادة ما تذهب إلى منزلها في الواحدة ظهراً أيام الأحد لتعدّ العشاء لزوجها تشارلي. ت، وأيضاً لأنه فاتها حضور القداس، أحضرت الراديو إلى المطبخ حتى تستطيع على الأقل الاستماع إلى برنامج الإنجيل الذي يقدمه كلاركيس ديل، كانت تتحرك في المطبخ بعصبية في ملابس العمل السوداء وفوقها مريلة بيضاء، وقد رفعت صوت برنامج الإنجيل عاليًا وهي تصب الشاي المثلج في كؤوس طويلة في حين كانت القمصان النظيفة على حبل الغسيل ترفرف في الهواء وتلوح بأذرعها يائسة صوب المطر الآتي.

في لحظة من اللحظات كانت جدة روبين في الخارج أيضاً، كانت على الشرفة، وهذا مؤكد لأنها التقطت صورة في أثناء وقوفها هناك. لم يكن عدد الرجال في عائلة كليف كبيراً، وهذا ما جعل الأعمال الذكورية التي تستلزم قوة تقع على كاهلها، مثل تقليم الأشجار والإصلاحات المنزلية وإيصال العائلة بالسيارة إلى التسوق وإلى الكنيسة. كانت تؤدي تلك الأعمال مبتهجة بثقة واضحة تثير عجب أخواتها الوجلات، فلم تكن أي منهن قادرة على قيادة السيارة، ثم إنَّ الخالة ليبي المسكينة كانت تخشى الأدوات الكهربائية والميكانيكية مهما كان نوعها، وكانت تذرف الدمع لاحتمال اضطرارها إلى تشغيل مدفأة الغاز أو تبديل مصباح كهربائي. صحيح أنهم حرن جميعاً لرؤية الكاميرا، بل خفن منها قليلاً، ولكنهم كنَّ معجبات بجراة شقيقتهن المرحمة في التعامل مع هذا الجهاز الرجولي الذي لا بد من «تلقيمه» وتسديده، والضغط على زناده كأنه بندقية. كن يقلن جميعاً وهن يراقبنها تدير الفيلم أو تضبط العدسة بحركات سريعة كالمحترفين: «انظرن إلى إيديث، لا شيء تعجز عنه».

كانت العائلة تعرف أن إيديث -على الرغم من براعتها في مجالات عديدة- ليست جيدة مع الأطفال، كانت متكبرة وقليلة الصبر؛ ما جعلهم ينفرون منها. كانت تشارلوت -ابنتها الوحيدة- تلجأ دائماً إلى خالاتها (خاصة ليبي) للحصول على الحنان والراحة والطمأنينة، أما هاربيت الرضيعة فلم تظهر تقضيلاً لأحد بعد، لكن أليسون كانت تبكي أمام محاولات جدتها المتعجلة لتعليمها الكلام، وتبكي عندما تؤخذ إلى بيت جدتها لتبقى فيه،

ولكن.. إيديث أحبت روبين كثيرًا، وأحبها هو أيضًا. كانت تلك السيدة المحترمة التي بلغت أواسط العمر تلعب معه في باحة البيت، وتجلب له الثعابين والعناكب من حديقتها، وتعلمه أغاني مضحكة تعلمتها من الجنود عندما كانت ممرضة في الحرب العالمية الثانية، مثل:

مكتبة

t.me/soramnqraa

عرفت فتاة اسمها بيغ

كانت لها ساق من خشب

فورًا، راح يغنيها معها بصوته الأجلش الصغير الحلو.

إيدي إيدي إيدي إيدي! كان الجميع يدعونها إيديث حتى والدها وأخواتها، ولكنه سماها إيدي منذ أن بدأ الكلام وصار يركض في الفناء ضاحكًا بفرح. ذات مرة عندما كان روبين في الرابعة ناداها بجديّة «يا عجوزتي»، قال: «يا عجوزتي المسكينة»، وهو يربت على جبينها بيده الصغيرة المليئة بالنمش. لم تحلم تشارلوت يومًا بالتصرف بهذه الألفة مع أمها الصارمة خصوصًا عندما تكون مصابة بالصداع، ولكن إيدي أحبت مخاطبته لها بهذه الطريقة، وصارت تلك الذكرى إحدى قصصها المفضلة، كان شعرها رماديًا عند الولادة ولكنه صار في شبابها أحمر لامعًا مثل شعر روبين الآن، وكانت تكتب على بطاقات الهدايا التي تقدمها إليه في الكريسماس أو في عيد ميلاده: (إلى عصفوري الأحمر روبين)، أو تكتب: (إلى روبيني الأحمر، مع الحب.. عجوزتك المسكينة).

إيدي إيدي إيدي إيدي! كان لا يزال في التاسعة، أصبحت تحيته الخاصة لها نكتة عائلية، كان يغني تلك الأغنية في باحة

البيت دائماً، وقد ناداها بها عندما خرجت إلى الشرفة عصر ذلك اليوم الأخير، آخر يوم رآته.

نادته: «تعال وقبّل جدتك العجوز!»، على الرغم من أنه كان يحب عادةً أن تلتقط له الصور، فإنه كان يهرب أحياناً، تصبح الصورة مشوشة، ويظهر مرفقاه وركبته بزاوية حادة وهو يحاول الهروب من الصورة، عندما رأى الكاميرا حول عنق إيدي ركض بعيداً وهو يضحك عالياً.

نادته: «تعال هنا، أيها المشاغب!» ثم رفعت الكاميرا بسرعة والتقطت صورة كيفما اتفق، كانت هذه آخر صورة لديهم له، صورة غير واضحة: مساحة من عشب أخضر مجزوز في خطوط مائلة قليلاً، وحاجز الشرفة الأبيض، وبريق شجيرة الغاردينيا الكثيف في أول الصورة عند حافة الشرفة، وسماء رمادية عاصفة مع سحب قاتمة مضيئة بخطوط من الضوء. في زاوية الصورة خيال مشوش لرويين، ظهره إلى الكاميرا، يركض عبر العشب الضبابي نحو موته الذي كان يقف في انتظاره هناك، يكاد يكون مرئياً في ذلك الموضع المعتم تحت شجرة التوبيلو.

بعد أيام، بينما كانت تشارلوت مستلقية في غرفتها ذات الستائر المسدلة، خطرت لها فكرة وهي تحت تأثير الأدوية، كان روبين دائماً يهتم بأن يودعها وداعاً طويلاً لطيفاً سواء كان ذاهباً إلى المدرسة أم إلى منزل صديق أم لقضاء الوقت مع إيدي، تذكرت الرسائل الصغيرة التي كتبها، والقبلات التي أرسلها من النوافذ، ويده الصغيرة تلوح لها من المقعد الخلفي للسيارات: «وداعاً!

وداعًا». عندما كان طفلاً تعلم كلمة «باي-باي» قبل «مرحبًا»، وكان يستخدمها للترحيب والوداع، وكان هذا شديد القسوة على تشارلوت لأن هذه المرة لم يكن هناك وداع، كانت مشتتة لدرجة أنها لم تتذكر كلماته الأخيرة أو حتى آخر مرة رآته فيها، كانت تحتاج إلى شيء ملموس، ذكرى صغيرة لتمسك بها وهي تتخبط عمياء متعثرة في الفراغ المؤلم للحياة دونه.

أصبحت نصف مجنونة من الحزن والأرق، صارت تتحدث مع ليبي كثيرًا (الخالة ليبي هي التي استطاعت أن تجعلها تجتاز تلك المرحلة، ليبي بكلماتها الباردة وطعامها، ليبي التي بقيت مستيقظة معها ليلة بعد ليلة، ليبي التي لم تتركها قط، ليبي التي أنقذتها). لم يستطع زوجها أو أي شخص آخر تقديم أي عزاء لها، وعلى الرغم من أن أمها (التي بدت للآخرين أنها تتعامل مع الأمر بشكل جيد) حافظت على عاداتها ومظهرها، واستمرت بشجاعة في مهامها اليومية، فإن إيدي لم تعد قط كما كانت، فقد حولها الحزن إلى حجر، كان من المؤلم رؤيتها. كانت تقول لابنتها بغضب وهي تفتح الستائر: «انهضي من السرير، تشارلوت!، تناولتي القهوة، مشطيت شعرك، لا يمكنك الاستلقاء هكذا إلى الأبد!» حتى ليبي الطيبة كانت ترتجف أحيانًا من برودة نظرة إيدي عندما تلتفت من النافذة لتتظر إلى تشارلوت المستلقية دون حراك في غرفة النوم المظلمة: نظراتها شرسة وقاسية كأنها كوكب صقيعي في سماء الليل.

«الحياة تستمر»، هكذا كانت تقول إيدي دومًا، غير أن ذلك لم يكن صحيحًا. ففي تلك الفترة كانت تشارلوت تصحو من

غيوبية الأدوية لتوقظ ابنها الراحل وترسله إلى المدرسة، وكانت تنهض من فراشها خائفة خمس أو ست مرّات في الليلة تنادي اسمه. وكثيراً ما صدّقت (لو لوهلة قصيرة) أنّ روبين ما زال في الطابق العلوي، وأنّ كلّ ما جرى ليس إلا حلمًا رديئًا. ثم تألف عيناها الظلمة، وتبصرا القمامة البشعة التي تثير القنوط (مناديل وعبوات أدوية وأزهار ميتة) متاثرة على الطاولة الصغيرة إلى جوار سريرها، فيعلو نحيبها من جديد (على الرغم من أنّها قد بكّت حتى ألمتها أضلاعها) لأن روبين ليس في الطابق العلوي ولا في أي مكان يستطيع العودة منه.

كان قد ثبتّ بطاقات بين قضبان عجلتي دراجته، ولم تلاحظ الأمر عندما كان حيًّا، لكن الطقطقة التي تصدرها تلك البطاقات كانت تميز قدومه ورحيله، كان في الحي طفل لديه دراجة تُصدر الصوت ذاته، فكان قلبها ينتفض كلما سمعته آتياً من بعيد، ينتفض في لحظة خاطفة من الأمل المستحيل، في لحظة قاسية تفوق الاحتمال.

أ يكون قد ناداها؟ كان تفكيرها في لحظاته الأخيرة يفتك بروحها، ولكنها لم تكن قادرة على التفكير في شيء غير تلك اللحظات، كم طال الأمر؟ هل تألم؟ كانت تمضي نهارها كله محدقة إلى سقف غرفة نومها إلى أن تعبّره الظلال كلها، وتغيب عنه، ثم تظل صاحبة طيلة الليل محدقة إلى وهج عقارب الساعة المضئية في العتمة.

خاطبتها إيدي بحزم: «إنك لا تتفعين أحداً في العالم كله بمكوئك في فراشك تبكين طيلة اليوم، ستشعرين بارتياح أكبر إذا ارتديت ملابسك وذهبت لتصفيف شعرك».

في أحلامها كان يبقى بعيداً هارباً منها، كانت تشتاق إلى كلمة واحدة منه لكنه لم يكلمها قطّ، لم تلتق عيناها قطّ، وفي أشدّ أيامها قسوة دأبت ليبي على الهمس لها بعبارة واحدة مراراً وتكراراً، عبارة لم تدركها آنذاك: «لم يكن مقدراً لنا أن نحفظ به يا عزيزتي، لم يكن مقدراً لنا أن نبقيه عندنا، ومن حسن حظنا أنه ظل معنا تلك المدة كلها»

تسللت تلك الفكرة إلى ذهن تشارلوت عابرة ضباب الأدوية المخدّرة في ذلك الصباح الحارّ في غرفتها ذات الستائر المسدلة، فأدركت تشارلوت أنّ كلام ليبي كان الحقيقة بعينها، وأدركت أن روبين (بطريقة غريبة أو بأخرى) ظل طيلة حياته منذ كان طفلاً رضيعاً يحاول أن يودعها، يحاول أن يقول لها: «مع السلامة».

كانت إيدي آخر من رآه، وبعد ذلك لم يعد أحدٌ يملك يقيناً بشأن ما حدث. وبينما كانت العائلة تتحاور في غرفة الجلوس يبتسمون في أدبٍ وهم ينتظرون الدعوة إلى المائدة، وقد طالّت فترات الصمت بينهم، كانت تشارلوت جاثية على يديها وركبتيها تبحث في خزانة غرفة الطعام عن مناديلها الكتانيّة الفاخرة، (كانت تحب أن تكون الطاولة جاهزة، وأن يكون لكل فرد منديله، وعادة ما تزعم آيدا أنها لا تعرف شيئاً عن وجود مناديل أخرى، وتقول إنها لم تستطع العثور إلا على المناديل ذات المربعات التي يستخدمونها في النزّهات).

وما إن عثرت تشارلوت على المناديل الجيّدة، وهمت أن تتادي آيدا (لترّيها أنّها وجدتتها في المكان الذي قالت عنه سلفاً)، حتّى

اعتراها إحساس مفاجئ بأن أمراً ما ليس على ما يرام.

طفلتني الصغيرة! كانت هذه ردة فعلها الغريزية الأولى، قفزت واقفة وتركت المناديل تسقط على السجادة، ثم ركضت خارجة إلى شرفة البيت الأمامية.

ولكن هاربيت كانت في أمان، ولا تزال موثقة إلى أرجوحتها، ورمقت أمها بعينيها الكبيرتين الجادتين، كانت أليسون جالسة على الرصيف إصبعها في فمها تؤرجح جسدها إلى الأمام والخلف، تصدر صوتاً شبيهاً بصوت الدبور، لا يبدو أنها تعرضت لأذى، لكنها كانت تبكي.

سألته تشارلوت: «ما الأمر؟ هل يؤلمك شيء؟»، ولكن أليسون هزت رأسها نفياً، وإصبعها لا تزال في فمها.

لمحت تشارلوت بطرف عينها حركة خاطفة عند آخر الفناء.. روبين؟ لكنها عندما نظرت جيداً لم تر أحداً هناك.

قالت لأليسون: «هل أنت متأكدة، هل خمشك القط؟»

هزت أليسون رأسها نفياً مرة أخرى، جثت تشارلوت على ركبتيها وتفحصتها سريعاً، فلم تلاحظ كدمة ولا خدشاً، في حين كان القط قد اختفى...

وعلى الرغم من اطمئنائها إلى أن الأمور على ما يرام، ظلت تشارلوت تشعر بالقلق. قبلت جبهة أليسون وقادتها إلى الداخل قائلة: «لَمْ لا تذهبين لتري ما تصنعه آيدا في المطبخ يا عزيزتي؟» ثم عادت لتأتي بالطفلة الرضيعة. لقد عرفت تشارلوت هذا اللحظات من الهلع المفاجئ الذي يشبه الأحلام، لكنها كانت تأتيها في العادة ليلاً، خصوصاً عندما كان عمر هاربيت أقل من

سنة أشهر، كانت توقظها من نومها العميق فزة لتهرع إلى مهدها، ولكن أليسون بخير، وهاربيت كذلك.

حملت تشارلوت هاربيت إلى غرفة المعيشة وأعطتها لخالتها أديليد، ثم رفعت المناديل التي وقعت على سجادة غرفة الطعام (لا تزال تشعر كأنها تسير في نومها دون أن تدرك السبب) قبل أن تتوجّه إلى المطبخ لتحضر لهاربيت وعاءً من هريس المشمش. كان زوجها ديكسون قد قال لها ألا ينتظروه على العشاء، فقد ذهب إلى صيد البط، ولا بأس في هذا! عندما لا يكون ديكسون في المصرف يذهب عادة إلى الصيد أو إلى بيت أمه. فتحت باب المطبخ، وجرت كرسياً صغيراً لتقف عليه وتتناول وعاء المشمش من الخزانة، كانت آيدا ريو تخرج صينية الفطائر من الفرن، فيما انبعث عبر المذيع صوتٌ زنجي متكسر: الرب، الرب لا يتغير أبداً.

كان هذا البرنامج الإنجيلي كابوساً يطارد تشارلوت، لكنها لم تبح بذلك قط. لو أن آيدا لم ترفع الصوت كثيراً ربما كان في وسعهم سماع ما يجري في فناء البيت، وربما أدركوا أن هناك خطباً ما، لكن..

(تتقلب في فراشها ليلاً، تحاول عبثاً أن تفكك الأحداث، أن تعثر على الخيط الأول، على السبب الجذري لكل هذا.. لكن ماذا لو كان الخطأ خطأها؟)

أليست هي من أجبرت آيدا التقيّة على العمل يوم الأحد؟
«اذكروا يوم السبت واحفظوا قداسته»، هكذا قال يهوه في العهد القديم، معاتباً قومه لأمر أهون من ذلك بكثير...

قالت آيدا: «شارفت الفطائر على النضج». ثم انحنى مجدداً فوق الفرن.

«آيدا سأهتم بأمرها، أظن أن المطر بات وشيكاً، فاذهبي لإدخال الملابس، ونادي روبين ليأتي إلى العشاء».

عندما عادت آيدا (متجهمة، متييسة) حاملة ملء ذراعيها قمصاناً بيضاء، قالت لها: «لا يريد أن يأتي».

«قولي له أن يدخل الآن، هذه الدقيقة».

«لا أعلم أين هو، ناديته عدّة مرات».

«لعله ذهب إلى الناحية الأخرى من الشارع».

ألقت آيدا بالقمصان في سلة الكيّ ثم خرجت، وأغلقت الباب الشبكي بضربة قوية، سمعتها تشارلوت تصيح في الخارج:

«روبين، تعال الآن! تعال، وإلا ضربتك على ساقيك!»

وبعد ذلك.. من جديد صاحت: «روبين!»

لكن روبين لم يأت.

قالت تشارلوت وهي تجفّف يديها بمنشفة المطبخ: «يا إلهي!»،

ثم خرجت إلى الفناء.

وما إن وقفت هناك حتى شعرت بشيءٍ من القلق والانعراج،

إذ إنها لا تعرف أين ينبغي أن تبحث، فدراجته مستدة إلى جدار

الشرفة، وهو يعلم أن عليه ألا يبتعد عند اقتراب موعد العشاء، لا

سيّما عندما يكون في البيت ضيف.

نادته: «روبين!»، أياكون مختبئاً؟ ليس في الحي أطفال في مثل

سنه، على الرغم من أنه بين الحين والآخر كان بعض الأطفال

غير المذهبين من السود والبيض يأتون من النهر إلى الأرصفة

الواسعة المظلمة بشجر البلوط في شارع جورج، لكنها لم تر أيًا منهم الآن.

كانت آيدا تمنعه من اللعب معهم، ولكنه يلعب معهم أحيانًا، كان مظهر الأطفال الصغار منهم يثير الشفقة: أقدامهم قدرة، وركبهم عليها كدمات وخدوش. وعلى الرغم من أن آيدا كانت تطردهم بقسوة، فإنّ تشارلوت كانت في بعض الأحيان تشفق عليهم وتعطيهم نقودًا أو شراب الليمون. أمّا حين يبلغون الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة فقد كانت تشارلوت تبقى داخل المنزل مسرورة أن تترك آيدا مهمّة طردهم بحزم، لأنهم كانوا يُطلقون بنادق الخرز على الكلاب، ويسرقون الأغراض من الشرفات، ويشتمّون، ويتجولون في الشوارع حتى ساعة متأخرة من الليل. قالت آيدا: «كان أولئك الأولاد القذرون يركضون في الشارع قبل قليل».

عندما تقول آيدا «قذرون»، فهي تعني أولادًا من البيض، كانت تبغض أولئك الأطفال البيض الفقراء بشدة، وتحملهم مسؤولية أيّ أذى يحدث في الفناء، حتى عندما تكون تشارلوت متيقّنة من براءتهم.

سألته تشارلوت: «هل رأيت روبين معهم؟»

«لا»

«أين هم الآن؟»

«طردتهم».

«في أي اتجاه ذهبوا؟»

«ذهبوا في اتجاه المستودعات».

في تلك الأثناء خرجت جارتهم السيّدة فونتين العجوز بردائها المنزلي الأبيض ونظارتها المضحكة لترى ما يحدث، وخلفها كلبتها العجوز ميكي التي تشبّهها إلى حدّ مضحك: أنف حاد، وحلقات من شعر رمادي خشن، وملامح متوجّسة.

نادتها الجارة بنبرة مرحة: «هل تقيمون حفلة كبيرة هناك؟»

أجابتها تشارلوت: «لقاء عائلي، لا أكثر»، ثم جالت عيناها في الأفق الذي بدأ يصبح معتمًا خلف شارع ناتشيز حيث تمتد سكة القطار نحو البعيد، كان يجدر بها أن تدعو السيّدة فونتين إلى العشاء، فقد كانت أرملة مات ابنها الوحيد في الحرب الكوريّة، ولكنها امرأة كثيرة الشكوى وفضولية جدًّا، أمّا السيّد فونتين الذي كان يدير محلًّا لتنظيف الملابس وكيّها فقد رحل عن الدنيا وهو لا يزال شابًّا، وكان الناس يمزحون قائلين إنّها أكثرت من الكلام إلى أن أودّت به.

سألته السيّدة فاونتين: «ما الأمر؟»

«هل رأيت روبين؟»

«كلا، لقد قضيتُ ظهر هذا اليوم في عليّة المنزل أنظّفها، أعلم أنني أبدو في حالة مزريّة، ألا ترين مقدار ما جمعته من قمامة؟ أعلم أن عامل النظافة لا يأتي إلا يوم الثلاثاء؛ ولا أحب أن أترك القمامة في الشارع هكذا، ولكني لا أجد أمامي خيارًا غير ذلك، أين ذهب روبين؟ ألا تستطيعين العثور عليه؟»

قالت تشارلوت: «أنا واثقة بأنه لم يبتعد كثيرًا ولكن وقت العشاء قد حان»، ثم خرجت إلى الرصيف لتلقي نظرة في الشارع. رفعت آيدا ريو نظرها إلى السماء، ثم قالت: «سوف يبدأ الرعد».

قالت السيدة فاونتتين بنبرة قلقة: «ألا تخشين أن يكون قد سقط في بركة الأسماك؟»، كانت تخشى دائماً أن يسقط أحد الأطفال الصغار في تلك البركة.

قالت تشارلوت: «لا يتجاوز عمق البركة قدمًا واحدة»، ومع ذلك استدارت وسارت نحو الفناء الخلفي.

كانت إيدي قد خرجت إلى الشرفة الأمامية، وقالت: «ما الأمر؟»

صاحت آيدا ريو: «إنه ليس في الفناء الخلفي، لقد بحثت هناك».

عند مرور تشارلوت بباب المطبخ المفتوح، سمعت صوت برنامج آيدا الإنجيلي مستمرًا:

يسوع ينادينا بصوت رقيق لطيف

يناديك ويناديني

انظروا ها هو ذا عند البوابات ينتظرنا ويراقبنا.

لم يكن أحد في فناء البيت الخلفي، كان باب سقيفة المعدات مواربًا، لكنها كانت خالية، فيما كانت طبقة من الطحالب الخضراء التي تغطي سطح بركة الأسماك سليمة لم يصبها شيء، ولحظة رفعت تشارلوت رأسها سرت في الغيوم السود شرارة برق متكسرة.

كانت السيدة فاونتتين أول من رآه، عندما صرخت تجمدت تشارلوت في مكانها، ثم استدارت وركضت عائدة بأقصى ما تستطيع من سرعة، تردّد دويّ الرعد في البعيد، وبدا كلُّ شيء غريبًا تحت سماء ملبدة بالسود، فيما انغرز كعبا حذاءها في الوحل، وعصفت زوبعة

من الريح الباردة التي تحمل رائحة المطر بين أشجار البلوط كأنها أجنحة هائلة، فيما تموج العشب بلون أخضر مصفر حولها كبحر غاضب، كانت تمضي بخطى مدعورة متعثرة مدركة من صرخة السيدة فاونتين أنها ستري أسوأ أمر في حياتها.

أين كانت آيدا عندما وصلت؟ أين كانت إيدي؟ لا تتذكر سوى السيدة فاونتين ويدها ضاغطة على فمها بمنديل ورقي، وعيناها جاحظتان تدوران بجنون خلف نظارتها العاجية، وكلبتها تتبع، وصرخات إيدي تتردد مدوية كأنها ليست من هذا العالم، صرخات آتية من لا مكان، من مكان ما، من كل مكان، كان مشنوقاً بحبل مربوط إلى غصن منخفض من أغصان شجرة التوبيلو السوداء المنتصبة على مقربة من سياج شجيرات البربريس الفاصل بين بيت تشارلوت وبين السيدة فاونتين؛ كان ميتاً، وطرفاً حذائه الرياضي متدليان على علو ستة إنشات فوق العشب، والقط ويني متمد على بطنه فوق أحد الأغصان، وقد طوى أطرافه تحته، كان يربت بقائمه الأمامية على شعر روبيين الأحمر النحاسي الذي كان يرفرف ويتلألأ في الريح، كان شعره الشيء الوحيد الذي لا يزال محتفظاً بلونه الصحيح.

وفي الراديو، كانت الجوقة تنشد ترنيمة:

عُد إلَيَّ

عُد إلَيَّ.. أنت، أيها المُتعب، عُد إلَيَّ

تصاعد دخان أسود من نافذة المطبخ، واحترق كروكيت الدجاج على الموقد، كان الوجبة المفضلة لدى العائلة كلها، وبعد ذلك اليوم لم يستطع أحد منهم أن يأكله من جديد.

الفصل الأول

القط الميت

بعد مضي اثني عشر عامًا على وفاة روبين، بقي لغز موته مشنوقًا على شجرة في فناء منزله عصيًا على الفهم، كما كان يوم وقوع الحادثة.

ظلت التساؤلات تراود أهل البلدة الذين لا يزالون يتداولون ما جرى ويشيرون إليه بـ«الحادثة»، لكن الأحاديث التي تتناقل في جلسات تناول السندويشات على الجسر، وعند الانتظار لدى الحلاق، أو في محلات بيع طعوم صيد الأسماك، وحتى غرف الانتظار في عيادات الأطباء وفي صالة الطعام الرئيسة في نادي المقاطعة، تفصح عن قناعة خفية: لم يكن الأمر حادثًا عابرًا؟ كان من الصعب على الجميع تصديق أن صبيًا في التاسعة قد يشنق نفسه في لعبة طائشة أو بسبب خطأ مأساوي، ظلت تفاصيل الحادثة تغذي الشائعات والنقاشات؛ فقد استُخدم في شنقه كابل من نوع «الفايبر»، وهو كابل نادر الاستخدام لكن الكهربائيين يستعملونه أحيانًا، لا أحد يعلم من أين جاء روبين بهذا الكابل السميك والمتين، ولا كيف تمكن من استخدامه. صرح المحقق القادم من ممفيس لمدير الشرطة في البلدة (تقاعد الآن) بأنه من المستبعد أن يتمكن طفل في عمر روبين من ربط هذا الكابل بمفرده، كان الكابل معقودًا على غصن الشجرة بطريقة غير احترافية؛ ما أثار الشكوك حول كون الجاني عديم الخبرة أو مستعجلًا.

حتى العلامات والآثار الباقية على جثة رويين -كما ذكر طبيب العائلة الذي تحدث مع مفتش طبي في إدارة الولاية كان مطلعاً على تقرير الطبيب الشرعي- أشارت إلى أن موته كان نتيجة الخنق وليس بسبب كسر في العنق، دفع هذا التفصيل بعض الناس للاعتقاد أن رويين خُنق قبل أن يُعلق على الشجرة، فيما رأى آخرون أنه خنق بعد تعليقه.

كان في أذهان أهل البلدة وعائلة رويين يقين أنه تعرض لجريمة مروعة، لكن من الجاني وما دوافعه؟ هذه أسئلة لم يجرؤ أحد على الإجابة عنها. شهدت البلدة منذ العشرينيات حادثتي قتل هزّتا الأوساط الاجتماعية، حين قضت امرأتان من عائلتين مرموقتين على يد زوجين غيورين، بيد أن تلك الحوادث القديمة صارت جزءاً من الماضي، ومات كل من كان له صلة بها منذ زمن بعيد. أما الجرائم المتفرقة التي تحدث في ألكساندريا، فتُعزى عادة إلى نزاعات داخلية بين الزوج، كما كان يكرر البيض للإشارة إلى أنها لا تمسهم مباشرة، لكن موت طفل! هذا أمر مختلف تماماً، أمر أثار خوفاً جمعياً شمل الأغنياء والفقراء، السود والبيض على حد سواء. لم يكن أحد قادراً على تخيل من يمكن أن يرتكب مثل هذه الجريمة البشعة، أو ما الذي قد يدفعه إلى ذلك.

ظهرت شائعات عن رجل غامض يتجول في الأنحاء، وحتى بعد سنين من موت رويين ظلّ الناس يدّعون مشاهدته، وتقول الروايات كلها إنه رجل عملاق، ولكن الأوصاف تتضارب بعد ذلك: أحياناً يكون أسود اللون، وفي أحيان أخرى أبيض، ويحمل

أحياناً علامات فارقة شديدة الوضوح مثل إصبع مقطوعة أو قدم مشوهة أو كدمة قرمزية على خده، قيل إنه قاتل مأجور خنق ابن عضو مجلس الشيوخ في تكساس، وألقى بجثته طعاماً للخنازير. وقيل أيضاً إنه مهرج في سباقات الروديو يغري الأطفال الصغار ويستدرجهم إلى موتهم بالألعاب وحيل يؤديها بحبل، وقيل أيضاً إنه مختل عقلياً فرّ من مستشفى الأمراض العقلية في وايتفيلد وهو مطلوب في إحدى عشرة ولاية، ولكن على الرغم من التحذيرات الكثيرة التي وجهها أهالي ألكساندريا إلى أطفالهم، وعلى الرغم من ضخامة جسده الذي شاهده الناس يعرج قرب شارع جورج في كل عيد هالوين، فقد ظلّ ذلك الجوّال شخصية غائمة الملامح، قُبِضَ على كل متشرد وجوال ومتلصص على نطاق مئة ميل حول البلدة، واستُجوبوا جميعاً بعد موت صبي آل كليف الصغير، ولكن التحريات لم تفضِ إلى شيء، ومع بقاء القاتل المزعوم طليقاً ظلّ الخوف يخيّم على البلدة، وكان الناس يخشون أن يكون ذلك الرجل ما زال يتجول في الجوار... يراقب الأطفال وهم يلعبون وهو مختبئ في سيارة مركونة في موضع خفيّ.

كان أهل البلدة هم الذين يثيرون هذه الشائعات، أمّا آل روبين فلم يناقشوا الأمر قطّ.

بدلاً من ذلك كان حديثهم عن روبين نفسه، فيروون قصصاً عن طفولته وذكرياته في الحضانة؛ ذكريات بسيطة مليئة بالحلاوة والدفع. كانت الحالات العجائز يتذكرون كل تفصيل صغير: ألعابه وملابسه ومعلماته المفضلات وأحلامه التي كان يحكيها وأشياء أحبها أو تمنى الحصول عليها.

بعض هذه الروايات كان صحيحًا، وبعضها محض خيال، ولم تكن هناك وسيلة للتحقق من صحة معظمها. ومع ذلك عندما يتفق آل كليف على قصة أو ذكرى تصبح تلك الذكرى حقيقة ثابتة لا تقبل الجدل، دون أن يدرك أحد منهم تأثير تلك الكيمياء الجمعية التي جعلتها حقيقة ثابتة.

غير أن الظروف الغامضة المتشابكة لمقتل روبين أفلتت من تلك الكيمياء الجمعية التي طالما صاغت ذكريات آل كليف. وعلى الرغم من ميلهم الطبيعي إلى التعمق والتدقيق فإنهم بقوا عاجزين عن نسج حبكة متماسكة من شظايا القصة المتناثرة، لم يتمكنوا من استنباط منطق يفسر ما جرى، ولا حكمة يستقونها من الحادثة. لم يكن لديهم سوى روبين ذاته، أو ما تبقى من ذكراه، وما جاهدوا في رسمه من صورة له طوال سنوات، كانت تلك الصورة بتفاصيلها التي ازدادت بريقًا وزخرفًا مع الزمن أعظم ما أنتجه خيالهم الجمعي.

كان ذلك الطفل الساحر بجاذبيته ونزواته التي أحبوه من أجلها، لذا ظهرت صورته الحية في ذاكرتهم بوضوح مؤلم، كانوا يتخيلونه مندفعًا في الشارع، يقود دراجته بعزم، منحنيًا إلى الأمام، وشعره يطير خلفه، يضغط على الدواسات بقوة تجعل الدراجة تميل قليلًا. كان مشهدًا ينبض بالحياة: طفلٌ نشيط ومندفع ومفعم بالطاقة، لكن هذا الوضوح كان خادعًا يضيف على ذكرياتهم نسيجًا خياليًا ملفومًا بالاحتمالات المتضاربة، ففي لحظات أخرى كانت القصة تتلاشى وتفقد قوامها، فتبدو متألقة لكنها دون ملامح واضحة مثل حياة القديسين التي تتداخل فيها الحقيقة بالأسطورة.

كانت الخالات المفجوعات يرددن دومًا: «لو كان روبين بيننا، لأحب هذا الأمر كثيرًا»، و«لو كان هنا، لضحك ملء قلبه!» والحقيقة أن روبين كان طفلًا متقلب المزاج، يضحك ببراءة وصخب ثم يتحول إلى الجدية بسرعة خاطفة، وقد يصبح هستيريًا في لحظات أخرى.

لقد كان هذا التقلب جزءًا مهمًا من سحر شخصيته، إلا أن شقيقتيه الصغيرتين اللتين لم تعرفاه بحق، كبرتاه وهما تحملان يقينًا عجيبًا حول أشياء تخصه: لوْنُه المفضل (الأحمر)، كتابه المفضل (ريح بين أشجار الصفصاف)، الشخصية التي أثارت إعجابه في ذلك الكتاب (السيد ضفدع)، نكهة الآيس كريم التي يفضلها (الشوكولاتة)، وفريق البيسبول الذي يشجعه (ذا كاردينالز).

كانتا متأكدتين من مئات التفاصيل التي لم تختبراهما أو تعرفاهما بدقة، كانتا طفلتين متغيرتي المزاج، تفضلان الآيس كريم بالشوكولاتة هذا الأسبوع، ثم تعجبهما نكهة الخوخ في الأسبوع الذي بعده، لذلك أصبحت علاقتهما بشقيقتيهما الميت علاقة حميمة جدًا، فتألفت شخصيته الثابتة الواضحة في خيالهما بالمقارنة مع كل من عرفتا من الناس الذين تتسم شخصياتهم بالتقلب والغموض، كبرتاه معتقدتين أن هذا الثبات والوهج هما نتيجة لمسة ملائكية على روبين، وليس مجرد انعكاس لحقيقة موته.

كبرت شقيقتا روبين فصارتا مختلفتين عنه كثيرًا، وصارت كل منهما مختلفة عن الأخرى كثيرًا.

أصبحت أليسون التي بلغت السادسة عشرة فتاة هادئة خجولة،
يسهل أن تصاب بالكدمات أو تحترق بشمس الصيف. كانت تبكي
لأنفه الأسباب، لكن جمالها الناعم كان يميزها: ساقان طويلتان،
وشعر أحمر، وعينان بنيتان نديتان كعيني ظبي. كان غموضها هو
سر جمالها؛ صوتها الخافت وحركاتها الفاترة وتقاطيع وجهها
الحالمة والغائمة، ومع ذلك لم يكن هذا الجمال يحوز إعجاب
جدتها إيدي التي فضّلت النشاط والألوان الصارخة. كانت أليسون
تُزهَر بخجل ونعومة كزهرة برية تتفتح في شهر حزيران إزهاراً
يعتمد على نضارة الشباب التي تدرك إيدي جيداً أنها أول ما
يزول.

كانت أليسون تقضي وقتها في أحلام اليقظة، تكثر من التهد،
وتمشي بطريقة غريبة تجر فيها قدميها وأصابعهما منكشّة،
وحتى كلامها كان يعكس خجلها وحذرهما، ومع ذلك كانت أليسون
جميلة بأسلوبها الخجول وبيضاء كالحليب. بدأ الأولاد في صفها
يتصلون بها هاتفيّاً، وكانت إيدي تراقب كيف تضع أليسون السماعة
بين كتفها وأذنها، وعيناها مسبلتان، ووجنتاها متوهجتان بالخجل،
وهي تحرك طرف قميصها جيئةً وذهاباً وتتلعثم في حديثها.

عبّرت إيدي عن استيائها بصوت مسموع: يا للأسف، كيف
يمكن لفتاة ناعمة بهذا القدر (قالت إيدي كلمة ناعمة بطريقة
تقصد بها أنها ضعيفة ومصابة بفقر الدم) أن تظهر بمثل هذا
المظهر الضعيف؟

كان على أليسون أن ترفع شعرها عن عينيها، وتشد كتفيها،
وتمشي منتصبّة وواثقة بدلاً من مشيتها المتهدلة. كان عليها أن

تبتسم، وترفع صوتها عندما تتكلم، وتبدي اهتمامًا بالأشخاص الذين تتحدث معهم، وتسألهم عن أحوالهم إن لم تستطع التفكير في شيء مهم تقوله لهم.

كانت نصائح إيدي دائمًا حسنة النية، لكنها كانت تُلقِيها في حضور الآخرين وبصورة تظهر فيها قدرًا ملحوظًا من الاستياء يجعل أليسون تهرع إلى غرفتها باكية.

عندئذٍ تقول إيدي بصوت عالٍ لقطع الصمت الذي يعقب ذهاب أليسون إلى غرفتها: «لا بأس! لا يهمني! لا بد أن يعلمها أحد كيف تتصرف، لو لم أتابعها دائمًا لما استطاعت هذه الطفلة بلوغ الصف العاشر، أؤكد لكم هذا».

وقد كان هذا صحيحًا، فمع أن أليسون لم ترسب في صفها قط، فقد قاربت الرسوب مرات عدّة، قاربته إلى حدٍ خطير... في المدرسة الابتدائية خاصة، ورد في تقرير أليسون المدرسي: كسولة وشاردة الذهن وبطيئة وغير مرتبة، لا تهتم بنفسها، وكانت تشارلوت تقول بطريقتها الغاضبة كلما عادت أليسون حاملة درجاتها المدرسية المتدنية: «لا بأس... أظن أن علينا أن نبذل جهدًا أكبر!»

ومع أن أليسون وأمها لم تبديا اهتمامًا كبيرًا بدرجاتها المتدنية، فإن إيدي كانت مهتمة بذلك كثيرًا، وهو ما كان ينذر بالخطر. كانت تذهب إلى المدرسة وتطلب الاجتماع بالمدرسين، وتستنزف أليسون بقوائم من الكتب التي يجب قراءتها، وباختبارات سريعة، ومسائل طويلة في قسمة الأعداد، وكانت تضع ملاحظاتها بالقلم الأحمر على تقارير أليسون المدرسية ومشاريعها العلمية، حتى بعد أن أصبحت في المرحلة الثانوية.

لم يكن من المجدي تذكير إيدي بأن رويين نفسه لم يكن دائماً طالباً متميزاً، فقد كانت تجيب بنبرة حادة: «كان مليئاً بالحيوية، لو بقي بيننا لكان بذل جهداً أكبر في الوقت المناسب» وكان هذا أكثر ما يمكن لإيدي أن تعترف به عن المشكلة الحقيقية؛ إذ إن جميع أفراد عائلة كليف كانوا يدركون أنه لو كانت أليسون حيوية ونشيطة مثل شقيقها الراحل، لكانت إيدي قد تفاضت عن درجاتها المنخفضة.

لكن موت رويين والسنوات التي تلت ذلك حولوا إيدي إلى امرأة متشائمة، فيما غرقت شارلوت في حالة من اللامبالاة شلت كل جانب من جوانب حياتها وأفقدتها ألوانها، وحتى عندما تحاول أن تهتم بأليسون كان تفعل ذلك دون حماس ودون جهد حقيقي. وفي هذا أصبحت تشارلوت تشبه زوجها ديكسون، فمع أنه كان يوفر لأسرته دخلاً مالياً طيباً، فإنه لم يظهر لأي من بناته تشجيعاً أو اهتماماً يذكر، لم يكن عدم اكتراثه شيئاً شخصياً؛ فقد كان رجلاً ذا آراء متعددة، وكان يعبر عن رأيه المتدني في البنات دون خجل وبأسلوب عادي مليء بروح الدعابة (كان يكرر دائماً أنه لن يورث بناته قرشاً واحداً).

لم يكن ديكس يمضي وقتاً طويلاً في المنزل فيما مضى، والآن أصبح بالكاد يمكث فيه، كان من أسرة تنظر إليها إيدي أنها «عائلة صاعدة اجتماعياً»، كان والده يدير محلاً لبيع مستلزمات السباكة، وعندما تزوج تشارلوت، كان يظن أن لديها مالاً، فقد أغراه اسم عائلتها، لم يكن الزواج سعيداً قط (عمل في المصرف حتى أوقات متأخرة، وسهرات طويلة للعب البوكر، وصيد ومباريات

كرة القدم والجولف، وأي عذر للهروب في عطلة نهاية الأسبوع)، لكن حماسه تلاشت بشكل خاص بعد وفاة روبين.

كان يريد أن يطوي صفحة الحزن سريعاً؛ لم يكن يتحمل الصمت في غرف البيت، ولا جو الإهمال والكآبة والتراخي، فكان يرفع صوت التلفاز إلى أقصى درجة، ويذرع البيت بخطواته في حالة من الضيق الشديد، يصفق بيديه، يرفع ستائر النوافذ ويقول عبارات مثل: «لننهض من هذه الحالة!»، و«لنعد إلى حياتنا!»، و«نحن معاً!»، وكان يدهشه أن محاولاته لم تلق التقدير المطلوب. وفي نهاية المطاف عندما فشلت كلماته في طرد أجواء المأساة من المنزل، فقد كل اهتمام به، وصار يذهب في رحلات إلى مخيم الصيد تستمر كل منها بضعة أسابيع، ثم قرر بشكل مفاجئ قبول وظيفة مصرفية عالية الأجر في مدينة أخرى.

وقد صوّر هذه الخطوة على أنها تضحية كبيرة وغير أنانية، لكن كل من عرف ديكس كان يدرك أنه لم ينتقل إلى تينيسي من أجل مصلحة أسرته، بل كان يسعى إلى حياة استعراضية، مليئة بسيارات الكاديلاك وحفلات لعب الورق ومباريات كرة القدم، والنوادي الليلية في نيو أورلينز، والعطلات في فلوريدا؛ كان يريد حياةً مليئةً بالمشروبات والضحك، وزوجةً تعتني بشعرها دائماً، ومنزلاً شديد النظافة جاهزاً لاستقبال الضيوف في أي لحظة. لكن عائلة ديكس لم تكن مرحلة ولا استعراضية، كانت زوجته وبناته منطويات وغريبات الأطوار يملن إلى الكآبة، والأسوأ من ذلك بسبب ما حدث كان الناس ينظرون إليهم جميعاً حتى إلى ديكس نفسه كأنهم ملوثون بطريقة ما، ابتعد الأصدقاء عنهم،

وتوقفت العائلات عن دعوتهم إلى بيوتهم؛ وكف المعارف عن الاتصال بهم، لم يكن بالإمكان تغيير هذا الواقع، فالناس لا يحبون أن تذكرهم بالموت أو بالأشياء السيئة، ولهذا كله شعر ديكس بأنه مضطر إلى استبدال عائلته بمكتب خشبي أنيق وحياة اجتماعية صاخبة في ناشفيل دون أن يشعر بأدنى ذنب.

على الرغم من أن أليسون كانت مصدر إزعاج لإيدي، فإن خالاتها كنَّ يعشقنها بشدة؛ وكن يرين في صفاتها التي تجدها إيدي محببة دليلاً على الصفاء والهدوء بل حتى على الشاعرية، فبحسب رأيهن لم تكن أليسون «فتاة جميلة» فحسب، بل «فتاة عذبة»... صبورةٌ لا تشتكي ولطيفة مع الحيوانات وكبار السن والأطفال... هذه الفضائل في أعين الخالات كانت تفوق بأشواط أي قدر من الدرجات الجيدة أو الأحاديث الذكية.

كانت خالاتها يدافعن عنها بإخلاص عميق، وذات مرة قالت تات لإيدي بغضب: «أبعد كل ما مرت به هذه الطفلة؟!» كان هذا كافياً لإسكات إيدي مؤقتاً، إذ لم يكن بإمكان أحد أن ينسى أن أليسون والطفلة الرضيعة كانتا وحيدتين في الفناء في ذلك اليوم الرهيب، صحيح أن أليسون كان في الرابعة من العمر فحسب، لكن لم يكن هناك شك أنها رأت شيئاً ربما كان مرعباً إلى حد أضّر بنفسيتها.

خضعت أليسون بعد الحادثة مباشرة لاستجواب دقيق من العائلة والشرطة، هل كان هناك أحد في الفناء؟ شخص بالغ؟ ربما رجل؟ لكن أليسون رفضت الإجابة سواء بنعم أم لا. وعلى

الرغم من أنها بدأت بطريقة غامضة لا تفسير لها تبول في فراشها وتستيقظ ليلاً صارخة من شدة الفزع، فإنها ظلت صامتة. كانت تمص إبهامها، وتحتضن قلبها المحشو، وترفض حتى أن تقول اسمها أو عمرها، لم يتمكن أحد -حتى ليبي ألطف خالاتها وأكثرهن صبراً- من استدراجها إلى قول كلمة واحدة. لا تتذكر أليسون شقيقها، ولم تستطع قطّ تذكر أي شيء عن وفاته، وفي طفولتها كانت تستلقي أحياناً مستيقظة بعد أن يخلد الجميع للنوم، وتحقق إلى الظلال التي ترسمها الأضواء على سقف غرفتها، وتعود بذهنها إلى أقصى ما تستطيع من الماضي، ولكن بحثها كان دائماً عقيماً؛ إذ لم يكن هناك شيء لتجده، كانت ترى حلاوة طفولتها دائماً.. الفناء أمام البيت، وبركة الأسماك، والقط الصغير، وأحواض الزهور، كلها أمور وادعة ثابتة لا شائبة تشوبها، ولكنها إذا عادت بذاكرتها مسافة كافية فسوف تبلغ حتماً نقطة غريبة ترى فيها فناء البيت خالياً، وترى البيت مهجوراً يتردد الصدى فيه، وترى آثاراً واضحة لرحيل أهله منذ وقت قريب (ملابس مفسولة معلقة على الحبل، وأطباق الطعام لا تزال على الطاولة لم يرفعها أحد عنها)، ولكن العائلة كلها ذهبت، اختفت، لا تعلم إلى أين، أما قط رويين البرتقالي الذي كان لا يزال صغيراً جداً، ولم يصبح بعد قطاً ثقيلاً ضخماً مثلما هو الآن.. فقد بدا غريباً وخاوي النظرات وهائجاً، يندفع مجتازاً الممرج، ويتسلق شجرة، ثم يقفز خائفاً منها كأنها شخص غريب. في تلك الذكريات لم تكن أليسون تعرف نفسها عندما تعود راجعة في الزمن، كانت تعرف جيداً تفاصيل المكان المادية التي

جرى فيها ذلك كله.. شارع جورج رقم 363، البيت الذي عاشت طيلة حياتها فيه، ولكنها هي نفسها أليسون غير واضحة ولا مميزة، حتى بالنسبة إليها هي: لم تكن تشعر بأنها طفلة صغيرة ولا رضيعة، بل كانت مجرد نظرة، زوجًا من الأعين يتأمل محيطه المألوف، يفكر فيه دون شخصية أو جسد أو عمر أو ماضٍ كأنها كانت تتذكر أحداثًا وقعت قبل ولادتها.

لم تكن أليسون تفكر في ما مرّت به من أحداث تفكيرًا واعيًا، بل كان ذلك في ذهنها غامضًا وغير مكتمل، في طفولتها لم يخطر ببالها أن تسأل عن معنى تلك الانطباعات التي لم تكن تشكل هيئة واضحة، وحتى مع تقدمها في السن أصبح هذا التفكير أكثر بُعدًا من ذي قبل، ونادرًا ما كانت تتأمل في الماضي، وكانت تختلف في هذا عن أفراد عائلتها الذين لا يكادون يفكرون في شيء سوى الماضي.

وكان هذا ما يعجز جميع العائلة عن فهمه، حتى لو حاولت أن تشرحه لهم، فالعقول مثل عقولهم، العقول التي تهيمن عليها الذكريات دائمًا، العقول التي لا وجود عندها للحاضر أو المستقبل إلا في سياق التكرار المستمر، كانت ترى هذا التوجه في التفكير أمرًا عصيًا على الفهم. فالذاكرة لديهم -تلك الذاكرة الهشة والعجيبة والضبابية التي تحمل إشراقة مميزة- هي الشرارة التي تنبض بالحياة. ولا تكاد تُقال جملة إلا تبدأ باستحضار الذاكرة، فتسأل أمها وخالاتها بلهفة: «ألا تتذكرين تلك القماشة؟ قماشة الباتيسستا الخضراء؟» أو «تلك الزهرة الوردية! وتلك الحلوى بالليمون! ألا تتذكرون عيد الفصح البارد الجميل، عندما كانت

هاربيت طفلة صغيرة، وكنت تبحثين عن البيض في الثلج، وبنيت أرنبًا كبيرًا من الثلج في حديقة بيت أديلاید؟»

تجيب أليسون كاذبة: «أجل، أجل! أتذكر هذا»، فهي بطريقة ما تتذكر ذلك. فقد سمعت تلك القصص مرات كثيرة حتى حفظتها عن ظهر قلب، وأصبحت قادرة على إعادتها متى شاءت، بل إنها أحيانًا تضيف إليها تفصيلًا أو اثنين سقطا في غياهب التكرار المستمر: على سبيل المثال كيف استخدمت مع هاربيت أزهارًا وردية سقطت عن شجرات التفاح القزم التي لسعها الصقيع، وصنعتا منها أنف الأرنب وأذنيه. كانت تلك القصص مألوفة، تمامًا كما كانت قصص أمها مألوفة أيضًا أو تلك القصص المستوحاة من الكتب، ولكن أليسون لم تجد في أي منها ما يرتبط بها أو ما يلامس روحها.

لكن الحقيقة هي أن هناك كثيرًا من الأحداث الرهيبة التي لا تتذكرها أليسون، ولم تعترف بذلك يومًا لأحد، فهي لا تحمل في ذاكرتها أي مشاهد واضحة عن أيامها في روضة الأطفال ولا في الصف الأول، ولا أي شيء يمكنها الجزم به أنه وقع قبل أن تبلغ سن الثامنة، وكان هذا يثير في نفسها شعورًا عميقًا بالخجل، فكانت تحاول إخفاء ذلك عن الجميع، وتتجح في معظم الأحيان. فيما كانت هاربيت على النقيض تدعي أنها تتذكر أحداثًا وقعت قبل أن تكمل عامها الأول.

قالت هاربيت إنها قادرة على تذكر روبين، مع أن عمرها كان أقل من ستة أشهر يوم وفاته، وصدقت أليسون وصدقت العائلة كلها بأن هذا قد يكون أمرًا ممكنًا، ومن حين إلى كانت هاربيت

تروي تفاصيل غامضة، لكنها دقيقة إلى حد يثير الدهشة..
تفاصيل عن الطقس أو الملابس أو أصناف المأكولات في حفلة
عيد ميلاد أليسون قبل أن تنهي عامها الثاني، وكانت هذه
المعلومات تثير دهشة الجميع.

لكن أليسون لم تستطع قط أن تتذكر روبين، وكان هذا أمرًا
لا يُغتفر؛ فقد كانت في الخامسة من عمرها حين توفي، ثم إنها
كانت عاجزة أيضًا عن تذكر المدة التي تلت موته، كانت تعرف
القصة كلها، وتعرف تفاصيلها ولكن ليس لأنها تستعيدها من
ذاكرتها، بل لأنها سمعتها مرارًا وتكرارًا من خالتها تات، التي
كانت ترويها لها عندما تذهب لرؤيتها بعد المدرسة وقت العصر
أيام الشتاء، كانت الخالة تجلس على كرسيها القريب من المدفأة
الغازية في الشتاء، وعيناها الضعيفتان كرزيتا اللون تتطلعان إلى
نقطة بعيدة في الغرفة، وصوتها يهذر بالذكريات كأنها تحكي
حكاية لشخص غير موجود.

كانت الخالة تات تحدثها عن دموعها الغزيرة، وعن دميتهما
التي تشبه الكلب، وعن صمتها العميق، كانت تروي لها كيف
استجوبها المحقق القادم من ممفيس، ذلك الرجل الضخم الذي
يشبه وجهه وجه الجمل وله شعر شاب قبل أوانه (كان اسمه
سنوي أوليفت)، وكيف أراها صورًا لابنته سيليا، وكيف أعطاهما
قطعة من السكاكر بطعم اللوز من علبة كبيرة كانت في سيارته،
وكيف جعلها ترى صورًا لرجال سود ورجال بيض لهم شعر قصير
وأجفان ثقيلة، فيما كانت تجلس على الأريكة المخملية الزرقاء،
تساقط دموعها على وجنتيها وتأكل السكاكر باللوز رافضة أن

تتطوق بكلمة واحدة. (كانت في ذلك الوقت مقيمة عند الخالة تات التي كان لديها طفل رضيع، لأن أمهما لا تزال طريحة الفراش). لكن إيدي ذات العينين الحادتين لم تكن متسامحة أو ذاهلة هكذا، وكانت القصص التي تختار أن ترويها عن أليسون تحمل نبرة رمزية غريبة عادة.

كانت إيدي تروي قصتها وهي تقود السيارة عائدة بأليسون إلى البيت بعد درس البيانو من غير أن تحيد عينيها عن الطريق أمامها وأنفها الدقيق القوي مرتفع في الهواء كمنقار نسر: «كانت شقيقة أُمِّي تعرف ولدًا صغيرًا اسمه راندال سكوفيلد قُتلت أسرته في إعصار، عاد إلى البيت من المدرسة فماذا تظنين أنه رأى؟ كان بيته حطامًا، وكان الزوج الذين يعملون في المكان قد أخرجوا جثث أبيه وأمه وإخوته الثلاثة من تحت الأنقاض، كانوا جميعًا ملقين هناك مغطين بالدماء، لا يوجد ما يسترهم ولا حتى ملءة سرير، كانوا ممددين على جنوبهم واحدًا تلو الآخر كأنهم مفاتيح بيانو، فقد أحد إخوته ذراعه، فيما انفرزت حافة درج معدنية في صدغ الأم، هل تعلمين ماذا حدث لهذا الصبي الصغير؟ أصابه البكم. ظلَّ سبع سنوات لا ينطق بكلمة واحدة، وكان أبي يقول إنه صار يحمل معه قلمًا وعلبًا من ورق الكرتون ليكتب بها كل ما يريد قوله لأي شخص وكان صاحب محل تنظيف الملابس في البلدة قد أعطاه علب الكرتون تلك دون مقابل».

كانت إيدي تحب أن تروي هذه القصة. وكان لها نسخ مختلفة: أطفالٌ أصيبوا بالعمى مؤقتًا أو عضوا ألسنتهم أو فقدوا عقولهم عندما واجهوا مشاهد مروعة متنوعة، كانت تحمل في طياتها نغمة اتهامية خفية لم تتمكن أليسون من تحديدها بدقة.

كانت أليسون تقضي معظم وقتها بمفردها، تستمع إلى الأغاني، وتصنع لوحات من صور قصتها من المجلات، وتصنع شموعاً فوضوية من أقلام الشمع المذابة، كانت ترسم صوراً لراقصات الباليه وخيول وفئران صغيرة على هوامش دفترها الخاص بالهندسة، وفي وقت الغداء كانت تجلس إلى طاولة مع مجموعة من الفتيات ذوات الشعبية، على الرغم من أنها نادراً ما كانت تلتقي بهن خارج المدرسة. من حيث المظاهر كانت واحدة منهن: كانت ترتدي ملابس أنيقة، وبشرتها صافية، وتعيش في منزل كبير في شارع جميل؛ ومع أنها لم تكن مشرقة أو حيوية، فإنه لم يكن هناك ما يكره في شخصيتها.

كانت إيدي لا تفوت أي شيء يتعلق بالديناميكيات الاجتماعية حتى على مستوى الصف العاشر، فقالت لها: «بإمكانك أن تكوني مشهورة جداً إذا أردت، أكثر الفتيات شهرة في صفك، إذا أردت أن تجري».

لكن أليسون لم تكن ترغب في المحاولة؛ ولم تشأ أن تكون موضع سخرة الأطفال أو أن يتعاملوا معها بلؤم. كانت تجد السعادة في البقاء بعيداً عن الإزعاج، وباستثناء إيدي لم يكن أحد يزعجها كثيراً. كانت تقضي ساعات طويلة في النوم، تمشي إلى المدرسة بمفردها، وتتوقف في الطريق لتلاعب الكلاب التي تصادفها. أما في الليل فكانت تراودها أحلام غريبة: سماء صفراء، وشيء أبيض يشبه ملاءة منتفخة، كانت هذه الأحلام تثير في نفسها كريباً شديداً، لكنها كانت تتساها تماماً عند استيقاظها.

كانت أليسون تقضي وقتًا طويلًا مع خالاتها بعد المدرسة أو في عطلات نهاية الأسبوع. كانت تملأ الإبر لهن، وتقرأ لهن عندما تتعب أعينهن، وتصعد السلالم لتجلب الأشياء الموضوعة على الأرفف العالية والمغبرة، وتستمع إليهن عندما يتحدثن عن زملاء المدرسة الذين رحلوا، وعن حفلات البيانو التي أقيمت قبل ستين عامًا، وأحيانًا بعد المدرسة كانت تصنع الحلوى مثل الفدج وزبد البحر وديفينتي لتأخذها الخالات إلى بازارات الكنيسة، كانت تعمل بدقة، وتستخدم قطعة من الرخام البارد ومقياس حرارة، وتتبع الوصفات بحذافيرها مثل صيدلاني ماهر، تسوّي سطوح المحتويات في كؤوس القياس بسكين الزيدة.

كانت خالاتها على الرغم من أعمارهن ما زلن يحتفظن بحيوية طفولية وخدود وردية وشعور متموجة وأرواح مفعمة بالمرح، كن يدخلن ويخرجن من المطبخ بفرح، ينادين بعضهن بأسماء التحبب التي استخدمنها في طفولتهن، كُن يمدحن أليسون بصوت يشبه الغناء:

«يا لها من طاهية صغيرة ماهرة! ما أجملها! أنت ملاك لأنك تأتين لرؤيتنا، يا للفتاة الطيبة! ما أجملها! ما أطيبها!»

أما هاربيت الطفلة الصغيرة فلم تكن جميلة، ولم تكن رقيقة. لكنها كانت ذكية.

منذ أن تعلمت الكلام، كانت هاربيت طفلة صعبة المراس، كانت تلعب بعنف، وتعامل الآخرين بفظاظة، وتجادل إيدي، وتستعير كتبًا من المكتبة عن جنكيز خان ما كان يسبب صدامًا دائمًا لأُمها.

عندما كانت هاربيت في الثانية عشرة من عمرها في الصف السابع، كانت المعلمات يجدن صعوبة كبيرة في التعامل معها على الرغم من تفوقها الدراسي، كنّ يلجأن إلى أمها أو إلى إيدي التي كانت بلا منازع القائد الحقيقي للعائلة والشخص الأكثر تأثيراً فيها.

كانت إيدي بسلطتها المهيمنة المرجع للجميع، لكن حتى هي لم تكن متأكدة من كيفية التعامل مع هاربيت، لم تكن الطفلة عنيدة ولا متمردة، لكنها كانت متعجرفة بطريقة تثير استياء الكبار الذين تتعامل معهم.

لم تكن تمتلك هشاشة شقيقتها الحاملة بل كانت شرسة كغريز صغير، خذاها مستديران، وأنفها حاد، وشعرها أسود قصير وفمها صغير مطبق بإصرار، كانت تتحدث بصوت حاد عالي النبرة، وكانت لكنتها شمالية غربية بالنسبة إلى طفلة من المسيسيبي؛ ما جعل الناس يتساءلون من أين جاءت بلهجتها تلك.

كانت نظرة عينيها الشاحبتين ثاقبة مثل نظرة إيدي، وكان التشابه بينها وبين جدتها لافتاً، ولكن جمال الجدة الذي جمع بين القوة والجاذبية تحول في حفيدتها إلى جمال يحمل ملامح شراسة تثير في النفس شيئاً من الاضطراب.

كان تشيستر الذي يعمل في الفناء يشبههما بحدأة وفرخها. في نظر تشيستر وآيدا ريو، كانت هاربيت مصدراً للتسلية أحياناً، ولكنهما لم يستطيعا إخفاء سخطهما أيضاً. فمنذ أن بدأت الكلام، كانت تلاحقهما أينما ذهبا في البيت أو الحديقة، وتطرح أسئلة لا تنتهي عن كل شيء، مثل: «كم تجني آيدا من

المال؟» و«هل يعرف تشيستر كيف يتلو الصلاة للرب؟» بل تطلب منه أن يتلوها أمامها .

أكثر من مرة كانت السبب في مشادات عائلية كادت تتفاقم إلى خلافات خطيرة: فقد أخبرت أديليد بأن إيدي وتات لا تحتفظان بالوسائد المطرزة التي تهديها لهما، بل تعيدان تغليفها وتقدمانها هدايا للآخرين؛ كما أخبرت ليبي أن مخملات الشبت التي تصنعها ليست لذيذة ولا صالحة للأكل، وأن إقبال الجيران والعائلة عليها يعود إلى فعاليتها الغريبة في قتل الأعشاب الضارة .

قالت بلهجة ساخرة: «ألا تلاحظين تلك البقعة الجرداء في الفناء؟ عند الشرفة الخلفية، حيث رمت تات بضعة مخملات من صنعك منذ ست سنوات، ولم ينبت شيء منذ ذلك الحين» .

لم تكتفِ هاربيت بهذه الملاحظات اللاذعة، بل اقترحت بفكاهة أن تلعب مخملات ليبي وتباع كمبيد للأعشاب الضارة، مؤكدة بثقة أن ذلك سيجعل ليبي من أصحاب الملايين!

انقضت بضعة أيام قبل أن تتوقف الخالة ليبي عن البكاء بسبب هذه التعليقات، لكن الأمر كان أسوأ بكثير بالنسبة إلى أديليد وأغطية الوسائد، فعلى عكس ليبي كانت أديليد تستمتع بالضعيفة، لذا رفضت التحدث مع إيدي وتات أسبوعين كاملين، وتجاهلت كل محاولاتهما للمصالحة وهدايا الفطائر والحلوى التي أحضرتهاا إلى شرفة بيتها، وتركتها لتأكلها كلاب الحي .

كان هذا الشقاق صدمة لليبي التي لم يكن لها أي يد في الخلاف، وكانت الوحيدة المخلصة بما يكفي للاحتفاظ بأغطية الوسائد التي صنعتها أديليد بغض النظر عن قبح تصميمها .

حاولت ليبي بكل وسيلة إنهاء هذا الخلاف، وكادت تنجح في مسعاها، حتى جاءت هاربيت لتثير أدليلايد مجدداً عندما قالت إن إيدي لم تفتح الهدايا التي قدمتها لها أدليلايد قط، بل كانت تزيل بطاقات الإهداء وتعيد تغليفها، وترسلها إمّا إلى جمعيات خيرية وإمّا إلى بعض الزوج.

كان لهذه الحادثة أثر كارثي إلى درجة أن ذكرها حتى بعد مرور سنوات طويلة يكفي لإشعال الاتهامات الخفية والمواقف الحادة، ومنذ ذلك الحين صارت أدليلايد حريصة على اختيار هدايا باهظة الثمن لشقيقتها في المناسبات مثل زجاجات عطر شاليمار أو قمصان نوم فاخرة من متجر غولدسميث في ممفيس، وكانت تنسى عمداً إزالة بطاقات الأسعار.

كانت تقول بصوت عالٍ في نادي البريدج الذي ترتاده: «أنا أحب الهدايا المصنوعة يدوياً»، وتكرر ذلك لتشستر في الفناء عندما تكون شقيقتها منهنكتين في فتح هداياهما الفاخرة، تضيف: «فالهدايا المصنوعة يدوياً تحمل معنى أعمق، فيما بعض الناس لا يهتمون إلا بمقدار ما أنفقته من مال، ولا يرون في الهدية أي قيمة إلا إذا كانت آتية من متجر».

كثيراً ما كانت هاربيت تقول: «تعجبني الأشياء التي تصنعينها، يا أدليلايد» وكانت تعني ذلك، فعلى الرغم من عدم حاجتها إلى أغطية الوسائد أو مناشف الشاي أو مآزر المطبخ فإنها كانت تجمعها حتى أصبح لديها دروج ممتلئة بها في غرفتها، وذلك بسبب تصاميمها المميزة: فتيات هولنديات وأوعية قهوة راقصة ومكسيكيون في قيلولة وعلى رؤوسهم قبعاتهم الواسعة، أعجبتها

تلك الرسوم إلى حد أنها بدأت تسرق هذه الأقمشة من خزائن الآخرين، وغضبت بشدة عندما علمت أن إيدي أرسلت بعضها إلى جمعيات خيرية، مع علمها أنها تريدها، («لا تكوني سخيفة، يا هارييت! بحق الرب، ما حاجتك إلى هذه الأشياء؟»).

كانت أديلaid تهمس بصوت مرتعش لشدة إشفاقها على نفسها، وهي تطبع قبلة مسرحية على رأس هارييت فيما كانت تات وإيدي تتبادلان النظرات خلف ظهرها: «أنا أعلم أنك تحبينها، عزيزتي ربما عندما أرحل يوماً ما ستكونين سعيدة بامتلاك تلك الأشياء». وكان تشيستر يقول لأيدا: «تلك الطفلة تحب أن تثير المشكلات».

وجدت إيدي التي لم تكن تمانع النزاعات في حفيدتها الصغرى منافسة قوية، وعلى الرغم من ذلك، وربما بسبب هذا التحدي، استمتعت بصحبة هارييت التي كانت تقضي وقتاً طويلاً في منزل جدتها، كانت تشكو كثيراً من عناد هارييت وقلة أدبها، وتتذمر من أنها تتعثر بها دائماً، لكن مع ذلك وجدت إيدي أن وجود هارييت أكثر إرضاءً من وجود أليسون، التي لا يكاد يكون لديها ما تقوله، كانت تحب وجود هارييت بجانبها حتى لو لم تعترف بذلك، وتشتاق إليها عندما لا تزورها بعد الظهر.

صحيح أن الخالات أحبين هارييت لكنها لم تكن طفلة حنونة مثل أختها، وكانت كبرياؤها تزعجهن؛ فقد كانت صريحة أكثر مما ينبغي، ولم تفهم قط معنى التحفظ أو الدبلوماسية، وفي هذا الجانب، كانت تشبه جدتها إيدي أكثر مما تدرك جدتها. عيباً حاولت الخالات تعليم هارييت أن تكون مهذبة، قالت لها تات: «ولكن يا عزيزتي، ألا تفهمين أنه حتى لو لم تحبي كعكة

الفاكهة فإن من الأفضل أن تأكلها بدلاً من أن تجرحي مشاعر مضيفتك».

«تقولين هذا لأنك تحبين كعكة الفاكهة».

«أنا لا أحب كعكة الفاكهة يا هاربيت، ولهذا السبب، استخدمتها مثلاً».

«ولكن كعكة الفاكهة فضيحة، ولا أعرف أحداً يحبها، وإذا قلت لها إنني أحبها، فسوف تواصل تقديمها لي».

«صحيح يا عزيزتي، ولكن الفكرة ليست هنا، بل الفكرة أنه إذا بذل شخص ما جهداً ليطهو لك شيئاً، فمن الأدب أن تأكله حتى لو لم يعجبك».

«ينهانا الإنجيل عن الكذب».

«هذا أمر مختلف؛ إنها كذبة بيضاء، والإنجيل يتحدث عن نوع آخر من الأكاذيب».

«لا يتحدث الإنجيل عن كذبات بيضاء وسوداء، هو يقول كذبات فقط».

«صدقيني يا هاربيت، صحيح أن يسوع يأمرنا ألا نكذب، ولكن لا يعني هذا أن نكون وقحين مع مضيفينا».

«لا يقول يسوع أي شيء عن المضيفين، بل يقول إن الكذب خطيئة، ويقول إن الشيطان كاذب، وإنه أمير الكذب».

«قالت ليبي وقد استبدت بها الحماسة، فتولت الكلام بدلاً من تات التي لم يعد لديها شيء تقوله: «ولكن يسوع يقول: أحب جارك، أليس هذا صحيحاً؟ ألا يعني هذا مضيفتك؟ مضيفتك يعني جارتك».

قالت تات: «هذا صحيح»، ثم أضافت بسرعة: «ولكن مضيقتك قد لا تعيش بالضرورة في بيت مجاور، ما يعنيه حب الجار هو أن تقبلي ما يُقدم إليك وتكوني شاكراً».

«لا أرى لماذا يعني حب جاري أن أقول له إنني أحب كعكة الفاكهة فيما أنا لا أحبها».

لم يكن لدى أي شخص حتى أيدي أي فكرة عن كيفية الرد على هذه الحجة المتمتزة، يمكن أن تستمر في الحديث معها ساعات. وليس يهم إذا تحدثت حتى يتحول لون وجهك إلى الأزرق، والأكثر إثارة للضيق هو أن حجج هاربيت على الرغم من غرابتها كانت تستند إلى الكتاب المقدس.

لم يؤثر ذلك في أيدي، فمع أنها كانت تقوم بأعمال خيرية وتبشيرية وتغني في جوقة الكنيسة، فإنها لم تكن تؤمن بأن كل كلمة في الكتاب المقدس صحيحة، بل إنها في بعض الحالات كانت تؤمن بأن بعض أقوالها المأثورة أكثر صحة: مثل أن كل ما يحدث في هذه الحياة هو دائماً خير، أو أن الزنوج في أعماقهم مثلهم مثل البيض تماماً، لكن الخاليتين (ليبي خاصة) كانتا تشعران بالقلق إذا فكرتا كثيراً في ما تقوله هاربيت، كانت تلاعباتها تستند بلا شك إلى الكتاب المقدس، لكنها تناقضت مع الفطرة السليمة وكل ما هو صحيح.

قالت ليبي بقلق بعد أن غادرت هاربيت لتناول العشاء: «ربما لا يرى الرب اختلافاً بين كذبة بيضاء وكذبة شريرة، ربما تكون الأكاذيب كلها شريرة في نظره».

«ماذا بك يا ليبي؟»

«لعل الرب يذكرنا بذلك من خلال طفلة صغيرة».

قالت إيدي التي كانت شاردة الذهن في أثناء الحديث السابق:
«أفضل الذهاب إلى الجحيم على أن أضطر إلى إخبار كل شخص
رأيت فيه».

صاحت شقيقاتها معاً: «إيديث».

«إيديث أنت لا تعنين هذا».

«بل أعنيه، ولا يهمني ما يعتقد الناس عني».

قالت أديليد الواثقة من صلاحها: «يا إيديث، لا أستطيع أن
أتخيل أنك فعلت شيئاً يجعلك تعتقدين أن الجميع ينظرون إليك
بسوء».

كانت خادمة ليبي أودين التي تتظاهر بأن سمعها ثقيل مصفية
إلى هذا الحديث إصغاء شديداً، وهي في المطبخ تسخن حساء
الدجاج والخبز من أجل عشاء السيدة العجوز، لم يكن هناك كثير
من الأحداث المثيرة في منزل ليبي، ولكن المحادثة تكون عادة
أكثر حدة في الأيام التي تزورها فيها هاربيت.

على عكس أليسون التي كان الأطفال الآخرون يقبلونها دون
تفكير، كانت هاربيت فتاة متسلطة لا تحظى بشعبية كبيرة.
أصدقاءها لم يكونوا مجرد معارف عابرين على غرار أصدقاء
أليسون؛ بل كانوا أولاداً أصغر منها سناً، مخلصين لها إلى حد
الجنون، يقطعون مسافات طويلة بالدراجات ويأتون لرؤيتها بعد
المدرسة. كانت تفرض عليهم لعب أدوار من مشاهد تاريخية مثل
الحملات الصليبية وقصة جوان دارك، وتجعلهم يرتدون أغطية
الأسرة لتجسيد مشاهد من العهد الجديد، وكانت تأخذ هي دور
يسوع.

كان مشهد «العشاء الأخير» المفضل لدى هاربيت. كانوا يجلسون إلى جانب واحد من طاولة النزهة، كما في لوحة ليوناردو، تحت تعريشة مزينة بأغصان العنب في حديقة منزلها، يتناولون عشاءهم الأخير المكون من مقرمشات مالحة وفانتا بنكهة العنب وينتظرون اللحظة التي تخاطبهم فيها بعد أن تجول بعينها حول الطاولة وتحقق إلى كل واحد منهم بضع ثوان، لتقول بعد ذلك بهدوء يثير نشوتهم: «ولكن أحدكم سيخونني الليلة». فيهتفون مسرورين: «لا لا لا» حتى هيلي الذي كان يؤدي دور يهوذا كان يصيح معهم: «لا سمح الله!»، كان المفضل لدى هاربيت، لذا حصل على فرصة لعب دور يهوذا بالإضافة إلى جميع التلاميذ المميزين الآخرين: مثل القديس يوحنا والقديس لوقا والقديس بطرس.

وبعد ذلك، كانوا ينطلقون في موكب إلى الجثمانية، التي اختير مكانها تحت شجرة التوبيلو السوداء في فناء منزلها، ليشهدوا مشهد قبض الرومان على هاربيت التي تلعب دور يسوع. كان المشهد صاخباً وعنيفاً، يختلف عن الرواية الإنجيلية، ولكنه كان يثير الحماس بشكل خاص لأنه يقع تحت الشجرة التي سُنق شقيقها عليها.

وقعت الجريمة قبل مولد معظم أولئك الأولاد، ولكنهم يعرفون تلك القصة جميعاً، وقد جمعوا تفاصيلها من شذرات أحاديث الكبار أو حكايات أشقائهم الأكبر سنّاً ليلاً بعد أن يطفئوا أنوار غرفتهم، وقد ألقت الشجرة بظلالها الكثيفة على مخيلاتهم منذ أول مرة حذرتهن فيها مربياتهم منها في طفولتهم، كانت المربيات

يقفن عند ناصية شارع جورج ويعصرن أيديهن ويشرن إلى الشجرة بحذر وريبة.

كان الناس يتساءلون عن سبب بقاء هذه الشجرة مكانها؛ فقد كانوا يرون أنه يجب قطعها... ليس بسبب رويين فقط، بل لأنها بدأت تذبل وتموت من الأعلى، وقد برزت أغصانها الرمادية الكثيبة المتكسرة فوق أوراقها الجافة كأن صاعقة ضربتها، في الخريف تتحول إلى لون أحمر متوهج رائع، وتبدو جميلة بضعة أيام قبل أن تسقط جميع أوراقها فجأة وتصبح عارية.

عندما تثبت أوراقها مجدداً، تكون لامعة كأنها مصنوعة من جلد، وداكنة لدرجة تقارب السواد، وتلقي بظلال كثيفة تمنع نمو العشب تحتها. بالإضافة إلى ذلك كانت كبيرة جداً وقريبة جداً من المنزل، لدرجة أن اختصاصي الأشجار حذر شارلوت من خطر سقوطها على المنزل إذا هبت عاصفة قوية.

قال الرجل لمساعدته وهو يعود إلى شاحنته ويغلق الباب بعنف: «ولا تنسَ ذلك الطفل، كيف تستطيع تلك المرأة المسكينة أن تستيقظ كل صباح وترى تلك الشجرة في حديقته؟»

حتى إن السيدة فاونتين عرضت دفع تكلفة قطع الشجرة، مدعية أن قريبها يمثل خطراً على منزلها، وقد كان هذا استثنائياً لأن السيدة فاونتين بخيلة جداً لدرجة أنها كانت تغسل رقائق القصدير القديمة وتعيد استخدامها، ولكن تشارلوت اكتفت بأن هزت رأسها وقالت لها: «لا، أشكرك، يا سيدة فاونتين»، قالت هذا بطريقة غريبة جداً جعلت السيدة فاونتين تشك في أنها فهمت ما قالته لها.

صرخت السيدة فاونتين بانفعال: «أقول لك إنني أعرض عليك أن أدفع تكلفة ذلك! يسرني أن أدفع! الشجرة خطيرة على بيتي أيضًا، وإذا ضرب إعصار، و...».

«لا، شكرًا!»

لم تكن تنظر إلى السيدة فاونتين، ولا حتى إلى الشجرة حيث تأكل العرزال القديم الذي كان بناء روبين في أعلى أحد فروعها. كانت تنظر إلى الجانب الآخر من الشارع خلف رقعة الأرض الخالية حيث تنمو أعشاب طويلة، وكانت عيناها تنظران إلى البعيد، إلى حيث تظهر سكة القطار الكثيبة من خلف السقوف الصدئة في حي الزنوج.

قالت السيدة فاونتين بنبرة مختلفة: «أقول لك، أقول لك يا سيدة تشارلوت، تظنين أنني لا أعلم، ولكني أعلم كيف تكون خسارة ابن، ولكن هذه مشيئة الرب، وعليك قبولها»، شجعها صمت تشارلوت فتابعت: «على الأقل لديك أطفال آخرون، أما أنا فابني لينزي المسكين كان ما لدي. كل يوم أستعيد ذكرى ذلك الصباح عندما وصلني الخبر بأن طائرته أُسقطت، كنا نستعد لاستقبال عيد الميلاد، كنت أقف على السلم مرتدية ملابس النوم أحاول تعليق حبل الزينة من الثريا، عندما سمعت طرقًا على الباب، كان الآتي بورتر، فليبارك الرب قلبه... كان هذا بعد إصابته بالنوبة القلبية الأولى، ولكن قبل نوبته الثانية...».

اختنق صوتها ونظرت إلى تشارلوت، ولكن تشارلوت استدارت وسارت مبتعدة عن السيدة فاونتين باتجاه المنزل.

كان ذلك منذ سنوات، وحتى اليوم لا تزال الشجرة في مكانها، فيما البيت الخشبي الصغير يواصل تحلله بين أغصانها، لم تعد السيدة فاونتين تُبدي الود ذاته حين تلمح تشارلوت، ذات مرة قالت للسيدات الجالسات في صالون السيدة نيلي التي كانت منهنمكة بتصفيف شعرها: «هي لا تهتم أبداً بأي واحدة من هاتين البنيتين... والبيت هناك مليء بالقمامة، لو ألقيتم نظرة من النوافذ لوجدتم الصحف مكدسة تكاد تلامس السقف».

ردت السيدة نيلي ذات الوجه الثعلبي، وهي تمد يدها لتلتقط زجاجة مثبت الشعر فيما تنتظر إلى السيدة فاونتين عبر المرأة: «أظن أنها تشرب قليلاً بين الحين والآخر».

هزت السيدة فاونتين رأسها قائلة: «لن يفاجئني هذا على الإطلاق».

عندما كانت السيدة فاونتين تصرخ على الأطفال من شرفة منزلها لطردهم، كانوا يهربون مسرعين، ثم يحكون قصصاً عنها، يقولون إنها تخطف الأطفال الصغار وتأكلهم، وإن حوض الأزهار في حديقته -ذلك الحوض الذي فاز بجائزة- كان مسمداً بعضاهم المطحونة. ثم إن القرب من منزل السيدة فاونتين حيث تحدث تلك «الأهوال»، جعل إعادة تمثيل حادثة القبض على يسوع في فناء منزل هاربيت أكثر تشويقاً، ومع ذلك على الرغم من نجاح بعض الأولاد أحياناً في إخافة بعضهم بحكاياتهم عن السيدة فاونتين، فإنهم لم يكونوا بحاجة إلى تلك القصص للخوف من الشجرة، ففي تلك الشجرة نفسها ما يكفي لإثارة القلق: ظلها الكثيف الخانق الذي لا يبعد سوى خطوات عن المرج اللامع كان

يثير الهلع في النفس، حتى لمن لم يعرف شيئاً عن تاريخها. كانت الشجرة بحد ذاتها تذكيراً دائماً بما حدث هناك؛ إذ كانت تتمتع بهيبة وسلطة، وكانت تحمل في أعماقها ظلمة مقلقة.

نتيجة موت روبيين، عانت أليسون من مضايقات فظة في سنواتها الأولى في المدرسة («ماما، ماما، هل تسمحين لي بالخروج، واللعب مع أخي؟»، «بالتأكيد لا، فقد نبشت قبره ثلاث مرات هذا الأسبوع!»)، تحملت أليسون تلك المضايقات بصبر وصمت (لم يدر أحد كم تستطيع الاحتمال، وإلى متى؟) إلى أن أتى يوم اكتشفت معلمة لطيفة ما يحدث، فوضعت حداً لتلك المضايقات.

ولكن هاربيت نجت من ذلك الاضطهاد، ربما بسبب شخصيتها القوية والمتحدية، أو ربما لأن زملاءها في الصف كانوا أصغر سناً ولا يتذكرون تلك الجريمة، أضفت المأساة التي حلت بعائلتها هالة غامضة عليها، وجعلتها لا تقاوم في نظر الأولاد، كانت تتحدث كثيراً عن شقيقها الميت بمكابرة غريبة وعناد يوحي ليس فقط بأنها كانت تعرف روبيين، بل أنه لا يزال على قيد الحياة، ففي بعض الأحيان كان الأولاد يشعرون كأن هاربيت هي روبيين نفسه، طفل عاد من قبره، عارف بأمور غامضة، ويشعرون بنظرة أخيها الميت من خلال الدم المشترك بينهما.

في الواقع ومع أن أحداً منهم لم يظن إلى ذلك، لم يكن هناك شبه كبير بين هاربيت وشقيقها حتى في الصور الفوتوغرافية. روبيين السريع والمفعم بالحيوية والمراوغ كسمكة صغيرة، كان بعيداً تماماً عن ميل هاربيت إلى التأمل وجديتها الجافة، لقد

كانت قوة شخصيتها الفريدة هي التي أسرتهم وجذبتهم، وليس أي شيء متعلق به.

لم ينتبه الأولاد إلى المفارقة ولا إلى التشابه القاسي بين المأساة التي يعيدون تمثيلها في الظلمة تحت شجرة التوبيلو الصمغية السوداء والمأساة الحقيقية التي وقعت هناك قبل اثني عشر عامًا، وكان هيلي في انشغال شديد فقد لعب دور يهوذا الإسخريوطي الذي سلم المسيح (هاريت) للجنود الرومان، لكنه أيضًا (بصفته القديس بطرس هذه المرة) قطع أذن واحد من الجنود دفاعًا عنها، وراح يحصي بسرور وتوتر ثلاثين حبة من الفستق المسلوق نالها لقاء خيانتة مخلصه.

بلل شفثيه برشفة إضافية من مشروب الفانتا بنكهة العنب، في حين كان الأولاد الآخرون يلكزونه ويدفعونه كي ينقذ هاريت؛ كان عليه أن يقبلها على خدها، لكنه قبلها على فمها مدفوعًا بتشجيع الحواريين الآخرين، وكانت صرامتها وجديتها عندما مسحت قبلته عن فمها بظاھر يدها بتعبير يمزج بين الاشمئزاز والاحتقار مصدر نشوة له أكثر من القبلة نفسها.

كانت للأشكال الغامضة لهاريت وحوارييها حضور غريب في الحي، وأحيانًا كانت آيدا ريو تنظر من خلال النافذة التي فوق المجلى فتفاجئها غرابة ذلك الموكب الصغير وهو يسير بخطواته المهيبة عبر الحديقة، لم تكن ترى هيلي وهو يتحسس حبات الفول السوداني في أثناء مشيه، ولا ترى حذاءه الرياضي الأخضر تحت الرداء، ولا تسمع تذمر التلاميذ الآخرين من عدم السماح لهم بجلب مسدساتهم (مسدسات الأطفال) للدفاع عن يسوع.

أثار في نفسها رتل الأطفال الصغار المرتدين ملءات بيضاء يجرونها خلفهم على العشب شعوراً بالعجب وإحساساً بالشؤم، كأنها امرأة تغسل الملابس في فلسطين في ذلك الوقت، وقد غطست ذراعيها حتى المرفقين في ماء البئر القذر، ثم توقفت عن عملها لحظة في غسق عيد الفصح اليهودي كي تمسح جبهتها بظهر رسفها، وتتنظر بحيرة إلى ثلاثة عشر شخصاً يرتدون قلانس فوق رؤوسهم ويسيرون في الطريق الترابية نحو كرم الزيتون المسور عند قمة التل.. كانت خطورة مهمتهم واضحة في مشيتهم البطيئة الجادة، ولكن طبيعة تلك المهمة لا تستطيع تخيلها: لعلها جنازة! عيادة مريض أم محاكمة أم احتفال ديني؟ أمر مقلق مهما تكن حقيقته، مقلق إلى حد يأسر انتباهها بضع لحظات، ولكنها تعود إلى عملها دون أن تدري أن هذا الموكب الصغير كان في طريقه نحو حدث سيهز التاريخ.

سألت آيدا هاربيت عندما عادت ودخلت البيت: «لماذا تصرّون دائماً على اللعب تحت تلك الشجرة البغيضة؟» أجابت هاربيت: «لأن ذلك الموضع أكثر الأمكنة حلقة وظلمة».

مذ كانت صغيرة، كان لديها اهتمام شديد بعلم الآثار: بالتلال الهندية وخرائب المدن والكنوز المدفونة، بدأ شغفها باهتمامها بالديناصورات أول الأمر، ثم تحوّل شيئاً فشيئاً إلى شأن آخر، وحين بلغت من العمر ما يكفي لتفهم دوافعها، استبان لها الحقيقة: ما أثار اهتمامها لم يكن الديناصورات ذاتها (البرونتوسوروس ذو الذيل الطويل الذي تراه في أفلام الرسوم

المتحركة يوم السبت يسمح للناس امتطاء ظهره، أو يخفض رقبتة الطويلة بوداعة لينزلق عليها الأطفال، ولا حتى تلك الديناصورات اللاحمة المخيفة التي تسمعها تصرخ في كوابيسها)، بل حقيقة أنّ هذه المخلوقات قد انقرضت من الوجود.

مرّةً سألت إيدي التي سئمت سماع كلمة ديناصور: «لكن كيف عرفوا شكلها؟»

«لأن الناس عشروا على عظامها».

«إذا عثرت على عظامك يا إيدي، لما استطعتُ تخيّل ملامحك».

لم تُجِب إيدي؛ فقد كانت مشغولة بتقشير الدراق.

«انظري هنا، يا إيدي! انظري! يقولون هنا إنهم لم يعثروا سوى على عظم ساق واحدة»، وصعدت على كرسي صغير، وحملت الكتاب أمامها بيد واحدة منتظرة إجابة.. «وها هي ذي صورة الديناصور كاملة».

قاطعتها ليبي وقد انحنت فوق طاولة المطبخ تزيل نوى الدراق: «ألا تعرفين تلك الأغنية، يا هاربيت؟»، وراحت تغني بصوت مرتجف: «عظم الركبة متصل بعظم الساق... وعظم الساق متصل بعظم...».

«كيف علموا شكل الديناصور من عظمه؟ كيف علموا أن لونه أخضر؟ إنه أخضر في هذه الصورة، انظري، انظري، يا إيدي».

قالت إيدي بنفاد صبر: «إنني أنظر» لكنها في الحقيقة لم تنظر.

«لا، أنت لا تنظرين».

«رأيت ما يكفيني».

بعد أن كبرت هاربيت قليلاً وصارت في التاسعة أو في العاشرة انتقل شغفها من الديناصورات إلى علم الآثار، وفي هذا المجال وجدت في خالتها تات شريكة لها وإن كانت شريكة مزعجة؛ ذلك أنّ تات التي درّست اللغة اللاتينية ثلاثين عاماً في ثانوية البلدة، استحوذ عليها بعد تقاعدها ولعّ بأحجيات العالم القديم، وصارت تؤمن بأنّ كثيراً من تلك الألغاز مرده إلى قارة أتلانتيس الغامضة، فكانت تات تزعم أنّ أهل أتلانتيس شيّدوا الأهرامات، ونصبوا صخور المونوليث في جزيرة عيد الفصح، وأن الجماجم المثقوبة التي عُثِر عليها في جبال الأنديز تدل على معرفة علمية متقدمة لأهل أتلانتيس، وكذلك البطاريات الكهربائية القديمة في مدافن الفراعنة. كانت رفوف مكتبة تات تغطّ بالكتب العلمية الزائفة التي شاعت أواخر القرن التاسع عشر، وقد ورثت تلك الكتب عن أبيها الذي كان متعلماً ولكنه ساذج، كان قاضياً مرموقاً ولكنه أصيب بالخرف في شيخوخته وأمضى آخر سنوات حياته مرتدياً بيجامته وهو يحاول الفرار من غرفة نومه، وكانت في مكتبته التي تركها لثاني أصغر بناته تيودورا (التي كان يدعوها تاتيكورم، تات تصغيراً) كتب من قبيل «جدل ما قبل الطوفان»، و«عوالم غير عالمنا»، و«مو: حقيقة أم خيال؟»

لم تكن شقيقات تات ميالات إلى هذا النوع من الكتب، فقد رأت فيها أدبلايد وليبي أمراً مناقضاً للمسيحية، وعدّته إيدي ضرباً من الحماقة.

قالت ليبي: «إن كانت هناك حقًا قارة تُدعى أتلانتيس، فلم لا يرد ذكرها في العهد القديم؟»، وتغضن حاجباها في براءة. فأجابت إيدي بحدّة: «لأن مدينة أتلانتا لم تكن قد بنيت بعد، فأتلانتا عاصمة ولاية جورجيا، وقد أحرقها شيرمان في الحرب الأهلية⁽¹⁾».

«أوه، يا إيديث! لا تكوني عدوانية...».

قالت تات: «أهل أتلانتيس أسلاف المصريين القدامى».

قالت أديلايد: «لا بأس! ها نحن أولاء هنا، فالمصريون القدامى لم يكونوا مسيحيين، بل كانوا يعبدون القطط والكلاب، وأشياء من هذا القبيل».

«لم يكن ممكناً أن يكونوا مسيحيين يا أديلايد، فلم يكن المسيح قد وُلد بعد».

«ربما، لكن موسى وبقية قومه كانوا على الأقل ملتزمين بالوصايا العشر، ولم يعبدوا قط القطط أو الكلاب».

قالت تات بتعجرف رافعة صوتها فوق ضحكات أختيها: «أهل أتلانتيس كانوا يعلمون أمورا كثيرة، سيرغب العلماء في العصر الحديث في التوصل إليها اليوم، كان والدي يعرف عن أتلانتس، وكان مسيحياً صالحاً ومتعلماً أكثر منا جميعاً في هذه الغرفة».

(1) تسخر إيدي هنا من فكرة أطلانتس الأسطورية بخلطها المتعمد مع مدينة أتلانتا الواقعية، عاصمة ولاية جورجيا، التي أحترقت خلال الحرب الأهلية الأمريكية على يد الجنرال شيرمان.

تمتعت إيدي: «بابا! كان بابا يوقظني من النوم في الليل قائلاً إن القيصر فيلهلم⁽¹⁾ قادم ويجب إخفاء الفضيات في البئر».

«إيديث!»

«يا إيديث، هذا غير صحيح، لقد كان مريضاً حينها، فكيف تقولين هذا عن والدك الذي كان حنوناً معنا جميعاً».

«لا أقول إن بابا لم يكن رجلاً صالحاً يا تاتي، ما أقوله هو أنني أنا من كنت أُرعاه وأعتني به».

قالت أديليد: «كان أبي يعرفني دائماً...» كانت أصغرهن، وكان الجميع يعتقد أنها المفضلة لديه، لذا فهي لا تفوت فرصة تذكير شقيقاتها بذلك، أكملت: «ظل يذكرني حتى آخر لحظة من حياته. في يوم وفاته أمسك بيدي وقال: «أديليد، يا حبيبتي، ماذا فعلوا بي؟» لا أعلم أبداً كيف صرت الوحيدة التي يستطيع أن يتعرف عليها، كان ذلك أمراً غريباً».

كانت هارييت تجد متعة كبيرة في تصفح كتب تات، التي لم تقتصر على كتب أتلانتيس فقط، بل ضمت أيضاً أعمالاً مهمة، مثل كتب التاريخ لجيبون وريدباث بالإضافة إلى مجموعة من الروايات الرومانسية ذات الأغلفة الورقية، التي تدور أحداثها في عصور قديمة، مع صور ملونة لمصارعين من أيام الرومان على أغلفتها.

(1) القيصر فيلهلم الثاني؛ إمبراطور ألمانيا وملك بروسيا من عام 1888 حتى نهاية الحرب العالمية الأولى في عام 1918، يعني ذكره هنا أن والد إيديث كان لديه خوف دائم من تهديد خارجي يجب أخذ الاحتياطات منه كإخفاء المقتنيات الثمينة في البئر.

قالت تات شارحة: «بالطبع، هذه ليست أعمالاً تاريخية بالمعنى الدقيق، بل هي مجرد قصص خفيفة لها خلفية تاريخية، لكنها مسلية جداً وتعليمية أيضاً. كنت أقدمها للطلاب في المدرسة الثانوية لأشجعهم على الاهتمام بعصر الرومان، وأعتقد أنه لم يعد بالإمكان فعل شيء مماثل في وقتنا الحالي بالنظر إلى نوعية الكتب التي تُؤلف اليوم، لكنها روايات صغيرة وملائمة للشباب، لا تشبه القمامة التي نراها الآن» ثم مررت إصبعها -التي تبدو مفاصلها الملتهبة ضخمة- على صف من الكتب المتماثلة، وأضافت: «كتاب العاصفة لمونتغمري، أظن أنه كان يُؤلف روايات عن فترة ريجنسي⁽¹⁾ أيضاً، وينشرها تحت اسم مستعار، اسم امرأة، لكنني لا أستطيع تذكره».

لم تكن هاربيت مهتمة قط بقصص المصارعين الرومان، إذ كانت تلك الروايات لا تعدو كونها قصص حب ترتدي ثوباً رومانياً، كانت تمقت كل ما يتعلق بالحب أو الرومانسية، أما الكتاب المفضل لديها من بين كتب تات، فكان مجلداً ضخماً بعنوان «بومبي وهيركولانوم: المدينتان المنسيتان»⁽²⁾، الذي تضمن صوراً كبيرة وملونة.

(1) تشير إلى حقبة تاريخية في بريطانيا تُعرف باسم فترة الوصاية على العرش. تمتد من عام 1811 إلى 1820 حين كان الأمير جورج، أمير ويلز، وصياً على العرش نيابة عن والده الملك جورج الثالث الذي كان غير قادر على ممارسة مهامه الملكية بسبب المرض، تعتبر هذه الفترة ذات أهمية ثقافية وتاريخية، شهدت تطورات كبيرة في الفنون والأدب والعمارة والمجتمع.

(2) كتاب تاريخي يتناول المدينتين الرومانيتين القديمتين بومبي وهيركولانوم، اللتين دمرتا في عام 79 ميلادي بسبب ثوران بركان فيزوف. هذه المدينتان كانتا جزءاً من الإمبراطورية الرومانية، ودفتتا تحت طبقات من الرماد البركاني ما حفظ آثارها بشكل شبه كامل لآلاف السنين حتى اكتشفتا في العصر الحديث.

كان تات تسعد كثيرًا عندما تجلس مع هاربيت على أريكتها
تقلبان معًا صفحات هذا الكتاب، تمرّان على اللوحات الجدارية
الدقيقة التي كانت تزين قصورًا صارت أطلالًا، وعلى صور
محلات الخبازين التي بقيت على حالها بما فيها من خبز وأشياء
أخرى، والتي ظلت مدفونة تحت خمسة عشر قدمًا من الرماد
البركاني. كانتا تتأملان آثار أجساد رمادية بلا وجوه لأناس
رومانيين تكورت أجسادهم في وضعيات تحمل ألمًا دفينًا، تلك
الوضعيات التي اتخذوها لحظة وفاتهم قبل ألفي عام حين دُفِنوا
على الأرصفة تحت وابل من الحمم البركانية.

قالت تات: «لا أفهم لماذا لم يدرك هؤلاء المساكين أنه كان
عليهم مغادرة المدينة قبل ذلك، أظن أنهم لم يكونوا يعرفون
حينها ما معنى كلمة بركان، أظن الأمر كان مشابهًا لما حدث
عندما ضرب إعصار كامبي⁽¹⁾ ساحل الخليج؛ فقد رفض كثير
من الأغبياء الرحيل حين جرى إخلاء المدينة، وظلّوا يشربون
في فندق بونا فيستا كأن ما يحدث حفلة من حفلاتهم المجنة.
دعيني أخبرك، يا هاربيت، لقد ظلّوا ثلاثة أسابيع يجمعون
الجثث عن الأشجار بعد انحسار المياه، لم يبق حجر على حجر
في فندق بونا فيستا. أنت لا تستطيعين تذكر فندق بونا فيستا،
يا عزيزتي، كانت صور الحوريات مطبوعة على كؤوسهم».

قلبت الصفحة، وأضافت: «انظري! هل ترين هذا التمثال لكلب
مات في تلك الكارثة؟ لا يزال في فمه قطعة خبز. قرأت في

(1) إعصار كامبي؛ إعصار قوي جدًا ضرب ساحل خليج المكسيك في الولايات
المتحدة الأمريكية في عام 1969.

مكان ما قصة حزينة عن هذا الكلب نفسه. في القصة كان مالك الكلب صبيًا متسولاً من بومبي، وكان الكلب يحبه كثيرًا فمات وهو يحاول أن يحضر للصبي طعامًا قبل أن يهربا من المدينة. أليس هذا محزنًا؟! بالطبع، لا يمكننا التأكد من صحة القصة، ولكن من المحتمل جدًا أن تكون حقيقية.»

«لعل الكلب أراد هذا الخبز لنفسه.»

ردت تات: «أشك في ذلك. أظن أن الطعام كان على الأرجح آخر ما يخطر ببال المخلوق المسكين مع كل هؤلاء الناس الذين يركضون ويصرخون فزعًا تحت الرماد المتساقط في كل مكان.»

ومع أن تات تشارك هاريت اهتمامها بحياة الناس في تلك المدن المدفونة، فإنها لم تفهم ما الذي يجعل هاريت مفتونة حتى بأبسط الأشياء في تلك الخرائب وأقلها إثارة: أدوات طعام متكسرة، وشظايا من أوانٍ رخيصة، وقطع متأكلة من معدن لا قيمة له، لم تكن تات تدرك أن هوس هاريت بهذه النتف والشظايا كان مرتبطًا بتاريخ عائلتها.

كان آل كليف في الماضي أكثر ثراءً مما هم عليه الآن، مثلهم في ذلك مثل معظم العائلات في ولاية ميسيسيبي، وعلى غرار مدينة بومبي التي اختفت، لم يبقَ من تلك الثروات سوى آثارها، يحب أولئك الناس أن يرووا فيما بينهم قصصًا عن ثرائهم المفقود، وكان بعضها صحيحًا بالفعل، فقد سرق الشماليون (اليانكي) بعض ما كان لدى آل كليف من فضة ومجوهرات، لكن ما سرقوه لم يكن تلك الكنوز الضخمة التي تتحسر عليها الشقيقات، خرج القاضي كليف من الانهيار المالي في عام 1929

مدمرًا، وبعد أن أصابه الخرف أقدم على استثمارات كارثية، إذ استثمر كل مدخراته في مشروع مجنون لبناء «سيارة المستقبل»، سيارة قادرة على الطيران، وقد اكتشفت بناته المحبطات بعد وفاته أنه كان أكبر المساهمين في الشركة المنهارة.

أصبح من الضروري بيع البيت الكبير الذي ظل ملكًا لعائلة كليف منذ بنائه في عام 1809، كان بيع البيت أمرًا عاجلاً لتسديد الديون المتراكمة على القاضي، لا تزال الشقيقات في حداد على ذلك البيت، فقد ترعرعن فيه كما ترعرع القاضي نفسه ووالدته وجده وجدته، والأسوأ من ذلك أن الشخص الذي اشترى البيت منهم سارع في بيعه لشخص آخر حوله إلى دار للمتقاعدين، ثم عندما فقدت دار المسنين ترخيصها تحولت إلى شقق للرعاية الاجتماعية. وبعد ثلاث سنوات من موت روبين، شب فيه حريق دمره بالكامل، قالت إيدي بمرارة: «لقد نجا من الحرب الأهلية، ولكن الزوج استولوا عليه في النهاية».

في الحقيقة، إن القاضي كليف هو من دمر ذلك البيت، وليس «الزواج»، فقد أهمل القاضي إجراء أي إصلاحات فيه طوال سبعين عامًا، وقبل ذلك أهملته أمه أربعين عامًا أخرى، كانت الأرضيات متعفنة حين توفي، وأساسات البيت قد التهمها النمل الأبيض، وكان المبنى كله على وشك الانهيار، ومع ذلك ما زالت الشقيقات يتذكرن ورق الجدران المصنوع يدويًا بلونه الأزرق الفاتح المزخرف بالورود، ذلك الورق الذي أرسل من فرنسا، وواجهة الموقد المرمرية المنقوش عليها رسومات أفعوانية، وثريا الكريستال المشغولة يدويًا في بوهيميا، والسلم

المزدوج الذي كان مصممًا لإقامة حفلات مختلطة: سلم للنساء وآخر للرجال، والجدار الذي يفصل الطابق العلوي إلى قسمين حتى لا يستطيع الشبان الأشقياء التسلل إلى جناح البنات في منتصف الليل، لكن الشقيقات نسين أن سلم الرجال (الذي يقع إلى الجهة الشمالية) كان قد مضى عليه خمسون عامًا دون أن يشهد أي حفلة واحدة، كما نسين أن ذلك السلم قد أصبح مهدمًا وغير صالح للاستخدام، وأن غرفة الطعام قد احترقت وتحولت إلى حطام بعدما حاول القاضي الخرف إشعال مصباح بارافين، ونسين أيضًا أن الأرضيات أصبحت مغطاة بالרטوبة، وأن الماء كان يتسرب من السقف، وأن درجات الشرفة الخلفية انهارت عام 1947 تحت ثقل رجل من شركة الغاز جاء لتسجيل قراءة العداد، كما نسين أن ورق الجدران الجميل كان قد تساقط تاركًا وراءه مساحات واسعة رطبة مكشوفة تشبه محار البحر.

والغريب أن البيت كان يحمل اسم «تريبوليوشن»⁽¹⁾، وقد أطلق عليه هذا الاسم جد القاضي كليف، الذي زعم أن بناء هذا المنزل كاد يؤدي بحياته، لم يبقَ من البيت شيء سوى مدخنتين اثنتين وممر من الطوب تغطيه الطحالب رسمت حجارته أنماطًا غريبة تشبه هياكل عظمية لأسماك، امتد الممر من أساسات البيت إلى درجاته الأمامية حيث بقي هناك خمس بلاطات مكسورة باللون الأزرق الباهت، وقد نُقِشتَ عليها حروف «CLEVE».

في نظر هاربيت، كانت تلك البلاطات الخمس المستوردة من هولندا بقايا سحرية من حضارة ضائعة لا يضاهيها في سحرها

(1) المحنة أو العناء.

أي شيء، حتى لو كان كلباً ميتاً في فمه قطعة خبز، فبالنسبة إليها كان اللون الأزرق المائي لتلك البلاطات هو نفسه زرقة الثروة والذكرى، زرقة أوروبا، وزرقة السماء. وكانت المعاناة التي استخلصتها من تلك البلاطات متألفة كما لو كانت حلماً ينبض بالجمال.

في خيالها كان شقيقها الميت يتقل كالأمير عبر غرف هذا القصر المفقود، بيع المنزل عندما كانت في السادسة من عمرها فقط، لكن رويين في خيالها كان يتزحلق على السلالم المصنوعة من خشب الماهو غاني (قالت لها أديلايد ذات مرة إنه كاد يصطدم بواجهة خزانة الخزفيات الزجاجية في الأسفل ويحطمها) ويلعب الدومينو على السجادة الفارسية فيما تراقبه السرافيم⁽¹⁾ الرخامية فاردة أجنحتها، وهي تنظر إليه بعينيها الخبيثتين وجفنيها الثقيلين. كان قد غط في نومه عند أقدام الدب الذي اصطاده عم والدته وحنّطه، ورأى السهم المزين بريش الطائر الأزرق الباهت، الذي أطلقه هندي من الناتشيز على جده الأكبر خلال غارة في الفجر عام 1812 والذي ظل منفرساً في جدار الردهة، في المكان نفسه الذي أصابه أول مرة.

باستثناء البلاطات الهولندية، كانت بقايا «التريبيوليشن» الملموسة قليلة؛ فقد وضع معظم الأثاث والسجاد وكل ما كان في البيت من زينات (كالتماثيل المرمرية والثريا) في صناديق كبيرة كُتب عليها «منوعات»، وبيعت لتاجر أنتيكا في غرينوود لم يدفع

(1) ملائكة مجنحة.

فيها إلا نصف ما تستحقه من ثمن، وأما ذلك السهم الشهير فقد تفتت بين يدي أيدي عندما حاولت إخراجه من الجدار يوم رحيلهم عن البيت، واستعصى رأس السهم الصغير على كل محاولة لاستخراجه من الجص باستخدام سكين زبدة، كما أن الدب المحنط قد أكلته العثة فألقي في مكب النفايات، حتى أنقذه بعض الأطفال من الزوج وهم في غاية الفرح، وجروه في الطين من ساقيه.

فكيف السبيل إلى إعادة بناء هذا الصرح المنقرض؟ ما الذي تبقى منه، وكيف يمكن استعادته؟ لا تزال أساسات البيت موجودة في موقع بعيد قليلاً عن البلدة؛ في موقع لا تعرف مكانه تمامًا، ولكن ذلك لم يكن مهمًا، أخذوها كي تراه مرة واحدة فقط في عصر يوم شتوي منذ زمن بعيد، في نظر طفلة صغيرة كانت تلك الأساسات توحى بأنها كانت تحمل مبنى أكبر كثيرًا من أن يكون مجرد بيت؛ ربما مدينة، كانت تتذكر أيدي -التي كان مظهرها صبيانيًا في بنطلون من الكاكي- تقفز مستثارة من غرفة إلى غرفة وأنفاسها ترسم غيمات بيضاء، تشير إلى الردهة وإلى غرفة الطعام والمكتبة، مع أن تلك الذكريات كانت ضبابية مقارنة مع ذكرى مخيفة أخرى؛ ذكرى ليبي وهي ترتدي معطفها الأحمر، وقد انفجرت باكية ومدت يدها المغطاة بالقفاز لتقودها أيدي بين الأشجار الهشة عائدة بها إلى السيارة، فيما كانت هاربت تمشي خلفهما.

أنقذت مجموعة متفرقة من القطع الأثرية قليلة القيمة من بيت «تريبوليشن»: مفارش مطرزة، وأطباق خزفية، وخزانة

جانبية ثقيلة من خشب الورد ومزهريات وساعات خزفية وكراسي لغرفة الطعام، توزعت هذه الأشياء كلها بين بيت هاربيت وبيوت خالاتها: قطع متفرقة ومبعثرة؛ عظمة ساق هنا وفقرة هناك. حاولت هاربيت انطلاقاً منها إعادة بناء صورة متكاملة عن جمال هذا البيت المحترق الذي لم تره قط⁽¹⁾.

كانت هذه الأشياء التي جرى إنقاذها تتلأأ بنور قديم ودافئ: كانت أدوات الطعام الفضية تبدو أكثر بهاء وجمالاً، والمفارش المطرزة أكثر غنى وأناقة، والكريستال أكثر نقاء، والبورسلان أشد رهافة بزرقتة النادرة، لكن ما كان أجمل من ذلك كله كان القصص التي نقلها إليها الكبار؛ قصصاً مزخرفة زادت هاربيت زخرفة من خلال أسطورتها العنيدة، أسطورة «القصر المسحور»؛ قصر خيالي لم يكن موجوداً قط.

حملت هاربيت بشكل غريب تلك النظرة الضيقة التي جعلت عائلة آل كليف جميعهم ينسون ما لا يريدون تذكره، ويضخمون -بل ويغيرون- ما لا يستطيعون نسيانه، وبإعادة بناء الهيكل العظمي لذلك الوحش المنقرض الذي كان يمثل ثروة عائلتهم، كانت هاربيت تظن أنها تُعيد بناء ما كان موجوداً بالفعل، لكن في الواقع كانت تخلق أسطورة عن شيء لم يكن له وجود حقيقي، لم تُدرك أن كثيراً من العظام قد لحق بها العبث، وأن بعضها كان منتمياً إلى حيوانات مختلفة تماماً، أو أن بعضها لم يكن عظاماً حقيقية بل كان مصنوعاً من الجص، مثل الثريا البوهيمية الشهيرة

(1) هذا تشبيه للأمر بإعادة بناء صورة الديناصور انطلاقاً من عظم الساق.

التي لم تكن من بوهيميا ولم تكن مصنوعة من الكريستال، بل الحقيقة أن والدته القاضي اشترتها من متجر مونتغمري وورد. لم تكن هاربيت تُولي اهتماماً للأشياء الصغيرة والمتواضعة المغبرة التي كانت قد تُظهر لها الحقيقة لو أنها اهتمت بتفحصها جيداً. الحقيقة التي قد تكون مخيبة، والتي تقول إن «تريبوليشتن» لم يكن سوى أسطورة خيالية، بيتاً من صنع العقل، وليس شيئاً كان موجوداً في الواقع.

كانت هاربيت تقضي أياماً في تصفح ألبوم الصور القديمة في بيت إيدي، وهو بيت صغير مكون من غرفتين، بُني في أربعينيات القرن العشرين، وكان يختلف كثيراً عن «تريبوليشتن»، في تلك الصور كانت تظهر ليبي النحيلة الخجول، شعرها مردود إلى الخلف، كانت تبدو باهتة كأنها عانس مع أنها في الثامنة عشرة من عمرها فقط: كان في فمها وعينيها ما يذكر بوالدة هاربيت (وبأليسون أيضاً)، ثم كانت هناك صورة لإيدي المتكبرة حين كانت في التاسعة من عمرها، سمراء كقيمة رعديّة، وتعبير وجهها يشبه تماماً تعبير والدها القاضي المتجهّم خلفها، وفي صورة أخرى استرخت تات ذات الوجه القمري على كرسي هزاز وفي حجرها خيال قطّة صغيرة غير واضح تماماً، والرضيعة أديلايد -التي كتب لها أن تحيا أكثر من أزواجها الثلاثة- ضاحكة أمام الكاميرا، كانت أجمل الأربع جميعاً، وكان فيها ما يذكر بأليسون، ولكن شيئاً من القلق بدأ يظهر على زاويتي فمها منذ ذلك الوقت، وفي خلفية الصورة ظهرت بلاطات هولندية على الدرج المقبب مكتوب عليها «CLEVE»؛ كلمة بالكاد كانت تُرى إلا إذا دقت

النظر، ولكنها كانت الشيء الوحيد الذي ظل على حاله كما هي في الصورة.

أما الصور التي أحبتها هاربيت أكثر من غيرها فكانت تلك التي تجمعها مع شقيقها، كانت إيدي قد التقطت معظم تلك الصور، ولكن بسبب الألم الذي كانت تشعر به عند النظر إليها، أخرجتها من الألبوم واحتفظت بها في مكان آخر، على رف في خزانها داخل علبة شوكولاتة على شكل قلب. وعندما عثرت هاربيت على تلك الصور (وكانت في الثامنة من عمرها تقريباً)، شعرت كأنها قد اكتشفت قبر توت عنخ آمون.

لم يكن لدى إيدي أي فكرة عن أن هاربيت قد عثرت على الصور، ولم تكن تدري أن هذه الصور كانت السبب الوحيد وراء قضاء هاربيت تلك الساعات الطويلة في بيتها، كانت هاربيت تتسلل في خزانة إيدي المليئة برائحة الرطوبة تجلس خلف تتوراتها وفساتين يوم الأحد، وتتأمل الصور تحت ضوء مصباح كاشف. في بعض الأحيان كانت تدس العلبة في الحقيبة التي تحمل بها دمية الباربي وتذهب بها إلى سقيفة الأدوات في فناء البيت، حيث كانت إيدي تسمح لها باللعب دون أن تُزعجها، فقد كان يسرها أن تبتعد هاربيت قليلاً عنها، وفي عدة مرات أخذت الصور معها إلى بيتها وأرجعتها في اليوم التالي.

ذات مرة، بعد أن أوت أمهما إلى الفراش، أرت تلك الصور لأليسون، وقالت لها: «انظري، هذا هو شقيقنا».

حدقت أليسون إلى العلبة المفتوحة، وظهر على وجهها شيء من الذعر، فيما وضعت هاربيت العلبة في حجرها. قالت: «هيا! انظري، أنتِ موجودة في بعض الصور».

قالت أليسون: «لا أريد»، ثم أغلقت العلبة وأعادتها إلى هاربيت.

كانت الصور ملونة: صور كاميرا فورية، ولكن ألوانها بهتت قليلاً وأصبحت حوافها وردية. كانت دبكة وممزقة بسبب إخراجها المتكرر من الألبوم، وعلى بعض الصور لطخات من بصمات الأصابع كأن أحداً قد أمسك بها مراراً، كانت بعض الصور تحمل أرقاماً باللون الأسود على الجهة الخلفية لأن الشرطة استخدمتها في تحرياتها، وكانت تلك الصور هي الأكثر اتساخاً بالأصابع.

لم تملّ هاربيت من النظر إليها قط؛ كانت حواف الصور مشبعة بالزرقة كأنها من عالم آخر، والألوان أصبحت بمرور الزمن أشد غرابة وأقل وضوحاً، كان العالم الذي تراه في تلك الصور يبدو أشبه بالحلم: عالم سحري بشكل كامل ولا سبيل لاستعادته، وفي ذلك العالم كان روبيين غافياً مع قطه الصغير البرتقالي ويني، كان يركض في الأرض المحيطة ببيت «تريببوليشن» ذي السقيفة المحمولة على أعمدة، يضحك بصخب ويصيح على من يحمل الكاميرا، كان ينفخ فقاعات الصابون من طبق وسلك على شكل حلقة، كان هناك بنظرته الجدية وبجامته المقلّمة، وفي صورة أخرى كان يرتدي بذلة الكشافة بركبتين بنيّتين ويبدو مسروراً بنفسه، وهنا في هذه الصورة كان صغيراً جداً يرتدي الملابس الخاصة بمسرحية قدموها في روضة الأطفال؛ مسرحية «رجل خبز الزنجبيل» التي مثل فيها دور غراب جشع، كان الزي الذي ارتداه مشهوراً، فقد قضت ليبي أسابيع في صنعه: رداء أسود ضيق مع جوارب برتقالية، وعليه شريطٌ من المخمل الأسود

المزين بالريش من المعصم حتى الإبط ومن الإبط حتى أعلى
الفخذين يمثل أجنحة الغراب، كما كان هناك مخروط من الكرتون
البرتقالي على أنفه بمثابة منقار، كان زياً جميلاً جداً حتى أن
روبين ارتداه مرتين في عيد الهالوين، ثم ارتدته شقيقته، وبعد
مضي هذه السنين كلها لا تزال تشارلوت تتلقى اتصالات من
جيرانها الأمهات، يطلبن استعارة الزي لأطفالهن.

صوّرت إيدي فيلماً كاملاً ليلة المسرحية: لقطات كثيرة
لروبين وهو يركض في أرجاء البيت مبتهجاً يرفرف بذراعيه،
وجناحه يطيران خلفه وقد سقطت منهما بضعة ريشات وأخذت
تسبح في الهواء صوب السجادة الكبيرة المتهرئة، كان معه
صديقه الصغيران أليكس (الخباز الذي يرتدي مئزراً أبيض
وقبعة) وبيمبريتون (الذي لعب دور «رجل خبز الزنجبيل»، وكان
وجهه غارقاً في الغضب بسبب سخافة زيّه). يظهر روبين مرة
أخرى، نافذ الصبر متمللاً، فيما تمسك به أمه الجاثية على
الأرض وتحاول وضع المشط في شعره، لا شك أن الشابة اللعوب
الظاهرة في الصورة هي أم هاربيت، لكنها لم تعرفها هاربيت
قط؛ كانت أمّاً فرحة وساحرة وتبض بالحياة.

سحرت الصور هاربيت، وأكثر من أي شيء آخر، كانت راغبة
في أن تتسل من عالمها الذي تعرفه لتغرق في وضوح الصور
المشوب بزرق لذيذة، حين كانت أمها نضرة، والبيت لا يزال
قائماً، والجميع سعيديون دائماً. روبين وإيدي في الردهة العظيمة
المظلمة قليلاً، كل منهما جاثٍ على يديه وركبتيه، يلعبان لعبة لم
تعرفها، كانت لعبة بها منصات لامعة وعجلة دوارة. ها هما ذان

مرة أخرى، روبين ظهره إلى الكاميرا، يرمي كرة حمراء كبيرة نحو إيدي، فيما تفتح إيدي عينيها بطريقة هزلية وهي تنقض لالتقاطها.

وهنا يطفئ شمعات عيد ميلاده؛ تسع شمعات في آخر عيد ميلاد له، فيما إيدي وأليسون تنحنيان فوق كتفه لمساعدته، كانت الوجوه مبتسمة ومضيئة في الظلام، إنها فرحة أعياد الميلاد: أغصان الصنوبر وحبال الزينة والهدايا المكدسة تحت الشجرة، وفوق الطاولة الجانبية وعاء ضخم مزخرف، وأطباق كريستالية من الحلوى والبرتقال والكعك المغطى بالسكر في أوان فضية، والموقد المزخرف بورود الهولي، والجميع ضاحكون، ووهج الثريا ينعكس في المرايا الطويلة.

وفي الخلفية على طاولة العيد، كانت هاربيت تستطيع تمييز أطباق عيد الميلاد الشهيرة المزينة بشرائط قرمزية، وأجراس الزلاجات مزخرفة بورق الذهب، تحطمت تلك الأطباق في أثناء النقل بسبب سوء تغليفها من العمال، ولم يتبقَّ منها سوى طبقين صغيرين ووعاء حساء اللحم على شكل زورق، ولكن مجموعة الأطباق كانت كاملة في الصورة سماوية ومجيدة.

وُلدت هاربيت قبل عيد الميلاد في عاصفة ثلجية هي الأكبر في تاريخ ميسيسيبي، كانت العلبة التي على شكل قلب تحتوي على صورة لتلك العاصفة: الممر المؤدي إلى «تريببوليشن»، ذلك الممر الذي تحفّه شجرات البلوط، مغمور بالثلج بالكامل. كان كلب أديليد باونس الذي مات منذ عهد بعيد يجري في الممر المغطى بالثلج، يركض بحماسة نحو سيدته التي تلتقط

الصورة، فيظل نابجًا إلى الأبد، قوائمه الصغيرة غير واضحة، وحوله سحابة من الثلج فيما يقترب من محبوبته، وفي البعيد يلوح باب «تريبوليشن» المفتوح، ويظهر روبين وشقيقته الخائفة أليسون التي كانت تمسك به، كان روبين يلوح بيديه فرحًا يلوح إلى أديلايد التي التقطت الصورة، ويلوح إلى أيدي التي تساعد أمه عند السيارة، ويلوح لشقيقته الرضيعة هاربيت التي جاءت من المستشفى الآن في ليلة عيد الميلاد الثلجة هذه.

لم تر هاربيت الثلج إلا مرتين، ولكنها علمت طيلة حياتها أنها وُلدت فيه، وفي كل ليلة عيد ميلاد (الآن صارت أعياد الميلاد أصغر وصارت حزينة) يجتمعن حول مدفأة الغاز في بيت ليبي الصغير ذي الهواء المكثوم والسقف المنخفض ويتناولن شراب البيض المخفوق بالسكر والحليب، وتروي لها ليبي وتات وأديلايد القصة نفسها؛ قصة جلوسهن جميعًا في سيارة أيدي وذهابهن إلى المستشفى في فيكسبرغ وسط الثلوج لإحضارها إلى البيت. وكن يقلن: «لقد كنتِ أفضل هدية عيد ميلاد نتلقاها، كان روبين في غاية الحماسة؛ إذ لم يستطع النوم في الليلة التي سبقت ذهابنا للمجيء بك، أبقى جدتك مستيقظة حتى الرابعة صباحًا، ولما رآك أول مرة، عندما أدخلناك إلى البيت، صمت دقيقة ثم قال: ماما، لا بد أنك اخترت أجمل طفلة كانت لديهم!» قالت والدة هاربيت بنبرة حنين: «كانت هاربيت طفلة رائعة»، ثم جلست عند المدفأة محتضنة ركبتيها. كانت أعياد الميلاد صعبة عليها كما كان عيد ميلاد روبين وذكري وفاته، وكان الجميع يعرف ذلك.

«هل كنتُ رائعة؟»

«أجل، كنت رائعة، يا عزيزتي»، وكان هذا صحيحًا؛ فهارييت لم تكن تبكي قط ولم تكن تزعج أحدًا قبل أن تتعلم الكلام.

كانت الصورة المفضلة عند هارييت من بين الصور التي في العلبة تلك الصورة التي تفحصتها في ضوء المصباح مئات المرات، كانت صورتها مع روبيين وأليسون في ردهة بيت «تريببوليشن» إلى جانب شجرة عيد الميلاد، كانت هي الصورة الوحيدة -على حد علمها- التي تجمعهم ثلاثتهم معًا، وكانت الوحيدة التي التقطت في بيت عائلتها القديم. لم تكن الصورة تحمل أي إشارات إلى البلايا التي كانت تقترب، سيرحل القاضي العجوز بعد شهر، وسيضيع البيت الكبير إلى الأبد، وسيموت روبيين في الربيع، ولكن في تلك اللحظة لم يكن أحد منهم يدرك شيئًا من هذا كله، كانت ليلة عيد الميلاد، وكانت في البيت رضيعة جديدة، كان الجميع فرحين، وحَسَبُوا جميعًا أنهم سيظلون في فرح مقيم! في الصورة، كانت أليسون -التي بدت جادة في قميص نومها الأبيض- تقف بجانب روبيين حافية القدمين، فيما كان روبيين يحمل هارييت الرضيعة، وفي تعبير وجهه مزيج من الحماسة والحيرة كأن هارييت لعبة ثمينة لا يعرف كيف يتعامل معها. وكانت أنوار شجرة الميلاد تتلألأ بالقرب منهم، والقط «ويني» قط روبيين يراقبهم بنظرات محبة من زاوية الصورة، فيما الكلب باونس ينظر إليهم بفضول كأنه من تلك الحيوانات التي جاءت لتشهد المعجزة في الإسطنبول، ومن فوق المشهد كان الملاك المرمري يبتسم. كان الضوء في الصورة مكسورًا ومنفعلًا ومشبعًا بوهج ينبئ بكارثة قادمة، حتى الكلب باونس كان قد مات قبل

بعد وفاة روبين بدأت «الكنيسة المعمدانية الأولى» جمع الأموال لتقديم هدية تكريمية في ذكراه (زراعة شجرة سفرجل يابانية، أو ربما وسائل جديدة لمقاعد الكنيسة)، ولكن المبلغ الذي جُمع فاق كل التوقعات، كانت إحدى نوافذ الكنيسة الستة التي تصور كل منها مشهداً من حياة المسيح قد كسرت جراء سقوط غصن شجرة في عاصفة شتوية، منذ ذلك الوقت استُبدل بالزجاج المكسور لوح خشبي؛ فاقترح القس الذي كان قد يؤس من تكلفة استبدال الزجاج أن يستخدم المال المتبرع به لشراء نافذة جديدة.

جزء كبير من المبلغ جاء من أطفال مدرسة البلدة، دار الأطفال على الأبواب كلها، وباعوا الحلوى وبطاقات اليانصيب، قدّم صديق روبين بمبرتون هال (الذي لعب دور رجل خبز الزنجبيل في مسرحية روضة الأطفال التي مثل فيها روبين دور الغراب) ما يقارب مئتي دولار من أجل نصب تذكاري لصديقه الراحل، وقد ادعى بمبرتون الذي لم يتجاوز التاسعة من عمره أنه حصل على ذلك المبلغ من مطمورته، ولكن الحقيقة كانت أنه سرق المال من محفظة جدته (أغرته أيضاً فكرة التبرع بخاتم خطبة أمه مع عشر ملاعق شاي فضية ومشبك ربطة عنق لم يعرف أحد مصدره؛ كان مشبكاً مرصعاً بالألماس وكان واضحاً أنه ذو قيمة مالية كبيرة).

حتى دون احتساب باقات الأزهار الجميلة، كان المبلغ الذي

جمعه زملاء روبيين في المدرسة مبلغًا كبيرًا بالفعل، اقترح أحدهم ألا يستبدلوا بالزجاج المكسور الذي كانت عليه لوحة تمثل «عرس قانا الجليل» زجاجًا آخر يحمل المشهد نفسه، بل أن يُصنع شيء مختلف فيه تكريم لروبيين وللأطفال الذين بذلوا جهدًا كبيرًا من أجله.

بعد سنة ونصف سنة أزيح الستار عن النافذة الجديدة وسط شهقات إعجاب الحاضرين، كانت النافذة تصور يسوع بعينين زرقاوين جالسًا على صخرة تحت شجرة زيتون يتحدث مع صبي أحمر الشعر يرتدي قبعة بيسبول، كانت ملامح ذلك الصبي تشبه روبين بشكل لا يمكن للعين أن تخطئ به.

وتحت الصورة كتبت العبارة الآتية:

دعوا الأطفال الصغار يأتون إلي

وفي أسفلها لوحة صغيرة كُتِبَ عليها:

في ذكرى روبين كليف دو فريسنس العطرة

من أطفال مدرسة ألكساندريا، ميسيسيبي

«سوف تكون لهم مملكة السماء»

طيلة حياتها كلها، كانت هاربيت ترى شقيقها متألقًا ضمن الكوكبة نفسها التي تضم كبير الملائكة جبريل والقديس يوحنا المعمدان وكذلك يوسف النجار ومريم العذراء وبالتأكيد يسوع المسيح نفسه. كان ضوء الشمس يتسلل عند الظهر عبر صورته الجليلة، وتقاسيم وجهه الطاهرة (الأنف المدور قليلًا، والابتسامة الملائكية) متألقة بذلك الوضوح الجميل نفسه. وكان هذا الوضوح مشعًا أكثر لكونه طفل؛ حتى أنه يفوق بريقًا يوحنا المعمدان

والآخرين، مع ذلك كانت في وجهه الصغير مثل وجوههم تلك
اللا مبالاة الهادئة، اللا مبالاة الأبدية، كأنها سر مشترك بينهم
جميعاً.

فما الذي حدث حقًا في الجلجلة، أو في القبر؟ كيف يعلو
اللحم البشري من الوضاعة والألم إلى هذه القيامة الملونة؟ لم
تعلم هاربيت ذلك، ولكن رويين علم، وكان السر يتلأأ في وجهه
الجديد.

كانت قيامة المسيح نفسها سرًا عميقًا بحق، ولكن الناس لم
يكونوا يهتمون كثيرًا بمحاولة فهم جوهر هذا السر. ما الذي
يعنيه الإنجيل حينما يقول إن يسوع نهض من الموت؟ هل عاد
روحًا فقط؟ هل عاد كأنه شبح من الأشباح؟ من الواضح بحسب
الإنجيل أن الأمر لم يكن كذلك، لقد وضع توما المرتاب إصبعه
في موضع المسمار الذي كان في راحة يده، كما شوهد يسوع -لا
ريب في هذا- وهو يسير على الطريق المؤدي إلى النبع، بل إنه
تناول وجبة صغيرة في بيت أحد حواربيه، لكن إن كان قد عاد
من الموت حقًا بجسده الدنيوي، فأين هو الآن؟ وإن كان يحب كل
إنسان كما يُقال، فلماذا يموت الناس؟

عندما ناهزت هاربيت السابعة أو الثامنة من عمرها، ذهبت إلى
مكتبة البلدة وطلبت مجموعة من كتب السحر، لكنها استشاطت
غيظًا عندما اكتشفت أن محتوى تلك الكتب لم يكن سوى حيل؛
كرات تختفي تحت الكؤوس، وقطع نقود تسقط من آذان الناس.
أمام النافذة التي تظهر فيها صورة يسوع وشقيقها، كانت هناك
نافذة أخرى تعرض مشهد قيامة أليعازر. قرأت هاربيت قصة

أليعازر في الإنجيل مرارًا وتكرارًا، لكن القصة ظلت ممتعة عن
إجابة الأسئلة الأكثر أهمية: ماذا قال أليعازر ليسوع وشقيقاته
عن الأسبوع الذي قضاه في القبر؟ هل بقيت في جسده رائحة
الموت؟ هل كان في مقدوره العودة إلى بيته ومواصلة حياته مع
شقيقاته، أم أن الناس من حوله فزعوا، وربما اضطر إلى الرحيل
والعيش وحيدًا كما فعل وحش فرانكشتاين؟ لم تكن هاربيت قادرة
على منع نفسها من التفكير في أنها لو كانت في ذلك المكان،
بأنها كانت ستتمكن من قول أكثر مما قاله القديس لوقا في هذا
السياق.

لعلها قصة، لا أكثر! ولعل يسوع نفسه لم يقم من بين الأموات
على الرغم من أن قول الجميع يؤكد أنه قام! ولكن إن كان بالفعل
قد أزاح الحجر جانبًا، ومشى حيًا خارجًا من القبر؛ فلماذا لم
يحدث نفس الشيء مع شقيقها، الذي ترى صورته كل يوم أحد
مشعًا بجانب يسوع؟

كان هذا أكبر هاجس لدى هاربيت، الهاجس الذي انبثقت
منه جميع الهواجس الأخرى، كان أكثر ما ترغب فيه (أكثر من
«تريبوليشن» وأي شيء آخر) أن يعود شقيقها، إضافة إلى ذلك
كانت تتمنى أن تكتشف قاتله.

في صباح يوم جمعة من شهر مايو بعد اثنتي عشرة سنة
من مقتل روبين، كانت هاربيت جالسة إلى طاولة المطبخ في
بيت إيدي تقرأ يوميات آخر رحلة استكشافية للكابتن سكوت
إلى القارة المتجمدة الجنوبية، كان الكتاب مفتوحًا بين مرفقها

وطبقها الذي تتناول منه الخبز مع البيض المقلي، كثيرًا ما تناولت وجبة الإفطار مع أليسون في بيت إيدي قبل الذهاب إلى المدرسة، لم تصل آيدا ريو التي تطهو الطعام إلا عند الساعة الثامنة، وكانت أمهما التي صار طعامها قليلًا في الآونة الأخيرة قد شريت زجاجة بيبسي مع سيجارة بدلًا من وجبة الإفطار. لم يكن هذا اليوم صباح يوم دراسي، بل صباحًا في بداية العطلة الصيفية، كانت إيدي واقفة عند الموقد تقلي لنفسها بيضًا وعلى وسطها مريلة مرقطة تحمي فستانها، لم يكن يعجبها أن هاربيت تقرأ وهي جالسة إلى طاولة الطعام، لكنها شعرت أن من الأسهل عليها متابعة عملها وترك الفتاة وشأنها بدلًا من تكرار توجيهها كل خمس دقائق.

نضج البيض فأطفأت إيدي النار، وتوجهت إلى الخزانة لتأخذ طبقًا، اضطرت إلى أن تخطو فوق حفيدتها الثانية أليسون، التي كانت مستلقية على أرض المطبخ تبكي دون انقطاع.

تجاهلت إيدي بكاء أليسون، وعادت عابرة فوق جسدها بخطوات حذرة، وضعت البيض في الطبق، ثم دارت حول طاولة المطبخ متفادية أليسون وجلست قبالة هاربيت التي لم تكن منتبهة لها، وبدأت تتناول طعامها في صمت، أصبحت أكبر من أن تكثر هذه الأشياء، فقد نهضت منذ الخامسة صباحًا وتمكنت من العناية بالطفلتين حتى تلك اللحظة.

كانت المشكلة تكمن في قط الطفلتين؛ ذلك القط الذي كان يرقد على منشفة في صندوق من الورق المقوى بالقرب من رأس أليسون. منذ أسبوع بدأ القط يرفض الطعام، ثم بدأ يصرخ كلما

حملته إحداهما؛ لهذا السبب أتوا به إلى بيت إيدي لتفحصه.
كانت إيدي خبيرةً بالحيوانات، وقد فكرت كثيرًا أن تصبح
طبيبة بيطرية أو حتى طبيبة بشرية، لو كانت الفتيات يعملن في
هذه المهن أيام صباها، لقد اعتنت بجراء وقطط كثيرة إلى أن
تعافت كلها، وربت أفراخ طيور سقطت من أعشاشها، وقدمت
الرعاية اللازمة لمختلف الحيوانات، نظفت جروحها وجبرت
عظامها المكسورة، يعلم جميع أطفال الحي هذا وليس فقط
حفيدتها، لذا كانوا يلجؤون إليها لرعاية حيواناتهم المريضة أو
أي حيوانات صغيرة ضالة يعثرون عليها.

ولكن شغف إيدي بالحيوانات ورقة مشاعرها نحوها كانا أقل
كثيرًا من مهاراتها في التعامل معها، كانت تذكر الأطفال دومًا
بأنها غير قادرة على إحداث المعجزات، بعد أن فحصت القط
فحصًا سريعًا (كان يبدو خائر القوى، لكنه لم يكن يعاني أي
علة ظاهرة) انتصبت واقفة ومسحت يديها بتنورتها فيما كانت
حفيدتها تنظران إليها بترقب.

سألتهما: «كم يبلغ من العمر؟»

قالت هاربيت: «سنة عشر عامًا ونصف».

انحنى إيدي وداعبت القط المسكين الذي كان مستندًا إلى
ساق الطاولة وفي عينيه نظرة بائسة. لطالما أحبت هذا القط،
فهو قط روبين، وجدّه مستلقيًا على الرصيف الحار في يوم
صيفي، كان نصف ميت بالكاد يقوى على فتح عينيه، حمله روبين
إلى بيتها على يديه المبسوطتين خائفًا عليه، ظلت إيدي تعتني
به حتى استطاعت إنقاذه، كانت الديدان قد تغلغلت عميقًا في

خاصرته وأحدثت فيها فجوة، ولا تزال تتذكر كيف ظل القط صامتًا وهادئًا خلال غسلها جرحه في حوض ضحل من الماء الفاتر، وكان الماء يصبح ورديًا بعد كل علاج.

سألت أليسون بصوت يوشك أن يبكي: «ألن يكون بخير، يا إيدي؟» كان القط صديقها المفضل؛ فبعد وفاة رويين أصبح القط ملازمًا لها في كل مكان، يتبعها أينما ذهبت، يجلب لها هدايا صغيرة سرقها أو قتلها (عصافير ميتة، ومأكولات لذيدة من القمامة، والغريب أنه أتاها مرة بعبوة من بسكويت الشوفان غير مفتوحة). منذ أن بدأت أليسون تذهب إلى المدرسة، صار يقف عند الباب عندما الساعة الثانية وخمس وأربعين دقيقة بعد الظهر، ويخدش الباب حتى يسمحوا له بالخروج لملاقاة أليسون عند زاوية الشارع.

وبدورها كانت أليسون تغدق على ذلك القط عاطفة أكثر مما تبديه لأي كائن حي آخر بما في ذلك أفراد أسرتها، كانت تكلمه باستمرار، وتطعمه قطعًا من لحم الدجاج من صحنها، وتسمح له بأن ينام طوال الليل مستلقيًا فوق رقبتها.

قالت هاربيت: «لعله أكل شيئًا لا يناسبه».

قالت إيدي: «سوف نرى».

لكن الأيام التي أعقبت ذلك أكدت شكوكها؛ القط ليس مريضًا، لكنه أصبح عجوزًا فحسب، قدمت إليه لحم التونة واستخدمت قطارة للعين كي تسقيه حليبًا، ولكن القط كان يغمض عينيه ويصق الحليب فيخرج من بين أسنانه زبد بشع. في صباح اليوم السابق عندما كانت البنتان في المدرسة، دخلت إيدي المطبخ

فوجدت القط ينتفض كأن نوبة قد أصابته، فلفته بمنشفة وأخذته إلى الطبيب البيطري.

ولما جاءت البنتان إلى بيتها بعد الظهر، قالت لهما: «إنني آسفة، ولكني لا أستطيع أن أفعل له شيئاً، أخذته إلى الدكتور كلارك هذا الصباح، وقال لي إن عليه أن يجعله ينام».

كان رد هاريت مفاجئاً، فهي قادرة على المبالغة في الانفعال عندما يحلو لها ذلك، لكنها استقبلت النبأ بتعقل نسبي، جثت عند صندوق القط وقالت: «ويني المسكين! يا له من قط مسكين!» وضعت يدها برفق على جسده المرتعش، كانت تحبه مثلما تحبه أليسون تقريباً، مع أن اهتمامه بها كان أقل.

لكن أليسون شحب لونها: «ماذا تعنين بأن يجعله ينام؟»
«أعني ما قلته».

«لا تستطيعون فعل هذا، لن أسمح لكم!»

قالت إيدي بنبرة حادة: «لا نستطيع أن نفعل له أكثر من ذلك، الطبيب يعرف عمله».
«لن أسمح لكم بقتله».

«ما الذي تريدین فعله؟ هل تريدین أن تطول معاناة هذا المسكين؟»

ارتعشت شفة أليسون، ثم سقطت على ركبتيها عند صندوق القط وانفجرت دموعها في حالة من الهستيريا.

كان ذلك عند الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم أمس، ومنذ ذلك الوقت لم تتحرك أليسون من مكانها بالقرب من القط، ولم تتناول عشاءها. أعطوها وسادة وبطانية فرفضتهما، وظلت

طيلة الليل مستلقية على الأرض الباردة تبكي وتتوح، ظلت إيدي جالسة معها في المطبخ نحو نصف ساعة، وحاولت أن تحدثها قليلاً عن حقيقة أن كل شيء في العالم يموت، وأن عليها تقبل هذه الحقيقة، ولكن بكاء أليسون اشتد؛ ما جعل إيدي تتوقف عن المحاولة، فذهبت إلى غرفتها وأغلقت الباب، وبدأت قراءة رواية لأغاثا كريستي.

أخيراً عند منتصف الليل تقريباً بحسب الساعة التي تضعها إيدي إلى جانب سريرها، توقف بكاء أليسون، ولكنها عادت إلى البكاء مجدداً بعد مدة قصيرة، تناولت إيدي رشفة من فنجان الشاي، وكانت هاريت غارقة في كتاب الكابتن سكوت، وعلى الطاولة كان إفطار أليسون لا يزال على حاله.

قالت لها إيدي: «أليسون!»، ارتعشت كتفا أليسون ولم تجب.

«أليسون! تعالي وكلّي فطورك»، كانت هذه ثالث مرة تقول فيها إيدي هذه الجملة.

جاءت إجابتها مكتومة الصوت: «لست جائعة».

نهرتها إيدي: «انظري إلي! لقد ضقت ذرعاً بهذا، أنت أكبر كثيراً من أن تتصرفي هكذا، أريد منك الآن أن تتوقفي فوراً عن التمرغ على الأرض، وأن تهضي وتأكلي إفطارك، تعالي الآن! لقد برد الطعام».

ولكن هذا التوبيخ قوبل بعاصفة بكاء جديدة.

قالت إيدي وهي تعود إلى تناول طعامها: «أوه، بحق السماء! افعلي ما تشائين! لا أدري ما ستقوله المعلمات في المدرسة إذا شاهدنك تتمرغين على الأرض كأنك خنزير صغير».

قالت هاريت فجأة: «اسمعي هذا»، وراحت تقرأ من كتابها

بصوت مفخَّم:

«يحس المرء أن تيتوس أوتيس صار شديد القرب من نهايته، فماذا يفعل وماذا نفعل؟ لا يعلم هذا إلا الرب. ناقشنا الأمر بعد الإفطار. هو شخص ممتاز شجاع، وهو يفهم الوضع، ولكن...»
قالت إيدي: «يا هارييت، لا أحد يهتم الآن بالكابتن سكوت». كان صوتها يقول لها إن صبرها قد نفذ ولم تعد قادرة على الاحتمال.

«لا أقول شيئاً غير أن سكوت ورجاله كانوا شجعاناً، وأن معنوياتهم بقيت عالية حتى عندما أطبقت عليهم العاصفة وعلموا أنهم سيموتون جميعاً» تابعت القراءة بصوت أعلى: «اقتربت نهايتنا جميعاً، ولكننا لم نفقد بهجتنا، ولن نفقدها».

قالت إيدي مستسلمة: «لا بأس! بكل تأكيد، الموت جزء من الحياة».

«كان رجال سكوت يحبون كلابهم وأرانهم، ولكن الوضع ساء إلى حد أرغمهم على إطلاق النار على كل واحد منهم»، اسمعي هذا يا أليسون: «كانوا مضطرين إلى أكلهم».

قلبت هارييت بضع صفحات ومالت برأسها على الكتاب: «يا للحيوانات المسكينة! كان صمودها رائعاً في ظل هذا الظرف العصيب الذي نحن فيه، ولكن قتلها يصعب علينا».

ناحت أليسون وهي مستلقية على الأرض، وأطبقت يديها على أذنيها: «قولي لها أن تكف عن ذلك!»

قالت إيدي: «أطبقي فمك، يا هارييت». «ولكن...»

أجابتها بنبرة حادة: «لا تقولي ولكن! وأنت يا أليسون، قومي عن الأرض؛ فبكاؤك لن يفيد القط بشيء».

«أنا الوحيدة التي تحب ويني، لا أحد غيري».

قالت إيدي: «يا أليسون، يا أليسون! ذات يوم.. «مدت يدها كي تتناول سكين الزبدة، وأكملت: «أحضر لي شقيقك ضفدعاً وجده، وكانت آلة جز العشب قد قطعت ساقه».

كان الصراخ المنبعث من أرض المطبخ بعد هذه الكلمات شديداً لدرجة أن إيدي ظنت أن رأسها سينفلق نصفين، ولكنها تابعت وضع الزبدة على قطعة الخبز المحمص التي صارت الآن باردة تماماً، وتابعت: «أراد روبين مني أن أجعل الضفدع يتحسن، ولكني لم أستطع، لم أكن قادرة على فعل شيء لذلك الحيوان المسكين سوى قتله، ولم يفهم روبين أن المخلوقات التي تعاني إلى هذا الحد يكون تخليصها من عذابها ألطف ما نستطيع فعله لها، بكى روبين وبكى، ولم أتمكن من جعله يفهم أنه من الأفضل للضفدع أن يموت بدلاً من أن يعيش في ذلك الألم، لكنه كان أصغر منك كثيراً».

ما كان لهذا المونولوج أي أثر في الهدف المقصود، ولكن إيدي رفعت رأسها لتجد هاربيت تحديق إليها، وفمها مفتوح قليلاً. «كيف قتلت الضفدع، يا إيدي؟»

كانت إجابة إيدي مقتضبة: «بأقصى رحمة استطعتها»، كانت قد قطعت رأس الضفدع بالمجرفة، لكن إيدي كانت تشعر بالندم لأنها فعلت ذلك أمام روبين، لكنها لم ترغب في الخوض في تلك التفاصيل الآن.

«هل دست عليه؟»

صاحت أليسون فجأة: «لماذا لا يصفي إليّ أحد؟ لقد سممت السيدة فاونتين ويني، أنا متأكدة من ذلك، فقد قالت إنها تريد قتله لأنه كان يذهب إلى فناء بيتها ويترك آثار قوائمه على زجاج سيارتها».

تهددت إيدي، فقد ناقشوا هذا الموضوع سابقاً، قالت لها: «لا أحد يحب كريس فاونتين أكثر منك، إنها عجوز حقود تدس أنفها في كل شيء، ولكنك لا تستطيعين إقناعي بأنها سممت القط».

«أنا متأكدة من ذلك، وأنا أكرهها».

«لا يفيدك شيئاً أن تفكري على هذا النحو».

فاجأتها هاريت قائلة: «إنها محقة يا أليسون، لا أظن أن السيدة فاونتين سممت ويني».

التفتت إيدي نحو هاريت وقد رابها هذا الاتفاق المفاجئ في الرأي بينهما: «ماذا تعنين؟»

«أعني أنها.. لو فعلت ذلك، لعلمت بالأمر».

«وكيف لك أن تعلمي بأمر كهذا؟»

أجابت هاريت بثقة: «لا تقلقي، يا أليسون! لا أظنها سممت ويني، ولكنها ستندم كثيراً إن كانت فعلت ذلك»، ثم عادت إلى قراءة كتابها.

لم ترغب إيدي في ترك هذا الكلام دون تعليق، ولكنها عندما همّت بمتابعة الحديث صاحت أليسون من جديد بصوت أعلى من ذي قبل.

قالت منتحبة: «لا يهمني من فعل ذلك»، ووضعت راحتي يديها

على عينيها: «لماذا يجب أن يموت ويني؟ لماذا يتجمد أولئك الناس المساكين جميعاً ويموتون؟ لماذا يكون كل شيء فظيماً طوال الوقت؟»

قالت إيدي: «لأن العالم هكذا».

«إذاً، هذا العالم مقزز!»

«كفى يا أليسون!»

«لا، لن أكف عن التفكير بهذه الطريقة».

قالت إيدي: «حسناً.. هذا الموقف لا يعكس أي قدر من

النضج؛ كرهك للعالم لن يغير شيئاً».

«سأظل أكرهه طيلة حياتي، ولن أتوقف عن كرهه».

قالت هارييت: «كان سكوت ورجاله شجعاناً جداً يا أليسون،

كانوا شجعاناً حتى في لحظات موتهم، اسمعي هذا: (نحن في

وضع ميؤوس منه، تجمدت أقدامنا، ولا وقود لدينا، وطعامنا نفذ

منذ وقت طويل، ولكن من الخير لقلبك أن تكون في خيمتنا

وتسمع غناءنا وأحاديثنا البهيجة..)»

نهضت إيدي واقفة، وقالت: «يكفي هذا، سوف آخذ القط إلى

عيادة الدكتور كلارك، وأنتما تبقيان هنا»، ثم بدأت تجمع الأطباق

بيد ثابتة متجاهلة البكاء الذي تجدد على الأرض عند قدميها.

قالت هارييت وهي تدفع كرسيها إلى الخلف: «لا، يا إيدي»،

قفزت واقفة وركضت إلى صندوق القط، ومسدت عليه بيدها:

«ويني المسكين، أيها القط المسكين! من فضلك، لا تأخذه الآن،

يا إيدي!»

كانت عينا القط نصف مغمضتين لشدة ألمه، وبحركة واهنة

أدار ذيله إلى الجهة الأخرى من الصندوق.

كادت أليسون تختنق بشهقات بكائها، احتضنت القط بيديها وقرّبت وجهه من خدها، وقالت له: «لا، يا ويني! لا، لا، لا».

اقتربت إيدي، وأخذت القط من يديها بحذر مفاجئ، على الرغم من شدة حرصها في رفعه، صدرت عنه صرخة خافتة تكاد تكون بشرية، فيما تحول خطمه المرقط إلى تكشيرة بأسنان صفراء، فبدا كأنه رجل عجوز صبور أرهقته المعاناة.

داعبت إيدي خلف أذنه بحركة رقيقة، ثم قالت: «ناوليني تلك المنشفة، يا هاريت». كانت أليسون تحاول أن تقول شيئاً لكنها لم تستطع بسبب شدة بكائها.

قالت هاريت بصوت رجاء: «لا تأخذه، يا إيدي. من فضلك، لا تأخذه الآن!» بدأت تبكي، وأضافت: «لم تسنح لي فرصة لوداعه».

انحنى إيدي وأخذت المنشفة بنفسها، ثم نصبت قامتها وقالت بصوت حازم: «إذاً، ودعيه! القط سيغادر الآن، وقد يطول غيابه».

بعد ساعة من ذلك، كانت هاريت واقفة على شرفة إيدي الخلفية، تقص صورة قرد بشع من الجزء الثاني من موسوعة كومبتون. كانت عيناها حمراوين من كثرة البكاء، بعد خروج سيارة إيدي (أولدزموبایل زرقاء قديمة) من الممر أمام البيت، انبطحت هاريت على الأرض في المطبخ بجانب الصندوق الفارغ، وبكت بكاء لا يقل شدة عن بكاء شقيقتها.

بعد أن جفت دموعها، نهضت وذهبت إلى غرفة جدتها، أخذت

دبوسًا مستقيمًا من وسادة الدبابيس الصغيرة التي لها شكل حبة طماطم، وأخذت تواسي نفسها بنقش عبارة «أكره إيدي» بحروف صغيرة على حافة سرير إيدي، لكنها لم تشعر أن ذلك يكفي، فجلست باكية على السجادة عند السرير، ثم خطرت لها فكرة أخرى أكثر مواساة: قررت أن تلتصق وجه القرد الذي قصته من الموسوعة فوق وجه إيدي في إحدى صورها في الألبوم العائلي، حاولت أن تثير اهتمام أليسون بهذه الفكرة، لكن أليسون ظلت منكبة بوجهها فوق صندوق القط الفارغ ولم تلتفت إليها.

في تلك اللحظة فتحت بوابة الفناء الخلفي في بيت إيدي مطلقة صريرًا حادًا، واندفع هيلي هال إلى الداخل دون أن يغلقها خلفه. كان في الحادية عشرة من عمره، أصغر من هاريت بسنة واحدة، وشعره الأصفر الطويل يصل إلى كتفيه في محاكاة لشعر شقيقه الأكبر بمبرتون. صاح وهو يقفز درجات الشرفة صاعدًا: «هاريت! يا هاريت!»، ولكنه توقف فجأة عندما سمع النشيج الرتيب قادمًا من المطبخ، وعندما رفعت هاريت رأسها رأى أنها تبكي أيضًا.

فوجئ بهذا فقال: «أوه، لا! سوف يجبرونك على الذهاب إلى المخيم، أليس كذلك؟»

كان الذهاب إلى مخيم بحيرة دي سيلبي أكبر رعب بالنسبة إلى هيلي، وبالنسبة إلى هاريت أيضًا، كان مخيمًا مسيحيًا للأطفال، أرغما على الذهاب إليه في الصيف الماضي. كان الأولاد والبنات مفصولين على ضفتي البحيرة المتقابلتين، وكانوا مجبرين على قضاء أربع ساعات يوميًا في دراسة الإنجيل، ثم

قضاء بقية الوقت في صنع حبال الزينة أو أداء مسرحيات هزلية تافهة كان المشرفون قد كتبوا نصوصها، كان الأولاد يخطئون دائماً في نطق اسم هيلي، فلا يقولون «هيلي» كما يجب، بل يقلبونه إلى «هَلي»، ما يجعله يشبه كلمة «الجحيم».

والأمر الأسوأ من ذلك كله: قصوا شعره عنوة في أحد الاجتماعات، فقط من أجل تسلية بقية المشاركين، ومع أن هاربيت كانت تجد دروس الإنجيل ممتعة (لأنها كانت تمنحها جمهوراً تصدمه بآرائها «غير القويمة» في الكتاب المقدس)، فإن المخيم كان مزعجاً لها مثل هيلي، كانوا يستيقظون في الخامسة فجراً، وتُطفأ الأنوار عند الساعة الثامنة مساءً. لم يكن هناك وقت لأنفسهم، ولا كتب غير الإنجيل، فضلاً عن تعامل المشرفين معهم بطريقة «التربية الصالحة على الطراز القديم» (أي الضرب والسخرية أمام الآخرين). وفي نهاية الأسابيع الستة جلس هيلي مع بقية المشاركين في مخيم الكنيسة المعمدانية الأولى، وراحوا جميعاً يحدقون بلا مبالاة من نوافذ باص الكنيسة وهم يرتدون قمصان المخيم الخضراء صامتين ومحطمين تماماً.

قال هيلي، وهو يلهث: «قولي لأملك إنك ستقتلين نفسك» كان عدد كبير من أصدقائه في المدرسة قد رُحِّلوا إلى المخيم في اليوم السابق، ساروا بخطوات مستسلمة وصعدوا إلى الباص الأخضر الزاهي في طريقهم إلى المخيم الصيفي، لكن ذلك الباص كان سيأخذهم إلى الجحيم. وأضاف: «قلت لهم إنني سأقتل نفسي إذا أرغموني على الذهاب مرة أخرى، قلت إنني سأستلقي في الشارع وأترك السيارة تدهسنني».

قالت هاربيت باقتضاب: «ليست هذه هي المشكلة الآن»،

وشرحت له حكاية القط.

«هل يعني هذا أنك لست ذاهبة إلى المخيم؟»

قالت هارييت: «إذا استطعت ألا أذهب، فلن أذهب». كانت قد أمضت أسابيع طويلة في ترقب وصول طلبات التسجيل عبر البريد، وعندما وصلت الطلبات مزقتها وخبأتها في سلة المهملات، ولكن الخطر لم ينته بعد؛ فقد كانت إيدي هي الخطر الحقيقي، أما أمها فكانت شاردة الذهن ولم تتبه أصلاً لوصول الطلبات، ذلك أن إيدي اشترت لها حقيبة للمخيم ومعها حذاء رياضي جديد، وطلبت منها أن ترى «قائمة المستلزمات». أمسك هيلي صورة القرد ونظر إليها: «ما الغاية من هذه؟» قالت، «أوه، هذه».

قال هيلي مقترحاً: «قد يكون من الأفضل استخدام صورة حيوان آخر»، كان يمقت إيدي، لأنها تضايقه دائماً بتعليقاتها على شعره وتظاهر بأنها تحسبه بنتاً، وأضاف: «ربما صورة فرس النهر أو خنزير».

«أظن أن هذه الصورة مناسبة تماماً».

انحنى من فوق كتفها وهو يأكل حبات فستق مسلوقة أخرجها من جيبه، وراح ينظر إلى هارييت وهي تلتصق صورة القرد المكشّر فوق وجه إيدي على نحو يقع وجه القرد بالكامل ضمن تسريحة شعرها، كانت أنياب القرد ظاهرة في تكشيرته العدوانية، فيما كان جد هارييت الظاهر جانبياً في الصورة مبتسماً ابتسامة كبيرة لعروسه القردية، وتحت الصورة كان مكتوباً بخط يد إيدي نفسها: إيديث وهاورد

أوشن سبرينغز، ميسيسيبي

11 حزيران 1935م

وقف الاثنان ينظران إلى الصورة.

قال هيلي: «أنت محقّة، هذه جيدة فعلاً».

«صحيح، فكرت في صورة الضبع، ولكن هذه أفضل».

ما إن فرغا من إعادة الموسوعة إلى الرف والألبوم إلى غلافه (غلاف منقوش ومذهب بتزيينات فكتورية) حتى سمعا صوت

عجلات سيارة إيدي في الممر المفروش بالحصى.

سمعا نداءها: «يا بنات!»، كانت نبرة صوتها عملية كعادتها.

لم ترد هاريت وأليسون.

«يا بنات، قررت أن أكون طيبة وأحضر معي القط كي تستطيعا إقامة جنازة له، ولكن إذا لم تجبني إحداكما فوراً، فسوف أعود من حيث أتيت وأخذ القط إلى عيادة الدكتور كلارك».

ركض الأطفال الثلاثة نحوها ووقفوا أمامها. نظرت إليهم إيدي، وقد رفعت حاجبها بدهشة مصطنعة وقالت لـ هيلي: «ماذا؟ من تكون هذه الأنسة الصغيرة؟» كانت مهتمة جداً به، إذ كان يذكرها برويين، على الرغم من شعره الطويل الفظيع، ولم تكن منتبهة إلى أن ما كانت تعدّه مزاحاً لطيفاً مع الطفل كان يثير في نفسه كراهية مريرة. أضافت مشيرة إليه: «هل هذا أنت، يا هيلي؟ لم أعرف وجهك تحت خصلاتك الذهبية».

ضحك هيلي بسخرية: «كنا ننظر إلى صورك».

ركلته هاريت.

قالت إيدي: «الحقيقة أن هذه الصور ليست ممتعة كثيراً»، ثم

توجهت إلى حفيدتيها: «رأيت أنكما قد تكونان راغبتين في دفن القط في فناء بيتكما، لذا توقفت في طريق العودة وطلبت من تشيستر أن يحضر له قبرًا».

قالت أليسون: «أين ويني؟» كان صوتها خشنًا وعيناها تبدوان متوحشتين «أين هو؟ أين تركت ويني؟»
«تركته عند تشيستر، لا يزال ملفوفًا بمنشفته، أقترح ألا تفتحها».

قال هيلي وهو يلكر هاربيت بكتفه: «هيا! دعينا ننظرا!»
كانا يقفان في سقيفة الأدوات المظلمة في فناء بيتها، حيث كانت جثة ويني ملفوفة بمنشفة حمام زرقاء على الطاولة التي يعمل عليها تشيستر، وكانت أليسون التي لا تزال تبكي تفتش الدروج في السقيفة باحثة عن كنزة قديمة كان القط يحب النوم عليها لتدفنها معه.

ألقت هاربيت نظرة عبر نافذة السقيفة المغبرة، فرأت تشيستر يحفر الأرض بهمة في زاوية المرج تحت شمس الصيف.

قالت: «لا بأس! لكن عليك أن تسرع قبل أن تعود».

لم تدرك هاربيت حينها أنها كانت أول مرة ترى فيها أو تلمس مخلوقًا ميتًا، لم تكن تتوقع أن تكون صدمتها بهذا الحجم؛ كان جسد القط باردًا ومتصلبًا وقاسيًا عند لمسه، وسرت رعشة بغيضة في أصابعها.

اقترب هيلي كي يلقي نظرة أفضل، وقال باستهجان: «فظيع!»
داعبت هاربيت فراء القط البرتقالي، كان لونه لا يزال برتقاليًا،

ناعماً كعهده على الرغم من تخشب جسده المفزع تحت فرائه،
قوائمه ممتدة ومتصلبة كأنه يستعد ليلقى به في دلو ماء، وعيناه
اللتان ظللتا خضراوين ورائقتين في شيخوخته كانت تغطيهما الآن
طبقة هلامية.

انحنى هيلي ليلمس القط أيضاً، لكنه تراجع سريعاً وصاح:
«أوه! فضيع!»

لم ترتجف هاربيت، ومدت يدها برفق لتلمس البقعة الوردية
على جانب القط التي لم ينم الشعر فيها بعد أن أكلته الديدان
عندما كان قطاً صغيراً، لم يكن ويني في حياته يسمح قط لأي
شخص بأن يلمسه هناك: كان يهاجم أي شخص يحاول فعل ذلك
حتى أليسون، ولكن كان هامداً الآن، وقد تراجعت شفثاه لتكشفان
عن أسنانه الحادة كأنها إبر، وكان جلده متشنجاً وقاسياً مثل قفاز
قديم، وكان بارداً بارداً بارداً.

إذاً هذا هو السر، هذا ما علمه الكابتن سكوت وعلمه أليعازر
وعلمه روبين، بل حتى القط علمه في ساعته الأخيرة: هذا هو
السر الذي يقود إلى النافذة الملونة، عندما عثروا على خيمة
سكوت بعد ثمانية أشهر من موته، كان باورز وويلسون مستقلين
في أكياس نوم مغلقة فوق رأسيهما، فيما كان سكوت في كيس نوم
مفتوح وذراعه ملقاة فوق ويلسون، كان ذلك في القارة المتجمدة
الجنوبية في صبيحة يوم أخضر من شهر أيار، ولكن الجسد
الذي كان تحت يد هاربيت كان قاسياً كالجليد، مرت بإصبعها
على قائمة ويني البضاء، كتب سكوت بيده المتبيسة عندما كان
البياض الناعم يطبق عليه آتياً من مساحات بضاء شاسعة،

وكانت الحروف الواهية التي يكتبها قلمه تغدو واهية أكثر فأكثر على الورقة البيضاء: هذا مؤسف، لكني لا أظن أنني قادر على الكتابة أكثر!

قال هيلي، وهو يقترب منها: «أراهنك أنك لن تلمسي عينه، أتحداك!»

لم تسمعه هاربيت، هذا ما رأيته أمها وما رأيته إيدي: الظلام الذي يحيط بهما، والرعب الذي لا مفر منه، كلمات تتساقط عن الورق كأنها تفرق في هوة سحيقة.

في عتمة السقيفة الباردة اقترب هيلي أكثر وهمس في أذنها: «هل أنت خائفة؟»، تسللت يده إلى كتفها.

قالت هاربيت: «كف عن هذا»، وابتعدت عنه.

سمعت صوت إغلاق الباب، وأمها تتادي أليسون، فأسرعت وأعادت تغطية القط بالمنشفة.

لن يفارقها هذا الحدث أبداً، ولن يتركها دوار هذه اللحظة، سيظل يرافقتها بقية عمرها، وسيظل عالقاً في ذهنها مع صور السقيفة ذات الإنارة الخافتة، وأسنان المنشار المعدنية اللامعة، وروائح الغبار والبنزين، وصورة ثلاثة رجال إنكليز ميّتين تحت ثلوج القارة المتجمدة، والإبر الجليدية تلمع في شعرهم، ذاكرة مفقودة: طوفانات جليدية، ومسافات شاسعة، وجسد استحال حجراً، رعب الجثث كلها.

قال هيلي مشيراً برأسه: «هيا! فلنخرج من هنا».

قالت هاربيت: «أنا قادمة».

كان قلبها يخفق بشدة، وأحسّت أنفاسها مختنقة، ليس خوفاً

مع أن السيدة فاونتين لم تسمم القط فقد كانت مسرورة لموته. من نافذتها فوق المجلى حيث كانت تقف ساعات تراقب الداخلين والخارجين من جيرانها، رأت تشيستر يحفر الحفرة، والآن وهي تراقب من نافذة المطبخ، رأت الأطفال الثلاثة مجتمعين حولها: الطفلة الصغيرة هاربيت حاملة حزمة بين ذراعيها، والبنت الكبيرة تبكي.

دفعت السيدة فاونتين نظارتها ذات الإطار الصدفي إلى أسفل أنفها، وألقت على كتفيها ثوبًا ذا أزهار مزينة ارتدته فوق فستانها البيتي، كان يومًا دافئًا ولكنها تبرد بسهولة، لذا ارتدت الثوب لتعزيز ملابسها قبل الخروج، خرجت من باب بيتها الخلفي ومضت صوب السياج.

كان الطقس منعشًا والنسيم عليلًا، والسماء مليئة بالسحب المنخفضة، وكان العشب مهملاً بحاجة إلى الجز، مؤسف كم تهمل تشارلوت هذا البيت! كان العشب مبرقشًا بأزهار البنفسج وزهور الحميض البري والهندباء التي نضجت بذورها، والنسيم يثير في العشب أمواجًا وتيارات وزوابع عشوائية مثلما تفعل الريح بالبحر، تتماوج أذرع الويستريا الرقيقة المتدلية من الشرفة كأعشاب البحر، وتتدلى بكثافة على جدار البيت الخلفي لدرجة أنه لا يمكن رؤية الشرفة خلفها. كانت الويستريا جميلة عندما تزهر، ولكنها تصبح شعناء عندما لا تكون في موسم الإزهار، حتى أنها تكاد تجرّ الشرفة إلى السقوط بسبب ثقلها؛ الويستريا

نبته طفيلية تضعف هيكل البيت إن تركها المرء تنمو بلا حدود، ولكن من الناس من لا يتعلم إلا بأصعب الطرق.

توقعت أن يرحب الأطفال بها فوقفت عند السور بضع لحظات تراقبهم، ولكنهم لم يعيروها انتباهًا وظلوا مشغولين بما يفعلون.

نادتهم بصوت عذب: «ماذا تفعلون هناك يا أطفال؟»

رفعوا رؤوسهم وفد جفلوا مثلما يجفل ظبي.

«هل تدفنون شيئًا؟»

صاحت هاربيت بنبرة لم تعجب السيدة فاونتين كثيرًا: «لا». يا لها من معتوهة تلك الطفلة.

«يبدو لي أنكم تدفنون شيئًا».

«لا، نحن لا ندفن شيئًا».

«أظنكم تدفنون ذلك القط البرتقالي العجوز».

لم يجب أحد.

ضيقت السيدة فاونتين عينيها، ونظرت من فوق حافة نظارتها. نعم.. البنت الكبيرة تبكي، غريب! لقد كبرت على هذه التفاهات! والصغيرة تضع شيئًا مغلفًا في الحفرة.

صاحت السيدة فاونتين بصوت خشن: «لكن هذا بالضبط ما تفعلونه! لا تحاولوا خداعي، كان هذا القط مزعجًا، وكان يأتي إلى حديقتي كل يوم ويترك آثار قوائمه القذرة على زجاج سيارتي!»

قالت هاربيت لأختها: «لا تلتفتي إليها»، وأضافت من بين أسنانها: «عاهرة عجوز».

لم يحدث من قبل أن سمع هيلي شتائم بذئئة من هاربيت،

سرت رعشة خبيثة من رقبتة إلى ظهره فكرر خلفها: «عاهرة»،
بدا له أن تلك الكلمة البذيئة حلوة على لسانه.

صاحت السيدة فاونتين: «ما هذا؟ من منكم قال هذا؟»
قالت هاربيت لهيلي: «أطبق فمك».

«من منكم قال هذا؟ من هذا الذي معكم أيتها الفتاتان؟»

كانت هاربيت قد ركعت على ركبتيهما، وراحت تهيل التراب في
الحفرة بيديها العاريتين فوق المنشفة الزرقاء، صاحت: «هيا يا
هيلي، ساعدني».

زعقت السيدة فاونتين: «من هذا الذي هناك؟ من الأفضل أن
تجيبوني، سأدخل البيت فوراً وأتصل بأمكما».

قال هيلي وقد تشجع وزادت جرأته: «خراء».

ركع بجانب هاربيت وبدأ يساعدها في حفر التراب بسرعة،
فيما كانت أليسون واقفة فوقهما، وقد وضعت يدها على فمها
ودموعها تتساب على وجهها.

«أنتم يا أطفال، من الأفضل لكم أن تجيبوا».

قالت أليسون فجأة: «انتظرا انتظرا»، نهضت عن القبر
وركضت على العشب متجهة إلى البيت.

توقف كل من هاربيت وهيلي، وبداهما لا تزالان في التراب.

همس هيلي وهو يمسح حاجبه برسغ يده الموحلة: «ماذا
تفعل؟»

قالت هاربيت حائرة: «لا أدري».

صاحت السيدة فاونتين: «هل هذا ابن هال الصغير؟ تعال

هنا، سوف أتصل بأمك، تعال هنا في الحال».

تمتم هيلي: «أذهبي واتصلي بها يا عاهرة، هي ليست في البيت».

سُمع صوت إغلاق الباب، جاءت أليسون مسرعة متعثرة، ذراعها على وجهها ودموعها تعمي عينيها، قالت: «هذا». ركعت إلى جوارهم وألقت شيئاً في القبر المفتوح، انحنى هيلي وهاربيت ليروا ما ألقت به، كانت صورة أليسون تبتسم لهم من الحفرة، تلك الصورة التي التقطتها في الاستوديو من أجل المدرسة في الخريف الماضي تظهر، فيها مرتدية كنزة وردية اللون لها ياقة مخرّمة وفي شعرها شرائط وردية.

غرفت أليسون بيديها حفنة من التراب وهي تبكي بحرقة، ورمتها في القبر فوق صورتها الباسمة، خشخش التراب عند اصطدامه بالصورة، بقيت كنزة أليسون الوردية ظاهرة بضع لحظات، وعيناها الخجولتان تتظران بأمل من خلال التراب الذي تراكم فوقها، ثم سقطت عليهما حفنة تراب أخرى فغابتا.

صاحت نافذة الصبر فيما كان الاثنان الأصغر منها سناً يحدقان إلى الحفرة حائرين: «هيا! هيا! يا هاربيت، ساعديني!» صاحت السيدة فاونتين من جديد: «هذا ما سأفعله، سأدخل إلى البيت، سأذهب إلى الهاتف فوراً وأتصل بوالديكم، انظروا! أنا ذاهبة الآن، وسوف تتدمون كثيراً على هذا».

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل الثاني

الشحور

بعد بضع ليال قرابة الساعة العاشرة أدارت هاربيت المفتاح في قفل خزانة الأسلحة فيما كانت أمها وأختها نائمتين في الطابق العلوي، كانت تلك الأسلحة قديمة وتحتاج إلى صيانة؛ فقد ورثها والد هاربيت عن عمّه الذي كان يحب جمعها، لم تكن هاربيت تعرف شيئاً عن هذا العم الغامض الذي اسمه كلايد، لم تكن تعرف سوى مهنته (الهندسة)، وطبعه (قالت أديلaid التي كانت معه في المدرسة الثانوية باشمئزاز إن طبعه «صعب»)، ونهايته المأساوية (سقطت طائرته في البحر عند سواحل فلوريدا)، وبما أنه كان قد «فُقد في البحر» (هذه العبارة التي استخدمها الجميع)، فإن هاربيت لم تفكر يوماً في العم كلايد على أنه ميت بالمعنى الدقيق للكلمة، كلما ذُكر اسمه كان يتبادر إلى ذهنها صورة غامضة لرجل ملتج رث الملبس يشبه بن غان في «جزيرة الكنز»، يعيش حياة الوحدة على جزيرة صغيرة جرداء مالحة، يرتدي بنطلوناً ممزقاً وساعة يد متآكلة بسبب مياه البحر.

وضعت هاربيت راحة يدها على الزجاج كي لا يصدر صوتاً مزعجاً عند فتحه ثم فتحت الباب القديم بحذر شديد، اهتز الباب قليلاً عندما فتح، وفي رف الخزانة العلوي كان هناك علبة تحتوي على مسدسات قديمة؛ مسدسات صغيرة مزدوجة الفوهة مطعمة بالأصداف والفضة، وأخرى من نوع ديرنغر صغيرة وعجيبة الأشكال لا يزيد طول الواحدة منها على أربعة إنشات. تحت رف المسدسات كان هناك أسلحة أطول، مرتبة بحسب

تاريخها، مائلة إلى اليسار: بنادق كنتاكي ذات الزناد الصواني، وبندقية بليزر كالحة المظهر وزنها خمسة باوندات، وبندقية أخرى مغطاة بالصدأ من النوع الذي يُشحن من فوهته يقال إنها شاركت في الحرب الأهلية، ومن بين الأسلحة الأحدث كان أكثرها جاذبية بندقية وينتشستر من الحرب العالمية الأولى.

كان والد هاربيت صاحب هذه المجموعة شخصًا غريبًا وصعب التعامل معه، وكان الناس يكثرون من الحديث عن سبب انتقاله إلى ناشفيل مع أنه لا يزال متزوجًا من أم هاربيت، ومع أن هاربيت لم تعرف قط تفاصيل ترتيب حياتهم (باستثناء أنها كانت على علم بأن عمل والدها بعيد عن البيت)، فإنها كانت تجد هذا الترتيب غريبًا، فوالدها كان يعيش بعيدًا عن البيت طوال حياتها. كان يرسل شيكًا ماليًا كل شهر لتسديد نفقات الأسرة، وكان يأتي في أعياد الميلاد وعيد الشكر، ويقيم معهم بضعة أيام في الخريف عندما يكون في طريقه إلى مخيم الصيد في الدلتا. بالنسبة إلى هاربيت كان هذا الترتيب منطقيًا تمامًا، فقد كان يناسب طباع الطرفين: أمها التي كانت طاقتها منخفضة جدًا (كانت تقضي معظم ساعات اليوم في الفراش)، ووالدها الذي كان يتمتع بطاقة فائضة، لكنها طاقة غير مرغوب فيها. كان والدها يأكل بسرعة، ويتحدث بسرعة، ولا يطيق البقاء ساكنًا إلا إذا كان في يده كأس من الشراب. كان دائمًا يمازح الآخرين ويبدو في نظرهم شخصًا هزليًا، لكن نوبات مزاجه غير المتوقعة لم تكن قط مصدر تسلية، وكانت طريقته في قول ما يتبادر إلى ذهنه جارحة لمشاعر أفراد أسرته.

وكان هناك ما هو أسوأ من ذلك: كان والد هاربيت مصيباً في رأيه دائماً، حتى عندما يكون مخطئاً. كان كل شيء بالنسبة إليه اختباراً للإرادات، كان رجلاً يحب الجدال على الرغم من تصلبه الشديد في آرائه، وحتى عندما يكون في مزاج جيد (جالساً في كرسيه، وفي يده كأس كوكتيل وهو نصف منتبه إلى التليفزيون)، كان يحب مضايقة هاربيت وإزعاجها، فقط ليثبت لها أنه زعيم البيت.

كان يقول لها: «الفتيات الذكيات لا يتمتعن بشعبية كبيرة»، أو «لا معنى لتعليمك ما دمت ستكبرين وتتزوجين». وعندما كانت هاربيت تغضب من هذه الكلمات، التي يعتبرها والدها حقائق مسلماً بها، وترفض قبولها، كانت تحدث المشكلات. ففي بعض الأحيان كان يجلدها بالحزام لأنها كانت ترد عليه، فيما كانت أليسون تنظر إليهما برعب غير قادرة على الحركة، أما أمهما فكانت تختبئ في غرفتها خائفة. وأحياناً أخرى كان يعاقبها بتكليفها بمهمات جسيمة لا تستطيع إتمامها (مثل جز عشب الفناء بمقص الأشجار، أو تنظيف العلية بمفردها)، وعندما كانت ترفض تنفيذ هذه المهام، كانت آيدا ريو تشير إلى باب العلية بعد أن يكون والدها قد نزل إلى الطابق السفلي وتقول لها بعينين قلقتين: «هيا! من الأفضل لك أن تعلمي حتى لا يضربك عند عودته».

لكن هاربيت كانت تنظر غاضبة إلى أكوام الأوراق والمجلات القديمة، وترفض أن تتصاع للأوامر حتى لو عاقبها بالجلد على ذلك، فذلك لا يهمها؛ المهم أن تتمسك بمبادئها، وعندها كانت

أيذا تشعر بقلق عميق على هارييت فتترك عملها وتصعد إلى العلية لتتظفها بنفسها.

وبما أن والدها كان شخصًا مزعجًا يحب الجدال والمشاجرات ولا يرضيه شيء، فقد بدا في نظر هارييت أنه من الصواب ألا يعيش معهم في بيت واحد، لم تكن ترى في هذا الأمر شيئًا غريبًا، ولم تكن منتبهة إلى أن الناس يجدون فيها أمرًا غريبًا. لكن ذلك تغير في أحد الأيام عندما كانت في الصف الرابع، تعطلت حافلة المدرسة في طريق ريفي، كانت هارييت تجلس إلى جانب فتاة أصغر منها تدعى كريستي دولي، فتاة كثيرة الكلام ذات أسنان أمامية كبيرة، كانت كريستي تأتي إلى المدرسة مرتدية معطفًا واقيًا من المطر أبيض اللون، على الرغم من أنها كانت ابنة شرطي، فإن مظهرها الشبيه بالفأر الأبيض وسلوكها العصبي لم يوحى بذلك.

كانت كريستي تثرت بلا توقف وهي تأكل حساء الخضار من ترمس، وتروي أسرارًا متنوعة سمعتها من أهلها في البيت عن المعلمين وعن أسر الأطفال الآخرين، كانت هارييت تنظر من النافذة غارقة في أفكارها، تنتظر أن يأتي أحد ليصلح الحافلة، حتى لفت انتباهها فجأة أن كريستي تتحدث عن أبيها وأمها.

التفتت هارييت نحوها، وحدثت إليها، همست كريستي وهي تقترب منها في معطفها الأبيض (تحب دائمًا أن تقترب من الآخرين بطريقة غير مريحة): «أوه، هذا ما يعلمه الجميع!» ثم أضافت كريستي بنبرة ساذجة: «ألم تسألني نفسك يومًا عن سبب عيش والدك خارج البلدة؟».

أجابت هاربيت ببساطة: «إنه يعمل هناك».

لم تكن انتبهت من قبل إلى ضعف هذا التفسير، لكن كريستي أطلقت تهيدة صغيرة كما يفعل الكبار، ثم تابعت: «أراد والدك الانتقال بعد موت روبين.. أراد أن يذهب إلى بلدة جديدة، إلى مكان يبدأ فيه من جديد» اتسعت عينا كريستي بثقة شديدة فشعرت هاربيت بالرهبة، ثم أضافت كريستي: «لكن أمك رفضت الذهاب وقالت إنها ستظل هنا إلى الأبد» كانت كريستي تتحدث عن أم هاربيت كأنها تروي قصة عن امرأة أخرى.

ابتعدت هاربيت عن كريستي وعادت إلى النظر من النافذة، فقد كان وجود كريستي إلى جانبها مزعجًا.

سألتها كريستي بنبرة خبيثة: «هل أنت غاضبة؟»
«لا».

«إذا ما المشكلة؟»

«إنها رائحة الحساء في أنفاسك».

في السنوات التي تلت ذلك سمعت هاربيت أحاديث أخرى من الأطفال والكبار على حد سواء، وكلها كانت تشير إلى شيء «غريب» يتعلق بأسرتها، لكن هاربيت كانت ترى في تلك الأحاديث مجرد كلام سخيف، فترتيب حياتها العائلية كان عمليًا تمامًا وعبريًا، كان والدها يعمل في ناشفيل ويكفي دخله لتغطية نفقات الأسرة، لكنهم لم يكونوا سعداء بزياراته في العطلات، فهو لا يحب أيدي ولا يحب الخالات، وكان الجميع في ضيق من أسلوبه الخشن والمزعج في التعامل مع أم هاربيت.

ففي عيد الميلاد السابق ظل يُلح عليها كي تذهب معه إلى إحدى الحفلات حتى وافقت على الذهاب أخيراً (دَلِّك كَتْفِيهَا فوق قميص نومها الرقيق). لكن عندما جاء وقت الاستعداد جلست على طاولة الزينة، ملتفة بمنشفة الحمام، تحقق إلى صورتها المنعكسة في المرآة دون أن تضع أحمر الشفاه أو تزيل الدبايس من شعرها، وعندما تأخرت صعدت أليسون إلى الطابق العلوي للاطمئنان عليها فأخبرتها بأنها مصابة بصداع شديد، ثم أغلقت باب الحمام عليها وفتحت صنوبر الماء.

ضرب والد هاربيت باب الحمام بقبضتيه، ووجهه محمرٌّ من الغضب، كانت ليلة عيد ميلاد بائسة: جلست هاربيت وأليسون متخشبتيْن في غرفة المعيشة عند شجرة عيد الميلاد، في حين كانت ترانيم العيد تصدح من جهاز التسجيل، وعلى الرغم من بهجة تلك الترانيم وعلو صوتها، فإنها كانت غير قادرة على إخفاء أصوات الصياح التي كانت تصدر من الطابق العلوي.

ثم جاء الفرج عندما خرج والد هاربيت مندفعاً نحو سيارته حاملاً حقيبته وكيساً من هدايا عيد الميلاد، ليفادر مجدداً إلى تينيسي في تلك الساعة المبكرة من بعد الظهر، بعد مغادرته تنفست الأسرة جميعها الصعداء وعادت إلى حياتها الطبيعية. كان بيت هاربيت مكاناً خمولاً؛ فالجميع فيه يحب النوم، باستثناء هاربيت التي كانت يقظة دائماً قليلة النوم بطبيعتها، كانت تشعر بالضجر الشديد عندما تكون الوحيدة المستيقظة في هذا البيت الصامت والمظلم (كان ذلك يحدث كثيراً)، حتى أنها من شدة ضجرها تصبح غير قادرة على فعل شيء سوى

التحديق إلى النافذة أو الجدار كما لو كانت مُخدّرة. كانت أمها تقضي معظم وقتها في غرفتها، وعندما تذهب أليسون إلى سريرها، (في وقت مبكر معظم الليالي) في الساعة التاسعة تقريبًا، تظل هاربيت جالسة بمفردها، تشرب الحليب مباشرة من العلبة، وتتنقل في أنحاء البيت بجواربها بين أكوام الصحف المتراكمة في كل غرفة تقريبًا.

منذ وفاة رويين نشأت عند أمها حالة غريبة من العجز عن التخلص من أي شيء، حتى امتلأت العلية والقبو بالأشياء التالفة التي بدأت الآن تغزو باقي الغرف.

أحيانًا كانت هاربيت تجد متعة في أن تكون وحيدة؛ فتشعل الأضواء، وتشغل التلفاز أو جهاز التسجيل، وتتصرف كأنها في عالم خاص بها. كانت تتصل أحيانًا بالرقم الذي يتلو الصلوات عبر الهاتف، أو تفتعل «مقالب» مع الجيران، تأكل ما تشاء من الطعام في البراد، وتتسلق الرفوف المرتفعة وتتنظر في الخزائن التي يُمنع عليها فتحها، تقفز على الأريكة حتى تشكو النوابض، وتجمع الوسائد على الأرض لتبني بها قلاعًا وأطواق نجاة. وفي بعض الأحيان، كانت تخرج من الخزانة ملابس أمها القديمة من أيام المدرسة: كنزات ملونة أحدث فيها العث ثقوبًا، وقفازات تصل إلى المرفقين من كل لون، وثوب تخرج مائي اللون كانت هاربيت ترتديه وتجره على الأرض خلفها. كان هذا سلوكًا متهورًا، فأمرها شديدة الحرص على ملابسها على الرغم من أنها لا ترتديها، ولكن هاربيت كانت دائمًا حريصة على إعادة كل شيء إلى مكانه، وإن كانت أمها قد لَحِظت أي شيء غريب فإنها لم تتحدث عنه.

كانت الأسلحة جميعها غير محشوة، ولم يكن في الخزانة ذخائر باستثناء علبة تحتوي على خراطيش صيد من قياس اثنتي عشرة حبة، كانت هاربيت التي لا تعلم شيئاً عن الفرق بين البندقية العادية وبندقية الخرطوش. تفرغ العلبة على السجادة وتصف الخراطيش بطريقة نجمية. كانت لأحد البنادق الكبيرة حرية متصلة بها، وهو أمر لافت، لكن بندقية وينتشستر ذات المنظار كانت المفضلة لديها. كانت تُطفئ مصباح السقف، وتسد البندقية إلى نافذة غرفة المعيشة، وتغمض إحدى عينيها وتنظر عبر المنظار، تراقب السيارات المتوقفة في الخارج، والأرصعة الالامعة تحت ضوء المصابيح، ومرشّات الماء التي تدور وسط المروج الخضراء، كانت تشعر كأنها تُدافع عن الحصن، وأن حياتهم جميعاً تعتمد على صمودها في هذا الموقع.

كان صوت أجراس الرياح يأتي من شرفة بيت السيدة فاونتين عبر المرج الذي طالت أعشابه كثيراً، وعلى امتداد ماسورة البندقية كانت ترى الشجرة التي توفي شقيقها عندها، والنسيم يهمس بين أوراقها الالامعة، فتترنح ظلالها المتراقصة فوق العشب.

أحياناً، عندما تتجول هاربيت في البيت المظلم ليلاً، كانت تشعر بشقيقها الراحل يقترب منها؛ صمته ودود، واثق، تسمع خطواته في صرير ألواح الأرضية، وتشعر به في اهتزاز الستارة مع النسيم أو باب يتأرجح مفتوحاً بمفرده، أحياناً كان شقيقاً، يخفي كتابها أو سكاكرها ثم يعيدهم إلى مقعدها عندما لا تتبّه، كانت تستمتع بصحبته، تخيلت أن المكان الذي يقيم فيه شقيقها

مظلّم دائماً، وأنه يبقى وحيداً عندما تكون بعيدة: متململاً، يشعر بالوحدة، يورّج قدميه في غرفة انتظار مليئة بالساعات الجدارية.

قالت في نفسها وهي في حالة تأهب: إنني هنا! كانت تشعر بدفء حضوره بوضوح عندما تجلس عند النافذة حاملة البندقية، مضت اثنتا عشرة سنة منذ موت شقيقها، تغيرت خلالها أشياء كثيرة ولكن المشهد عبر نافذة غرفة المعيشة لم يتغير؛ حتى الشجرة بقيت مكانها.

آلمتها ذراعاها، وضعت البندقية بعناية أسفل كرسيها، وذهبت إلى المطبخ لتحضر قطعة آيس كريم، عادت إلى غرفة المعيشة وأكلته عند النافذة في الظلام دون استعجال، وضعت عود الثلجات فوق كومة الصحف وعادت إلى تسديد بندقيتها، كانت الثلجات بنكهة العنب المفضلة لديها، كان هناك مزيد منها في الثلاجة، ولن يعاتبها أحد إن أكلت العلبة كلها، ولكن ليس سهلاً أن تأكل الثلجات وهي تحافظ على البندقية مسددة إلى الخارج. حرّكت البندقية عبر السماء المظلمة متتبعة طائراً ليلياً يطير عبر السحب المضاءة بضوء القمر، فجأة سمعت صوت إغلاق باب سيارة، أدارت البندقية بسرعة صوب الصوت، وركزت على السيدة فاونتين التي عادت متأخرة من تدريب جوقة الكنيسة، سارت السيدة فاونتين في الممر أمام البيت تحت وهج مصابيح الشارع غير مدركة أن أحد أقراطها اللامعة يقع في مركز تقاطع منظر بندقية هاربيت، أطفأت مصباح الشرفة ثم أضاءت أضواء المطبخ. ظهر ظل السيدة فاونتين ذو الكتفين المتهدلتين والوجه

الذي يشبه الماعز خلف ستارة النافذة كأنها دمية في مسرحية للأطفال.

همست هاربيت: «بوم!»، حركة صغيرة، ضغطة صغيرة بإصبعها، وستكون السيدة فونتين في المكان الذي تنتمي إليه؛ في الجحيم مع الشيطان، ستكون مرتاحة هناك بقرنيها الملتفين البارزين من جبهتها وذيلها المدبب كالسهم الذي يظهر من تحت فستانها، ستتجول في الجحيم دافعة عربة التسوق أمامها.

رأت سيارة تقترب.. فأبعدت البندقية عن السيدة فاونتين وتابعت السيارة في منظرها المكبر، كان فيها مراهقون يقودون بسرعة جنونية، ونوافذها مفتوحة، راقبتها حتى انعطفت السيارة عند زاوية الشارع واختفت مصابيحها الخلفية.

وهي تعود بالمنظار إلى السيدة فاونتين رأت نافذة مضاءة، وسرّها أن تجد نفسها في غرفة طعام عائلة غودفري في الناحية الأخرى من الشارع، كان عائلة غودفري تتألف من رجل وامرأة في الأربعينيات دون أطفال، كانا فرحين ووجهاهما متوردين واجتماعيين وناشطين في الكنيسة المعمدانية، وكان مريحاً لها أن تراهما مستيقظين يتحركان في الغرفة، كانت السيدة غودفري واقفة تملأ صحنًا من علبة الآيس كريم الأصفر، وكان السيد غودفري جالسًا إلى الطاولة وظهره إلى هاربيت، كانا وحيدين في الغرفة، كان على الطاولة مفرش من الدانتيل، ومصباح خافت ظلّه وردي في الزاوية، كل شيء واضح، وكل شيء لطيف، حتى الرسوم على أطباق الآيس كريم عندهم (رسوم على هيئة أوراق الكرمة) ودبابيس الشعر في رأس السيدة غودفري.

كان منظار بندقية وينتشستر يتيح رؤية تفاصيل الأشياء الدقيقة، أسندت وجنتها إلى عقب البندقية الذي كان أملس وكانت برودته لطيفة جداً.

كانت على ثقة تامة بأن رويين يراقبها في هذه الليالي، يراقبها مثلما تراقبه، كانت تشعر بأنفاسه على ظهرها: هادئة، ودودة، مسرورة برفقتها، ولكن ظلال البيت المظلم وصريره لا يزالان يخيفانها أحياناً.

تململت هاربيت وشعرت بأن البندقية صارت ثقيلة بين يديها، غيرت جلستها على الأريكة، في بعض الليالي كانت تدخن سجائر أمها خلصة، وفي ليالٍ أخرى كان الأمر أسوأ فتعجز حتى عن القراءة، كانت الحروف في كتبها (حتى المفضلة منها مثل «جزيرة الكنز» و«اختطاف») تتبدل لتصبح رموزاً غامضة عدوانية كأنها مكتوبة بلغة صينية غير مفهومة فتخلق شعوراً بالضيق والانزعاج لا يمكن التخلص منه.

اشتد ضيقها ذات يوم فحطمت تمثالاً خزفياً صغيراً على شكل قطرة، كان عزيزاً على أمها وتملكه منذ طفولتها، عندما أدركت ما فعلته استبد بها الذعر، فجمعت الشظايا في منديل ورقي وأخفته داخل علبة حبوب إفطار فارغة، ثم دفنت العلبة في قعر سلة القمامة. مرت سنتان على تلك الحادثة، وعلى حد علم هاربيت، لم تلاحظ أمها غياب ذلك التمثال من خزانة الخزفيات، ومع ذلك كلما فكرت في الأمر كانت تشعر بإحساس غريب ومزعج أشبه بالغثيان، كان ذلك الإحساس يزداد عندما تراودها فكرة فعل شيء مشابه: تحطيم فنجان شاي أو تمزيق مفرش طاولة

بالمقص، كانت تعلم أنها قادرة على إشعال البيت برمته إن أرادت، ولن يكون هناك من يمنعها.

حجبت غيمة بلون الصدا القمر، أعادت هاربيت تسديد البندقية نحو نافذة آل غودفري، كانت السيدة غودفري تتناول الآيس كريم ببطء، وتتحدث مع زوجها بين لقمة وأخرى، وجهها يحمل تعبيراً بارداً يوحي بالضيق، كان السيد غودفري مستنداً بمرفقيه إلى الطاولة، ولم تكن هاربيت قادرة على رؤية شيء منه سوى خلفية رأسه الأصلع، تلك البقعة الصلعاء التي كانت في مرمى بندقيتها تماماً، لم تستطع أن تحدد إن كان يجيب زوجته أو حتى يصفي إليها.

فجأة نهض الرجل وتمطى، ثم خرج من الغرفة دون أن تتفوه السيدة غودفري بكلمة، جلست وحدها إلى الطاولة، ومع آخر لقمة من الآيس كريم، مالت برأسها قليلاً كأنها تصفي إلى إجابة آتية من الغرفة الأخرى، بعدها نهضت وغادرت الغرفة وهي تسويّ تنورتها بيدها، ثم غدت الصورة سوداء. كان مصباح آل غودفري هو آخر مصباح مضاء في الشارع، فقد انطفأ مصباح السيدة فاونتتين منذ وقت طويل.

ألقت هاربيت نظرة على الساعة المنتصبية فوق رف الموقد، لقد تجاوزت الحادية عشرة، وعليها أن تنهض في التاسعة صباحاً كي تذهب إلى مدرسة الأحد.

لم يكن هناك ما يدعو للخوف؛ المصابيح متألقة في الشارع الهادئ، والبيت هادئ تماماً، ومع ذلك شعرت هاربيت ببعض التوتر. على الرغم من أن القاتل أتى إلى منزلها في وضح

النهار، فإن خوفها منه كان يشتد في الليل. حين يعود إليها في كوابيسها؛ يكون المكان مظلمًا دائمًا: نسيم بارد ينساب عبر البيت، والستائر تتطاير، والنوافذ والأبواب مفتوحة، كانت تجري لتغلقها، وتتأكد من أقفالها، وأما جالسة على الأريكة غير مهتمة بشيء وقد طلت وجهها بكريم بارد، ولا تحرك إصبعًا لمساعدتها. الوقت ينفذ قبل أن يتكسر الزجاج وتمتد يد ترتدي قفازًا كي تدير مقبض النافذة، وفي بعض الأحيان ترى هاربيت الباب يفتح لكنها تستيقظ دائمًا قبل أن ترى وجهًا.

جثت على يديها وركبتيها لتجمع الخرطوشات عن الأرض، أعادت ترتيبها في علبتها ومسحت البندقية بعناية لإزالة بصماتها، ثم أعادتها إلى مكانها، بعد ذلك أقفلت الخزانة وأعادت المفتاح إلى مكانه في العلبة الجلدية الحمراء في غرفة مكتب والدها، تلك العلبة التي تحتوي على قصاصة أظافر وبضعة أزرار أكمام غير متطابقة، وزوج من النرد في كيس صغير أخضر مصنوع من الجلد، ومجموعة من علب الكبريت الورقية التي تحمل أسماء نواذٍ ليلية في ممفيس وميامي ونيو أورلينز.

وفي الطابق العلوي خلعت ملابسها بصمت تام دون أن تضيء المصباح، كانت أليسون مستلقية في السرير المجاور منبطحة على وجهها كأنها جسد ميت يطفو على سطح الماء، تسلل ضوء القمر عبر النافذة، وانسكب على ملءات السرير في رسوم مرقطة تتحرك وتتراقص مع عبث الرياح بأوراق الأشجار في الخارج.

حول أليسون كانت هناك كومة من الدمى على أشكال حيوانات تحيط بها كأنها تتشبث بطوق نجاة، كان هناك فيل مرقّع، وكلب أبقع ضاع أحد زري عينيّه، وخروف صوفي أسود، وكنفر من المخمل القرمزي، بالإضافة إلى أسرة كاملة من الدببة الصغيرة. بدت تلك الدمى البريئة مجتمعة حول رأس أليسون في مشهد غريب وعذب غارقة في الظلال كأنها مخلوقات منبثقة من أحلامها.

قال السيد دايال: «والآن، أيها الأولاد وأيتها البنات...»، كان واقفاً أمام صف هاربيت وهيلي في مدرسة الأحد، يتفحص وجوههم بعينه الرمادية الباردة، كان أكثر من نصف الصف فارغاً بسبب حماسة السيد دايال المبالغ فيها لمخيم بحيرة دي سيلبي، وحملاته الدعائية غير المرغوب فيها بين أهالي تلاميذه.

تابع: «... أريد منكم جميعاً أن تفكروا دقيقة في موسى، لماذا كان شديد الحرص على قيادة بني إسرائيل إلى الأرض الموعودة؟» ساد صمت مطبق، تجولت نظرات السيد دايال بينهم مثل نظرة بائع يواجه زبائن غير مهتمين ببضاعته، كانت الكنيسة قد وسّعت برنامجها مستفيدة من باص المدرسة الجديد، وجلبت أطفالاً بيضاً فقراء من المناطق المحيطة لتزجّ بهم في غرف مدرسة الأحد ذات البرودة اللطيفة والانتساع الكبير في الكنيسة المعمدانية الأولى. كانت وجوههم متسخة ونظراتهم ماكرة، وأعينهم مسبلة تجول على أرضية الغرفة، وملابسهم لا تليق بمكان مثل الكنيسة، وحده كورتيس راتليف الفتى الضخم

المتأخر عقلياً الذي يكبر زملاءه بسنوات كان ينظر إلى السيد دايال بإعجاب فاغراً فمه.

قال السيد دايال: «فلنأخذ مثلاً آخر: ماذا عن يوحنا المعمدان؟ لماذا كان مصمماً على المضي في البراري وتمهيد الطريق لقدم المسيح؟»

لكن محاولة استقطاب انتباه أولئك الأطفال القادمين من عائلات مثل راتليف وسكورلي وأودوم كانت بلا جدوى، كانوا مثار شفقة: أعينهم متورمة ووجوههم ممثلة بثوراً، أمهاتهم يتشققن الصمغ وآبائهم زناة وأجسادهم مليئة بالوشوم. في اليوم السابق اضطر السيد دايال إلى إرسال زوج ابنته رالف (الذي يعمل في شركة «دايال شيفروليه») إلى أحد أفراد عائلة سكورلي كي يستعيد سيارة أولدزموبيل كوتلاس جديدة، كانت تلك قصة قديمة، قديمة: يتجول هؤلاء الناس بسيارات حديثة جداً وهم يعضغون التبغ ويشربون البيرة من زجاجات كبيرة دون اكتراث، على الرغم من تأخرهم ستة أشهر في دفع الأقساط، صباح الاثنين كان على رالف زيارة أفراد آخرين من عائلتي سكورلي وأودوم دون أن يعلموا بقدومه.

وقعت نظرة السيد دايال أخيراً على هاربيت، ابنة أخت الآنسة ليبي كليف، وصديقها هيلي من عائلة هال، هذان الطفلان من عائلات ألكساندريا القديمة، وهما يعيشان في منطقة جيدة، ولعائلتيهما عضوية في النادي الريفي، وهم يدفعون أقساط سياراتهم في موعدها، تقريباً.

قال السيد دايال: «هيلي!»

جفل هيلي ورفع عينيه المذعورتين عن نشرة مدرسة الأحد التي كان يطويها إلى مربعات صغيرة، ثم يفتحها ويعيد طيها. ابتسم له السيد دايال، وعلى وجهه ملامح جعلته يبدو مثل دلفين غير ودود بأسنانه الصغيرة وعينيه المتباعدتين وجبهته الناتئة، فضلاً عن اعتياده النظر إلى صفه جانباً بدلاً من أن ينظر إلى الأطفال مواجهة، كانت هذه كلها تضيف عليه هيئة تشبه قليلاً هيئة دلفين غير ودود.

قال له: «أفلا تخبرنا لماذا مضى يوحنا المعمدان يصيح في البراري؟»

أجابه هيلي إجابة ملتوية: «لأن يسوع طلب منه ذلك». قال السيد دايال وهو يفرك يديه معاً: «ليس تمامًا! فلنفكر جميعًا في وضع يوحنا المعمدان دقيقة! ألا نتساءل عمَّ جعله يستشهد بكلمات النبي أشعيا في...» مرر إصبعه على الصفحة... «(الآية رقم 23 هنا؟»

جاء صوت صغير من المقاعد الأمامية: «هل كان ينفذ مشيئة الرب؟»

كان الصوت آتياً من أنابيل آرنولد التي كانت تجلس بأدب عاقدة يديها في قفازيها فوق إنجيلها الأبيض ذي السحاب في حضنها.

قال السيد دايال: «جيد جدًا!»

كانت أنابيل من عائلة مسيحية ممتازة، مختلفة عن العائلات التي تحتسي الكوكتيلات في النادي الريفي مثل عائلة هال، كانت أنابيل واحدة من بطلات الاستعراض، قد لعبت دورًا بارزًا

في هداية زميل مدرسة يهودي صغير إلى المسيحية، وفي إحدى ليالي الثلاثاء، شاركت في مسابقة الاستعراض الإقليمية خلال سهرة المدرسة الثانوية، وهي مناسبة كانت شركة «دايال شيفروليه» من رعاتها الرئيسيين.

لاحظ السيد دايال أن هاريت توشك أن تتكلم؛ فسارع إلى القول: «هل سمعتم ما قالت أنابيل، أيها الأولاد والبنات؟» ابتسم ابتسامة عريضة وأكمل: «كان يوحنا المعمدان يتصرف وفق مشيئة الرب، ولماذا كان يفعل ذلك؟»، طرح السيد دايال هذا السؤال وأدار رأسه وراح ينظر إلى الصف بعينه الأخرى: «لأن يوحنا المعمدان كان لديه هدف».

عاد الصمت ليخيم على الغرفة.

«لماذا يُعد وجود أهداف في حياة الإنسان أمرًا بالغ الأهمية، أيها الأولاد والبنات؟»

في انتظار سماعه إجابة، راح يرتب مجموعة من الأوراق على مكتبه، في حين كانت الجوهرة في خاتمه الذهبي الضخم تتألق تحت الضوء، تابع: «فلنفكر في هذا الأمر مليًا! دون أهداف لن يكون لدينا حافز، أليس كذلك؟ دون أهداف لن نتمتع برفاه مالي، دون أهداف لن نستطيع تحقيق ما يريده منا المسيح كمسيحيين وكأفراد في هذا المجتمع».

أجفل قليلاً عندما رأى أن هاريت تحقق إليه بحدة، بنظرة أقرب إلى التحدي.

ضرب السيد دايال كفيه معًا وقال: «لا، يا سيدي! بل لأن الأهداف تجعل تركيزنا منصبًا على الأمور المهمة؛ من الضروري

أن يكون لكل واحد منا أهدافه بغض النظر عن عمرنا . علينا أن نحدد أهدافًا للسنة وللأسبوع بل حتى للساعة الواحدة، لأن غياب الأهداف يجعلنا بلا دافع، فدونها لن نجد حافزًا يدفعنا لترك التليفزيون والعمل من أجل كسب العيش في المستقبل».

خلال حديثه بدأ يوزع على الأطفال أوراقًا وأقلامًا ملونة، كأنه يرى في هذا التمرين فرصة لزرع أخلاقيات العمل فيهم خصوصًا أطفال عائلات راتليف وأودوم، هؤلاء في رأيه لن يتعلموا مثل هذه الأمور في منازلهم، حيث يعيش كثير منهم على حساب الحكومة ولا يساهمون بشيء يُذكر، كان هذا التمرين مستوحى من تجربة شخصية مر بها السيد دايال نفسه خلال مؤتمر للبائعين المسيحيين في بلدة لينتشرغ في فرجينيا الصيف الماضي، وهو تمرين وجد فيه أداة تحفيزية ممتازة.

قال للأطفال: «الآن، أريد منكم أن تكتبوا هدفًا تسعون لتحقيقه هذا الصيف»، ثم ضم يديه على هيئة برج كنيسة، وأطراف أصابعه تلامس شفتيه المشدودتين. أضاف: «يمكن أن يكون هذا الهدف مشروعًا عمليًا أو إنجازًا ماليًا أو تقدمًا شخصيًا، قد يكون شيئًا لمساعدة الأسرة أو المجتمع أو سبيلًا لخدمة الرب، لا داعي لأن تكتبوا أسماءكم إن لم ترغبوا، فقط ارسموها رمزًا صغيرًا يمثلكم في أسفل الورقة».

ارتفعت بضعة رؤوس ناعسة مذعورة.

قال السيد دايال وهو يعصر يديه: «لا حاجة إلى أي أمر معقد؛ على سبيل المثال تستطيعون رسم كرة قدم إذا كنتم تحبون الرياضة، أو تستطيعون رسم وجه سعيد إذا كان يسركم أن تجعلوا الناس يبتسمون».

جلس مرة أخرى على كرسيه، وبدأت ابتسامته العريضة تتلاشى تدريجيًا مع انشغال الأطفال بأوراقهم، وحلت محلها علامات ضيق بدت واضحة عند زوايا فمه، شعر السيد دايال باليأس وهو ينظر إلى هؤلاء الأطفال خصوصًا أولئك الذين ينتمون إلى عائلات راتليف وأودوم، كان من العبث في رأيه أن يتوقع أنه يستطيع تعليمهم شيئًا ذا قيمة.

نظر إلى وجوههم الصغيرة الكئيبة، بعضهم يضع طرف قلمه في فمه دون اكتراث، وبعضهم يبدو تائهًا في أفكار بعيدة. أدرك أن هؤلاء الأطفال بعد بضع سنوات فقط سيصبحون هم وأقرانهم مصدرًا دائمًا لانشغاله هو ووالف في استعادة السيارات التي تعثروا في سداد أقساطها تمامًا كما يحدث الآن مع آبائهم وأشقائهم.

مال هيلي محاولاً قراءة ما كتبته هاربيت في ورقتها، وهمس لها: «ماذا؟»، كان قد رسم كرة قدم لتكون رمزه، كما طُلب منه، ثم جلس نحو خمس دقائق محققًا أمامه في صمت ذاهل.

قال السيد دايال بنبرة تحذيرية: «لا أريد أن أسمع كلامًا هناك».

ثم نهض، وأطلق زفيرًا طويلًا قبل أن يبدأ بجمع الأوراق، قال وهو يضعها بعناية أمامه على الطاولة: «والآن، ليأت كل واحد منكم ويختَر ورقة من هذه الأوراق. لا، لا تركضوا كالسعادين! تعالوا واحدًا واحدًا» أضاف هذه العبارة عندما رأى بعض الأطفال ينهضون من مقاعدهم بسرعة.

دون اندفاع راح الأطفال يتقاطرون إلى الطاولة، عادت هاربيت إلى مقعدها بعد أن أخذت ورقة، لكنها وجدت صعوبة في فتحها، فقد كانت مطوية بإحكام مرات عديدة حتى أصبحت بحجم طابع بريد صغير.

فجأة صدرت عن هيلي ضحكة مكتومة أشبه بالشخير، وضع الورقة التي اختارها أمام هاربيت وهو يبتسم بسخرية. على الورقة كان هناك رسم غامض أشبه بكتلة بلا رأس قائمة على ساقين نحيلتين، بدا كأنه قطعة أثاث أو ربما حشرة، أو ربما شيء آخر لم تستطع هاربيت تخمينه، أسفل الرسم كانت هناك كتابة مائلة بزاوية حادة نحو أسفل الورقة، وبصعوبة قرأت: «هاداهي أن يأخوذاني بابا إلى مادية المالا هي».

قال السيد دايال: «ها الآن! فليبدأ أي واحد منكم، لا أهمية لمن يبدأ».

نجحت هاربيت أخيراً في فتح الورقة التي اختارتها؛ كانت ورقة أناجيل آرنولد: كتابة مفخمة بذلت فيها جهداً كبيراً، وكانت تدويرات ذيول حرفي «g» و«y» مرسومة بكل إتقان:

هدفي!

هدفي أن أتلو كل يوم صلاة صغيرة

وأن يرسل إلي الرب شخصاً جديداً كي أساعده!

تأملت هاربيت تلك الكتابة بنظرة حزينة، في أسفل الورقة رسمت أناجيل حرفي «B» متقابلين ظهرًا لظهر ليبدوا كفراشة صغيرة.

فاجأها السيد دايال: «هاربيت، فلنبدأ بك!»

قرأت هاربيت ذلك الدعاء محاولة أن تضفي على نبرتها
ازدراءً واضحًا.

قال السيد دايال بنبرة دافئة: «الحقيقة أن هذا هدف متميز،
إنه دعوة إلى الصلاة وخدمة الآخرين، لدينا هنا فتاة مسيحية
تفكر في الآخرين سواء داخل الكنيسة أم في المجتمع من حولها،
أنتم في الخلف هل هناك ما يضحكم؟»
صمت المشاغبون في الخلف.

قال السيد دايال بصوت أعلى: «هاربيت، ما الذي يخبرنا به
هذا الهدف عن الشخص الذي كتبه؟»

نقر هيلي على ركبة هاربيت، وأشار بإبهامه إلى الأسفل
بالقرب من ساقه بحركة خفية متممة: «فاشلة!»

قال السيد دايال: «هل هناك رمز؟»

قالت هاربيت: «عفوًا، يا سيدي؟»

«ما الرمز الذي اختاره كاتب هذه الورقة كي يعبر عن نفسه،
أو عن نفسها؟»

«حشرة».

بدت الدهشة على وجه السيد دايال، وسألها: «حشرة؟!»

قالت أنابيل بصوت خافت: «إنها فراشة»، ولكن السيد دايال
لم يسمعها.

سأل هاربيت من جديد: «أي نوع من الحشرات؟»

«لست متأكدة، ولكنها تبدو لي واحدة من الحشرات التي
تلسع».

مال هيلي نحو هاربيت ليري، ثم صاح محاولاً أن يبدو ذعره حقيقياً: «فضيع! ما هذا؟»

قال السيد دايال بنبرة حادة: «أعطيني هذه الورقة».

قال هيلي وهو ينظر حوله: «من يمكن أن يرسم شيئاً كهذا؟»

قالت أنايل بصوت أعلى قليلاً هذه المرة: «إنها فراشة».

نهض السيد دايال ليأخذ الورقة، لكن فجأة أطلق كورتيس راتليف ضحكة صاخبة ومبتهجة (ضحكة مفاجئة جعلت الجميع يقفزون من أماكنهم)، راح يتحرك في مقعده بحماس، ويشير إلى شيء على الطاولة، ويصيح: «انظروا انظروا!»

توقف السيد دايال في مكانه، وقد ظهر على وجهه ارتباك ممزوج بالخوف، كان لديه دائماً قلق خفي أن تصيب كورتيس الهادئ نوبة عنف مفاجئة.

ترك طاولته سريعاً واقترب من الصف الأمامي، وقف منحنيًا فوق كورتيس وقال له بنبرة توشي بالسرية مع أن الجميع سمعه: «هل لديك مشكلة، يا كورتيس؟ هل تحتاج إلى الذهاب إلى المرحاض؟»

قهقه كورتيس، واحمر وجهه بشكل ملحوظ، وأخذ يهتز في مقعده الصغير الذي أطلق صريراً تحت وزنه الثقيل، دفعت حركاته العنيفة السيد دايال إلى التراجع خطوة إلى الوراء وهو يزفر بقلق.

رفع كورتيس إصبعه في الهواء وصاح: «انظر، أنا!»، ثم فجأة قفز من مقعده، تراجع السيد دايال متعثرًا وأطلق صرخة صغيرة لا تليق بمقامه.

في تلك اللحظة اختطف كورتيس ورقة مجمعة كانت على الطاولة، بسط الورقة برفق شديد وقَدَّمها إلى السيد دايال، ثم أشار إلى الورقة وإلى نفسه، وقال مُبتَسِمًا ابتسامة عريضة: «أنا».

قال السيد دايال: «أوه، هذا صحيح يا كورتيس، هذه ورقتك»
سمع همسات وضحكات وقحة آتية من آخر الغرفة.

تعمّد كورتيس وضع تلك الورقة جانبًا وفصلها عن بقية الأوراق، ومع أن كورتيس يطالب دائمًا بأن يحصل على ورقة وقلم مثل بقية الأطفال، ويبكي إذا لم يحصل عليهما، فإنه كان غير قادر على الكتابة أو القراءة.

قال كورتيس: «أنا»، أشار إلى صدره بإبهام يده.
قال السيد دايال محاذراً: «نعم، هذا هو هدفك يا كورتيس، هذا صحيح تمامًا» ثم أعاد الورقة إلى الطاولة.
لكن كورتيس اختطف الورقة من جديد وأعادها إليه مُبتَسِمًا ابتسامة ترقب وانتظار.

قال السيد دايال: «نعم! أشكرك يا كورتيس»، وأشار إلى المقعد الخالي.. «يا كورتيس، في وسعك أن تجلس الآن، سأقوم ب...»

«وييي».

«كورتيس، إذا لم تجلس، فلن أستطيع...»
صاح كورتيس: «وييي، أنا»، صُدم السيد دايال عندما بدأ كورتيس يقفز مكانه ويقول: «وييي، أنا! وييي، أنا! وييي، أنا!»
نظر السيد دايال إلى الورقة المُجمَّعة التي في يده فأصابته

الدهشة، لم تكن هناك أي كتابة على الإطلاق! لا شيء سوى خطوط عشوائية متشابكة أشبه برسومات طفل رضيع. نظر إليه كورتيس ورَفرفَ بعينه رفرفة عذبة، واقترب منه خطوة، كانت رموش عينيه طويلة جدًا بالنسبة إلى طفل منغولي، وقال: «وييي».

قالت هاربيت بنبرة متأملة وهي تسير بجانب هيلي في طريق عودتها إلى البيت: «أتساءل ما كان هدف كورتيس». كان حذاؤها الجلدي المتين يقرع بلاطات الرصيف، لقد أمطرت الليلة الماضية وتناثرت على الرصيف آثار الرياح العنيفة: حزم من العشب المجزوز تفوح منها رائحة حادة، وأوراق أزهار متناثرة من الشجيرات القريبة.

قالت هاربيت: «أعني.. هل تعتقد أن لدى كورتيس هدفًا؟»
«كان هدفي أن يركل كورتيس مؤخرة السيد دايل».

دخلا إلى شارع جورج، حيث كانت أشجار البيكاني والمطاط الحلوى تكتسي بحلة من الأوراق الداكنة، كان هناك سرب من النحل يطن طنينًا ثقيلًا بين أغصان الآس والياسمين وأزهار الفلوريبوندا الوردية، وكان شذى المغنوليا الثقيل المسكر يحيط بالمكان كله مثل الحرّ الخانق، وكان قويًا بما يكفي ليُثير صدادًا في الرأس. لم تقل هاربيت شيئًا، سارت وهي تقرع الرصيف بحذائها خافضة رأسها، عاقدة يديها خلف ظهرها، غارقة في أفكارها. أراد هيلي إنعاش الحديث من جديد، فأرجع رأسه إلى الوراء وأطلق صوتًا قويًا أشبه بصوت الدلفين.

ثم غنى بصوت متملق: «أوه! يدعونه زعنفة، زعنفة أسرع من البرق».

ضحكت هاربيت ضحكة قصيرة، كانا يسميان السيد دايال «زعنفة» بسبب ضحكته المهتزة وجبهته البارزة التي تجعله يبدو أشبه بالدلفين.

سألها هيلي: «ماذا كتبت في ورقتك؟»، كان قد خلع سترة الأحد التي يكرهها، وراح يلوح بها في الهواء..
«هل أنت التي وضعت تلك العلامة السوداء؟»
«أجل».

ضحك هيلي، فقد كانت هذه الإيماءات الغامضة وغير المتوقعة من هاربيت هي ما يعجبه فيها، كان من الصعب على أي شخص أن يفهم الدافع وراء أفعالها سواء كانت أفعالاً غريبة أم لطيفة، لكنها كانت دائماً تحمل لمسة خاصة، لا شك أن تلك العلامة السوداء الصغيرة التي رسمتها قد أزعجت السيد دايال بشدة خصوصاً بعد «كارثة كورتيس».

حينما رفع طفل في الصف الأخير ورقة خالية إلا من تلك العلامة السوداء الغريبة في وسطها، قال السيد دايال بصوته الحاد: «لدينا من يحب المزاح»، وبعد صمت قصير غريب انتقل فوراً إلى الطفل التالي لأن تلك العلامة السوداء الصغيرة بدت «مخيفة»، فلماذا؟ لم تكن أكثر من علامة بقلم الرصاص، ومع ذلك سيطر الصمت على الصف عندما كان الطفل يرفع الورقة كي يراها الجميع، كانت هذه قدرة خاصة لدى هاربيت: تستطيع أن تبث شعوراً بالرعب دون أن تفهم سبب هذا الشعور.

دفعها هيلي بكتفه وقال: «هل تعرفين ما الطريف في الأمر؟ كان يمكنك أن تكتبي كلمة حماراً بحروف صغيرة جداً كي يجد صعوبة في قراءتها».

كان هيلي دائم التفكير في الألاعيب التي يمكن أن يفعلها الآخرون، لأنه لا يجرؤ على فعلها بنفسه.

قالت هاربيت: «البقعة السوداء الصغيرة موجودة في كتاب جزيرة الكنز، هذا ما يرسله إليك القراصنة عندما يكونون قادمين لقتلك، ورقة بيضاء عليها بقعة سوداء صغيرة».

عندما وصلت هاربيت إلى البيت، دخلت غرفتها وأخرجت دفترًا صغيرًا كانت تخبئه بين ملابسها الداخلية في الدرج. جلست على الناحية البعيدة من سرير أليسون العريض، حتى لا يستطيع الداخل من باب الغرفة أن يرى ما تكتب، مع أنه كان من المستبعد أن يقاطعها أحد فقد كانت أليسون وأمها في الكنيسة، وكان من المفترض أن تلتقي هاربيت بهما هناك مع أيدي وخالاتها، لكن أمها لم تلاحظ غيابها، أو ربما لم يكن يهمها أن ابنتها لم تذهب.

لم تكن هاربيت تحب السيد دايال، لكن ذلك التمرين في مدرسة الأحد جعلها تفكر مليًا. رسمت تلك البقعة السوداء الصغيرة لأنه لم يكن لديها فكرة عن أي أهداف تسعى لها، لا في ذلك اليوم ولا في ذلك الصيف ولا في بقية حياتها وقد أثار هذا قلقها خصوصًا أن هذا السؤال لسبب ما تداخل في ذهنها مع شعور الضيق الذي انتابها مؤخرًا عندما كانت مع القط الميت في سقيفة الأدوات.

كانت هاربيت تحب أن تضع لنفسها مهاماً جسدية صعبة، حاولت ذات مرة أن ترى كم يوماً تستطيع أن تتحمل إذا لم تتناول سوى ثماني عشرة حبة فستق فقط في اليوم الواحد، كان ذلك الحصة المقررة من الطعام للجنود الفيدراليين في أواخر الحرب الأهلية، لكن معظم تلك الاختبارات كانت تتطوي على معاناة بلا هدف حقيقي. كان الهدف الوحيد الذي يمكنها التفكير فيه -وكان هدفاً ضئيلاً- هو الفوز بالجائزة الأولى في مسابقة القراءة الصيفية في المكتبة.

كانت هاربيت تشارك في هذه المسابقة منذ أن كانت في السادسة من عمرها، وقد فازت مرتين، أما الآن فقد أصبحت أكبر سنًا وتقرأ روايات حقيقية، ولم يعد لها فرصة للفوز. ففي السنة الماضية فازت بالجائزة فتاة سوداء نحيلة طويلة القامة كانت تأتي إلى المكتبة كل يوم بضع مرات لتأخذ رزماً ضخمة من كتب الأطفال مثل الدكتور سيوس وجورج الفضولي و«أفسح الطريق للبطات الصغار». وكانت هاربيت واقفة خلفها ذات مرة في الصف غاضبة، ومعها «إيفانهو» و«ألجرون بلاك وود» و«خرافات وأساطير من اليابان»، حتى القيّمة على المكتبة السيدة فوسيت رفعت حاجبيها بدهشة واضحة، ما جعل هاربيت تشعر بأنها تنتمي إلى عالم مختلف تماماً.

فتحت هاربيت دفترها الصغير، كان هيلي هو من أعطاها إياه، كان دفترًا عاديًا ذا سلك، يحمل على غلافه رسمًا كاريكاتوريًا لسيارة رياضية تسير عبر الكثبان الرملية، لكن ما جذب هاربيت فيه كان لون صفحاته البرتقالية الزاهية. حاول هيلي استخدام الدفتر في مادة الجغرافيا في صف السيدة كريسويل على مدار

عامين، لكن المعلمة صادرت الدفتر، إذ اعتبرت أن السيارة ذات الشكل الكاريكاتوري والورق البرتقالي غير مناسبين للمدرسة. على الصفحة الأولى من الدفتر، كتب هيلي بضع عبارات متفرقة (وقد كتبها بقلم ذي رأس لبّادي، قلم معروف بأنه غير مناسب للمدرسة، وكانت السيدة كريسويل تصادره دائماً).

جغرافيا العالم أكاديمية ألكسندريا

هيلي هال 4 أيلول 24

- القارتان اللتان تشكلان امتداداً أرضياً واحداً هما أوروبا وآسيا.
 - نصف الكرة الأرضية فوق خط الاستواء اسمه النصف الشمالي.
 - ما الحاجة إلى وحدات قياسية؟
 - هل النظرية هي أفضل شرح متاح لجزء من أجزاء الطبيعة؟
 - في كل خريطة أربعة أقسام.
- أمعنت هاربيت في هذه العبارات بازدرء شديد، وفكرت أكثر من مرة في تمزيق تلك الصفحة، لكنها مع مرور الوقت أصبحت جزءاً من شخصية الدفتر، فقررت تركها كما هي.
- قلبت هاربيت الصفحة إلى حيث يبدأ ما كتبه بقلم رصاص، وكان معظم ما كتبه عبارة عن قوائم: قوائم بالكتب التي قرأتها، وقوائم بكتب أخرى تود قراءتها، وقوائم بالقصائد التي تحفظها عن ظهر قلب، وقوائم للهدايا التي تلقتها في عيد ميلادها وفي أعياد الميلاد، وإلى جانب كل منها اسم من أهداها، وقوائم لأماكن زارتها، على الرغم من أن هذه الأماكن لم تكن مميزة كثيراً، وأخرى لأماكن تحلم بزيارتها مثل شرق أيسلندا والقارة المتجمدة الجنوبية وماتشو بيتشو ونيبال.

وفي الدفتر قوائم بأشخاص يعجبونها: نابليون ونيشان بدفورد فورست وجنكيز خان ولورانس العرب والإسكندر الأكبر وهاري بوديني وجان دارك، كما احتوى الدفتر على صفحة كاملة من التذمر حول كون غرفتها مشتركة مع أليسون، وقوائم أخرى تحتوي على مفردات كثيرة باللفات اللاتينية والإنجليزية، بالإضافة إلى الأبجدية الكيريلية السخيفة التي بذلت جهداً كبيراً في نسخها من الموسوعة في أحد الأيام التي لم يكن لديها فيها شيء آخر تفعله.

وتضمّن الدفتر أيضاً رسائل عدّة كتبها هارييت ولم ترسلها قط؛ رسائل إلى أشخاص لا يعجبونها، وكان من بينها رسالة إلى السيدة فاونتين، ورسالة إلى معلمتها الكريهة في الصف الخامس السيدة بيببي، ورسالة أخرى إلى السيد دايال، وفي محاولة منها لإصابة عصفورين بحجر واحد، كانت قد كتبت تلك الرسالة بخط أنيق منمّق يشبه خط أناجيل آرنولد:

عزيزي السيد دايال،

أنا فتاة شابة من معارفك، معجبة بك سرّاً منذ بعض الوقت، أنا مجنونة بك ولا أكاد أستطيع النوم، أعلم أنني صغيرة جداً، وأنت متزوج السيدة دايال، لكن ربما يمكننا ترتيب لقاء بيننا ذات مساء خلف شركة دايال شيفروليه، لقد صليت على هذه الرسالة وقال لي الرب إن الحب هو الإجابة، سأكتب إليك مرة أخرى قريباً. أرجو ألا تدع أحداً يرى هذه الرسالة.

ملحوظة: أظن أنك قد تعرف من أكون، مع الحب؛ حبيبتيك

السرية!

وعند أسفل الصفحة، ألصقت هارييت صورة صغيرة جدًا
لأنابيل آرنولد قصتها من صحيفة، وألصقت إلى جانبها صورة
ضخمة مصفرة لرأس السيد دايال وجدتها في دليل الصفحات
الصفراء.. عيناه الجاحظتان متحمتان وفوق رأسه هالة من
النجوم الكرتونية كُتب فوقها بحروف سوداء صغيرة جدًا:

عندما تأتي الجودة في المقام الأول!

سدد دفعة أولى!

تأملت هارييت الكلمات أمامها، وراودتها فكرة كتابة رسالة
تهديد إلى السيد دايال، خططت أن تكتبها بحروف طباعية مليئة
بالأخطاء الإملائية لتبدو كأنها من كورتيس راتليف. لكنها توقفت
ونقرت بطرف قلم الرصاص على أسنانها، وشعرت أن ذلك ليس
عدلاً بحق كورتيس، لم تكن ترغب في إيذائه لا سيما بعد هجومه
الشجاع على السيد دايال اليوم.

قلبت الصفحة وكتبت على مساحة جديدة من اللون البرتقالي:

أهداف للصيف:

هارييت كليف دو فريسنس

حدقت إلى تلك الكلمات دون أن تشعر بالراحة، ومثل نقار
خشب صغير في بداية قصة خيالية تملكها حنين غامض، رغبة
في السفر بعيداً والقيام بأمور عظيمة، ومع أنها لم تستطع
تحديد ما تريد فعله بدقة، فإنها كانت موقنة أن ما تبحث عنه
أمر عظيم، قائم، وصعب إلى أقصى حد.

واصلت تقليب صفحات الدفتر حتى وصلت إلى قائمة
الأشخاص الذين يعجبونها، كان بينهم جنرالات وجنود ومستكشفون،

جميعهم أناس عُرِفوا بأفعالهم الجليلة، قادت جان دارك جيوشًا وهي في سن لم تكن أكبر بكثير من هاربيت، كان والد هاربيت قد أهداها في عيد الميلاد الماضي لعبة لوحية للفتيات تُدعى: «ماذا سأكون؟». كانت اللعبة سخيفة جدًا مصممة لإرشاد الفتيات إلى مهن مختلفة، لكنها لا تقدم أي أفق جذاب. مهما بلغت الفتاة من مهارة في اللعبة، فإن النتائج دائمًا ما تشير إلى خيارات مثل: أم أو معلمة أو راقصة باليه أو ممرضة.

بالنسبة إلى هاربيت لم يكن هذا الأفق الذي رسمته اللعبة، أو ذلك الذي ورد في كتاب «الصحة» المدرسي، جذابًا على الإطلاق. مستقبل مليء بمسارات محسوبة، مسار مهني محدد ثم زواج وأمومة، في قائمتها كان شارلوك هولمز أعظم الأبطال، على الرغم من أنه شخصية خيالية.

كما أدرجت اسم هاري هوديني سيد المستحيل، لم يكن هوديني مجرد هارب ماهر؛ بل كان يتحدى المستحيل نفسه، لم يكن في العالم كله سجن يمكن أن يحتجزه، كان يهرب من السترات المقيدة⁽¹⁾، والصناديق المقفلة التي تُلقى في الأنهار السريعة، وحتى من التواييت المدفونة على عمق ستة أقدام. كيف تمكن من فعل ذلك؟ لم يكن في قلبه خوف، إذا كانت الملائكة قد سارت مع جان دارك إلى المعارك، فإن هوديني اعتمد فقط على نفسه دون معونة من السماء، لقد علّم نفسه كيف يهزم الخوف وكيف يقهر رعب الاختناق والفرق والظلام،

(1) نوع خاص من الملابس يُستخدم لتقييد الشخص والحد من حركته بشكل كامل.

كان يُقيد بالأصفاد ويوضع في صندوق مغلق ويُلقى في قاع النهر، لكنه لم يضعف لحظة واحدة، ولم يهتز أمام رعب السلاسل الحديدية أو برودة المياه أو الظلام الحالك، لو استسلم لحظة واحدة فقط، لو خارت قواه في مواجهة المهمة الماثلة أمامه (عندما كان يقلب رأسًا على عقب في مجرى النهر) لما خرج حيًا من الماء.

كان سرّ هوديني يكمن في التمرين، كان يغمر جسده في أحواض مليئة بالجليد يوميًا، ويسبح مسافات طويلة تحت الماء، ويتمرن على حبس أنفاسه حتى استطاع أن يصل إلى ثلاث دقائق كاملة. لم تكن هاربيت تملك أحواضًا من الجليد، ولكنها قادرة على السباحة وحبس الأنفاس.

سمعت أمها وأختها تدخلان باب البيت، وسمعت صوت أختها وهي تشكو لكنها لم تفهم كلامها؛ لذا أسرعت فأخفت دفتريها وجرت إلى الطابق السفلي.

كانت تشارلوت تقول لأليسون شاردة الذهن: «لا تقولي 'أكره' يا حبيبتي» كانت الثلاث جالسات حول طاولة الطعام مرتديات فساتين يوم الأحد يتناولن لحم الدجاج الذي أعدته آيدا للفداء. كانت أليسون جالسة تحدّق إلى طبقها وشعرها يتدلى على وجهها، تمضغ شريحة ليمون أخذتها من فنجان الشاي المثلج، مع أنها كانت قد قطّعت طعامها بهمة وحركته في طبقها جيئةً وذهابًا، وجمّعت في أكوام صغيرة غير شهية المظهر (هذه العادة كانت تثير جنون إيدي) فقد كان ما أكلته قليلًا جدًا.

قالت هاربيت: «لا أفهم يا ماما لماذا لا يجوز أن تقول أليسون كلمة 'أكره' هذه كلمة عادية تمامًا».

«ليست كلمة مهذبة».

«لكنها واردة في الكتاب المقدس، الرب يكره كذا وكذا، وهي موجودة في كل صفحة».

«مع هذا، لا تستخدموها!»

قالت أليسون: «لا بأس! إذن، أنا أمقت السيدة بيغز»

كانت السيدة بيغز معلمة أليسون في مدرسة الأحد.

دهشت تشارلوت، فهي عادةً ما ترى أليسون طفلة لطيفة وخجولة، أما هذا الكلام عن كراهية الناس، فقد بدا لها أقرب إلى تصرفات هاربيت.

قالت لها: «اسمعي يا أليسون! السيدة بيغز سيدة عجوز لطيفة جدًا، وهي أيضًا صديقة خالتك أديلايد».

واصلت أليسون تحريك محتويات طبقها الفوضوي بشوكتها، وقالت: «مع ذلك، أكرهها».

«هذا ليس سببًا وجيهًا لكره أحد يا حبيبتي، لمجرد رفضه أن يصلي في مدرسة الأحد من أجل قط ميت».

«لَمْ لَا؟ لقد جعلتنا نصلي كي تفوز سيسي وأناييل آرنولد في مسابقة الاستعراض».

قالت هاربيت: «جعلنا السيد دايال نصلي من أجلهما لأن والدهما هو شماس الكنيسة».

وازنت أليسون شريحة الليمون على حافة طبقها بحذر، وقالت: «أرجو أن تُسقطا واحدة من تلك العصي المشتعلة عندما تذهبان إلى الاستعراض، أرجو أن تشب النار في المكان كله».

أخذت تشارلوت نفساً عميقاً، ثم قالت بنبرة غامضة: «اسمعا، أيتها البنتان! هل ذهبتما إلى المركز الصحي لأخذ لقاح التيفوئيد؟» كان ذهنها الذي لم يكن مهتماً بالقط أو الكنيسة أو مسابقة الاستعراض قد تحول فجأة إلى شيء آخر.

عندما لم تجبها أي منهما، أضافت: «أريد منكما أن تتذكرا جيداً الذهاب لإنجاز هذا الأمر صباح يوم الاثنين، ولا تنسيا أخذ لقاح الكزاز أيضاً لأنكما تسبحان في برك الأبقار وتجريان بأقدام حافية طوال الصيف...».

ثم كفت عن الكلام وعادت لتناول طعامها. بقيت هاربيت وأليسون صامتتين، فلم يحدث يوماً أن سبحت واحدة منهما في برك الأبقار، كانت أمهما تفكر في طفولتها وتخلط بينها وبين الحاضر، وهو أمر بدأ يظهر بوضوح أكبر في الأيام الأخيرة، لم تكن الطفلتان تعرفان كيف تجيبان عندما يحدث هذا.

منذ الصباح ارتدت هاربيت فستان مدرسة الأحد المزخرف برسوم أزهار السوسن، ونزلت السلم في الظلام، اتسخ كعبا جوربيها الأبيضين بالغبار فأصبح لونهما رمادياً، كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة والنصف مساءً، وكانت أمها وأليسون قد نامتا منذ نصف ساعة.

كانت كثرة نوم أليسون أمراً طبيعياً، ليس بسبب الأدوية المهدئة كما هي حال أمها، بل لأنها تكون في أسعد حالاتها عندما تستلقي في سريرها، ورأسها مدفون تحت وسادتها، كانت تظل طيلة النهار في شوق إلى فراشها، ولا تتأخر عن إلقاء نفسها فيه ما إن يحل الظلام.

أما إيدي التي يندر أن تنام أكثر من ست ساعات في الليل، فقد كانت تتضايق من كثرة التقلب في الفراش في بيت هارييت. كانت تشارلوت تتناول نوعاً من المهدئات منذ وفاة رويين، ولا يمكن مناقشة هذا الأمر معها، أما أليسون فقد اضطرت إلى الذهاب إلى الطبيب مرات عديدة لإجراء اختبارات دموية بسبب الاشتباه في إصابتها بداء وحيدات النوى أو التهاب الدماغ، لكن نتائج التحاليل كانت دائماً سليمة. وقد قال الطبيب لإيدي: «إنها تقترب من سن المراهقة، والمراهقون بحاجة إلى النوم أكثر».

قالت إيدي باستياء: «لكنها تنام ست عشرة ساعة!»

كانت تدرك تماماً أن الطبيب لا يصدق كلامها، وكانت في شك كبير (كان شكها مبرراً) أنه هو الطبيب الذي يصف لتشارلوت ذلك الدواء الذي يجعلها في خمول دائم.

أجابها الدكتور بريدلوف بتعبير غير مكترث: «لا أهمية لذلك حتى لو نامت سبع عشرة ساعة، تلك الفتاة تحتاج إلى النوم، اتركوها تنام» كان يرتدي ثوبه الأبيض، ويستند إلى مكتبه الفوضوي، وينظر إلى إيدي بعيني طبيب مرتابتين.

ذات مرة سألت هارييت أختها مستغربة: «كيف تستطيعين البقاء نائمة كل هذا الوقت؟»

رفعت أليسون كتفها في حركة غير مبالية.

«أليس هذا مضجراً؟»

«أنا لا أضجر إلا عندما أكون مستيقظة».

تعلم هارييت كيف يكون الضجر، فنوبات ضجرها ثقيلة جداً تجعلها تشعر أحياناً بالغثيان وتشتت الذهن كأنها استنشقت

الكلوروفورم، لكنها الآن متحمسة لأنه في انتظارها ساعات من الوحدة، دخلت غرفة المعيشة لكنها لم تذهب إلى خزانة الأسلحة، بل توجهت إلى طاولة مكتب والدها.

في درج المكتب أشياء كثيرة تثير اهتمامها (عملات ذهبية، وشهادات ميلاد، وأشياء لا يجوز أن تعبث بها)، وبعد أن بحثت بين الصور الفوتوغرافية وفي علب فيها شيكات مالية ملفاة؛ عثرت أخيراً على ما كانت تبحث عنه: ساعة توقيت سوداء مصنوعة من البلاستيك مزودة بشاشة رقمية حمراء، كانت هدية دعائية من إحدى الشركات المالية.

جلست على الأريكة وأخذت نفساً عميقاً، ثم ضغطت على مفتاح ساعة التوقيت، لقد درّب هوديني نفسه على حبس أنفاسه دقائق عدّة في المرة الواحدة، جعلته هذه المهارة قادراً على أداء عدد كبير من الحيل، سترى الآن كم تستطيع أن تحبس أنفاسها من دون أن تفقد وعيها.

عشر ثوانٍ، عشرون ثانية، ثلاثون ثانية، أحست أن نبض الدم في صدغيها صار أقوى، ثم أقوى.

خمس وثلاثون، أربعون، دمعت عيناها، وبدأت تشعر بنبض قلبها في عينيها، ثم بدأ التشنج في رئتيها عند الثانية الخامسة والأربعين، فاضطرت إلى الضغط على أنفها بإصبعها وسد فمها براحة يدها.

ثمانٌ وخمسون ثانية، تسع وخمسون ثانية، دمعت عيناها، ولم تعد قادرة على البقاء في مكانها؛ لذا نهضت وراحت تسير في دائرة متوترة صغيرة حول الأريكة وتلوح في الهواء بيدها الحرة

وعيناها تقفزان مجنونتين من شيء إلى آخر: الطاولة والباب وفردتي حذاء يوم الأحد المتقابلتين رأسًا لرأس على السجادة الرمادية.. والغرفة تقفز مع ضربات قلبها الراعدة وورق الجدران يتمزق كأن ذلك بؤادر هزة أرضية.

ستون ثانية، خمس وستون، كانت الخطوط الوردية في الستائر قد تحولت إلى لون دموي قاتم، فيما انبثقت أضواء المصباح في خيوط طويلة متألئة تملو وتهبط مع أمواج غير مرئية قبل أن تظلم هي الأخرى، اسودت عند حوافها النابضة فيما لا يزال مركزها متوهجًا بلون أبيض ناصع، سمعت طنين دبور قرب أذنها، أو ربما لم يكن كذلك، ربما كان ينبعث من داخلها. كانت الغرفة تدور حولها، وفجأة لم تعد قادرة على إغلاق أنفها بأصابعها، كانت يدها ترتجف ولم تستجب لأوامرها. شهقت شهيقًا خشنًا وطويلًا ومؤلمًا، وانهارت إلى الخلف على الأريكة وهي ترى وابلًا من الشرر، ضاغطة على زر ساعة التوقيت بإبهامها.

ظلت هاربيت زمنًا طويلًا مستلقية على الأريكة تتنفس بصعوبة، فيما كانت الأضواء الفوسفورية الخيالية تتراجع ببطء عن السقف.

راحت مطرقة زجاجية تضرب أسفل جمجمتها بضربات لها رنين كريستالي، تجمعت أفكارها وتفرقت في خطوط ذهبية معقدة تتحرك حول رأسها في دوامات.

بعد أن تباطأت الشرارات، تمكنت أخيرًا أن تتصب جالسة وهي تشعر بالدوار وتستند إلى ظهر الأريكة، نظرت إلى الساعة: دقيقة واحدة وست عشرة ثانية.

كان هذا زمنًا طويلًا، أطول مما توقعت أن تتحمله منذ المحاولة الأولى، ومع ذلك كان إحساسها غريبًا جدًا، فقد آلمتها عيناها وأحست أن محتويات رأسها كلها قد اختلطت معًا، واختلط السمع بالنظر والنظر بالذوق، كانت أفكارها كلها مضطربة متداخلة كأنها أحجية معقدة لا تدري أين استقرت كل قطعة من قطعها. حاولت أن تنهض واقفة، وكان ذلك أشبه بمحاولة الوقوف في زورق صغير، جلست من جديد، والأصداة تتردد في أذنها، والأجراس السوداء ترن في رأسها.

لا بأس.. لم يقل أحد إن الأمر سيكون سهلًا، لو كان تعلم حبس الأنفاس مدة ثلاث دقائق أمرًا يسيرًا لفعله الجميع، وليس هوديني وحده.

جلست ساكنة بضع دقائق، تتنفس بعمق كما علموها في دروس السباحة، وعندما شعرت بأنها بدأت تسيطر على نفسها، استشقت نفسًا عميقًا آخر وضغطت على مفتاح الساعة.

كانت مصممة هذه المرة على ألا تنظر إلى الأرقام المتتالية على الساعة وقررت التركيز على أمر آخر، فقد كانت تعلم أن النظر إليها سيزيد الأمر صعوبة.

مع تزايد الضيق في صدرها واشتداد ضربات قلبها، راحت أشكال تشبه الإبر الشوكية المضيئة تتراقص بسرعة فوق قمة رأسها في موجات جليدية أشبه برذاذ المطر، أحرقتها عيناها فأغمضتهما، وفي ظلام نابض بالحمرة انهال وابل مذهل من الرماد المتطاير، ارتطم صندوق أسود ملفوف بسلاسل بالحجارة السائبة في قاع النهر، ومضى يجرفه التيار، طُخ طُخ، طُخ طُخ،

شيء ثقيل وناعم في داخل الصندوق، جسد ربما، رفعت يدها بسرعة لتغلق أنفها كأنها تشم رائحة كريهة، لكن الصندوق استمر بالدحرجة فوق الحجارة المغطاة بالطحالب.

وفي مكان ما كانت الأوركسترا تعزف في مسرح مذهب يضيء بالثريات المتألقة، وسمعت هارييت صوت إيدي الحاد الواضح، يخلق عاليًا فوق أصوات الكمانات: «قلوب جريئة كثيرة تغفو نائمة في الأعماق. انتبه، يا بحار! احذر، يا بحار!»

لا! لم يكن هذا صوت إيدي، بل كان صوت مغني أوبرا ذي شعر أسود مضمخ بالزيت، يحيي الجمهور بوضع يده التي ترتدي قفازًا فوق صدر سترته، ووجهه المدهون بالبودرة أبيض كالطباشير تحت أضواء المسرح، فيما وضع مكيًا ثقيلًا على عينيه وشفتيه كأنه ممثل في فيلم صامت⁽¹⁾. كان يقف أمام ستارة مخملية تفتح ببطء كاشفة عن خشبة المسرح وسط تصفيق حاد من الجمهور، كان فوق المسرح كتلة جليدية ضخمة، في وسطها شخص متجمد منثنٍ على نفسه.

شهقت هارييت، فيما استمرت فرقة الأوركسترا التي كان معظم أعضائها من البطاريق في عزفها المتسارع، في صالة المسرح كانت دبية قطبية تتدافع على رؤوسها قبعات سانتا كلوز، وصلوا متأخرين واختلفوا حول أماكنهم، وفي وسطهم جلس السيد غودفري شارد النظرات، يتناول الآيس كريم من طبق مزخرف بنقوش هزلية ملونة.

(1) يستخدم ممثلو الأفلام الصامتة مساحيق تجميل ثقيلة لتوضيح ملامحهم وتعابيرهم بسبب غياب الصوت واعتماد الأفلام على الصور فقط لنقل المشاعر.

خفتت الأنوار فجأة، وانحنى المغني وانسحب بعيداً عن المسرح، فيما رمى أحد الدببة قبعة سانتا كلوز في الهواء، وزأر: «تحية للكابتن سكوت، ثلاث مرات!»

تعالى ضجيج يصم الآذان فيما صعد الكابتن سكوت ذو العينين الزرقاوين بفرائه المشبع بدهن الحوت والمغطى بالجليد إلى المسرح وهو يهز الثلج عن ملابسه ويرفع يده المرتدية القفاز للجمهور، فيما جاء باورز خلفه على زلاجتين مطلقاً صفيراً منخفضاً ومدهشاً، وهو يحدق إلى الأضواء المسرحية ويرفع ذراعه ليحمي وجهه المحروق بالشمس.

أسرع الدكتور ويلسون دون قبعة أو قفازين بحذائه ذي المسامير الثلجية وتجاوزه صاعداً إلى المسرح، تاركاً وراءه آثار أقدامه المغطاة بالثلوج التي ذابت فوراً إلى برك صغيرة تحت أضواء المسرح، مرر يده على كتلة الجليد متجاهلاً التصفيق الحار، وسجل بضع ملاحظات في دفتر صغير ذي غلاف جلدي، ثم أغلق الدفتر، فزان الصمت على الجمهور.

قال الدكتور ويلسون: «ظروف حرجة يا كابتن» خرجت أنفاسه من فمه بيضاء كالضباب. أكمل: «الريح تهب من جهة الشمال الشرقي، وهناك اختلاف واضح بين جزئي جبل الجليد العلوي والسفلي؛ ما يوحي بأنه قد تراكم طبقة بعد طبقة من ثلوج موسمية».

رد الكابتن سكوت بنبرة حازمة: «إذن، علينا أن نبدأ مهمة الإنقاذ دون تأخير. أوسمان، هات فؤوس الجليد! أيها الملازم باورز!»

لم يظهر على باورز أي دهشة عندما رأى عصاتي التزلج تتحولان إلى فأسين في يديه، وبحركة حاذقة رمى من إحداهما نحو الكابتن الواقف في الطرف الآخر من خشبة المسرح، أحدثت الحركة جلبة في القاعة، فزأر الجمهور وصاحت البطاريق في حماسة، فيما تصاعد تصفيق الدبية القطبية التي تدافعت بحماسة، ومناكبها الصوفية تلمع تحت أضواء المسرح.

راح الاثنان يهويان بالفأسين على الكتلة المتجمدة، فيما انطلقت أوركسترا البطاريق من جديد تعزف مجدداً، وواصل د. ويسلون تسجيل ملاحظاته العلمية المهمة عن طبيعة الجليد. بدأت عاصفة خفيفة من الثلج تدور برفق عند حافة المسرح، وعند حافة الخشبة كان مغني الأوبرا ذو الشعر المصنف بالزيت يساعد مصور البعثة بونتينغ في نصب حامل آلة التصوير.

قال الكابتن سكوت بين ضريتين من فأسه: «هذا الرجل المسكين! أشعر أنه بات قريباً من نهايته». كان التقدم الذي أحرزه مع باورز لا يزال قليلاً.

«إذن، فلنسرع يا كابتن!»

زمجر دب قطبي جالس في الصالة: «هللوا لهما، يا شباب!» قال الدكتور ويلسون مُتجهِّماً: «نحن بين يدي الرب، وإن لم يتدخل، فنحن ضائعون». كانت حبات العرق تتلألأ على جبهته، وأضواء المسرح تتعكس كأقراص بيضاء على عدسات نظارته قديمة الطراز. «لينضم الجميع إلينا لتلاوة صلاة الرب!»

لم يكن جميع الحاضرين على دراية بصلاة الرب، فقد راحت بعض البطاريق تغني بمرح: «يا سوسنة، يا سوسنة، أعطني ردك»،

فيما وضعت بطاريق أخرى زعانفها على قلوبها مرددة: «عهد الولا»، وفي تلك اللحظة ظهر على خشبة المسرح رجل يرتدي بذلة سهرة مقيد اليدين ومشدوداً داخل قميص المجانين، بدأ بالظهور تدريجياً ظهر رأسه أول الأمر، وكان متدلياً من كاحليه من سلسلة ضخمة متدلية من السقف.

أخفض الجمهور أصواتهم، وصاروا يتابعون المشهد بأنفاس متحفزة. كان الرجل ينتفض ويتلوى ووجهه محمرّ، لكنه ما لبث أن تحرر من قميص المجانين بحركات ماهرة وسريعة، وخلعه من فوق كتفيه ورأسه. بعد ذلك بدأ بأسنانه يعمل على فك القيود التي تكبل يديه، ولم يمض وقت طويل حتى سقطت الأغلال أرضاً. ثنى جسده برشاقة مذهلة، وحرر قدميه ثم تآرجح على السلسلة المرتفعة عشرة أقدام عن الأرض، وبعد لحظات حطّ برشاقة جمبازية، ورفع يديه عاليًا ملوحًا بقبعة ظهرت فجأة كالسحر.

رفرف سرب من الحمام الوردية بجناحيه طائفاً حول المسرح، وسط دهشة الجمهور وسرورهم الغامر.

قال القادم الجديد مخاطباً المستكشفين الذين فوجئوا بظهوره: «لا ينفع الكلام هنا يا سادة» ثم شمر عن ساعديه ورفع كمّي سترته السوداء، توقف قليلاً أمام عدسة الكاميرا مبتسماً بثقة أمام وميض الفلاش.

«كدت أفقد حياتي مرتين وأنا أنفذ هذه الحيلة ذاتها؛ مرة في سيرك بيكيتو في كوبنهاغن، ومرة أخرى على مسرح أبولو في نورمبرغ» وفجأة أخرج قاذف لهب مزخرفاً تتبعث منه شعلة زرقاء

بطول ثلاثة أقدام، ثم تبعه بمسدس أطلق منه رصاصة أحدثت صوتاً مدوياً وسحابة من دخان أبيض.

هتف: «المساعدون، من فضلكم!»

على الفور اندفع خمسة رجال صينيين يرتدون أثواباً قرمزية وقبعات تقليدية، وشعرهم الأسود الطويل يتدلى على ظهورهم، كانوا يحملون مناشير وفؤوساً طويلة.

رمى هوديني المسدس صوب الجمهور، لكنه تحوّل في الهواء إلى سمكة سلمون تسبح برشاقة قبل أن تسقط بين البطاريق التي تراقصت فرحاً.

أخذ هوديني الفأس الصغيرة من الكابتن سكوت، رفعها بيده اليسرى عالياً في حين كانت الشعلة متقدة في يده اليمنى، وصاح: «دعوني أذكر جمهور الحاضرين أن هذا الرجل داخل كتلة الجليد ظل محروماً من الأوكسجين مدة ألف وستمئة وخمسة وستين يوماً وثمانى ساعات وسبع وعشرين دقيقة وتسع وثلاثين ثانية! لم تشهد أمريكا الشمالية من قبل محاولة بهذه الضخامة لإنقاذ حياة إنسان على خشبة المسرح».

رمى بالفأس الصغيرة مجدداً نحو الكابتن سكوت، ثم مد يده ليداعب قطعاً برتقالي اللون كان جاثماً على كتفه، بعدها أشار برأسه نحو قائد أوركسترا البطاريق قائلاً: «يا مايسترو.. من فضلك!»

انهال الصينيون بمناشيرهم وفؤوسهم على الجليد بإيقاع متناغم مع الموسيقى، تحت إشراف باورز الذي كان قد خلع سترته وراح يعمل بحماسة في قميصه الداخلي إلى جانبهم. في الوقت ذاته أحرز هوديني تقدماً كبيراً باستخدام شعلة اللهب.

انتشرت على خشبة المسرح بركة ماء ضخمة، راح البطاريق الموسيقيون يهزون أجسادهم بسعادة غامرة تحت الرذاذ الجليدي المتساقط فوقهم، أما الكابتن سكوت (إلى يسار خشبة المسرح) فقد كان يحاول السيطرة على الكلب أوسمان الذي جنّ جنونه عندما رأى قط هوديني، راح الكابتن يصيح غاضباً طالباً مساعدة ميرز.

كان الرجل المحبوس داخل كتلة الجليد يقترب شيئاً فشيئاً من الحرية، ولم تعد تفصله سوى بضع بوصات عن المناشير واللهب. زمجر دب قطبي من الصالة: «تشجعوا!» قفز دب آخر واقفاً على قدميه ممسكاً بحمامة تصارع للهرب من قبضته الضخمة التي تشبه قفاز البيسبول، قضم رأسها ثم بصقها كتلة مدماة.

لم تدرك هاربيت ما كان يدور على خشبة المسرح لكنه بدا بالغ الأهمية، ما عادت تطيق صبراً فوقفت على أطراف أصابعها محاولة الرؤية، غير أن البطاريق المتحمسة الماضية في ثرثرتها، والتي وقف بعضها فوق أكتاف بعض، كانت أطول قامة منها، بل إن كثيراً منها ترك مقاعده وأخذ يتقدم نحو خشبة المسرح بحماسة متزايدة، متمائلاً بخطوات مضطربة، وهو يرفع أوراقاً نقدية نحو السقف.

كانت أعين البطاريق طافحة باهتمام شديد، حاولت هاربيت أن تشق طريقها بين صفوفهم لكنهم دفعوها إلى الوراء بشدة، ووسط محاولاتها المضنية امتلأ فمها بريح البطاريق المزيت، وهي تكافح لتشق طريقها بصعوبة.

فجأة تردد صدى صرخة نصر من هوديني، وهو يهتف بحماس: «سيداتى وسادتي! لقد أخرجناه!»
هرعت الحشود إلى خشبة المسرح في فوضى عارمة، وفي غمرة الهرج والمرج، لمحت هاربيت ومضات بيضاء تتبعث من كاميرا بونتنيغ العتيقة، كما رأت مجموعة من رجال الشرطة يندفعون نحو المسرح حاملين أصفاداً وهراوات ثقيلة ومسدسات. تقدم هوديني بخطوات واثقة وأشار لهم بذراعه بحركة رشيقة قائلاً:

«من هنا، أيها السادة!»

في تلك اللحظة بشكل غير متوقع استدارت الأنظار جميعها نحو هاربيت، خيّم صمت مهيب لا يكسره سوى صوت قطرات الجليد الذائبة التي تساقطت فوق حجرة الأوركسترا، كان الجميع يحدق إليها: الكابتن سكوت، وباورز القصير المذعور، وهوديني بنظرته الغريبة التي تشبه نظرة كائن برمائي، حتى البطاريق التي كانت تلتفت يساراً راحت تحدق إليها بأعين صفراء كأعين الأسماك دون أن يرف لها جفن.

كان أحدهم يحاول أن يناولها شيئاً، الأمر بين يديك الآن، يا عزيزتي..

استفاقت هاربيت فجأة، فوجدت نفسها مضطجعة على الأريكة في الطابق السفلي.

في صباح اليوم التالي عندما وصلت هاربيت متأخرة إلى مائدة الإفطار، استقبلتها إيدي بنبرة مفعمة بالنشاط قائلة:

«ما الأمر، يا هارييت؟ أين كنت؟ لم نرك في الكنيسة يوم أمس».

فكّرت مريلتها دون أن تتبّه لصمت هارييت أو حتى فستانها المجدد الذي تزيّنه زهرات السوسن، بدت إيدي في مزاج مرح على غير العادة، مرتدية بذلة صيفية بلون أزرق بحري، وحذاء أنيق يتناغم معها.

قالت وهي تجلس أمام فطائرها وقهوتها: «كنت على وشك أن أبدأ الإفطار دونك. بالمناسبة هل ستأتي اليسون؟ أنا ذاهبة إلى اجتماع».

«اجتماع بشأن ماذا؟»

«اجتماع في الكنيسة، خالاتك سيذهبن في رحلة».

كان هذا الخبر مفاجئاً لهارييت حتى في حالتها المرتبكة تلك، فخالاتها لا يذهبن إطلاقاً إلى أي مكان، بل إن ليبي لم تذهب خارج ميسيسيبي إلا فيما ندر، وإذا اضطررن إلى السفر بضعة أميال فقط كنّ يفرقن في الكآبة والقلق لأيام، كنّ يشتكين أن للماء طعمًا غريبًا، وأنهنّ لا يستطعن النوم في أسرة غريبة، يخشين أن يكن تركزن آلة القهوة تعمل، ويقلقن على نباتاتهنّ المنزلية وقططهنّ، أو يخشين نشوب حريق أو اقتحام منازلهنّ أو حتى نهاية العالم في أثناء غيابهنّ.

وإذا اضطررن إلى استخدام مراحيض محطات الوقود كن يتذمرن من قذارتها، ويخشين انتقال الأمراض إليهن، أما المطاعم الغريبة فلم تكن تكثر بنظام ليبي الغذائي الخالي من الملح. وماذا لو تعطلت السيارة؟ أو مرضت إحداهن؟

قالت إيدي: «سنذهب في شهر آب، سنذهب إلى تشارلستون في جولة على البيوت التاريخية».

سألت هاربيت: «هل ستقودين السيارة بنفسك؟»

مع أن إيدي كانت ترفض الاعتراف بهذا، فإن بصرها لم يعد كما كان، فهي تتجاوز إشارات المرور الحمراء، وتعطف يساراً عكس حركة المرور، وتتوقف فجأة وتتحني إلى الخلف للردشة مع أخواتها اللواتي كنّ منشغلات بتفتيش حقائبهنّ عن المناديل والحلوى، دون أن ينتبهن أن العناية الإلهية فقط هي من أتقذتهن حتى الآن من التصادمات المميتة.

قالت إيدي وهي تقضم فطيرتها: «جميع السيدات في حلقة الكنيسة سيذهبن، سيؤمنّ لنا روي دايال من شركة شيفروليه للسيارات حافلة مع سائق، لا مشكلة عندي في الذهاب بسيارتي لكن الناس على الطرق السريعة أصبحوا مجانيين هذه الأيام».

«وليبي وافقت؟»

«بالطبع. ولم لا؟ السيدة هاتفلد كين والسيدة نيلسون ماكليمور وجميع صديقاتها سيذهبن».

«وآدي؟ وتات؟»

«بالتأكيد».

«هل هن راغبات في الذهاب؟ أم إن أحداً أرغمن؟»

«أنا وخالاتك لن نعود إلى شبابنا، علينا أن نستمتع بوقتنا ما دمنا نستطيع ذلك».

قالت هاربيت فجأة وهي تبتلع قزمة من البسكويت: «اسمعي يا إيدي، ألا تعطيني تسعين دولاراً؟»

قالت إيدي بغضب مفاجئ: «تسعين دولارًا؟ بالتأكيد لا، لماذا تحتاجين إليها؟»

«لم تجدد أُمي اشتراكنا في نادي الريف، وقد فات الموعد». «وبماذا يفيدك النادي الريفى؟»

«أود أن أذهب إلى السباحة هذا الصيف».

«اجعلي الصبي الصغير من عائلة هال يدعوك كضييفة».

«لا يستطيع، لا يحق له دعوة ضيوف أكثر من خمس مرات، وأنا أريد الذهاب مرات أكثر».

قالت إيدي: «لا أرى مُبرَّرًا لإعطاء النادي الريفى تسعين دولارًا فقط لاستخدام المسبح، يمكنك السباحة في بحيرة دي سيلبي كما تشائين».

لم تقل هاربيت شيئًا.

«من الغريب أن المخيم لم يبدأ هذا العام مبكرًا، ظننت أن المرحلة الأولى قد بدأت». «لا أظنها بدأت».

قالت إيدي: «ذكريني أن أتصل بهم عصر اليوم. لا أعرف ما مشكلتهم. أتساءل متى سيذهب الصبي الصغير من عائلة هال إلى المخيم؟»

«هل أستطيع الانصراف؟»

«لم تخبريني بعد بما ستفعلينه اليوم».

«سأذهب إلى المكتبة للتسجيل في برنامج القراءة، أريد أن أفوز مرة أخرى».

فكّرت هاربيت أن الوقت ليس مناسباً لتوضيح هدفها الحقيقي لهذا الصيف خصوصاً مع الحديث عن مخيم دي سيلبي الذي يلوح في الأفق.

قالت إيدي وهي تقف لتأخذ فتجان قهوتها إلى الحوض: «حسنًا، لا أشك أن أدائك سيكون ممتازًا».

«هل يزعجك أن أطرح عليك سؤالاً يا إيدي؟»

«حسب السؤال».

«لقد مات أخي مقتولاً، أليس كذلك؟»

غامت عينا إيدي لحظة، فوضعت الفنجان من يدها.

«من تظنين أنه فعل ذلك؟»

جمدت نظرات إيدي لحظة، ثم رمت هاربيت بنظرة غاضبة، وبعد مرور لحظات مزعجة (شعرت هاربيت خلالها كأن الدخان يتصاعد منها، كما لو كانت كومة حطب جاف تشتعل تحت الشمس الحارقة)، استدارت إيدي، ووضعت الفنجان في الحوض. بدا خصرها نحيفاً جداً، وبدت كتفاها حادتين، وبدا مظهرها عسكرياً في البدلة الزرقاء الداكنة.

قالت باقتضاب وهي لا تزال تدير ظهرها إليها: «اجمعي

أغراضك!»

لم تعرف هاربيت ما تقوله. لم يكن لديها أي أغراض تجمعها.

بعد الصمت المطبق الذي خيم على رحلة السيارة (كانت تنظر إلى نسيج مقعد السيارة وتعبث بقطعة بلاستيك سائبة بارزة من المسند)، لم تعد هاربيت راغبة في الذهاب إلى المكتبة، لكن

إيدي توقفت عند حافة الرصيف تنتظر نزولها، فلم يكن أمام هاربيت من خيار غير أن تصعد درجات السلم بخطوات متبسة لإدراكها أن إيدي تراقبها وأن تفتح الباب الزجاجي وتدخل.

بدت المكتبة خالية، كانت السيدة فوسيت جالسة وحدها عند مكتب الاستقبال، تراجع قائمة الكتب المعادة ذلك اليوم وتشرب فنجان قهوة، كانت امرأة ضئيلة الحجم كأنها عصفور، شعرها قصير بدأ الشيب يغزوه، ذراعاها بيضاوان وعروقهما بارزة (ترتدي أساور نحاسية لمعالجة التهاب المفاصل)، وعيناها حادتان ومتقاربتان، وأنفها بارز يشبه المنقار. كان معظم الأولاد يخشونها ما عدا هاربيت التي أحبت المكتبة وكل ما يتعلق بها. بادرتها السيدة فوسيت بالقول: «أهلاً يا هاربيت! هل جئت للمشاركة في برنامج القراءة؟»

مدت يدها تحت الطاولة كي تتناول واحدة من النشرات، مضيفة: «تعلمين كيف يجري الأمر، أليس كذلك؟»

ناولت هاربيت خريطة للولايات المتحدة، تأملت هاربيت الخريطة بإمعان أكثر مما يستدعيه الموقف، وهي تقول في نفسها: يبدو أنني لست منزعة كثيراً، إذ لم تستطع السيدة فوسيت ملاحظة انزعاجي. لم تكن مشاعر هاربيت تُجرح بسهولة (ليس من إيدي على أي حال التي كانت دائماً تغضب لأتفه الأسباب) لكن معاملتها الباردة في السيارة أقلقته.

قالت السيدة فوسيت: «ستجري المسابقة هذه السنة باستخدام خريطة أمريكا، فكلما قرأت أربعة كتب، تحصلين على ملصق على شكل ولاية لتثبيته على الخريطة، هل تريدان أن أساعدك في ذلك؟»

قالت هاربيت: «شكراً، أستطيع فعل ذلك بنفسى».

توجهت إلى لوحة الإعلانات المعلقة على الحائط الخلفي، كان برنامج القراءة قد بدأ يوم السبت أي قبل يومين فقط، علقت على اللوحة سبع أو ثمانى خرائط كلها خالية عدا واحدة منها كانت عليها ثلاث لصاقات، كيف يمكن لأحدهم أن يقرأ اثني عشر كتاباً منذ يوم السبت؟

سألت السيدة فوسيت بعد أن عادت إلى مكتبها ومعها أربعة كتب اختارتها: «من هي لشارون أودوم؟»

مالت السيدة فوسيت عن طاولة مكتبها وأشارت بصمت إلى غرفة الأطفال، وأومأت برأسها صوب فتاة صغيرة الجسم ذات شعر متشابك، ترتدي قميصاً رثاً وسروالاً أصفر من مقاسها، كانت جالسة في كرسي منكبة على القراءة، عيناها متسعتان وأنفاسها تتردد عبر شففتيها المنفرجتين.

همست السيدة فوسيت: «ها هي ذي هناك، فتاة مسكينة، كانت تنتظر كل صباح طوال الأسبوع الماضى على الدرج الأمامى حتى أفتح المكتبة، وتبقى في المكتبة هادئة كالفأر حتى أغلق الأبواب عند السادسة، إن كانت تقرأ هذه الكتب فعلاً ولا تتظاهر بذلك، فهي قارئة ممتازة بالقياس إلى مجموعتها العمرية».

قالت هاربيت: «سيدة فوسيت! هل تسمحين لي بأخذ مجموعة صحف من الأرشيف اليوم؟»

بدت الدهشة على السيدة فوسيت: «لا يجوز أن تأخذى الصحف خارج المكتبة».

«أعلم هذا، لكنى أجري بحثاً».

نظرت السيدة فوسيت إلى هارييت من فوق نظارتها، كانت مسرورة بهذا الطلب الذي بدا لها كأنه طلب من شخص كبير، قالت: «هل تعرفين الصحف التي تلزمك؟»

«أوه! الصحف المحلية فقط، ربما صحف ممفيس وجاكسون أيضًا، وذلك بتاريخ..» ترددت قليلًا، وخشيت أن تثير انتباه السيدة فوسيت إذا ذكرت تاريخ موت روبين.

قالت السيدة فوسيت: «لا بأس! في الحقيقة لا يجوز لي السماح لك بدخول تلك الغرفة، لكنني واثقة أنه لا مشكلة في الأمر إن كنت حريصة.»

أخذت هارييت الطريق الأطول لتتفادى المرور أمام منزل هيلي؛ فقد كان دعاها للذهاب معه إلى صيد الأسماك، توقفت عند منزلها لتترك الكتب التي استعارتها، كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة والنصف. كانت أليسون ناعسة ومتوردة الوجه، لا تزال ترتدي ملابس النوم، جالسة وحدها إلى طاولة غرفة الطعام تأكل شطيرة طماطم.

نادتها آيدا ريو من المطبخ: «هل تريدين شطيرة طماطم يا هارييت؟ أم تريدين دجاجًا بدلًا منها؟»

«طماطم من فضلك»، جلست إلى جانب أختها.

«سأذهب إلى النادي الريفي للتسجيل من أجل السباحة هذا الصيف، فهل تحبين الذهاب معي؟» هزت أليسون رأسها نفياً.

«هل تريدين أن أسجل اسمك أيضًا؟»

«لا يهمني».

قالت هاربيت: «لو كان ويني حيًا لما أعجبه تصرفك هذا، كان يريدك أن تكوني سعيدة وأن تكلمي حياتك».

قالت أليسون وهي تضع شطيرتها جانبًا: «لن أكون سعيدة مرة أخرى أبدًا». بدأت دموعها تترقرق في عينيها البنيتين الحزنتين.. «ليتي مت!»

قالت هاربيت: «أليسون! هل تعرفين من قتل روبين؟»
بدأت أليسون تعبت بالفتات المتساقط من شطيرتها، قشرت طبقة خبز منها، وكوّرتها بين إبهامها وسبّابتها.
قالت هاربيت وهي ترقب أختها من كثب: «لقد كنت في الفناء عندما حدث ذلك، قرأت ذلك في الصحيفة في المكتبة. قالوا إنك كنت هناك طيلة الوقت».
«وأنت أيضًا كنت هناك».

«صحيح، لكني كنت صغيرة جدًا، أنت كنت في الرابعة».
قشرت أليسون طبقة خبز أخرى ومضغتها متأنية دون أن تنظر إلى هاربيت.

«كنت كبيرة في الرابعة، أنا أتذكر كل شيء حدث معي عندما كنت في تلك السن».

عند تلك اللحظة ظهرت آيدا ريو آتية بطبق هاربيت، لزمّت الفتاتان الصمت، وبعد عودتها إلى المطبخ قالت أليسون: «من فضلك، اتركيني وشأني يا هاربيت».

قالت هاربيت وعيناها مثبتتان على أليسون: «لا بد أنك تتذكرين شيئًا، الأمر مهم. فكري!»

أخذت أليسون شريحة طماطم بشوكتها ومدتها على قطعة خبز وأكلتها، وراحت تقضم حوافها قضمات صغيرة.
«اسمعي! لقد رأيت الليلة الماضية حلمًا».

رفعت أليسون رأسها ونظرت إليها بدهشة.

لاحظت هاربيت هذا الاهتمام المفاجئ من جانب أليسون، فقصت عليها الحلم الذي رآته في الليلة السابقة.

«أعتقد أن الحلم كان يحاول أن يخبرني بشيء، وأعتقد أنني يجب أن أحاول اكتشاف من قتل روبين».

أنهت هاربيت شطيرتها، فيما ظلت أليسون تنتظر إليها، كانت هاربيت تدرك أن إيدي مخطئة في اعتقادها أن أليسون غبية، الحقيقة أن أليسون لم تكن غبية لكنها كانت صعبة الفهم، وتحتاج إلى التعامل معها بحذر شديد حتى لا يصيبها الضرر.

قالت هاربيت: «أريد أن تساعدني، لو كان ويني حيًا لأراد أن تساعدني، كان يحب روبين، كان قطه المفضل».

قالت أليسون: «لا أستطيع».

ردت شعرها إلى الخلف وقالت: «يجب أن أذهب، فقد حان وقت برنامج ظلال قاتمة».

قالت هاربيت: «لا، انتظري! أريد أن تفعلي شيئًا، هل تفعلين شيئًا من أجلي؟»

«ما هو؟»

«حاولي تذكر أحلامك عندما تتامين، وفي الصباح دوّنيها كي أتمكن من قراءتها. هل تستطيعين فعل ذلك؟»
نظرت إليها أليسون دون أن تفهم شيئًا.

«إنك تتأمين طيلة الوقت، لا بد أنك ترين أحلامًا، بعض الناس يتذكرون في أحلامهم أمورًا لا يستطيعون تذكرها وهم مستيقظون».

أتى صوت آيدا منادياً من المطبخ: «أليسون، حان وقت البرنامج».

كانت هي وأليسون مهووستين ببرنامج «ظلال قاتمة»، وتتابعانه معاً في الصيف كل يوم.

قالت أليسون لهارييت: «تعالى وتابعي البرنامج معنا، كانت الأحداث مشوقة جداً الأسبوع الماضي، لقد عادوا الآن إلى الماضي، يشرحون كيف أصبح بارناباس مصاص دماء».

«يمكنك أن تخبريني بما حدث عندما أعود إلى المنزل، سأذهب إلى النادي الريفي كي أسجل اسمي واسمك من أجل السباحة، هل اتفقنا؟ سأسجل اسمك، فهل تذهبين معي للسباحة؟»

«على أي حال متى يبدأ مخيمك؟ ألسنت ذاهبة هذا الصيف؟» دخلت آيدا ريو من باب المطبخ حاملة شطيرة دجاج على طبق، وقالت مستعجلة أليسون: «هيا!»

في الصيف الماضي جعلتها أليسون تدمن متابعة برنامج «ظلال قاتمة»، شاهدته معها مترددة أول الأمر، لكنها صارت الآن تتابعه كل يوم عندما تكون أليسون في المدرسة، ثم تجلس معها عندما تعود إلى البيت لتخبرها بكل ما حدث في الحلقة.

كانت هارييت مستلقية على بلاط أرضية الحمام البارد وقد أقفلت الباب عليها، وضعت قلم الحبر فوق دفتر شيكات والدها،

تمهلت لحظة قبل أن تبدأ الكتابة، كانت ماهرة في تقليد خط أمها وأكثر مهارة في تقليد خط أبيها، لكن الحروف المتداخلة التي يكتبها لا تسمح لها بالتردد إطلاقاً، فما إن يلمس القلم الورقة عليها أن تكتب بسرعة دون تفكير وإلا بدا الخط متكلفاً وغير مقنع.

كان خط أيدي أشد وضوحاً: حروف منتصبة على الطراز القديم، رشيقة كراقصات باليه، والأحرف الكبيرة المنمقة يصعب نسخها نسخاً دقيقاً. لهذا، كان على هاربيت أن تعمل بإيقاع بطيء وأن تتوقف باستمرار لمراجعة نموذج من خط أيدي، وكانت النتيجة مقبولة، لكنها لم تكن تخدع الجميع كل مرة، ولم تنجح قط في خداع أيدي.

توقف قلم هاربيت فوق السطر الفارغ، كان اللحن المزعج لمقدمة برنامج دارك شادوز يتسلل عبر باب الحمام المغلق. كتبت بسرعة مقلدة خط أبيها اللامبالي: (يدفع لصالح نادي ألكساندريا الريفي مئة وتسعون دولاراً)، ثم أضافت توقيع الضخم الذي كان أسهل جزء من الأمر، أفرجت عن أنفاسها التي حبستها وتهدت الصعداء، نظرت إلى الشيك من جديد: مقبول جداً! كانت هذه الشيكات محلية صادرة عن بنك البلدة، لذا ترسل الكشوفات المصرفية إلى منزل هاربيت وليس إلى ناشفيل، وعندما يصل الشيك الملفى، تستطيع أن تخرجه من الملف وتحرقه، ولن يعلم أحد شيئاً.

منذ أن تجرأت أول مرة على تجربة هذه الحيلة، وضعت هاربيت يدها على أكثر من خمسمئة دولار من حساب والدها

(على دفعات صغيرة)، كانت تعتقد أنه يدين لها بهذا المال، ولولا خوفها من اكتشاف خطتها لكان يسرها أن تسلبه ماله كله. قالت الخالة تات: «عائلة دوفريسنس أشخاص باردون، كانوا دائماً كذلك. ولم أشعر يوماً أنهم يتمتعون بأي قدر من الثقافة والرقي».

وافقت هاربيت على هذا، كان أعمامها من عائلة دوفريسنس يشبهون والدها إلى حد كبير: صيادو غزلان مهتمون بالرياضة، يتحدثون بصخب وأسلوب خشن، ويصبغون شعرهم الرمادي باللون الأسود، أشبه بنسخ متقدمة في العمر من ألفيس بريسلي⁽¹⁾، ببطونهم المنتفخة وأحذيتهم ذات الجوانب المطاطية، لا يقرؤون الكتب، وكانت نكاتهم مبتذلة؛ أما في تصرفاتهم واهتماماتهم فلا يزالون يحتفظون بعقلية الريف البسيطة والبدائية.

قابلت هاربيت جدتها من عائلة دوفريسنس مرة واحدة فقط: امرأة متجهمّة تضع أطواقاً من الخرز وترتدي بدلات مطاطية، وتعيش في شقة في فلوريدا مزودة بأبواب زجاجية منزلقة وورق حائط مزين بزرافات، أقامت هاربيت عندها أسبوعاً، وكادت تُجنّ لشدة ضجرها، إذ لم تكن الجدة تمتلك بطاقة مكتبة ولم تكن تملك أي كتب باستثناء سيرة الرجل الذي أسس سلسلة فنادق هيلتون وكتاب جيب بعنوان «نظرة تكساسية إلى الرئيس جونسون⁽²⁾».

(1) ألفيس بريسلي (1935-1977): مغنٌ وممثل أمريكي، يُلقب بـ«ملك الروك أند رول»، عُرف بأناقته وأسلوبه المميز في شبابه، لكنه في سنواته الأخيرة اشتهر بمظهره المتدهور وزيادة وزنه.

(2) كتاب سياسي نُشر في ستينيات القرن الماضي. ألفه جورج كورتني هاتشينز، وهو ينتقد الرئيس الأمريكي ليندون بي. جونسون (LBJ)، الذي كان رئيساً للولايات المتحدة بين 1963 و1969، وركز بشكل خاص على سياساته وأساليبه في الحكم.

كانت الجدة قد انتُشلت من فقرها الريفي في مقاطعة تالاهاتشي على يد أبنائها، الذين اشتروا لها شقة في تجمع المتقاعدين في تامبا، كانت ترسل صندوقاً من الجريب فروت إلى منزل هاربيت كل عيد ميلاد، لكن بخلاف ذلك، نادراً ما كانت العائلة تسمع عنها.

على الرغم من أن هاربيت شعرت بالمقت الذي تكنّه إيدي والخالات تجاه والدها، فإنها لم تكن تعرف مدى شدته، فهو لم يكن في يوم من الأيام زوجاً مهتماً بزوجته أو أباً مهتماً بأطفاله حتى عندما كان روبين حياً، هكذا كن يقلن، إهماله بناته أليس جريمة؟ وكذلك تجاهله زوجته وإهماله إياها لا سيما بعد موت ابنهما، لقد استمر في عمله كالمعتاد، ولم يأخذ حتى إجازة من البنك، وسافر في رحلة صيد إلى كندا بعد أقل من شهر على دفن ابنه، وليس غريباً أن تفقد تشارلوت عقلها في ظل وجود زوج محبط مثله.

قالت إيدي غاضبة: «كان من الأفضل أن يطلقها، ما زالت تشارلوت شابة، وهناك ذلك الشاب اللطيف ويلوري، الذي اشترى ذلك العقار على مقربة من غلينوايلد، إنه من الدلتا؛ ولديه مال...».

دمدمت أديلويد: «في الحقيقة، ديكسون ليس مقصراً من ناحية المال».

«ما أقوله أنها يمكن أن تجد شخصاً أفضل بكثير».

«وما أقوله يا إيديث إنّ ثمة فرقاً كبيراً بين القول والفعل، لست أدري ما كان سيحدث لتشارلوت المسكينة ولهايتين البنيتين لو أن ديكسون لم يكن صاحب دخل جيد».

قالت إيدي: «الحقيقة.. هذا صحيح! هكذا هو الأمر».

قالت ليبي محتدة: «أتساءل أحياناً إن كنا قد فعلنا الصواب عندما لم نشجع تشارلوت على الانتقال إلى دالاس».

كان هناك حديث عن ذلك بعد وفاة روبين بمدة قصيرة، عرض المصرف على ديكس ترقية إذا انتقل إلى تكساس، وبعد عدة سنوات حاول إقناعهم جميعاً بالانتقال إلى إحدى بلدات نبراسكا. لم تشجع الحالات تشارلوت والفتاتين على الانتقال، وفوق ذلك أصبن بالذعر في كلتا المناسبتين، بكت أديلaid وليبي وحتى آيدا ريو أسابيع لمجرد التفكير في الأمر.

نفخت هاربيت على توقيع والدها على الرغم من أن الحبر كان قد جف. كانت والدتها تكتب شيكات من هذا الحساب طوال الوقت (هكذا تسد الفواتير)، لكن كما اكتشفت هاربيت لم تكن تتابع رصيد الحساب بدقة.

كانت والدتها ستسد فاتورة نادي الريف بسعادة لو طلبت منها ذلك؛ لكن تهديد مخيم ليك دي سيلبي كان يلوح كقيمة سوداء في الأفق، ولم ترغب هاربيت في المخاطرة بتذكيرها، من خلال ذكر نادي الريف أو المسبح، بأن استثمارات التسجيل لم تصل بعد.

ركبت هاربيت دراجتها وتوجهت إلى نادي الريف. كان المكتب مغلقاً، فقد كان الجميع يتناولون الغداء في قاعة الطعام. سارت في الممر حتى وصلت إلى متجر النادي حيث وجدت شقيق هيلي الأكبر، بمبرتون، يدخل سيجارة خلف طاولة البيع ويطالع مجلة موسيقية.

سألته: «هل يمكنني أن أعطيك هذا المال؟» كان بمبرتون يعجبها، كان في عمر رويين وكان صديقاً له، الآن أصبح يبلغ من العمر واحداً وعشرين عاماً، وكان بعض الناس يقولون إن والدته أفسدت مستقبله عندما أقنعت والده بعدم إرساله إلى المدرسة العسكرية في الوقت المناسب.

صحيح أن بمبرتون كان محبوباً في المدرسة الثانوية وكان أداؤه ممتازاً في سنته الأخيرة، لكنّه أصبح عاطلاً عن العمل وقليل الطموح، ولم يستمر طويلاً في جامعة فاندربيلت أو في جامعة ميسيسيبي أو حتى في جامعة دلتا الحكومية. يعيش الآن في بيت أهله، شعره أطول حتى من شعر شقيقه هيلي، وفي الصيف يعمل منقذاً في النادي الريفي، ولا يفعل في الشتاء شيئاً غير الاهتمام بسيارته والاستماع إلى الموسيقى الصاخبة.

قال بمبرتون: «مرحباً يا هاربيت!»، ظنت هاربيت أنه قد يكون ضجرًا لأنه يجلس وحيداً في المتجر، كان يرتدي قميصاً ممزقاً، وبنطالاً قصيراً وحذاء غولف دون جوربين، وأمامه بقايا همبرغر وبطاطس مقلية في طبق عليه شعار النادي الريفي، وكان الطبق قريباً من مرفقه على الطاولة.

«تعالى وساعديني في اختيار جهاز ستيريو لسيارتي».
«لا أعلم عن أجهزة الستيريو شيئاً، أريد أن أترك هذا الشيك عندك».

أبعد بمبرتون شعره خلف أذنيه بيده الضخمة، ثم أخذ الشيك منها ونظر إليه، كان أطول كثيراً من هيلي، وكان شعره أشعث مثل شعر شقيقه، أشقر اللون عند قمة رأسه لكن شقاره يخف عند

أطرافه، تقاسيم وجهه مشابهة لهيلي لكنها أشد نعومة، وأسنانه معوجة قليلاً لكنها تبدو أجمل مما لو كانت مستقيمة تماماً. قال أخيراً: «لا بأس! يمكنك تركه معي، لكني لا أعلم ما يجب أن أفعل به، بالمناسبة.. لم أكن أعرف أن والدك في المدينة». «إنه ليس في البلدة».

رفع بمبرتون حاجبه بمكر وأشار إلى تاريخ الشيك.

قالت هاربيت: «لقد أرسل الشيك بالبريد».

«أين هو على أي حال؟ لم أره منذ زمن طويل جداً».

هزت هاربيت كتفيها، صحيح أنها لا تحب والدها، لكنها كانت تعرف أنها لا ينبغي أن تغتابه أو تشتكي منه.

«لا بأس! عندما ترينه اسأليه إن كان يمكنه أن يرسل لي شيكاً أيضاً، أرغب بشدة في شراء الستيريو»، دفع المجلة على الطاولة كي ترى الجهاز الذي أعجبه.

نظرت هاربيت إلى صور الأجهزة: «تبدو متشابهة كلها».

«إطلاقاً يا حلوتي، جهاز بلوبلنكتس أجمل واحد بينها، ألا ترين؟ كله أسود مع مفاتيح سوداء أيضاً، ألا ترين كم هو صغير إن قورن بجهاز بايونير؟»
«إذن، اشتر هذا الجهاز».

«سأشتره عندما تجعلين والدك يرسل إليّ ثلاثمئة دولار».

سحب نفساً أخيراً من سيجارته وأطفأها في طبق الطعام فأصدرت صوت هسيس، وأكمل: «بالمناسبة أين ذلك الأحمق، أخي؟»

«لا أعلم».

مال بمبرتون صوبها رافعاً كتفيه بحركة توحى بأنه يريد أن يُسرَّ إليها بأمر: «لماذا تسمحين له بالتسكع معكِ؟»
 حدقت هاربيت إلى بقايا وجبة بمبرتون: بطاطس مقلية باردة، وسيجارة معوجة في بركة من الكاتشب.
 قال بمبرتون: «ألا يزعجكِ كيف استطعت إقناعه بارتداء ملابس النساء؟»، نظرت إليه هاربيت وقد فاجأها سؤاله.
 «أعني ملابس مارثا المنزلية، يحب ارتداء ملابسها، كلما رأيته يرتدي على رأسه منشفة أو غلاف وسادة يقول إنك من تجعلينه يرتدي هذا»، كانت مارثا والدة كل من بمبرتون وهيلي.
 «غير صحيح».

«تعالى يا هاربيت!»، نطق اسمها كأنه يجد فيه شيئاً ساخراً،
 وأكمل: «أمرٌ أمام بيتك بسيارتي فأرى دائماً سبعة أولاد صغار أو ثمانية على رأسهم ملاءات، أراهم يمضون الوقت في فناء بيتك، يدعوك ريكي آشمور 'طفلة كوكلوكس كلان' (1)، لكني أظن الأمر لا يتجاوز أنك تستمتعين بالباسهم ملابس الفتيات».

قالت هاربيت بنبرة ثابتة: «إنها لعبة»، كانت منزعة من إصراره، أصبحت عروض الإنجيل التمثيلية شيئاً من الماضي.
 أضافت: «اسمع، أريد أن أكلّمك عن أخي».

(1) تنظيم سري أمريكي نشأ في أواخر القرن التاسع عشر، بعد الحرب الأهلية الأمريكية (1861-1865). وكان هدفه المعلن هو مقاومة إعادة الإعمار التي فرضتها الحكومة الفيدرالية على الولايات الجنوبية بعد الحرب، لكنه سرعان ما تحول إلى تنظيم عنصري يعتمد العنف والتهريب لنشر سياساته العنصرية، كان أعضاء التنظيم يرتدون أزياء بيضاء مميزة تغطي الجسم بالكامل مع أغطية للرأس بهدف إخفاء هويتهم وبث الرعب.

الآن جاء دور بمبرتون للشعور بعدم الراحة، التقط المجلة وراح يقلب صفحاتها بعناية مبالغ فيها.

«هل تعلم من قتله؟»

قال بمبرتون بنبرة صوت خبيثة وهو يضع المجلة من يده: «سأخبرك بشيء إذا وعدتني بأنك لن تخبري أحداً، هل تعرفين السيدة فاونتين التي تعيش إلى جواركم؟»

كانت هاربيت تنظر إليه بازدراء واضح جعله ينفجر ضاحكاً. قال: «ماذا؟ ألا تصدقين القصة عن السيدة فونتين والجثث المدفونة تحت منزلها؟»

منذ سنوات أربع بمبرتون هيلي بإخباره أن أحدهم عثر على عظام بشرية ظاهرة من حوض الزهور في بيت السيدة فاونتين، وأنها حنّطت جثة زوجها الميت وأجلسته على كرسي لتبقى برفقته ليلاً.

«هل يعني هذا أنك لا تعرف من قتله؟»

قال باقتضاب: «لا أعرف».

لا يزال يتذكر كيف صعدت أمه إلى غرفته، (كان منهمكاً في تركيب نموذج طائرة. غريبة هي الأشياء التي تعلق بالذاكرة أحياناً)، وطلبت منه الخروج إلى الممر لتخبره بأن رويين قد مات، كانت تلك أول مرة يرى أمه باكية.

لم يبك بمبرتون، فقد كان في التاسعة من العمر، ولا يعرف معنى الموت، فعاد إلى غرفته وأغلق بابها وتابع عمله بضيق على نموذج الطائرة، لا يزال يتذكر كيف تجمع الغراء عند نقاط الاتصال، بدا سيئاً لدرجة أنه رمى الطائرة دون أن يكملها.

قال لهارييت: «لا يجب أن تمزحي بشأن أمور كهذه».

قالت هارييت بنبرة مترفعة: «أنا لا أمزح، أنا جادة تمامًا».

لم تكن تلك أول مرة يرى فيها بمبرتون كم هي مختلفة عن روبين، مختلفة إلى حد يصعب معه تصديق أن ثمة قرابة بينهما، لعل شعرها الداكن ما جعلها تبدو أكثر جدية، لكنها على عكس روبين كانت تبدو كأنها تحمل عبئًا ثقیلاً: بوجه جاد خالٍ من التعبير دون أي ميل للضحك.

على العكس من ذلك كانت هناك لمسة لروح روبين المرححة في أليسون (التي بعد أن أصبحت في المدرسة الثانوية، لفتت انتباه بمبرتون في الشارع بمشييتها الجذابة دون أن يدرك من تكون)، لكن هارييت لم تكن لطيفة أو مرحة قط.

قال: «أظن، يا حلوتي، أنك تكثرين من قراءة نانسي درو، لقد حدثت تلك الأمور حتى قبل أن يولد هيلي»، حرك يديه كأنه يؤدي ضربة غولف بمضرب غير مرئي...

أكمل: «كانت هناك ثلاثة أو أربعة قطارات تتوقف هنا يوميًا، وعلى الدوام كان حول سكة القطار مشردون كثير».

«ربما يكون من فعلها لا يزال هنا».

«إن كان ذلك صحيحًا، فلماذا لم يقبضوا عليه؟»

«هل لاحظ أحد أي شيء غريب قبل أن يحدث الأمر؟»

ضحك بمبرتون بسخرية: «هل تعنين شيئًا مخيفًا؟»

«لا، غريب فحسب».

اسمعي، هذا ليس مثل الأفلام. لم يرَ أحد شخصًا مريبًا أو منحرفًا يتجول في المنطقة ونسي أن يذكر ذلك».

تتهد بمبرتون، لسنوات بعد الحادثة كانت لعبتهم المفضلة في المدرسة خلال الاستراحة هي إعادة تمثيل جريمة قتل روبين: لا تزال تلك اللعبة شائعة في المدرسة الابتدائية مع أنها تحورت مع الوقت، في نسختها في الملعب كان القاتل يُقبض عليه ويُعاقب، كان الأطفال يجتمعون في دائرة بجانب الأرجوحة، ويوجهون الضربات إلى قاتل غير مرئي ملقى على الأرض في وسطهم.

قال بصوت عالٍ: «في ذلك الوقت كان هناك شخص يأتي إلى المدرسة كل يوم ويتحدث إلينا، كان شرطياً أو واعظاً. اعتاد الأطفال في المدرسة أن يتفاخروا قائلين إنهم يعرفون القاتل أو إنهم فعلوا ذلك بأنفسهم.. بغية لفت الأنظار فحسب»، كانت هاربيت محدقة إليه بكل انتباه.

«هذه أمور يفعلها الأطفال، داني راتليف.. على سبيل المثال كان يتبجح طيلة الوقت بأمور لم يفعلها مثل إطلاق النار على حشد من الناس وإلقاء أفاعٍ سامة في سيارات سيدات عجائز، لن تصدقي بعض الأمور التي سمعتها منه في صالة البيليارد»، توقف بمبرتون عن الكلام، كان يعرف داني راتليف منذ الطفولة: ضعيفاً ومتباهياً يلوح بذراعيه، ولا يكف عن إطلاق الادعاءات والتهديدات الفارغة، ومع أن الصورة كانت واضحة في ذهنه، لم يدر كيف ينقلها إلى هاربيت.

قال: «هو.. يعني داني، ليس إلا معتوهاً».

«أين أستطيع العثور على داني هذا؟»

«واو! ليس من المستحسن العبث مع داني راتليف، لقد خرج من السجن منذ مدة قصيرة».

«لماذا حبسوه؟»

«مشاجرة بالسكاكين أو شيء من هذا القبيل، لا أتذكر، ليس في عائلة راتليف من لم يذهب إلى السجن بسبب سطو مسلح أو لأنه قتل أحدهم.. كلهم عدا أصغرهم ذلك الشاب المتخلف، قال لي هيلي إنه أوسع السيد دايال ضرباً ذات يوم».

هالها ما سمعته: «هذا غير صحيح، لم يرفع كورتيس يده على السيد دايال».

أطلق بمبرتون ضحكة صاخبة: «يؤسفني سماع هذا، لم أر أحداً يستحق ضرباً مُبرحاً أكثر من السيد دايال».

«لم تقل لي أين أستطيع العثور على داني».

تتهد بمبرتون وقال لها: «انظري يا هاريت! داني راتليف من جيلي، قصة روبين حدثت عندما كنا في الصف الرابع».

«لعل من فعلها كان طفلاً، ربما لهذا السبب أنهم لم يقبضوا عليه».

«اسمعي! لا أفهم لماذا تظنين أنكِ عبقرية وقادرة على اكتشاف أمور لم يستطع أحد اكتشافها».

«هل قلت إنه يذهب إلى صالة البليارد؟»

«صحيح، يذهب أيضاً إلى حانة الباب الأسود، لكني أقول لك يا هاريت ليس له علاقة بهذا الأمر، وحتى لو كان له علاقة به، فمن الأفضل أن تتركه وشأنه، إنهم مجموعة من الأشقاء؛ وهم جميعاً مجانيين».

«مجانين!»

«لا أعني أنهم مجانيين، أعني.. يعمل واحد منهم واعظًا، لعلك رأيته فهو يقف عند سكة القطار ويصيح بعبارات عن التكفير عن الخطايا، وأخوه الكبير فاريش أقام مدّة في مستشفى الأمراض العقلية في وايتفيلد».

«لماذا؟»

«لأنه تلقى ضربة على رأسه بمجرّفة أو شيء مشابه، لا أستطيع تذكر ذلك، نادرًا ما يمر وقت دون أن يكون أحدهم معتقلًا»، وأضاف عندما رأى نظرة هارييت إليه: «بسبب سرقة سيارات أو سرقة بيوت، لا شيء مما تفكرين فيه، لو كان لهم أي علاقة بقصة روبين لاستطاعت الشرطة منذ سنين أن تجعلهم يعترفون بذلك».

التقط بمبرتون شيك هارييت الذي كان لا يزال على الطاولة: «لا بأس، يا طفلي! هذا لك ولأليسون أيضًا؟»
«أجل».

«أين هي؟»

«في البيت».

قالت بمبرتون: «ماذا تفعل؟» وانحنى مستندًا إلى مرفقيه.

«تتابع مسلسل ظلال قاتمة».

«هل تظنين أنها ستأتي للسباحة هذا الصيف لو مرة واحدة؟»

«ستأتي إن أحببت».

«هل لديها صديق؟»

«يتصل بها بعض الأولاد هاتفيًا».

قال بمبرتون: «حقًا؟ مثل من؟»

مكتبة

t.me/soramnqraa

«لا تحب أن تكلمهم».

«لماذا؟»

«لا أدري».

«إذا تكلمت معها ذات يوم، فهل تظنين أنها ستتحدث معي؟»

قالت هارييت فجأة: «خمن ماذا سأفعل هذا الصيف؟»

«ماذا؟»

«سوف أجتاز بركة السباحة كلها تحت الماء».

كان قد ضجر قليلاً من هذا الحديث معها، لكن عينيه اتسعتا دهشة، وقال لها: «وماذا بعد ذلك؟ هل ستكتبين أغنية لفرقة رولينغ ستون؟»

«أنا واثقة بأنني أستطيع فعل ذلك، فالليلة الماضية حبست أنفاسي قرابة دقيقتين».

قال بمبرتون الذي لم يصدق كلمة مما قالتها: «انسي الأمر يا حلوة! سوف تغرقين، وسيكون عليّ أن أخرجك من الماء».

أمضت هارييت فترة بعد الظهر تقرأ على شرفة البيت الأمامية، وكانت آيدا تغسل الملابس كعادتها كل ظهيرة يوم اثنين، كانت أمها وأختها نائمتين. كانت تقترب من نهاية كتاب «كنوز الملك سليمان» عندما خرجت أليسون إلى الشرفة متثأبة حافية القدمين مرتدية فستاناً مزهراً بدا كأنه أحد فساتين والدتها، تهتدت أليسون واستلقت على الأرجوحة ذات الوسائد الكثيرة، ومدت ساقها ودفعت الأرض بإبهام قدمها كي تهز الأرجوحة. وضعت هارييت الكتاب جانباً وجلست بجانب شقيقتها.

سألتها: «هل حلمتِ بأي شيء في أثناء قيلولتك؟»
«لا أتذكر شيئاً».

«إن كنت لا تتذكرين؛ فمن المحتمل أنك رأيت أحلاماً».
لم تجبها أليسون، عدّت هاربيت حتى الرقم خمسة عشر، ثم
كررت سؤالها ببطء وتهذيب.
«لم أر أي أحلام».
«ظننت أنك قلت إنك لا تتذكرين».
«لا أتذكر».

أتاهما من ناحية الرصيف صوت أنفي جريء: «مرحباً!»
رفعت أليسون جسدها مستتدة إلى مرفقيها، التفتت هاربيت
التي ضايقتها هذه المقاطعة كثيراً فرأت لشارون أودوم، تلك
الفتاة الصغيرة المتسخة التي أشارت إليها السيدة فوسيت في
المكتبة، كانت تمسك يد مخلوق قصير القامة أبيض الشعر غير
واضح إن كان صبيّاً أم فتاة، يرتدي قميصاً متسخاً لا يغطي بطنه
بالكامل، وتحمل على وركها الآخر طفلاً رضيعاً يرتدي حفاضاً،
كانت الاثنتان واقفتين على الرصيف كأنهما حيوانان بريان
صغيران يخشيان أن يقتربا كثيراً، وعيناهما جامدتان تلمعان
لمعاناً فضيًّا غريباً في وجهيهما اللذين أحرقتهما الشمس.
قالت أليسون وهي تنهض واقفةً وتنزل الدرجات بخطوات حذرة
لتحييهم: «أهلاً وسهلاً»، على الرغم من كونها فتاة شديدة الخجل
كانت أليسون تحب الأطفال، وكلما كانوا أصغر أحبّتهم أكثر، وكثيراً
ما تبدأ محادثات مع الأطفال المتشردين القادمين من الأكواخ
بجانب النهر مع أن آيدا ريو كانت قد منعتها من فعل ذلك.

قالت: «لن تري أنهم لطيفون جداً عندما تصايين بالقمل أو القوباء الحلقية».

راقبت الطفلتان أليسون بحذر، لكنهما لم تتحركا عندما اقتربت منهما، داعبت أليسون رأس الرضيع وسألت: «ما اسمه؟» لم تجبها لشارون أودوم، كانت تنظر إلى ما وراء أليسون.. إلى هاربيت، وعلى الرغم من صغر سنها فإن ملامح وجهها كانت توحى بأنها كبيرة، كانت عيناها رماديتين باردتين كالثلج وتلمعان بشكل غريب كأنهما عينا جرو ذئب، قالت: «رايتك هي المكتبة». نظرت إليها هاربيت بوجه جامد ولم ترد. لم تكن مهتمة بالأطفال الصغار، وكانت تتفق مع آيدا أنهم لا يملكون أي حق في دخول فناء البيت دون دعوة.

قالت لها أليسون: «اسمي أليسون، ما اسمك؟»

تململت لشارون في وقفقتها.

قالت أليسون وهي تستدير قليلاً كي تنظر إلى وجه الطفل الأصغر سناً الذي كان يمسك كتاباً من غلافه الخلفي، وصفحاته المفتوحة تسحب على الرصيف: «هل هاتان شقيقتاك؟ ما اسماهما؟ هممم؟ هل ستخبرني ما اسمك؟»

قالت الفتاة وهي تلکز الطفل الصغير: «أخبرها يا راندي».

«راندي؟ أهذا اسمك؟»

«قل نعم يا راندي»، هزت الطفل الذي على وركها، وتكلمت بصوت حاد قليلاً: «هذا راندي وأنا روستي».

«راندي وروستي!»

قالت هارييت في نفسها: ناستي وديرتي⁽¹⁾ . هذا أصح!

جلست هارييت على الأرجوحة تنقر الأرض بقدميها بنفاد صبر واضح، في حين استمرت أليسون في الحديث مع لشارون، سألتها عن عمر الطفل الصغير ومدحتها لأنها تعتني بالطفلين. قالت لراندي: «ألا تريني كتابك؟ هممم؟»، مدت يدها إلى الكتاب، لكن الصبي ابتعد عنها وجلاً وابتسم لها ابتسامة مستفزة. قالت لها شارون: «ليس كتابه، إنه كتابي»، كان صوتها ناعماً وواضحاً مع أنه حاد ويبدو أنه صادر عن أنفها.

«ما موضوع الكتاب؟»

«فرديناند الثور».

«أتذكر فرديناند، كان ذاك الثور الصغير الذي يحب شم الزهور بدلاً من القتال، أليس هذا صحيحاً؟»

على نحو مفاجئ قال راندي الذي ظل صامتاً إلى هذه اللحظة: «أنت جميلة»، وراح يلوح بيده جيئةً وذهاباً؛ ما جعل صفحات الكتاب المفتوح تحتك بالرصيف.

قالت أليسون: «هل هذه هي الطريقة السليمة للتعامل مع كتب المكتبة؟»

ارتبك راندي، فسقط الكتاب من يده.

قالت أخته الكبيرة ملوحة بيدها كأنها ستصفعه: «ارفع الكتاب عن الأرض».

(1) ناستي وديرتي = رديء وقذر.

تراجع راندي خائفاً من الصفة المحتملة، وعندما انتبه أن أليسون تنظر إليه راح يهز الجزء الأسفل من جسده بحركة خليعة أكبر من عمره بدلاً من رفع الكتاب.

قالت لشارون وهي تنظر إلى هارييت من جديد: «لماذا لا تقول أي شيء؟»

كانت هارييت تنظر إليهم من الشرفة حانقة.
فوجئت أليسون بهذا السؤال فنظرت إلى هارييت بدورها.
«هل أنت أمها؟»

أحست هارييت وجهها يتورد خجلاً.. اللعنة على هذا!
كانت تستمتع بنفي أليسون المتلثم، عندما بدأ راندي يبالغ في حركاته الخليعة لاستعادة الانتباه إليه.
قال: «سرق رجل سيارة أبي، كان رجلاً من الكنيسة المعمدانية». ضحك وهو يتهرب من ضربة أخته، وكان على وشك مواصلة قصته عندما اقتحمت آيدا ريو الباب فجأة، وصفقت الباب الشبكي خلفها، وركضت نحو الأطفال كأنها تطرد طيوراً تسرق الحبوب من الحقل.

صاحت بهم: «اذهبوا فوراً! اخرجوا من هنا! هيا!»
وفي غمضة عين اختفى الأطفال، وقفت آيدا ريو على الرصيف تهز قبضتها وصاحت: «لا تعودوا إلى هنا مرة أخرى، وإلا سأطلب لكم الشرطة».

صرخت أليسون: «آيدا!»

«لا تقولي لي آيدا».

«لكنهم أطفال صغار، لم يسببوا أي أذى».

قالت آيدا ريو وعيناها لا تزالان تنظران إليهم: «لا.. ولن يستطيعوا أن يزعجوا أحداً».

ظلت تنظر إليهم دقيقة كاملة، ثم نفضت يديها واستدارت كي تعود إلى البيت، وظل كتاب «فرديناند الثور» ملقى على الرصيف حيث أسقطه الطفل، انحنت آيدا بمشقة كي تلتقط الكتاب، وأمسكته من زاويته بين إبهامها وسبابتها كأنه ملوث، حملت الكتاب وهي تمد ذراعها كي لا يكون قريباً منها، ثم انتصبت واقفة مطلقة زفيراً حاداً وسارت حول البيت إلى حاوية القمامة. قالت أليسون: «لكن، يا آيدا، إنه من المكتبة العامة!»

قالت آيدا ريو من غير أن تلتفت إليها: «لا يهمني من أين أتى الكتاب، إنه قدر، ولا أريد أن تلمسه يدك».

أطلت تشارلوت برأسها من باب البيت، وجهها قلق ولا تزال آثار النوم باقية عليه، قالت: «ما الأمر؟»

قالت هاربيت: «كانوا أطفالاً صغاراً فحسب، يا ماما، لم يسببوا أي أذى».

قالت تشارلوت وهي تشد شريط رداؤها على خصرها: «أوه! يا للأسف! كنت أنوي الذهاب إلى غرفتك وأجمع حقيبة من ألعابك القديمة لأعطيها لهم في المرة القادمة التي يأتون فيها».

زعقت هاربيت: «ماما!»

أجابتها أمها بصوت صارم: «ماذا؟ تعلمين أنك لم تعودى تلعبين بهذه الدمى القديمة».

«لكنها لي، وأنا أريدها!»

مزرعة الألعاب، والدمية الراقصة ودمية كريسي التي لم تعجبها كثيرًا، لكنها طالبت بها لأن بقية البنات في صفها لديهم مثلها. عائلة الفئران ذات الشعر المستعار والبذلات الفرنسية الأنيقة، تلك الألعاب التي رأتها هارييت في واجهة متجر في نيو أورليانز، كانت الأسعار في ذلك المتجر باهظة جدًا، لكنها راحت تتوسل وتبكي، ثم لزمّت الصمت ورفضت تناول عشاءها إلى أن خرجت خالاتها ليبي وأديلايد وتات حُفِيّة من فندق بونتشارترين لشراء تلك الفئران.

كانت هدية عيد الميلاد.. عيد ميلاد الفئران: أسعد يوم في حياة هارييت، لم تشعر قط بمثل تلك الفرحة الكبيرة التي عاشتها عندما فتحت تلك اللعبة الحمراء الكبيرة ممزقة أوراق التغليف بسرعة وشوق، فكيف تحتفظ والدة هارييت بكل صحيفة تأتي إلى البيت وتغضب إذا رمت آيدا واحدة منها، ثم تحاول أن تعطي فئران هارييت الصغيرة لأطفال غرباء قذرين؟

هذا ما حدث بالفعل، في أكتوبر الماضي، اختفت عائلة الفئران من فوق طاولة هارييت. وبعد بحث هيسيري عثرت عليهم في العلبة مكسسين في صندوق مع بعض ألعابها الأخرى. عندما واجهتها اعترفت والدتها بأخذ بعض الألعاب التي اعتقدت أن هارييت لم تعد تلعب بها لتقديمها للأطفال المحتاجين، لكنها لم تدرك مدى حب هارييت للفئران، أو أنها كان ينبغي أن تسألها أولاً. («أعرف أن خالاتكِ قدمنها لك، لكن أليست أديلايد أو إحداهنّ من قدم لك دمية الراقصة؟ إنكِ لا تحبينها»)

كانت هاربيت تشك في أن أمها تتذكر تلك الحادثة، وقد تأكدت شكوكها الآن عندما رأت نظرات أمها الحائرة.

صاحت هاربيت غاضبة: «ألا تفهمين؟ أريد ألعابي!»

«لا تكوني أنانية يا عزيزتي».

«لكنها لي».

قالت تشارلوت وهي ترفرف بعينيها حائرة: «لا أستطيع تصديق أنك تحرمين هؤلاء الأطفال الصغار من بعض الأشياء التي لم تعود تلعبين بها، لو رأيت مقدار سعادتهم عندما أعطيتهم ألعاب روبين».

«روبين مات».

قالت آيدا بنبرة قاتمة وهي تظهر عائدة من خلف البيت وتمسح فمها بظاهر يدها: «إذا أعطيت أولئك الأطفال أي شيء كي يأخذوه معهم، فسيصبح قذراً أو مكسوراً قبل أن يصلوا به إلى المنزل».

بعد أن فرغت آيدا ريو من عملها وانصرفت إلى بيتها، ذهبت أليسون إلى حاوية القمامة فاستعادت كتاب «فرديناند الثور» وحملته عائدة إلى الشرفة، وراحت تتفحصه في ضياء الغسق، سقط الكتاب فوق كومة من بقايا القهوة فتلونت حواف صفحاته بالبني. نظفته بأفضل ما تستطيع بمنديل ورقي، ثم أخذت ورقة نقدية من فئة عشرة دولارات من صندوق مجوهراتها وأدخلتها داخل الغلاف الأمامي للكتاب. فكرت، ينبغي أن تكون عشرة دولارات أكثر من كافية للتعويض عن الضرر، فعندما ترى السيدة

فوسيت الحالة التي صار عليها الكتاب ستطالبهم بدفع ثمنه وإلا ستلغي حقهم في استخدام المكتبة، ولم يكن هناك من طريقة ليتدبر الأطفال الصغار مثلهم غرامة من هذا النوع بأنفسهم.

جلست على الشرفة مسندة ذقنها إلى راحتي يديها، لو لم يمت ويني لكان الآن يهرّ إلى جوارها، وقد ارتدّت أذناه إلى الخلف فصارتا ملاصقتين لجمجمته والتف ذيله حول كاحلها العاري كأنه خطاف، وتضيق عيناه وهو ينظر عبر الحديقة المظلمة إلى عالم الليل الذي لا يعرف الهدوء، عالم تتردد فيه أصوات مخلوقات ليلية غير مرئية: أثار الحلزون وشباك العنكبوت والذباب ذو الأجنحة الزجاجية والخنافس والفئران وكل الكائنات الصغيرة التي تتواصل في صمت أو عبر الصرير أو الأزيز، أحست أن عالمهم الصغير هو موطنها الحقيقي، تلك الظلمة السرية، ظلمة الكلام الذي لا يُقال وضرابات القلب المحمومة.

عبرت غيوم مبعثرة بسرعة وجه القمر المكتمل، كانت شجرة المطاط الأسود تتمايل في النسيم وأوراقها ترفرف شاحبة في الظلمة.

لم تكن أليسون قادرة على تذكر شيء من الأيام التي تلت موت روبيين، لكنها تتذكر أمراً غريباً واحداً، تتذكر أنها كانت تتسلق الشجرة إلى أقصى ارتفاع تستطيع بلوغه، ثم تقفز إلى الأرض وتكرر ذلك مرة بعد مرة، كان السقوط يجعلها غير قادرة على التنفس، وما إن تتجلى الصدمة عنها حتى تنفض ملابسها وتتسلق الشجرة وتقفز من جديد، تقفز مرة بعد مرة، كانت قد رأت حلمًا فعلت فيه الأمر نفسه، لكنها لم تصطدم بالأرض عندما قفزت

في حلمها، حملتها ربح دافئة من فوق العشب ورفعتها في الهواء، كانت تطير وأصابع قدميها الحافيتين تلامس قمم الأشجار، وكانت تنقض من السماء سريعاً مثل طائر السنونو ملامسة العشب مسافة عشرين قدماً، ثم تعلو من جديد متمائلة وهي تحلق في الهواء، في الفضاء المُسكر. كانت صغيرة حينها، ولم تكن قد فهمت بين الأحلام والحياة، وهذا ما جعلها تواصل القفز من الشجرة، كانت تأمل أنه إذا قفزت عددًا كافيًا من المرات فقد تهب تلك الريح الدافئة التي كانت في الحلم وتحملها صاعدة بها إلى السماء، لكن هذا لم يحدث، فقد كانت جاثمة فوق ذلك الغصن العالي عندما سمعت عويل آيدا ريو آتياً من الشرفة ورأت آيدا آتية صوبها وقد استبد بها الذعر، تبتسم أليسون وتقفز عن الغصن، مستمتعة بصراخ آيدا اليائس وهي تسقط، قفزت مرات كثيرة جداً حتى أفسدت تقوس قدميها، وكان من العجيب أنها لم تكسر عنقها.

كان هواء الليل دافئاً، وكان لأزهار الغاردينيا البيضاء الشاحبة عند الشرفة رائحة غنية دافئة مُسكرة، تئاءبت أليسون، كيف يمكن للمرء أن يكون متأكداً متى يكون يحلم ومتى يكون مستيقظاً؟ في الحلم تظن نفسك مستيقظاً مع أنك لا تكون كذلك، وعلى الرغم من أنه بدا لأليسون أنها كانت مستيقظة في تلك اللحظة، فقد كانت جالسة حافية القدمين على شرفة بيتها الأمامية ومعها كتاب متسخ ببقايا القهوة على الدرج بجانبها، فهذا لا يعني أنها ليست في الأعلى في فراشها، ترى هذا كله في منامها: الشرفة وأزهار الغاردينيا وكل شيء.

في النهار كانت تسأل نفسها مرارًا وهي تسير بين غرف بيتها أو في صالات المدرسة الباردة التي تفوح منها رائحة المعقمات، وهي تحمل كتبها بين ذراعيها: هل أنا مستيقظة أم نائمة؟ كيف وصلت إلى هنا؟

كثيرًا ما كانت تصحو فجأة فتجد نفسها في درس من الدروس، لنقل إنه درس البيولوجيا (حشرات مثبتة بدبابيس، والسيدة بيل ذات الشعر الأحمر تتحدث عن مراحل انقسام الخلايا)، فلا تعلم إن كانت تعلم أم لا إلا من خلال تتبع شريط ذكرياتها. كيف وصلت إلى هنا؟ تفكر في هذا مشوشة. ماذا أكلت على الإفطار؟ هل أتت بها إيدي إلى المدرسة بالسيارة، أم أنّ أمورًا أخرى حدثت وأحضرتها إلى جدران غرفة الصف المغلفة بالأواح خشبية داكنة؟ أو لعلها كانت في مكان آخر قبل لحظة واحدة فقط، على طريق ترابية مهجورة، أو في فناء بيتها تحت سماء صفراء وشيء أبيض كأنه ملاءة يرفرف في الريح؟

تفكر في الأمر وتبذل جهدًا في ذلك، ثم تقرر أنها ليست في حلم، وذلك أن الساعة الجدارية تشير إلى التاسعة والرّبع، وهذا وقت درس البيولوجيا، ولأنها تجلس بحسب الترتيب الأبجدي أيضًا، ماغي دالتون أمامها وخلفها ريتشارد إيكولز، لأن اللوحة المصنوعة من الفلين المثبتة عليها الحشرات بالدبابيس لا تزال معلقة على الجدار الخلفي: عثة القمر في المنتصف وإلى جانبه رسم لهيكل القط العظمي ورسم آخر للنظام العصبي المركزي. مع هذا كانت أليسون تضطرب أحيانًا (في البيت عادة) عندما تلاحظ عيوبًا وأخطاء صغيرة في تسلسل الوقائع ولا تعثر

على تفسير منطقي لها؛ فألوان الورود غير صحيحة حمراء بدلاً من أن تكون بيضاء، وحبل الفسيل ليس حيث ينبغي أن يكون بل حيث كان قبل أن تقتله العاصفة منذ خمس سنين، حتى تأرجح المصباح مختلف قليلاً، أو أن المصباح نفسه في موضع غير صحيح، وفي الصور العائلية أو في اللوحات المألوفة ترى في الخلفية شخصيات غامضة لم تلاحظها من قبل، وتشاهد انعكاسات مرعبة في مرآة الردهة خلف المشهد العائلي الجميل، كأن هناك يداً تلوح من نافذة مفتوحة.

كانت أمها أو آيدا تقولان عندما تشير أليسون إلى هذه الأمور: كيف؟ لا! لا تكوني سخيفة! كان هذا الشيء هكذا دائماً.

لماذا تقولان لها هذا؟ لم تكن تعلم إن كانت نائمة أم مستيقظة، كان العالم يبدو غير ثابت كأنه لعبة زلقة: المشاهد تتغير باستمرار، كل شيء يتبدد ويعود كأنه صدى أو مجرد ضوء منعكس، وكل ذلك ينزلق مثل الملح بين أصابعها المخدرة.

كان بمبرتون هال يقود سيارته عائداً إلى منزله من النادي الريفي، كانت سيارة كاديلاك مكشوفة زرقاء من موديل عام 1962 (شاسيه السيارة في حاجة إلى إصلاح، والماء يتسرب من مشعّ التبريد، كان العثور على قطع غيار لها صعباً جداً، وكان يضطر إلى مراسلة مستودع في تكساس والانتظار أسبوعين حتى يصل طلبه، لكن السيارة كانت عزيزة عليه وطفلته وحبه الحقيقي الوحيد، كان كل قرش يكسبه في النادي الريفي يذهب إما لملء خزان وقود السيارة وإما لإصلاحها عندما تتعطل)،

وعندما انعطف عند زاوية شارع جورج، وقع ضوء السيارة على أليسون دو فريسنس جالسة على شرفة بيتها بمفردها. توقف أمام بيتها. كم يبلغ عمرها؟ خمسة عشر عامًا؟ سبعة عشر عامًا؟ قد يؤدي به هذا إلى السجن، ولكنه كان يشعر بضعف شديد إزاء الفتيات المنعزلات الضعيفات اللواتي تكون أذرعهن نحيلة ويتساقط شعرهن على أعينهن.

قال لها: «مرحبًا».

لم تبدُ عليها الدهشة، بل رفعت رأسها بحركة حاملة رومانسية جعلته يشعر بخدر في مؤخرة عنقه.

«هل تنتظرين أحدا؟»

«لا، أنتظر فحسب».

قال بمبرتون في نفسه: مدهش!

قال لها: «أنا ذاهب في نزهة بالسيارة، هل تحبين الذهاب معي؟»

توقع أن تقول «لا» أو «لا أستطيع» أو «دعني أسأل أمي أولاً»، لكنها أزاحت شعرها عن عينيها فلمع سوار في معصمها وقالت: «لماذا؟»، قالتها متأخرة لحظة، وكان هذا يعجبه فيها... تباطؤها، نعاسها، غرابتها).

«ما معنى لماذا؟»

رفعت كتفيها في حركة غير مبالية، حار بمبرتون في أمرها، كانت في أليسون غرابة (لا يعرف كيف يصفها بغير هذه الكلمة)، فقد كانت تجرّ قدميها عندما تسير، وشعرها مختلف عن باقي الفتيات، وملابسها غير متناسقة (مثل هذا الفستان المزهر الذي

ترتيديه الآن، شيء يمكن أن ترتديه سيدة مسنة)، لكن في تصرفاتها هذه مسحة ضبابية سابعة تصيبه بالجنون، بدأت سيناريوهات رومانسية تتوارد إلى ذهنه.. (سيارة، راديو، ضفة النهر).
قال لها: «هيا! سأعيدك عند الساعة العاشرة».

كانت هاربيت مستلقية في سريرها تأكل قطعة كيك، وتكتب في دفترها عندما مرت سيارة تحت نافذتها، نظرت من النافذة فلمحت أختها ذاهبة مع بمبرتون في سيارته المكشوفة وشعرها يتطاير مع الريح.

ركعت عند حافة النافذة، ومدت رأسها من بين الستائر الصفراء، وطعم الكيك الجاف الأصفر لا يزال في فمها، أغمضت عينيها ثم فتحتهما وحدقت إلى الشارع، كانت مذهولة، فأليسون لا تذهب إلى أي مكان إلا إلى بيت خالتها في الحي أو ربما إلى متجر البقالة.

مرت عشر دقائق، ثم عشرون دقيقة، شعرت هاربيت بقليل من الغيرة، بحق السماء.. ما الحديث الذي يمكن أن يكون بينهما؟ يستحيل أن يكون بمبرتون مهتمًا بفتاة مثل أليسون.

عندما نظرت إلى شرفة البيت المضاءة (أرجوحة خالية، وكتاب «فرديناند الثور» متروك أعلى الدرج) سمعت صوت حركة عند شجيرة الأضاليا أول الفناء، ثم فاجأها ظهور شخص من ذلك المكان، رأت لشارون أودوم تتسلل بهدوء عبر العشب.

لم يخطر ببال هاربيت أنها عادت لتأخذ الكتاب، كان هناك شيء في طريقة انحناء كتفي لشارون جعلها تغلي غضبًا، ودون

تفكير رمت من النافذة ما تبقى من شريحة الكيك.

صرخت: لاشارون. حدثت حركة سريعة في الشجيرات خلفها، وبعد بضع لحظات رأت ظلًا يبتعد عن المرح مسرعًا ويمضي وسط الشارع المضاء جيدًا، يليه بمسافة كبيرة ظلٌ أصغر يترنح غير قادر على الركض بتلك السرعة.

كانت هاربيت لا تزال راكعة على حافة النافذة ورأسها خارج الستائر، وظلت بضع لحظات تحقق إلى الرصيف الخالي اللامع تحت الضوء حيث غابت أودوم عن نظرها، كان ضياء القمر ينسكب على الرصيف لكن الليل كان ساكنًا كالزجاج، فما من ورقة تهتز في شجرة، وما من قط يموء حتى أجراس الريح على شرفة السيدة فاونتين كانت صامتة.

شعرت بالملل والانزعاج فتركت موقعها، وغرقت من جديد في دفترها، كادت تنسى أنها في انتظار عودة أليسون حتى سمعت صوت إغلاق باب سيارة أمام البيت.

عادت إلى النافذة وسحبت الستارة بهدوء، فرأت أليسون واقفة في الشارع بجانب مقعد السائق في سيارة الكاديلاك الزرقاء، وكانت تعبث بسوارها وتقول كلامًا لا تستطيع سماعه، انفجر بمبرتون ضاحكًا، لمع شعره الأصفر تحت مصابيح الشارع كأنه شعر سنديلا، كان شعره طويلًا لدرجة أنه عندما يسقط على وجهه لا يبقى ظاهرًا غير أنفه، كان يبدو كأنه فتاة.

سمعتة يقول: «لا تصدقي هذا يا عزيزتي!»

عزيزتي! ما معنى هذا؟ تركت هاربيت الستارة تتسدل مثلما كانت، وألقت بدفتها تحت السرير، دارت أليسون خلف مؤخرة

السيارة متجهة صوب البيت، بدت ركبناها العاريتان حمراوين في ضوء مصابيح الكاديلاك الخلفية.

فتح باب البيت، ثم انطلقت سيارة بمبرتون، صعدت أليسون السلم بهدوء، لا تزال حافية القدمين، فقد ذهبت في السيارة دون أن تلبس حذاءها، ودخلت غرفة النوم مسرعة دون أن تتظر إلى هارييت، مشت مباشرة إلى مرآة طاولة الزينة ونظرت بجدية إلى وجهها، وأنفها يكاد يلامس الزجاج، ثم جلست على حافة سريرها وراحت تنفض عن كعبي قدميها المصفرتين ما علق بهما من تراب.

قالت هارييت: «أين كنت؟»

صدر عن أليسون صوت غير مفهوم وهي تجذب فستانها فوق رأسها كي تخلعه.

سألتها أختها عندما رأت أنها لم تجبها بشيء: «رأيتك تذهبين بالسيارة، أين ذهبت؟»
«لا أدري».

قالت هارييت: «ألا تدرين أين ذهبت؟»، أمعنت في النظر إلى أليسون التي ظلت شاردة الذهن تتظر إلى انعكاس صورتها في المرآة وهي ترتدي بنطال بيجامتها الأبيض، وأضافت: «هل أمضيت وقتاً طيباً؟»

زررت أليسون قميص بيجامتها (ظلت حريصة على تفادي عيني هارييت)، ثم جلست على فراشها وراحت ترتب حيواناتها حولها، فقد كانت تصف الحيوانات بطريقة محددة حول جسدها قبل أن تخلد إلى النوم ثم سحبت الأغطية فوق رأسها.

«أليسون؟»

«ماذا؟»

أنتها الإجابة مكتومة بعد لحظات.

«هل تتذكرين ما تكلمنا فيه؟»

«لا».

«بل تتذكرين، قلنا إنك ستكتبين أحلامك».

عندما لم تسمع هارييت إجابة، قالت بصوت أعلى: «لقد وضعت ورقة وقلمًا إلى جانب سريرك، هل رأيتهما؟»
«لا».

«أريد أن تتظري الآن، انظري يا أليسون!»

أخرجت أليسون رأسها من تحت الأغطية بما يكفي لرؤية ورقة نزعَت من دفتر سلكي موضوعة تحت المصباح الصغير، كان مكتوبًا بخط هارييت في أعلى الورقة: أحلام أليسون دو فريسنس، 12 حزيران.

قالت بصوت غير واضح: «شكرًا، يا هارييت».

وقبل أن يتسنى لهارييت أن تطلق كلمة واحدة، شدت أليسون الغطاء فوق رأسها ولقّت جسدها فصار وجهها في مواجهة الجدار.

ظلت هارييت بضع لحظات تنظر إلى ظهر أختها، ثم مدت يدها تحت السرير وأخرجت دفترها، ففي وقت سابق من ذلك اليوم كانت قد سجلت ملحوظاتها على ما قرأته في الصحف المحلية، وقد كان أكثر ما قرأته أنباء جديدة بالنسبة إليها: اكتشاف الجثة، ومحاولات إنعاش أخيها (الظاهر أن إيدي كانت قد قطعت الحبل

باستخدام مقص النباتات، والظاهر أيضًا أنها ظلت تحاول إعادة الحياة إلى الجثة إلى أن وصل طاقم الإسعاف)، قرأت هاربيت عن انهيار أمها ونقلها إلى المستشفى، وقرأت كذلك ما قاله رئيس الشرطة في الأسابيع التي أعقبت ذلك («ما من أدلة؛ «أمر مؤسف»)، ودوّنت أيضًا كل ما استطاعت تذكره مما قاله لها بمبرتون بصرف النظر إن كان مهمًا أو غير مهم، فكلما كتبت أكثر، تذكرت أكثر.. وتذكرت معلومات صغيرة متنوعة سمعتها هنا وهناك على مر السنين، وانتبهت إلى أن روبين مات قبل أسابيع من انتهاء العام الدراسي وبدء عطلة الصيف، كانت قد أمطرت في ذلك اليوم ووقعت في ذلك الوقت سرقات صغيرة عدّة في الجوار: أدوات سُرقت من بيوت الناس، هل لهذا علاقة بالأمر؟ عندما عثروا على جثة روبين في الفناء، كان الناس يخرجون من الكنيسة المعمدانية بعد انتهاء قداس المساء؛ وكان أحد أوائل الناس الذين توقفوا وقدموا المساعدة الدكتور آدير العجوز، وهو طبيب أطفال متقاعدٌ بلغ الثمانين من العمر، صادف أنه كان يقود سيارته مع عائلته عائداً إلى منزله، علمت هاربيت أيضًا أن والدها كان في رحلة صيد وأن واعظ الكنيسة اضطر إلى أن يقود سيارته ويذهب باحثًا عنه ليبلغه النبأ.

قالت في نفسها: حتى لو لم أكتشف من قتله، فسوف أعرف كيف حدث ذلك على الأقل.

صار لديها اسم أول مشتبه فيه، وما إن كتبت أدركت مدى سهولة أن تتسى، ومدى أهمية أن تكتب كل شيء على الورق من الآن فصاعدًا.

فجأة خطرت لها فكرة. أين كان يعيش؟ قضت من السرير وذهبت إلى طاولة الهاتف في الردهة الأمامية، عندما وصلت إلى اسمه في الدليل -داني راتليف- سرت قشعريرة على طول ظهرها.

لم تجد عنواناً واضحاً، فقط Rt 260. عضت على شفتها في تردد، ثم طلبت رقم الهاتف المدون في الدليل ففوجئت كثيراً عندما أتاها الرد بعد الرنة الأولى (ضحيج بشع صادر عن التليفزيون)، ثم صاح رجل بصوت كالنباح: «ألو!» سارعت هاربيت إلى إعادة سماعه الهاتف إلى مكانها كأنها تغلق غطاء علبة كي لا يخرج منها شيطان.

قال هيلي لهاربيت وهما جالسان على درجات الشرفة الخلفية في بيت إيدي: «رأيت أخي الليلة الماضية يحاول تقبيل أختك»، كان هيلي قد جاء بعد الإفطار.

«أين؟»

«عند النهر، كنت أصطاد الأسماك».

اعتاد هيلي أن ينزل دائماً إلى ضفة النهر حاملاً قسبة الصيد ودلواً صغيرة فيها ديدان، لا يذهب أحد معه. لم يكن أحد يرغب في تلك الأسماك التافهة الصغيرة التي يصطادها، لذلك كان يعيدها إلى الماء بعد اصطادها. كان يجلس في الظلام وحيداً (يفضل الصيد في الليل مع نقيق الضفادع وانعكاسات ضوء القمر على سطح الماء). وكان أعظم أحلام يقظته أن يعيش مع هاربيت مثلما يعيش الكبار في كوخ صغير عند النهر، كانت تلك

الفكرة تشغل تفكيره ساعات طويلة... وجهاهما متسخان وفي شعرهما أوراق متساقطة من الأشجار، يوقدان نارًا، ويمسكان بالضفادع وسلاحف الطين، عينا هارييت الشرستان تلمعان في الظلام مثلما تلمع عينا قطة برية.

ارتعش وقال لها: «ليتك أتيت الليلة الماضية، لقد رأيت بومة». قالت هارييت غير مصدقة: «ماذا كانت أليسون تفعل هناك؟ لا أظنها كانت تصطاد الأسماك».

أجابها وهو يتزحزح قليلًا على مؤخرته كي يقترب منها كأنه يستودعها سرًا: «لا، سمعت صوت سيارة بمبرتون عند ضفة النهر.. تعرفين ذلك الصوت الذي تصدره سيارته»، وكما يفعل شخص خبير، ضغط شفثيه معًا وقلّد ذلك الصوت: «واب واب واب!» «في وسعك سماعها قادمة على بعد ميل. عرفت أنها سيارته وظننت أن أمي أرسلته ليعيدني إلى البيت فجمعت أشياء وصعدت إلى الطريق، ولكنه لم يكن يبحث عني».

ضحك هالي ضحكة قصيرة ساخرة بدا له أنها متقنة تمامًا، فكررها مرة أخرى وكان راضيًا عن الثانية أكثر من الأولى. «ما الذي يضحكك؟»

لم يستطع مقاومة تلك الفرصة التي سنحت له لتجريب ضحكته الساخرة مرة ثالثة.

«الحقيقة أنني رأيت أليسون، رأيتها من الجانب لأنها كانت جالسة على المقعد البعيد عني، وكان بمبرتون قد وضع يده على ظهر المقعد ومال نحوها.. كان يميل هكذا» (وضع يده على كتفي هارييت ليشرح لها ما يعنيه بكلامه). قلّد صوت قبرة دبقة كبيرة فابتعدت هارييت عنه بغيظ.

«وهل قبلته مثلما قبلها؟»

«لم يبدُ عليها أنها مهتمة بالأمر، ولا أنها غير مهتمة. كنتُ قد اقتربت منهما كثيرًا...».

أكمل مزهواً: «وددت أن أرمي سحلية ليلية في السيارة، ولكن بمبرتون سيوسعني ضرباً إن فعلت ذلك».

أخرج من جيبه حبات فستق مسلوقة وعرضها على هاربيت، ولكنها رفضتها.

«ما بك؟ ليست سامة».

«لا أحب الفستق».

قال: «جيد، صارت كلها لي»، ألقى بضع حبات الفستق في فمه، ثم قال: «هيا، لماذا لا تصطادين معي اليوم؟»
«لا، شكرًا».

«وجدت لساناً رملياً يمتد بين القصب، وثمة درب ينزل إليه مباشرة. سيعجبك المكان كثيرًا، رمل أبيض مثلما في فلوريدا».
«لا».

كان والدها يستخدم تلك النبرة المزعجة نفسها عندما يؤكد لها واثقاً بأنها «سوف تحب» هذا الأمر أو ذاك (كرة القدم أو الرقص الإيقاعي أو الحفلات التي تقيمها الكنيسة في الهواء الطلق)، تلك الأشياء التي تعلم يقيناً أنها تكرهها.
«ما مشكلتك يا هاربيت؟»

كان هالي يشعر بالحزن لأنها لا تحب أن تفعل ما كان يحبه أبداً. تمنى أن يسير معها في ذلك الدرب الضيق بين القصب، أن يسيرا يداً بيد وأن يدخلوا السجائر مثل الكبار... وأرجلهم

العاريتان مليئتان بالخدوش والطين، والمطر الخفيف والزبد الأبيض يتناثر حول عيدان القصب.

كانت أديليد ربة منزل لا تعرف التعب؛ على عكس شقيقاتها اللواتي كانت بيوتهن الصغيرة مكتظة بالكتب والتحف والأشياء المبعثرة ونماذج الأزياء وأحواض الزهور والسراخس التي مزقتها القطط.

لم يكن لدى أديليد حديقة ولا حيوانات، وكانت تكره الطهي، ولديها خوف شديد مما تسميه «الفوضى». كانت تشتكي بأنها لا تستطيع تحمل تكاليف الاستعانة بمديرة منزل، وهو ما كان يثير حنق تات وإيدي، لأن شيكات الضمان الاجتماعي الثلاث التي كانت تحصل عليها أديليد كل شهر (بفضل ثلاثة أزواج متوفين) كانت تؤمن لها مستوى مادياً أفضل بكثير منهما، لكن الحقيقة كانت أنها كانت تستمتع بالتنظيف (لقد منحتها طفولتها في بيت تريببوليشن المتهالك رعباً من الفوضى) ما يسعدها شيء أكثر مما يسعدها غسل الستائر أو كيّ المفارش أو التنقل في منزلها الصغير الخالي من الأثاث الذي يشمّ منه رائحة المعقمات، وهي تحمل قطعة قماش للتنظيف وزجاجة من مُلَمّع الأثاث برائحة الليمون.

عندما كانت هاربيت تزور أديليد، كانت تجدها عادةً تكنس السجادة بالمكنسة الكهربائية أو تنظف خزائن مطبخها. لكن اليوم كانت جالسة على الأريكة في غرفة المعيشة، متأنقة كماداتها: ترتدي قرطين لؤلؤيين، وقد غسلت شعرها وصبغته بلون أشقر

جميل منذ وقت قريب، وساقاها المكسوتان بالجوارب متقاطعتان عند الكاحلين.

كانت الأجمل بين شقيقاتها دائماً، ومع أنها أصبحت في الخامسة والستين، فهي تبدو أصغرهن. فعلى عكس ليبي الوجلة وإديث الشرسة وتات المتوترة المشتتة، كان في أديلaid شيء خفي لعوب، وكان فيها ذلك الألق «الماكر» الذي يميز الأرامل المبتهجات. لم يكن غريباً أن تفكر في زوج رابع شرط أن يظهر الرجل المناسب فجأة في ألكساندريا ويؤدي إعجابه بها، (رجل أنيق أصلع يرتدي سترة رياضية، يملك آبار نפט أو مزارع خيول). كانت أديلaid تطالع عدد شهر حزيران من «مجلة المدينة والريف» الذي وصلها مؤخراً، فيما كانت تبحث في صفحة «الزيجات». ثم سألت هاربيت وهي تريها صورة شاب ذي شعر داكن وعينين باردتين وحالمتين يقف إلى جانب شقراء لامعة الوجه، ترتدي تنورة مدوّرة بألوان صاخبة جعلت شكلها أشبه بفرخ ديناصور: «برأيك، من منهما يملك المال؟»

«يبدو أن الرجل يكاد يتقيأ».

«لا أفهم هذا الاهتمام الشديد بالشقراوات، يقولون إنهن أكثر إثارة لكنني أظن أن هذا مجرد وهم أوجده التليفزيون، النساء ذوات الشعر الأشقر الطبيعي لديهن ملامح ضعيفة ويبدون شاحبات كأنهن فاقدمات للحوية، تبدو الواحدة منهن كأرنب، إلا إذا بذلت جهداً كبيراً لتحسين مظهرها، انظري إلى هذه الفتاة المسكينة، وانظري إلى تلك أيضاً، وجهها كوجه نعجة».

قالت هاربيت التي لم ترَ فائدة في التأدب قبل الخوض في الموضوع: «أريد التكلم في أمر روبين».

قالت أديليد وهي تراقب صورة من حفل خيرى: «ما هذا الذي تقولينه يا حلوتي؟»

كان في الصورة شاب نحيف في بدلة رسمية سوداء (وجهه وضّاح وواثق يعكس نقاء وبساطة) يميل إلى الخلف ضاحكاً، يده على ظهر فتاة سمراء قصيرة القامة ترتدي فستان سهرة وردياً فاتحاً وقفازات طويلة بنفس اللون.

«روبين، يا آدي».

قالت أديليد وهي ترفع عينيها عن الشاب الوسيم الذي في الصورة: «أوه، يا عزيزتي! لو أن روبين معنا اليوم لتساقطت الفتيات حوله، عندما كان صبيّاً صغيراً كان مليئاً بالحيوية والمرح، وكان ضحكه يجذب الجميع لدرجة أنه كان يكاد يسقط أحياناً من شدة الضحك، كان يحب أن يأتيني من خلفي متسللاً ثم يطوق رقبتى بذراعيه ويعض أذني، كان ساحراً.. كان مثل ذلك الببغاء «بيلي بوي» الذي كان عند إيديث في طفولتنا».

توقفت أديليد عن الكلام، إذ لفت انتباهها ابتسامة الفتى الذي في الصورة، كان مكتوباً تحت الصورة «السنة الثانية في الكلية». لو كان روبين حياً لكان في السن نفسها تقريباً، أحست بلحظة سخط، كيف يكون من حق هذا الذي اسمه ف. دودلي ويلارد، مهما كان من يكون، أن يظل حياً ضاحكاً في فندق بلازا مستمتعاً بأنغام الأوركسترا مع هذه الفتاة الجميلة التي تضحك له في فستانها الساتان؟

توفي زوجها على التوالي في الحرب العالمية الثانية برصاصة طائشة في موسم الصيد واحتشاء قلبي مفاجئ، حملت من الأول بصبيين توأم توفيا في بطنها، ومن الثاني ابنة ماتت في الشهر الثامن عشر إثر استنشاق الدخان عندما شبَّ حريق في شقتها القديمة بسبب المدفأة في الشارع الثالث غربًا.

كانت تلك ضربات مدمرة وقاسية وقاصمة للظهر، لكن الإنسان يتجاوز المحن ويتخطاها واحدة تلو الأخرى، لحظة بعد لحظة، ونَفَسًا بعد نَفَس، عندما تفكر في التوأمين الميتين، تتذكر فقط ملامحهما الدقيقة والمثالية، وأعينهما المغمضة بسلام كأنهما نائمان.

لكن من بين كل المآسي التي مرت بها (عانت أكثر مما يجب)، لم يكن أي شيء أشد إيلامًا من بشاعة موت روبين الصغير، ذلك الجرح الذي لم يندمل، بل ظل يتفاقم مع الزمن كمرض عضال لا يرحم.

لاحظت هاربيت التعبير العميق في وجه خالتها، ففتحنت وقالت: «أظن أن هذا ما جئت كي أسألك عنه، يا أديلايد». قالت: «كنت دائمًا أتساءل إن كان شعره سيصبح داكنًا مع مرور الزمن»، ثم مدت ذراعها لتبعد المجلة مسافة عنها، ثم نظرت إليها من فوق نظارة القراءة، وأكملت: «كان شعر إيديث شديد الحمرة عندما كانت صغيرة، لكنه لم يكن مثل حمرة شعره.. كان أحمر حقيقيًا خاليًا من أي مسحة برتقالية».

فكرت في نفسها بحزن: يمرح أطفال اليانكي المدللون في فندق بلازا فيما ابن أختها الصغير الجميل المتفوق في كل شيء

يرقد تحت التراب، لم تسنح لروبين فرصة حتى لأن يلمس فتاة. استرجعت أديليد ذكريات زيجاتها الثلاث المليئة بالعاطفة وقُبَلها في غرف تبديل الملابس أيام شبابها الذي عاشته بكل ما فيه. «ما أريد سؤالك عنه هو إن كانت لديك أي فكرة عمن قد يكون...».

«لو كبر لحطم قلوب الفتيات، يا عزيزتي، كانت فتيات الجامعة سيتقاتلن من أجل مرافقته إلى الحفل الاجتماعي الراقى في غرينوود، مع أنني لا أقيم وزنًا لتلك السخافات والألعاب والتجمعات...».

نقرات على الباب وظلٌّ من خلفه يصيح: «آدي».

أجفلت أديليد وصاحت: «من هناك؟ إيديث؟»

دلفت تات من الباب دون أن تلقي نظرة على هاربيت، وعيناها متسعتان من الدهشة، ألقت حقيبتها الجلدية الفاخرة على الأريكة، وقالت: «عزيزتي! هل تستطيعين تصديق أن ذلك الوغد روي دايال من شركة شيفروليه يريد ستين دولارًا من كل سيدة في حلقة السيدات مقابل السفر إلى شارلستون في رحلة الكنيسة بياص المدرسة المهدم؟!»

صرخت أديليد: «ستين دولارًا! قال إنه سيتكفل بنقلنا مجانًا». «لا يزال يقول إنه لا يريد مقابل ذلك، ولكنه يريد الستين دولارًا من أجل ثمن البنزين».

«هذا بنزين كافٍ للسفر إلى الصين الحمراء».

«ستتصل يوجين مونماوث بالأسقف كي تتقدم بشكوى».

جحظت عينا أديلايڊ: «أظن أن إيڊيث هي التي ينبغي أن تتصل».

«أتوقع أن تتصل عندما تسمع بالأمر، أنا أقول لك ما سمعته من إيما كارڊاين: ذلك الرجل يحاول أن يجني أرباحًا كبيرة».

«هذا واضح، يجب أن يخجل من نفسه، لا سيما أن يوجين وليزا وسوزي لي وغيرهن يعيشن جميعًا من الضمان الاجتماعي و...».

«لو طلب عشرة دولارات.. عشرة دولارات أمر أستطيع فهمه».

قالت أديلايڊ: «يطلب ستين دولارًا وهو شماس كبير، ماذا ترك لغيره؟»

نهضت واقفة وذهبت إلى طاولة الهاتف فتناولت قلمًا ودفترًا وبدأت تحسب، ثم قالت: «يا إلهي، سوف أكون في حاجة إلى الأطلس من أجل هذا الأمر، كم عدد السيدات في الحافلة؟»

قالت تات: «خمس وعشرون، على ما أظن، هذا بعد أن انسحبت السيدة تايلور وبعد أن سقطت السيدة نيومان ماكليمور المسكينة وانكسر حوضها.. مرحبًا هاربيت الحلوة»، مضت إلى هاربيت كي تقبلها: «هل أخبرتك جدتك بهذا؟ مجموعتنا في الكنيسة ذاهبة في رحلة إلى حدائق كارولينا التاريخية، أنا متحمسة جدًا!»

«لكن مع هذا الرسم الكبير الذي يطلبه روي دايال، لست متأكدة من رغبتني في الذهاب».

«ينبغي أن يشعر بالخجل من نفسه، تلك هي الحقيقة، لديه ذلك البيت الجديد الكبير في أوك لون، وكل تلك السيارات الجديدة الفاخرة سيارات ويني باغو، والقوارب، وأشياء أخرى كثيرة...».

قالت هارييت قانطة: «أريد أن أطرح سؤالاً مهماً عن وفاة روبين».

توقفت أدليد وتأت عن الحديث في نفس اللحظة، ورفعأت أدي رأسها عن خريطة الطرق، كان هدوءهما المفاجئ صادمًا لدرجة أن هارييت شعرت بموجة من الرعب.

قالت في صمت غير مريح أعقب ذلك: «كنتما في البيت ذلك اليوم، ألم تسمعا شيئاً؟». خرجت الكلمات بسرعة زائدة.

تبادلتا النظرات وسرت بينهما لحظة تفكير كأن تفاهماً غير منطوق عبّر بينهما، استشقت تات نفساً عميقاً ثم قالت: «لا، لم نسمع شيئاً، هل تعلمين ما أعتقد؟»

أضافت عندما حاولت هارييت مقاطعتها بسؤال آخر: «أعتقد أنك لا يجب أن تطرحي هذا الموضوع أمام الناس بهذه البساطة». «لكنني...».

«هل ضايقت أمك أو جدتك بأي أسئلة حول ذلك؟»
«لا».

أضافت أدليلايد بصوت مختنق: «وأنا لا أجد هذا الأمر موضوعاً مناسباً للحديث»، علا صوتها فوق اعتراضات هارييت.. «في الواقع، أظن أن الوقت قد حان كي تعودني إلى البيت يا هارييت».

جلس هيلي متعرقاً على ضفة الجدول بين الأجسام، كادت الشمس تعميه وهو يرقب عوامة صنارته الحمراء تتراقص على سطح الماء العكر، كان قد رمى الديدان التي معه على الأرض

لأنه ظن أنه قد يسره منظرها وهي تتلوى على الأرض أو تحفر ثقباً في التربة أو أي شيء آخر، ولكن الديدان لم تدرك أنها صارت حرة فاكتفت بأن فكت تشابكاتها وراحت تزحف كسولة حول قدميه، كان هذا محبطاً. التقط واحدة منها صعدت إلى حذائه الرياضي ونظر إلى بطنها المقسم كالمومياء إلى حلقات، ثم قذف بها إلى الماء.

في المدرسة فتيات كثيرات أجمل من هارييت وألطف منها، ولكن أيًا منهن أذكى منها أو أجراً، فكر في مواهبها المتعددة بحزن: كانت تستطيع تقليد خطوط الآخرين (خطوط المعلمات)، وأن تكتب رسائل اعتذار عن الغياب تبدو كأن شخصاً كبيراً قد كتبها، وتستطيع صنع قنابل من الخل والصودا، وتقليد الأصوات في الهاتف، وكانت تحب إطلاق الألعاب النارية على عكس الفتيات اللواتي يخشين الاقتراب منها. أرسلوها إلى البيت عندما كانت في الصف الثاني لأنها خدعت صبيًا وجعلته يأكل ملعقة ممتلئة من الفلفل الحار، ومنذ سنتين أثارت الذعر بقولها إن غرفة الطعام القديمة المخيفة في قبو المدرسة هي واحدة من بوابات الجحيم، إذا أطفأت نور المصباح فسوف يظهر لك على الجدار وجه الشيطان، نزلت إلى تلك الغرفة مجموعة فتيات ضاحكات، وأطفأت المصباح.. ثم اندفعن خارجات من القبو وهن يصرخن مدعورات، بدأ الطلاب يدعون المرضى، ويطالبون بالعودة إلى البيت وقت الغداء.. أي شيء لتجنب النزول إلى ذلك القبو. وبعد عدة أيام من الاضطراب المتزايد جمعت السيدة مايلي الأطفال كلهم معًا وسارت بهم (مع السيدة كيندي القوية معلمة الصف

السادس) إلى غرفة الطعام الفارغة، كان الفتیان والفتيات سائرين من خلفها في خوف شديد، أطفأت المصباح وقالت بنبرة ازدراء: «هل رأيتم؟ الآن ألا تشعرون جميعاً بالسخافة؟»

من الخلف، قالت هاربيت بصوت رفيع يبدو ضعيفاً لكنه كان أكثر قوة من توبيخ المعلمة: «إنه هناك، وأنا أراه».

علا صوت صبي صغير: «هل ترونه؟ هل ترونه؟»

تعالَت شهقات، ثم حدث تدافع وصياح شديد، بكل تأكيد عندما تعتاد عيناك على الظلام يظهر توهج أخضر غريب يلمع في الزاوية العلوية اليسرى من الغرفة (حتى السيدة كينيدي رمشت في حيرة)، وإذا نظرت طويلاً بما فيه الكفاية يبدو كأنه وجه شيطان بعينين مائلتين ومندبل مربوط فوق فمه.

كل ذلك الاضطراب حول «شيطان غرفة الطعام» (اتصالات من الأهالي إلى المدرسة، اجتماعات مع المدير، خطب دينية غاضبة من الكنائس خصوصاً كنيسة المسيح والكنيسة المعمدانية مع عناوين مثل «الشيطان يخرج» و«الشيطان في مدارسنا؟») كل هذا كان من صنع هاربيت، كان ثمرة حسابات جافة أجراها عقلها الصغير، حسابات لا تعرف هوادة.

على الرغم من صغر حجمها كانت هاربيت شرسة في الملعب وفي المشاجرات، وكانت تعتمد أساليب قتال قذرة. وَشَّتْ بها فاي غاردنر ذات مرة فما كان من هاربيت إلا أن مدت يدها تحت المقعد بكل هدوء وفكَّت الدبوس الكبير الذي يربط طرفي تتورتها الواسعة، ظلت طيلة النهار منتظرة فرصتها، وفي ذلك العصر عندما كانت فاي تُخرج بعض الأوراق، انقضت عليها

بسرعة البرق وطعنت ظاهر يدها، كانت تلك أول مرة يرى هيلي المدير يعاقب فتاة، ضربها ثلاث ضربات بالعصا ولم تبكِ هاريت. قالت بهدوء عندما أثنى هيلي عليها في طريق العودة من المدرسة: «وماذا في ذلك؟»

كيف يستطيع أن يجعلها تحبه؟ تمنى لو يعرف شيئاً جديداً ومثيراً ليخبرها به، حقيقة مثيرة أو سرّاً رائعاً، شيئاً يمكن أن يثير إعجابها حقاً، أو.. ليتها تكون عالقة في بيت يحترق أو هاربة من لصوص.. عندئذٍ يستطيع الاندفاع مثل الأبطال فينقذها.

كان قد أتى بدراجه إلى هذا الجدول البعيد الذي كان صغيراً لدرجة أنه لم يكن لديه حتى اسم، في الأسفل عند الضفة كان هناك مجموعة من الصبيان السود، ليسوا أكبر منه بكثير، وعلى مسافة أبعد كان هناك عدد من الرجال السود يرتدون سراويل كاكي مطوية عند الكاحل، كان أحد هؤلاء الرجال يحمل دلواً من الفلين ويرتدي قبعة قش عريضة مطرزة بالأخضر ومكتوب عليها «تذكّر من المكسيك»، اقترب منه الرجل بحذر وقال: «مرحباً». أجابه هيلي بحذر: «مرحباً».

«لماذا رميت هذه الديدان الجيدة على الأرض؟»

لم يستطع هيلي أن يفكر في أي شيء ليقوله، أجابه آخر الأمر: «سكبت عليها بنزينا».

«هذا لا يضرها، سوف تأكلها الأسماك على أي حال، ما عليك إلا أن تغسلها».

«لا بأس».

«سأساعدك، نستطيع أن نغمرها في الماء الضحل هنا».

«خذها إن كنت تريدها».

ضحك الرجل العجوز بجفاف، ثم انحنى وراح يجمع الديدان ويضعها في الدلو، شعر هيلي بالإهانة، فجلس محدقاً إلى صنارته التي ألقى بها في الماء من غير طعم، وراح يقضم بمرارة حبات الفستق المسلوق من كيس بلاستيكي في جيبه، متظاهراً بأنه لا يرى شيئاً حوله.

كيف يستطيع أن يجعلها تحبه، وأن تتبته لغيابه عندما لا يكون موجوداً؟ ربما يستطيع أن يشتري لها شيئاً، ولكنه لا يعلم ما تحب، وليس لديه مال. تمنى لو كان قادراً على صنع صاروخ أو رجل آلي، أو يرمي السكاكين ويصيب الأهداف مثل عروض السيرك، أو لو كان لديه دراجة نارية يؤدي بها حركات خطيرة مثل إيفل كنيفل.

رفرفت عيناه الحالمتان ونظر إلى الناحية الأخرى من الجدول حيث كانت امرأة سوداء جالسة تصطاد عند الضفة المقابلة، في ظهيرة أحد الأيام علمه بيمبرتون كيف يستخدم ناقل الحركة في الكاديلاك، تخيل نفسه مع هاربيت ينطلقان بسرعة على الطريق السريع رقم 51 بسيارة مكشوفة، نعم صحيح أنه في الحادية عشرة فقط، ولكنك تستطيع الحصول على رخصة لقيادة السيارة في ولاية ميسيسيبي عندما تصبح في عمر الخامسة عشرة، وفي لويزيانا تحصل عليها في عمر الثالثة عشرة، وإن اضطر إلى ذلك فمن المؤكد أنه قادر على أن يزعم بلوغه الثالثة عشرة ولن يكتشف أحد أمره.

يمكنهما إعداد غداء بسيط، شطائر المربي مع مخلل الخيار، ربما يستطيع أن يسرق بعض الويسكي من خزانة المشروبات لدى أمه، وإن لم ينجح في ذلك يستطيع أن يأخذ زجاجة من «الدكتور تيتشينور»⁽¹⁾.. مادة معقمة طعمها رديء جداً، ولكن نسبة الكحول فيها تبلغ سبعين في المئة. يمكنهما القيادة إلى ممفيس، والذهاب إلى المتحف لرؤية عظام الديناصورات ورؤوسها المنكشنة، يعجبها هذا النوع من الأمور التعليمية. وبعد ذلك يقودان السيارة إلى فندق بيبودي وسط المدينة، ويشاهدان البطات وهي تسير في ردهته، يستطيعان القفز على السرير في غرفة كبيرة، وطلب الروبيان وشرائح اللحم من خدمة الغرف، ومتابعة التلفزيون طيلة الليل، ما من أحد يستطيع منعهما من الجلوس معاً في حوض الاستحمام.. إذا أحبا أن يفعلا ذلك.. دون ملابس، احمرّ وجهه خجلاً.

كم ينبغي أن يكون عمر المرء كي يستطيع أن يتزوج؟ إذا كان بإمكانه إقناع دورية الشرطة على الطريق السريع بأنه يبلغ الخامسة عشرة، فمن المؤكد أنه يمكنه إقناع القس بذلك أيضاً. تخيل نفسه يقف معها على شرفة مزرعة في مقاطعة دي سوتو: ترتدي هاربيت الشورت الأحمر الذي لديها، وهو يرتدي قميص هارلي دافيدسون القديم الذي يملكه بمبرتون الذي بهت ألوانه حتى صارت قراءة عبارة «امضِ جريئاً ومُتَّ حرّاً» المكتوبة عليه شديدة الصعوبة، يد هاربيت الصغيرة الساخنة تحرق يده، ثم

(1) منتج مكون من مزيج من الكحول والمكونات العشبية، كان يُستخدم غسولاً للفم ومنظفاً للجروح.

يقول القس: «والآن، تستطيع أن تقبل العروس»، وبعد ذلك تقدّم زوجة القس الليموناضة، ويصيحان متزوجين إلى الأبد، ويتجولان بالسيارة طيلة الوقت، ويمضيان أوقاتاً رائعة ويأكلان أسماكاً يصطادها بنفسه من أجلهما، سيكون أبوه وأمه وكل من في البيت في قلق شديد، وسيكون هذا رائعاً.

أيقظه من أحلامه صوت اصطدام شديد تبعه سقوط شيء في الماء وضحكات عالية مجنونة، نظر إلى الضفة المقابلة ورأى المرأة السوداء العجوز وقد ألقت من يدها قسبة الصيد، وغطت وجهها بيديها بينما تطاير رذاذ ماء بني من الجدول.

ثم صوت اصطدام آخر، ترددت أصداء ضحكات مخيفة من الجسر الخشبي فوق الجدول، رفع هيلي يده ليحجب وهج الشمس عن عينيه، فرأى على الجسر رجلين أبيضين غير واضحين، كان الأضخم بينهما يبدو كظل هائل، يضحك بصوت أجش، ويداه الكبيرتان القذرتان تتدليان فوق الحاجز مزينتان بخواتم فضية ضخمة، بجانبه كان الرجل الأقصر (قبة كاوبوي وشعر طويل) يحمل مسدساً فضياً لامعاً بكلتا يديه ويصوّبه نحو الماء، أطلق النار من جديد، فقفز رجل عجوز أسود متراجعاً حينما أثارت الرصاصة رذاذ ماء أبيض بجوار قسبة صيده.

ردّ الرجل الضخم على الجسر لبدة شعره الكبيرة إلى الخلف فظهرت لحيته الشعثاء، وصاح بصوت أجش.

رمى الأولاد السود قصبات الصيد وابتعدوا عن النهر هاربين، في حين كانت المرأة السوداء تسرع خلفهم سريعاً بخطوات عرجاء رافعة أطراف تنورتها بإحدى يديها وذراعها الأخرى ممدودة، وهي تصيح: «تحركوا سريعاً، يا جدتي».

سمع هيلي صوت إطلاق نار آخر، ورأى نتفاً من الحجارة والتراب تتطاير إلى الماء، بدأ الرجل يطلق النار بشكل عشوائي. وقف هيلي متحجراً في مكانه حتى أثارت رصاصة غباراً بالقرب من جذع شجرة حيث كان الرجل الأسود قد اختبأ، ألقى هيلي بصنارته واستدار ليفرّ هارباً، لكنه تعثر وكاد يقع، ركض بكل ما أوتي من سرعة واختبأ وسط أجمة كثيفة.

غطس بين كتلة من شجيرات التوت البري، وشعر بوخز الأشواك يخدش ساقيه العاريتين. ومع صوت إطلاق رصاصة جديدة، تساءل بارتجاف: إن كان الأبيض الجنوبيان قادرين من تلك المسافة أن يميزا أنه أبيض؟ حتى إن كانا قادرين على ذلك، فهل يباليان؟

كانت هاربيت منكبة على دفتريها عندما سمعت عويلاً عالياً آتياً من النافذة المفتوحة، صرخت أليسون من فناء البيت الأمامي: «هاربيت، هاربيت، تعالي، أسرع».

قفزت هاربيت من مكانها، وركلت الدفتر بقدمها فقذفت به تحت السرير، ثم هرعت نازلة السلم وخرجت من الباب. كانت أليسون واقفة في الممر تبكي، وشعرها ينسدل على وجهها. قطعت هاربيت نصف الطريق في الممر قبل أن تتبته إلى أن حرارة الأسمنت تحت قدميها العاريتين شديدة جداً، فمالت إلى جانبها وكادت تفقد توازنها، ثم عادت إلى الشرفة قفزاً على قدم واحدة.

«تعالي، أسرع».

«يجب أن أرتمي حذائي».

صاحت آيدا ريو من نافذة المطبخ: «ماذا هناك؟ لماذا تصرخان هناك؟»

صعدت هاربيت درجات السلم قفزاً، ثم عادت بعد أن انتعلت صندلها. قبل أن تستطيع السؤال عمّ حدث، اندفعت إليها أليسون باكية وأمسكت بذراعها وجرتّها صوب الشارع: «هيا أسرعي، أسرعي».

جرت هاربيت خلف أليسون بخطوات متعثرة (لأنه كان من الصعب أن تركض وهي ترتدي صندلها)، بذلت قصارى جهدها للحاق بأليسون، ثم توقفت أليسون وهي لا تزال تبكي، وأشارت بذراعها إلى شيء يرفرف ويصدر أصواتاً في وسط الشارع.

استغرقت هاربيت بضع لحظات لتدرك ما كانت تنظر إليه: كان شحروراً التصق أحد جناحيه ببقعة من القطران، كان الجناح الحر يرفرف بجنون، أبصرت هاربيت مرعوبة حلق الطائر حتى جذور لسانه الأزرق المدبب وهو يصرخ.

صاحت أليسون: «افعلي شيئاً».

لم تدرِ هاربيت ما ينبغي فعله، تقدمت نحو الطائر، ثم تراجعت حذرة عندما زعق بصوت ثاقب، وراح يضرب بجناحه الوحيد لحظة اقترابها.

خرجت السيدة فاونتين بخطواتها الثقيلة إلى شرفة بيتها الجانبية، وصاحت بصوت حاد: «اتركا هذا الطائر وشأنه، إنه مُؤذ».

خفق قلب هاربيت سريعاً بين أضلاعها، مدت يدها لتمسك بالطائر وهي ترتعش كأنها تقترب من قطعة فحم ساخنة؛ كانت

تخشى لمسه، وعندما لامست حافة جناحه معصمها، سحبت يدها لا إرادياً.

صاحت أليسون: «هل يمكنك تحريره؟»

قالت هاربيت محاولة أن تبدو هادئة: «لا أدري».

دارت حول الطائر معتقدة أنه قد يهدأ إذا كان عاجزاً عن رؤيتها، ولكنه واصل صراخه وكفاحه بشراسة. كانت الريشات التي تساقطت منه منغرزة في تلك البقعة، ورأت هاربيت خطوطاً حمراء لامعة بدت أشبه بمعجون أسنان أحمر، فانتابها شعور بالغثيان.

ركعت على الإسفلت الحار مرتعشة لشدة اضطرابها، همست له وهي تمد صوبه يديها الاثنتين: «توقف لا تخف».

ولكنه كان في خوف شديد، كان يتخبط ويرفرف بجناحيه والذعر يلمع في عينه السوداء الحادة، دسّت يدها تحته داعمة بأفضل ما استطاعت جناحه الملتصق بالإسفلت، ثم رفعته وقد أغمضت عينيها بسبب ضرب جناحه الآخر العنيف على وجهها. سمعت صرخة جهنمية ففتحت عينيها ورأت أنها قد اقتلعت جناح الطائر الملتصق بالأرض من عند الكتف، كان الجناح ملقى هناك في القطران ممدداً بشكل بشع، وعظم لامع أزرق يظهر من طرفه الممزق.

سمعت صوت السيدة فاونتين يناديها: «من الأفضل لك أن تضعيه، سوف يعضك ذلك الشيء».

أدركت هاربيت مصعوقة أن الطائر الذي لا يزال يتخبط بين يديها قد فقد جناحه تماماً، لم يبق سوى بقعة حمراء نازفة حيث كان الجناح.

صاحت السيدة فاونتين: «ضعي ذلك الشيء من يدك، سوف يصيبك داء الكلب، عليك الآن أخذ حقنات في بطنك».

صاحت أليسون وهي تجذبها من كمها: «أسرعي يا هارييت، هيا أسرعي، فلنأخذه إلى أيدي»، لكن الطائر ارتعش ارتعاشاً أخيرة ثم همد بين يديها المخضبتيين بدمه، وتدلّى رأسه اللامع. لا يزال لمعان ريشه (لونه أخضر مع مسحة من السواد) متألقاً مثلما كان، لكن لمعة الألم السوداء في عينيه المذعورتين خبت وصارت حالة من الجمود الغبي.. رعب الموت دون فهم.

وكانت أليسون تصيح: «أسرعي، يا هارييت، إنه يموت، إنه يموت».

سمعت هارييت نفسها تقول: «لقد مات».

صاحت آيدا ريو عندما دخل هيلي من الباب الخلفي مسرعاً عبر المطبخ: «ما مشكلتك أنت؟»

كانت آيدا واقفة في المطبخ تتعرق وهي تحرك الكاسترد لتحضير بودينغ الموز، اجتاز المطبخ وصعد درجات السلم قفزاً إلى غرفة هارييت تاركاً الباب لينغلق خلفه من تلقاء نفسه.

اقتحم غرفة هارييت دون أن يطرق الباب، كانت مستلقية على سريرها، تسارعت نبضات قلبه (السريعة أصلاً) لرؤية ذراعها المرفوعة فوق رأسها ورؤية بياض إبطها وعقبى قدميها المتسخين، كانت مرتدية بيجامتها مع أن الساعة لم تتجاوز الثالثة ونصف دقيقة بعد الظهر، وكان شورتها وقميصها ملقيان على البساط على جانب السرير، وعليهما بقع سوداء لزجة.

ركل هيلي ملابسها بعيداً وجلس عند قدميها لاهثاً: «هاريت..
كان مستثاراً لدرجة أنه بالكاد يستطيع التحدث..» أطلقوا النار
علي، أحدهم أطلق النار عليّ..
«أطلقوا النار عليك!»

صرّت نوابض السرير صريراً ناعساً عندما انقلبت هاريت
على جانبها فصارت في مواجهته، قالت: «بماذا؟»
«بندقية. نعم، كادوا يصيبونني. كنت عند الضفة وفجأة..
بووووم.. تطاير رذاذ الماء، رشاش كبير..
لوح في الهواء بذراعه تلويحاً مجنوناً.
«أيعقل أن أحدهم أطلق النار عليك؟»

«أنا لا أمزح، يا هاريت. مرّت رصاصة بجانب رأسي مباشرة،
فقفزت هارباً ودخلت بين الشجيرات المليئة بالأشواك، انظري
إلى ساقِي!»

صمت فجأة مذعوراً، كانت مستتدة إلى مرفقيها تنظر إليه.
صحيح أنها كانت مهتمة بحديثه، ولكنها لا تبدو متعاطفة معه،
ولا حتى مستثارة أو خائفة، أدرك غلطته متأخراً: قد يكون فوزه
بإعجابها صعباً، ولكن محاولته كسب تعاطفها لن يفيد به شيء.
نهض من مقعده عند طرف السرير، وسار صوب الباب، وقال
متظاهراً بالشجاعة: «قد رميت عليهم حجارة، وصرخت عليهم
أيضاً، وعندئذ هربوا».

قالت هارييت: «بماذا كانوا يطلقون النار؟ ببندقية هوائية⁽¹⁾ أم بشيء آخر؟»

قال هيلي بعد لحظة صمت قصيرة مصدومة: «لا، كانت ببندقية حقيقية، يا هارييت.. رصاصات حقيقية.. كان هناك زنوج يركضون في كل اتجاه..» كيف السبيل إلى جعلها تدرك خطورة ما حدث؟ لوح بذراعه وقد طفت على مشاعره صعوبة نقل المشهد إليها: الشمس الحارة، وصدى الأصوات المرتدة عن ضفة الجدول، والضحك، والذعر..

قال بيأس: «لماذا لم تأتِ معي؟ لقد رجوتكِ أن تأتي..»
«إن كان ما يطلقونه رصاصًا حقيقيًا، فأظن أنه من حماقة أن تظل واقفًا هناك وترميهم بالحجارة..»
«لا! ليس هذا ما...»

«هذا بالضبط ما قلته.»

استنشق هيلي نفسًا عميقًا، ثم فجأة شعر بالعجز والإرهاق واليأس، أصدرت نوابض السرير صوتًا خافتًا وهو يجلس مرة أخرى. قال لها: «ألا تريدين حتى معرفة من كانوا؟ كان ذلك أمرًا غريبًا جدًا يا هارييت. أقول لك إنه كان.. غريبًا.»

قالت هارييت: «بالتأكيد أريد أن أعرف» لكنها لم تبد قلقًا، أكملت: «من كانوا؟ بضعة أولاد؟»

قال هيلي غاضبًا: «لا، كانوا كبارًا، كانا رجلين ضخمين، كانا يحاولان إصابة طوافات قصبات الصيد.»

(1) تُستخدم هذه البنادق عادةً لأغراض الترفيه مثل الرماية أو التدريب على التصويب، ولكنها قد تُستخدم أيضًا في بعض الحالات في المسابقات الرياضية أو كجزء من أنشطة الصيد الصغيرة.

«لماذا كانوا يطلقون النار عليك؟»

«كانوا يطلقون النار على الجميع، لم أكن وحدي هناك، وقد كانوا...».

سكت عندما نهضت هاربيت واقفة، ولأول مرة لاحظ هيلي بيجامتها ويديها الملطختين بالسواد، وملابسها المتسخة على السجادة الفارقة في ضياء الشمس.

سألها بتعاطف واضح: «ماذا؟ ما هذه البقع السوداء كلها؟ هل أنت واقعة في مشكلة؟»

«انتزعتُ جناح طائر دون أن أقصد ذلك».

قال هيلي وقد نسي في تلك اللحظة مشكلاته كلها: «يا للعجب، كيف حدث هذا؟»

«كان ملتصقًا بإسفلت الشارع، كان سيموت على أي حال... أو تأكله قطة».

«هل كان طائرًا حيًّا؟»

«كنت أحاول إنقاذه».

«وماذا أصاب ملابسك؟»

رمته بنظرة غامضة حائرة.

«هذا لن يزول عنها، القطران لا يزول. سوف توسعك آيذا ضربًا».

«لا يهمني».

«انظري هنا وهنا! اتسخ البساط أيضًا».

انقضت بضع لحظات لم يُسمع خلالها في الغرفة أي صوت سوى طنين مروحة النافذة.

قال هيلي بصوت أخفض: «أمي لديها كتاب في المنزل يشرح كيفية إزالة البقع المختلفة، بحثت فيه مرة عن بقع الشوكولاتة لأنني تركت قطعة شوكولاتة على الكرسي فذابت».

«هل نجحت في إزالتها؟»

«لم أستطع إزالتها تمامًا، ولكن أمي كانت ستقتلني لو رأت كيف كانت في الأصل، أعطني هذه الملابس، سأخذها إلى منزلي».

«لا أظن أن بقع القطران واردة في الكتاب».

قال هيلي: «إذن سأرميها» كان مسرورًا لأنه أفلح أخيرًا في اجتذاب انتباهها، أضاف: «تكونين مجنونة إذا وضعت هذه الملابس في سلة قمامتك هنا». توجه إلى الناحية الأخرى من السرير، وتابع: «هيا، ساعديني في تحريكه حتى لا ترى أيدا البقعة على السجادة».

تركت خادمة ليبي أودين المطبخ فجأة في منتصف تحضيرها لعجينة فطيرة، كانت مزاجية في مواعيد قدومها وذهابها، دخلت هاربيت إلى المطبخ لتجد الطاولة مغطاة بالدقيق وعليها قشور التفاح وقطع من العجين.

في الطرف البعيد من الطاولة، كانت ليبي تجلس تحتسي كوبًا من الشاي الخفيف، بدت صغيرة وضعيفة، وبدا الكوب كبيرًا بين يديها الصغيرتين المبقعتين، كانت تحل كلمات متقاطعة مأخوذة من الصحيفة.

لم تُعلق على دخول هاربيت من غير استئذان ولم توبخها -كما كانت إيدي ستفعل فورًا- لأنها خرجت أمام الناس مرتدية

قميص النوم فوق سروالها الجينز الأزرق ويدها مغطاة بالسواد.

قالت لها: «أوه، كم يسرني قدومك، يا عزيزتي!»

ثم ربتت على مقعد الكرسي إلى جانبها بذهن شارد، وقالت: «عينت صحيفة كומרشال أتبيل موظفًا جديدًا لإعداد الكلمات المتقاطعة، وهو يجعلها صعبة جدًا؛ كلمات فرنسية قديمة، وكلمات علمية، وكلمات أخرى صعبة». أشارت بقلم الرصاص غير المبري جيدًا إلى بضعة مربعات عليها آثار الممحاة: عنصر معدني. أعلم أنه يبدأ بحرف T لأنني واثقة بأن التوراة Torah أول خمسة أسفار الأولى من الكتاب المقدس العبري، ولكن لا يوجد معدن يبدأ بحرف T، فما قولك؟»

نظرت هاربيت لحظة، ثم قالت: «أنت في حاجة إلى حرف آخر، كلمة تيتانيوم Titanium فيها ثمانية أحرف، وكذلك كلمة تنغستين Tungsten.»

«ما أذكاك، يا عزيزتي! لم أسمع قط بأيّ منهما».

قالت هاربيت: «ها هي ذي، ستة أحرف عمودية بمعنى حكم أو قاضٍ، إنها كلمة Umpire، إذن المعدن يجب أن يكون التنغستين Tungsten.»

«يا إلهي! كم يعلمونكم في المدرسة هذه الأيام! عندما كنا صغيرات، لم نتعلم كثيرًا عن هذه المعادن العجيبة، كان الحساب والتاريخ الأوروبي كل ما نتعلمه».

جلستا معًا تعملان على الكلمات المتقاطعة، توقفتا عند كلمة من خمسة أحرف تعني «امرأة مستفزة» تبدأ بحرف S إلى أن عادت أودين أخيرًا إلى المطبخ، فتصاعد ضجيج القدور والأواني لدرجة أنهما اضطرتا إلى الانسحاب إلى غرفة نوم ليبي.

كانت ليبي أكبر أخواتها، وهي الوحيدة التي لم تتزوج قط، مع أنهم جميعاً -باستثناء أديليد التي تزوجت ثلاث مرات- عوانس في أعماق قلوبهن، كانت إيدي مطلقة، وعلى الرغم من إلحاح هاريت لمعرفة قصة زواج جدتها الفاشل، لم يكن أحد يحب أن يتحدث في هذا الموضوع، شاهدت بضع صور قديمة لجدها (بذقن مدور وشعر أشقر وابتسامة صغيرة)، وسمعت بضع عبارات أثارت اهتمامها: («كان يحب الكلام والشرب»، «عدوه الأول نفسه»)، لم تكن هاريت تعرف عن جدها لأنها سوى أنه قضى بعض الوقت في مستشفى بالاباما حيث توفي منذ سنوات قليلة.

عندما كانت في سن أصغر، استلهمت هاريت (من قصة هايدي) فكرة أنها يمكن أن تكون قوة تلمّ شمل العائلة، إن أخذوها إلى ذلك المستشفى لترى جدها. ألم تسحر هايدي جدها السويسري صاحب الطبع الصعب الذي كان يعيش في جبال الألب، وأعادته إلى الحياة؟

قالت إيدي: «هاه! لا تعتمدى على ذلك»، وهي تشد بقوة خيطاً أسود تشكلت فيه عقدة في أثناء الخياطة.

أما تات فقد كانت أفضل حظاً، فقد عاشت زواجا مرضياً (وإن لم تكن فيه حوادث مهمة) استمر تسعة عشر عاماً. كان زوجها مالك شركة للأخشاب اسمه بنكرتون لامب (يدعونه في المنطقة «السيد بنك»)، ولكنه توفي فجأة نتيجة انسداد وعاء دموي أمام آلة تسوية الأخشاب قبل ولادة أليسون وهاريت. كان السيد بنك رجلاً بديناً شديد التهذيب (أكبر كثيراً من تات ولكنه

حسن المظهر)، وكان عقيماً لا يستطيع إنجاب الأطفال. طُرح عليه موضوع تبني طفل، ولكن هذا لم يسفر عن شيء، ولكن تات لم تكن منزعجة من البقاء دون الأطفال أو من الترمل، بل إنها بالكاد تتذكر أنها كانت متزوجة أصلاً، وتبدي دهشة خفيفة عندما يُذكرها أحدهم بذلك.

كانت ليبي (العانس) تكبر إيدي بتسع سنوات، وتكبر تات بإحدى عشرة سنة، وأديلايد بسبع عشرة سنة كاملة، كانت امرأة شاحبة مسطحة الصدر قصيرة النظر منذ شبابها، لم تكن يوماً بجمال شقيقاتها الأصغر، لكن السبب الحقيقي وراء عدم زواجها كان والدها الأناني القاضي كليف الذي توفيت زوجته المُضطهدة في أثناء ولادتها أديلايد، فقد ضغط عليها للبقاء في المنزل والاعتناء به وبشقيقاتها الثلاثة، استغل طيبة قلب ليبي المسكينة وأفلح في إبعاد بضعة خاطبين تقدموا لها، أبقاها في بيت «تريببوليشن» لتعمل دون أجر ممرضة وطاهية وشريكة له في لعبة «كريبيج» حتى وفاته عندما كانت ليبي في أواخر الستينيات من عمرها، مات تاركاً خلفه ديوناً كثيرة فصارت ليبي مفلسة.

وهذا ما خلق لدى شقيقاتها إحساساً بالذنب ظل يعذبهن دائماً، كأن تلك العبودية التي عاشتها ليبي كانت ذنبهن لا ذنب والدهن. قالت إيدي: «إنه لأمر مُخزٍ، كان عمرها سبع عشرة سنة، ولكن بابا أرغمها على رعاية طفلتين ورضيعة»، لكن ليبي قبلت هذا التضحية بسعادة دون ندم، لقد أحبت والدها النكد الجاحد لفضلها، بل عدت أن بقاءها في البيت واهتمامها برعاية شقيقاتها اليتيمات كان امتيازاً لها، لقد أحبتهم حباً وافراً دون

أي تفكير بنفسها، وبسبب كرمها وصبرها وروحها المرححة التي لا تتذمر، كانت شقيقاتها (اللواتي لا يُقاسمنها ذلك الطبع اللطيف) ينظرن إليها على أنها أشبه بقديسة.

كانت في شبابها عادية الجمال وغير لافتة للنظر (مع أنها تبدو جميلة جدًا عندما تبتسم)، والآن في الثانية والثمانين بشبشبها المصنوع من الساتان، وستراتها البيتية الوردية، وأثوابها الصوفية المزينة بشرائط وردية، فقد اكتسبت مظهرًا طفوليًا جذابًا جدًا مع هاتين العينين الزرقاوين العملاقتين والشعر الحريري الأبيض. كان دخول غرفة نوم ليبي المظلمة ذات الجدران الزرقاء الفاتحة والنوافذ الخشبية أشبه بالدخول إلى مملكة لطيفة تحت الماء، أما في الخارج تحت الشمس الحارقة فكانت المروج والبيوت والأشجار تبدو مبيضة كلها وعدائية المظهر. تذكرها الأرصفة المتوهجة تحت أشعة الشمس بذلك الشحور وبالدعر الذي كان يلمع في عينيه. ولكن غرفة ليبي كانت ملاذًا من كل هذا: من الحرارة والغبار والقسوة، لم تتغير ألوان الغرفة وأقمشتها منذ طفولة هاربيت: ألواح الأرضية الداكنة الكامدة، وغطاء السرير المخملي الناعم، وستائر الأوركانزا المغبرة، وصحن الحلوى البلوري حيث تحتفظ ليبي بدبايس شعرها، على رف الموقد تستقر ثقالة ورق ضخمة على هيئة بيضة مصنوعة من زجاج زبرجدي، وفي قلب الزجاج فقاعات يتخللها ضياء الشمس مثلما يتخلل ماء البحر فتتغير خلال النهار كأنها مخلوق حي، في الصباح تضيء بشدة، وتصل إلى بريقها الأقصى نحو الساعة العاشرة، ثم تخبو عند الظهر إلى لون الحجر الأزرق البارد. في طفولتها

كانت هاربيت تمضي ساعات طويلة سعيدة مستلقية على الأرض، وهي تراقب الضوء الذي يتمايل ويتأرجح عبر ثقالة الورق، ضوء مخطط كجلد النمر يشع هنا وهناك على الجدران ذات اللون الأزرق المائل إلى الأخضر، كانت السجادة المزينة برسوم من عروق الكرمة لعبتها وميدان معركتها، أمضت أوقاتاً لا تحصى جاثية على ركبتيهما ويديها تحرك جيوش دُماها عبر تلك الدروب الخضراء المتعرجة. وفوق رف الموقد كانت صورة قديمة ضبابية ومخيفة مهيمنة على كامل مساحته تصور بيت تريبيوليشن، حيث ترتفع الأعمدة البيضاء كالأشباح من بين الأشجار السوداء دائمة الخضرة.

تعاونتا على حل الكلمات المتقاطعة، كانت هاربيت جاثمة على ذراع أريكة ليبي المنجدة بقماش مزين برسوم نباتية، كانت تكتكات الساعة الخزفية فوق رف الموقد رتيبة.. تلك التكتكات الهادئة المريحة التي سمعتها هاربيت طيلة حياتها، كانت غرفة النوم الزرقاء كأنها جنة مليئة بروائح لطيفة، روائح القطط وخشب الأرز والأقمشة المغبرة وروائح جذور النجيل الهندي ومسحوق الليمون الأخضر وأملاح الاستحمام القرمزية التي اعتادت ليبي استخدامها طيلة ما تستطيع هاربيت تذكره. كانت السيدات العجائز يحتفظن بجذور النجيل الهندي في محافظ صغيرة لطرد العث من ملابسهن، مع أن هاربيت ألقت رائحته الثقيلة الغريبة منذ طفولتها، فإنها لا تزال تشعر فيها بشيء من الغموض والحزن مثل عفن الغابات أو دخان الحطب في الربيع، كانت رائحة عتيقة داكنة مثل رائحة مستودعات المزارع، مستودعات «تريبوليشن».

رائحة الماضي نفسه .

قالت ليبي: «الكلمة الأخيرة!» «فن صنع السلام» الحرف الثالث C، وتنتهي بـ ion. «نقرت بممحاة قلمها على المربعات وهي تعد الحروف .

» «تصالح؟ Conciliation» .

«نعم، أوه عزيزتي.. انتظري.. الحرف C في المكان الخطأ» .
ظللتا تفكران بصمت .

صاحت ليبي: «آها! تسكين Pacification!»

كتبت ليبي الحروف بقلمها الرصاص غير المبري جيداً، وقالت مسرورة وهي تنزع نظارتها عن وجهها: «حُلَّت الكلمات المتقاطعة كلها، شكرًا يا هاربيت» .

كانت إجابة هاربيت مقتضبة: «على الرحب والسعة»، لم تستطع منع نفسها من الإحساس بالغيبظ لأن ليبي حلت الكلمة الأخيرة .

«لا أعرف لماذا أشغل نفسي بهذه الألفاظ السخيفة، لكنني أعتقد أنها تساعدني في الحفاظ على يقظتي الذهنية، في معظم الأيام لا أتمكن من إنجاز إلا ثلاثة أرباعها» .
«ليبي...»

«دعيني أضمن ما تفكرين فيه يا عزيزتي، ما رأيك أن نرى إذا كانت فطيرة أوديان قد خرجت من الفرن؟»

«ليبي، لماذا لا يرضى أحد أن يخبرني أي شيء عن وفاة روبين؟»

وضعت ليبي الصحيفة من يدها .

«هل حدث قبل ذلك أي أمر غريب؟»

«غريب! يا عزيزتي، ماذا تعنين بهذا؟»

«أي شيء...» كانت هاربيت تبحث عن كلمات مناسبة.. «أي دليل».

بعد لحظة صمت هادئة بشكل غريب، قالت ليبي: «لا أعرف أي دليل، ولكن إن أحببت أن تسمعي بأمر غريب، أحد أغرب الأشياء التي حدثت لي في حياتي وقعت قبل وفاة روبين بثلاثة أيام، هل سمعت قصة قبعة الرجل التي وجدتها في غرفتي؟»
قالت هاربيت بخيبة أمل: «أوه!»، كانت تسمع طيلة حياتها قصة تلك القبعة التي كانت على سرير ليبي.

«ظن الجميع أنني مجنونة، قبعة رجالية سوداء رسمية مقاسها كبير من ماركة ستيتسون، كانت قبعة نظيفة ولا أثر للعرق على إطارها الداخلي، ظهرت بشكل مفاجئ على سرير في وضع النهار».
قالت هاربيت ضجرة: «تعنين أنك لا تعرفين كيف حدث ذلك!»
سمعت هاربيت قصة القبعة مئات المرات، ولم يكن أحد غير ليبي يراها قصة غامضة.

«عزيزتي، كانت الساعة الثانية بعد الظهر من يوم الأربعاء...».

«ربما دخل أحدهم إلى المنزل وتركها».

«لا، لم يدخل أحد، لو دخل أحدهم لكنا رأيناه أو سمعناه، فأنا وأودين كنا في البيت طيلة الوقت.. كنت قد انتقلت للتو إلى هنا من تريبوليشن بعد وفاة أبي، وكانت أوديان في الغرفة تضع بعض الملاءات النظيفة قبل ذلك بدقيقتين فقط، لم تكن هناك أي قبعة حينها».

«لعل أودين هي من وضعتها على السرير!»

«أودين لم تضع القبعة على السرير، اذهبي واسألها».

نفذ صبر هاريت فقالت: «لا بأس، تسلل أحد إلى البيت. كل ما في الأمر أنكما لم تنتبها إليه، أنت وأودين». كانت أودين -التي هي امرأة قليلة الكلام- تستمتع بإعادة رواية قصة القبعة الغامضة تمامًا مثل ليبي، وكانت قصتهما متماثلتين (مع اختلاف صغير في الأسلوب، فقد كانت رواية أوديان أكثر غموضًا ومصحوبة بكثير من هز الرأس والصمت الطويل).

قالت ليبي، وهي تنتصب في جلستها على الكنب: «سأقول لك، يا حبيبتي! كانت أودين تتجول في البيت كله، تضع الغسيل النظيف في مكانه، وكنت في الصلاة أتكلم بالهاتف مع جدتك، كان باب غرفة نومي مفتوحًا، وفي مجال رؤيتي.. لا، ليست النافذة..» قالت هذا مستبقة تدخل هاريت، «النوافذ كانت مغلقة، والمصاريع الحامية من العواصف مثبتة بإحكام، لم يكن بإمكان أحد أن يدخل إلى تلك الغرفة دون أن نراه، أنا وأودين». قالت هاريت: «ربما كان أحدهم يمازحك». كانت هذه الفكرة موضع إجماع بين إيدي والخالات، وكثيرًا ما كانت إيدي تستفز ليبي فتجعلها تبكي (وتستفز أودين إلى أن تتجهم غاضبة)؛ بأن تُلَمِّح تلميحات مأكرة بأن ليبي وأودين كانتا تشربان نبيذ الشيري الخاص بالطهي.

بدأ الانزعاج يظهر على ليبي: «أي مزحة هذه؟ وضع قبعة رجالية سوداء على سريري، كانت قبعة باهظة الثمن. أخذتها إلى المتجر فقالوا إنه ما من أحد في ألكساندريا كلها أو في أي

مكان أقرب من ممفيس يبيع قبعات من هذا النوع، وبعد ذلك..
بعد ثلاثة أيام من عشوري على تلك القبعة في بيتي مات روبين». صمتت هاربيت وهي تفكر ملياً في الأمر: «ولكن، ما علاقة القبعة بروبين؟»

«يا عزيزتي، العالم مليء بأشياء لا نفهمها».

قالت هاربيت بعد لحظة صمت حائرة: «لكن لماذا قبعة؟ ولماذا يتركونها في منزلك؟ لا أرى رابطاً بين الأمرين».

قالت ليبي وهي تضم يديها معاً: «إليك قصة أخرى، عندما كنت أعيش في بيت تريبوليشن، كانت في البلدة سيدة لطيفة جداً تدعى فيولا جيبس تعمل معلمة في حضانة الأطفال، أظنها كانت في أواخر العشرينيات. في أحد الأيام، كانت السيدة جيبس تدخل من الباب الخلفي لمنزلها، قال زوجها وأطفالها إنها قفزت إلى الخلف وراحت تضرب الهواء بيديها كأن شيئاً يهاجمها، وفي اللحظة التالية سقطت على أرضية المطبخ.. ميتة».

«ربما لدغتها عنكبوت».

«لا يموت الناس هكذا بسبب لدغة عنكبوت».

«أو ربما أصيبت بنوبة قلبية».

«لا، لا، كانت صغيرة جداً على ذلك، في حياتها كلها لم تمرض يوماً. لم تكن لديها حساسية من لسعات النحل، ولم تصبها مشكلة في الأوعية الدموية.. لا شيء من هذه الأمراض. سقطت ميتة أمام زوجها وأطفالها دون أي سبب واضح».

«يبدو أنها ماتت مسمومة، أراهن أن زوجها هو من فعل ذلك».

«زوجها لم يفعل شيئاً، لكن هذا ليس الجزء الغريب من القصة يا عزيزتي...».

رمشت ليبي بعينها بلطف وانتظرت لتتأكد من أن هاربيت تتابعها باهتمام، ثم أكملت:

«كانت لفيولا جيبس شقيقة توأم، الأمر الغريب في القصة أنه قبل سنة بالضبط في نفس اليوم..» نقرت ليبي بسبابتها على الطاولة، وتابعت: «كانت شقيقتها التوأم تخرج من حوض سباحة في ميامي بولاية فلوريدا عندما ارتسمت على وجهها نظرة مرعبة، هذا ما قاله الناس: نظرة مرعبة. عشرات الناس شاهدوا ذلك، ثم راحت تصرخ وتضرب الهواء بيديها، وفي اللحظة التالية سقطت على الأسمنت ميتة».

سألته هاربيت بعد لحظة صمت حائرة: «لماذا؟»

«لا أحد يعرف».

«ولكني لا أفهم».

«ولم يفهم الأمر أحد».

«لا يموت الناس نتيجة هجوم شيء غير مرئي هكذا».

«هذا ما حدث للشقيقتين التوأمين بفارق سنة واحدة بالضبط».

«هناك قضية تشبه ذلك كثيراً في قصص شيرلوك هولمز: مغامرة العصاة المرقطة».

«نعم، أعرف تلك القصة يا هاربيت، لكن هذا مختلف».

«لماذا؟ هل تظنين أن الشيطان كان يلاحقهما؟»

«لا أقول شيئاً غير أن في العالم أموراً كثيرة جداً لا نفهمها يا حبيبتي. روابط خفية بين أشياء لا تبدو مترابطة أبداً».

«هل تظنين أن الشيطان هو الذي قتل روبين؟ أم شبّحاً؟»

قالت ليبي مضطربة وهي تتناول نظارتها كي تضعها على وجهها: «يا لطيف! ماذا يحدث في الخلف؟»

كان هناك اضطراب بالفعل: أصوات مضطربة وصيحة استياء من أودين، تبعت هاريت ليبي إلى المطبخ لتجد امرأة سوداء كبيرة في السن ممتلئة الجسم ذات خدود مرقطة وضمائر رمادية، تجلس عند الطاولة وتبكي دافئة وجهها بين يديها، خلفها كانت أودين في حالة من الاضطراب تصب اللبن الرائب في كوب مملوء بمكعبات الثلج.

قالت دون أن تنظر إلى عيني ليبي: «هذه عمتي، هي منزعة الآن، ستهدأ بعد دقيقة».

«لماذا؟ ما الأمر؟ هل نطلب لها طبيباً؟»

«لا يا سيدتي، ليست مصابة. إنها مصدومة فحسب؛ بعض الرجال البيض كانوا يطلقون النار عليها عند الجدول».

«يطلقون النار، كيف، بحق الله..؟»

قالت أودين لعمتها التي كان صدرها يخفق بشدة: «اشربي بعض اللبن الرائب».

قالت ليبي: «قد يكون من الأنفع لها أن تشرب كأس مديرا، ليس لدي مديرا في البيت، سأذهب سريعاً إلى بيت أديليد».

اتجهت صوب الباب.

صاحت المرأة: «لا، يا سيدتي... أنا لا أشرب الخمر».
«ولكن...».

«من فضلك، يا سيدتي. لا، لا أريد ويسكي».

«ولكن الماديرا ليست ويسكي، إنها فقط.. أوه، يا إلهي!».
التفتت إلى أودين عاجزة.

«ستكون بخير بعد قليل».

قالت ليبي: «ماذا حدث؟»

رفعت يدها إلى رقبتها وراحت تنظر بقلق إلى المرأتين.
«لم أكن أزعج أحداً».

«ولكن، لماذا؟»

قالت أودين لليبي: «تقول إن رجلين أبيضين وقفا فوق الجسر
وراحا يطلقان النار على كل من كان هناك».

قالت ليبي مبهورة الأنفاس: «هل أصيب أحد؟ هل أطلب
الشرطة؟»

قوبل هذا السؤال بصرخة فزع شديدة من عمة أودين،
واضطربت هاربيت لسماع تلك الصرخة.

صاحت ليبي بهستيرية: «بحق السماء، ما الأمر؟»، وأصبح
وجهها متورداً.

«أوه! من فضلك يا سيدتي، من فضلك لا تطلبي الشرطة!»

«ولكن، لماذا لا أطلب الشرطة؟»

«أوه، يا ربي، أنا خائفة من الشرطة».

قالت أودين: «تقول إنهما كانا من أبناء راتليف، خرجا من
السجن منذ مدة قليلة».

قالت هاربيت: «راتليف!» على الرغم مما كان في المطبخ من اضطراب كبير، نظرت النساء الثلاث إليها لأن صوتها كان مرتفعاً وغريباً جداً.

سألت هاربيت في اليوم التالي: «آيدا، ماذا تعرفين عن عائلة راتليف؟»

قالت آيدا متجهمة وهي تعصر منشفة الأطباق: «أعرف أنهم سيئون».

وضعت المنشفة التي بهتت ألوانها على سطح الموقد، جلست هاربيت على عتبة النافذة المفتوحة، تراقبها وهي تزيل بقايا الدهون عن مقلاة الفطور أعدت فيها اللحم المقدد مع البيض، وتدندن بنغمات خافتة، وتحرك رأسها بهدوء يشبه التتويم المغناطيسي، كانت هذه الحالة التي تستولي على آيدا عندما تؤدي أعمالاً روتينية مثل تقشير البازلاء أو تنظيف السجاد أو خفق الكريمة للكيك مألوفة لدى هاربيت منذ الطفولة، وتُشعرها بالراحة كأنها تراقب شجرة تتمايل في النسيم، لكنها أيضاً كانت إشارة واضحة أن آيدا ترغب في أن تكون وحدها وأن تُترك وشأنها.

يمكن أن تصبح آيدا شرسة إذا قُطع تفكيرها في مثل هذه اللحظات، رأت هاربيت ذلك يحدث مع تشارلوت وحتى مع إيدي، إذا اختارت أي منهما اللحظة الخطأ للاستفسار عن أمر تافه، لكن في أوقات أخرى خصوصاً إذا أرادت هاربيت أن تسأل شيئاً حساساً أو عميقاً، كانت آيدا تجيب بصراحة وصدق كأنها منومة مغناطيسياً.

غيّرت هارييت جلستها ورفعت ركبتهما فأسندت إليها ذقنها، سألت وهي تعبت بحزام صندلها: «ماذا تعرفين غير هذا عن عائلة راتليف؟»

«لا شيء يُذكر، لقد رأيتهم بنفسك، لقد جاءت تلك العصابة إلى هذا الفناء منذ أيام».

قالت هارييت بعد لحظة من صمت مضطرب: «هنا».

«نعم، هناك، هي الأسفل.. نعم، هذا مؤكد»، قالت آيدا هذه الكلمات بنبرة غنائية منخفضة كأنها تتحدث مع نفسها، أكملت: «إذا جاء قطيع من الماعز إلى هنا يلعب في فناء والدتك، فسوف تشعرين أنها لطيفة، ستقولين: (انظروا إليها، ما أظرفها!)، وبعد قليل سأراك تربتين عليها وتلعبين معها: (تعال، يا سيدة عنزة، تعالي وكلي السكر من يدي).. (وأنت، يا سيد تيس، أنت متسخ، تعال ودعني أحملك).. (مسكين السيد تيس!)، وعندما تدركين..» صار صوتها صارماً، فأجفلت هارييت ولم تستطع مقاطعتها، تابعت: «عندما تدركين مدى وضاعتهم وقذارتهم، تكتشفين أنك صرت غير قادرة على طردهم حتى بالعصا، سيفسدون الملابس على حبل الغسيل، ويدوسون أحواض الزهور، ويمضون الليل كله في الصياح والصراخ والضجيج.. وما لا يأكلونه يدوسونه ويحطمونه ويتركونه في الطين، هيا! أعطنا مزيداً من هذا. هل تعتقدين أنهم سيرضون أو يشبعون؟ لا، لن يشبعوا، ولكني أقول لك إنني أفضل قطعاً من الماعز على مجموعة من أطفال راتليف يركضون في كل مكان يعبثون ويطلبون طيلة الوقت».

أنهت آيدا كلامها ورمت هاربيت بنظرة حادة من عينيها
المحمرتين .

«ولكن يا آيدا...».

قالت آيدا مكشرة تكشيرة مضحكة وعادت إلى عصر منشفة
الأطباق: «إنهم قذرون! وبعد مدة قصيرة كل ما سستمعينه منهم
هو الطلبات: أعطني هذا، واشتر لي ذاك».

«أولئك الأطفال لم يكونوا من عائلة راتليف يا آيدا، أعني
الأطفال الذين كانوا هنا منذ أيام».

قالت آيدا ريو وهي تستأنف عملها دون اعتراض على هذا
التصحيح: «من الأفضل أن تنتهي، توزع أمك ملابسكم وألعابكم
القديمة على هذا وذاك، وعلى أي ولد يمر من هنا، بعد مدة لن
يزعجوا أنفسهم حتى بالسؤال. سيأخذون ما يريدون فقط».

«يا آيدا، أولئك الأطفال الذين كانوا في الفناء من عائلة
أودوم».

«وما الفرق؟ لا أحد منهم يعرف الصواب من الخطأ، تخيلي
أنك واحدة من أطفال عائلة أودوم...»، توقفت لحظة لتطوي
منشفة الأطباق، ثم تابعت: «وتخيلي أن أباك وأمك لا يعملان
أبدًا وأنهما يعلمانك أن السرقة والسلب والكره ليست خطيئة،
وأنه يحق لك أن تأخذي من الآخرين أي شيء يعجبك؟ هممم، لن
تتعلمي شيئاً سوى السرقة والسلب، لا يا عزيزتي إنهم لا يدركون
أبدًا أنهم يفعلون أي شيء خاطئ».

«ولكن...».

«لا أنكر وجود أناس سيئين بين ذوي البشرة الملونة أيضاً، هناك أناس سيئون بشرتهم ملونة، وهناك أناس سيئون بشرتهم بيضاء.. كل ما أعرفه هو أنني لا أملك وقتاً لأضيعه مع أي شخص من عائلة أودوم، وليس لدي وقت أضيعه في العبث مع أي شخص لا يفكر إلا في ما ينقصه وكيف يستطيع أن يأخذها من الآخرين. لا، يا عزيزتي...».

رفعت آيدا يدها المبللة بكل وقار وقالت: «إن كان ينقصني شيء ولم أستطع أن أكسبه بجهدِي، فأنا لا أريده. لا أريده يا عزيزتي، وسأواصل حياتي دونه».

«آيدا، أنا لست مهتمة بأمر عائلة أودوم».

«ينبغي ألا تهتمي بأي منهم».

«حسناً، أنا لا أهتم بهم مطلقاً».

«يسرني سماع هذا».

«لقد سألتك عن عائلة راتليف، ماذا تعرفين عنهم...».

«حسناً.. لقد رموا حجارة على حفيدة أختي التي في الصف الأول عندما كانت ذاهبة إلى مدرستها، فما رأيك في هذا؟ رجال كبار يرمون حجارة ويصيحون بكلمات مثل «زنجية» و«عودي إلى الغابة» في وجه تلك الطفلة المسكينة!»

هالها ما سمعته فلم تقل شيئاً. واصلت العبث بحزام صندلها دون أن ترفع رأسها، كانت كلمة «زنجية» خصوصاً عندما تصدر عن آيدا تجعل وجهها يحمر خجلاً.

هزت آيدا رأسها: «حجارة! حجارة من ذلك الجناح الذي كانوا يبنونه في المدرسة، أظنهم أنهم فخورون بما فعلوه، ولكن

ليس من الصواب أن يرمي أي شخص حجارة على طفلة صغيرة،
دعيني أرى في الإنجيل عبارة تقول: «ارم حجارة على جارك»،
هممم، لن تجديها في الإنجيل حتى إن بحثت عنها طيلة النهار
لأنها غير موجودة فيه».

تثابت هاريت لتخفي ارتباكها وضيقها الشديدين، هي وهيلي
يذهبان إلى «أكاديمية ألكساندريا» مثل كل طفل أبيض تقريباً
في المقاطعة، حتى عائلات أودوم وراتليف وسكورلي كانت تبذل
أقصى الجهد حتى لا ترسل أطفالها إلى المدارس العامة.

بالتأكيد فإن العائلات التي مثل عائلة هاريت (أو عائلة
هيلي) لن تتسامح أبداً مع إلقاء الطوب على الأطفال سواء كانوا
بيضاً أو سوداً («أو بنفسجين» كما كانت إيدي تقول دائماً في أي
نقاش عن لون البشرة)، ومع ذلك ها هي ذي هاريت في مدرسة
كل طلابها من البيض.

«الرجال الذين يدعون أنهم واعظون يقفون هناك يبصقون
ويصرخون على تلك الطفلة المسكينة، ويقولون لها أن تعود إلى
الغابة، ولكن الإنجيل يعلمنا أنه ليس هناك أي سبب يدعو إنساناً
كبيراً لإيذاء طفل صغير، فهو يقول: (ومن أعثرَ أحدَ هؤلاء
الصغار المؤمنين بي..⁽¹⁾)».

«هل قبضوا عليهم؟»

أطلقت آيدا ريو ضحكة ساخرة.

«هل قبضوا عليهم؟»

(1) إنجيل متى (18:6): "ومن أعثرَ أحدَ هؤلاء الصغار المؤمنين بي، فخير له أن يعلق في عنقه حجر رحى، ويفرق في لجج البحر".

«في بعض الأحيان، تحابي الشرطة المجرمين أكثر من الضحايا الذين ارتكبت الجرائم ضدهم».

فكرت هاربيت في ذلك، على حد علمها، لم يحدث شيء لأبناء عائلة راتليف بعد إطلاقهم النار عند الجدول... الظاهر أن أولئك الناس قادرون على فعل ما يريدون، والإفلات من العقاب. قالت بصوت مرتفع: «لا يسمح القانون لأي شخص بأن يرمي الناس بالحجارة».

«لا أهمية لهذا، لا أهمية له أبداً. لم تفعل الشرطة لعائلة راتليف شيئاً عندما أضرموا النار في الكنيسة المعمدانية الدعوية عندما كنت طفلة صغيرة جداً، كان ذلك بعد أن زار الدكتور كينغ البلدة؛ إذ أتوا بالسيارة، وألقوا بزجاجة ويسكي في فوهتها قطعة قماش مشتعلة عبر نافذة الكنيسة».

طيلة حياتها كانت هاربيت تسمع عن هذا الحريق في الكنيسة، سمعت أيضاً عن حرائق في بلدات أخرى في ولاية ميسيسيبي، ولكن تلك الحرائق اختلطت في ذهنها؛ فلم يخبرها أحد قط إن آل راتليف كانوا مسؤولين عنها. يظن المرء (هكذا تقول إيدي) أن الزوج والفقراء البيض لا يمكن أن يكون بينهم هذا القدر من الكراهية لأن لديهم أمورا كثيرة مشتركة بينهم، أهمها أنهم فقراء. ولكن البيض السيئين من أمثال أبناء راتليف يزدرون الزوج اذراء شديداً، ولا يطبقون احتمال فكرة أنهم صاروا مساوين لهم؛ بل إنهم في حالات كثيرة أكثر مالا ومكانة منهم.

تقول إيدي: «الزنجي الفقير لديه عذر على الأقل.. لأنه وُلد زنجياً، أما الأبيض الفقير فليس لديه من يلومه إلا نفسه، وهذا

لا يعجبه بالتأكيد، لأنه يعني أن المسؤولية واقعة على كسله وعلى سوء مسلكه. لا... يفضل أن يتجول هائماً هنا وهناك، فيحرق الصلبان ويلقي باللائمة في كل شيء على الزوج على أن يحاول أن يتلقى تعليمًا أو يحسن وضعه».

كانت آيدا ريو شاردة في أفكارها، واصلت مسح الموقد مع أنه لم يعد بحاجة إلى التنظيف، وقالت: «نعم.. هذه هي الحقيقة، أولئك القذرون قتلوا السيدة إيتا كوفي، بكل تأكيد، طعنوها في قلبها».

ضغطت شفيتها عدة لحظات وهي تمسح في دوائر صغيرة ومشدودة مقابض الموقد الكرومية، وتابعت: «كانت السيدة إيتا مؤمنة صالحة، في بعض الأحيان تصلي طوال الليل، كانت أمي ترى مصباحها مضيئاً حتى وقت متأخر من الليل، ذات مرة جعلت أبي ينهض من فراشه ويذهب إلى بيتها وينقر على النافذة كي يسألها عن حالها، خشية أن تكون قد تعثرت في مشيتها وتحتاج إلى مساعدة للنهوض عن الأرض، فنظرت إليه وقالت: (لا، أشكرك)، كانت لا تزال تصلي».

«أخبرتني إيدي ذات يوم...».

«نعم، يا عزيزتي! السيدة إيتا... إنها الآن جالسة إلى يمين الرب، وأمي أيضاً وأبي وأخي المسكين كافّ الذي مات بالسرطان، وروبين الصغير أيضاً جالس معهم، يحتفظ الرب بمكان لأطفاله جميعاً.. نعم، بكل تأكيد».

«ولكن إيدي أخبرتني أن تلك السيدة العجوز لم تمت في الحريق، قالت إن نوبة قلبية أصابتها».

قالت آيدا مستكرة: «إيدي قالت هذا؟»

لم تكن تريد تحدي آيدا عندما تتكلم بهذه النبرة، تشاغلته هاربيت بالنظر إلى أظافرها.

«لم تمت بالحريق.. هاه!»، جمعت آيدا المنشفة وألقتها بقوة على الطاولة، وتابعت: «ماتت بسبب الدخان، أليس كذلك؟ وأولئك الناس الذين كانوا يتدافعون ويصرخون ويكافحون من أجل الخروج؟ كانت السيدة كوفي كبيرة السن، وكان قلبها ضعيفًا. كانت غير قادرة على أكل لحم الوعل ولا على إنزال طبق عن الرف، ثم جاء هؤلاء القذرون الفظيعة بالسيارة وألقوا النار عبر النافذة...».

«هل احترقت الكنيسة كلها؟»

«احترق قسم كبير منها».

«لقد قالت إيدي...».

«هل كانت إيدي هناك؟»

كان صوتها مخيفًا؛ لم تجرؤ هاربيت على أن تتطرق بكلمة واحدة، حدقت إليها آيدا حانقة وظلت محدقة لحظات طويلة، ثم رفعت أطراف تنورتها وأنزلت جوربها الذي كان ثخينًا بلون اللحم أنزلته تحت ركبتها، كان لونه أفتح كثيرًا من جلدها الأسود الداكن، ظهرت فوق لفافة النايلون التي صار لونها معتمًا بقعة طولها ستة إنشات من اللحم المحروق: بقعة وردية كالتقانيق غير المطهية، لامعة وناعمة ومخيفة المظهر، ومجموعة في بعض الأماكن، مشهد صادم في لونه وشكله على ركبة آيدا ذات اللون البني الصافي.

«هل تعتقد إيدي أن هذا الحرق ليس كافياً؟»

كانت هاربيت عاجزة عن الكلام.

«كل ما أعرفه أنه حرق شديد جداً».

«هل يؤلمك؟»

«آلمني كثيراً».

«والآن؟»

«لا، ولكنه يحكني أحياناً. والآن، هيا!»، قالت هذا مخاطبة

جوربها الذي راحت ترفعه مثلما كان: «لا تضايقني، هذه الجوارب تكاد تقتلني أحياناً».

«هل هذا حرق من الدرجة الثالثة؟»

«الثالثة والرابعة والخامسة أيضاً».

ضحكت آيدا من جديد، لكن هذه المرة لم تكن ضحكتها مريحة، تابعت: «كل ما أعلمه أنه كان مؤلماً جداً، لدرجة أنني لم أستطع النوم ستة أسابيع متواصلة، لكن ربما تظن إيدي أن النار لا تكون حقيقية إلا إذا احترقت الساقان تماماً، وأعتقد أن القانون يفكر بهذه الطريقة أيضاً، لأنهم لم يعاقبوا من فعلوا ذلك، ولن يعاقبوهم أبداً».

«عليهم أن يعاقبوهم».

«من يقول هذا؟»

«القانون يقول هذا، هذا هو سبب وجوده».

«هناك قانون للضعفاء، وقانون آخر مختلف للأقوياء!»

قالت هاربيت بثقة أكبر مما تشعر بها: «لا، ليس هناك

قانونان، إنه قانون واحد للجميع».

«إذا.. لماذا لا يزال أولئك الرجال أحراراً؟»

ترددت هاريت قليلاً قبل أن تقول: «أعتقد أنه ينبغي أن تخبري إيدي بهذا، إن لم تخبرها فساخبرها أنا».

«إيدي؟» اعوجّ فم آيدا على نحو غريب، وبدا في اعوجاجه بعض الفكاهة. همّت بالكلام، ولكنها عدلت عن ذلك.

فكرت هاريت في نفسها وشعرت بقلبها يتجمد: ماذا؟ هل تعلم إيدي بالأمر؟

كانت صدمة هاريت وذهولها واضحين، وكذلك اشمئزازها.. كأن ستارة ارتفعت عن وجهها بعد أن كانت تحجبه. رقت تعابير وجه آيدا، الأمر صحيح إذاً فكرت هاريت غير مصدقة ما يحدث: هل يعقل أنها أخبرتها فعلاً؟ إيدي تعلم!

لكن آيدا عادت للانشغال بالموقد وبشكل مفاجئ، قالت وظهرها لهاريت وصوتها ينضح بسخرية لا تخلو من الحدة: «لماذا تعتقدين أنه عليّ إزعاج السيدة إيدي بهذه الأمور يا هاريت؟ إنها سيدة عجوز. ماذا تظنين أنها ستفعل؟ هل ستدوس على أقدامهم؟ ضحكت آيدا؛ وعلى الرغم من أن ضحكتها كانت دافئة ونابعة من القلب، لم تشعر هاريت بأي طمأنينة، ثم تابعت: «أظنن أنها ستضربهم بذلك الكتاب الأسود الصغير الذي تحمله في حقيبتها؟»

قالت هاريت: «عليها أن تستدعي الشرطة!»

ثم تساءلت في نفسها: هل يمكن أن تكون قد أخبرتها ولم تستدع الشرطة؟، تابعت: «من فعل هذا بك يجب أن يكون في السجن».

فوجئت هارييت عندما انفجرت آيدا ضاحكة: «في السجن! فليبارك الرب قلبك! السجن عندهم نعيم؛ مكيفات هواء في الصيف، ووجبات مجانية من اللحم والبالزلاء، ووقت طويل يقضونه في الكسل وفي استقبال زيارات أصدقائهم الذين يشبهونهم».

«هل فعل أبناء عائلة راتليف هذا؟ هل أنت متأكدة؟»

جحظت عينا آيدا: «يتباهون بفعلتهم في البلدة كلها».

شعرت هارييت أنها على وشك البكاء، فكيف يمكن أن يظلوا

طلقاء! قالت: «وهم الذين اقوا الحجارة أيضاً»

«نعم، يا صغیرتي، رجالهم الكبار وحتى الصغار شاركوا. وذلك

الذي يظن نفسه واعظاً.. لم يكن يرمي الحجارة بنفسه ولكنه كان يصيح ويلوح بإنجيله ويثير الآخرين».

قالت هارييت وهي تراقب وجه آيدا مراقبة دقيقة: «هناك

صبي من عائلة راتليف بعمر روبين تقريباً، لقد أخبرني بمبرتون عنه».

لم تقل آيدا شيئاً، لقد عصرت الخرقة من جديد، ثم توجهت

إلى آلة التجفيف لتخرج الأطباق منها.

«عمره الآن نحو عشرين سنة».

فكرت هارييت إنه كبير بما يكفي ليكون أحد الرجلين اللذين

أطلقا النار عند جسر الجدول.

تهتدت آيدا وأخرجت المقلاة الحديدية الثقيلة من آلة

التجفيف، وانحنت لتضعها في الخزانة. كان المطبخ بلا شك

أنظف غرفة في المنزل؛ فقد حولته آيدا إلى قلعة صغيرة من

النظام خالية من الصحف المغبرة المكدسة في بقية المنزل، لم

تكن والدة هاربيت تسمح برمي الصحف، وهي قاعدة قديمة جدًا وغير قابلة للنقاش حتى أن هاربيت نفسها لم تعترض عليها، لكن وفقًا لاتفاق غير معلن بينهما بقيت الصحف خارج المطبخ الذي كان مجال آيدا الخاص.

قالت هاربيت: «اسمه داني.. داني راتليف، هذا الشخص الذي كان بعمر روبين».

التفت آيدا ونظرت إليها من فوق كتفها: «ما سبب هذا الاهتمام الكبير المفاجئ براتليف؟»
«هل تتذكرينه؟ داني راتليف؟»

كشرت آيدا وهي تقف على أطراف أصابعها كي تضع قصعة الحبوب على الرف، وقالت: «يا إلهي! أتذكره بالتأكيد، أتذكره كأن ذلك كان يوم أمس».

بذلت هاربيت جهدًا كبيرًا لتظل تعابير وجهها هادئة: «هل كان يأتي إلى بيتنا؟ عندما كان روبين حيًا؟»

«أجل، يا سادتي! كان طفلًا وقحًا وصاخبًا، ولا تستطيعين طرده مهما حاولت. كان يضرب حافة الشرفة بمضارب البيسبول ويتسلل إلى الفناء بعد حلول الظلام، وذات مرة سرق دراجة روبين.. أخبرت والدتك المسكينة، أخبرتها وأخبرتها، لكنها لم تفعل شيئًا، كانت تقول لي إنه محروم! محروم... ذلك الوغد!»
فتحت الدرج وبدأت تعيد الملاعق النظيفة إلى أماكنها مصدرة ضجيجًا كبيرًا، وتابعت: «لا أحد يهتم بما أقوله، أخبرت والدتك أكثر من مرة أن هذا الولد من عائلة راتليف سيئ، يحاول القتال مع روبين، يشتم كثيرًا ويشعل المفرقات ويرمي الأشياء، ذات يوم

سيُصاب أحدهم بأذى، كنت أرى ذلك بوضوح حتى لو لم يره أحد غيري، من الذي كان يراقب روبين كل يوم؟ من كان ينظر دائماً من النافذة عندما كان يلعب في الخارج مع جنوده أو هرتة الصغيرة؟» أشارت إلى النافذة فوق حوض غسيل الأطباق، إلى سماء العصر، وإلى خضرة أوراق النباتات في الفناء الصيفي.

هزت رأسها حزينة وأغلقت درج الملاعق، وأكملت: «كان أخوك طفلاً طيباً، يتحرك كثيراً كأنه خنفساء في شهر حزين. كان يزعجني أحياناً، ولكنه يعتذر دائماً، ولا يعبس ويتجهم مثلما تفعلين. وأحياناً يجري إلي ويطوقني بذراعيه ويقول: «أشعر بالوحدة، يا آيدا»، أخبرته مراراً ألا يلعب مع ذلك القذر، لكنه كان يشعر بالوحدة، قالت أمك إنها لا ترى مشكلة في ذلك، وإنه سيلعب معه مهما قلنا له».

«هل كان داني راتليف يقاتل روبين هنا في الفناء؟»

«بكل تأكيد، كان سلوكه سيئاً، كان يشتم ويسرق أيضاً». خلعت آيدا مئزرها ووضعتة على المشجب، وقالت: «طرده من الفناء قبل عشر دقائق من عثور والدتك على روبين المسكين معلّقاً من غصن الشجرة التي هناك».

قالت هاربيت: «أقول لك إن الشرطة لا تفعل شيئاً مع أشخاص مثله» ثم عادت من جديد تحدثه عن الكنيسة، وعن ساق آيدا، والسيدة العجوز التي ماتت في الحريق، لكن هيلي كان قد سئم من سماع كل ذلك. ما أثار حماسه كان وجود مجرم خطر طليق، وفكرة أن يصبح بطلاً، وعلى الرغم من امتنانه لتمكنه من تجنب

الذهاب إلى مخيم الكنيسة، فإن الصيف حتى الآن كان هادئًا جدًا بالنسبة إليه. كان القبض على قاتل يبدو أكثر إثارة من المشاركة في المسابقات أو الهروب من المنزل أو أي نشاط آخر كان يأمل أن يقوم به مع هاربيت خلال الصيف.

كانا في سقيفة الأدوات في فناء بيت هاربيت؛ وهو المكان الذي اعتادا الذهاب إليه منذ مرحلة الروضة من أجل أحاديثهما الخاصة. كان هواء السقيفة خانقًا، تفوح منه رائحة الغبار والبنزين؛ تتدلى لفافات كبيرة سوداء من الأنابيب المطاطية على خطافات في الجدار، وتتكدس أكوام من هياكل زراعة الطماطم بشكل فوضوي خلف آلة جز العشب، التي تبدو أكبر حجمًا بفعل الظلال وشباك العنكبوت وحزم الضوء التي تخترق ثقوب السقف المعدني الصدئ فتبدو كأنها سيوف متقاطعة وسط العتمة المليئة بجزيئات الغبار المتطايرة. يشعر المرء أن جزيئات الغبار صلبة كأن مسحوقًا أصفر اللون سيتجمع على أطراف أصابعك إذا مررت بيدك عليها، لكن الظلمة والحرارة زادا من أجواء السرية والإثارة في مستودع الأدوات.

كان تشيستر يخفي علب سجائر «كول» وزجاجات من ويسكي «كتاكي تافرن» في المستودع في أماكن سرية يغيرها من وقت إلى آخر. عندما كان هيلي وهاربيت صغيرين، كانا يستمتعان في سكب الماء على السجائر (في إحدى المرات في لحظة نزوة شريرة تبول هيلي عليها)، كما أفرغوا زجاجات الويسكي وأعادوا ملأها بالشاي. لم يخبر تشيستر أحدًا عنهم، لأنه لم يكن يفترض به أن يحتفظ بالويسكي أو السجائر.

أخبرت هاربيت هيلي بكل ما كان لديها، ولكنها كانت شديدة التوتر بعد حديثها مع آيدا، فظلت تتأمل وتمشي ذهاباً وإياباً وتعيد الحكاية نفسها: «كانت تعرف أنه داني راتليف، كانت تعرف، قالت بنفسها إنه هو مع أنني لم أكن قد أخبرتها حتى بما قاله أخوك؛ قال بمبرتون إنه كان يتفاخر بأمور أخرى أيضاً، بأمور سيئة...».

«لماذا لا نضع سكرًا في خزان الوقود في سيارته؟ هذا سيدمر محركها تمامًا».

نظرت إليه هاربيت نظرة ازدراء، فأحس ببعض الإهانة لأنه ظن أن فكرته رائعة.

«أو.. من الممكن أن نكتب رسالة للشرطة دون أن نضع اسمينا عليها».

«وما الفائدة من ذلك؟»

«إذا أخبرنا والدي، فأنا واثق بأنه سيخبر الشرطة».

أطلقت هاربيت صوتًا يعبر عن الاستهزاء، لم تكن تشارك هيلي رأيها الحسن بوالده الذي كان مشرفًا في المدرسة الثانوية. قال هيلي ساخرًا: «إذن لنسمع فكرتك العظيمة».

عضت هاربيت شفتها السفلى، ثم قالت: «أريد أن أقتله».

ارتعش قلب هيلي عندما رأى تعبير وجهها الصارم والجاد، فقال فورًا: «هل أستطيع مساعدتك؟»
«لا».

«لن تتمكني من قتله وحدك!»

«لَمْ لَا؟»

فاجأه مظهرها، ظل لحظة غير قادر على التفكير في سبب وجيه، قال أخيرًا: «لأنه ضخم، سيبرحك ضربًا».

«صحيح لكني واثقة بأنني أذكى منه».

قال: «دعيني أساعدك، كيف ستفعلين ذلك على أي حال؟»

لكزها بمقدمة حذائه الرياضي، وتابع: «هل لديك بندقية؟»
«أبي لديه».

«هل تعنين تلك البنادق الكبيرة الضخمة؟ لا يمكنك حتى رفع واحدة منها».

«بل أستطيع».

قال عندما رأى عبوسها: «ربما، لكن.. انظري، لا تغضبي.. أنا بالكاد أستطيع إطلاق النار من بندقية كهذه مع أن وزني تسعون رطلاً، تلك البندقية ستطيح بي أرضاً، وربما تقفأ عيني أيضاً. إذا وضعت عينك على منظار التسديد، سوف يقتلع ارتدادها عينك من محجرها».

قالت هاربيت بعد أن فكرت لحظة: «أين تعلمت هذا كله؟»
«في الكشافة»، حقيقة الأمر أنه لم يتعلم ذلك في الكشافة، وأنه لا يعلم بالضبط من أين أتته هذه المعلومات، لكنه كان متأكدًا من صحتها تمامًا.

«لو علمونا أشياء كهذه في براونيز⁽¹⁾، لما توقفت عن الذهاب».
«يعلموننا كثيرًا من الهراء في كشافة الفتيان أيضًا، أشياء مثل السلامة المروية».

(1) فرقة كشافة الفتيات الصغيرات.

«ما رأيك أن أستخدم مسدسًا؟»

قال هيلي هذا وهو يشيخ بوجهه كي يخفي سروره: «المسدس أفضل».

«هل تعرف كيف تطلق النار من مسدس؟»

«أوه، بالتأكيد»، لم يكن هيلي قد لمس سلاحًا في حياته كلها، فوالده لم يكن يصطاد، ولم يكن يسمح لأولاده بالذهاب إلى الصيد، ولكن كان لديه بندقية هوائية، كان على وشك أن يذكر أن والدته تحتفظ بمسدس صغير أسود في درجها بجانب السرير عندما قالت هاربيت: «هل هو صعب؟»

قال هيلي: «إطلاق النار، ليس صعبًا علي؛ لا تقلقي، سوف أطلق النار عليه من أجلك».

«لا، أود أن أفعل هذا بنفسني».

قال هيلي: «لا بأس! سوف أعلمك، سوف أدريك، وسنبدأ منذ اليوم».

«أين؟»

«ماذا تعنين؟»

«لا نستطيع إطلاق النار من المسدس في فناء البيت».

سمعا صوتًا مرخًا يقول: «هذا صحيح، يا حلوتي! بالتأكيد، لا تستطيعين». فاجأهما ظهور ظل شخص عند باب السقيفة.

نظر هيلي وهاربيت -وقد أصابهما الذعر- إلى الأعلى في اللحظة التي أضاء فيها ضوء فلاش كاميرا بولارويد.

صاح هيلي: «ماما»، غطى وجهه بذراعيه فتعثر وسقط على صفيحة بنزين كانت خلفه.

لفظت الكاميرا الصورة بعد صوت نقرة وضجيج.

قالت والدة هيلي: «لا تغضبا مني، لم أستطع منع نفسي». قالتها بصوت مرح ضاحك كان واضحاً معه أنه لا يههما أبداً إن غضبا منها أم لا، تابعت: «قالت لي آيدا ريو إنها تظن أنكما جالسان هنا، يا فستق...» (كان «فستق» اسم التحبب الذي تدعو به هيلي دائماً؛ وكان يكره هذا الاسم)، «هل نسيت أن عيد ميلاد والدك اليوم؟ أريدكما أن تكونا في البيت، أنت وأخوك، عندما يعود والدك من لعب الغولف حتى نفاجئه».

«لماذا تسلت هكذا؟»

«أوه! ماذا بك؟ لقد اشتريت فيلماً جديداً، بدوتما لطيفين جداً، آمل أن تكون الصورة ناجحة»، نظرت إلى الصورة وراحت تنفخ عليها عبر شفطتها المضمومتين المطليتين بلون وردي. صحيح أن والدة هيلي في مثل سن والدة هاربيت، ولكن ملابسها وطريقة تصرفها يوحيان بأنها أصغر سناً، كانت تضع ظلاً أزرق حول عينيها، وتملك بشرة سمراء لوحتها الشمس لكثرة تجولها في فناء بيتها الخلفي مرتدية البكيني (تقول إيدي إنها تتابع الموضة كأنها مراهقة)، بالإضافة إلى أن قصة شعرها تشبه بنات المدرسة الثانوية.

تذمر هيلي: «كفي عن هذا»، كان يشعر بالحرج من تصرفات والدته، كان الأطفال في المدرسة يسخرون منه بسبب قصر تنورتها. ضحكت والدة هيلي، وقالت: «أعلم أنك لا تحب الكيك الأبيض، يا هيلي، ولكنه عيد ميلاد والدك. ولكن احزر ماذا؟» تكلمه أمه دائماً بهذه النبرة الطفولية المهينة كأنه لا يزال في

حضانة الأطفال.. «لديهم في المخبز كب كيك بالشوكولاتة. فما رأيك في هذا؟ تعال معي الآن! عليك أن تستحم وترتدي ملابس نظيفة.. آسفة يا هاريت لأنني سأقول لك هذا، ولكن آيدا ريو طلبت مني أن أخبرك أنه حان وقت العشاء».

«ألا تستطيع هاريت أن تأكل معنا؟

«ليس اليوم، يا فستق!»، قالت هذا باسمه وهي تغمز لهاريت بعينها: «هاريت تفهمني، أليس هذا صحيحًا يا حلوتي؟»

حدقت إليها هاريت بنظرة ثابتة وقد ساءها أسلوبها المباشر في الكلام، ولم تجد سببًا يجعلها تكون مهذبة مع والدة هيلي أكثر من هيلي نفسه.

«أنا واثقة بأنها تفهمني، أليس كذلك يا هاريت؟ سندعوها المرة القادمة عندما نشوي الهامبرغر في الحديقة. وأيضًا إذا جاءت هاريت فليس لدينا كب كيك من أجلها».

زعق هيلي: «قطعة كب كيك واحدة، هل اشتريت قطعة واحدة فقط؟»

«لا تكن طمّاعًا يا فستق».

«قطعة واحدة لا تكفي».

«قطعة كب كيك واحدة تكفي لطفل صغير مثلك، أوه، انظر إلى الصورة، كم هي مضحكة!»

انحنت كي تريهما صورة البولارويد، لا تزال الصورة باهتة، ولكنها واضحة بالقدر الكافي لتبيّن معالمها. قالت: «لأتساءل إن كانت ستظهر بشكل أفضل، تبدوان مثل مريّخين صغيرين».

وقد كان هذا صحيحًا: هكذا كان شكلهما في الصورة؛ بدت

عينا هيلي وهارييت مستديرتين ومتوهجتين وحمراوين مثل
أعين المخلوقات الليلية الصغيرة التي تظهر أمام السيارة ظهورًا
مفاجئًا، وقد أضفى وميض الكاميرا على وجهيهما المذهولين
مسحة من لون أخضر سقيم.

الفصل الثالث

صالة البلياردو

أحياناً، تُحضّر آيدا وجبة لذيذة للعشاء قبل عودتها إلى منزلها مساءً: تُعد دجاجاً مقلّياً ولحمًا مطهوًا في الفرن، وأحياناً تحضر بعض الحلوى. أما هذه الليلة فلم يكن على الطاولة سوى بعض البقايا التي أرادت التخلص منها: شرائح لحم قديمة، صارت باهتة اللون وزلقة بعد بقائها مغلّفة بالنايلون، وبعض البطاطس المهروسة الباردة.

استشاطت هاربيت غضبًا، فتحت خزانة المؤونة وحدقت إلى رفوفها المرتبة بعناية مبالغ فيها: أوعية الطحين والسكر والبازلاء المجففة ودقيق الذرة والأرز والمعكرونة. كانت والدتها بالكاد تتناول بضع ملاعق طعام في المساء، وعادة ما تكتفي بطبق من الآيس كريم أو حفنة من البسكويت المالح، وفي بعض الأحيان كانت أليسون تقلي البيض، لكن هاربيت قد سئمت البيض تمامًا. شعرت هاربيت بكسل غريب كأنها مقيدة بشبكة عنكبوت، فسحبت عود سباغيتي وبدأت تمصه، أيقظ طعمه الدقيقي المألوف في ذهنها موجة من صور مفاجئة: بلاطات الأرضية الخضراء في حضانة الأطفال، مكعبات خشبية مطلية لتبدو كطوب البناء، ونوافذ عالية لا تستطيع رؤية شيء من خلالها. كانت غارقة في أفكارها مستمرة في مضغ عود السباغيتي الجاف، كان حاجباها المعقودان يشبهان «إيدي» و«القاضي كليف». سحبت كرسي إلى البراد محاذرة أن تسقط شيئًا من

كومة الصحف المتكدسة، ووقفت عليه تبحث في الثلجة المليئة بعبوات متجمدة، كان وجهها متجهماً، لم تجد شيئاً يعجبها سوى علبة آيس كريم بنكهة النعناع التي تعشقها أمها والتي كانت أحياناً وجبتها الوحيدة في أيام الصيف. كانت العلبة غارقة وسط مجموعة من الأشياء المغلفة بورق معدني، كانت فكرة المأكولات الجاهزة غريبة بالنسبة إلى آيدا ريو، بل كانت مرفوضة تماماً. كانت ترى أن «وجبات التلفاز⁽¹⁾» غير صحية، مع أنها كانت تشتريها أحياناً إذا وجدتتها بأسعار مخفضة، أما «المأكولات الخفيفة بين الوجبات» فكانت تراها بدعة سخيفة مأخوذة من التلفاز، («وجبات خفيفة»، «لماذا تلزمك وجبة خفيفة إذا كنت تتناولين عشاءك؟»).

بعد العشاء، همس هيلي في أذن هاربيت عندما جلسا على الشرفة الخلفية: «عليك أن تخبري أمك أن تلزم آيدا بتنفيذ أوامرها».

ردت هاربيت بحزم: «أعلم ذلك جيداً» كانت والدة هيلي قد طردت خادمتها مرتين، طردت روبرتا لأنها ضربت هيلي بفرشاة الشعر، ومرة أخرى طردت روبي لأنها منعتة من مشاهدة برنامج المفضل «مسحورون».

(1) وجبات مجمدة تجهز بشكل مسبق، تحتوي عادة على مجموعة من الأطعمة المختلفة (مثل طبق رئيسي وخضراوات وأحياناً حلوى)، وتُسَخَّن في الفرن أو الميكروويف، أطلق عليها هذا الاسم في الولايات المتحدة لأنها صُممت في الأصل لتكون مريحة للأشخاص الذين يرغبون في تناول الطعام في أثناء مشاهدة التلفاز، ظهرت هذه الوجبات لأول مرة في الخمسينيات، وأصبحت شائعة كرمز للراحة والحدثة في ذلك الوقت.

لكز هيلي قدمها بمقدمة حذائه الرياضي: «أخبريها، أخبريها».
ردّت هاربيت: «سأخبرها لاحقاً». لكنها لم تقل ذلك إلا لحفظ ماء وجهها، في الحقيقة أنها وأليسون نادراً ما تشكوان من آيدا، وحتى عندما تشعر هاربيت بالغضب منها لأنها ظلمتها في أمر من الأمور، كانت تكذب أحياناً وتحمل الملامة فقط لتجنب إحراج آيدا أو إزعاجها، فالمسار الذي تسلكه الأمور في بيت هاربيت كان مختلفاً تماماً عما يجري في بيت هيلي. يفتخر هيلي، تماماً مثلما كان يفتخر بمبرتون بأنه طفل يصعب التعامل معه، ما جعل أمه غير قادرة على الاحتفاظ بمدبرة منزل أكثر من سنة أو سنتين. مرّ على بمبرتون وهيلي أكثر من عشر مدبرات منزل، فلماذا قد يهمه إن كانت روبرتا أو رامونا أو شيرلي أو روبي أو إيثي لي هي التي تجلس لمشاهدة التلفاز عند عودته من المدرسة؟

أما بالنسبة إلى هاربيت، فكان لآيدا موقع ثابت في مركز عالمها كله، شخصية محبوبة لا يمكن الاستغناء عنها؛ بحضورها الدائم، ووجهها العبوس المحبب، ويديها الكبيرتين اللطيفتين، وعينيها الواسعتين الجاحظتين النديتين، وابتسامتها التي كانت أول ابتسامة رأتها هاربيت في هذا العالم. كانت هاربيت تشعر بالألم عندما ترى أمها تتعامل مع آيدا أحياناً كأنها مجرد شخص عابر في حياتهن، متناسية العلاقة العميقة التي تربطها بكل واحدة منهن. في أوقات التوتر، قد تصبح تصرفات والدة هاربيت هستيرية، وتدخل إلى المطبخ باكية لتقول أشياء لا تعنيها، ثم تشعر بالندم لاحقاً. فكرة أن تُطرد آيدا كانت كابوساً يخيف

هاربيت، حتى أنها لم تسمح لنفسها بالتفكير فيه. كان الاحتمال الأقرب أن تترك أيذا العمل من تلقاء نفسها، فهي دائمة التذمر من قلة الأجر الذي تدفعه والدة هاربيت.

وسط الفوضى المتجمدة في الثلاجة، لمحت هاربيت قطعة من آيس كريم بنكهة العنب، أخرجتها بصعوبة وهي تفكر بحسد في ثلاجة بيت هيلي المزدحمة بعلب الآيس كريم بالكراميل والبيتزا المجمدة وفطائر الدجاج، وكل نوع يمكن تخيله من «وجبات التليفزيون».

خرجت إلى الشرفة وهي تحمل قطعة الآيس كريم دون أن تهتم بإعادة الكرسي إلى مكانه، واستلقت على الأرجوحة وبدأت تقرأ في كتاب الأدغال. كان النهار يحتضر ببطء، فيما بدأت ألوان الحديقة الغنية بالتلاشي، وتحولت الخضرة إلى لون شبيه بالخزامى، ثم تلاشت تدريجياً إلى ظلال بنفسجية قاتمة. بدأت الجنادب تغني، وراحت يراعتان تلمعان وتختفيان بشكل متردد بين الأعشاب الداكنة بالقرب من سياج السيدة فاونتين.

كانت شاردة الذهن، فانزلقت قطعة الآيس كريم من يدها وسقطت على الأرض دون أن تبدي أي اهتمام. لم تتحرك منذ نصف ساعة على الأقل، رأسها مستند بزاوية غير مريحة إلى ذراع الأرجوحة، لكنها لم تُبال. كانت تفوص أكثر فأكثر في صفحات الكتاب، حتى صار الكتاب أمام أنفها.

أصبحت الظلمة كثيفة، ولم تعد هاربيت قادرة على رؤية الكلمات، أحست بوخز في فروة رأسها وضغط نابض خلف عينيها، لكنها لم تحرك ساكناً على الرغم من تيبّس رقبتها، كان في كتاب

الأدغال مقاطع تحفظها عن ظهر قلب: الدروس التي تعلمها ماوكلي من باغيرا وبالو، وهجومه بمساعدة كا على باندرلوغ، لكن هناك أجزاء أخرى أقل إثارة، تتحدث عن إحساس ماوكلي بالغربة في الغابة، ولم تكن تلك الأجزاء من المفضلة لديها، في الواقع كانت تتجنب قراءتها أحياناً، لم تحب قصص الأطفال التي يُجبر فيها الأبطال على أن يكبروا ويتركوا مغامراتهم، كانت ترفض فكرة «النضوج» بكل ما تحمله من معانٍ سلبية: التخلي المفاجئ وغير المبرر عن المغامرة لصالح حياة رتيبة مع شريك ممل وأسرة تقضي حياتها في التصرفات التقليدية مثل قطع من الأبقار.

كان أحدهم يشوي شرائح اللحم في الخارج، ورائحة الشواء الشهية تتبعث في الهواء. اشتدّ ألم رقبتها، ولكنها لم تجد في نفسها أي رغبة في النهوض لإضاءة المصباح، على الرغم من أنها صارت مضطرة إلى بذل جهد كبير كي ترى الصفحة التي تزداد عتمة. ابتعد تركيزها عن كلمات الكتاب، وطاف دون هدف، جالت عيناها على قمم نباتات السياج المقابل كأنها تستعرض امتداداً من صوف أسود خشن، وظلت هكذا إلى أن آلمتها رقبتها كثيراً، فعادت مرغمة إلى قراءة كتابها.

تخيلت وسط الأدغال مدينة بائدة غارقة في السبات: معابد مهدامة، وخزانات مياه تخنقها دوالي العنب، وغرف متداعية ممتلئة ذهباً وجواهر لا يهتم أحد بها حتى ماوكلي نفسه، وفي تلك الخرائب كانت تعيش الثعابين التي وصفها كا بازدراء أنها مخلوقات

سامة وشريرة، ومع مواصلتها القراءة راودتها خيالات جامعة مليئة بالخطر، فتخيلت غابة ماوكلي تمتد خلسة إلى ظلمة فناء بيتها الخلفي، حيث النباتات الاستوائية الرطبة تتسلق الأشجار، وصوت نقيق الضفادع يتداخل مع صيحات الطيور المختبئة. كان ماوكلي طفلاً، ولكنه كان أيضاً ذنباً، مثلما كانت هارييت، وإن كانت تشعر أن هناك جزءاً آخر غامضاً يكمن في داخلها.

رفرفت أجنحة سوداء فوقها، كان الفضاء حولها خاوياً، غرقت أفكار هارييت حتى تلاشت تماماً، ثم فجأة لم تعد تدرك كم من الوقت مضى وهي مستلقية على الأرجوحة. لماذا ليست في فراشها؟ هل تأخر الوقت أكثر مما تظن؟ زحف الظلام عبر عقلها.. ريح سوداء.. وبرودة قاسية.

أجفلت بشكل مفاجئ جعل الأرجوحة تهتز بعنف.. شيء يرفرف عند وجهها، شيء زيتي دبق، أفقدها القدرة على التنفس. راحت تضرب الهواء بحركات مجنونة، وتتصارع مع الفراغ، والأرجوحة تنن تحت ثقل حركاتها، لا تعرف الاتجاه الصحيح للصعود أو الهبوط، حتى أدركت في مكان ما في عتمة عقلها أن الصوت الذي سمعته كان مجرد سقوط كتابها على الأرض.

توقفت هارييت عن التخبط وجلست بلا حراك، هدأت حركة الأرجوحة العنيفة تدريجياً واستعادت سكونها، أصبحت ألواح السقف فوقها أبطأ فأبطأ إلى أن توقفت تماماً، في هذا الهدوء العميق ظلت مستلقية تفكر، لو لم تحاول إنقاذ الطائر لمات على أي حال، ولكن ذلك لا يغير من حقيقة أنها من قتلته.

كان كتاب المكتبة مفتوحًا على الأرض، ووجهه صوب الأعلى، انقلبت على بطنها ومدت يدها لترفعه، انعطفت سيارة عند الزاوية ومضت في شارع جورج، أضاءت أنوارها الشرفة فظهرت صورة كوبرا بيضاء في الكتاب كأنها لاهتة على الطريق تظهر فجأة في الليل، وتحتها كتابة تقول:

منذ سنين كثيرة، أتوا كي يأخذوا الكنز.

كلمتهم في الظلام فرقدها ساكنين.

انقلبت على ظهرها من جديد، وظلت مستلقية في هدوء تام دام عدة دقائق، ثم نهضت واقفة فطقطقت مفاصلها، وتمطّلت رافعة ذراعيها فوق رأسها، ثم دخلت البيت بخطوات متناقلة فعبّرت غرفة الطعام ذات الإنارة الشديدة حيث كانت أليسون جالسة إلى طاولة الطعام تأكل البطاطس المهروسة الباردة من طبق أبيض.

كن هادئًا يا صغير، لأنني الموت. كلمات قالتها كوبرا أخرى في كتاب آخر لكيبلينغ. أفاعي الكوبرا في قصصه عديمة الشفقة، ولكنها تعرف كيف تتكلم مثلها مثل الملوك الأشرار في العهد القديم.

ذهبت هاربيت إلى الهاتف المعلق على الجدار في المطبخ، وطلبت رقم بيت هيلي؛ أربع رنات، خمس رنات، ثم أجابها أحدهم، فيما كان هناك ضجيج متداخل في الخلفية: «لا... تبدين أفضل دونها»، كانت والدة هيلي تقول لأحدهم، ثم التفتت إلى الهاتف وقالت: «مرحبًا!»

«أنا هاربيت، من فضلك، هل يمكنكني التحدث إلى هيلي؟»

«هاريت! بالتأكد تستطيعين، يا بازلاء الحلوة»، ثم وضعت السماعه من يدها.

لم تألف عينا هاريت الضوء بعد، رمشت بجفניה عندما نظرت إلى كرسي طاولة الطعام الذي لا يزال حيث تركته عند البراد، دائماً ما تفاجئها كلمات التحبب والألقاب الغريبة التي تطلقها والد هيلي، كلمة «بازلاء» لم تكن بالتأكد من ضمن الأسماء المعتادة لهاريت!

حركة شديدة: انزلاق كرسي على الأرض، وضحكة بمبرتون التي تُثير غضبها، وصرخة هيلي المنزعج تعلو فوقها بوضوح. ثم صوت إغلاق باب. «مرحباً!»

كان صوته أجش ومتحمس. «هاريت؟»

حملت السماعه بين أذنها وكتفها، واستدارت فصارت في مواجهة الجدار: «هيلي.. إذا حاولنا، فهل تظن أننا نستطيع اصطیاد أفعى سامة؟» حلّ صمت خائف، وأدركت هاريت خلاله مسرورة أنه فهم تماماً ما عنته بسؤالها.

«ذات الرأس النحاسي، أم قطنية الفم.. أيتها أكثر سمية؟» جلسا بعد ساعات في الظلام على درجات الشرفة الخلفية في بيت هاريت. كاد هيلي يفقد صوابه وهو ينتظر أن تتقضي

حماسة حفلة عيد الميلاد ليتمكن من التسلل بهدوء ولقائها، ساورت الشكوك والدته بسبب فقدانه شهيته للطعام، فاستتجت استنتاجاً مهيئاً مفاده أنه أصيب بالإمساك، وبقيت وقتاً طويلاً تستجوبه حول تفاصيل محرجة مثل ذهابه إلى المرحاض، واقرحت أن تعطيه أدوية ملينة، وبعد أن قبلته أخيراً قبله «تصبح على خير» (بعد تردد واضح)، وصعدت مع والده إلى الطابق العلوي، ظل راقداً مفتوح العينين متيبساً تحت أغطيته مدة نصف ساعة أو أكثر، وكان شديد الحماسة كأنه شرب زجاجة كوكا كولا كبيرة، وكأنه شاهد أحدث أفلام جيمس بوند.. كان الليلة ليلة عيد الميلاد.

كانت فكرة التسلل من البيت تزيد إثارة فوق إثارته.. عبر الصالة على رؤوس أصابعه، ثم فتح الباب الخلفي بحذر، أصدر صريراً خفيفاً، ففتح الباب ببطء شديد. بدا هواء الليل ثقيلاً حاراً جداً، بعد خروجه من برودة غرفة نومه المكيفة، التصق شعره بقاعدة رقبته، وشعر بضيق في التنفس، كانت هاربيت جالسة على درجة أقل منه، وقد أسندت ذقنها إلى ركبتيها، تأكل فخذ دجاجة باردة أحضرتها من منزلها.

سألته: «ما الفرق بين الأفعى قطنية الفم، والأفعى ذات الرأس النحاسي». بدت شفاتها لامعتين تحت ضوء القمر بسبب دهن الدجاج.

قال هيل: وهو يشعر بالتحفز والحماس: «كنت أظنهما نوعاً واحداً».

«الأفعى ذات الرأس النحاسي مختلفة، أمّا ذات الفم القطني هي نفسها أفعى الماء».

قال هيلي بسعادة مكرراً بشكل حرفي ما قاله له بيمبيرتون قبل ساعتين عندما سأله عن الأمر: «أفعى الماء تهاجمك كلما رغبت في ذلك، إنها عدوانية جداً»، كان هيلي يخشى الأفاعي خشية شديدة، ولم يكن يحب حتى النظر إلى صورها في الموسوعات.

سألت هارييت: «هل تبقى في الماء طوال الوقت؟»

أجاب هيلي مكرراً ما سمعه من بمبرتون لأنه لا يعلم إجابة سؤالها: «ذات الرأس النحاسي يبلغ طولها نحو قدمين، نحيلة جداً وحمراء اللون، وهي لا تحب الماء».

«هل سيكون اصطيادها سهلاً؟»

قال هيلي: «أوه، بالتأكيد»، قال هذا على الرغم من أنه لم يكن لديه أدنى فكرة، في كل مرة يصادف فيها هيلي أفعى، كان يعرف بلا شك إنّ كانت سامة أم لا من شكل رأسها المدب أو المستدير بغض النظر عن حجمها أو لونها، لكن معرفته لم تتعدّ ذلك، طوال حياته كان يدعو جميع الأفاعي السامة «أفعى الماء»، وأي أفعى سامة على اليابسة كانت في نظره مجرد «أفعى الماء» ليست في الماء في تلك اللحظة.

رمت هارييت عظمة فخذ الدجاجة قرب درجات الشرفة، ثم مسحت أصابعها بساقها العارية، فتحت المنديل الورقي وبدأت تأكل قطعة الكعكة التي أحضرها هيلي من حفلة عيد الميلاد، جلسا صامتين بعض الوقت، حتى في وضوح النهار كان الفناء

الخلفي لمنزل هارييت يبدو كثيباً ومهجوراً كأن ضباباً قاتمًا يخلق المكان، كانت ملامحه تبدو باهتة وشاحبة وأكثر برودة وجموداً من أي فناء آخر في شارع جورج، أما في الليل حينما تتحول النباتات المتشابكة والمتدلّية وأعشاش الفئران إلى كتل سوداء مظلمة، كان الفناء يبدو كأنه ينبض بحياة خفية تتحرك في الظلام.

الأفاعي كثيرة في ولاية ميسيسيبي، كان هيلي وهارييت يسمعان قصصاً كثيرة عن صيادي السمك الذين هاجمتهم أفاعٍ قطنية الظم تسلقت مجاديفهم أو تسللت إلى قواربهم من الأشجار المائلة فوق الأنهار، أو عن عمال رشّ المبيدات أو السباكين أو مصلحي نظام التدفئة المركزية الذين لدغتهم الأفاعي عند عملهم أسفل المنازل، كما سمعا حكايات عن سباحين تزلجوا فوق أعشاش الأفاعي المائية، ليطفوا بعدها على السطح جثثاً منتفخة مليئة بالبقع تتمايل مع الأمواج التي يحدثها محرك الزورق كدمى بلاستيكية في بركة سباحة.

كانا يعلمان أن عليهما ألا يسيرا في الغابات صيفاً دون ارتداء أحذية طويلة وسراويل طويلة، وألا يقلبا الصخور الكبيرة أو يتخطيا جذوع الأشجار دون النظر أولاً إلى الجانب الآخر، وألا يجلسا بين الأعشاب الطويلة والأجمات الكثيفة ولا على مقربة من برك الماء والمستنقعات وقنوات تصريف المياه وفتحاتها، وألا يقتريا من أيّ حفرة مريبة.

تذكر هيلي بشيء من الانزعاج تحذيرات والدته المتكررة له بالابتعاد عن النباتات النامية إلى جانب السياج وبركة السمك

المهجورة الموحلة وأكوام الخشب المتعفن في فناء هارييت، قالت والدته: «ليس ذنبها، لكن أمها لا تعتني بالمكان كما ينبغي. فأياك أن أراك تركض هناك حافي القدمين...».

قالت هارييت: «هناك عش من الأفاعي الصغيرة الحمراء تحت السياج، يقول تشيستر إنها سامة. في الشتاء الماضي عندما تجمدت الأرض، وجدت كرة متشابكة من تلك الأفاعي ملتفة على بعضها بهذا الحجم» رسمت دائرة بحجم كرة صغيرة في الهواء، وأضافت: «وكان عليها طبقة من الجليد».

رد هيلي: «ومن يخاف الأفاعي الميتة؟»

«لم تكن ميتة، قال تشيستر إن الحياة تدب فيها إذا دفأتها».

«أوووفا!»

«أضرم تشيستر ناراً بتلك الكرة كلها».

بقيت تلك الذكرى محفورة في ذهن هارييت بوضوح أكثر مما ينبغي، في مخيلتها لا تزال ترى تشيستر مرتدياً حذاءً طويلاً يسكب البنزين على الأفاعي في الفناء الشتوي العاري، وقد مد ذراعيه كي يبعد صفيحة البنزين عن جسده، ثم رمى عود ثقاب اشتعلت كرة من اللهب البرتقالي، ولكنها لم تلق أي دفء أو ضوء على الأجمة الخضراء المسودة للسياج خلفها.

حتى من مسافة بعيدة بدا لها أن الأفاعي تتلوى بفعل النار كأن حياة جديدة دبّت فيها فجأة، إحدى الأفاعي أخرجت رأسها من تلك الكتلة المتشابكة، وراحت تتلوى عمياء تتأرجح مثل ماسحة زجاج سيارة، صدرت عن الأفاعي طقطقة مخيفة في أثناء احتراقها، كان من أبشع ما سمعته هارييت في حياتها،

وظلت كومة الرماد اللزجة في موضعها طيلة الشتاء تحتوي على بقايا فقرات محترقة.

رفعت هاربيت قطعة الكيك إلى فمها بذهن شارد، ثم أنزلتها من جديد، وقالت: «قال لي تشيستر إنك لا تستطيع التخلص حقًا من هذا النوع من الأفاعي، إذا لاحقتها فقد تهرب بعض الوقت، لكنها ستعود إلى المكان الذي ألفته وأحبته، عاجلاً أم آجلاً».

وكان هيلي يفكر في تلك المرات التي مشى فيها حافي القدمين عبر تلك النباتات الكثيفة عند السياج فقط ليختصر طريقه، ثم قال بصوت مرتفع: «هل تعرفين متنزه الزواحف على الطريق السريع القديم بالقرب من الغابة المتحجرة، يوجد هناك محطة وقود أيضاً ويديرها رجل بشع مخيف له شفة مشقوقة كشفة الأرنب».

استدارت هاربيت لتتظر إليه: «هل ذهبت إلى ذلك المكان؟»

«نعم».

«هل تعني أن أملك ذهبت إلى هناك؟»

قال هيلي بشيء من الحرج: «بالطبع لا! ذهبت مع بمبرتون، كنا عائدين من مباراة كرة قدم»، وحتى بمبرتون نفسه، لم يرغب في زيارة متنزه الزواحف، لكنه توقف هناك للتزود بالوقود.

«في الحقيقة لا أعرف أحداً ذهب إلى ذلك المكان».

قال هيلي: «الرجل هناك مخيف، لديه وشوم ثعابين على ذراعيه من أعلاهما إلى أسفلهما، كان لديه ندوب أيضاً كأنه تعرض للذغ مرات كثيرة» لاحظ هيلي ذلك عندما كان الرجل يملأ خزان الوقود، لم تكن لديه أسنان ولا أطقم أسنان أيضاً؛ ما

جعل ابتسامته ناعمة ومخيفة أشبه بابتسامة ثعبان، والأسوأ من ذلك كان هناك ثعبان «بوا» ملتف حول عنقه.

قال الرجل مائلاً نحو السيارة: «هل تريد لمسّه يا بني؟»
تجمد هيلي في مكانه عندما حدّق الرجل إليه بعينين جامدتين
تلمعان تحت ضوء الشمس.

«كيف هو ذلك المكان.. متنزّه الزواحف؟»

«تفوح منه رائحة كريهة مثل السمك، لمستُ أفعى البوا» خاف
ألاً يلمسها فيرميها الرجل عليه، تابع: «كانت باردة، باردة مثل
مقعد سيارة في الشتاء».

«كم أفعى لديه هناك؟»

«أوه! كان هناك أفاع كثيرة في أحواض زجاجية تمتد على
مساحة جدار كامل، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الأفاعي
الطليقة على الأرض، وهناك قسم مسيح يدعى «مزرعة الأفاعي
ذات الجرس»، كان هناك مبنى آخر في الخلف مكتوب عليه كلمات
ومليء بالرسومات المطبوعة تكسو جدرانها كلها».

«ما الذي يمنع الأفاعي من الهروب؟»

«لا أدري، لم تكن تتحرك كثيراً بدت كأنها مريضة».

«لا تلزميني، لا أريد أفعى مريضة».

راودت هيلي فكرة غريبة؛ ماذا لو لم يمت شقيق هاربيت
عندما كانت صغيرة؟ لو بقي حياً ربما كان سيكون مثل بمبرتون:
ضايقها، ويعبث بأشياءها، وربما لم تكن لتحبّه كثيراً.

رفع شعره الأشقر وجمعه بيد واحدة، وراح يُلَوِّح بيده الأخرى
ليخفف حرارة رقبتّه، ثم قال مبتهجاً: «أفضل أن أتعامل مع ثعبان

بطيء على أن أتعامل مع واحد من تلك السريعة التي تطاردك، ذات مرة شاهدت على التلفاز برنامجًا عن أفاعي المامبا السوداء، يبلغ طول الواحدة منها عشرة أقدام، وماذا تفعل هذه الأفاعي؟ ترفع أول ثمانية أقدام من جسمها وتطاردك بسرعة عشرين ميلًا في الساعة، وقد فتحت أفواهها على اتساعها، وعندما تلحق بك» قال هذا رافعًا صوته؛ كي يعلو فوق صوت هارييت.. «ماذا تفعل؟ تلدغك في وجهك مباشرة». مكتبة سُرْمَن قرأ

«هل يمتلك واحدة منها؟»

«لديه كل أنواع الأفاعي في العالم، ونسيت أن أقول إن تلك الأفاعي سامّة جدًا لدرجة أنك تموتين خلال عشر ثوانٍ، وانسي الترياق المضاد للسم! فقد انتهى أمرك!»

كان صمت هارييت طاغيًا لا يمكن تجاهله، وبدت بشعرها الداكن وذراعيها حول ركبتيها كأنها قرصانة صينية صغيرة. قالت فورًا: «هل تدري ماذا يلزمنا؟ تلزمنا سيارة».

قال هيلي بحماس محاولاً أن يخفي ارتباكها، بعد لحظة صمت قصيرة لعن فيها نفسه لأنه تباهى أمامها ذات يوم بمعرفته كيفية القيادة: «صحيح».

ألقي نظرة خاطفة عليها، ثم مال إلى الخلف مستندًا إلى راحتي يديه ونظر إلى النجوم. كلمة «لا أستطيع» أو «لا» لم تكن قط مما يمكن أن يقوله لهارييت، لقد رآها تقفز من أسطح المنازل، تهاجم أطفالاً ضعف حجمها، وتركل وتعض الممرضات في أثناء تلقي الجرعة الثانية من اللقاح الخماسي في رياض الأطفال.

فرك عينيه غير قادر على التفكير في شيء يقوله، كان نعسًا، ولكنه يشعر بحرٍّ شديدٍ مزعج وبأشواك تخزه كأنه سيرى كوابيس في منامه. تذكر أفعى الجرس المقشورة التي رآها معلقة على عمود سياج في متنزه الزواحف: حمراء، كلها عضلات، وفيها عروق زرقاء متشابكة.

قال بصوت عالٍ: «هاربيت، ألن يكون من الأسهل استدعاء الشرطة؟»

ردت بسرعة: «سيكون أسهل كثيرًا»، شعر بموجة من المودة نحوها، هاربيت الطيبة: تستطيع أن تفرق بأصابعك فتغير الموضوع كله بهذه السرعة، وستظل هناك، تتابعك بنفس الانسجام.

قال: «أعتقد أن هذا ما علينا فعله إذن. يمكننا الاتصال من الهاتف العمومي بجانب مبنى البلدية ونقول إننا نعرف من قتل أخاك، أعرف كيف أتحدث بصوت يشبه صوت عجوز تمامًا». نظرت إليه هاربيت كأنه فقد عقله.

قالت: «لماذا أترك الآخرين يعاقبونه؟»

جعله التعبير على وجهها يشعر بضيقٍ واضطراب، فأشاح بوجهه عنها، ووقعت عيناه على المنديل الورقي المزيّن على الدرجات، وفوقه قطعة الكيك التي لم تأكل هاربيت إلا نصفها. كانت حقيقة الوضع أنه سيفعل أي شيء تطلبه منه، مهما يكن ذلك الشيء، وكلاهما كان يعلم ذلك.

كانت أفعى نحاسية الرأس صغيرة لا يتجاوز طولها قدمًا واحدة، ويمكن القول إنها كانت أصغر أفعى بين الأفاعي الخمس التي وجدها هيلي وهاريت ذلك الصباح خلال ساعة واحدة فقط، وكانت راقدة في هدوء تام على شكل حرف S بين بعض الأعشاب المتناثرة التي تنمو عبر طبقة من رمال البناء، بالقرب من نهاية طريق مسدود في حي «مرج السنديان»، وهو مشروع سكني يقع خلف النادي الريفي.

كانت جميع المنازل في «مرج السنديان» حديثة البناء، لا يتجاوز عمرها سبع سنوات: تصاميمها تتنوع بين الطراز التيودوري والبيوت الريفية، وأخرى تشبه البيوت المعاصرة، وكان يوجد بيتان بتصميم مستوحى من الطراز الأمريكي ما قبل الحرب الأهلية، مبنيان من الآجر الأحمر الداكن الجديد، وعلى واجهتيهما أعمدة مزخرفة. وعلى الرغم من ضخامة تلك البيوت وأسعارها الباهظة، فإن حداثتها أضفت عليها إحساسًا مزعجًا وغير ودود، وفي الأجزاء الخلفية من الحي، حيث أوقف فيها هيلي وهاريت دراجتيهما، كانت معظم البيوت لا تزال قيد الإنشاء: مساحات عارية، ومواقع مسوّرة تتكدس فيها مواد البناء من ورق القطران والخشب والألواح الجدارية ومواد العزل، تحيط بها هياكل خشبية من الصنوبر الأصفر الجديد التي تظهر من خلالها السماء الزرقاء.

وعلى عكس شارع جورج العتيق المليء بالأشجار الذي بُني قبل مطلع القرن، كان في «مرج السنديان» عدد قليل جدًا من الأشجار، ولم تكن هناك أي أرصفة على الإطلاق، أُزيلت كل

مساحة خضراء المناشير الكهربائية والبلدوزرات: أشجار البلوط المائي والبلوط المستقيم، التي كان بعضها -وفقاً لعالم نبات من جامعة الولاية قاد محاولة يائسة لإنقاذها- قائماً منذ أن نزل (لأسال⁽¹⁾) نهر الميسيسيبي عام 1682.

كان القسم الأكبر من التربة التي تثبتها جذور تلك الأشجار قد جرفته الأمطار إلى الجدول ثم إلى النهر، وكانت الأرض الصلبة قد جرفتها البلدوزرات إلى المناطق المنخفضة لتسوية الأرض. لم يكن هناك نباتات كثيرة يمكن أن تنمو في التربة الفقيرة الباقية ذات الرائحة الحامضية، كانت الأعشاب قليلة جداً، وشجيرات الماغنوليا والقرانيا التي جلبت بالشاحنات ذبلت بسرعة وماتت حتى أصبحت مجرد أغصان جافة تبرز من دوائر من النشارة والحواف المزخرفة.

كانت مساحات الطين المحترق ذات اللون الأحمر المليئة بالرمل ونشارة الخشب والتي تشبه تربة المريخ تجاور بشكل صارخ حافة الإسفلت الذي كان أسود وحديثاً لدرجة أنه بدا لزجاً. خلف المشروع إلى الجنوب كان هناك مستنقع كبير تفيض مياهه كل ربيع لتغمر البيوت.

كانت أكثر بيوت «مروج السنديان» ملكاً لوافدين جدد؛ مطورين عقارين وسياسيين ووكلاء عقارات وشبان طموحين متزوجين حديثاً، هربوا من أصولهم الريفية في بلدات منطقتي بايني وودز وكلاي هيلز، وقد حرصوا جميعاً على تعبيد كل مساحة متاحة،

(1) مستكشف فرنسي من القرن السابع عشر (1643-1687)، عُرف برحلاته في أمريكا الشمالية لاستكشاف المناطق الواقعة على نهر الميسيسيبي.

وعلى اجتثاث كل شجرة كانت في المكان كأنهم كرهوا جذورهم الريفية.

ولكن المنطقة انتقمت من هذا التعييد الجائر، فأصبحت الأرض مستتعية تعج بالبعوض، وأخذت الحفر تمتلئ بمياه مالحة فور حفرها في الأرض، وتسببت الأمطار في ارتداد مياه الصرف الصحي، فخرج طين أسود لزج من المراحيض الجديدة اللامعة، وتقاطر من الصنابير ومن مرشّات الحمامات الأنيقة، وبعد انجراف التربة السطحية بعيداً صارت الشاحنات تجلب أطناناً من الرمل للحفاظ على المنازل من الانجراف في الريح؛ ولم يكن هناك ما يمنع السلاحف والأفاعي من الزحف بعيداً عن النهر كما يحلو لها.

كانت منطقة «مروج السنديان» موبوءة بالأفاعي.. كبيرة وصغيرة، سامة وغير سامة، أفاعٍ تحب الطين، وأفاعٍ تحب الماء، وأفاعٍ تحب المكوث على الصخور الجافة تحت أشعة الشمس. في الأيام الحارة كانت رائحة الأفاعي تتبعث من الأرض ذاتها، كما ترتفع المياه العكرة لتملأ آثار الأقدام في الأرض التي حرثتها البلدوزرات. كانت أيذا ريو تقارن بين رائحة الأفاعي ورائحة أحشاء الأسماك مثل سمك الشبوط الجاموسي وسمك السلور الطيني والسلور القنوي والأسماك الرمّامة التي تقتات على الفضلات، أما إيدي فكانت تقول عندما تحفر لزراعة أضاليا أو شجيرة ورد خصوصاً في مشاريع التشجير التابعة لنادي الحديقة بالقرب من الطريق السريع، إنها تعرف أنها قريبة من وكر أفاعٍ عندما تشم رائحة تشبه البطاطس المتعفنة.

أما هارييت فقد شمت رائحة الأفاعي مرات عديدة (كانت أشدها في «بيت الزواحف» في حيوان ممفيس، وشمته منبعثة من الأفاعي المذعورة المحبوسة في أوعية زجاجية في فصل العلوم)، ولكنها كانت تشم رائحتها اللاذعة أيضاً تفوح من ضفاف الجداول الموحلة والبحيرات الضحلة وقنوات تصريف المياه والمسطحات الطينية التي يتصاعد منها البخار في شهر آب، وأحياناً في الأيام الحارة جداً تشمها في فناء منزلها الخاص بعد هطول الأمطار.

كان بنطال الجينز الذي ارتدته هارييت غارقاً في عرقها وكذلك قميصها ذو الكمين الطويلين، ولأن المنطقة والمستقع الذي خلفها شبه خاليين من الأشجار، وضعت على رأسها قبعة قش حتى لا تصاب بضربة شمس، ولكن الشمس كانت لاهبة كأنها غضب إلهي، فشعرت بالدوار والقلق من شدة الحرارة في ذلك اليوم.

طيلة ذلك الصباح حافظت هارييت على هيئتها الجادة الصبورة، في حين كان هيلي (الذي منعته شدة اعتداده بنفسه من وضع قبعة على رأسه، فبدأت حروق الشمس تظهر على وجهه) يقفز هنا وهناك، ويتحدث من حين إلى آخر عن أحد أفلام جيمس بوند يدور حول ملاحقة عصابات المخدرات والعرفانين والأفاعي الاستوائية القاتلة. كادت تموت ضجراً خلال رحلتهما بالدراجة لكثرة ما حدثها عن بهلواني الدراجات إيفيل كنيفيل وعن كرتون صباح السبت المسمى «ويلي وعصابة القتلة».

راح يقول لها وهو يرجع بطريقة عصبية خصلات شعره المتعركة التي انسدت على وجهه: «ينبغي أن تشاهدي هذا الفيلم. أوه، يا ربي! جيمس بوند... لقد أحرق تلك الأفعى، كانت معه علبة مزيل رائحة، وعندما رأى الأفعى في المرأة، استدار هكذا، ووضع سيجارة أمام تلك العلبة، و... باووو... اندلعت النار على امتداد الغرفة كلها. هوووش...».

تراجع إلى الخلف وهو يحدث صوتًا بشفتيه، فيما كانت هاريت تفكر في أفعى نحاسية الرأس النائمة وتحاول جاهدة التفكير في كيفية التصرف معها. كانا قد خرجا للصيد وهما مجهزان ببندقية هيلي الهوائية وعصاتين مشطورتين ودليل ميداني للزواحف والبرمائيات في جنوب شرق الولايات المتحدة وقفازات الحديقة التي يستخدمهما تشيستر وضمادة وسكين جيب وبعض العملات للاتصال في حال تعرض أحدهما للدغ، وصندوق غذاء قديم خاص بآليسون (مرسوم عليه صورة مشجعات بشعر مربوط وملكات جمال صغيرات يرتدين التيجان)، ثقت هاريت بعض فتحات التهوية في غطاءه باستخدام مفك براغ بصعوبة.

كانت الخطة هي الاقتراب من الأفعى - ويفضل أن يكون ذلك

بعد أن تحاول لدغهما، وقبل أن تستعد للهجوم من جديد - وتثبيتها من خلف رأسها باستخدام العصا المشطورة. ثم يمسكان بها من خلف الرأس مباشرة (حتى لا تستطيع الالتفاف ولدغهما) ووضعهما في صندوق الغذاء وإغلاقه بإحكام.

لكن قول هذا كله أسهل من فعله! عثرا أول الأمر على ثلاث أقاعٍ من ذوات الرأس النحاسي، كانت بلون صدئ لامع، تتشمس

معاً على بلاطة حجرية، فخشيا الاقتراب منها، رمى هيلي حجراً وسط تلك الأفاعي فهربت اثنتان منهما في اتجاهين مختلفين، وظلت الثالثة مكانها وقد ثار غضبها، وبدأت هجومها المتكرر على الحجر وعلى الهواء وعلى كل شيء يلفت انتباهها.

خاف الاثنان خوفاً شديداً، ودارا من حولها بحذر، وقد مدّ كل منهما عصاه أمامه. انقضّا عليها انقضاضاً سريعاً، ثم ارتدّا إلى الخلف عندما رفعت الأفعى رأسها مدافعة عن نفسها من جميع الاتجاهات.. مرة في اتجاه العصا الأولى، ثم مرة أخرى في اتجاه العصا الثانية... ففر الطفلان في اتجاهين مختلفين. شعرت هاربيت بالخوف لدرجة أنها اعتقدت أنها قد تفقد وعيها، هاجم هيلي الأفعى بعصاه فأخطأها، فارتدت الأفعى متراجعة قليلاً، ثم انقضت عليه فاردة طول جسمها كله، فما كان من هاربيت إلا أن ثبتت رأسها بعصاها المتشعبة، وهي تطلق صرخة مكتومة، وفوراً وبعنف مفاجئ راحت الأفعى تقذف بالقسم الباقي من طولها في كل اتجاه كأن شيطاناً قد تلبّسها، ذعرت هاربيت فقفزت متراجعة لتجنب ذيلها الذي كان يضرب بقوة. حررت الأفعى نفسها من العصا، واتجهت صوب هيلي الذي تراجع سريعاً وهو يصرخ كأنه قد تعرض لطعنة حربة، قبل أن تندفع الأفعى نحو الأعشاب الكثيفة اليابسة.

كان هناك شيء مختلف يميز حي «مروج السنديان»: لو صرخ طفل (أو أي شخص) بتلك القوة والحدة في شارع جورج، لاندفعت إلى الشارع في لحظة كل من السيدة فاونتتين والسيدة غودفري وآيدا ريو وغيرهن من ربّات البيوت («يا أطفال! ابتعدوا عن تلك

الأفعى! هيا!)). ستكون تلك النساء جادات تمامًا، ولن يتحملن أي ردود وقحة، وسيبقين يراقبن من نوافذ مطابخهن حتى بعد عودتهن للتأكد من أن كل شيء على ما يرام.

ولكن الأمر مختلف في «مروج السنديان»، فالبيوت ذات طبيعة مغلقة على نحو مخيف كأنها ثكنات عسكرية أو مقابر، هنا لا يعرف المرء جيرانه، هنا في «مروج السنديان» يمكنك أن تصرخ بأعلى صوتك، ويمكن أن يخنقك مجرم بسلك شائك، ولن يخرج أحد ليرى ما يحدث.

وفي ذلك الصمت الخانق تنأى إلى سمعهما صوت ضحكة هستيرية آتية من برنامج مسابقات تليفزيوني من منزل قريب، كان المنزل يشبه المزرعة، أبوابه ونوافذه مغلقة بإحكام، جاثماً ضمن قطعة أرض مكشوفة خلف هياكل أشجار الصنوبر، كانت نوافذه مظلمة، وهناك سيارة بويك جديدة لامعة متوقفة في مساحة مفروشة بالرمال أمام البيت.

«آن كندال! انزلي!»، ثم تصفيق الجمهور.

فكرت هاربيت: من يعيش في هذا المنزل؟ ورفعت إحدى يديها كي تحمي عينيها من الشمس؛ أب سكير لم يذهب إلى عمله؟ أم أمٌ كسول من إحدى المنظمات النسائية مثل تلك الأمهات المهملات اللواتي كانت أليسون تعمل أحياناً جليسة لأطفالهن؟ أكون واحدة منهن مستلقية في غرفة مظلمة في هذا المنزل تتابع التليفزيون، وقد أهملت غسيل الملابس؟

قال هيلي متراجعاً إلى الخلف بخطوات متعثرة وهو يغمم بصوت منخفض وينظر إلى الأرض بحركات متوترة ومهتزة: «لا

أطبق برنامج السعر المناسب⁽¹⁾، في برنامج «تاتل تيلز⁽²⁾» لديهم المال والسيارات».

«يعجبني برنامج جيوباردي⁽³⁾».

لكن هيلي لم يكن يستمع، كان يفتش الأعشاب بعصاه متحمساً، ويفني بصوت خافت: «من روسيا مع الحب⁽⁴⁾...»، ثم كرر العبارة مرة أخرى لأنه لم يتذكر الكلمات: «من روسيا مع الحب...».

لم يمضِ وقت طويل قبل أن يعثرا على أفعى رابعة، وهذه المرة كانت أفعى مائئة شمعية المظهر شديدة الصفرة لم تكن أطول من الأفاعي نحاسية الرأس، لكنها كانت أكثر سماكة من ذراع هاريت، على الرغم من شدة خوفه أصر هيلي على السير أمام هاريت، وكاد يطاء الأفعى، انطلقت الأفعى مثل زنبرك وهاجمته لكنها أخطأت ساقه، صارت ردود فعل هيلي سريعة جداً بعد المواجهة السابقة: قفز متراجعاً، ثم ثبت الأفعى بحركة واحدة من عصاه، وصاح: «هاه!».

أطلقت هاريت ضحكة عالية، وفتحت قفل العلبة المعدنية التي معها بيدين مرتعشتين، وكانت هذه الأفعى أبطأ من الأفاعي السابقة وأقل منها رشاقة، وكانت تسحب جسدها الفظيع ذا اللون

(1) برنامج مسابقات تليفزيوني أمريكي مشهور في الستينيات، يعتمد على تخمين المتسابقين الأسعار الصحيحة لمنتجات معينة للفوز بجوائز.

(2) برنامج مسابقات أمريكي ظهر في السبعينيات، يتضمن أسئلة تُطرح على الأزواج المشاهير ليختبروا مدى معرفتهم ببعضهما.

(3) برنامج مسابقات أمريكي مشهور يعتمد على الإجابة عن أسئلة عامة تغطي موضوعات متنوعة مثل التاريخ والأدب والرياضيات والعلوم.

(4) عنوان فيلم ورواية مشهورة ضمن سلسلة جيمس بوند، والأغنية التي يحاول تذكر كلماتها عرضت في الفيلم.

الأصفر على الأرض جيئةً وذهاباً بحركة ثقيلة، ولكنها كانت أكبر حجماً بكثير من الأفاعي نحاسية الرؤوس، فهل تتسع لها هذه العلبة؟ كان هيلي يضحك ضحكاً هستيرياً عالياً من شدة دُعره، مد أصابعه وانحنى كي يمسك بها.

صاحت هارييت: «الرأس!»، وسقطت العلبة من يدها مقعقة على الأرض.

قفز هيلي إلى الخلف، وسقطت العصا من يده، وظلت الأفعى ساكنة مكانها، ثم رفعت رأسها بحركة انسيابية، ونظرت إليهما بعينيها المشقوقتين، نظرت إليهما لحظة طويلة باردة كالجليد قبل أن تفتح فمها (كان فمها من الداخل أبيض اللون مخيفاً) وتتقدم نحوهما.

استدارا وركضا يصطدم كل منهما بالآخر (خشيا أن يتعثرا بحفرة، لكنهما كانا خائفين جداً من النظر إلى الأرض)، كانت أقدامهما تضرب الأرض بحذاءيهما الرياضيين، ورائحة الأعشاب التي يدوسانها تفوح حولهما في ذلك الحر كأنها رائحة الخوف نفسه.

كان بينهما وبين الطريق الإسفلتي خندق مليء بمياه قذرة تكسو سطحه بيوض الضفادع، وكانت جدران الخندق الأسمنتية زلقة ومغطاة بالطحالب، وكانت أعرض من أن يستطيعا القفز فوقها، فنزلا في الماء (جعلتهما رائحة مياه الصرف التي تشبه رائحة الأسماك المتعفنة يسعلان بشدة). تمسكت أيديهما بالجدار المقابل، ثم تسلقا الجدار فصارا على الضفة الأخرى، وبعد أن نهضا واقفين، والتفتا كي ينظرا إلى الجهة التي أتيا منها

(والدموع تنهمر على وجهيهما) لم يريا شيئاً غير آثار جريهما بين الأعشاب المتشابكة المصفرة، وخلف ذلك لاحت لهما ألوان كئيبة، ألوان العلبة التي سقطت هناك.

كانا يلهثان من التعب ومحمرين كالشمندر يترنحان كأنهما ثملان، كانا يشعران أنهما على وشك أن يفقدا وعيهما، ولكن الأرض لم تكن آمنة ولا مريحة، ولم يكن على مقربة منهما مكان يستطيعان الجلوس عليه. قُذِف شرغوف كبير بما يكفي ليكون له أرجل، إلى الطريق عند عبورهما الماء، وظل هناك عالقاً ومتلويًا يضرب الأرض بذيله، وجلده اللزج لامع على إسفلت الطريق. كان مشهدًا جعل هاربيت تتقيأ.

كان كل منهما متشبثًا بالآخر لحفظ توازنه دون اهتمام بقواعد السلوك المعتادة في المدرسة (ينبغي أن يحافظا على مسافة قدمين بينهما إلا إذا أراد واحد منهما أن يدفع الثاني، أو أن يسدد إليه لكمة)، لم تعبأ هاربيت بأن تبدو جبانة، ولم يفكر هيلي في تقبيلها أو إخافتها، فبنطالاهما ثقيلان على نحو مزعج لكثرة ما علق بهما من بقايا النباتات والحشرات اللزجة. كانا مبليين، تفوح منهما رائحة مياه الخندق القذرة، وكان هيلي ينحني على نفسه متشنجًا، ويصدر أصواتًا توحى بأنه على وشك التقيؤ.

سألت هاربيت: «هل أنت بخير؟»، وكادت تتقيأ بدورها عندما رأت على كم قميصه بقعة خضراء مصفرة من أحشاء الشراغيف. ظلّ هيلي منحنياً يحاول التقيؤ مرة أخرى كأنه قطعة تحاول إخراج كرة شعر من أحشائها، ابتعد عنها وهم بالعودة لاستعادة العصا والعلبة التي أسقطاها، فأمسكت هاربيت بقميصه المشبع بالعرق، استطاعت أن تقول بصعوبة: «انتظرا!»

جلسا على دراجتيهما ليستريحا دون أن يتحدثا .. كانت دراجة هيلي من نوع «ستينغ راي» ذات المقعد الأصفر والمقبضين المرتفعين كقرني تيس، ودراجة هارييت من نوع «ويسترن فلاير» التي كانت لروبين. كانا يتنفسان بصعوبة، لم يتكلما، وبعد أن هدأت دقات قلوبهما، وابتلع كل منهما رشفة صغيرة من الماء الفاتر ذي الطعم البلاستيكي من مطرة هيلي، عادا إلى الحقل من جديد لكنهما تسلحا هذه المرة ببندقية هيلي.

تحول صمت هيلي المصعوق إلى استعراض درامي، وراح يتكلم بصوت مرتفع وبحركات مسرحية متفاهرة حول كيف سينتقم من تلك الأفعى المائية، وما الذي سيفعله بها عندما يمسكها: سيطلق النار على وجهها، ويلوح بها في الهواء، ويضرب بها الأرض كأنها سوط بيديه، ويقطعها إلى نصفين، ويدهس النصفين معًا بعجلة دراجته، وكان وجهه محمراً وأنفاسه سريعة ضحلة، ومن حين إلى آخر كان يطلق بندقيته على الأعشاب، ويتوقف ليضخ الهواء في بندقيته من جديد .. هف هف هف.

كانا قد تجاوزا الخندق واتجها صوب المنازل قيد الإنشاء، حيث يسهل تسلق الطريق إذا تعرضا لأي تهديد، شعرت هارييت بالصداع، وكانت يداها باردتين ولزجتين. فيما كان هيلي يمشي ذهاباً وإياباً وبندقيته تتأرجح على حزامها فوق كتفه، ويثرثر بلا توقف، ويلوح بقبضته في الهواء دون أن ينتبه إلى البقعة الهادئة بين الأعشاب المتناثرة على بعد أقل من ثلاثة أقدام من حذائه الرياضي، حيث كانت تستلقي أفعى نحاسية الرأس صغيرة في خط مستقيم تقريباً.

قال هيلي: «تلك الحقيبة التي تطلق غازًا مسيلًا للدموع عند فتحها.. فيها رصاصات أيضًا، وفيها سكين تنبثق من جانبها».

شعرت هاربيت بدوار خفيف، كانت تتمنى لو تحصل على دولار عن كل مرة تسمع فيها هيلي يتحدث عن تلك الحقيبة في فيلم «من روسيا مع الحب» التي تطلق الرصاص والغاز المسيل للدموع.

أغمضت عينيها وقالت: «اسمع! لقد أمسكت تلك الأفعى من نقطة بعيدة عن رأسها، كانت ستلدغك».

صاح هيلي بعد صمت قصير غاضب: «اصمتي! هذا خطأك. كنت سأمسكها! لو لم...».

«انتبه! خلفك!»

جثا على الأرض، وحمل بندقيته: «أفعى مائية؟ أين؟ دعيني أراها!»

قالت هاربيت: «هناك»، ثم تقدمت خطوة كي تشير من جديد: «هناك!»، ارتفع الرأس المُستدقُّ للأفعى بحركة عمياء، فبان الجانب السفلي الفاتح لعضلات فكها، ثم عادت إلى وضعها السابق وهي تهتز قليلاً، فقال هيلي بخيبة أمل وهو ينحني لينظر إليها: «ماذا؟ إنها أفعى صغيرة جداً».

قالت: «لا يهم حجمها.. وااااه!». قفزت جانباً بشكل غير متزن لحظة انقضت الأفعى على كاحلها انقضاضاً خاطئاً.

تطايرت حبات الفستق المسلوق كالطرر، ثم طار كيس الفستق كله فوق كتفها وسقط على الأرض، ترنحت هاربيت موشكة أن تسقط بعد أن فقدت توازنها، وراحت تقفز على قدم واحدة.

ظهرت الأفعى النحاسية الرأس مجدداً من مكانها وهاجمتها مرة أخرى (كانت هاربيت قد أضعفتها لحظة، فلم تعلم أين هي). أصابت حذاءها حبة خردق من بندقية هيلي فلم تؤلمها، ولكن حبة أخرى لسعت ريلة ساقها فأطلقت صرخة صغيرة، وقفزت إلى الخلف، راحت حبات الخردق تصيب الأرض من حول قدميها، ولكن الأفعى صارت مستثارة فواصلت هجومها دون هوادة حتى تحت النار، وراحت تهاجم قدمها، وتتقضّ عليها مرة بعد أخرى. هربت هاربيت إلى الإسفلت بخطوات متعثرة، كانت تهذي وتشعر بالدوار في رأسها، مسحت جبهتها بساعدها (ظهرت بقع شفافة تبض أمام عينيها المبهورتين من ضوء الشمس، تتصادم وتتداخل مثلما تظهر وحيدات الخلية في نقطة من ماء البركة عند النظر إليها بالمجهر)، وعندما استعادت رؤيتها الواضحة، أدركت أن الأفعى النحاسية الصغيرة قد رفعت رأسها، وراحت تنظر إليها دون دهشة أو انفعال من مسافة أربعة أقدام. كانت بندقية هيلي قد استعصت في غمرة اضطرابه، فصاح بكلمات لا معنى لها، ثم ألقى البندقية وجرى ليحضر العصا. «انتظر لحظة!»، بذلت جهداً حتى استطاعت التخلص من نظرة عيني الأفعى الجليديتين الواضحتين مثل أجراس الكنيسة، وقالت في نفسها ماذا دهاني؟ وسارت بخطوات متعثرة واهية حتى بلغت وسط الطريق، هل أصبت بضربة شمس؟ لم تدرك من أين أتاها صوت هيلي: «يا إلهي، ماذا بك؟ هاربيت!»

«انتظرا!»، كانت ركبتاها رخوتين وغير ثابتتين كأنهما تخصصان
دمية لا تعرف كيف تحركهما، ودون أن تدرك ما تفعله عادت
أدراجها وجلست على الإسفلت الساخن.

«هل أنت بخير؟»

سمعت نفسها تقول: «اتركني وحدي!»

كان وهج الشمس الأحمر يتلألأ عبر جفنيها المغلقتين، ونظرة
عيني الأفعى لا تزال منطبعة فيهما كأنها صورة نيغاتيف خبيثة:
سواد في موضع الحدقتين، وأصفر حامضي حولهما، وكانت
تتنفس من فمها، وكانت رائحة بنطالها المشبع بماء الصرف
شديدة جداً تحت حرارة الشمس لدرجة أنها شعرت بطعمها،
فجأة أدركت أنها ليست آمنة على الأرض؛ حاولت أن تنهض
بسرعة، لكن الأرض انزلقت من تحت قدميها.

أتاها صوت هيلي من بعيد: «هارييت، ما الخطب؟ أنت
تخيفيني!»

فتحت عينيها بصعوبة، فأسعهما الضياء الأبيض كأن عصير
ليمون رش فيهما، كان شعور الحرارة اللاهبة والعمى والوهن في
ذراعيها وساقها مرعباً.

في اللحظة التالية وجدت نفسها مستلقية على ظهرها. كانت
السماء زرقاء لامعة خالية من السحب، بدا الزمن كأنه تخطى
نصف نبضة، كأنها غفت واستيقظت بحركة مفاجئة في اللحظة
نفسها، ظل ثقيل أظلم رؤيتها. رفعت ذراعيها مذعورة لتغطي
وجهها، لكن الظلام الذي كان يخيم فوقها لم يختف؛ بل تحرك
وضغط عليها بإصرار من الجهة الأخرى.

«هيا، هارييت. إنه مجرد ماء». سمعت الكلمات في الجزء الخلفي من عقلها، لكنها لم تدركها حقًا. ثم بشكل غير متوقع لمس شيء بارد زاوية فمها؛ فانتفضت هارييت فزعة وصرخت بأعلى صوتها.

قال بمبرتون: «أنتما مجنونان، تركبان دراجتيكما إلى هذه المنطقة الفظيعة، لا بد أن الحرارة تجاوزت مئة درجة». كانت هارييت مستلقية على ظهرها في المقعد الخلفي لسيارة الكاديلاك، تراقب السماء وهي تتسارع فوقها عبر غلالة لطيفة من أغصان الأشجار، ويعني وجود الأشجار أنهم غادروا منطقة «مروج السنديان» التي لا ظل فيها، وصاروا الآن في «طريق المقاطعة» القديم.

أغمضت عينيها، كانت موسيقا الروك تتبعث صاخبة من الستيريو؛ وكانت ظلال الأشجار تتحرك متقطعة ومرتجفة فوق اللون الأحمر خلف جفنيها المغلقين.

علا صوت بمبرتون فوق الموسيقا وفوق الريح: «الملاعب فارغة، ولا أحد في المسبح حتى، جميعهم في صالة النادي يتابعون برنامج (حياة واحدة نعيشها)».

في نهاية المطاف كان قرارهم بإحضار نقود معدنية معهم صائبًا، قفز هيلي على دراجته، وقادها بأسرع ما استطاع على الرغم من ضعفه ومن التقلصات في ساقه، كان فعلاً بطوليًا فقد كان في حالة هلع وإعياء من الشمس مثل هارييت، قطع ما يقرب من نصف ميل حتى بلغ الهاتف العمومي في موقف

السيارات عند متجر «جيفي كويك مارت»، بقيت هارييت تنتظره على جمر أربعين دقيقة، كانت تُشوى على الإسفلت في آخر ذلك الطريق المسدود المليء بالأفاعي، كانت مصابة بالدوار ويكاد الحر يقتلها، لدرجة أنها لم تشعر بكثير من الامتنان لما فعله. انتصبت قليلاً في جلستها بما يكفي لرؤية شعر بمبرتون (شعر خشن متقصف بسبب المواد الكيميائية في بركة السباحة) يتطاير إلى الخلف مثل علم أصفر صغير، كانت قادرة على أن تشم رائحته الحادة والمميزة حتى من مكانها في المقعد الخلفي، الرائحة التي تميز الكبار: عرق ذكوري حاد تحت طبقة من زيت التسمير بنكهة جوز الهند ممزوج برائحة السجائر وشيء يشبه البخور.

«لماذا ابتعدتما هذه المسافة كلها حتى مروج السنديان؟ هل تعرفان أحداً هناك؟»

قال هيلي بتلك النبرة الرتيبة الضجرة التي يكلم شقيقه بها: «لا».

«إذن، ماذا كنتما تفعلان هناك؟»

«كنا نصطاد الأفاعي من أجل... توقفي!»، صرخ وهو يرفع يده عندما جذبت هارييت خصلة من شعره.

قال بمبرتون بتكاسل: «لا بأس! إذا كنتما تحبان اصطيد الأفاعي، فذلك هو المكان الصحيح. قال لي واين المسؤول عن أعمال الإصلاح في النادي الريفي إنهم كانوا يبنون بركة سباحة لإحدى السيدات هناك، فقتل طاقم العمل أكثر من خمسين أفعى.. في فناء بيت واحد».

«هل كانت سامة؟»

قال بمبرتون وهو يهز رأسه بازدراء كأنه أمير: «من عساه يهتم بهذا؟ لن أقبل العيش في تلك الحفرة الجهنمية، حتى لو أعطوني مليون دولار، قال لي وأين أيضاً، إن الرجل الذي يرش مبيدات الحشرات وجد ثلاثمئة أفعى مقيمة تحت أحد تلك البيوت القذرة. بيت واحد! وما إن يأتي فيضان كبير لا تستطيع هيئة المهندسين السيطرة عليه، فسوف تلدغ كل سيدة في حفلات النقل هناك».

قال هيلي مزهواً: «لقد أمسكت أفعى مائة».

«حقاً! ماذا فعلت بها؟»

«أطلقتها، تركتها تذهب».

«لا أشك في هذا»، نظر بمبرتون إليه من جانب عينه: «هل

هاجمتك؟»

قال هيلي وهو يتراجع قليلاً في مقعده: «لا».

«حسناً، لا يهمني ما يقوله الناس عن أن الأفعى تخافك أكثر

مما تخافها، هذه الأفاعي المائية شرسة، ستطاردك بلا هوادة،

ذات مرة كنت مع تينغ بيتمون في بحيرة أوكتوبيها فهاجمتنا

أفعى مائية ضخمة؛ أعني.. لم نكن قريبين منها لكنها سبحت

صوبنا من الناحية الأخرى من البحيرة»، حرك بمبرتون يده حركة

متموجة ليحاكي حركة الأفعى، وقال: «لم يكن ظاهراً منها فوق

الماء غير فمها المفتوح، ثم.. بوم، أخذت تتطوح جانب زورقنا

المصنوع من الألمنيوم كأنها كبش ينطح جداراً، وكان الناس

واقفين على المرسى يشاهدون ما يحدث».

قالت هاربيت التي صارت الآن منتصبية في جلستها مائلة صوب المقعد الأمامي: «ماذا فعلتما؟»

«ها، ها أنتِ ذي هنا، يا نَمرة! ظننت أننا سنأخذك إلى الطبيب»، فاجأتها رؤية وجه بمبرتون في مرآة السيارة: شفتان شاحبتان كالطباشير، وكريم أبيض واقٍ من الشمس على أنفه، مع حروق شمسية عميقة، ذكرها شكله بتلك الوجوه المتجمدة في الصقيع في حفلة سكوت التي أقامتها الدببة القطبية في حلمها. قال مخاطبًا صورة هاربيت في المرآة: «إذا.. أنت تحبين اصطلياد الأفاعي».

قالت هاربيت محتجة على أسلوبه المتهمك: «لا»، واستتدت إلى ظهر المقعد.

«لا شيء يدعو للخجل».

«من قال لك إنني خجلت».

ضحك بمبرتون، ثم قال: «أنت قوية، يا هاربيت! أنت بخير، ولكني سأقول لكما إنكما مجنونان لذهابكما حاملين تلك العصي، كان عليكما أن تحصلا على أنبوب طويل من الألمنيوم، وأن تمررا فيه حلقة من حبل الفسيل، ثم تضعان الحلقة فوق رأس الأفعى وتشدان الطرفين، عندها ستكونان قد سيطرتما عليها. يمكنكما وضعها في وعاء زجاجي وإحضارها إلى معرض العلوم، وستبهران الجميع».

(بحركة سريعة، سدّد بيده اليمنى لكمة إلى رأس هيلي)، وقال: «أليس هذا صحيحًا؟»

صرخ هيلي وهو يدعك أذنه غاضبًا: «أخرس».

لم يترك بمبرتون شقيقه ينسى شرنقة الفراشة التي أحضرها إلى معرض العلوم في المدرسة، لقد أمضى ستة أسابيع يعتني بها، يقرأ الكتب، ويدون الملاحظات، ويحافظ على درجة الحرارة المناسبة، ويقوم بكل ما هو مطلوب، ولكن عندما أحضر الشرنقة إلى المدرسة يوم معرض العلوم موضوعة بعناية في علبة مجوهرات فوق قطعة من القطن، اتضح أنها لم تكن شرنقة على الإطلاق بل قطعة متحجرة من فضلات القطط.

قال بمبرتون رافعاً وقد رفع صوته أعلى من سيل الشتائم الساخطة التي أطلقها هيلي عليه: «لعلك ظننت أنك أمسكت بأفعى مائية! ربما لم تكن أفعى إطلاقاً! بل قطعة كبيرة من روث كلب ملتفة بين الأعشاب، يمكن أن تبدو تمامًا كأنها...». صاح هيلي: «.. كأنها أنت»، وانهارت لكلماته على كتف شقيقه.

قال هيلي: «قلت لك أن تتسي الأمرا هل نحن متفقان؟»، بدا له أنه يقولها للمرة العاشرة.

كان هو وهارييت في الناحية العميقة من بركة السباحة ممسكين بحافتها، وكانت الظلال قد ازدادت طولاً في فترة ما بعد الظهر، وكان هناك خمسة أطفال صفار أو ستة أطفال يصيحون ويلعبون في الناحية الضحلة من البركة، متجاهلين أهمهم المدينة التي كانت تسير بجانب المسبح تتوسل إليهم أن يخرجوا، وعلى الجانب القريب من البار كانت مجموعة من فتيات المدرسة الثانوية يرتدين البكيني مستلقيات على كراسي الاسترخاء، وقد وضعن المناشف على أكتافهن وكن يضحكن ويتحدثن.

إنه يوم عطلة بمبرتون، كان هيلي نادرًا ما يسبح عندما يكون بمبرتون منقذًا لأنه كان دائمًا يضايقه، يطره بالإهانات والأوامر غير العادلة من كرسيه المرتفع (مثل «لا تركض بجانب المسبح!») مع أن هيلي لا يكون يركض، بل يسير بسرعة فقط)، لذلك كان حريصًا على التحقق من جدول بمبرتون الأسبوعي المعلق على الثلاجة قبل الذهاب إلى المسبح، وكان ذلك مزعجًا لأن هيلي كان يريد السباحة كل يوم في الصيف.

تمتم هيلي وهو يفكر في بمبرتون: «غبي»، كان لا يزال غاضبًا لأن بمبرتون ذكر قصة روث القطعة ومعرض العلوم.

نظرت إليه هاربيت نظرة فارغة خالية من أي تعبير، كان شعرها المبلول ملتصقًا برأسها، وقد جعلتها أشعة الضوء المتراقصة على وجهها تبدو صغيرة العينين وقبيحة. كان هيلي يشعر بالضيق منها طوال فترة الظهيرة، ودون أن يلاحظ ذلك تحول شعوره بالإحراج وعدم الارتياح إلى استياء منها. والآن أحس بموجة من الحنق الشديد، لقد ضحكت هاربيت مثلما ضحك الآخرون يوم تلك الحادثة؛ ضحكت مثلما ضحك المعلمون والحكام، وكل من كان حاضرًا في معرض العلوم، وكان تذكره هذا الأمر كافيًا ليغلي من جديد.

كانت لا تزال تنظر إليه، فحدق إليها بعينين مستكترتين، وقال لها: «ما الذي تنظرين إليه؟»

دفعت هاربيت نفسها بعيدًا عن جانب المسبح، وقامت بشقلبة إلى الخلف تحت الماء بحركة متباهية، فكّر هيلي بسخرية: حركة مدهشة! بعد قليل ستأتي وتطلب منه أن ينافسها في حبس

الأنفاس تحت الماء.. كان هيلي يكره هذه اللعبة لأنها كانت جيدة فيها وهو لم يكن كذلك.

عندما خرجت من الماء، تظاهر بأنه لم يلاحظ أنها منزوعة، وبحركة لا مبالية رشها بحفنة ماء، كان تسديده دقيقاً فأصابها في عينيها مباشرة.

راح يغني بصوت ساخر يعلم أنها تكرهه:

«أنظر الآن إلى كلبى الميت روفر⁽¹⁾»

كلبي الذي لم أكن مهتماً به

فقد كلبى ساقه

مكتبة

t.me/soramnqraa

ضاعت ساق كلبى...»

«إذا، لا تأتِ معي غداً، سأذهب وحدي».

تابع هيلي غناءه بالقرب منها متجاهلاً كلامها:

«ساقه مرمية بين الأعشاب...».

ردت هاربيت بصوت غاضب: «لا يهمني إذا أتيت أم لا.»

رفرفت عيناه: «على الأقل أنا لا أسقط على الأرض، وأبكي

مثل طفل صغير بدين.. أوه، هيلي! أنقذني! أنقذني!». رفع صوته

مع الكلمات الأخيرة فتعالت ضحكات فتيات المدرسة الثانوية

عند الناحية الأخرى من بركة السباحة.

(1) أغنية "My Dead Dog Rover" هي محاكاة ساخرة لأغنية "I'm Looking Over a Four Leaf Clover" التي أصدرت عام 1927. تُروى في هذه الأغنية الفكاهية قصة شخص دهمس كلبه الأليف روفر عن طريق الخطأ باستخدام جزاة العشب؛ ما أدى إلى تآثر أجزاء الكلب في أنحاء الحديقة. تُستخدم هذه الأغنية غالباً في المخيمات الكشفية كأغنية مرحة، على الرغم من محتواها المأساوي الساخر.

دفقة ماء أصابت وجهه، فبادلها رش الماء بقبضته بمهارة، وأخفض رأسه ليتفادى دفقات الماء التي تستهدفه، ثم قال بصوت طفولي: «هاريت! أنت، يا هاريت!». شعر بسعادة غامرة، لا يعرف سببها، لأنه نجح في إغضاها: «فلنلعب لعبة الحصان! سأكون في المقدمة، وأنت تكونين كما أنت».

قفز في الماء قفزة المنتصر (كي يتفادى انتقامها)، وسبح إلى منتصف المسبح مثيراً قدرًا كبيراً من الضجيج ومن رذاذ الماء، وكانت حروق الشمس على وجهه تلسع بشرته، والكلور في المسبح يحرق وجهه كأنه حمض، ولكنه كان قد شرب خمس زجاجات كوكا كولا ذلك العصر (ثلاثة عند وصوله إلى البيت مرهقاً ظمآن، واثنان مع الثلج المجروش اشتراها من الكشك في المسبح)، كانت أذناه تطنّان، والسكر يتدفق في دمه سريعاً وعالياً، شعر بالإثارة، في الماضي كانت شجاعة هاريت تسبب له الخجل، لكن على الرغم من أن مطاردة الأفعى قد أرعبته مؤقتاً، وجعلته يهذي ويشعر بالخوف الشديد فإن شيئاً ما في داخله كان يحتفل بالإغماء التي أصابتها.

طفأ على السطح بحماسة، يبصق الماء ويضرب بقدميه ليبقى طافياً. عندما رمش ليزيل لسعة الكلور من عينيه، أدرك أن هاريت لم تعد في المسبح. ثم رآها، على مسافة بعيدة، تمشي بسرعة نحو غرفة تبديل ملابس السيدات خافضة رأسها، وآثار قدميها الرطبتين متعرجة على الأرض الأسمنتية من خلفها.

صاح: «هاريت!»، فملاً الماء فمه لقلّة انتباهه، ونسي أنه في الجزء العميق من البركة.

كانت السماء رمادية بلون ريش الحمام، وكان هواء المساء مشبعًا بالرطوبة ومريحًا، سارت هاربيت على الرصيف، كانت أصوات الأطفال الصغار في الناحية الضحلة من المسبح تصل إليها خافتة، هبت نسمة خفيفة فسرت قشعريرة في ذراعيها وساقها، شددت عليها منشفتها، وسارت نحو البيت بخطى سريعة. انعطفت سيارة ممتلئة بفتيات المدرسة الثانوية عند زاوية الشارع؛ إنهن الفتيات الناشطات في النوادي اللواتي يفزن في كل انتخابات تجري في صف أليسون: ليزا ليفيت الصغيرة، وبام ماكورنيك ذات الشعر الداكن الذي تربطه خصلة واحدة خلف رأسها، وجنجر هيريت التي فازت في مسابقة الجمال، وسيسي آرنولد التي لم تكن بجمال الأخريات، لكنها كانت تتمتع بنفس شعبيتهن. كانت وجوههن تطل باسمه من كل صفحة في كتاب المدرسة السنوي.. فتيات يعشقهن تلامذة الصفوف الأدنى جميعًا كأنهن نجومات الأفلام، يقفن منتصرات عند حافة ملعب كرة القدم على العشب المضاء بالأضواء الصفراء، مرتديات ملابس المشجعات المزركشة مع قفازات طويلة ومعاطف من أجل العودة إلى البيت، تراهن غارقات في الضحك فوق واحدة من أراجيح السيرك، أو متمايلات فرحات على عربة قش في شهر أيلول... وبصرف النظر عن تنوع الملابس من رياضية إلى عادية إلى رسمية فهن مثل دُمى لا تتغير ابتساماتها وتسريحاتها.

لم تعر أيُّ منهن هاربيت أدنى التفات، ظلت هاربيت محدقة إلى الرصيف في أثناء مرورهن وسط عاصفة صاخبة من موسيقا البوب.. كانت وجنتاها ملتهبتين بالغضب وشعور غامض

بالعار، لو كان هيلي برفقتها، لأبطأن قليلاً بلا شك وصحن ببضع كلمات لأن ليزا وبام معجبتان بممبرتون لكنّ الحقيقة أن أيًا منهنّ لا تعرف هاربيت حقًا، مع أنهنّ يدرسن في الصف نفسه مع أليسون منذ أيام الحضانة، تلك الأيام التي خلّدتها الصور على لوحة بجانب سرير أليسون في البيت.. صورة لأليسون تلعب «جسر لندن» مع بام ماكورنيك وليزا ليفيت، وأخرى لها مع جنجر هيربت.. يظهران فيها أنهما صديقتان ضاحكتان، أنفاهما محمران، وأيديهما متشابكة في فناء أحد المنازل الشتوي وقت الشتاء، كانت بطاقات الفالنتين مكتوب عليها بقلم رصاص: «عناقان وقبلتان من أجلك، أحبك، جنجر!»

لكن الآن بات من الصعب التوفيق بين تلك المشاعر البريئة وبين أليسون الحالية وجنجر الحالية التي أصبحت ترتدي قفازات أنيقة، وتحدد شفّتيهما بدقة، وتلبس فستانًا من الشيفون لتلتقط الصور تحت قوس من الزهور الصناعية، وعلى الرغم من أن أليسون لا تقل جمالاً عن أي واحدة منهن، بل قد تتفوق عليهن كثيرًا، خاصة على سيسى آرنولد ذات الأسنان الطويلة التي يشبه جسدها ابن عرس، فإنها تحولت من صديقة الطفولة والزميلة القريبة إلى فتاة لا يُذكر اسمها إلا عندما يحتجن إليها في أداء الواجبات المدرسية.

والأمر نفسه حدث مع أمها؛ فقد كانت واسعة الشعبية وناشطة في جمعية الفتيات، وسبق أن انتُخبت الفتاة «الأكثر أناقة» بين زميلاتهن، وكان لها أيضًا عدد كبير من الأصدقاء والصديقات الذين ابتعدوا عنها تدريجيًا، حتى عائلتي ثورنتون وبومونت اللتين

كانتا تأتيان كل أسبوع للعب الورق مع أهل هارييت، وكانتا تذهبان معهم لقضاء العطلات على ساحل الخليج، لم يعودوا يزورونهم حتى عندما يكون والد هارييت في البلدة، ولكنهم عندما يلتقون والدة هارييت في الكنيسة كانوا يتظاهرون بالصداقة والمودة ويكثرون من المجاملات السطحية.. الأزواج يبالغون في الترحيب، والنساء يرحبن بها ببهجة وصخب، ولكن لا أحد منهم ينظر إليها وجهاً لوجه. صارت جنجر وبقية الفتيات أيضاً يعاملن أليسون بالطريقة نفسها في باص المدرسة: ثرثرة وضحكات، ولكن الأعين لا تتلاقى.. كأن لديها مرضاً وتخشى الفتيات أن يلتقطن العدوى منها.

كانت هارييت تنظر إلى الرصيف شاردة في أفكارها، عندما قاطع أفكارها صوت غرغرة. كان كيرتس راتليف المسكين المتأخر عقلياً -الذي كان يتجول في شوارع ألكسندريا بلا انقطاع خلال الصيف وهو يرش القطط والسيارات بمسدسه المائي- يترنح عبر الطريق نحوها، عندما رآها تنظر إليه، اتسعت ابتسامته على وجهه المذهول.

«قبعة!» لوّح بيديه الاثنتين فتمايل جسده كله من شدة اندفاعه، ثم راح يقفز في مكانه صعوداً وهبوطاً بكلتا قدميه معاً كأنه يدوس ناراً مشتعلة: «كلها بيضاء! كلها بيضاء!»

قالت هارييت كي تسرّه: «مرحباً يا تمساح!»، كانت تعرف أن كورتيس اعتاد وقتاً طويلاً أن ينادي كل شيء وأي شخص يراه بـ«تمساح»، سواء كانت معلمته أم حذاءه أم حتى باص المدرسة.

«كلها بيضاء؟ كلها بيضاء، قبة؟» كان من الواضح أنه لن يهدأ حتى يحصل على إجابة!

قالت بصوت مرتفع كي يسمعها بوضوح: «شكراً يا كورتيس! أنا في أحسن حال» صحيح أن كورتيس لم يكن أصم ولكنه يعاني صعوبة في السمع، وينبغي أن يتذكر المرء رفع صوته عندما يكلمه.

اتسعت ابتسامة كورتيس، كان جسده المترجرج وهيئته الطفولية الحلوة الغامضة يشبهان شخصية «الخلد» في «ريح بين أشجار الصفصاف».

قال لها: «أحب الكيك».

«كورتيس.. أليس من الأفضل لك ألا تتجول في الشارع؟» توقف كورتيس فجأة، ووضع يده على فمه، ثم صاح: «آه، أوه!»، ثم صاح من جديد: «آه، أوه!»، وراح يقفز في الشارع بقدميه كأنه مهر صغير أو كمن يقفز فوق خندق.. وعندما وصل إلى حافة الرصيف قبالتها قال: «آه، أوه!»، ثم غطى وجهه بيديه وغرق في ضحك شديد.

قالت هاربيت: «عفواً! أنت تعترض طريقي».

نظر إليها من خلال أصابعه المتباعدة، وكانت ابتسامته عريضة جداً، فبدت عيناه الداكنتان مثل شقين ضيقين. وعلى نحو غير متوقع، قال لها: «الأفاعي تلدغ».

فوجئت هاربيت، كان كلامه غير واضح بسبب مشكلة السمع لديه، ظنت أنها لم تسمعه جيداً أو أنه قال شيئاً آخر، ولكن الأمر اختلط عليها.

وقبل أن تتمكن من سؤاله، تهدد كورتيس وأطلق زفرة كبيرة جادة، ثم دسّ مسدسه المائي في حزام بنطاله الجينز الجديد الذي لا يزال قاسياً، وأمسك يدها ودفنها في كفه الكبيرة الدبقة. قال مسروراً: «تلدغ»، وأشار إلى نفسه ثم إلى البيت المقابل، ثم استدار وقفز من الرصيف إلى الشارع، في حين كانت هاربيت التي توترت قليلاً ترمش بعينيها نازرة إليه، وتشد منشفتها على كتفيها.

لم تدرِ هاربيت أن الأفاعي السامة كانت أيضاً موضوعاً للنقاش في مكانٍ لا يبعد عن مكان وقوفها أكثر من ثلاثين قدماً: في شقة في الطابق الثاني في منزل خشبي قائم على الناحية الأخرى من الشارع، هو واحد من عقارات كثيرة للإيجار في ألكساندريا يملكها روي دايال.

لم يكن المنزل مميزاً بشيء: بيت أبيض اللون، من طابقين، على جانبه سلم خشبي ضيق يُتيح مدخلاً مستقلاً للطابق الثاني. أنشأ السيد دايال هذا السلم بعد أن أغلق السلم الداخلي، ليحول المبنى الذي كان يوماً منزلاً واحداً إلى شقتين للإيجار، وقبل أن يشتريه السيد دايال ويقسمه إلى شقتين كان البيت ملكاً لسيدة عجوز من الكنيسة المعمدانية اسمها آندي ميري آنفورد، وهي محاسبة متقاعدة من شركة الأخشاب.

في أحد أيام الأحد الماطرة، انزلقت السيدة آندي في ساحة وقوف السيارات التابعة للكنيسة فانكسر حوضها، تولى السيد دايال الاهتمام بها (الذي كان رجل أعمال مسيحياً يهتم

برعاية المرضى والعجائز خصوصًا الموسرين الذين ليس لديهم عائلة تعتني بهم)، صار يزورها يوميًا حاملًا معه عبوات الحساء المملب، ويصطحبها في نزعات ريفية، ويوفر لها كتبًا للقراءة وفاكهة الموسم، ويأتيها بكتب للقراءة وبفاكهة الموسم، عرض عليها خدماته النزيهة: أن يدير عقاراتها، ويصير وكيلًا قانونيًا عنها.

ولما كان السيد دايال الملتزم واجباته الدينية يضع مكاسبه المتنامية في حساباته في مصرف الكنيسة المعمدانية الأولى، فقد كان يرى أن أفعاله مبررة تمامًا. أليس يُقدّم لتلك الأرواح المسكينة راحة ورفقة مسيحية؟ أحيانًا كانت «السيدات» (مثلما يدعوهن) يتركن له عقاراتهن كلها امتنانًا لاهتمامه الدافئ، ولكن السيدة آندي ميري -التي أمضت خمسة وأربعين عامًا تعمل في المحاسبة- كانت كثيرة الشكوك بسبب طبعها ومهنتها، فاكتشف السيد دايال بعد موتها أنها استعانت دون علمه بمحام من ممفيس (تصرف مخادع جدًا وفق رأيه) وكتبت وصية تبطل تمامًا تلك العقود الخطية غير الرسمية التي اقترحها عليها السيد دايال في جلساته معها بجانب سريرها في المستشفى وهو يربت على يدها بلطف.

ربما لم يكن السيد دايال ليشتري منزل آندي بعد وفاتها (فقد كان ثمنه باهظًا) لولا اعتياده عليه خلال فترة مرضها الأخيرة، فسّم المبنى إلى شقتين، وقطع أشجار جوز البيكاني وأجمات الورد (قطعها لأن وجود الأشجار والشجيرات يعني نفقات صيانة إضافية)، وأجر الطابق الأول مباشرة، فأسكن فيه

مبشرين شابين من طائفة المورمون، مرت عشر سنوات منذ ذلك الحين ولا يزال هذان المبشران يعيشان في الشقة على الرغم من فشلهما المستمر في إقناع أي من سكان ألكساندريا باعتناق مذهب يسوعهم في ولاية يوتا، الذي يتقبل تعدد الزوجات.

كان الشابان المورمونيان مؤمنين بأن كل من ليس على مذهبهما مآله الجحيم، وكان السيد دايل يحب أن يقول مازحًا كلما ذهب إليهما لاستلام الإيجار في بداية الشهر: «أنتما واثقان بأن نهايتنا ستكون كذلك!»، وكان لا يمل من تكرار هذه المزحة أمامهما، لكنهما كانا شابين نظيفين مهذبين، وكانا يتجنبان الحديث في الأمور الجدلية مع الناس إذا لم يضطرا إلى ذلك، كانا أيضًا يمتنعان عن شرب الكحول وتدخين التبغ، ويسددان فواتيرهما في وقتها.

ولكن المشكلة كانت في الطابق العلوي، رفض السيد دايل إنفاق المال على تركيب مطبخ إضافي؛ ما جعل من الصعب إيجاد مستأجرين له إلا إذا كانوا من السود، خلال عشر سنوات أصبح الطابق الثاني أستوديو تصوير، ثم صار مقر فرقة الكشافة للبنات، ثم حضانة أطفال، ثم صالة عرض، ثم سكنته عائلة كبيرة من الأوروبيين الشرقيين الذين أسكنوا أقاربهم وأصدقائهم معهم فور أن أدار السيد دايل ظهره، وكادوا يحرقون المبنى بأسره بموقد لإعداد الطعام.

في تلك الشقة العلوية كان يقف يوجين راتليف الآن.. في الغرفة الأمامية حيث لا تزال على أرضية اللينيوم وورق الجدران بقع كبيرة متفحمة من حادثة الموقد تلك، وكان يمرر يده على

شعره بطريقة متوترة (كان يضع الجمل على شعره ويسرحه إلى الخلف كما كان سائداً أيام مراهقته) وينظر من النافذة متابعاً شقيقه الصغير المتخلف الذي نزل من الشقة قبل قليل، وراح يضايق طفلة ذات شعر أسود وجدها في الشارع. على أرض الشقة خلفه، كان لديه أكثر من عشرة صناديق ديناميت فيها أفاع سامة: أفاعي الغابات ذات الجرس، وأفاعي القصب ذات الجرس، وأفاعي الماس الشرقية، وأفاع مائية، وأفاع نحاسية الرأس، وفي صندوق منفصل كانت لديه أفعى كوبرا ملكية واحدة جيء بها من الهند.

كانت هناك لافتة مستتدة إلى الجدار تحجب بقعة محترقة فيه مكتوبة باليد صنعها يوجين بنفسه، ولكن مالك البيت السيد دايل أجبره على إزالتها من فناء البيت الأمامي:

بعون من الرب الرحيم: نتمسك بالدين البروتستانتى وننشره، ونعمل على تنفيذ جميع قوانيننا المدنية، أيها المهرب، ويا بائع المخدرات، أيها المقامر، أيها الشيوعي، أيها المخرب للمنازل، وكل من يخرق القانون: يعلم الرب رقم هاتفك، وهناك ألف عين تراقبك. من الخير لكم أن تغيروا أعمالكم قبل أن تتعقد محكمة المسيح. رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، 7: 4. هذه تعليمات صارمة من أجل الحياة الطاهرة وقداسة بيوتنا.

صورة العلم الأميركي ملصقة تحت هذه الكلمات، ثم تليها: اليهود وجماعاتهم، الذين هم أعداء المسيح، سرقوا زيتنا وأملاكنا. سفر الرؤيا 18: 3. سفر الرؤيا 18: 11-15. المسيح يوحدنا. سفر الرؤيا 19: 17.

انضم ضيف يوجين إليه عند النافذة، شاب نحيل ذو ملامح ريفية، حاد النظرات وأذناه بارزتان إلى جانبي رأسه، يناهز الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين من العمر، لقد بذل هذا الشاب قصارى جهده لتسريح شعره القصير النافر، ولكن خصلاته المتمردة ظلت منتصبة على رأسه.

نظر إلى كورتيس وقال: «لقد أهرق المسيح دمه من أجل الأبرياء أمثاله». كانت ابتسامته جامدة تشبه ابتسامة المؤمنين المتعصبين الذين يظنون أنهم مباركون، ابتسامة ينبعث منها الأمل أو الحماسة.. بحسب الطريقة التي تنظر بها إليها.

قال يوجين بصوت آلي: «فليتقدس الرب!». كان يوجين يكره الأفاعي سواء كانت سامة أم لا، ولكنه افترض (لسبب ما) أن تلك الأفاعي التي على الأرض خلفه، قد استخلص سمها أو صارت بطريقة ما غير مؤذية.. وإلا فكيف يستطيع هذا الواعظ القادم من التلال أن يقبل الأفاعي ذات الجرس على أفواهها، ويضعها داخل قميصه، ويعرضها في الكنائس ذات السقوف المعدنية، مثلما يقولون إنه يفعل؟ لم يحدث يومًا أن رأى يوجين بعينه استخدامًا للأفاعي في قدايس دينية (الواقع أن استخدام الأفاعي كان أمرًا نادرًا حتى في الجبال القريبة من مناجم الفحم في كنتاكي.. الموطن الذي أتى منه زائره)، لكنه رأى كثيرين من رواد الكنائس تتلجلج ألسنتهم، ويصابون بنوبات تجعلهم يسقطون على الأرض ويتلوون، رأى طرد الشياطين عن طريق صفع جباه من يعانون المس، ورأى أرواحًا نجسة تخرج مع السعال كتلاً دامية من بصاق، وقد شهد بنفسه كيف تكون المباركة بوضع

الأيدي على الرؤوس، تلك المباركة التي تجعل الأعرج يمشي والأعمى يبصر، وذات مساء شاهد في قداس على ضفة النهر أقامه أتباع الكنيسة الخمسينية على مقربة من بيكينز في ولاية ميسيسيبي واعظاً أسود اسمه سيفيل ديل ماكاليستر يُحيي امرأة بدينة مرتدية بذلة خضراء اللون بعد موتها.

قبل يوجين مشروعية هذه الظواهر، تماماً كما كان هو وإخوانه يقبلون استعراضات «الاتحاد الدولي للمصارعين المحترفين»، من طقوس وقتال، ولا يهمهم كثيراً إذا كانت بعض المباريات مزورة، ولا شك في أن كثيرين ممن يأتون بالأعاجيب باسم الرب كاذبون؛ فهناك جحافل من المخادعين متأهبين في انتظار الفرص للاحتيال على إخوانهم من البشر، بل إن يسوع نفسه كان يدينهم.. ولكن، حتى إذا كان خمسة في المئة فقط ممن يزعمون الإتيان بمعجزات المسيح التي شهداها يوجين نفسه صادقين، أفلا تظل هذه النسبة أعجوبة؟ كان إخلاص يوجين لخالفه بيئاً لا يتزعزع، كان إخلاصاً يسوقه الخوف، وما من شك في قدرة المسيح على أن يعتق المحبوسين والمظلومين والظالمين والسكارى والحاquدين والحزانى، ولكن الولاء الذي يطلبه مطلق، لأن انتقامه أسرع من رحمته.

كان يوجين واحداً ممن ينشرون كلمة الرب مع أنه لم يكن يتبع كنيسة بعينها، يتلو مواظله على كل من له أذنان يسمع بهما، تماماً على غرار الأنبياء وعلى غرار يوحنا المعمدان، ولكن الرب لم يرَ مناسباً أن ينعم عليه بجاذبية ولا بقدرات خطابية، على الرغم من إيمانه الوافر، بل إن العقبات التي كانت تواجهه أحياناً

حتى بين أحضان عائلته كانت تبدو مستعصية، ولما كان مرغماً على أن يعطى البشرية في مستودعات مهجورة وعلى حافة الطريق السريع، فقد كان معنى هذا أن يعمل بين أشرار الأرض من غير أن يتذوق طعم الراحة.

لم يكن استدعاء هذا الواعظ الآتي من التلال فكرة يوجين نفسه، فقد رتب شقيقاه فاريش وداني الزيارة («لمساعدتك في مهمتك») بعد همسات ونظرات خفية وكلام خافت في المطبخ جعلت يوجين يشعر بالريبة. لم يكن يوجين قد رأى الزائر من قبل، كان اسمه لويال ريزي الأخ الأصغر لدولفوس ريزي الذي هو مجرم وضيع من كنتاكي عمل مع يوجين قِيماً على صالة غسل الملابس في سجن بارتشمان التأديبي، عندما كان يوجين وفاريش يقضيان عقوبتهما أواخر الستينيات بسبب تهمة سرقة سيارات. لن يخرج دولفوس أبداً، فهو محكوم بالسجن المؤبد بتهمة الابتزاز والقتل العمد التي كان يزعم أنه لم يكن مذنباً بها وأنها لفقت ضده.

كان دولفوس وفاريش (شقيق يوجين) صديقين حميمين، ومتشابهين جداً، وكانا لا يزالان على تواصل، وكان يوجين يشعر بأن فاريش الذي أصبح خارج السجن الآن يساعد دولفوس في بعض أعماله الإجرامية داخل السجن. كان دولفوس طويل القامة ستة أقدام وستة إنشات، يستطيع قيادة سيارة ببراغة مثل «جونيوور جونسون»، ويزعم أنه يستطيع قتل رجل بيديه العاريتين بست طرائق مختلفة، ولكن على عكس فاريش الكتوم والعبوس، كان دولفوس متحدثاً بارعاً.

كان دولفوس الخروف الأسود الضال في عائلة من الواعظين الأجلاء، واعظين تعود جذورهم إلى ثلاثة أجيال، وكان يوجين يعيش سماع دولفوس يروي -على وقع ضجيج الغسالات الصناعية الضخمة في مفسلة السجن- حكايات عن طفولته في كنتاكي؛ الغناء على زوايا الشوارع في بلدات مناجم الفحم الجبلية وسط عواصف ثلجية في أعياد الميلاد؛ التنقل في حافلة مدرسية قديمة متهاكة كان والده يدير منها خدمته الكنسية، عاشت فيها الأسرة كلها شهوياً متتالية، يتناولون لحمًا معلبًا مباشرة من العلب، وينامون على أكياس الذرة المكومة في آخر الباص، والأفاعي الجرسية في أقفاص تفح تحت أقدامهم. كانوا ينتقلون من بلدة إلى أخرى هاربين من رجال الشرطة، يعقدون قداديس دينية تحت الأشجار وصلوات منتصف الليل المضيفة بمشاعل البنزين.

كان الأطفال الستة يصفقون ويرقصون على إيقاع الدفوف وعزف أمهم على الغيتار الذي اشتريته من «سيرز روباك»، فيما كان والدهم يشرب سم الستريكنين من جرة زجاجية، ويلف الأفاعي الجرسية حول ذراعيه وعنقه وخصره مثل حزام حي، وأجساد الأفاعي المليئة بالحراشف تتحرك صعوداً مع الموسيقى كأنها تتسلق الهواء، كان يعظ بلغة غير مفهومة؛ يضرب الأرض بقدميه ويرتجف من رأسه إلى أخمص قدميه مردداً طوال الوقت عن عظمة الله الحي وآياته ومعجزاته وعن رهبة محبته الهائلة. كان يوجين قد سمع حكايات كثيرة عن ريزي في السجن، وكيف كانوا يتركونه لينام بين الأفاعي عندما كان رضيعاً، كان

يدرب الأفاعي مذ كان في الثانية عشرة، كان يبدو بريئاً مثل عجل صغير بأذنيه الكبيرتين الريفيتين وشعره المسرح للخلف فيما تشع من عينيه البنيتين سكيئة مباركة. على حد علم يوجين لم يتورط أحد من عائلة دولفوس (باستثناء دولفوس نفسه) في مشكلات مع القانون لسبب آخر سوى ممارساتهم الدينية الغريبة، لكن يوجين كان مقتنعاً بأن شقيقه الشريرين والساخرين (الذين كانا متورطين في تجارة المخدرات) لديهما دوافع خفية من ترتيب هذه الزيارة لأصغر أشقاء دولفوس تتجاوز مجرد إزعاج يوجين وإثارة ضيقه، كان شقيقاه كسولين، وعلى الرغم من حبهما لتعكير صفوه، لن يبذلاً كل هذا الجهد لاستدعاء ريزي الشاب مع جميع أفاعيه لمجرد مزحة.

وأما ريزي الشاب نفسه صاحب الأذنين الكبيرتين والجلد القبيح فقد بدا ليوجين شخصاً لا يثير أي ريبة، يملؤه الأمل، وقد نذر نفسه لدعوته، ومع ذلك بدت عليه حيرة طفيفة بسبب الترحيب الحذر الذي لقيه من يوجين.

من النافذة كان يوجين يراقب شقيقه الصغير كورتيس وهو يقفز من الرصيف إلى الشارع، لم يطلب هذه الزيارة؛ كان يشعر بالحيرة بشأن كيفية التعامل مع الأفاعي المحبوسة التي تصدر فحيجاً مزعجاً في شقيقه، كان يتخيل أنها ستكون محبوسة في صندوق سيارة أو في مستودع في مكان ما، وليست مقيمة في شقيقه نفسها مثلما يقيم الضيوف، فعندما وصل زائره وقف يوجين ينظر إليه مصعوقاً وهو ينقل تلك الصناديق المغطاة بالقماش واحدة تلو الأخرى بصعوبة صاعداً بها الدرج.

سأله على حين غرّة: «لماذا لم تخبرني أن هذه الأفاعي لم ينزع السم منها؟»

بدت الدهشة على شقيق دولفوس الأصغر، فقال: «لا يتفق ذلك مع الكتاب المقدس»، وقد كانت لهجته الريفية الجبلية حادة مثل لهجة دولفوس لكنها خالية من السخرية المزعجة أو التودد المصطنع، أضاف: «في طقوسنا نتعامل مع الأفاعي مثلما خلقها الرب».

قال يوجين باقتضاب: «كان من الممكن أن تلدغني». «لن يحدث ذلك إن كانت لديك مسحة ربانية، يا أخي!» استدار مبتعداً عن النافذة فواجه يوجين بالكامل، وأجفل يوجين قليلاً من نظرتة الثاقبة.

«اقرأ أعمال الرسل» يا أخي! اقرأ الكتاب المقدس! إنها علامة على النصر ضد الشيطان في الأيام الأخيرة، تمامًا مثلما كان أيام الإنجيل.. وهذه الآيات تصف المؤمنين: يحملون حيات، وإن شربوا شيئاً قاتلاً⁽¹⁾..». «هذه الحيوانات خطيرة».

«يده صنعت الأفعى، يا أخي، تمامًا مثلما صنعت الحمل الصغير».

لم يرد يوجين، كان قد دعا كورتيس شقيقه الساذج لانتظار ريزي معه في الشقة، ولما كان كورتيس شديد الجراءة يشور ويغمغم دون فائدة ويهرع للدفاع عمن يحبهم عندما يظن أن أحباءه في

(1) "يحملون حيات، وإن شربوا شيئاً مميتاً، لا يضرهم، ويضعون أيديهم على المرضى فيبرؤون" إنجيل مرقس (16:18)

خطر فكر يوجين في إخافته بالتظاهر بأن أفعى قد لدغته، ولكن المزحة انقلبت على يوجين نفسه، الآن شعر بالخجل من الخدعة التي حاول إيقاع شقيقه فيها، خصوصًا أن كورتيس استجاب بهلع وتعاطف عندما صرخ يوجين مذعورًا عندما لفت الأفعى ذات الجرس على نفسها، وهاجمت شبكة الصندوق الواقية، ورشت سمها على يد يوجين. راح كورتيس يداعب ذراع يوجين ويسأله مهتمًا: «لدغت؟ لدغت؟»

قال الشاب فجأة مشيرًا إلى وجه يوجين: «العلامة التي على وجهك، يا أخي».

«ما بها؟» كان يوجين يشعر بالحرج من ندبة الحرق الحمراء البشعة على وجهه، ولم يكن يحب أن يذكره الغرباء بها. «أليست هذه من العلامات التي تلقيتها؟»

قال يوجين باقتضاب: «إنها حادثة». كانت الإصابة ناجمة عن مزيج من الصودا الكاوية ودهون الطهي التي تُعرف في مصطلحات السجون بـ«كريم أنغولا البارد»، ألقاها في وجه يوجين شخص يُدعى وينز، سجين صغير شرس من «كاسيلا في ولاية ميسيسيبي» كان محتجزًا بتهمة اعتداء عنيف، وذلك بسبب شجار حول علبة سجائر.

وفي أثناء تعافي يوجين من هذا الحرق، ظهر له الرب في عتمة الليل، وأبلغه برسائله في هذا العالم، فخرج يوجين من السجن بعد أن استعاد بصره، وصار مستعدًا للصفح عمّن اعتدى عليه، ولكن وينز كان قد مات: سجين ناقم آخر حُزَّ عنقه بشفرة حلاقة مثبتة إلى نهاية أنبوب معجون الأسنان، فما كان من شأن

هذا إلا أن عزز إيمان يوجين الجديد بقوة العناية الإلهية العظيمة. قال له لويال: «كل من يحبونه يحملون علامته»، ثم رفع يديه المليئتين بالندوب والتشوهات؛ كانت إحدى أصابعه (عليها بقع سوداء) مقطوعة عند قممتها، وإصبع أخرى مقطوعة من أصلها. قال لويال: «المسألة هي أننا ينبغي أن نكون مستعدين للموت من أجله مثلما كان مستعداً للموت من أجلنا، وعندما نحمل الثعبان القاتل بين أيدينا باسمه هو، نُظهر حبنا للرب كما أظهر حبه لنا».

تأثر يوجين، كان إخلاص الفتى واضحاً.. ليس مُدّعياً، بل رجلاً يعيش إيمانه، ويبذل حياته من أجل المسيح مثل شهداء الأزمنة القديمة، لكن فجأة قاطعهم طرق على الباب، سلسلة من الضربات السريعة القصيرة: تاب، تاب، تاب، تاب، تاب، تاب.

أشار يوجين إلى الزائر برأسه، وافترقت نظراتهما، ثم حل سكون استمر بضع لحظات، لم يسمع فيه سوى أنفاسهما، وذلك الحفيف الهامس الجاف الآتي من علب الديناميت.. كان فحيح الأفاعي شنيعاً ولكن يوجين لم ينتبه له من قبل لشدة خفوته. تاب تاب تاب تاب تاب، عادت النقرات من جديد، عادت ملحّة واثقة، لا بد أن يكون الطارق روي دايال. كان يوجين قد دفع الإيجار المترتب عليه، ولكن دايال كان يتدخل في كل أمر، نزعة دفينّة في طبيعته يعجز عن مقاومتها، وكثيراً ما كان يأتي يتشمم هنا وهناك بهذه الذريعة وتلك.

وضع ريزي الشاب يده على ذراع يوجين، وهمس في أذنه: «رئيس الشرطة في مقاطعة فرانكلين أصدر بحقي مذكرة

توقيف». كانت رائحة أنفاسه تشبه القش.. «اعتقل والدي وأشقائي الخمسة هناك في الليلة الماضية بتهمة الإخلال بالسلم العام». رفع يوجين يده ليطمئنه، ولكن السيد دايال بدأ يهز مقبض الباب بعنف.

«مرحباً! ألا يوجد أحد هنا؟» تاب تاب تاب تاب تاب، ثم أتت بعدها لحظة صمت، وبعدها ذعر يوجين عندما سمع صوت مفتاح يدور في القفل خلسة. أسرع فدخل الغرفة الخلفية لحظة رأى السلسلة توقف الباب وتمنع فتحه.

قال دايال وهو يهز المقبض: «يوجين؟ هل هناك أحد؟» صاح يوجين بصوته الودود المهدب الذي يستخدمه مع محصلي الفواتير وموظفي تطبيق القانون: «أممم، أسف يا سيد دايال، ولكن الوقت الآن غير مناسب».

«يوجين، مرحباً، يا صاحبي! اسمع! أفهم ما تقوله، لكني سأكون شاكراً لك إذا كلمتني قليلاً»، ظهرت من فتحة الباب مقدمة حذائه السوداء، وأضاف: «ما رأيك؟ نصف ثانية فقط». اقترب يوجين من الباب بخطوات خفيفة، ووقف مائلاً إليه بأذنه: «ها! كيف أستطيع أن أخدمك؟»

عاد إلى إدارة مقبض الباب: «يوجين، نصف ثانية، وسوف أتركك وشأنك».

فكر يوجين في نفسه: يجب أن يصبح هذا الرجل واعظاً، مسح فمه بظاهر يده، وقال بصوت مرتفع وبأقصى ما يستطيع من لطف ومودة: «مممم.. أعذر لأنني لا أستطيع استقبالك،

لكنك أتيت في وقت غير مناسب إطلاقاً، يا سيد دايال! فأنا الآن عاكف على دراسة الإنجيل».

ساد صمت قصير قبل أن يأتيه صوت السيد دايال من جديد: «حسناً! ولكن، يا يوجين.. لا يجوز أن تضع القمامة على الرصيف أمام البيت قبل الساعة الخامسة بعد الظهر، إذا تلقيت استدعاء ستكون أنت المسؤول».

قال يوجين وهو يحدق بنظرة ثابتة إلى حافظة التبريد «ليتل إيفلو»⁽¹⁾ على أرض مطبخه: «يا سيد دايال، أكره أن أخبرك بذلك، لكني أظن أن تلك القمامة التي في الخارج تخص الفتيين المورمونيين».

«لا يهمني لمن تكون تلك القمامة، فإدارة النظافة لا تريد أن توضع القمامة في الخارج قبل الساعة الخامسة».

ألقى يوجين نظرة سريعة على ساعة يده: الخامسة إلا خمس دقائق.. أيها الشيطان المعمداني!

قال، «لا بأس! سوف أحرص على هذا الأمر».

«أشكرك! يسرني كثيراً أن نتعاون في هذا الأمر، يا يوجين، بالمناسبة... أليس جيمي ديل راتليف ابن عمك؟»

أجابه يوجين بعد صمت قصير: «إنه من أقاربي البعيدين».

«أواجه مشكلة في الحصول على رقم هاتفه. هل يمكنك أن تعطيني إياه؟»

(1) حافظات التبريد الصغيرة التي تستخدم للحفاظ على الطعام والمشروبات باردة مدة طويلة، عادة ما تكون مصممة للسفر أو الأنشطة الخارجية مثل التخيم أو الرحلات البرية أو النزهات.

«جيمي ديل وأهله ليس لديهم هاتف».

«إذا رأيته يا يوجين فهلا تخبره من فضلك أن يعرّج على مكتبي؟ ينبغي أن نتحدث قليلاً حول أقساط سيارته».

في الصمت الذي أعقب ذلك، فكر يوجين في كيف أن يسوع قلب طاولات الصرافين وطرد أولئك الذين يشترون ويبيعون في المعبد، كانت بضاعتهم الماشية والثيران.. وكانت بمثابة السيارات والشاحنة في زمن الكتاب المقدس.

«هل ستقول له هذا؟»

«سأقول له بالتأكيد، يا سيد دايال».

أصغى يوجين إلى خطوات السيد دايال وهو ينزل السلم، خطوات بطيئة أول الأمر، ثم توقف في منتصف الطريق قبل أن يستأنف سيره مسرعاً، بعد ذلك اقترب يوجين من النافذة، فرأى أن السيد دايال لم يذهب مباشرة إلى سيارته (سيارة شيفروليه إمبالا، عليها اسم شركته)، بل تلكأ بضع دقائق في الفناء الأمامي خارج مجال رؤية يوجين، ربما كان يعاين شاحنة لويال الصغيرة التي كانت أيضاً شيفروليه! أو لعله يتفقد المورمونيين المسكينين اللذين كان يحبهما ولكنه كان يزعجهما بلا رحمة، ويضايقهما بآيات جدلية من الكتاب المقدس، ويستجوبهما عن آرائهما في الحياة الآخرة، وفي أمور غيرها.

انتظر يوجين إلى أن سمع صوت محرك سيارة الشيفروليه (صوت متردد ضعيف على الرغم من أن السيارة جديدة) قبل أن يعود إلى ضيفه فيجده راكعاً على ركبة واحدة مستغرقاً في

صلاته مرتعشاً، وهو يضغط على محجري عينيه بإبهامه وسبابته،
مثلاً يفعل رياضي مسيحي قبل بدء مباراة في كرة القدم.
شعر يوجين بالضيق، وتردد هل يقاطع صلاة ضيفه أم
يشاركه إياها، عاد إلى الغرفة الأمامية بخطوات هادئة، وأخرج
من حافظة التبريد الصغيرة قطعة جبن أصفر متعرق دافئة
(اشتراها ذلك الصباح، ولم تغب عن ذهنه منذ اشتراها)، وقطع
لنفسه قطعة كبيرة بسكين أخرجها من جيبه، والتمهما دون خبز،
وقد تهدلت كتفاه، واستند بظهره إلى الباب المفتوح للغرفة التي
لا يزال ضيفه راکعاً فيها بين صناديق الديناميت، وراح يتساءل
لماذا لم يخطر له أن يضع ستائر على نوافذ مركزه التبشيري
هذا. لم يبدُ له الأمر ضرورياً في السابق لأنه في الطابق الثاني،
وعلى الرغم من أن فناء بيته كان خالياً، فإن الأشجار في أفنية
البيوت الأخرى تحجب الرؤية من نوافذ الجيران، ومع ذلك كان
من الحكمة إضافة بعض الخصوصية ما دامت هذه الأفاعي في
عُهدته.

أطلت آيدا ريو برأسها من باب غرفة هاربيت، وذراعاها
ممتلئتان بالمناشف النظيفة، وقالت باستكثار وهي تنظر إلى
مقص على السجادة: «هل تقصين صوراً من ذلك الكتاب؟»
قالت هاربيت: «لا، يا سيدتي».

تناهى إلى سمعها عبر النافذة صوت مناشير آلية، وأشجار
تساقط واحدة تلو أخرى، كان كل ما يفكر فيه القيمون على
الكنيسة المعمدانية يفكرون هو التوسع: غرف ألعاب جديدة،

وساحة جديدة لوقوف السيارات، ومركز جديد للشباب، كان من الواضح أنه لن تبقى شجرة واحدة في الجوار.
«من الأفضل ألا أضبطك تقصّين صورًا من الكتاب».
«نعم يا سيدتي».

قالت بنبرة عدائية: «إذًا، لماذا هذا المقص على الأرض؟ انهضي وضعيه في مكانه.. هذه اللحظة»، وأشارت إلى المقص برأسها.

نهضت هاربيت وأخذت المقص ووضعتة في درج مكتبها ثم أغلقته، نشقت آيدا بأنفها، ثم انصرفت، فجلست هاربيت على أول سريرها وانتظرت، ثم فتحت الدرج فور ابتعاد صوت خطوات آيدا وأخرجت المقص مرة أخرى.

كانت لدى هاربيت سبعة كتب سنوية في مدرسة الكساندريا الأكاديمية ابتداء بالصف الأول، كان بيمبيرتون قد تخرج قبل عامين، قلبت صفحات كتاب تخرجه، وتأملت صورته بعناية، كان بيمبيرتون في كل مكان: في صور جماعية مع فريق الغولف والتس؛ وفي صورة أخرى متكئًا إلى طاولة في قاعة المطالعة يرتدي بنطالًا مزخرفًا؛ وفي أخرى يرتدي ربطة عنق سوداء ويقف أمام خلفية بيضاء ومعه بقية أفراد «نادي العودة إلى المدرسة». كانت جبهته لامعة ووجهه متألّقًا ومحمّرًا فرحًا، وكان يبدو كأنه ثمل. كانت دايان ليفيت (شقيقة ليزا ليفيت الكبرى) تضع يدها التي ترتدي قفازًا في ذراعه، وعلى الرغم من أنها كانت مبتسمة، بدت مصعوقة لأن آنجي ستانهوب -وليس هي- انتُخبت ملكة جمال تلك المناسبة.

أتت بعد ذلك صور السنة الأخيرة: بدلات رسمية، ووجوه مليئة بحب الشباب، وفتيات يرتدين قلادات من اللؤلؤ، فتيات ريفيات كبيرات الأفواه يبدون مرتبكات أمام المصور، وأنجي ستانهورب المتألثة التي فازت تلك السنة بكل شيء، ثم تزوجت فور إنهائها المدرسة الثانوية، بدت الآن سميئة في منطقة الخصر عندما رأتها هاربيت في متجر البقالة، ولكن ما من أثر لداني راتليف، ألم ينجح في المدرسة تلك السنة؟ هل ترك المدرسة؟ قلبت الصفحة فرأت صور الخريجين في بداية طفولتهم.

دايان ليفيت تتحدث في هاتف من البلاستيك، وبمبرتون العابس في حفاض مبتل يسير متبخرًا حول بركة سباحة صغيرة للأطفال، وفجأة اكتشفت أنها تنظر إلى إحدى صور شقيقها الميت.

نعم، روبين: كان هناك، في الصفحة المقابلة صورة له بمفرده، فتى نحيل يملأ النمش وجهه، كان يبدو سعيدًا وعلى رأسه قبعة قش ضخمة تبدو كأنها قبعة تشيستر، وكان ضاحكًا -ليس كمن يضحك على شيء مضحك- بل بطريقة لطيفة كأنه يحب الشخص الذي يحمل الكاميرا.

كتب تحت الصورة: «روبين، اشتقنا إليك!»

وتحت هذه العبارة كتب زملاؤه الخريجون أسماءهم جميعًا. نظرت إلى الصورة زمنًا طويلًا، لم تعرف قط كيف كان صوت روبين لكنها أحبت وجهه، أحبته طيلة حياتها وتتبع تغيراته الدقيقة عبر سلسلة من الصور الباهتة: لحظات عابرة، معجزات من ضوء عادي. لو كبر، فكيف سيكون شكله؟ لا سبيل إلى معرفة

ذلك، ولكن بالنظر إلى صورته كان بمبرتون طفلاً قبيحاً عريض الكتفين وساقاه معوجتين ورقبته قصيرة، لم يكن هناك ما يشير إلى أنه سيصبح وسيماً عندما يكبر!

لا وجود لداني راتليف في صور صف بمبرتون في السنة السابقة (الذي تأكدت أنه صف بمبرتون من وجود صورته فيه)، ولكن عندما مرّت بإصبعها عبر قائمة الأسماء المرتبة أبجدياً في الصف الأدنى من صف بمبرتون، توقفت فجأة عند اسمه: داني راتليف.

قفزت عيناها إلى العمود المقابل في تلك القائمة، ولكنها رأت بدلاً من الصورة رسماً كاريكاتيرياً فيه مراهق يستند إلى الطاولة بمرفقيه، وينظر إلى ورقة مكتوب عليها: «ورقة الغش في الامتحان». وتحت الرسم كتابة بأحرف طباعية متداخلة: مشغول جداً.. الصورة غير متاحة.

إذن، قد رسب في عام واحد على الأقل، فهل ترك المدرسة بعد الصف العاشر؟

عندما عادت إلى السنة التي قبلها إلى الصف التاسع، وجدته أخيراً: كان صبيّاً ذا شعر كثيف ينسدل على جبهته ويخفي حاجبيه، وكان وسيماً لكن في نظرته بعض العدوانية كأنه نجم سوقى من نجوم البوب، وبدا لها أكبر من أن يكون في الصف التاسع، عيناها نصف المختفتين خلف خصلة شعره أكسبتاه هيئة متخفية وضيعة، وشفته مضمغوطتان بطريقة وقحة كأنه يوشك أن يبصق من فمه علكة أو بذرة فاكهة.

نظرت إلى الصورة زمنًا طويلًا، ثم قصّتها بعناية، ووضعتها في دفتر ملاحظاتها البرتقالي.

أتاها صوت آيدا من أسفل السلم: «هاربيت! انزلي!»
صاحت هاربيت: «آتية»، واستعجلت كي تفرغ من مهمتها.
«من الذي أحدث ثقبًا في غطاء علبة الطعام؟»

لم يتصل هيلي في تلك الظهيرة ولا في تلك الليلة. وفي صباح اليوم التالي الذي كان ممطرًا لم يأت أيضًا، فقررت هاربيت أن تذهب إلى منزل إيدي لترى إن كانت قد أعدت الفطور.
قالت لها إيدي: «أحد القيمين على الكنيسة يحاول التبرع منها على حساب الأرامل والمتقاعدات»، كانت ترتدي ملابس أنيقة: قميصًا كاكي اللون وسروال جينز؛ لأنها ستمضي يومها مع نادي الحديقة في تنظيف مقبرة تعود إلى أيام الحرب الأهلية، فقالت وهي تضغط على شفيتها في محاولة تقليد السيد دايال: «قال لي: لا بأس! لكن شركة النقل ستقاضي منك ثمانين دولارًا». شركة النقل! قلت له: حسنًا! لا أستغرب هذا إطلاقًا! أسمع دائمًا أن شركة النقل مهتمة بجني الأرباح!»

كانت تنظر إلى الصحيفة من فوق نظارتها نصف الدائرية عندما قالت هذا: كان صوتها ملكيًا ورنانًا، لم تنتبه إلى صمت حفيدتها؛ ما جعل هاربيت (التي كانت تقضم شريحة توست في صمت) تتجهم أكثر، كانت قد شعرت بنفور من إيدي منذ حديثها مع آيدا أكثر من أي وقت مضى، لأن إيدي كانت دائمًا تكتب رسائل إلى أعضاء الكونغرس وأعضاء مجلس الشيوخ، وتجمع

العرائض، وتقاتل لإنقاذ المعالم التاريخية القديمة أو تلك أنواع الحيوانات المهددة بالانقراض، أليس رفاه آيدا بنفس أهمية أي نوع من أنواع الطيور المائية في ميسيسيبي التي كانت تستنزف طاقات إيدي بالكامل؟

قالت إيدي: «بالطبع، أنا لم أطرح الأمر»، ثم رفعت أنفها بطريقة متعجرفة كأنها تقول: من حسن حظه أنني لم أفعل! حملت صحيفتها وهزتها، وأكملت: «لكني لن أغفر أبدًا لروي دايل استغلاله والدي في آخر سيارة اشتراها، اختلطت الأمور على والدي في النهاية، لو أنه اعتدى على والدي في الشارع وسرق ماله لكان ذلك أشرف من استغلاله القذر».

انتبهت هاربيت إلى أنها تنظر إلى باب المطبخ طيلة الوقت، فعادت إلى تناول إفطارها. إن ذهب هيلي إلى بيتها، ولم يجدها، فسوف يأتي باحثًا عنها هنا، وسوف يكون هذا مزعجًا لأن إيدي لا تحب شيئًا أكثر من مضايقة هاربيت في شأن هيلي... تدير وجهها، وتهمس بأمور عن العشاق والرومانسية، وتدندن بأغاني الحب بصوت خافت كثيرًا على نحو يثير الغضب، ولا تتحمل هاربيت المزاح إطلاقًا خصوصًا عندما يتعلق بالفتيان، تتظاهر إيدي بأنها لا تعلم هذا، وتتظاهر بدهشة مسرحية أن ردة فعلها (دموع وإنكار) قد فاجأتها، فتقول لها بنبرة ساخرة مرحة: «أظن أن السيدة لا يعجبها هذا!» تمقت هاربيت هذه النبوة؛ وأحيانًا يكون كلامها أشد صفاقة: «إن كان حديثي عن ذلك الولد يفضبك هكذا، فذلك يعني أنه يعجبك كثيرًا».

قطعت إيدي حبل أفكارها فجعلت: «أعتقد أن عليهم تقديم غداء ساخن في المدرسة لكن يجب ألا يعطوا الأهل سنناً واحداً» كانت تتحدث عن قصة قرأتها في الصحيفة، وقبل قليل كانت تتحدث عن قناة بنما، وكم كان التنازل عن هذه القناة تصرفاً خاطئاً.

قالت: «أظنني سأقرأ صفحة الوفيات، كان والدي يقول: أظن من الأفضل لي أن أقرأ صفحة الوفيات؛ كي أرى إن كان أحد من معارفي قد توفي!»

قليت الصحيفة على ظهرها، ثم قالت وهي تنظر من النافذة كأنها نسيت وجود هاربيت معها: «ليت هذا المطر يتوقف!» لدي أعمال كثيرة أنجزها: تنظيف بيت النباتات، وتعقيم تلك الأصص... لكنني واثقة بأن الناس ما إن يستيقظون ويرون هذا الطقس الكئيب، سيشعرون بالإحباط أو سيتخلون عن خططهم تماماً...».

رنّ جرس الهاتف، كأنه تلقى إشارة منها.

صفقت إيدي بيديها وهي تنهض واقفة، ثم قالت: «ها قد بدأنا! إلغاء أول موعد لهذا النهار».

سارت هاربيت تحت المطر الخفيف وقد أحنت رأسها تحت مظلة كبيرة استعارتها من إيدي، عندما كانت أصغر سنّاً كانت تلعب لعبة «ميري بوبينز» بهذه المظلة، كان الماء يتدفق في المزاريب، وعلى جانب الرصيف كان هناك صف طويل من زهور السوسن البرتقالية انحنى بفعل المطر فمال صوب الرصيف

كأنها تشعر بالغضب وتصرخ عليها، كانت تأمل أن يظهر هيلي وهو يركض عبر برك الماء مرتدياً معطفه المطري الأصفر، ومع ذلك كانت عازمة على تجاهله إذا ظهر.. لكن الشوارع التي يتصاعد منها البخار كانت خالية: لا بشر ولا سيارات.

لما رأت أنه لا يوجد أحد حولها يجعلها تشعر بالخرج من اللعب في المطر، راحت تقفز من بركة ماء إلى أخرى. تساءلت إن كانت وهيلي متخاصمين؟ أطول مدة تخاصما فيها كانت في الصف الرابع؛ تشاجرا خلال استراحة شتوية في شهر شباط عندما كانت حبات البرد تقرع زجاج النوافذ، وكان الأطفال جميعاً غاضبين لأنهم ظلوا ثلاثة أيام متوالية ممنوعين من الخروج إلى باحة المدرسة. كان الفصل مزدحمًا، ورائحته كريهة: رائحة الرطوبة وغبار الطباشير، ورائحة حليب فاسد، لكن رائحة البول كانت أشد تلك الروائح. كانت السجادة الممتدة من الجدار إلى الجدار مشبعة بهذه الرائحة، وفي الأيام الرطبة كانت تلك الرائحة تجعل الجميع يشعرون بالجنون، فيغلق الأطفال أنوفهم بأصابعهم، أو يتظاهرون بالتقيؤ، وحتى المعلمة نفسها السيدة مايلي كانت تتجول في الجزء الخلفي من الفصل ويدها علبة من ملطف الجو برائحة الأزهار ترش منها دون توقف حتى عندما تكون تشرح جملاً طويلة أو عند إملاء نص على الأطفال، وبسبب رش المعطر المستمر كان هناك رذاذ خفيف يتناثر باستمرار فوق رؤوس الأطفال لدرجة أنهم يعودون إلى منازلهم برائحة تُشبه تلك التي تفوح من مراحيض النساء المعطرة».

لا يجوز للسيدة مايلي أن تترك صفها دون إشراف لكنها كانت لا تطيق رائحة البول مثل الأطفال، لذلك كانت تخرج كثيرًا إلى الردهة لتتشرع مع السيدة رايداوت معلمة الصف الخامس، بعد أن تختار أحد الأطفال ليتولى مسؤولية الفصل في غيابها، وقد وقع اختيارها هذه المرة على هاربيت.

لم يكن «تحمل المسؤولية» أمرًا ممتعًا قط. وقفت هاربيت عند الباب مترقبة عودة السيدة مايلي، فيما كان بقية الأطفال -الذين لم يكن لديهم ما يقلقهم سوى العودة إلى مقاعدهم في الوقت المناسب- يركضون في الغرفة الحارة التي تفوح منها الروائح الكريهة، يضحكون ويتصايحون ويلعبون لعبة المطاردة، ويرمون قطع الشطرنج، ويطلقون كرات ورقية مصنوعة من دفاترهم على وجوه بعضهم. كان هيلي وصبي يُدعى كريغ دولودتش يتسلّيان بمحاولة إصابة مؤخرة رأس هاربيت بهذه الكرات الورقية فيما كانت تقف للمراقبة، كلاهما لم يكن يهتم بفكرة أن تخبر المعلمة عنهما، فقد كان الجميع يخافون السيدة مايلي لدرجة أن أحداً لم يكن يجرؤ على الشكوى من غيره.

لكن هاربيت كانت في مزاج سيئ جدًا لأنها كانت بحاجة إلى الذهاب إلى المرحاض، ولأنها تكره كريغ دولودتش الذي كان يتصرف بطريقة مثيرة للاشمئزاز مثل تنظيف أنفه بأصابعه وأكل ما يخرج منه، وعندما كان هيلي يلعب مع كريغ كانت شخصية كريغ تلوثه كأنها مرض معد، كانا يرميان الكرات الورقية المبللة بالبصاق، ويشتمان هاربيت، ويصرخان إذا اقتربت منهما.

لذلك عندما عادت السيدة مايلي، أخبرتها هاربيت بما كان يفعل كريغ وهيلي، ولم تكتفِ بهذا بل زعمت أيضًا أن كريغ

دعاها بالعاهرة، في الماضي كان كريغ قد نعتها بالفعل بمثل هذه الكلمات، بل ناداها بشتيمة غامضة بدت كأنها «قوادة»، لكنه في هذه المرة لم يقل شيئاً أسوأ من «مُقرفة».

حُكم على هيلي بحفظ خمسين مفردة إضافية، فيما عوقب كريغ بحفظ نفس المفردات وتلقي تسع ضربات بعصا خشبية (ضربة عن كل حرف في الكلمتين السيئتين اللتين تلفظ بهما) من السيدة كينيدي العجوز ذات الأسنان الصفراء التي كانت امرأة ضخمة كأنها رجل، وكانت مسؤولة عن تنفيذ عقوبات الضرب بالمسطرة في المدرسة الابتدائية.

كان السبب الأهم لغضب هيلي من هاربيت مدة طويلة بعد ذلك هو أن الأمر استغرق منه ثلاثة أسابيع لحفظ الكلمات بشكل كافٍ لاجتياز الاختبار الكتابي. أما هاربيت فقد تقبلت الحياة دون هيلي بتماسك ودون كثير من الألم، إذ كانت حياتها دائماً هكذا ولكنها أصبحت أكثر وحدة. لكن بعد يومين من الاختبار، ظهر هيلي عند الباب الخلفي لمنزل هاربيت يطلب منها أن تخرج لركوب الدراجات.

وبعد كل خصام بينهما، كان هيلي هو من يبادر بإعادة العلاقة، سواء كان هو المخطئ أم لا، لأنه كان ينسى بسرعة، ولأنه كان أول من يشعر بالذعر عندما يجد نفسه لديه وقت فراغ ولا أحد يلعب معه.

نفضت هاربيت ماء المطر عن المظلة، وتركتها على الشرفة الخلفية، ثم عبرت المطبخ إلى الصالة، وقبل أن تتمكن من الصعود إلى غرفتها، خرجت آيدا من غرفة المعيشة واعترضت طريقها.

قالت بغضب: «استمعي إلي! أنتِ وأنا لم ننتهِ بعد من الحديث عن علبة الغداء تلك، أعلم أنكِ من ثقيبتها».

هزّت هاربيت رأسها نفيًا، ومع أنها شعرت بأنها مضطرة إلى التمسك بإنكارها السابق، لم يكن لديها الطاقة لتختلق كذبة أكثر إقناعًا.

«أظنك تريدني مني تصديق أن أحدًا قد اقتحم البيت، وفعل ذلك».

«إنها علبة أليسون».

«أنتِ تعرفين أن أختكِ لم تفعل ذلك!» صرخت آيدا وهي تصعد الدرج خلفها: «أنتِ غير قادرة على خداعي ثانية واحدة».

«سنبدأ البث الآن....».

«سنقدم لكم الطاقة....».

كان هيلي جالسًا بلا اكتراث على الأرض متربعًا أمام التلفاز، وفي حجره وعاء نصف ممتلئ من حبوب الإفطار «غيغل بوبس»، فيما أزاح جانبًا دميّتين آليتين (إحدهما غير مقرونٍ لولبها، وذراعها متدلية)، ويجوارهما دمية «جي آي جو» منكبة على وجهها، التي كانت تؤدي دور الحكم.

كان برنامج «ذا إليكتروك كومباني» تعليميًا، لكنه على الأقل لم يكن سخيفًا مثل «مستر روجرز»، تناول هيلي ملعقة أخرى من الحبوب دون حماسة؛ كانت الحبوب قد أصبحت طرية الآن، وتحول لون الحليب إلى الأخضر بسبب الأصباغ، فيما بقيت قطع

المارشميلو الصغيرة على حالها مثل حصى حوض السمك .
قبل دقائق قليلة نزلت والدته إلى الطابق السفلي، ومدت رأسها داخل غرفة المعيشة وسألته إن كان يرغب في مساعدتها على إعداد بعض المعجنات، غضب عندما تذكر كيف أن رفضه الساخر لم يزعجها على الإطلاق، أجابته بمرح: «حسنًا، افعل ما يحلو لك».

لا: لن يمنحها متعة إظهار الاهتمام، الطبخ للفتيات. لو كانت والدته تحبه حقًا، لأخذته بالسيارة إلى صالة البولينغ.
تتاول ملعقة أخرى من الحبوب، السكر الذي يغطيها ذاب تمامًا، ولم يعد طعمها لذيذًا.

مضى النهار بطيئًا في بيت هارييت. لم يلاحظ أحد غياب هيلي باستثناء والدتها، وهذا أمر غريب، لأنه لم يكن من المتوقع منها أن تلاحظ شيئًا حتى لو اجتاحت إعصار المنزل وأطاح بالسقف، نادى هارييت من الشرفة المشمسة في فترة الظهيرة: «أين الأمير الصغير؟»، كانت تدعو هيلي الأمير الصغير لأن «أمير» هي اسم عائلة أمه قبل زواجها.

قالت هارييت بنبرة مقتضبة: «لا أدري»، ثم صعدت إلى الطابق العلوي، ولكنها لم تلبث أن ضجرت؛ تجلس على السرير تارة وعلى حافة النافذة تارة، وتراقب حبات المطر وهي تضرب زجاج النافذة، وسرعان ما نزلت مرة أخرى إلى الطابق السفلي.

بعد قضائها بعض الوقت في التجول دون هدف، وبعد أن طردتها آيدا من المطبخ، جلست آخر الأمر في زاوية مهملة من

أرض الصالة حيث كانت ألواح الأرضية ناعمة جدًا. جلست كي تلعب لعبة «جاكس»⁽¹⁾، وفي أثناء لعبها كانت تحصي النقاط التي تحرزها بصوت غنائي فاتر يتناغم بشكل ممل مع صوت ارتداد الكرة، ومع أغنية آيدا الرتيبة الآتية من المطبخ:

رأى دانيال تلك الصخرة المقطعة من الجبل

رأى دانيال تلك الصخرة المقطعة من الجبل

رأى دانيال تلك الصخرة المقطعة من الجبل...

كانت كرة اللعبة أعجوبة مصنوعة من البلاستيك القاسي، ولكنها تقفز أعلى من أي كرة مطاطية، كانت أحيانًا تصطدم برأس مسمار بارز من الأرضية فتتحرف بطريقة مجنونة، كان المسمار أسود اللون ومائلًا بزاوية تشبه قبعة رجل صيني في زورق سامبان، لم تكن هاربيت منزعة من المسمار فقد كان كائنًا بريئًا ومناسبًا لتركيز انتباهها عليه، نقطة ثابتة مرحب بها وسط فوضى الزمن.

كم مرة داست هاربيت على رأس المسمار هذا بقدمها الحافية؟ كان المسمار مثنيًا عند العنق بسبب ضربة مطرقة، ولم يكن حادًا بما يكفي ليُسبب جرحًا، ولكنها في إحدى المرات عندما كانت

(1) لعبة جاكس (Jacks) هي لعبة تقليدية مشهورة بين الأطفال في الثقافات الغربية، تعتمد على المهارة والتنسيق بين اليد والعين. تتكون اللعبة من مجموعة من القطع المعدنية أو البلاستيكية الصغيرة تُسمى "الجاكس" وكرة صغيرة. يُنثر "الجاكس" على الأرض، ثم تُرمى الكرة في الهواء، ويتمين على اللاعب جمع عدد معين من "الجاكس" بيد واحدة قبل أن تعود الكرة إلى الأرض. تتزايد صعوبة اللعبة تدريجيًا مع كل جولة حيث يُطلب من اللاعب جمع عدد أكبر من "الجاكس" في الوقت نفسه.

في الرابعة من عمرها تقريباً كانت تنزلق على مؤخرتها على تلك الأرضية المستوية، فمزق هذا المسمار أسفل سروالها الداخلي الأزرق، كان السروال جزءاً من «طقم داخلي» من متجر «كيدي كورنر» مطرزة عليه بخيوط وردية أسماء أيام الأسبوع كلها.

«ثلاثة، ستة، تسعة، واحدة حتى تنهي هذه الجولة من اللعبة» كان رأس المسمار ثابتاً؛ لم يتغير منذ أن كانت طفلة، بقي في مكانه ساكناً بهدوء في زاويته المعتمة خلف باب الممر، فيما كان بقية العالم يتغير ويضطرب، حتى متجر «كيدي كورنر» الذي كانت جميع ملابس هارييت منه أُغلق منذ وقت قريب. السيدة رايس قصيرة القامة وردية اللون التي كانت دائماً ثابتة في طفولة هارييت بنظارتها السوداء الكبيرة وسوارها الذهبي المليء بالتمائم، باعت المتجر وانتقلت إلى دار للمسنين.

لم تكن هارييت تحب المرور بجانب المتجر الفارغ، لكن في كل مرة تمر بقرية كانت تتوقف وتظلل جبهتها بيديها وتتنظر عبر نافذته الزجاجية المغبرة. شخص ما انتزع الستائر من حلقاتها فبانَت واجهات العرض الفارغة، كانت الأرضية مغطاة بأوراق الصحف، ومانيكانات طفولية المقاس واقفة تنظر في هذا الاتجاه وذلك في تلك العتمة الخاوية، وعلى رؤوسها شعر متسخ كان في الماضي مصففاً على هيئة شعر الأطفال الذين يرافقون العرائس.

يسوع كان تلك الصخرة المقطوعة من الجبل

يسوع كان تلك الصخرة المقطوعة من الجبل

يسوع كان تلك الصخرة المقطوعة من الجبل

يحطم مملكة هذا العالم.

أربع رميات. خمس رميات. هي بطله هذه اللعبة في أمريكا، هي بطله هذه اللعبة في العالم. كانت تصيح معلنة ما حققته من نتائج، تصيح بحماسة مفتعلة، تهلل لنفسها معجبة بأدائها، مر بعض الوقت بدت فيه حماسها كأنها متعة حقيقية، ولكنها لم تستطع مهما حاولت نسيان أنه لا أحد يهتم إن كانت تستمتع أم لا.

استيقظ داني راتليف من غفوته فزعاً، لم يكن ينام جيداً في الأسابيع الأخيرة، منذ أن أقام شقيقه الأكبر فاريش مختبراً لإنتاج الميتامفيتامين في السقيفة التي يستخدمها لتحنيط الحيوانات خلف مقطورة الرحلات التي تملكها جدته، لم يكن فاريش كيميائياً، لكن المادة المخدرة التي ينتجها كانت مقبولة، والمشروع برمته مريح جداً. فمن تجارة المخدرات وشيكات المساعدة المالية التي يتلقاها لأنه معاق، ورؤوس الوعول التي يحنطها للصيادين المحليين، صار يكسب خمسة أضعاف ما كان يربحه في أيامه السابقة حين كان يقتحم البيوت ويسرق بطاريات السيارات.

لكن الأمور تغيرت فأصبح لا يقرب تلك الأعمال الآن؛ فمنذ خروجه من مستشفى الأمراض العقلية يرفض فاريش استخدام مواهبه الكبيرة في تلك الأنشطة إلا في تقديم المشورة، ومع أنه هو الذي علّم أشقائه كل ما يعرفونه، فقد كفّ عن مرافقتهم في مهمّاتهم، لم يعد يرغب في سماع تفاصيل العمليات، ويرفض حتى الركوب معهم في السيارة، وعلى الرغم من أن مهاراته تفوق بكثير

مهارات إخوته في اقتحام الأقفال وسرقة السيارات والاستطلاع التكتيكي وسبل الفرار، وكل وجه من وجوه تلك الصنعة، فإن قراره بالبقاء بعيداً كان الأنسب للجميع؛ ذلك أن فاريش كان أستاذاً، وكان بقاءه في البيت مفيداً أكثر من وجوده خلف القضبان.

ما كان يثير الإعجاب في مختبر تصنيع المخدرات هو أن تحنيط الحيوانات (مهنة يمارسها فاريش بشكل قانوني منذ أكثر من عشرين سنة) يتيح له القدرة على تأمين المواد الكيميائية التي يصعب الحصول عليها بطرق أخرى، بالإضافة إلى أن الروائح النفاذة الناجمة عن عمليات التحنيط كانت تخفي روائح تصنيع المخدرات التي تشبه رائحة بول القطط، ومع أن آل راتليف يعيشون بعيداً عن الطريق العام فقد كانوا دائماً على حذر من أن تُفضح أعمالهم بسبب تلك الروائح، كان فاريش يُردّد دائماً أن مختبرات كثيرة افتُضح أمرها بسبب فضول الجيران أو بسبب ريح غير مواتية تسوق تلك الرائحة مباشرة إلى نافذة سيارة شرطة عابرة.

توقف المطر، وتسالت أشعة الشمس عبر الستائر. أغمض داني عينيه محاولاً حجب الضوء، ثم استدار ودفن وجهه في الوسادة، فأصدر السرير تحته صريراً حاداً، تبعد مقطورته (التي هي واحدة من مقطورتين خلف المقطورة الكبيرة حيث تقيم جدته) عن مختبر الميثامفيتامينات خمسين ياردة، لكن ذلك المزيج الكريه من روائح المخدرات وورشة التحنيط والحر كان يصله، وكان داني في تقزز شديد منه يكاد يجعله يتقيأ. كانت الروائح الكريهة -رائحة بول القطط والفورمالدهايد ورائحة

العفونة والموت- تتغلغل في كل شيء: الملابس والأثاث والهواء والماء والكؤوس والأطباق البلاستيكية عند جدته. تفوح الرائحة نفسها من شقيقه فلا يكاد المرء يستطيع الاقتراب منه مسافة أقل من ستة أقدام، بل إن ذعرًا أصاب داني عدة مرات عندما شم تلك الرائحة في تعرفه نفسه.

استلقى داني راتليف على سريرهِ متيبسًا، وقلبه ينبض بعنف. كان يعمل في الأسابيع الأخيرة دون توقف، لم يكن ينام سوى إغفاءات قصيرة متقطعة من حين إلى آخر، كانت السماء تمتد زرقاء صافية فوقه، والموسيقى السريعة المنبعثة من الراديو تضيئ إيقاعًا محمومًا على ليالٍ طويلة تتعاقب بسرعة ماضية صوب نقطة متخيلة لا تكاد تظهر في الأفق، وقدمه ثابتة على دواسة الوقود مندفعًا عبر ذلك كله، ليلة بعد ليلة، ظلامًا بعد ضياء بعد ظلام آخر كأنما يسير عبر عواصف صيفية مطيرة تتوالى على طريق سريع مستوٍ طويل.

لم يكن هذا اندفاعًا نحو هدف، بل سرعة عمياء فقط. هناك أناس آخرون (وداني ليس منهم) يقودون مسرعين، يقطعون المسافات بلا هوادة في صباحات سوداء متعاقبة وهم يشدون على أسنانهم، يصغون إلى زقزقة العصافير قبل شروق الشمس.. ثم فجأة... اصطدام! وداعًا.

هؤلاء لا يعرفون السكون، أعينهم جامحة، يتقلبون وينطلقون في كل اتجاه، مقتنعين أن ديدانًا تنهش نقي عظامهم، أو أن صديقاتهم يخننهم، أو أن الحكومة تتصت عليهم عبر أجهزة التلفاز، وأن نباح الكلاب ليس إلا رسائل مشفرة موجهة إليهم.

كان داني قد رأى مجنوناً هزياً (ك. س. روكينغهام؛ هو الآن ميت) يطعن نفسه بإبرة خياطة إلى أن صارت ذراعه تبدو كأنها غُمست حتى مرفقه في زيت يغلي، كان يقول إن ديداناً صغيرة جداً تزحف تحت جلده، ظل جالساً أمام التليفزيون أسبوعين كاملين، أربعاً وعشرين ساعة كل يوم، في حالة من إحساس مطلق بالنصر، وهو يطعن ذراعيه ويصيح: «أصبتك» و«ها أنت ذا!» مخاطباً تلك الديدان المتخيلة. كاد هاريش يبلغ تلك الحالة بضع مرات (يلوّح بقضيب معدني ويصرخ بكلام عن جون كيندي). لكن داني لم يكن من ذلك الصنف، كانت هذه الحالات من الجنون والضياع شيئاً لا يمكن أن يبلغه داني أبداً.

لا، إنه بخير، مجرد إرهاق، يتسبب عرقاً مثل النمر، يشعر بالحرارة والانزعاج. كان جفن عينه يرتعش بلا توقف، وصارت الأصوات تزعجه حتى وإن كانت خافتة، وتجعل أعصابه تنتفض، ولكن إرهابه هذا كان ناتجاً في معظمه عن كابوس يشاهده بشكل متكرر منذ أسبوع، كأنه يحوم فوقه وينتظره حتى يستلقي على سريريه ويغرق في نوم مضطرب، ثم ينقض عليه ويمسكه من كاحليه، ويسحبه بسرعة مروعة.

انقلب على ظهره وهدق إلى ملصق لافتة ترتدي ملابس سباحة على السقف، مثلما يحدث مع دوار الكحول السيئ، كان تأثير الكابوس لا يزال يضغط عليه، كأنه سم بطيء يتغلغل داخله. وعلى الرغم من ذلك كله، لم يستطع قط تذكر تفاصيل الكابوس عندما يستيقظ، لا وجوه واضحة ولا مواقف (مع أنه كان دائماً هناك شخص آخر)، لا يتذكر شيئاً سوى دهشته من

ذلك الخواء الأعمى الخانق الذي يبتلعه: مقاومة يائسة، وخفقات أجنحة مظلمة، وذعر يكاد يسحقه. قد لا يبدو الأمر بهذا السوء عند الحديث عنه، لكنه كان أسوأ كابوس قد مر به على الإطلاق. كان الذباب الأسود يتجمع على الدونات نصف المأكولة (وجبة غدائه) التي كانت على الطاولة الصغيرة إلى جانب سريره. طار الذباب مطلقاً طنيناً عندما نهض داني واقفاً، وراحت تحوم مذهولة قبل أن تحط على الدونات من جديد بعد بضع لحظات فقط.

يعيش داني وحيداً في هذه المقطورة القديمة ذات السقف المنخفض بعد القبض على شقيقه مايك ورايكي لي وإيداعهما السجن. مع ذلك يحرص على نظافتها، يغسل نوافذها، ولا يترك طبقاً قذراً، لكنها تظل متسخة ومزدحمة. المروحة الكهربائية تنن وهي تدور ببطء، فتجعل الستائر الرقيقة تضطرب مع كل لفة.

أخرج داني من جيب قميص الجينز المعلق على الكرسي علبة نشوق فارغة، لكنها لم تكن تحوي نشوقاً بل أونصة من مسحوق الميتامفيتامين، سكب كمية كبيرة من المسحوق على ظاهر يده، ثم استنشقه دفعة واحدة، حرقه حادة ولذيذة اجتاحت حلقه، فدمعت عيناه، في لحظة انجلت الغمامة عن عقله، وبدت الألوان أوضح كأن العالم صار مكاناً أفضل فجأة، لم ينتظر حتى يظهر الأثر الكامل للجرعة الأولى فأخذ جرعة ثانية بيدين مرتعشتين.

آه، نعم، أسبوع في الريف؛ أقواس قزح ووميض ساحر، شعر فجأة بأن كل شيء على ما يرام وبأن التعب الذي أثقله قد تبخر. نهض بنشاط، رتب فراشه بإحكام حتى بدا مشدوداً كوجه

طبل، أفرغ منفضة السجائر وغسلها في المجلى، ورمى علبه الكوكا كولا الفارغة وبقايا قطعة الدونات، على الطاولة الصغيرة كانت هناك أحجية لم ينجز بعد أكثر من نصفها (مشهد طبيعي باهت؛ شلال وأشجار شتوية). كانت الأحجية تسليته في ليالٍ طويلة مملأها القلق والتعب. هل يجلس ويعمل عليها قليلاً؟ نعم، الأحجية، لكن الأسلاك الكهربائية استولت على انتباهه.

كانت الأسلاك تتشابك حول المروحة وتمتد في كل مكان، تصل إلى الراديو ذي الساعة المنبهة والتلفاز ومحمصة الخبز، لَوْح بيده كي يطرد ذبابة حامت حول رأسه، لعل عليه أن يرتب هذه الأسلاك قليلاً، جاء صوت تلفاز بعيد من مقطوعة جدته، صوت إعلان لـ«اتحاد المصارعة العالمي»، كان واضحاً رغم الضباب: «الدكتور موت فقد صوابه...».

أخذ يصيح: «إليكم عني!»، وقبل أن يدرك ما كان يفعله قتل ذبابتين، نظر إلى البقعتين اللتين خلفتهما الذبابتان على حافة قبعته، لم يتذكر أنه التقط القبعة، ولم يتذكر حتى وجودها في الغرفة.

قال مخاطباً القبعة: «من أين أتيت؟»

كان الأمر غريباً، كان الذباب الذي أصبح متوتراً يحوم بجنون حول رأسه، لكن ما شغل داني في تلك اللحظة كان القبعة. لماذا كانت داخل الغرفة؟ كان قد تركها في السيارة، وكان متأكداً من ذلك. ألقى القبعة على السرير (فجأة لم يعد يرغب في لمسها) وكان هناك شيء في الطريقة التي استقرت بها مائلة بثقة على الأغذية المرتبة بعناية جعله يشعر بالقشعريرة.

اللغة على هذا! رفع رأسه وارتدى ملابسه، وخرج من المقطورة، فوجد شقيقه فاريش مستلقياً على مقعد طويل من الألمنيوم أمام مقطورة جدتهما الكبيرة، كان يكشط الأوساخ من تحت أظافره بسكين صغيرة، وحوله تناثرت أشياء كثيرة ملقاة: حجر شحذ، ومفك، وراديو ترانزيستور فكك جزءاً منه، وكتاب ذو غلاف ورقي عليه إشارة لصليب معقوف، وعلى التراب بين تلك الأشياء كلها، كان يجلس شقيقه الأصغر كورتيس ماداً ساقيه القصيرتين منفرجتين أمامه، يحتضن قطعة صغيرة متسخة ومبللة إلى خده ويدندن أغنية.

أنجبت أم داني شقيقه كورتيس عندما كانت في السادسة والأربعين وكانت سكيراً، ومع أن والدهم (الذي كان بدوره سكيراً، وهو الآن ميت) كان نادماً على إنجاب هذا الولد، فإن كورتيس كان مخلوقاً لطيفاً يحب الكيك وموسيقى الهارمونيكا وأعياد الميلاد. ويغض النظر عن حماقته وبطء حركاته، لم يكن لديه أي عيب سوى أنه كان يعاني ضعفاً في السمع يجعله يفضل الاستماع إلى التلفاز بصوت مرتفع.

شد فاريش على أسنانه وأوماً لداني برأسه، ولكنه لم ينظر إليه، كان يرتدي بذلة بنية (بذلة نادي يونايتد بارسل، وعلى صدرها ثقب حيث كانت شارة النادي التي اقتلعها)، وكانت البذلة مفتوحة حتى الخصر كاشفة عن شعر صدر أسود كثيف، لم يكن فاريش يرتدي سوى هذه البذلات البنية شتاءً أو صيفاً باستثناء عند ذهابه إلى المحكمة أو الجنازات. كان يشتريها مستعملة بالعشرات من متجر «خدمات نادي باريسل». قبل سنوات

كان فاريش يعمل في مكتب البريد، لم يكن يقود شاحنة نقل الطرود، بل يوزع الرسائل فقط. وبحسب أقواله فما من مهنة تسهّل مراقبة الأحياء الغنية أكثر من هذه المهنة، كان يعرف من يغادر البلدة، ومن يترك نوافذه مفتوحة، ومن لا يستلم الصحف في نهاية عطلة الأسبوع، ومن لديه كلب قد يسبب المشكلات، هذه الاستراتيجية كلفته وظيفته وربما كانت سترساله إلى سجن ليفنویرث لو تمكن المدعي العام من إثبات أنه ارتكب أي عمليات سطو في أثناء أداء وظيفته.

عندما كان أحدهم في حانة «الباب الأسود» يسخر من بذلات فاريش، أو يسأله عمّ يجعله يرتديها، كان فاريش يقول باقتضاب إنه «كان يعمل في مكتب البريد»، ولكن هذا لم يكن السبب الحقيقي؛ كان فاريش يكره الحكومة الاتحادية كرهًا شديدًا، وكان يكره مكتب البريد كرهًا خاصًا، وكان داني يظن أن السبب الحقيقي لمحبة فاريش تلك البذلات الرياضية هو أنه اعتاد ارتداء بذلات تشبهها عندما كان في مستشفى الأمراض العقلية (وهذه قصة أخرى)، ولكن لم يكن هذا موضوعًا يشعر داني أو أي شخص آخر بالراحة لمناقشته مع فاريش.

همّ بالتوجّه صوب المقطورة الكبيرة عندما أغلق فاريش سكين الجيب الصغيرة ونصب مسند كرسيه، كانت ركبته تهتز على إيقاع الموسيقى. كان لفاريش عين عمياء (بيضاء كلها)، وعلى الرغم من مضي تلك السنين كلها، فلا يزال داني يحس بالضيق كلما أدارها فاريش صوبه على نحو مفاجئ مثلما فعل الآن.

قال له: «غام ويوجين تشاجرا قبل قليل من أجل التلفاز»، غام هي جدتهم، أمّ والدهم. «يرى يوجين أن غام لا يجوز أن تشاهد أولئك الذين تسميهم جماعتها».

في أثناء كلامه، كان الشقيقان يحدقان إلى البعيد إلى الغابة الكثيفة الصامتة دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر؛ فاريش مضطجع على كرسيه، وداني واقف على جانبه مثل ركاب في قطار مزدحم. كانت جدتهما تدعو المسلسل الذي تتابعه «جماعتها».

أعشاب نامية حول سيارة ميتة، وبين النباتات البرية العالية عربة أطفال معطوبة منقلبة على ظهرها.

قال فاريش وهو يصفع ركبته صفعه شديدة جعلت داني يقفز من مكانه: «يقول يوجين إنه ليس مسلسلاً مسيحياً، هاه! مع أنه لا يرى أيّ مشكلة في المصارعة أو في كرة القدم، ما الذي يجده مسيحياً في تلك المصارعة؟»

باستثناء كيرتس -الذي أحب كل شيء في العالم، حتى النحل والدبابير والأوراق المتساقطة من الأشجار- لم يكن لأفراد عائلة راتليف علاقة مستقرة مع يوجين، كان يوجين هو الولد الثاني في العائلة، وقد شغل منصب قائد ميداني لفاريش في أعمال العائلة (التي كانت تتعلق بالسرقة) بعد وفاة والدهما، كان يؤدي دوره بإخلاص، وإن لم يكن مفعماً بالطاقة أو الإلهام، لكنه في أثناء وجوده في سجن بارشمان بسبب سرقة السيارات في أواخر الستينيات رأى رؤية تأمره بالخروج وتعظيم اسم يسوع، ومنذ ذلك الحين أصبحت علاقاته مع عائلته متوترة بعض الشيء، فقد رفض أن يلوث يديه بما كان يسميه «أعمال الشيطان»، على الرغم

من أنه لم يكن يمانع أن يأكل الطعام ويعيش تحت سقف وفرهما له الشيطان وأعماله (كما كانت جوم تشير بصوت مرتفع).

ولكن لم يكن يوجين يهتم، كان يستشهد بالكتاب المقدس في جداله معهم، يتشاحن بلا توقف مع جدته، ويثير أعصاب الجميع، ورث عن والده افتقاره إلى روح الدعابة (لكن لحسن الحظ لم يرث طبيعته العنيفة)، حتى في الأيام القديمة عندما كان يوجين يسرق السيارات ويخرج للسهر وهو مخمور، لم يكن شخصاً يحلو الجلوس معه، ومع أنه لم يكن يحمل الضغائن ولا يحب إهانة أحد وكان رجلاً نزيهاً في جوهره فإن أسلوبه التبشيري كان يسبب لهم الملل الشديد.

قال داني: «على أي حال، ماذا يفعل يوجين هنا؟ ظننته ذاهباً في رحلة تبشيرية مع فتى الأفاعي الذي عنده».

ضحك فاريش، أطلق ضحكة حادة مجلجلة: «أتوقع أن يوجين سيترك الأمر للويال وحده ما دامت تلك الأفاعي معه».

كان يوجين محقاً عندما اشتبه في أن زيارة لويل ريس لم تكن فقط من أجل التبشير والزمالة المسيحية، ذلك أن دولفوس شقيق لويال هو الذي رتب الأمر كله من سجنه. لم تغادر مختبر فاريش أي شحنة مخدرات منذ أن قبض على موزع دولفوس في فبراير بسبب مذكرة توقيف قديمة. عرض داني أن ينقل المخدرات بنفسه إلى كنتاكي، لكن دولفوس لم يكن يريد أن يقتحم أحد منطقة توزيعه (قلق من الطبيعي أن يشعر به سجين محتجز خلف القضبان)، علاوة على ذلك لماذا يدفع مقابل موزع عندما يكون لديه شقيق أصغر مثل لويل ينقلها بالمجان؟

بطبيعة الحال لم يكن لويل على علم بما يجري، فقد كان مؤمناً متديناً، ولم يكن ليتعاون عن قصد مع أي خطط يضعها دولفوس في السجن، كانت لديه مهمة كنسية في شرق تينيسي، ولكنه جاء إلى ألكسندريا خدمة لدولفوس لمساعدة يوجين على بدء عمله في مهمته التبشيرية، ولكن عندما يقود لويل سيارته عائداً إلى كنتاكي (بكل براءة) كان يحمل بالإضافة إلى أفاعيه عدة حزم مخبأة بعناية في محرك سيارته.

قال داني محدقاً في غابة الصنوبر وفي أشجارها الكثيفة المتراصة حول فسحتهم الترابية الصغيرة: «لا أفهم السبب الذي يدفعهم إلى ملاعبة تلك الأفاعي والتعامل معها، ألا تلدغهم؟» رفع فاريش رأسه بحركة عدوانية عنيفة: «تلدغهم طيلة الوقت، اذهب واسأل يوجين. سيخبرك أكثر مما تريد معرفته»، أشار بحذاء ركوب الدراجة النارية الذي في قدمه، وأضاف: «إذا تعاملت مع الأفعى ولم تلدغك فهذه معجزة، وإذا لدغتك فهذه معجزة أيضاً».

«إذا لدغتك أفعى فليس في ذلك أي معجزة».

«إنها معجزة إذا لم تذهب إلى الطبيب، وبدلاً من ذلك تدرجت على الأرض واستجدت بيسوع، ونجوت».

«وماذا لو مت؟»

«ذلك معجزة أخرى؛ فقد رُفعت إلى السماء من خلال علامات أتتك منها».

أطلق داني ضحكة ساخرة. طوى ذراعيه على صدره وقال:

«إذا كان كل شيء معجزة، فما الغاية من هذا؟»

كانت السماء فوق أشجار الصنوبر زرقاء متألقة تنعكس زرققتها في برك الماء على الأرض، شعر بالنشاط والارتياح، وأحس أنه في الحادية والعشرين، لعل عليه أن يقفز إلى سيارته ويقودها إلى حانة الباب الأسود! أو يذهب إلى السباحة في بحيرة السد. قال فاريش ممتعضاً: «سيجدون وكرًا كبيرًا للمعجزات إذا ساروا بين الأجمات وقلبوا بضعة حجارة كبيرة».

ضحك داني وقال: «المعجزة الحقيقية أن يتعامل يوجين مع الأفاعي» لم تكن مواعظ يوجين تحقق نجاحًا كبيرًا لأن خطابه الدينية كانت كلها على نحو غريب؛ خشبية وسطحية ولا روح فيها، فعلى حد علم داني، لم يفلح شقيقه في إقناع أحد بالتحول إلى الدين عدا كورتيس الذي يأتيه وحده كل مرة كي ينقذ روحه. «إذا سألتني، فسأقول لك إنك لن ترى يوجين يحمل أفعى؛ فهو غير مستعد حتى لأن يضع دودة على قصبة صيد، قل لي يا أخي..» أوماً فاريش برأسه إيماءً سريعة وعيناه لا تزالان معلقتين بأشجار الصنوبر في آخر الفسحة كأنه يود تغيير هذا الموضوع: «ما قولك في تلك الأفعى البيضاء الكبيرة ذات الجرس التي كانت تزحف هنا أمس؟»

كان يقصد الدفعة الأخيرة من المخدرات التي أنهى تصنيعها للتو، أ أو على الأقل، هذا ما اعتقد داني أنه يقصده. كثيرًا ما كان يجد صعوبة في إدراك ما يرمي إليه فاريش لا سيما عندما يكون متوترًا أو مخمورًا.

قال فاريش: «ما قولك؟» ثم نظر إلى داني وغمز بعينه غمزة لا تكاد تُلاحظ.

رد داني بتحفظ: «ليست سيئة»، رفع رأسه بطريقة حاول أن تبدو طبيعية وراح ينظر في الاتجاه الآخر. كان فاريش يغضب بشدة للانفجار إذا شعر بأن أحدهم أخطأ فهمه، على الرغم من أن معظم الناس بالكاد يفهمون نصف ما يقوله.

قال فاريش: «ليست سيئة!» بدا وجهه كأنه يتأرجح بين ردود أفعال مختلفة، لكنه هز رأسه في النهاية، وأضاف: «إنها مسحوق نقي قادر على أن يجعلك ترمي نفسك من النافذة اللعينة. كنت على وشك أن أفقد عقلي الأسبوع الماضي خلال عملي على ذلك المنتج الذي كانت رائحته كاليود، مزجته بكحول معدني وأدوية قتل الديدان وأشياء أخرى، ومع ذلك لا يزال لجزءاً لدرجة أنني بالكاد أستطيع استنشاقه، سأقول لك أمراً واحداً: أنا واثق به ثقة تامة».

ثم أطلق ضحكة قصيرة واستند إلى الكرسي قائلاً: «دفعه كهذه، لا يهم مع ماذا تمزجها..» فجأة انتفض واقفاً وصاح: «قلت لك ألا تترك هذا الشيء يقترب مني!»

تبع ذلك صوت صفعة وصرخة مختنقة. قفز داني فزعاً، ومن زاوية عينه رأى القطعة الصغيرة تطير في الهواء. كانت ملامح وجه كورتيس الرخوة متقلصة كلها، وقد ظهر عليه الخوف والأسى، غطى عينه بقبضة يده ولحق بالقطعة متعثراً، كانت القطعة آخر من بقي من عائلتها فقد قتلت كلاب فاريش البقية.

نهض فاريش بغضب وقال: «قلت له، قلت له وقلت له ألا يترك تلك القطعة تقترب مني».

قال داني: «صحيح»، وأشاح بوجهه.

كانت الليالي في منزل هاربيت شديدة الهدوء دائماً، كان صوت عقارب الساعات عاليًا جدًا، وخارج الهالة الخافتة للضوء الصادر من مصابيح الطاولات كانت الغرف تبدو قاتمة كالكهوف، والسقوف العالية تتسحب إلى ظلال لا نهاية لها. في الخريف والشتاء عندما تغرب الشمس عند الساعة الخامسة يصبح الوضع أسوأ؛ لكن السهر برفقة أليسون فقط كان في بعض الأحيان أسوأ من الوحدة.

كانت أليسون مستلقية في الطرف الآخر من الأريكة، وجهها متوهج بلون رمادي أزرق تحت ضوء التلفاز، وقدماهما العاريتان مستريحتان في حضن هاربيت.

حدقت هاربيت بملل إلى قدمي أليسون اللتين كانتا نضرتين وورديتين ونظيفتين بشكل غريب على الرغم من أنها كانت تمشي حافية طوال الوقت، لم يكن غريباً أن أليسون و«ويني» كانا يتفاهمان جيداً، كان «ويني» أقرب إلى الإنسان منه إلى القطط، فيما كانت أليسون أقرب إلى القطعة منها إلى الإنسان، تتجول بمفردها وتتجاهل الجميع معظم الوقت، لكنها تجد الراحة في التكور إلى جانب هاربيت متى أرادت، وتضع قدميها في حجرها دون استئذان.

كانت قدما أليسون ثقيلتين جداً، فجأة اهتزتا بعنف، رفعت هاربيت رأسها ورأت جفون أليسون ترتعش، كانت تحلم. . أسرع هاربيت فأمسكت بإصبع قدم أختها الصغير وشدته إلى الخلف، فصرخت أليسون وسحبت قدمها إلى جسدها كطائر اللقلق.

سألتها هاربيت: «بماذا كنت تحلمين؟»

استدارت أليسون وعلى خدها خطوط حمراء تركها قماش الأريكة، ونظرت إليها بعينين مثقلتين بالنوم كأنها لم تتعرف عليها، فكرت هاربيت في نفسها: لا، ليس تمامًا! كأنها تراني وترى شخصًا آخر معي! راحت تنظر إلى حيرة أختها نظرة متفحصة لا مشاعر فيها.

غطت أليسون عينيها بكفيها، وظلت بضع لحظات مستلقية مثلما كانت، ساكنة تمامًا، ثم نهضت واقفة، خذاها منتفخان وجفناها ثقيلان، وعلى وجهها نظرة فارغة.

حدقت إليها هاربيت، ثم قالت: «لقد كنت تحلمين».

تثاءبت أليسون، دعت عينيها ومضت صوب السلم بخطوات متثاقلة، تتمايل بنعاس وهي تمشي.

صاحت هاربيت: «انتظري! ماذا كنت تحلمين؟ أخبريني!»
«لا أستطيع».

«ماذا تعنين بأنك لا تستطيعين؟ هل تعنين أنك لا تريدين».

استدارت أليسون ونظرت إليها، أحست هاربيت أن نظرتها غريبة.

قالت: «لا أريد أن يتحقق الحلم»، وبدأت تصعد السلم.

«ما هذا الذي لا تريدين أن يتحقق؟»

«ما كان في حلمي».

«ماذا كان حلمك؟ هل كان حلمًا عن روبين؟»

توقفت أليسون على الدرجة السفلى، نظرت إليها من جديد، وقالت: «لا! كان حلمًا عنك».

قالت هاربيت بنبرة باردة محاولة أن يطفى صوتها على سعال بمبرتون وكلماته المتلثمة: «لم يتجاوز الزمن تسعاً وخمسين ثانية».

تشبث بمبرتون بحافة بركة السباحة ومسح عينيه بذراعيه، وقال وهو يشهق: «كلام فارغ! أنت التي كنت بطيئة في إحصاء الثواني!»، كان وجهه محمراً بلون حذاء هاربيت.

أطلقت هاربيت زفيراً طويلاً غاضباً، وأخرجت كل الهواء من رئتيها. ثم أخذت تتنفس بعمق وقوة عدة مرات حتى بدأت تشعر بدوار، وعند قمة النفس الأخير، غاصت في الماء وركلت بقدميها بعيداً.

كان ذهابها إلى آخر البركة سهلاً، ولكن في طريق العودة عبر خطوط الضوء الزرقاء، تكثف كل شيء وصارت حركة الزمن بطيئة: ذراع أحد الأطفال تمر على مقربة منها خاملة بيضاء كذراع جثة، وساق طفل آخر تبدو ضئيلة وفقااعات صغيرة بيضاء ملتصقة بشعيرات الساق المنتصبة تتدحرج وتتفلت منها مع حركة بطيئة من الساق تثير من حولها زبداً، ودمها ينبض نبضاً شديداً في صدغيها، يتراجع ثم يتقدم عنيفاً ويتراجع ويتقدم من جديد عنيفاً مثل أمواج محيط تتكسر على الشاطئ. وفي الأعلى (يصعب تخيل هذا) حياة صاخبة بألوان متألقة ساخنة سريعة: أطفال يتصايحون، وأقدام تصنع البلاطات الحارة، وصغار متجمعون معاً، ومناشفهم المبتلة على أكتافهم، يمضئون عصي الآيس كريم الزرقاء، الزرقاء بلون ماء البركة، يدعونها «قنابل آيس كريم»؛ هكذا يدعونها «قنابل الآيس كريم»؛ كانت دارجة جداً، وكانت

الضيافة المفضلة تلك السنة. بطاريق مرتعشة مرسومة على براد كشك بيع المرطبات، شفاه زرقاء، وألسنة زرقاء، وارتعاشات وأسنان مصطكة، وبرد.

خرجت فجأة إلى السطح بصوت يشبه تحطم الزجاج، كانت المياه ضحلة لكنها ليست كافية لتقف فيها تمامًا، فقفزت على أطراف أصابعها وهي تلهث، قفز بمبرتون الذي كان يراقبها باهتمام قفزة رشيقة في الماء وسبح نحوها.

قبل أن تدرك ما يحدث، رفعها بمبرتون من قدميها بحركة خبيرة، وفجأة أصبحت أذنها ملتصقة ب صدره، كانت تنظر إلى الجوانب السفلية لأسنانه ذات اللون الأصفر النيكوتيني، شمت رائحته البالغة والغريبة فلم تجدها لطيفة، كانت حادة أكثر من روائح المواد الكيميائية في مياه المسبح.

انزلقت هاربيت مخلصاً نفسها من بين ذراعيه فسقط كل منهما في ناحية؛ سقط بمبرتون على ظهره محدثاً صوت ارتطام عالٍ ورشة ماء كبيرة، فيما سقطت هاربيت جانباً ورشت المياه في كل اتجاه ثم وقفت في الماء بحركة استعراضية. كانت مرتدية ثوب السباحة المخططة بالأصفر والأسود التي قالت ليبي إنها تجعلها تبدو كأنها نحلة.

«ماذا؟ ألا تحبين أن يساعدك أحد؟»

كانت نبرة صوته متعالية ولطيفة، كأنها قطعة صغيرة خمشته بمخالبها، تجهم وجهها وقذفت بساقها في الماء فرشت وجهه. أخفض بمبرتون رأسه، وقال يعابثها: «ما الأمر؟». كان مدركاً تمام الإدراك (مدركاً على نحو يثير الغيظ) أنه وسيم جداً

بابتسامته المتعالية وشعره الذهبي المنسدل خلف رأسه، وكان عائماً في الماء الأزرق كأنه أمير بحر يضحك في واحدة من قصص تينسون المصورة:

كيف يكون أمير بحر شجاعاً

جالساً وحده

مغنياً وحده

تحت البحر

على رأسه تاج من ذهب؟

أقلت بمبرتون كاحل قدمها ورشها بالماء رشاً خفيفاً، ثم هز رأسه كي ينفذ عنه قطرات الماء: «هممم! أين المال؟»
فوجئت هارييت فسألته: «أي مال؟»

«علمتك كيف تتنفسين جيداً قبل الغطس، ألم أعلمك هذا؟
كما يفعلون مع الغواصين في الدورات الباهظة».
«صحيح، ولكنك لم تقل لي شيئاً غير هذا، أنا أتمرن كل يوم على حبس أنفاسي».

تراجع بمبرتون مظهرًا انزعاجه: «ظننت أن بيننا اتفاقاً، يا هارييت».

قالت هارييت التي لم تعد قادرة على احتمال تلك المضايقات:
«لا! ليس بيننا اتفاق».

ضحك بمبرتون: «انسي الأمر، أنا من يتعين عليه أن يدفع مائلاً مقابل الدروس. اسمعي...». غمر رأسه في الماء، ثم أخرجه من جديد: «هل ما زالت أختك حزينة على ذلك القط؟»

قالت هاربيت: «أظنها حزينة»، ارتابت من سؤاله. كانت غير قادرة على فهم اهتمام بمبرتون بأليسون.

«ينبغي أن تقتني كلبًا، تستطيع الكلاب أن تتعلم أمورًا كثيرة، ولكنك غير قادرة على تعليم القطط أي شيء؛ القطّة لا تبالي بذلك أبدًا».

«أليسون لا تبالي أيضًا».

ضحك بمبرتون: «إذًا، لا بأس! أظن أنها في حاجة إلى جرو صغير. رأيت في صالة النادي إعلانًا عن جراء من نوع تشو تشو معروضة للبيع».

«إنها تفضل القطط».

«هل سبق أن امتلكت كلبًا؟»

«لا».

«يعني هذا أنها لا تعلم ما يفوتها، تبدو القطط مدركة كل ما يجري حولها، ولكنها لا تفعل شيئًا غير الجلوس والتحديد».

«إلا ويني! كان عبقرية».

«أشك في هذا».

«لا، فعلا، كان يفهم كل كلمة نقولها، وكان يحاول أن يكلمنا، كانت أليسون تعمل معه طيلة الوقت، وقد بذل جهدًا كبيرًا ولكن فمه مختلف كثيرًا، وهو لا يستطيع إخراج الأصوات الصحيحة».

قال بمبرتون وهو يعوم على ظهره: «أنا واثق بأنه لا يستطيع»، كانت زرقة عينيّه لامعة مثل زرقة الماء.

«لقد تعلم بضع كلمات».

«حقًا؟ مثل ماذا؟»

«مثل كلمة أنف».

قال بمبرتون متكاسلاً وهو ينظر إلى السماء: «أنف! كلمة غريبة لتعليمها له». كان شعره منتشراً حول رأسه كأنه مروحة على سطح الماء.

«أرادت أن تبدأ بأسماء الأشياء؛ أشياء تستطيع الإشارة إليها مثلما كانت الأنسة سوليفان تفعل مع هيلين كليز. كانت تلمس أنف ويني وتقول: أنف! هذا أنفك! لديك أنف!» ثم تلمس أنفها، ثم تلمس أنفه من جديد».

«يبدو أنه لم يكن لديها ما تفعله».

«حسنًا، لم يكن لديها فعلاً. كانا يجلسان هناك طوال فترة الظهيرة. وبعد مدة كل ما كان عليها فعله هو لمس أنفها وويني يرفع مخبئه ويلمس أنفه.. أنا لا أمزح»، تجاهلت سخرية بمبرتون العالية، وأكملت: «لا، حقًا، كان يُصدر صوت مواء غريب كأنه يحاول أن يقول أنف».

انقلب بمبرتون على بطنه، ثم خرج إلى السطح مثيراً رشة من الماء.

«كفي عن هذا!»

«إنه صحيح، اسأل أليسون».

بدا الضجر عليه: «لمجرد أنه أصدر صوتاً ت..»

«صحيح، ولكنه لم يكن أي صوت..»، تتحننت وحاولت تقليد ذلك الصوت.

«هل تتوقعين مني تصديق هذا؟»

«لقد سجلت أليسون صوته، سجلت له عدة كاسيتات. كان أكثرها مواء عاديًا، ولكنك تستطيع تمييز بضع كلمات إذا أصغيت جيدًا».

«هاريت، أنت تضحكينني».

«هذه هي الحقيقة، اسأل آيدا ريو. وقد كان أيضًا قادرًا على معرفة الوقت، كل يوم تمامًا عند الساعة الثانية وخمس وأربعين دقيقة، يقف عند باب البيت ويخمشه بأظافره كي تفتحه له آيدا لأنه يريد الخروج لملاقاة باص أليسون».

غمر بمبرتون رأسه في الماء كي يردّ شعره إلى الخلف، ثم أغلق منخريه بيديه ونفخ بقوة لتصفو أذناه، وقال مبتهجًا: «لماذا لا تحبني آيدا ريو؟»
«لا أدري».

«لم تحبني يومًا، كانت دائمًا قاسية عليّ عندما كنت أزور روبين للعب حتى عندما كنت في الحضانة، كانت تقطع عصا من تلك الشجيرات الموجودة عندكم بالخلف وتطاردني بها في كل أرجاء الحديقة».

«وهي لا تحب هيلي أيضًا».

عطس بمبرتون ومسح أنفه بظهر يده: «بالمناسبة، ما الأمر بينك وبين هيلي؟ ألم يعد حبيبك؟»
«هالها ما سمعت: «لم يكن حبيبي قط»».

«ليس هذا ما أسمعه منه».

أبقت هاريت فمها مطبقًا، كان بمبرتون يستفز هيلي ويجعله يقول أشياء لا يعنيها، لا بد أن يحاول فعل الأمر نفسه معها، ولكنها لن تسمح له باستدراجها.

كانت مارثا برايس هال والدة هيلي زميلة والدة هاربيت في المدرسة الثانوية، وكانت مشهورة بإفساد ولديها بالدلال، كانت تحبهما حباً جماً، وتسمح لهما بفعل ما يحلو لهما بصرف النظر عما يقوله والدهما. صحيح أن الوقت لا يزال مبكراً الحكم على هيلي، لكن من المعتقد أن ذلك الدلال كان مسؤولاً عن النتائج المخيبة التي وصل إليها بمبرتون. كانت أساليبها في التربية مضرب مثل؛ فعلى الدوام تستحضر الجدات والحموات مثال مارثا برايس وولديها ليكون تحذيراً للأمهات الشابات من العواقب الوخيمة التي قد تحدث إذا -على سبيل المثال- سمحت الأم لطفلها على مدار ثلاث سنوات كاملة أن يرفض تناول أي طعام باستثناء فطائر الشوكولاتة.

كان بمبرتون من سن الرابعة إلى السابعة يأكل فقط فطائر الشوكولاتة، وعلاوة على ذلك (كما كانوا يؤكدون بجدية)، كانت تلك الفطائر من نوع معين فيه قدر كبير من الحليب المكثف ومكونات أخرى باهظة الثمن، وكانت مارثا برايس تستيقظ في السادسة صباحاً يومياً لتحضيرها. لا تزال خالات هاربيت يتحدثن عن تلك المرة عندما كان بمبرتون ضيفاً عند رويين ورفض تناول الغداء في منزل ليبي، وراح يضرب الطاولة بقبضتيه مثل «الملك هنري الثامن» مطالباً بفطيرة الشوكولاتة. («هل يمكنك تخيل ذلك؟ يقول: أمي تعطيني فطيرة شوكولاتة. وددت ساعتها أن أضربه»).

كانت أعجوبة أن يكبر بمبرتون دون أن تتلف أسنانه، ولكن خموله وعدم عثوره على مهنة يكسب منها دخلاً كان مفهوماً للجميع بسبب تربيته الكارثية في طفولته المبكرة.

كثيراً ما كان يُعتقد أن السيد هال يشعر بخيبة أمل مريرة تجاه ابنه الأكبر بمبرتون، فقد كان مدير أكاديمية ألكسندريا المسؤول عن ضبط الطلاب ومراقبة حسن سلوكهم. لم يكن السيد هال من النوع المعتاد لمديري المدارس الخاصة، الذين عادة ما يكونون رياضيين سابقين صاخبين وحممر الوجه، لم يكن حتى مدرباً رياضياً: بل كان يدرّس العلوم لطلاب المرحلة الإعدادية، ويقضي بقية وقته في مكتبه مع الباب مغلقاً يقرأ كتباً عن هندسة الطيران.

ومع أن السيد هال كان يسيطر على المدرسة بقبضة حازمة، وكان الطلاب يخافون من صمته، فإن زوجته كانت تقوض سلطته في المنزل؛ ما جعله يجد صعوبة في فرض النظام على أولاده خاصة بمبرتون، الذي كان دائماً يمزح ويتسم بسخرية ويرفع إصبعيه كأذني أرنب خلف رأس والده عند التقاط الصور الجماعية.

كان الناس متعاطفين مع السيد هال؛ فقد كان من الواضح للجميع أن الحل الوحيد لإسكاته هو ضربه حتى يفقد الوعي، كان السيد هال يصرخ على بمبرتون صراخاً شديداً في بعض المناسبات العامة فيتوتر الحاضرون جميعاً، ولكن بمبرتون نفسه لم يكن يهتم لذلك وكان يستمر في إلقاء نكاته السخيفة وتعليقاته الساخرة.

على الرغم من أن مارثا برايس هال لم تكن تمانع أن يجوب ولديها أنحاء البلدة، أو يطبلا شعرهما إلى ما بعد أكتافهما، أو يشربا النبيذ مع العشاء، أو يتناولوا الحلوى على الإفطار، فإن

هناك بعض القواعد في منزل آل هال كانت غير قابلة للنقاش: ليس مسموحًا لممبرتون بالتدخين أمام والدته على الرغم من بلوغه العشرين؛ أما هيلي بالطبع فلم يكن مسموحًا له بذلك على الإطلاق، وكان ممنوعًا تشغيل موسيقى الروك الصاخبة على جهاز الصوت (مع أن ممبرتون وأصدقاءه كانوا يشغلون موسيقى «ذا هو» و«رولينغ ستونز» بصوت مرتفع يزعج جميع سكان الحي عندما يكون والداه في الخارج، كانت تشارلوت تنزعج، وتتذمر السيدة فونتين، فيما تشتعل أيدي غضبًا). صحيح أن والدي ممبرتون لم يعودا قادرين على منعه من الذهاب إلى أي مكان يريده، فقد كان محظورًا على هيلي الذهاب إلى منطقة باين هيل (الجزء السيئ من البلدة، المليء بمحلات الرهان والنوادي الرديئة) أو إلى صالة البلياردو.

والآن وجد هيلي نفسه في صالة البلياردو (لا يزال حائقًا على هاربيت). أوقف دراجته عند أول الشارع في زقاق قريب من إدارة البلدة وذلك تحسُّبًا لاحتمال أن يمر أبوه أو أمه بذلك المكان. ها هو ذا الآن واقف يقضم شرائح البطاطس المشوية كثيبًا (يبيعونها على طاولة البيع المغبرة ويبيعون معها سجائر وعلكة)، ويتصفح القصص المصورة الموضوعة على رف عند الباب.

مع أن صالة البلياردو لا تبعد سوى بضع كتل سكنية عن ساحة البلدة، ومع أنها غير مرخصة لبيع الكحول، فإنها كانت من أسوأ الأماكن في ألكساندريا، أسوأ حتى من حانة «الباب الأسود» أو حانة «إسكواير لاونج» في حي باين هيل. يُقال إن المخدرات تُباع في صالة البلياردو، وإن القمار منتشر فيها، وإنها كانت

مسرّحًا لعدد من حوادث إطلاق النار والطعن ولعدد من الحرائق الغامضة. كانت الإضاءة خافتة، والجدران الأسمنتية مطلية بلون أخضر كئيب يشبه ألوان السجون، فيما كانت مصابيح الفلورسنت تهتز بنورها على سقف مغطى بألواح من الفوم، كانت الصالة شبه خالية في هذه الساعة عند العصر. من بين ست طاولات، كانت طاولتان فقط قيد الاستخدام، وكان هناك فتيان من الريف بشعرهما المزيّت وقمصانهما الزرقاء يلعبان بهدوء على واحدة من الآلات في خلفية الصالة.

على الرغم من أن الجو المتعفن والفاقد في صالة البلياردو كان يتناسب مع شعور هيلي باليأس، فإنه لم يكن يعرف كيف يلعب البلياردو، وكان يخشى الوقوف بالقرب من الطاولات لمراقبة اللاعبين، لكنه شعر بالطاقة لمجرد الوقوف قرب الباب، دون أن يلاحظه أحد، وهو يقضم رقائق البطاطس المشوية ويستششق هواءً مشبعًا برائحة الفساد الخطرة.

ما جذب هيلي إلى صالة البلياردو كان كتب القصص المصورة، ذلك أن لديهم أفضل مجموعة في البلدة. كانت الصيدلية تعرض كتب «ريتشي ريتش» و«بيتي وفيرونيكا»، فيما كان متجر البقالة «بيغ ستار» يعرض أيضًا «سوبرمان» (على رف قريب جدًا من آلة شوي الدجاج، لذلك لم يكن هيلي يستطيع أن يطيل الوقوف هناك مدة طويلة دون أن يحترق من الحرارة). لكن صالة البلياردو كانت تمتلك كتبًا مثل «سيرجنت روك»، و«ويرد وورد تيلز»، و«ج. أ. كومبات» (جنود حقيقيون يقتلون آسيويين حقيقيين) بالإضافة إلى «ريما فتاة الأدغال» في زي سباحة من فرو النمر.

والأفضل من ذلك كله تلك المجموعة الغنية من قصص الرعب (مستدثبون، وبشر يدفنون قبل أن يموتوا، وجثث يسيل لعابها وتترنح خارجة من المقبرة). في نظر هيلي كانت هذه الكتب ذات جاذبية لا تُقاوم: «قصص الغموض الغريبة» و«بيت الأسرار» و«ساعة الساحرات» و«دليل الأشباح» و«حكايات محظورة عن العزبة السوداء»، وغير ذلك. لم يكن من قبل مدرِّكاً وجود هذه المطبوعات التي تثيره قراءتها، ولم يكن يعرف أنه قادر على شرائها في بلده، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي كان فيه مرغماً على البقاء في المدرسة بعد انتهاء الدروس، فاكشف في مقعد خالٍ نسخة من كتاب «أسرار البيت المشؤوم». وعلى غلاف ذلك الكتاب صورة فتاة مقعدة في بيت عتيق مخيف تصرخ وتحاول متوترة دفع كرسيها ذي العجلات بعيداً عن أفعى كوبرا عملاقة. قرأ في ذلك الكتاب كيف ماتت الفتاة المقعدة متخبطة، وكيف تدفق الزيد من فمها. كانت في الكتاب قصص أخرى؛ مصاصو دماء وأعين مقتلعة وأخ يقتل أخاه. سحر الكتاب هيلي، فقرأه خمس أو ست مرات، من الغلاف إلى الغلاف، ثم أخذه معه إلى البيت وقرأه مرات أخرى إلى أن صار عارفاً كل قصة فيه وكل كلمة فيه عن ظهر قلب؛ قصص من قبيل «شريك سانتا في السكن» و«تعال شاركني هذا التابوت» و«وكالة سفريات ترانسيلفينيا» من غير أي شك، كان أعظم كتاب قصص مصورة رآه في حياته كلها. عدّه فريداً من نوعه، أعجوبة من أعاجيب الطبيعة، شيئاً لا يمكن الحصول عليه أبداً، وبعد بضعة أسابيع فوجئ كثيراً لرؤية واحد من الأولاد في المدرسة اسمه بيني لاندريث يقرأ كتاباً مماثلاً،

كان اسم ذلك الكتاب «السحر الأسود»، وعلى غلافه صورة مومياء تخنق عالم آثار، توّسل إلى بيني (الذي كان في صف أعلى، وكان لثيماً) أن يبيعه الكتاب، وعندما لم يفذه التوسل شيئاً، عرض على بيني أن يعطيه دولارين، ثم رفعها إلى ثلاثة دولارات، إذا سمح له بيني بأن ينظر في الكتاب دقيقة، دقيقة واحدة فقط.

قال له بيني وهو يطوي الكتاب ويضرب هيلي به على رأسه: «اذهب إلى صالة البلياردو واشترِ واحداً لك!»

كان ذلك قبل عامين، الآن أصبحت كتب الرعب المصورة هي ما يساعد هيلي على اجتياز الفترات الصعبة من حياته: مثل الإصابة بجذري الماء، أو الرحلات المملة في السيارة، أو مخيم بحيرة دي سيلبي. بسبب موارده المالية المحدودة والحظر الصارم على الذهاب إلى صالة البلياردو، كانت رحلاته لشراء هذه الكتب نادرة، ربما مرة واحدة شهرياً، ولكنه كان يترقبها بفارغ الصبر، لم يكن الرجل البدين عند صندوق الدفع يهتم بوقوف هيلي مدة طويلة عند رف الكتب المصورة؛ في الواقع بالكاد كان يلاحظه، وهذا ما كان مناسباً تماماً لهيلي، لأنه كان يقف أحياناً ساعات يتصفح القصص المصورة ليضمن اختيار أفضل كتاب ممكن.

أتى إلى هذا المكان كي يشغل ذهنه عن هاربيت، لكنه لم يكن يملك سوى خمسة وثلاثين سنتاً بعد شراء رقائق البطاطا، وكان سعر الكتاب المصور عشرين سنتاً. قلب بفتور صفحات قصة في كتاب «العزبة السوداء» اسمها «شيطان عند الباب» («ماذا؟ ... لقد ... لقد ... لقد أطلقت شيطاناً فظيماً كي يسكن هذه الأرض حتى مطلع الشمس!») ولكن عينيه ظللتا تنظران إلى إعلان عن

كمال الأجسام في الصفحة المقابلة: «انظر إلى نفسك نظرة صادقة؛ هل لديك ذلك التوتر الديناميكي الذي يعجب النساء، أم أنت هزيل، ضعيف خائر القوى، شخص نصف ميت وزنه سبعة وتسعون باونداً؟»، لم يكن هيلي يعرف وزنه على وجه التحديد، ولكن سبعة وتسعين باونداً بدت له رقمًا كبيرًا. نظر واجمًا إلى الرسم الذي يمثل «ما قبل»؛ شيء يشبه فزاعة الحقول.

تساءل إن كان عليه طلب المعلومات، أم أنها مجرد عملية احتيال مثل نظارات الأشعة السينية التي طلبها من إعلان في مجلة «غرائب غامضة».

قال الإعلان إن تلك النظارة قادرة على رؤية ما وراء الجلد والجدران وحتى الملابس النسائية. كلفته تلك النظارة دولارًا وتسعة وتسعين سنتًا، بالإضافة إلى خمسة وثلاثين سنتًا تكلفة الشحن، واستغرقت وقتًا طويلًا للوصول، وعندما وصلت أخيرًا، لم تكن سوى إطار بلاستيكي مع مجموعتين من قطع الكرتون التي يمكن وضعها في الإطار، قطعة منها عليها رسم يد يظهر العظام من خلالها، والأخرى تعرض صورة سكرتيرة مثيرة ترتدي فستانًا شفافًا يظهر تحته بيكيني أسود.

فيما كان هيلي يفكر في الأمر ظهر ظل بجانبه، رفع رأسه فرأى شخصين قد أدارا ظهريهما له، كانا قد نهضا عن إحدى طاولات البلياردو واقتريا من رف الكتب ليتحدثا على انفراد، تعرف على أحدهما على الفور: كاتفيش دو بينيفيل الذي كان من زعماء الأحياء الفقيرة ومشهورًا محليًا. كانت لشعره الأحمر بلون الصدا تسريحة إفريقية، وكان يقود سيارة «غراند تورينو» ذات زجاج معتم.

كان هيلي يراه كثيرًا في هذا المكان، كان يراه أيضًا يقف عند مفصل السيارات في أمسيات الصيف يتحدث إلى بعض الناس. كانت ملامحه ملامح رجل أسود، ولكن بشرته كانت بيضاء مثل هيلي وعليها نمش كثير، وعيناه زرقاوين، كانت ملابسه أكثر ما يميزه في البلدة: قمصان حريرية وسراويل واسعة من الأسفل، وبكالات أحزمة ضخمة بحجم أطباق السلطة. يقول الناس إنه يشتري تلك الملابس من متجر لانسكي بروذرز في ممفيس حيث كان ألفيس برسلي يشتري ملابسه، والآن على الرغم من حرارة الجو كان يرتدي سترة مخملية حمراء اللون وسروالاً أبيض وحذاء جلدًا فاخرًا أحمر اللون.

لم يكن المتكلم كاتفيش نفسه بل الشخص الآخر: شخص قاسي الملامح وسيئ التغذية وأظافر أصابعه مقضومة، لم يتجاوز عمر المراهقة إلا بسنوات قليلة، لم يكن طويل القامة ولا نظيفًا، وجنتاه بارزتان وله شعر مفروق عند منتصف رأسه كما يفعل الهيببون، ولكنه كان يملك هدوءًا مستقرًا ووضيعة كأنه أحد نجوم الروك، كان يقف منتصب القامة كأنه شخص مهم مع أن من الواضح أنه ليس كذلك.

همس كاتفيش له: «من أين يأتي بالمال كي يلعب؟»

قال الفتى ذو الشعر الهيببي: «معونة المعوقين، على ما أظن»، ثم رفع رأسه، عيناه زرقاوان فضيتان على نحو مفاجئ، كانت نظرته ثابتة وممعنة.

بدا له أنهما يتحدثان عن المسكين كارل أودوم الذي كان يرتب كرات البلياردو في الصالة ويعرض أن يراهن أي قادم على أي

مبلغ يحب أن يخسره. كان كارل رجلاً أرمل لديه نحو تسعة أو عشرة أطفال صفار بئسين. لم يتجاوز الثلاثين من العمر، ولكن عمره يبدو ضعفي ذلك؛ وجهه ورقبته أحرقتهما الشمس حتى أتلفتتهما، وعيناه شاحبتان محمرة جفونهما، كان قد فقد بعض أصابعه في حادث بمصنع تعبئة البيض، بعد وقت قصير من وفاة زوجته، وهو الآن ثمل يتفاخر بقدرته على الفوز على أي شخص من الموجودين في الصالة سواء كانت أصابعه كاملة أم لا. كان يرفع يده المشوهة ويقول: «هذه هي جسري، هذا كل ما يلزمي». راحة يده متسخة وظفرا الإصبعين الباقيتين متسخان أيضاً: السبابة والإبهام.

كان أودوم يقول هذا الكلام لشاب جالس بجانبه إلى الطاولة: شاب ذي لحية، ضخم كأنه دب، يرتدي كنزة فضفاضة بنية اللون في صدرها ثقب حيث كان موضع لصاقة أو علامة. لم يكن يهتم بما يقوله أودوم. كانت عيناه ثابتتين على الطاولة، وكان شعره طويلاً وداكناً ينسدل حتى كتفيه، وفيه بضغ شعرات رمادية، كان شديد الضخامة وفي كتفيه شيء غريب كأن ذراعيه غير مستقرتين جيداً في مفصليهما؛ كانتا متدليتين على هيئة موحية بالتبیس، مرفقاها معوجان قليلاً ويدهما مرتخيتان مثلما تكون ذراعا دب عندما ينهض على قائمته الخلفيتين. لم يستطع هيلي منع نفسه عن مواصلة النظر إليه، اللحية الكثيفة السوداء والكنزة البنية جعلتاه أشبه بواحد من دكتاتوريي أمريكا الجنوبية المجانين. وكان أودوم يقول: «يمكنك أن تقول إن أي شيء يتعلق بلعب البلياردو أصبح شيئاً بديهيًا وغريزيًا بالنسبة إلي».

قال الرجل الضخم ذو الكنزة البنية بصوت عميق ولكنه غير مزعج: «حسنًا! بعضنا لديه مواهب من هذا النوع». ثم رفع رأسه، فصُدم هيلي عندما لاحظ أن إحدى عينيه كانت مخيفة: عين حدقتها بيضاء حليبية مزاحاة إلى جانب رأسه.

وعلى مقربة أكثر، على بعد بضعة أقدام من حيث كان هيلي يقف، رفع الفتى ذو المظهر الخشن شعره عن وجهه وقال بتوتر: «يراهن بعشرين دولارًا على كل ضربة، ويخسر في كل مرة». وبحركة حاذقة من يده الأخرى، نقر علبة السجائر نقرة سريعة كأنه يرمي نردًا فخرجت منها سيجارة. لاحظ هيلي باهتمام أن يديه ترتجفان مثل يد شخص عجوز، وذلك على الرغم من أدائه تلك الحركة البارة، وبعد ذلك انحنى الشاب وهمس بشيء في أذن كاتفيش.

أطلق كاتفيش ضحكة عالية، وقال له: «يخسر! مؤخرتي الصفراء!». وبحركة رشيقة سلسلة استدار ومشى صوب آلات اللعب في آخر الصالة.

أشعل الفتى الخشن سيجارته وجالت عيناه في الصالة؛ كانت عيناه الباهتتان والفضيتان تلمعان في وجهه الذي أحرقته الشمس. ارتعش هيلي عندما مرت تلك العينان عليه من غير أن تبصراه: عينان جامحتان فيهما ضياء شديد ذكرّتا هيلي بصور الجنود الاتحاديين الصغار التي رآها من قبل.

وفي الناحية الأخرى من الصالة عند طاولة البلياردو كان الرجل الملتحي ذو الكنزة البنية والعين السليمة الوحيدة، ولكنها كانت تتوهج بنفس الضوء الفضي. راح هيلي يراقبهما من فوق

حافة الكتاب الذي بين يديه فلاحظ شبهًا عائليًا بين الرجلين؛ فمع أنهما يبدوان مختلفين تمامًا عند النظر إليهما أول مرة (الرجل الملتحي أكبر سنًا من الفتى وأثقل منه كثيرًا)، فإن لكل منهما ذلك الشعر الطويل الأسود نفسه والبشرة التي أحرقتها الشمس، وثبات العين نفسه وتيبس الرقبة نفسه، والطريقة نفسها في الكلام دون أن يفتحا شفتيهما كثيرًا كأنهما يحاولان إخفاء أسنانهما المتسوسة.

قال كاتفيش بعد أن عاد إلى صديقه: «ما المبلغ الذي تعتزم مراهنته عليه؟»

قهقه الفتى فكاد الكتاب المصور يسقط من يد هيلي عندما سمع ضحكته. كان هذه الضحكة الساخرة الحادة مألوفة لهيلي فقد سمعها خلف ظهره آتية من الجسر فوق الجدول وهو يبتعد متخبطًا بين النباتات الطويلة وصدى الطلقات يدوي بين المنحدرات.

إنه هو، ولكنه لا يرتدي قبعة راعي البقر لهذا السبب لم يعرفه هيلي. اندفع الدم إلى وجهه، وأخفض عينيه بغضب إلى الكتاب المصور بين يديه، نحو الفتاة التي كانت تشق وتتشبث بكتف جوني بيريل («جوني! ذلك التمثال الشمعي! لقد تحرك!»). قال كاتفيش بصوت منخفض: «أودوم ليس لابعًا سيئًا يا داني، وذلك بصرف النظر عن أصابعه».

«قد يستطيع أن يهزم فاريش عندما يكون صاحبًا، ولكنه غير قادر على ذلك الآن لأنه ثمل».

اشتعلت في رأس هيلي فكرة مفاجئة: داني! فاريش! كان إطلاق النار عليه من رجلين همجيين أمراً مثيراً بما فيه الكفاية، ولكن إطلاق النار عليه من عائلة راتليف عليه فهذا أمر آخر. لم يعد يستطع الانتظار ليعود إلى المنزل ويخبر هاربيت بهذا كله، هل يمكن حقاً أن يكون هذا الملتحي هو نفسه فاريش راتليف الأسطوري؟ لم يسمع هيلي في حياته إلا بفاريش واحد لا في ألكساندريا ولا في أي مكان آخر.

أرغم هيلي نفسه بصعوبة على النظر إلى كتابه، قبل هذه اللحظة لم يسبق أن رأى فاريش راتليف عن قرب؛ كان يراه فقط من مسافة بعيدة، يشير إليه أحدهم في سيارة عابرة أو تظهر صورته المشوشة في صحيفة محلية، ولكنه كان يسمع طيلة حياته قصصاً عن فاريش. في وقت من الأوقات، كان فاريش راتليف أشهر مجرم في ألكساندريا وكان يدير عصابة عائلية ارتكبت كل أنواع السرقات والسطو التي يمكن تخيلها، ثم إنه كتب ووزع عدداً من «النشرات التثقيفية» التي حملت عناوين من قبيل «مالك أو حياتك» (احتجاجاً على ضريبة الدخل الفيدرالية) و«كبرياء المتمردين: رد على المنتقدين» و«إلا ابنتي!»، ولكن هذا كله قد توقف بعد حادثة البلدوزر التي وقعت قبل بضع سنين. لا يدري هيلي لماذا قرر فاريش سرقة البلدوزر، قالت الصحيفة إن رئيس العمال اكتشف اختفاء البلدوزر من موقع العمل خلف شركة «بارتي آيس»، وبعد ذلك شوهد فاريش يقود الجرار عبر الطريق السريع، رفض التوقف عندما أشاروا إليه، وانعطف ثم رفع شفرة البلدوزر متخذاً وضعية دفاعية، وعندما بدأ رجال

الشرطة يطلقون عليه النار فرّ هارباً بالبلدوزر عبر مرعى للأبقار محطماً سياجاً من الأسلاك الشائكة. ركضت الأبقار الخائفة في كل اتجاه، وانتهى الأمر بأن علق البلدوزر في خندق عميق، طارده رجال الشرطة عبر المرعى، وراحوا يصيحون عليه أن يغادر البلدوزر رافعاً يديه خلف رأسه، لكنهم تجمدوا في أماكنهم عندما شاهدوا من بعيد فاريش جالساً في قمرة البلدوزر وقد سدد إلى صدغه مسدساً، ثم أطلق النار. كانت في الصحيفة صورة شرطي اسمه جاكى سبارتس تبدو عليه علائم صدمة حقيقية وهو واقف عند جسد فاريش في مرعى الأبقار، كان الشرطي يصدر أوامره إلى طاقم الإسعاف.

سبب إقدام فاريش على سرقة البلدوزر كان لغزاً في حد ذاته، ولكن اللغز الحقيقي كان إطلاقه النار على نفسه، قال بعض الناس إنه أراد قتل نفسه خوفاً من العودة إلى السجن، ولكن آخرين نفوا ذلك قائلين إن السجن ليس شيئاً بالنسبة إلى رجل مثل فاريش؛ فتلك الجريمة ليست خطيرة جداً ومن الممكن أن يخرج بعد سنة أو اثنتين، كان الجرح الذي أحدثته الرصاصة خطراً، وكاد فاريش يموت بسببه، ثم احتل اسمه صدارة الأخبار من جديد، عندما استيقظ من سباته طلب أن يأكل بطاطس مهروسة، كان ذلك بعد أن صار الأطباء مقتنعين بأنه لن يفيق من غيبوبته، وعندما خرج من المستشفى (عينه اليمنى صارت عمياء) أرسلوه إلى مستشفى الأمراض العقلية التابع للولاية في وايتفيلد وذلك بدعوى الجنون، وهو إجراء كان مبرراً نظراً إلى ما حدث.

بعد خروجه من مستشفى الأمراض العقلية، كان فاريش رجلاً مختلفاً، وذلك من نواح كثيرة، ولم يكن الأمر مقتصرًا على عينه وحدها؛ قال الناس إنه كفَّ عن الشرب فلم يره أحد بعد ذلك يشرب، وكفَّ عن اقتحام محطات الوقود وعن سرقة السيارات (مع أن أشقاءه الأصغر منه تابعوا السير على منواله في هذا المجال)، تراجعت ميوله العنصرية، فلم يعد يقف على الرصيف أمام المدرسة العامة وهو يوزع منشوراته التي يكتبها بنفسه والتي تستكر الجمع بين البيض والسود في المدارس.

بدأ عملاً جديداً في تحنيط الحيوانات، وإلى جانب الدخل الذي يأتيه من معونة الإعاقة الحكومية وما يدرّه عليه عمله في تحنيط رؤوس الغزلان والوعول لصالح صيادين محليين، صار فاريش مواطناً ملتزماً القانون أو هكذا قيل.

وها هو ذا الآن هنا، فاريش راتليف بلحمه ودمه، هذه ثاني مرة يراه خلال أسبوع واحد، إذا عدّنا واقعة الجسر أول مرة. فيما سبق لم يكن هيلي يرى من عائلة راتليف سوى كورتيس الذي يتجول حراً في ألكساندريا كلها ويطلق مسدسه المائي على السيارات العابرة، وكذلك شقيقه يوجين الواعظ. كان يوجين يُرى أحياناً وهو يعظ في ساحة البلدة، وكثيراً ما يقف في الحر الشديد بمحاذاة الطريق السريع ويصيح بأشياء عن الكنيسة الخمسينية ويهز قبضته في وجه السيارات العابرة، وعلى الرغم مما يقال من أن فاريش لم يعد إلى عقله تماماً بعد أن أطلق النار على نفسه، فإن يوجين كان دون شك شخصاً مجنوناً (سمع هيلي والده يقول هذا) يأكل الصلصال الأحمر من حدائق البيوت،

ويسقط على الرصيف عندما تصيبه نوبات يسمع فيها صوت الرب راعداً.

كان كاتفيش يتحدث بصوت منخفض مع مجموعة من الرجال في منتصف العمر جالسين إلى طاولة قريبة من أودوم؛ أحدهم (رجل بدين يرتدي قميصاً رياضياً أصفر اللون وله عینان صغيرتان مرببتان تشبهان حبتي زبيب غاطستين في كتلة من عجین) التفت إلى فاریش وإلى أودوم ثم مضى إلى الناحية الأخرى من الطاولة ورمى كرة البولینگ. مد يده إلى جيبه الخلفي دون أن يلتفت إلى كاتفیش، وبعد لحظة أتى واحد من الثلاثة الآخرين وفعل الشيء نفسه .

قال داني راتليف مخاطباً أودوم الواقف في الناحية الأخرى من الصالة: «اسمع، تمهل قليلاً! إذا كنت تلعب من أجل المال، فسوف تكون لعبتك التالية مع فاریش».

نخر فاریش بصوت عالٍ كأنه يتقيأ، ثم نقل ثقل جسده من قدم إلى أخرى.

اقترب منه كاتفیش وضربه على ظهره: «صديقي فاریش ليست له الآن إلا عين واحدة».

قال فاریش بنبرة تهديدية، وهو يهز رأسه بغضب حقيقي: «انظر ماذا سيحدث؟»

انحنى كاتفیش فوق الطاولة ومد يده إلى أودوم بحركة لطيفة، وقال له: «اسمي كاتفیش دي بينفيل». لم يصافح أودوم اليد التي امتدت إليه.

قال منزعجاً: «أعلم من تكون!»

وضع فاريش في الفتحة المعدنية بضع قطع من فئة ربع دولار، ثم هز الآلة هزاً عنيفاً، فتساقطت الكرات من مستودعها. قال أودوم: «لقد هزمت هذا الأعمى عدة مرات، وسوف أهزم أي رجل قادر على الرؤية»، ترنح كأنه يسقط إلى الخلف، ثم تدارك نفسه بأن استند إلى الأرض بعصا البلياردو، وأضاف: «لماذا لا تتراجعون قليلاً كي تخففوا هذا الازدحام حولي؟» خاطب كاتفيش الذي كان قد عاد إلى الوقوف خلفه: «نعم، أنت..» انحنى كاتفيش كي يهمس له بشيء في أذنه، وبحركة بطيئة انعقد حاجبا أودوم الأشقران، وبدت عليه الحيرة.

قال فاريش ساخرًا: «ألا تحب أن تلعب من أجل المال، يا أودوم؟» مد يده تحت الطاولة وبدأ يرتب الكرات، وأضاف: «ألست شماس الكنيسة المعمدانية؟»

قال أودوم: «لا». الفكرة الجشعة التي زرعها كاتفيش في أذنه بدأ أثرها يظهر في وجهه الذي أحرقته الشمس وصار واضحاً مثل سحابة مرتحلة في سماء صافية.

أتى من ناحية الباب صوت حامضي خافت: «بابا».

كانت تلك لشارون أودوم، وكان ردفها مائلاً في وضعية بدت لهيلي مقرزة، وضعية مثل وضعيات الكبار، وعلى ردفها كان يجثم طفل صغير في مثل قذارتها؛ فمه وفمها محاطين بحلقتين برتقالييتين من الآيس كريم أو الفانتا.

قال كاتفيش بنبرة مسرحية: «انظروا من لدينا هنا؟»

«بابا، قلت لي أن آتي كي آخذك عندما يصل العقرب الكبير إلى الثالثة».

قال فاريش في الصمت الذي أعقب ذلك: «مئة دولار، لك أن تقبل أو ترفض».

دعك أودوم رأس العصا بقطعة الطباشير ورفع كمي قميصه المتخيلين. بعد ذلك قال بنبرة متعجلة دون أن ينظر إلى ابنته: «لست جاهزاً للذهاب بعد، يا حلوتي! إنني أكسب مالأ هنا، اذهبي وانظري إلى تلك الكتب».

«بابا، قلت لي أن أذكرك ب...».

«قلت لك أن تذهبي!»، ثم قال مخاطباً فاريش: «ابدأ أنت».

«لقد رتبت الكرات».

قال أودوم مشيراً إليه بيده: «أعلم هذا. ابدأ، أعطيك البداية».

انحنى فاريش مستنداً إلى الطاولة بثقله كله، ونظر إلى الكرة السوداء بعينه السليمة (كأنه ينظر إلى هيلي مباشرة)، كانت نظرتة باردة كأنه ينظر عبر ماسورة بندقية.

كراك! جرت الكرات في كل اتجاه، ذهب أودوم إلى الجهة المقابلة ودرس الطاولة بضع لحظات، ثم حرك عنقه ليمدّل وضعه بحركة سريعة وانحنى كي يسدد ضربيته.

دخل كاتفيش بين الرجال الذين تركوا آلات اللعب وتركوا طاولات البلياردو القريبة وأتوا لمتابعة اللعبة، همس بكلمات غير واضحة للرجل الذي كان يرتدي القميص الأصفر، لحظة أدى أودوم قفزة استعراضية فأحرز كرتين اثنتين بدلاً من كرة واحدة. تعالت صيحات التشجيع.

تراجع كاتفيش إلى جهة داني وسط الهمسات المتناثرة من الجمهور، وهمس له: «يستطيع أودوم أن يسيطر طيلة النهار على الطاولة ما دامت لديه ثمانى كرات».

«فاريش لا يقل عنه مهارة، إن أراد ذلك».

سدد أودوم ضربة حاذقة جديدة، كان تسديده دقيقاً فأصابته الكرة السوداء كرة صلبة أصابت بدورها كرة أخرى فأسقطتها في الفتحة.

تعالت صيحات التشجيع مجدداً.

قال داني: «من دخل الصالة؟ ثمة رجلان عند آلة البينبول؟»

قال كاتفيش: «لست مهتماً»، ألقى نظرة سريعة من فوق كتفه ومن فوق رأس هيلي وهو يمد يده إلى جيب الساعة في سترته الجلدية ويخرج منه جسمًا معدنيًا صغيرًا بحجم مسند كرة الغولف وشكله. في اللحظة التي كانت أصابعه ذات الخواتم تطبق على ذلك الشيء، استطاع هيلي رؤية أنه تمثال صغير من البرونز لامرأة عارية في حذاء عالي الكعب وشعر غزير له تسريحة إفريقية

«لَمْ لَا؟ من هما؟»

قال كاتفيش فيما كان أودوم يسدد كرة سهلة أخرى فتسقط في جيب الطاولة: «ليسا إلا شابين مسيحيين صالحين». بحركة خفية (نصف يده في جيبه ونصفها خارج جيبه) فك رأس المرأة عن جسدها ونقره بإبهامه فسقط في جيبه. نظر إلى صاحب القميص الأصفر وأصدقائه البدناء: «هما من مجموعة أخرى ذاهبة إلى تكساس»، نظر كاتفيش حوله، ثم استدار كأنه يريد أن يعطس. رفع القارورة وأخذ منها نشقة سريعة خفية، وقال وهو يسمح أنفه بكم سترته: «يعملان على قارب صيد». مرت نظرتة دون اكتراث على رف الكتب ومن فوق رأس هيلي وهو يناول داني تلك القارورة.

أخذ داني نشقة عالية الصوت، ثم أغلق منخريه بأصابعه،
دمعت عيناه، وقال: «يا إلهي!»

ضرب أودوم كرة أخرى، ونظر فاريش إلى الطاولة وسط
صيحات رجلي قارب الصيد، كانت عصا البلياردو متوازنة عند
رقبته، أفقيًا، ومرفقاه متدليين إلى جانبيه، ويداه مسترخيتين.
تراجع كاتفيش إلى الخلف خطوة بحركة راقصة متراخية
كوميديّة، بدا فجأة مفعّمًا بالحيوية، فقال بصوت مرح: «سيد
فاريش صار مسيطرًا على الوضع»، كان صوته تقليدًا لكوميدي
أسود مشهور يظهر في التلفزيون.

كان هيلي متحمسًا وحائرًا إلى حد شعر معه أن رأسه على
وشك الانفجار، فاته إدراك معنى تلك القارورة الصغيرة، ولكن
لغة كاتفيش وسلوكه المريب لم يفوتاه، وعلى الرغم من أنه لم
يكن متأكدًا تمامًا مما كان يحدث، فإنه كان يعرف أن الأمر يتعلق
بالقمار وأنه مخالف للقانون، تمامًا مثلما هو مخالف للقانون أن
تطلق النار من فوق جسر حتى إذا لم تقتل أحدًا، احمرت أذناه؛
كانت أذناه تحمران دائمًا كلما شعر بالإثارة، وكان يأمل ألا يلاحظ
أحد ذلك. أعاد الكتاب الذي كان ينظر فيه إلى مكانه بحركة
أرادها أن تبدو عادية، وتناول كتابًا آخر اسمه «أسرار البيت
المشؤوم». كان الغلاف يحتوي على صورة لهيكل عظمي يجلس
خلف منصة الشهادة في محكمة وهو يمد ذراعه العظمية إلى
الجمهور، ومحامٍ شبحي يصيح: «والآن، سوف يشير هذا الشاهد
الذي كان هو الضحية إلى الرجل الذي قتله!»

صاح أودوم على نحوٍ مفاجئ: «هيا، اضربها!»، في حين كانت كرة الثمانية تتدحرج على قماش الطاولة، ارتدّت الكرة وسقطت في الفتحة المقابلة عند الزاوية.

وفي غمرة الجلبة التي تلت ذلك، أخرج أودوم من جيب بنطلونه الخلفي زجاجة ويسكي صغيرة وتناول منها جرعة كبيرة ظمأى. قال: «أرني تلك الدولارات المئة يا راتليف».

أجابه فاريش راتليف بنبرة حادة: «أنا جاهز لدفعها، وأنا جاهز أيضًا لأن ألعب على مئة غيرها»، وراح يرتب الكرات التي سقطت في المستودع.

«الفائز هو الذي يبدأ اللعب الآن». رفع أودوم كتفيه ونظر إلى عصاه مضيقًا عينيه (تغضن أنفه وارتدت شفته العليا كاشفة عن أسنانه الأمامية التي تشبه أسنان الأرنب)، ثم سدد ضربة أولى جعلت الكرة السوداء تواصل الدوران حول نفسها حتى أصابت مجموعة الكرات، وقذفت بالكرة رقم 2 في فتحة الزاوية.

صفق الرجلان العاملان على زورق الصيد وهلّلا له، كان مظهرهما موحياً بأنهما يشهدان شيئاً حسناً، اقترب كاتفيش منهم بحركة رشيقة (ذقنه مرفوع وركبتاه تتحركان برشاقة) كي يشاورهم في أمر المال.

صاح داني من آخر الصالة: «هذه أسرع خسارة لك!» انتبه هيلي إلى أن لشارون أودوم التي كانت واقفة خلفه تمامًا، لم ينتبه لوجودها لأنها قالت شيئاً، بل لأن الطفل الذي كان معها كان مصاباً بالزكام، كان يطلق صوت أزيز رطب منفر، تمتم هيلي وهو يبتعد قليلاً: «ابتعدي عني».

تبعته لشارون خجلي فدخلت من جديد طرف مجال رؤيته:
«ألا تعيرني ربع دولار؟»

وجد الرجاء اليأس المتملق الذي لمسّه في صوتها أشدّ
تفكيراً حتى من تنفس الطفل المخاطي، فأدار ظهره لها، جحظت
أعين رجلي زورق الصيد عندما شاهدا فاريش يمد يده إلى
مستودع الكرات من جديد.

أمسك أودوم فكّه بيديه الاثنتين وطقطق رقبتّه شمالاً ويميناً،
وقال له: «ألم تكتفِ بعد؟»

فرقع كاتفيش بأصابعه وقال بصوت غنائي محاكياً الصوت
المنبعث من آلة الموسيقى: «أوه، كل شيء جيد الآن! ماذا أقول يا
عزيزي؟»

زمجر فاريش وهو يلقي الكرات بقعقة غاضبة: «ما هذه
التفاهات في آلة الموسيقى؟»

راح كاتفيش يهز ردفه معابثاً إياه: «لا تتوتر يا فاريش!»
قال هيلي للشارون التي عادت إلى الاقتراب منه حتى كادت
تلمسه: «ابتعدي عني، لا أريد أن ألتقط العدوى».

شعر بالغثيان لقربها منه، فقال ذلك بصوت أعلى مما كان ينوي،
وشعر بالتوتر عندما رأى نظرة أودوم الغائمة تتجه إليه. رفع فاريش
رأسه أيضاً فاخرقت نظرة عينه السليمة هيلي كأنها سكين.

استشق أودوم نفساً عميقاً ثملاً، ووضع عصا البلياردو من
يده، وقال بنبرة مسرحية درامية مخاطباً فاريش والآخرين: «هل
ترون تلك الفتاة الصغيرة الواقفة هناك؟ ليس من طبعي أن أقول
هذا، لكنها تقوم بعمل امرأة بالغة».

تبادل كاتفيش وداني راتليف نظرة سريعة حذرة.

«أسألكم: أين تستطيعون أن تعثروا على فتاة صغيرة جميلة مثلها؛ إنها تعتني بالبيت وتهتم بإخوتها الصغار وتضع الطعام على الطاولة، وتحضر حاجات المنزل، ولا يستطيع أبوها المسكين الاستغناء عنها؟»

قال هيلي في نفسه: لن أكل أي طعام تضعه هذه البنت على الطاولة.

قال فاريش بيرود: «أطفال اليوم يعتقدون أنهم يجب أن يحصلوا على كل شيء، من الأفضل لهم أن يكونوا مثل أطفالك ويعتمدوا على أنفسهم».

قال أودوم بصوت متهدج: «عندما كنت أنا وإخوتي صغاراً، لم يكن لدينا حتى حافظة تبريد...»، احتد صوته، وأضاف: «وكنت أقطف القطن في الحقول طيلة الصيف».

«وأنا أيضاً كنت أقطف القطن».

«وكانت أمي.. أقسم لكم.. كانت تعمل في تلك الحقول مثل زنجي، وأنا.. لم أكن قادراً على الذهاب إلى المدرسة! كان والداي بحاجة إليّ في المنزل، لم نكن نملك شيئاً! كان لدي مال، فلا شيء في هذا العالم لن أشتريه لهؤلاء الصغار. هم يعرفون أن والدهم العجوز يفضل أن يعطيهم أي شيء على أن يحتفظ به لنفسه. أليس كذلك؟ ألا تعرفون ذلك؟»

ارتحلت عيناه الزائغتان من لشارون إلى الطفل الصغير إلى هيلي نفسه، كرر سؤاله بصوت أشد علواً وأقل جاذبية: «قلت ألا تعلمون هذا؟»

كان يحدق إلى هيلي مباشرة، وكان هيلي مصدومًا: ماذا! أكون هذا الأبله ثملًا إلى حد يجعله غير مدرك أنني لست واحدًا من أطفاله؟ راح ينظر إليه فاغراً فمه.

همست لشارون بصوت لا يكاد يكون مسموعًا: «صحيح، يا بابا».

رقت عينا أودوم واقترب من ابنته بخطوات ثابتة، كان ارتعاش شفته الرطبة أبشع من كل ما رآه هيلي ذلك العصر.

قال: «هل سمعتم هذا؟ هل سمعتم تلك الفتاة الصغيرة؟ تعالي وعانقي بابا!»، ثم مسح بأصابعه دمعة تدرجت من عينه.

رفعت لشارون الطفل الصغير على وركها ومضت إليه بخطوات بطيئة، كان هناك شيء في الطريقة المتملكة التي احتضنها بها أودوم، وفي تقبل ابنته ذلك العناق بوجه خال من التعبير (كأنها كلب بائس يتقبل لمسة من صاحبه) أثار اشمئزاز هيلي لكنه أخافه أيضًا.

«هذه الفتاة الصغيرة تحب أباه، أليس هذا صحيحًا؟» شدها إلى صدره ودمعت عيناه.

شعر هيلي بالراحة عندما رأى من الطريقة التي تبادل بها كاتفيس وداني راتليف النظرات أنهما يشاركانه الاشمئزاز من تصرفات أودوم.

«إنها تعلم أن أباه رجل فقير، ولا تطالب بأن يكون عندها ألعاب كثيرة أو حلوى أو ملابس فاخرة».

قال فاريش فجأة: «ولماذا تحتاج إلى هذه الأشياء؟»

نظر إليه أودوم نظرة ضبايية وقطَّب حاجبيه (كان منتشياً بالكلام الذي قاله).

«نعم، سمعتي جيداً. لماذا تحتاج إلى هذه الأشياء؟ لماذا يحتاج أي طفل إليها؟ لم يكن لدينا شيء منها في طفولتنا، أليس كذلك؟»

أنارت وجه أودوم موجة دهشة بطيئة.

صاح بصوت مرح: «لا يا أخي!»

«فهل كان فقرنا يخلجنا؟ هل كنا نرى أننا أفضل من أن نعمل؟ ما كان جيداً لنا سيكون جيداً لها أيضاً، أليس كذلك؟»
«صحيح تماماً!»

«من يقول إن الأطفال ينبغي أن يكبروا معتقدين أنهم أفضل من آبائهم وأمهاتهم؟ الحكومة الفيدرالية هي من يقول ذلك! لماذا تظنون أن الحكومة تتدخل في بيوت الناس، وتوزع كل هذه القسائم الغذائية واللقاحات والتعليم الحر؟ لماذا تقدم هذا كله على طبق من فضة؟ أنا سأقول لكم السبب، تفعل هذا حتى تستطيع أن تغسل أدمغة الأطفال فيصيروا مقتنعين بأن عليهم أن يحصلوا على أكثر مما حصل عليه أهلهم، وأن ينظروا بازدراء إلى أصلهم ويرفعوا أنفسهم فوق لحمهم ودمهم! لا أدري شيئاً عنكم أيها السادة لكن والدي لم يعطيني قط شيئاً دون مقابل.»
تعالَت تمتمات موافقة خافتة من أنحاء الصالة كلها.

قال أودوم وهو يهز رأسه بأسف: «لا.. والداي لم يعطيانني شيئاً. كل ما أملكه عملت من أجله.»

أوماً فاريش برأسه نحو لشارون والطفل، وقال: «إذًا، أخبرني: لماذا ينبغي أن تحصل هذه على ما لم نحصل عليه؟»

«هذه هي الحقيقة التي أراها الرب!». خاطب ابنته التي لم تتوقف عن جذب ساق بنطاله: «اتركي بابا وشأنه، يا حلوتي!»

«بابا، أرجوك، فلنذهب!»

«بابا ليس جاهزاً للذهاب بعد يا حلوتي!»

«لكن، يا بابا، طلبت مني تذكيرك بأن شركة شيفروليه تغلق عند الساعة الثالثة».

اقترب كاتفيش ليتكلم بصوت منخفض مع رجلي زورق الصيد، كانت ملامح وجهه تحمل مزيجاً من حسن النية المشوب بالقلق، ألقى أحد الرجلين نظرة على ساعة يده، ولكن أودوم مد يده في تلك اللحظة إلى جيب بنطلونه القذر وبحث فيه بضع لحظات، ثم أخرج أكبر حزمة نقود رآها هيلي في حياته كلها.

استقطبت النقود انتباه الجميع، ألقى أودوم النقود على طاولة البلياردو.

قال بصوت ثمل وهو يشير إلى المال بنبرة مضغمة بالتبجيل: «ما تبقى من تعويض التأمين، سأذهب إلى شركة شيفروليه وأدفع المال لذلك الوغد ذي الأنفاس المعطرة برائحة النعناع روي دايال، لقد أخذ سيارتي من أمام منزلي».

قال فاريش بنبرة رزينة: «هذه هي طريقتهم في العمل، أولئك الأوغاد في هيئة الضرائب وفي شركة التمويل وفي إدارة المقاطعة، يأتون مباشرة إلى بيت الرجل أو أرضه ويأخذون ما يريدون متى أرادوا!»

قال أودوم رافعاً صوته: «سوف أذهب إلى الشركة مباشرة وأستعيد سيارتي.. بهذا المال».

«ممم! هذا ليس من شأني، ولكن لا ينبغي أن تتفق كل هذا المال على سيارة».

تراجع أودوم مترنحاً وصاح بنبرة عدائية: «ماذا؟». كان المال لا يزال على قماش الطاولة الأخضر وسط دائرة من الضوء الأصفر. رفع فاريش كفاً قدرة: «أقول إنك إذا اشتريت سيارتك قانونياً -كما يدعون- من شخص محتال من مثل دايال، فلن يكون هو وحده من يسرق مالك، بل الولاية والحكومة الاتحادية أيضاً ينتظران حصتهما، لقد تكلمت مرات كثيرة ضد ضريبة المبيعات. ضريبة المبيعات غير دستورية، وأستطيع أن أشير بإصبعي إلى الموضع الذي يقول ذلك في دستور البلد».

قالت لشارون بصوت خافت وهي تجذب بقوة ساق بنطال أبيها: «هيا، يا بابا، من فضلك، يا بابا، دعنا نذهب».

جمع أودوم ماله الذي ألقاه على الطاولة، لم يبدُ عليه أنه استوعب كلام فاريش، كان تنفسه ثقیلاً: «لا، يا سيدي! لا أستطيع ذلك الرجل أن يأخذ ما هو ملكي! سوف أذهب مباشرة إلى شركة دايال شيفروليه وألقي هذا المال في وجهه». صفع طاولة البلياردو بحزمة المال: «وسوف أقول له.. سأقول له: أعد إليّ سيارتي أيها الوغد ذو الأنفاس المعطرة برائحة النعناع!»

وضع النقود في جيبه الأيمن بصعوبة فيما كان يبحث عن ربع دولار في جيبه الآخر: «ولكنني سأعطيهِ أربعمئة دولار، وفوقها مئتا دولار من عندك إذا هزمتك مرة ثانية بثماني كرات».

تتهد داني راتليف بصوت مسموع، كان يسير بخطوات صغيرة حول آلة بيع المشروبات الغازية.

قال فاريش دون مبالاة: «هذه مقامرة كبيرة، دوري؟»

قال أودوم: «ابدأ!»، ولوّح بيده بكرم.

دون أي تعبير على وجهه، أدخل فاريش يده في جيب سترته وأخرج محفظة سوداء ضخمة مربوطة بسلسلة إلى حلقة حزامه، أحصى ستمئة دولار من فئة عشرين دولارًا بحركة سريعة كمن يعمل في بنك، ثم وضع المال على الطاولة.

قال أودوم: «هذا مبلغ كبير، يا صديقي».

أطلق فاريش ضحكة خشنة: «صديقك! ليس لدي غير صديقين...»، رفع محفظته التي لا تزال ممتلئة نقودًا ونظر إليها: «هل ترى هذه؟ هذه أول أصدقائي، وهي موجودة معي دائمًا في جيبتي، لدي أيضًا صديق آخر يظل معي دائمًا؛ إنه مسدسي». قالت لشارون يائسة وهي تجذب ساق بنطال أبيها مرة أخرى: «بابا، من فضلك!»

«إلى أي شيء تنظر، أيها الوغد الصغير؟»

قفز هيلي في مكانه، كان داني راتليف الذي يقف على مسافة قدم واحدة منه ينظر إليه نظرة ملتبهة، وعيناه المخيفتان تلمعان. «هممم! أجبني عندما أكلّمك، أيها الوغد الصغير».

صار الجميع ينظرون إليه؛ كاتفيش وفاريش وأودوم ورجلا زورق الصيد والرجل البدين خلف طاولة البيع.

كما لو كان الصوت يأتي من مسافة بعيدة جدًا، سمع لشارون أودوم تقول بصوتها الحامضي الواضح: «إنه ينظر معي إلى هذه الكتب، يا بابا!»

«هل هذا صحيح؟ هل هذا صحيح؟»

أوما هيلي برأسه، كان مذعورًا فلم يستطع أن يتكلم.

«ما اسمك؟» جاء الصوت الخشن من آخر الصالة، رفع هيلي رأسه فرأى عين فاريش راتليف السليمة مركزة عليه كأنها مثقاب كهربائي.

قال هيلي دون تفكير: «هيلي هال»، ثم وضع يده على فمه فزعا.

أطلق فاريش ضحكة جافة، وقال وهو يدعك رأس عصاه بقطعة طباشير زرقاء اللون: «هكذا تكون الشجاعة، يا ولد»، لا تزال عينه السليمة ثابتة عليه «لا تقل أبدًا أي شيء لست مرغما على قوله».

قال داني راتليف لأخيه الأكبر: «آه، أعرف من هو هذا الفتى المزعج»، ثم أشار إلى هيلي بحركة من ذقنه، وأضاف: «هل قلت اسمك هال؟»

قال هيلي بائسا: «صحيح، يا سيدي!»

ضحك داني ضحكة خشنة عالية الصوت: «صحيح، يا سيدي! اسمعوا هذا! لا تتادني بسيدي، أنت أيها...».

قال فاريش لأخيه بنبرة فضة: «لا عيب في أن يكون الصبي مهذبًا. هل قلت إن اسمك هال؟»

«نعم يا سيدي».

قال داني مخاطبًا فاريش: «إنه قريب ذلك الفتى هال الذي يقود سيارة كاديلاك قديمة مكشوفة».

قالت لاشارون أودوم بصوت عالٍ في ذلك الصمت المتوتر:
«بابا، بابا! هل أستطيع أنا وروستي أن نلقي نظرة على تلك
الكتب؟»

ربت أودوم على مؤخرتها: «أذهبي يا حلوتي!» ثم خاطب
فاريش بصوته الثمل وهو يضرب الأرض بعقب عصا البلياردو
تأكيداً على كلامه: «إن كنا سنلعب، فلنلعب الآن. ينبغي أن أذهب»،
ولكن فاريش كان قد بدأ يصف الكرات بعد أن قذف هيلي بنظرة
أخيرة طويلة (هذا ما جعل هيلي يشعر بالانفراج).

ركز هيلي كل ذرة من انتباهه على الكتب المصورة؛ كانت
حروفها تهتز قليلاً مع ضربات قلبه، وكان يقول لنفسه: لا ترفع
رأسك ولا حتى ثانية واحدة! كانت يدها مرتعشتين ووجهه شديد
الاحمرار، وأحس أن احمرار وجهه يجذب انتباه كل من في الصالة
كأنه نار مشتعلة.

سدد فاريش الضربة الأولى وكان صوتها شديداً، كان صوتاً
عالياً جعل هيلي يجفل، سقطت كرة في إحدى الفتحات وبعد
بضع ثوانٍ سقطت كرة ثانية.

صمت رجلا زورق الصيد اللذان كانا يراقبان. كان أحدهم
يدخن سيجاراً، أصابت رائحته هيلي بصداع في رأسه مثلما فعل
الحبر الفاقع الذي كان يتراقص على الصفحة المطبوعة أمامه.
صمت طويل، ثم صوت ضربة، فصمت طويل آخر. وبهدوء
شديد بدأ هيلي يتسلل صوب الباب.

ضربة، ثم ضربة، كان الهدوء مشحوناً بالتوتر.

صاح أحدهم: «يا إلهي! قلتم إن ابن الحرام لا يرى جيداً».

ساد التشوش والارتباك الأجواء، كان هيلي قد تجاوز صندوق المحاسبة وكاد يخرج من الباب عندما اندفعت يد وأمسكت بياقة قميصه، ليجد نفسه أمام البائع الأصلع الذي يشبه رأسه رأس الثور، أدرك مذعورًا أن كتاب «أسرار البيت المشؤوم» لا يزال في يده، وأنه لم يدفع ثمنه بعد، بدأ يفتش في جيب بنطاله القصير، ولكن الرجل لم يكن مهتمًا به، ولم يكن ينظر إليه حتى على الرغم من أنه يمسك بياقة قميصه، كان اهتمامه منصبًا على ما يحدث في طاولة البلياردو.

ألقى هيلي على طاولة البيع ربع دولار وعشرة سنتات، ثم جرى خارجًا من الباب فور أن ترك الرجل ياقة قميصه، أبهرت شمس بعد الظهر عينيه بعد ظلام صالة البلياردو، ركض على الرصيف وقد غامت عيناه في الضياء الشديد لدرجة أنه بالكاد استطاع أن يرى إلى أين يذهب.

لم يكن هناك أي مشاة (فالوقت صار متأخرًا)، لم يكن فيها سوى بضع سيارات متوقفة. دراجته.. أين هي؟ ركض متجاوزًا مكتب البريد ثم المعبد الماسوني، كان في منتصف الشارع الرئيسي عندما تذكر أنه ترك دراجته في الزقاق خلف مبنى البلدية.

استدار وركض عائدًا ولاهثًا، كان الزقاق زلًا لكثرة الطحالب على أرضه، وكان شبه مظلم، ذات مرة عندما كان هيلي أصغر سنًا دخل هذا الزقاق دون انتباه إلى وجهته فتعثر وسقط على وجهه فوق جسد متشرد نحيل مستلق في الظلام (كان المتشرد كومة من أسمال كريهة الرائحة وسط الزقاق). عندما سقط

هيلي فوقه، انتفض الرجل شامئاً إياه وأمسك بعقب ساقه، صرخ هيلي كأنّ بنزيراً يغلي قد سُكب عليه، وفي نضاله اليأس كي يفر فقد فردة حذائه.

ولكن هيلي خائفاً جداً في تلك اللحظة لدرجة أنه لم يهتم بمن قد يدوس في طريقه، اندفع سريعاً في الزقاق متفادياً بقع الطحالب الزلقة على الأسمنت، واستعاد دراجته، لم يكن هناك مساحة كافية في الزقاق ليقود الدراجة خارجاً منه، بل إنه بالكاد كان هناك مجال ليديرها، أمسك بمقودها ودفعها بعنف حتى تمكن من جعل العجلة الأمامية في المقدمة، ثم جرى دافعاً إياها أمامه خارجاً من الزقاق، حيث كانت -ويا للذعر- لشارون أودوم والطفل واقفين على الرصيف في انتظاره.

تجمد هيلي، رفعت لشارون الطفل إلى نقطة أعلى على وركها بحركة كسلى ونظرت إلى هيلي. لم يكن لديه أدنى فكرة عما تريده منه، لكنه شعر بالخوف من أن يقول أي شيء، فبقي واقفاً هناك، يحدق إليها فيما قلبه ينبض بعنف.

بعد ما بدا له زمناً طويلاً جداً، دفعت بالطفل مرة ثانية إلى الأعلى وقالت: «دعني آخذ ذلك الكتاب!»

دون أن ينطق كلمة واحدة، مد هيلي يده إلى جيبه الخلفي وناولها الكتاب الذي اشتراه، وبحركة هادئة دون أي بادرة تتم عن الشكر حملت الطفل بيد واحدة ومدت يدها الأخرى كي تأخذ الكتاب منه، ولكن الطفل سبقها فمد يديه وأطبقت يدها الصغيرتان القذرتان على الكتاب المصور، قرّبه من وجهه ونظر إليه بعينين وهورتين ثم بحركة مترددة قليلاً أطبق عليه فمه الدبق الملوّث بلون برتقالي.

شعر هيلي بالاشمئزاز؛ فأن تريد الفتاة قراءة الكتاب أمر، وأن تريده كي يلوكه الطفل أمر آخر! لم تحاول لشارون أخذ الكتاب من الطفل، وبدلاً من ذلك نظرت إليه بعينين حانيتين وراحت تهزّه صعوداً وهبوطاً بمحبة كأنه طفل نظيف جذاب وليس هذا الشيء الصغير الذي يلهث ويسيل لعابه.

قالت للطفل بحنان بالطريقة التي يكلمون بها الأطفال الصغار: «لماذا تبكي يا صغيري؟»، نظرت في وجهه الصغير: «لماذا تبكي يا صغير؟ هممم؟»

قالت آيدا ريو لهارييت: «ارتدي بعض الملابس، فالماء يقطر منك على الأرض».

«لا، لا يقطر الماء مني. جفت ملابسي في طريق عودتي إلى البيت».

«أقول لك ارتدي بعض الملابس».

في غرفتها خلعت هارييت ملابس السباحة وارتدت شورطاً كاكى اللون وقميصاً قطنياً أبيض على صدره وجه مبتسم أصفر، كان الوحيد النظيف لديها، كانت تكره قميص الوجه المبتسم الذي أهداه لها والدها يوم عيد ميلادها، ولما كان والدها لا يهتم كثيراً بها، فلا بد أنه ظن أن هذا القميص يناسبها، كانت هذه الفكرة تثير حنق هارييت أكثر من القميص نفسه.

ما لم تكن هارييت تعرفه هو أن قميص الوجه المبتسم (وكذلك مشابك الشعر على هيئة شارة السلام والهدايا الأخرى ذات الألوان الزاهية وغير المناسبة التي كان والدها يرسلها لها

في عيد ميلادها) لم تكن اختيار والدها على الإطلاق، بل اختيار عشيقته في ناشفيل. ولولا تلك العشيقة (التي كان اسمها كاي) لما حصلت هاربيت وأليسون على أي هدايا عيد ميلاد. كانت كاي وريثة صغيرة لمصنع مشروبات غازية، وكانت بدينة قليلاً ولها صوت سكري وابتسامة ناعمة، وتعاني بعض المشكلات النفسية. كما أنها كانت تفرط في الشراب؛ وكثيراً ما كانت هي ووالد هاربيت يذرفان الدموع في الحانات متحسرين على بناته الصغيرات المحبوسات في المسييسي مع والدتهن المجنونة. كان جميع الناس في البلدة يعرف بأمر عشيقة ديكس في ناشفيل باستثناء عائلته وعائلة زوجته، لم يكن أحد يملك الجرأة لإخبار إيدي، ولم يكن لأحد قلب فيه من القسوة ما يكفي ليخبر أي شخص آخر، كان زملاء ديكس في البنك يعرفون، ولم يكونوا راضين، فقد كان أحياناً يحضر تلك المرأة إلى نشاطات البنك، أما شقيقة زوجة روي دايال التي كانت تعيش في ناشفيل، فقد أخبرت السيد والسيدة دايال أن «عصفوري الحب» يعيشان في شقة واحدة، وفيما احتفظ السيد دايال بذلك لنفسه (وهذا يحسب له)، ولكن السيدة دايال نشرت الخبر في ألكساندريا كلها، حتى هيلي نفسه كان يعلم، فقد سمع والدته تتحدث عن ذلك عندما كان في الثامنة أو التاسعة من عمره، وعندما واجهها جعلته يقسم ألا يذكر ذلك لهاربيت أبداً؛ ولم يخبرها قط.

لم يخطر ببال هيلي يوماً أن يعصي والدته. وعلى الرغم من أنه احتفظ بالسر ولم يُبَحْ به لهاربيت -السر الوحيد الحقيقي الذي أخفاه عنها- فإنه لم يكن يظن أن هاربيت ستتضايق كثيراً

إذا اكتشفت الحقيقة. وكان محققاً في ذلك. لم يكن أحد ليهتم سوى إيدي من باب الكبرياء المجروحة؛ فمع أن إيدي كانت تتذمر من أن حفيداتها نشأن دون أب، فلم يكن أحد بما في ذلك هي قد اقترح أن عودة ديكس ستُصلح هذا النقص بأي حال.

كانت هاربيت في مزاج شديد الكآبة لدرجة أنها وجدت بعض المتعة (متعة غير طبيعية) في المفارقة بين حالتها المزاجية والوجه المبتسم على القميص، كانت نظرة القميص المفعمة بالثقة تذكرها بوالدها، على الرغم من أن والدها لم يكن لديه سبب منطقي ليكون سعيداً أو ليتوقع أن تكون هاربيت سعيدة، لا عجب أن إيدي كانت تكرهه، كان يمكنك معرفة ذلك فقط من طريقة نطق إيدي لاسمه: «ديكسون»، وليس «ديكس».

كان أنفها يسيل، وهناك حرقة في عينيها بسبب المواد الكيميائية في بركة السباحة، جلست على حافة النافذة ونظرت إلى فناء البيت الأمامي، إلى أوراق الأشجار ذات الخضرة الغنية في أوج الصيف، أحسّت بثقل وغرابة في أطرافها نتيجة كثرة السباحة، خيم على الغرفة كلها جو خائق من الحزن كما يحدث دائماً كلما جلست هاربيت ساكنة وقتاً طويلاً، في صغرها كانت أحياناً تردد لنفسها عنوان بيتها كأنها تخبر به زائراً قادماً من الفضاء الخارجي:

هاربيت كليف دو فريسنس، 363 شارع جورج، ألكساندريا، ميسيسيبي، أمريكا، كوكب الأرض، مجرة درب التبانة.. كان ذلك الإحساس بالاتساع اللا متناهي كأن فم الكون الأسود يبتلعها (حبة بيضاء صغيرة في رشّة من السكر الأبيض تمتد إلى ما لا نهاية)، يجعلها تشعر كأنها تختنق.

عطست عطسة عنيفة، فتطاير الرذاذ في كل مكان. ضغطت على أنفها، وعيناها تدمعان، وركضت بسرعة نحو الأسفل لتأخذ مناديل «كلينكس». كان الهاتف يرن؛ ولكنها بالكاد كانت تستطيع رؤية طريقها، وكانت آيدا تقف عند طاولة الهاتف في أسفل السلم، وقبل أن تدرك هارييت ما كان يحدث، قالت آيدا: «ها هي ذي هنا»، ووضعت السماعة في يدها.

«هارييت.. اسمعي! داني راتليف موجود الآن في صالة البلياردو هو وشقيقه، إنهما الشخصان اللذان أطلقا علي النار من فوق الجسر».

قالت هارييت: «انتظر»، كانت مرتبكة وتحاول أن تكتم عطسة أخرى.

«لكني رأيته يا هارييت، إنه مخيف جدًا، هو وشقيقه أيضًا». استمر يثرثر ويثرثر عن السرقة والمسدسات واقتحام البيوت والمقاومة. تسلفت أهمية ما كان يقوله إلى عقل هارييت تدريجيًا، فوقفت تصفي إليه مستغربة، اختفى إحساسها بالحاجة إلى العطاس؛ كان أنفها ما زال يسيل، التفت بحركة خرقاء وحاولت مسح أنفها بأعلى كم قميصها، كما كان القط «ويني» يحك وجهه بالسجادة عندما يكون في عينه شيء يزعجه.

قال هيلي مقاطعًا نفسه في منتصف قصته: «هارييت!»، كان في توق شديد إلى إخبارها بكل ما جرى، فنسي أن بينهما خصامًا وأنه لا يكلمها.

«أنا هنا».

تلا ذلك صمت قصير انتهت هاربيت خلاله إلى صوت التلفاز في بيت هيلي.

قالت له: «متى غادرت صالة البليارد؟»

«منذ ربع ساعة».

«أظنه لا يزال هناك».

«ربما، بدا أن هناك شجاراً سيحدث، كان الشابان القادمان من زورق الصيد غاضبين».

عطست هاربيت: «أود أن أراه، سوف أذهب الآن بدراجتي».

قال هيلي محذراً: «ماذا؟ مستحيل!»، لكنها كانت قد أنهت المكالمة.

لم تقع في الصالة أي مشاجرة، على أي حال لم يحدث شيء مما يمكن أن يدعو داني مشاجرة، مرت لحظة بدا فيها أن أودوم متردد في دفع المال، فما كان من فاريش إلا أن حمل كرسيًا وضرب به الأرض، ثم بدأ يركله ركلات متكررة (في حين انزوى الطفلان عند الباب خائفين)، وسرعان ما بدأ أودوم يصرخ ويتوسل فاريش أن يأخذ المال. كان رجلا زورق الصيد مصدر القلق الحقيقي لأنهما قادران على التسبب بمشكلة كبيرة إن أرادا ذلك، ومع أن الرجل البدين صاحب القميص الرياضي الأصفر صرخ ببعض الشتائم الغاضبة، فقد اكتفى الآخرون ببعض الهمسات، حتى أنهم ضحكوا قليلاً وإن كانت ضحكاتهم حانقة، كانوا في إجازة ولديهم المال ليصرفوه كيفما يريدون.

تعامل فاريش مع توسلات أودوم البائسة بطريقة باردة؛ كانت

فلسفته «كل أو ستؤكل»، وأي شيء يستطيع أخذه من غيره يعدّه ملكاً مشروعاً له، فيما كان أودوم يسير متوتراً جيئةً وذهاباً، ويتوسل إلى فاريش أن يفكر في أطفاله، كان تعبير وجه فاريش المنتبه المبتهج يذكر داني بمظهر كلبى فاريش التوءمين الشرسين بعد أن يكونا قد قتلا قطعاً (أو عندما يكونان على وشك قتله): تيقظ وجدية ومرح، نرجو ألا يغضبك هذا أيها القط! نتمنى لك حظاً أفضل في المرة القادمة.

كان داني معجباً بموقف فاريش الحازم، مع أنه كان يكره مثل هذه المواقف. أشعل سيجارة مع أنه كان يشعر بمذاق مر في فمه من كثرة التدخين.

اقترب كاتفيش من أودوم ووضع يده على كتفه: «اهدأ!». كانت روح كاتفيش المعنوية العالية لا تتضب، فهو مبتهج دائماً بصرف النظر عما يحدث، وكان غير قادر على فهم ما يمنع أي إنسان من التحلي بهذه المرونة.

في خضم وعيده الواهي نصف المجنون (وعيد لا يوحي بالخطر بقدر ما هو مثير للشفقة)، تراجع أودوم إلى الخلف قليلاً وصاح: «أبعد يدك عني، يا زنجي!»

لم يزعج هذا كاتفيش إطلاقاً: «من يلعب مثلك يا أخي، لن يجد صعوبة في كسب ذلك المبلغ من جديد. في وقت لاحق إذا أحببت تعال وابحث عني في صالة إسكواير، ويمكننا أن نلعب مرة أخرى».

ترنح أودوم واصطدم بالجدار المبني من آجر رملي، وقال: «سيارتي!»، تورمت عيناه وسال الدم من فمه.

فجأة لمعت في ذهن داني ذكرى بشعة من طفولته المبكرة: صورة نساء عاريات موضوعة في مجلة لصيد الأسماك تركها والده بجانب المرحاض في الحمام. كانت الإثارة التي شعر بها ملوثة، إثارة مريضة، اختلط الأسود والوردي بين سيقان النساء مع صورة غزال نازف أصابه سهم في عينه في الصفحة نفسها، وصورة سمكة عالقة بخطاف الصيد على الصفحة المجاورة. وذلك كله.. الغزال المحتضر الجاثي على قائمته الأماميتين، والسمكة اللاهثة من أجل الهواء، كان مختلطاً بذكرى تخبطه وهو يكافح لالتقاط أنفاسه في كوابيسه.

قال بصوت عالٍ: «كفّ عن هذا!»

قال كاتفيش شارد الذهن وهو يفتش في جيوب معطفه باحثاً عن القارورة الصغيرة: «أكفّ عن ماذا؟»
«هذا الضجيج في أذني، لا يتوقف أبداً».

تناول كاتفيش نشقة سريعة ثم ناول داني القارورة: «لا تدعه يوهن عزيمتك»، ثم نادى أودوم الذي كان في الناحية الأخرى من الصالة: «أنت، أودوم.. الرب يحب الخاسر المبتسم».

قال داني وهو يفلق أنفه بإصبعيه: «هوو!»، فاضت عيناه دمعاً. جعله الطعم البارد والمعقم في مؤخرة حلقه يشعر بالنقاء: كل شيء عاد إلى السطح، كل شيء يتلألأ على وجه هذه المياه الساطعة التي كانت تندفع مثل الرعد فوق حفرة صرف صحي مملوءة بالقذارة التي سئم منها حتى الموت: الفقر والأوساخ والعفن وأمعاء زرقاء ممتلئة بالقذارة.

أعاد القارورة إلى كاتفيش. هبّ نسيم بارد ومنعش في رأسه، تحول جو قاعة البلياردو الكئيب الملوّث (كله أوساخ وبقايا كحول) إلى مكان نظيف ومشرق ومضحك فجأة، لمعت في رأسه فكرة هزلية، فكر أن أودوم الباكي بملابسه الريفية ورأسه الكبير الذي يشبه يقطينة يبدو مثل شخصية «إلمير فود» في الرسوم المتحركة، أما كاتفيش النحيل والطويل المتكئ على آلة الموسيقى فإنه «بَغْز بَنِي» نفسه وقد ظهر من جحره: قدمان كبيرتان، وأسنان أمامية كبيرة، بل حتى طريقة حمله تلك السجّارة: هكذا يحمل الأرنب «بَغْز بَنِي» جزرته، كأنها سجّارة.. وهو مغرور مثله أيضًا.

أحس داني بعذوبة وامتتان، فمد يده إلى جيبه وأخرج من حزمة النقود عشرين دولارًا، كان في يده مئة أخرى، قال وهو يناول كاتفيش تلك الدولارات العشرين: «أعطه هذا من أجل أطفاله، يا رجل! وأنا الآن ذاهب».

مكتبة

«أين أنت ذاهب؟»

t.me/soramnqraa

سمع داني نفسه يقول: «ذاهب فقط».

خرج إلى سيارته، كان مساء يوم السبت والشوارع مهجورة، كانت ليلى صيفية صافية والنجوم تلمع في السماء والنسيم دافئ، وسماء الليل تملؤها أضواء النيون، كانت سيارته جميلة: سيارة بونتياك كأنها سيارة سباق بلون برونزي جميل وفتحة سقف زجاجية وفتحات للتهوية الجانبية ومكيف للهواء. كان داني قد غسلها ونظفها للتو، وكان الضياء ينعكس عنها متلألئًا حارًا، فبدت كأنها سفينة فضاء على وشك الانطلاق.

كانت إحدى بنات أودوم (نظيفة قليلاً مقارنةً بغيرها، شعرها أسود أيضاً.. لعلها من أم أخرى) تجلس قبالتها من الناحية الأخرى أمام متجر الأدوات، كانت تنظر في كتاب وتنتظر خروج أبيها البائس، وفجأة انتبهت إلى أنها تراه أمامها، لم تتحرك عضلة فيها، لكنّ عينيها لم تعد تنظر إلى الكتاب بل كانت مثبتة عليه، كما يحدث أحياناً عندما تكون تحت تأثير الميث وترى لافتة في الشارع ثم تظل تحقق إليها ساعتين متواصلتين؛ كانت هذه النظرة تزعجه مثل قبة رعاة البقر التي كانت على السرير في وقت سابق من اليوم. السرعة تؤثر في إحساسك بالزمن حقاً (لهذا يدعونها سرعة، فكر في نفسه واعتبرته رعشة حارة من شدة إعجابه بذكائه: تزداد سرعة من يتعاطى المخدرات!) ويتباطأ الزمن!)، وهذا صحيح؛ فهي تجعل الزمن يمتد كأنه شريط من مطاط، تجعله يتقدم ويتأخر، وأحياناً كان يبدو لداني أن كل شيء في العالم كان يحقق إليه حتى القطط والبقر والصور في المجلات؛ لكنّ زمناً أبدياً يبدو أنه قد انقضى، والسحب تحلق فوقهم كأنه يرى فيلماً عن الطبيعة زبدت سرعته، ولا تزال تلك الفتاة تحقق إليه دون أن ترمش، كانت عيناها خضراوين باردتين، مثل قطعة برية قادمة من الجحيم، مثل الشيطان نفسه. لكن لا: حقيقة الأمر أنها لم تكن إليه، كانت تنظر إلى كتابها كما لو كانت تقرأه منذ الأزل، المتاجر مغلقة، لا سيارات في الشارع، ظلال طويلة على الرصيف تتلوى كأنها ظلال في حلم ثقيل. عاد داني بذاكرته إلى صباح أحد أيام الأسبوع السابق عندما ذهب إلى مطعم «وايت كيتشن» بعد مراقبته غروب الشمس

فوق بحيرة السد: النادلة والشرطي وبائع الحليب ورجل البريد، كلهم التفتوا إليه عندما دفع الباب ودخل (كانوا يتحركون بطريقة عادية متظاهرين أنهم التفتوا لسماع صوت الجرس) لكنهم كانوا جادين، كانوا ينظرون إليه هو، نعم هو، كانت العيون في كل مكان، جميعها تشع بالأخضر مثل الشيطان.

كان قد مر على استيقاظه اثنتين وسبعين ساعة في ذلك الحين، كان ضعيفًا وباردًا كأنه من طين رطب، وكان يتساءل إن كان قلبه سينفجر في صدره مثلما تنفجر بطيخة ضخمة، هناك في مطعم «وايت كيتشن» أمام النادلات المراهقات الغريبات اللواتي يحدقن إليه بخناجر خضراء..

مهلاً مهلاً! قال لقلبه المتسارع، ماذا يعني أن تحرق الطفلة إليه؟ ما أهمية هذا؟ ما أهميته؟ فيما مضى، جلس داني ساعات طويلة مليئة بالكآبة والشعور بالحر على ذلك المقعد نفسه منتظرًا والده، لم تكن المشكلة في الانتظار بحد ذاته، بل الخوف مما قد يحدث له ولكورتيس فيما بعد إن كانت مجريات اللعبة لم تسر كما ينبغي. لم يكن هناك ما يمنع أن يبحث عن عزائه من خسارته بنفس الطريقة: هكذا هي طبيعة العالم. «ما دمتما تحت سقفي!». كان المصباح الكهربائي فوق طاولة المطبخ يتأرجح معلقًا من السلك، وجدّتهما تحرك شيئًا على الموقد خالية البال كأن الشتاء والصفعات والصيحات ليست إلا أصواتًا آتية من التلفاز.

ارتعش داني كأن تشنّجًا أصابه، ودس يده في جيبيه باحثًا عن قطع معدنية صغيرة يعطيها للفتاة، هذا ما كان أبوه يفعله مع

أطفال الآخرين.. يعطيهم مالا عندما يفوز فيكون مزاجه حسنا. وعلى الفور أتنه ذكرى غير مرحب بها، ذكرى أودوم نفسه تأتيه عائمة من الماضي.. (مراهق هزيل يرتدي قميصا رياضيا من لونين، وشعره الأشقر المسرح على هيئة «ذيل البطة» يبدو أصفر لكثرة ما عليه من زيت)، يجثو أمام كورتيس الصغير يعطيه علكة ويقول له ألا يبكي.

أدرك داني بدهشة شديدة أتنه مثل فرقعة (فرقعة مسموعة يستطيع المرء أن يشعر بها، فرقعة كأنها انفجار صغير في رأسه) أنه كان يتكلم بصوت عالٍ طيلة الوقت الذي حسب فيه أنه يفكر بينه وبين نفسه. أم.. هل كان صوته عالياً؟ كانت العملات المعدنية ما زالت في يده، ولكنه عندما رفع يده ليرميها إلى الفتاة تفجرت صدمة أخرى في رأسه لأن الفتاة قد اختفت، كان المقعد خالياً وما من أثر لها.. أو، ما من أثر لأي مخلوق حي، ولا حتى لقطة شاردة.. لا أثر في الشارع كله، لا في هذا الاتجاه ولا في ذاك الاتجاه.

راح يكلم نفسه بصوت خافت جداً كأنه يهمس همساً.

قال هيلي بنفاد صبر: «لكن، ماذا حدث؟»

كان الطفلان جالسين على الدرجات المعدنية الصدئة أمام مستودع قطن مهجور قريب من سكة القطار، كانت المنطقة مستنقعات تحيط بها أشجار صنوبر صغيرة متشابكة، والطين الأسود ذو الرائحة السيئة يجذب الحشرات. كانت أبواب المستودع مغطاة ببقع داكنة متناثرة منذ صيفين سابقين، عندما كان كل من

هيلي وهارييت وديك بيلو (الذي هو الآن في مخيم دي سيلبي) يتسلون بقذف ذلك الباب بكرات صغيرة من الطين، واصلوا فعل ذلك عدة أيام.

لم تجب هارييت، كانت شديدة الهدوء إلى حد جعله يحس بالضيق، فنهض من توتره وبدأ يخطو جيئة وذهابًا.

مرت لحظات فلم تبدِ فيها أي اهتمام بخطواته، هبت نسمة خفيفة غصّنت سطح بركة صغيرة تركتها عجلة سيارة في الطين، لم يعد قادرًا على الاحتمال فلكرها بمرفقه، كان حريصًا على عدم مضايقتها، لكنه يريد لها أن تتكلم، قال لها بنبرة تشجيع: «هيا، هل فعل لك شيئًا؟»

«لا»

«من الأفضل له ألا يكون فعل لك شيئًا، لأنني سوف أوسعه ضربًا».

كانت أشجار الصنوبر شديدة القرب وخانقة (أكثرها من أشجار لا تنتج خشبًا جيدًا)، وكان لحاء الأشجار منزوعًا عنها في بعض المواضع تاركًا بقعًا حمراء وفضية تشبه جلد أفعى، وخلف المستودع كانت الجنادب تغني بين الأعشاب العالية.

نهض واقفًا وشق الهواء بحركة كاراتيه سريعة أتبعها بركلة متقنة: «يمكنك أن تخبريني».

وثبت جرادة على مقربة منه، كان هيلي يسدد ضربة أخرى في الهواء فضيق عينيه ناظرًا إلى السماء: وجود الجراد يعني اقتراب عاصفة، ويعني مطرًا في طريق العودة، لكن السماء لا تزال شديدة الزرقة خلف الأغصان السوداء.. سماء زرقاء إلى حد خانق.

نفذ مجموعة أخرى من ضربات الكاراتيه، مصحوبة بصيحتين: هاه، هاه! لكن هاربيت لم تكن مهتمة.. بل لم تكن تنظر إليه حتى.

سألها بنبرة عدائية وهو يزيح شعره الطويل عن جبهته: «ما الذي يشغل بالك؟» جعله مظهرها المشغول يشعر بذعر غريب، وبدأ يشك في أنها قد وضعت خطة سرية لا محل له فيها! رفعت رأسها ونظرت إليه، وكانت حركتها سريعة جدًا لدرجة أنه ظن لحظة أنها ستتهدض وترفسه، لكنها لم تقل إلا: «تذكرتُ ذلك الخريف عندما كنت في الصف الثاني، حفرت قبرًا في الفناء الخلفي».

سألها بنبرة متشككة: «قبرًا؟» حاول مرات كثيرة من قبل أن يحفر في فناء بيته (مخابئ تحت الأرض، وسرايب تبلغ الصين)، لكنه لم يستطع المضي في الحفر أكثر من قدمين، أو نحو ذلك.. أضاف: «كيف كنت تتزلين في الحفرة وتخرجين منها؟»

«لم تكن عميقة، ليست أكثر من..»، باعدت بين يديها مسافة تكاد تبلغ قدمًا واحدة، وأكملت: «هكذا كان عمقها، ولكن طولها كان كافيًا لأن أستلقي فيها».

«ما الذي جعلك راغبة في فعل ذلك؟» ثم صاح: «هيه هاربيت!» لاحظ خنفساء ضخمة على الأرض لها كلابان وقرنان؛ يبلغ طولها إنشين.. «انظري إلى هذا! عجيب! هذه أكبر حشرة أراها في حياتي كلها!»

انحنى هاربيت ونظرت إليها دون فضول، قالت: «صحيح، إنها كبيرة. على أي حال، هل تذكر عندما كنت في المستشفى

لإصابتي بالتهاب الشعب الهوائية.. عندما لم أذهب إلى حفلة الهالوين في المدرسة؟»

قال هيلي محاولاً عينيه عن الحشرة كابناً بصعوبة رغبته في التقاطها والعبث بها: «أوه، نعم».

«ذلك هو سبب مرضي، كانت الأرض باردة جداً، كنت أستلقي وأغطي جسدي بأوراق الأشجار الميتة، وأبقى كذلك حتى يحل الظلام فتناديني آيدا كي أعود إلى البيت».

قال هيلي: «أتعلمين ماذا..»، لم يستطع المقاومة فمد ساقه ولكز الحشرة بمقدمة حذائه.. «تلك المرأة في برنامج صدق أو لا تصدق! المرأة التي لديها هاتف في قبرها، تطلبين الرقم فيرن الهاتف تحت الأرض، أليس هذا جنوناً؟»، جلس إلى جوارها.. «اسمعي! ما رأيك في هذا؟ اسمعي! شيء عظيم! ماذا لو كان لدى السيدة بوهانون هاتف في تابوتها فاتصلت بك في منتصف الليل وقالت لك، أريد شعري الذهبي المستعار، أعيدي إلي شعري الذهبي المستعار».

قالت هاربيت بصوت حاد وهي تنظر إلى يده الزاحفة صوبها خلسة: «إياك!» كانت السيدة بوهانون تعزف الأرغن في الكنيسة؛ وقد ماتت في شهر كانون الثاني بعد مرض طويل.. أضافت: «على أي حال، كان شعر السيدة بوهانون الذهبي المستعار على رأسها عندما دفنوها».

«كيف عرفت ذلك؟»

«أخبرتني آيدا، شعرها الحقيقي تساقط بسبب السرطان».

ظلاً بعض الوقت جالسين في صمت، بحث هيلي عن الحشرة الضخمة، لكنها كانت قد اختفت للأسف! تملل في جلسته وراح ينقر بعقب حذائه نقرات منتظمة على حافة السلم المعدني.. بم بم بم بم..

ما سبب حديثها عن القبر؟ ما الذي كانت تتحدث عنه؟ لقد قال لها كل شيء، كان يظن أنهما سيعقدان جلسة من الأحاديث الهامسة في سقيفة الأدوات.. أخطار ومؤامرات وتشويق... حتى كان مستعداً للقبول بأن تهاجمه هاريت إن أرادت، ذلك أفضل من لا شيء.

آخر الأمر نهض واقفاً وتمطى مطلقاً تهيدة طويلة، وقال: «لا بأس! هذه هي الخطة، نتمرّن على المقلّاع حتى العشاء، فلنعد إلى منطقة التدريب!» كان هيلي يحب أن يدعو الناحية القصية في فناء بيته «منطقة التدريب»، مساحة واقعة بين حديقة الخضار والسقيفة التي يضع فيها والده آلة جز العشب، أضاف: «وبعد يوم من ذلك، أو يومين، ننتقل إلى القوس والسهام...»
«لا أرغب في اللعب».

فوجئ هيلي، لكنه قال: «لا بأس! أنا أيضاً لا أرغب في اللعب»، كان لديه لعبة أطفال: قوس ومعه مجموعة سهام على رأس كل واحد منها حلقة مطاطية، كات أفضل من لا شيء، مع أنه كان يشعر بالإهانة عندما يلعب بها.

لكن خططه كلها لم تُثر اهتمام هاريت. فكر بضع لحظات، ثم اقترح مع صيحة «هيه!» مدروسة ليظهر حماسه المتزايد أن يركض إلى بيته فوراً كي يقوم بما دعاه «إحصاء الأسلحة» (على

الرغم من علمه أن الأسلحة التي لديهم لا تتجاوز بندقية الخردق وسكين جيب صدئة وبومرانغ⁽¹⁾ لا يعرف أي منهما طريقة رميه). وعندما قبلت اقتراحه هذا بأن رفعت كتفيها دون إجابة، اقترح عليها (صار يائسًا؛ لأن لا مبالاتها كانت لا تحتمل) أن يذهبا ويبحثا عن واحد من أعداد مجلة «التدبير المنزلي» عند أمه، وأن يسجلا داني راتليف في «نادي الكتب الشهري».

التفتت إليه هاربيت عندما سمعت هذا، لكن النظرة التي رمته بها كانت بعيدة كل البعد عن السرور.

شعر بالإحراج، لكن اقتناعه بنجاعة فكرة نادي الكتاب جعله يتابع كلامه: «أقول لك إن هذا أسوأ شيء في العالم يمكن فعله لأي إنسان، لقد فعله بأبي أحد الأطفال في المدرسة، فإذا استطعنا تسجيل عدد كافٍ من أولئك الأوغاد، وفعلنا ذلك عددًا كافيًا من المرات؟ .. ماذا؟ انظري!»، أزعجته نظرة هاربيت الثابتة.

قالت: «لا يهمني!»

كان الضجر الرهيب من الجلوس في المنزل بمفرده طوال اليوم لا يزال حاضرًا في ذهنه، إن طلبت منه الآن أن يخلع ملابسه كلها ويستلقي في الشارع عاريًا فسوف يسره أن يفعل ذلك. أضافت بتملل: «انظروا أنا متعبة، سأذهب قليلًا إلى بيت ليبي».

قال هيلي بعد لحظة بعد لحظة من التردد والحيرة: «إذًا، لا بأس! نذهب معًا على دراجتينا حتى بيتها».

(1) قطعة خشب منحنية تتميز بقدرتها على العودة إلى الشخص الذي ألغها إذا رميت بشكل صحيح.

سارا في صمت، دفعا دراجتيهما على الطريق الترابي نحو الشارع، كان هيلي يقبل مكانة ليبي في حياة هاريت دون أن يفهمها تمامًا، كانت ليبي مختلفة عن إيدي وبقية الخالات، أكثر لطفًا وأكثر حنانًا، في رياض الأطفال كانت هاريت قد أخبرت هيلي وبقية الأطفال أن ليبي هي والدتها، والغريب أنه لم يشكك أحد في ذلك حتى هيلي. كانت ليبي مسنة، وتعيش في منزل منفصل عن منزل هاريت، ومع ذلك كانت ليبي هي من أخذت هاريت بيدها في أول يوم دراسي؛ وهي من أحضرت الكعك لحفلة عيد ميلاد هاريت، وهي من ساعدت في تجهيز الأزياء لمسرحية «سندريلا» (أدى هيلي في المسرحية دور الفأر الذي يساعد سندريلا، وأدت هاريت دور أصغر شقيقات سندريلا الشريرات وأشدهن لؤمًا).

ومع أن إيدي كانت تأتي إلى المدرسة كلما تعرضت هاريت للمشكلات بسبب تورطها في مشاجرة أو في سلوك سيئ مع المعلمات، لم يخطر ببال أحد أن إيدي هي والدة هاريت: كانت امرأة صارمة جدًا كأنها إحدى معلمات الجبر اللثيمات في المدرسة الثانوية.

لم يجدا ليبي في بيتها، قالت لهما أودين ناعسة العينين (استغرقت وقتًا طويلًا قبل أن تفتح لهما باب البيت الخلفي): «الآنسة كليف ذهبت إلى المقبرة، إنها تنظف القبور من الأعشاب النامية عليها».

سألها هيلي بعد أن عادا إلى الرصيف: «هل تريدين الذهاب إلى المقبرة؟ لا مانع عندي من الذهاب». كان ركوب الدراجة

حتى المقبرة الاتحادية رحلة شاقة وحارة، تمر عبر الطريق السريع وتمضي عبر أحياء مربية فيها أكشاك لبيع فطائر تامالي الحارة، وفيها أطفال من أصول يونانية وإيطالية وإفريقية يلعبون الكرة في الشارع معاً، وفيها متجر بقاله فقير لكنه نشط حيث يبيع رجل عجوز له سن ذهبية كمكات إيطالية قاسية ومشروبات إيطالية ملونة، وبيع السجائر أيضاً مقابل عشرة سنتات للسيجارة الواحدة.

«أجل، لكن إيدي ستكون في المقبرة أيضاً، إنها رئيسة نادي الحدائق».

تقبل هيلي هذا العذر دون تساؤل، كان يتجنب إيدي كلما استطاع، ولهذا السبب لم يجد أدنى غرابة في رغبة هاربيت في تجنبها.

قال وهو يرد الشعر عن عينيه: «إذاً، نستطيع الذهاب إلى بيتي، هيا بنا».

«ربما تكون خالتي تأتي في المنزل».

«لماذا لا نكتفي باللعب على شرفة بيتك أو شرفة بيتي؟» قال هذا وهو يخرج قشرة فستق من جيبه ويقذفها بمرارة صوب زجاج سيارة في الشارع.

الذهاب إلى بيت ليبي، لا بأس به، لكن الخاليتين الأخريين سيئتان... تكادان تكونان مثل إيدي.

كانت الخالة تات في المقبرة مع بقية أعضاء «نادي الحدائق»، لكنها طلبت أن يأخذوها إلى البيت بسبب حساسيتها من غبار

الطلع (كانت مرهقة، وعيناها تدمعان، وظهرت بقع حمراء على ظاهريدها بسبب بعض الأعشاب)، لم تفهم سبب إصرار هارييت العنيد على اللعب في بيتها ذلك العصر (كما لم يفهم هيلي)، كانت لا تزال مرتدية ملابس الحديقة المتسخة عندما فتحت لهما الباب: شورتًا وقميصًا إفريقيًا طويلًا (قفطانًا) يصل إلى الركبة. كان لإيدي ملابس مشابهة، وكانت تلك الملابس هدايا من صديقة مسيحية تعمل في نيجيريا مُبشرة لصالح الكنيسة المعمدانية.

كان نسيج تلك الملابس ملونًا، وكان فيه إحساس ببرودة لطيفة، فصارت الخالتان تكثران من ارتداء تلك الملابس الغريبة كلما ذهبتا لأداء بعض الأعمال الخفيفة (كانتا غافلتين تمامًا عن رمزية «القوة السوداء» التي توحى بها ملابسهما لمن يراها). كان الشبان السود يخرجون رؤوسهم من نوافذ السيارات العابرة لتحية إيدي وتأتي برفع قبضات أيديهم، ويصيحون: «الفهود الرمادية!»

لم تكن تات تستمتع بالعمل في الخارج، لكن إيدي أرغمتها على المشاركة في «مشروع نادي الحقائق»، وهي الآن ترغب في خلع ملابسها ووضعها في الغسالة، وترغب في تناول قرص بينادرين، وفي الاستحمام، وفي إنهاء قراءة الكتاب الذي استعارته من المكتبة قبل أن يحين موعد إعادته، لم تسرها رؤية الطفلين عندما فتحت باب بيتها لكنها رحبت بهما ترحيبًا حسنًا ليست فيه إلا لمسة بسيطة من سخرية.

«كما ترى، يا هيلي، أنا لست رسمية الآن»، كررت هذه الجملة مرتين وهي تقودهما عبر ممر ضيق ومظلم محاط برفوف كتب قديمة ثقيلة من تلك التي يستخدمها المحامون، إلى غرفة معيشة وعشاء مرتبة، فيها خزانة ضخمة من خشب الماهوجني وبوفيه من بيت «تريببوليشن» ومرآة مذهبة الأطراف فيها بقع كثيرة، مرآة طويلة جدًا تكاد تبلغ السقف، كانت صور طيور أودوبون الجارحة تنظر إلى الطفلين من الأعلى، وسجادة عجمية ضخمة (أيضًا من بيت «تريببوليشن» لكن مساحتها أكبر كثيرًا من أي غرفة في هذا البيت) ملفوفة عند باب في آخر الغرفة كأنها جذع شجرة مخملي يتعفن في هذا المكان.

قالت وهي تمد يدها كي تساعد الطفلين، واحدًا تلو الآخر، في العبور فوق السجادة الملفوفة: «الآن، انتبها إلى خطواتكما»؛ قالتها كأنها قائدة كشافة ترشدهما إلى كيفية اجتياز شجرة ساقطة في الغابة.. أكملت: «ستقول لك هاربيت إن خالتها أديلaid هي مدبرة المنزل في هذه العائلة، وإن ليبي ماهرة في الأمور الصغيرة، وإن إيديث حريصة جدًا على المواعيد، لكني لست بارعة في أي شيء من هذا.. لا.. كان والدي يدعوني «المؤرشفة» فهل تعرفان معنى هذا الكلمة؟»

نظرت خلفها نظرة حادة مرحة، عيناها محمرتان عند حافتهما، كان هناك أثر من الأوساخ تحت عظم وجنتها. بحركة خفية، حوّل هيلي عينيه عنها دون أن يلفت الانتباه لأنه كان يخشى خالات هاربيت كلهن، ويخاف أنوفهن الطويلة وحركاتهن الذكية كالطيور كأنهن مجموعة ساحرات.

«أنت لا تعلم»، أدارت تات رأسها وعطست عطسة شديدة، تهتدت وقالت: «كلمة مؤرشفة ليست إلا طريقة لطيفة لقول «فأرة تحب جمع الأشياء.. هاربيت، عزيزتي... سامحي خالتك العجوز لأنها تزعج ضيفك المسكين بثرثرتها! خالتك لا تريد أن تكون مزعجة، لكنها تتمنى ألا يعود هيلي إلى بيته فيحكي لوالدته الصغيرة اللطيفة عن الفوضى التي رآها في بيتي. في المرة القادمة..» انخفض صوتها لأنها ابتعدت عنه قليلاً مع هاربيت.. «في المرة القادمة، عليك يا عزيزتي أن تتصلي بخالتك تاتي قبل أن تأتي هذه المسافة الطويلة كلها، ماذا كنتما ستفعلان لو لم أكن في البيت لأفتح لكما الباب؟»

طبعت قبلة دقة على رقبة هاربيت الباردة (كانت الطفلة متسخة مع أن الفتى الصغير كان نظيفاً وإن كان ملبسه غريباً، كان يرتدي قميصاً أبيض اللون لكنه طويل يكاد يبلغ ركبتيه كأنه قميص مما ترتديه الجدات). تركتهما على الشرفة الخلفية ودخلت إلى المطبخ حيث راحت تققع بالملعقة وتعد لهما الليمونادة بماء الصنبور وبمسحوق نكهة الليمون الذي اشترته من متجر البقالة. كان لديها ليمون حقيقي وسكر حقيقي، لكن الناس هذه الأيام أصبحوا يتكبرون على كل شيء حقيقي، هكذا تقول صديقات تات اللواتي لديهن أحفاد.

نادت الطفلين ليأخذا كأسيهما («يؤسفني القول يا هيلي، إننا لا نتقيد بالرسميات هنا، أمل ألا يزعجك أخذ الكأس بنفسك»)، ثم مضت مسرعة إلى الجزء الخلفي من المنزل لتستحم.

على جبل الغسيل الممتد على الشرفة الخلفية في بيت تات لحاف عليه مربعات كبيرة باللونين البني الفاتح والأسود، كانت طاولة اللعب موضوعة بينهما أمام اللحاف كأنها مشهد مسرحي حيث تعكس مربعات اللحاف المربعات التي على الطاولة.

قال هيلي مبتهجًا وهو يركل قائمة كرسيه: «انظري! بماذا يذكرك هذا اللحاف؟ ألا يذكرك بمباراة الشطرنج في فيلم من روسيا مع الحب! ألا تتذكرينه؟ ذلك المشهد الأول الذي فيه رقعة شطرنج عملاقة».

قالت هاربيت: «إذا لمست هذا الفيل فسوف يكون عليك نقله».

«لقد نقلت بالفعل ذلك البيدق الذي هناك...».

لم يكن مهتمًا بالشطرنج ولا الداما، ف كلا اللعبتين كانت تجعل رأسه يؤلمه، رفع كأس الليمونادة وتظاهر بأنه اكتشف رسالة سرية من الروس ملصقة أسفل الكأس، لكن حاجبه المرفوع لم يثر أي استجابة من هاربيت.

لم تضيّع هاربيت الوقت ونقلت الحصان الأسود إلى منتصف رقعة الشطرنج.

صاح هيلي وهو يضع كأسه بخبطة شديدة: «أهنتك يا سيدتي! نقلة رائعة!». قال هذا مع أن ملكه ليس في خطر، ولم يكن هناك شيء غير معتاد في الحركة، كانت جملة مأخوذة من مباراة الشطرنج في ذلك الفيلم وكان فخورًا بنفسه لأنه تذكرها.

تابعا اللعب، أخذ هيلي بفيله واحدًا من بيادق هاربيت، ثم صفع جبينه بكفه عندما انقضت هاربيت بحصانها على فيله وأخذته، قال: «لا تستطيعين فعل هذا!»، مع أنه لا يعلم حقًا إن

كان فعل ذلك جائزًا أم غير جائز، وذلك لأنه يجد صعوبة في تذكر كيفية حركة الحصان على الرقعة، ولا يعلم إن كان قادرًا على القفز فوق القطع الأخرى، هذا من سوء حظه لأن الحصان هو القطعة المفضلة لدى هاربيت، القطعة التي تعرف كيف تستخدمها استخدامًا جيدًا.

كانت هاربيت تحقق إلى الرقعة وقد أسندت ذقنها إلى يدها، قالت فجأة: «أظنه يعلم من أكون».

قال هيلي مضطربًا: «أنت لم تقولي شيئًا، أليس هذا صحيحًا؟»، على الرغم من إعجابه بجرأة هاربيت، فهو لم يرَ في ذهابها إلى صالة البليارد وحدها فكرة حسنة.

«خرج من الصالة ونظر إليّ، ظل واقفًا هناك دون أن يأتي بأي حركة».

حرك هيلي بيدقًا دون أن يفكر، فقط ليفعل شيئًا لا أكثر، وعلى غير انتظار أحس بضجر وتعب شديدين. لم يكن يحب الليمونادة (كان يفضل الكوكا كولا)، ثم إنه لا يرى لعب الشطرنج طريقة مناسبة لقضاء وقت طيب، كان لديه شطرنج في البيت، شطرنج جميل أهده له والده، لكنه لا يلعب به إلا عندما تأتي هاربيت، أكثر الأوقات يستخدم قطع الشطرنج شواهد قبور في ألعابه.

كانت الحرارة ثقيلة حتى مع دوران المروحة والستائر المسحوبة إلى المنتصف، وكانت حساسية تاتي تثقل رأسها بشكل غير متوازن. ترك مسحوق «بي سي» لعلاج الصداع طعمًا مرًا في

فمها . وضعت كتاب «ماري ملكة الإسكتلنديين» مقلوبًا على غطاء السرير وأغمضت عينيها لحظة .

لم يكن هناك أي صوت من الشرفة، كان الطفلان يلعبان بقدر كافٍ من الهدوء، لكن كان من الصعب عليها أن ترتاح، وهي تعلم أنهما في المنزل. كانت حزينة من أجل تلك المجموعة الصغيرة من الأطفال المشردين في شارع جورج، ولكن لم يكن هناك ما تستطيع فعله لهم، فكرت في هذا وهي تمد يدها إلى كأس الماء التي وضعتها على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير. وكانت قلقة على أليسون خاصة (أليسون التي تحبها تات في سرها أكثر مما تحب شقيقتها). كانت أليسون مثل أمها تشارلوت... رقيقة جدًا، أرقّ مما ينبغي. فبحسب خبرة تات تكون الفتيات الهادئات واللطيفات من أمثال أليسون وأمها هن اللواتي تنهال عليهن الحياة بضرباتهما وتسبب إيلهن. وأما هارييت فهي مثل جدتها.. تشبهها كثيرًا.. هذا هو السبب الذي يجعل تات تشعر بعدم الراحة في حضورها. تشبه هارييت نمرة صغيرة متألّق العينين، كانت ظريفة في صغرها، وهي لا تزال الآن ظريفة، لكن ذلك يتناقض كلما كبرت. صحيح أن هارييت لم تكبر بعد إلى السن التي تستطيع فيها أن تعتني بنفسها، لكن ذلك اليوم سيأتي عما قريب، وعندئذٍ ستكون أحوالها ممتازة (مثل إيدي) مهما يحدث معها.. مجاعة أم انهيار مصرفي أم غزو روسي.

فتح باب الغرفة قليلًا، أجفلت تات ووضعت يدها على صدرها .

«هارييت!»

ظهر سكراتش (قط تات الأسود)، وصعد إلى السرير بقفزة خفيفة وجثم ناظرًا إليها، وراح يهز ذيله.

قال لها: «ماذا تفعلين هنا، يا بومبو؟»، أو بالأحرى قالت تات نيابة عنه، قالت بذلك الصوت الغنائي الحاد المتعالي الذي اعتادت هي وشقيقاتها استخدامه منذ الطفولة عند حديثهن إلى حيواناتهن.

أجابت عن سؤالها بعد أن أخفضت صوتها حتى صار عاديًا: «لقد أرعبتني حتى الموت، يا سكراتش!»
«أعرف كيف أفتح الباب، يا بومبو!»
«ششش!»

نهضت وأغلقت باب الغرفة، وعندما استلقت من جديد، تكوّر القط عند ركبته مرتاحًا، ولم يمضِ وقت طويل حتى كان الاثنان يغطان في نوم عميق.

تأوهت غام جدة داني وهي تحاول رفع مقلاة حديدية ثقيلة مليئة بخبز الذرة عن الموقد بكلتا يديها دون جدوى.
قال فاريش: «انتظري، يا غام! دعيني أساعدك» وهو يقفز بسرعة فأسقط كرسي المطبخ المصنوع من الألمنيوم.
أخفضت غام رأسها وابتعدت عن الموقد مبتسمة لحفيدها المفضل، وقالت بصوت واهن: «أوه، فاريش! أنا سأعيد الكرسي إلى مكانه».

جلس داني ناظرًا إلى مفرش الطاولة ذي المربعات، تمنى من كل قلبه أن يكون في مكان آخر، كان مطبخ المقطورة شديد

الازدحام، بالكاد كان فيه متسع للحركة، وعندما تطبخ الجدة يصبح حارًا جدًا ومليئًا بالروائح القادمة من الموقد لدرجة أن الجلوس فيه كان مزعجًا حتى في الشتاء. منذ بضع دقائق استغرق في حلم يقظة، حلم عن فتاة ليست حقيقية بل أشبه بروح، شعر داكن متموج يلتف كالأعشاب عند حافة بحيرة ضحلة... لعله شعر أسود، أو لعله أخضر! اقتربت منه قريبًا لذيذًا كأنها تود تقبيله، لكنها لم تقبله بل نفخت في فمه المفتوح هواءً باردًا ومنعشًا كأنه نسيم الجنة، جعلته عذوبة الذكرى يرتعش. تمنى أن يكون وحيدًا ليتلذذ بهذا الحلم لأنه يخبو سريعًا.. ولأنه شديد الرغبة في العودة إليه.

ولكن بدلًا من ذلك، ها هو ذا جالس هنا، قالت جدته: «فاريش، أكره أن أجعلك تنهض من مكانك»، عصرت يديها بقلق وتابعت عيناها الملح والمري اللذين أحضرهما فاريش عن الرف ووضعهما على الطاولة، أضافت: «أرجوك، لا تشغل نفسك بهذه الأمور».

قال فاريش بنبرة صارمة: «اجلسي يا غام». كان هذا الروتين اليومي بينهما يحدث في كل وجبة.

بعد نظرات آسفة ومبالغة في إظهار التردد، جلست غام على كرسيها متممة، في حين راح فاريش ينتقل بين الموقد والطاولة والثلاجة على شرفة المقطورة، ويضع الأطباق على الطاولة مُصدرًا ضجيجًا شديدًا، وعندما دفع لها طبقًا مليئًا بالطعام، لوحت بيدها الضعيفة رافضة.

قالت: «كُلا أيها الولدان قبلي! يوجين، ألا تأخذ هذا الطبق؟»

نظر فاريش عابسًا إلى يوجين الذي كان يجلس دون حركة ويذاه متشابكتان في حضنه، ووضع الطبق أمام غام.

أزاحت الطبق تجاه يوجين: «خذ... يوجين...»، لكنه أشاح بوجهه غير راغب في أخذه.

زمجر فاريش قائلاً: «غام، صرت هزيلة جداً، إذا لم تأكلي ستدخلين المستشفى مرة أخرى».

أزاح داني شعره عن وجهه، وأخذ قطعة مربعة من خبز الذرة دون أن يقول شيئاً، كانت حالته النفسية متوترة من شدة الحر لدرجة أنه لم يكن يستطيع الأكل، وكانت الرائحة الكريهة المنبعثة من المختبر بالإضافة إلى رائحة الزيت القديم والبصل كافية ليشعر أنه لن يجوع مجدداً.

قالت غام مبتسمة كأنها تخاطب مفرش الطاولة: «نعم، أحب إعداد الطعام لكم جميعاً».

كان داني متأكداً إلى حد كبير أن جدته لم تكن تحب الطبخ لهم كما كانت تقول. كانت مخلوقاً صغيراً هزياً، جلدها بني مثل الجلد المدبوغ، حذاء الظهر من كثرة الانحناء، يبدو عليها التقدم في السن لدرجة أن من يراها يحسب عمرها مئة عام في حين أن سنّها الحقيقية تبلغ ستين عاماً.

وُلدت لأب من أصل كاجون⁽¹⁾ -فرنسي، وأم من الهنود الحمر من شعب تشيكاساو⁽²⁾، كانت ولادتها في أحد أكواخ الفلاحين

(1) مجتمع من أصول فرنسية استقروا في جنوب الولايات المتحدة، خصوصاً في ولاية لويزيانا.

(2) أحد الشعوب الأصلية (الأمريكيين الأصليين) في الولايات المتحدة.

أرضه ترابية وليس فيه صرف صحي (حرمان تذكر أحفادها به يومياً). تزوجت غام في الثالثة عشرة صائد فراء يكبرها بخمسة وعشرين عامًا، يصعب تخيل كيف كان شكلها في تلك الأيام، ففي شبابها الفقير البائس لم يكن لديهم مال من أجل أمور سخيفة كالكاميرات والصور، لكن والد داني (الذي كان يحب غام حب العبادة كأنه عاشق لها وليس ابنها) يتذكرها فتاة ذات وجنتين حمراوين وشعر أسود لامع، كانت في الرابعة عشرة عندما أنجبته، وكانت (كما يقول) «أجمل فتاة يمكن للمرء أن يراها في قومها»، وكان يعني بكلمة «قومها» جماعة الكاجون (ذات الأصل الكندي الفرنسي)، لكن داني كانت لديه فكرة غامضة تقول إن غام من صنف الراكون الذي هو حيوان تشبهه غام، لأن لها هاتين العينين الداكنتين الغائرتين والوجه الحاد والأسنان المترابكة واليدين الصغيرتين القاتمتين المجمعدين.

كانت غام ضئيلة جدًا، وكان يبدو أنها تتكمش مع كل سنة تمر، ذبلت الآن إلى أن كادت تصير هيكلًا من رماد، هيكلًا غائر الفكين، فمها نحيف ورقيق كأنه نصل سكين، وكانت شديدة الحرص على تذكير أحفادها بأنها ظلت تكدح طيلة حياتها، وبأن ذلك كان عملاً شاقًا (هذا لا يخجلها.. ليست غام من يخجلها هذا)، وبأن ذلك العمل قد استهلكها قبل أوانها.

كان كورتيس يتناول طعامه بسعادة، فيما واصل فاريش حركته الصاخبة حول جدته، وظل يعرض عليها الطعام، لكنها أصرت على رفض ذلك مظهرة الأسى والمعاناة، كان فاريش متعلقًا بجدته، ويشفق عليها بسبب شيخوختها، وبدورها كانت تمدح

فاريش بنفس الطريقة اللينة والتملقة التي كانت تمدح بها أباه المتوفى. ومثلما كان مديحها يعزز أسوأ الخصال في والد داني (يعزز شعوره أنه مظلوم، ويفغذي نوبات غضبه، ويجامل تكبره وميله إلى العنف)، فقد كان في تملقها فاريش ما يعزز الجانب الوحشي في طبعه.

كانت تتمم قائلة: «فاريش، لا أستطيع أن أكل هذا كله، أعطِ شقيقك يوجين هذا الطبق» (تقول هذا مع أن اللحظة قد مرت وانقضت وصار أمام كل واحد من أحفادها طبق يأكل منه).

اتسعت عينا داني دهشة ودفع كرسيه مبتعداً قليلاً عن الطاولة، كان صبره قد بدأ ينفذ إزاء هذا الأسلوب وإزاء كل ما تفعله جدته (إيماءتها الواهية التي رفضت بها الطعام، ونبرة المعاناة في صوتها)، كان يرى أن هذا كله محسوب (أمر واضح مثله مثل جدول الضرب) من أجل تأليب فاريش على يوجين وجعله يهاجمه.

وهذا ما حدث بالفعل، قال فاريش: «ليوجين؟»، ونظر حانقاً إلى يوجين الذي كان يجلس إلى الناحية الأخرى من الطاولة يأكل طعامه متهدل الكتفين، كانت شهية يوجين الطبية نقطة حساسة ومصدرًا دائمًا للصراع، لأنه كان يأكل أكثر من أي شخص آخر في المنزل ولا يسهم في تحمل النفقات إلا قليلاً.

مد كورتيس يده (وفمه ممتلئ) ليأخذ قطعة الدجاج التي قدمتها له جدته بيد مرتعشة فوق الطاولة، وبسرعة البرق صفع فاريش يد كورتيس الممدودة بضربة شديدة جعلت فمه ينفث دهشة.

سقطت بعض قطع الطعام نصف الممضوغ على مفرش الطاولة.
قالت غام بصوت لطيف: «أوو.. دعه يأخذها إن كان يريد». خذ، يا كورتيس، ألا تريد مزيداً من الطعام؟»

قال داني وقد نفذ صبره تماماً ولم يعد قادراً على متابعة هذه الدراما المسائية التي تتكرر أمامه للمرة الألف: «كورتيس! خذ! خذ طبقي!» لكن كورتيس -الذي لم يفهم طبيعة هذا النقاش ولن يفهمها أبداً- ابتسم ومد يده من جديد ليأخذ فخذ الدجاجة المرتعشة أمام وجهه.

زمجر فاريش قائلاً وهو ينظر إلى السقف: «إن أخذه، أقسم إنني سأقذف به من هنا...».

كرر داني قوله: «خذ، يا كورتيس، خذ طبقي».

وعلى حين غرة، قال الواعظ الزائر من مكانه إلى جانب يوجين عند نهاية الطاولة: «أو خذ طبقي، ثمة الكثير إن كان الطفل يريد طعاماً».

لقد نسي الجميع أنه موجودٌ معهم. التفت الجميع ليحددوا إليه، فكانت تلك فرصة اغتتمها داني لينحني خفية ويفرغ عشاء المقرز كله في طبق كورتيس.

فرح كورتيس كثيراً لهذه المبادرة اللطيفة، وصاح: «حب!»، وضم يديه معاً.

قال لويال بأدب: «الطعام كله لذيذ جداً، أشكركم جميعاً!» كانت عيناه الزرقاوان حادتين ولامعتين كثيراً.

توقف فاريش لحظة عن مضغ خبز الذرة، وقال: «لا أرى أي شبه بين ملامحك ولامح دولفوس».

«الحقيقة تظن أُمي أنني أشبهه. أنا ودولفوس لدينا بشرة فاتحة، مثل عائلة أُمي».

ضحك فاريش، ثم بدأ يلتهم البازلاء مستخدمًا قطعة من خبز الذرة: فعلى الرغم من أن تأثير المخدرات فيه كان شديد الوضوح، فإنه يعرف دائمًا كيف يلتهم طعامه عندما يأكل مع غام لأنه لا يريد أن يجرح مشاعرها.

قال بضم ممتلئ طعامًا: «سأقول لك شيئًا واحدًا عن قابيل.. الأخ دولفوس كان يعرف كيف يفرض سلطته. فهناك في سجن بارشمان، إذا قال لك اقفز فإنك تقفز، وإن لم تقفز فهو يجعلك تقفز. اللعنة، يا كورتيس!»، صاح بهذا وأزاح كرسيه إلى الخلف فاتحًا عينيه على اتساعهما.. «إنك تجعلني أشعر بالغيان؟ ألا تستطيعين يا غام أن تجعليه يخرج يديه من طبق الطعام؟»

قالت غام: «إنه لا يعرف كيف يتصرف». نهضت بصعوبة كي تدفع طبق التقديم بعيدًا عن متناول كورتيس، ثم جلست مجددًا ببطء شديد كأنها تجلس في حوض ماء بارد. أومأت برأسها في اتجاه لويال إيماءة احترام، قالت له: «يؤسفني أن الرب لم ينفق وقتًا كافيًا على هذا الجالس هنا، لكننا نحب هذا المسخ الذي عندنا، ألا نحبك يا كورتيس؟»

هدل كورتيس: «حب!» قدم إليها قطعة خبز.

«لكن، يا كورتيس، غام لا تريد خبزًا».

قال لويال: «الرب لا يخطئ أبدًا، عينه المحبة ترانا دائمًا، مبارك الذي ينوع خلأثقه كلها»

قال فاريش وهو يرمي يوجين بنظرة خبيثة ويسكب لنفسه كأسًا جديدة من الشاي المثلج: «لا بأس، من الأفضل أن تأمل ألا يلتفت الرب بعيدًا عندما تبدأ العمل على تلك الأفاعي التي عندك! لويال.. أليس هذا اسمك؟»

«أجل، يا سيد! اسمي لويال برايت، برايت هي عائلة أمي..»
«إذًا، قل لي هذا، يا لويال.. ما الغاية من حمل هذه الأفاعي كلها إن كانت ستظل في صناديقها؟ كم يومًا تطول مهمتك هذه؟»
قال يوجين بفم ممتلئ ومن غير أن يرفع رأسه: «يومًا واحدًا فقط..»

قال لويال: «أنا لا أستطيع أن أقرر مسبقًا ما أفعله بها، الرب يرسل إلينا التكليف، وأحيانًا لا يرسله. الأعجوبة أعجوبته، وهو الذي يهبنا إياها، بعض الأحيان يسره أن يمتحن إيماننا..»
«أظن أن هذا يجعلك تشعر بالغباء وأنت تقف أمام كل هؤلاء الناس دون أن يروا أي أفعى..»

«لا، يا سيد! الأفعى من خلق الله، وهي تخدم مشيئته، إذا حملنا الأفعى ولم نكن في انسجام مع مشيئته، فسوف تؤذينا..»
قال فاريش مستندًا إلى ظهر كرسيه: «لا بأس، يا لويال! هل تعني أن يوجين هذا ليس منسجمًا مع الرب؟ لعل هذا سبب تأخيرك!»

قال يوجين على نحو مفاجئ تمامًا: «سأقول لك أمرًا واحدًا، لا ينبغي أن يخز الناس الأفاعي بالعصي وأن ينفخوا عليها دخان السجائر ويضايقوها ويعبثوا بها...»
«الآن، انتظر لحظة..»

«يا فاريش، رأيتك تعبت بها، هناك في صندوق السيارة».

قال فاريش ساخرًا بصوت مرتفع: «فاريش!» كانت لدى يوجين طريقة غريبة في نطق بعض الكلمات.

«لا تسخر مني!»

قالت غام بصوت هزيل: «أنتم! أنتم، كفاكم الآن...».

قال داني: «غام»، ثم كررها بصوت أرق لأنه قالها أول مرة بصوت عالٍ مفاجئ جعل الجالسين إلى الطاولة يجفلون جميعًا: «غام!»

«ماذا، يا داني؟»

«أردت القول...»، كان أثر المخدرات شديدًا فيه فلم يستطع الآن تذكر الصلة بين ما يتكلمون عنه وبين الكلمات التي تخرج الآن من فمه.. «هل اختاروك مرة ثانية كي تكوني هي هيئة المحلفين⁽¹⁾؟»

طوت جدته قطعة خبز أبيض، طوتها نصفين وغمستها في قطر الذرة: «نعم، لقد اختاروني».

قال يوجين: «ماذا؟ متى تبدأ المحاكمة؟»
«يوم الأربعاء».

«كيف ستذهبين والسيارة معطلة؟»

(1) تُختار هيئة المحلفين من عامة الشعب، وتُكَلَّف بالاستماع إلى الأدلة والشهادات المقدمة خلال المحاكمة، ثم إصدار حكم بناءً على الوقائع. يُعدّ ذلك جزءًا من المسؤولية المدنية في الأنظمة القضائية التي تعتمد إشراك المواطنين في تحقيق العدالة، مثل الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، عدم الامتثال لحضور هيئة المحلفين قد يؤدي إلى فرض عقوبات قانونية.

قال فاريش وهو ينتصب جالسًا: «هيئة محلفين! كيف لم أسمع عن ذلك؟»

«غام العجوز المسكينة لا تحب إزعاجك يا فاريش».

قال يوجين: «عطل السيارة ليس كبيرًا، كل ما في الأمر أنها لن تستطيع أن تدير عجلة القيادة، أنا نفسي أجد صعوبة في ذلك».

«هيئة المحلفين!»، دفع فاريش كرسيه بحركة خشنة مبعدًا إياه عن الطاولة، وأكمل: «ولماذا يستدعون امرأة مقعدة؟ أظن أنهم يستطيعون العثور على بعض الرجال الأصحاء...».

قالت غام بنبرة مليئة بحب التضحية: «يسرني أن أقدم خدماتي».

«هممم.. أعلم هذا، يبدو لي أنهم قادرون على العثور على غيرك، ستكونين مضطرة إلى الجلوس هناك طيلة النهار على تلك الكراسي القاسية.. لا تتسي أنك مصابة بالتهاب المفاصل؟» قالت غام بصوت هادئ: «سأقول لك الحقيقة.. ما يقلقني هو الغثيان الذي أشعر به بسبب الدواء الآخر الذي أتناوله».

«أمل أنك أخبرتهم أن هذا قد يعيدك إلى المستشفى مجددًا.. جرّ سيدة عجوز مقعدة من بيتها...».

تدخل لويال بطريقة دبلوماسية: «ما نوع المحكمة التي ستحضرينها يا سيدتي؟»

غمست غام قطعة الخبز في السائل، قالت: «زنجي سرق جراتًا».

قال فاريش: «هل يجعلونك تسافرين هذه المسافة كلها من أجل هذا الأمر؟»

قالت غام بصوت هادئ مسالم: «في أيامي، لم يكن لدينا هذا الهراء، وكانت الأمور تحل بشكل أسرع دون الحاجة إلى محاكمات كبيرة».

طرقت هاربيت باب غرفة نوم تات، وعندما لم تسمع إجابة دفعت الباب وفتحته برفق، في الإنارة الخافتة رأت خالتها نائمة فوق غطاء السرير الصيفي الأبيض وقد نزعَت نظارتها عن وجهها، وفمها مفتوح.

قالت بصوت متردد: «تاتي!»

كانت الغرفة تعبق برائحة الأدوية وماء «غراند» العطري وعشب الفيتيفر والمرهم المينثولي والغبار. كانت المروحة تدور ناعسة، نصف دورة إلى اليمين، ونصف دورة إلى اليسار، وتهز الستائر الرقيقة في الاتجاهين.

ظلت تات نائمة، كانت الغرفة هادئة ولطيفة البرودة، على الطاولة صور ذات إطارات فضية، القاضي كليف وجدة أم هاربيت (في جيدها عقد من حجارة كريمة)، صورة مأخوذة قبل بداية القرن. صورة لوالدة هاربيت في الخمسينيات بقفازين حتى المرفقين وتسريحة شعر كروية، وصورة مرسومة باليد لزوج تات من مقاس ثمانية إنشات بعشرة إنشات، كان اسمه السيد بينغ، وصورة أخرى لامعة له في شبابه مأخوذة من مجلة وهو يتسلم جائزة من غرفة التجارة بعد مدة من زواجهما.

وعلى طاولة الزينة الثقيلة كانت أغراض تاتي مرتبة: كريم للوجه، وعلبة فيها دبابيس شعر، ومشط من الباكالايت، ووسادة

صغيرة مفروزة فيها دبائيس، ومجموعة فراشٍ، وإصبع من أحمر الشفاه.. عائلة بسيطة متواضعة مرتبة بعناية كأنها تتحضر لالتقاط صورة.

شعرت هاربيت أنها على وشك البكاء، فألقت بنفسها على السرير.

استيقظت تات مفروعة: «يا إلهي! هاربيت!»، راحت تبحث عن نظارتها بحركة عمياء.

«ما الأمر؟ أين صديقك الصغير؟»

«ذهب إلى بيته، تاتي، هل تحبينني؟»

قالت: «ما الأمر؟ كم الساعة الآن؟»، وهي تشد على عينيها محاولة أن ترى الساعة إلى جانب السرير، لكن عبثاً.. «هل تبكين؟ لماذا تبكين؟»، مالت لتلمس جبين هاربيت براحة يدها فوجدته بارداً: «أخبريني، ما الأمر؟»

«هل أستطيع أن أنام الليلة هنا؟»

هبط قلب تات، قالت لها: «أوه، يا عزيزتي! خالتك المسكينة تكاد الحساسية تقتلها.. من فضلك، قل لي ما الأمر، يا عزيزتي؟ هل أنت حزينة؟»

«لن أزعجك أبداً».

«أوه، يا عزيزتي! أنت لا تزعجينني أبداً ولا أليسون، لكن..».

«لماذا لا تريدين أنتِ أو ليبي أو أديليد أن أنام عندكن؟»

أذهل سؤالها تات، فقالت لها: «يا هاربيت.. تعلمين أن هذا غير صحيح»، مدت يدها فأضاءت مصباح القراءة.

«لكنك لا تدعوني إلى النوم عندك إطلاقاً».

«حسنًا! انظري يا هارييت! سأحضر التقويم، فلنختَر موعداً في الأسبوع المقبل، عند ذلك سوف تكون صحي قد تحسنت، و...»

لم تكمل كلامها، كانت الطفلة تبكي.

قالت لها بصوت مرح: «انظري إلي!». على الرغم من أن تأتي كانت تحاول إظهار الاهتمام عندما تتحدث صديقاتها بحماسة عن أحفادهن، فإنها في الحقيقة لم تكن آسفة لأنه ليس لديها أحفاد، يضجرها الأطفال ويضايقونها، وتلك حقيقة كانت تبذل الجهد لإخفائها عن بنات أختها الصغيرتين، أضافت: «دعيني أحضر منشفة باردة، ستشعرين بتحسن إذا.. لا لا ستأتين معي، هارييت! قفي يا هارييت!»

أمسكت بيد هارييت المتسخة وسارت بها عبر الممر المظلم إلى أن بلغتا الحمام، فتحت الماء البارد والساخن معاً وناولتها قطعة صابون وردية اللون، وقالت: «خذي يا حبيبتي! اغسلي يديك ووجهك! اغسلي يديك أولاً وبعد ذلك اغسلي وجهك بالماء البارد وسوف تشعرين بتحسن».

بللت منشفة صغيرة وراحت تمسح بها وجنتي هارييت، ثم ناولتها إياها، وقالت: «خذي يا عزيزتي! أمسكي هذه المنشفة اللطيفة الباردة وامسحي بها رقبتك وتحت إبطيك».

مرت هارييت بالمنشفة على رقبتها بحركة ميكانيكية، مرت بها مرة واحدة فقط، ثم دفعت بالمنشفة تحت قميصها فمسحت تحت إبطيها بحركة واهية.

«حسنًا.. تستطيعين أن تنظفي أفضل من هذا، ألا تجعلك أيديا تفتسلين؟»

قالت هاربيت بصوت يائس: «بلى، يا خالتي!»

«إذا، لماذا تبدين متسخة هكذا؟ هل تجعلك تفتسلين في حوض الاستحمام كل يوم؟»
«أجل، يا خالتي».

«هل تجعلك تضعين رأسك تحت الصنبور، ثم تتأكد من أن الصابون قد زال تمامًا؟ لن تنظفي جيدًا يا هاربيت إذا دخلت حوض استحمام ساخنًا ولم تفعلي شيئًا سوى الجلوس في الماء، تعلم آيدا ريو، بل تعلم جيدًا، أن عليها أن...».

«هذه ليست غلطة آيدا! لماذا يلوم الجميع آيدا على كل شيء؟»
«لا أحد يلومها، أعلم أنك تحبين آيدا يا حلوتي، لكني أظن أن جدتك ينبغي أن تكلمها، آيدا لم تفعل أي شيء خاطئ.. كل ما في الأمر هو أن أولئك الناس الملونين لديهم أفكار مختلفة»، توقفت فجأة وأكملت وهي تعصر يديها: «أوه، هاربيت! من فضلك! لا لا لا! أرجوك، لا تبدئي هذا من جديد...».

نهض يوجين وهو يشعر بالقلق وتبع لويال إلى الخارج، بدا لويال في سلام تام مع العالم، وبدا مستعدًا لنزهة صغيرة بعد العشاء، ولكن يوجين (الذي بدّل ملابسه بعد العشاء وارتدى ثوب الواعظ الأسود الذي لا يريحه) كان يشعر بالتوتر الشديد. ألقى نظرة سريعة على نفسه في المرآة الجانبية في سيارة لويال، وبحركة سريعة مرر مشطًا عبر شعره المزيّن المربوط خلف رأسه.

لم يكن اللقاء التبشيري الذي أقامه الليلة الماضية ناجحًا (جرى على مقربة من مزرعة في الناحية الأخرى من المقاطعة). أتى بعض المتفرجين الفضوليين إلى تلك الأجمات، وراحوا يضحكون ويقذفون بأغطية الزجاجات وبحجارة صغيرة متجاهلين اللوحة المكتوبة، ثم انصرفوا قبل انتهاء القداس.. ومن عساه يستطيع لومهم؟ قد يكون لويال ريزي الشاب (عيناه كأنهما شعلتا غاز زرقاء، وشعره مرتد إلى خلف كأنه قد رأى ملاكًا) يمتلك إيمانًا أكثر من أولئك المتسكعين جميعًا، لكن ما من أفعى خرجت من صندوقها.. ولا واحدة! وعلى الرغم من أن هذا أخرج يوجين فإنه لم يكن تواقًا إلى إخراج الأفاعي بيديه، واليوم طمأنه لويال أنهما سيلقيان استقبالًا دافئًا في بولينغ سبرينغ.. لكن لماذا يهتم يوجين ببولينغ سبرينغ؟ يعلم أن فيها جماعة من المؤمنين لكن تلك الجماعة تتبع واعظًا آخر، سوف يحاولان بعد غد جمع حشد من الناس في الساحة، ومع ذلك كيف يجمعان الناس هناك إن كان أهم ما يشد الناس إليهم (الأفاعي) ممنوعًا بحكم القانون؟

لم يظهر على لويال أي انزعاج من هذا كله، قال له: «أنا هنا لأنفذ مشيئة الرب، ومشيئة الرب أن أقارع الموت». لم يكن مكترثًا بتهكم الحشود الليلة الماضية، ولكن يوجين على الرغم من خوفه من الأفاعي وعجزه عن حملها بيديه، لم يكن يتحمل فكرة ليلة أخرى من الإذلال العلني.

كانا يقفان في الخارج على مساحة مضاءة من الأسمنت يدعونها «السجادة»، حيث يوجد شواية غازية في ناحية منها،

ومرمى كرة سلة في الناحية الأخرى، نظر يوجين بعصبية إلى شاحنة لويال، إلى الغطاء المشمع الذي يغطي صناديق الأفاعي المحبوسة في الأقفاص المكدسة في الخلف، وإلى المصق المثبت على مقدمة السيارة الذي كُتب عليه بحروف مائلة مجنونة: هذا العالم ليس موطني! كان كورتيس في الداخل آمنًا يشاهد التليفزيون (إن رآهما ذاهبين، فسوف يبكي طالبًا الذهاب معهما). وكان يوجين على وشك أن يقترح أن يصعدا إلى السيارة وينطلقا عندما فتح الباب مُصدرًا صريرًا وخرجت غام متجهة نحوهما.

خاطبها لويال بنبرة وُدّية صادقة: «مرحبًا، سيدتي!»

أشاح يوجين بوجهه قليلًا، هذه الأيام كان عليه أن يكظم شعوره بالضيق من جدته، وكان عليه أن يذكر نفسه باستمرار أن غام ليست إلا امرأة عجوزًا مريضة، مريضة منذ سنوات طويلة. تذكر ذلك اليوم عندما كان هو وفاريش صغيرين، وعاد والدهما إلى المنزل مترنحًا في منتصف النهار وسحبهما من المقطورة إلى الفناء أمامها كأنه يعتزم جلدهما، كان وجهه محمرًا وكان يتحدث من بين أسنانه المطبقة، لكنه لم يكن غاضبًا؛ كان يبكي: «أوه، يا ربي! أنا في حال سيئة هذا الصباح منذ أن سمعت... رحمتك يا ربي! غام المسكينة لن تبقى معنا أكثر من شهر أو شهرين، يقول الأطباء إن السرطان أكلها كلها حتى بلغ عظامها». كان هذا منذ عشرين سنة. وُلد أربعة أشقاء منذ ذلك الوقت ثم كبروا، ثم غادروا البيت أو أُصيبوا بإعاقات، أو ذهبوا إلى السجن، الأب والعم والأم ومعهم طفلة مولودة حديثًا صاروا

كلهم في القبور، لكن غام ظلت حية. كانت أحكام الموت التي يصدرها في حقها الأطباء تأتي باستمرار طويلة مرحلة طفولة يوجين ومراهقته، وظلت غام تتلقاها كل ستة أشهر أو نحو ذلك، الآن بعد أن مات أبوهم صارت تتولى بنفسها نقل الأنباء الرديئة إليهم، تضخم طحالها ويات على وشك الانفجار، كبدها (أو لعله البنكرياس) توقف عن العمل، والغدة الدرقية بدورها متوقفة عن العمل. انتشر في جسدها كله هذا النوع أو ذاك من السرطان... أنواع مختلفة كثيرة جعلت عظامها سوداء متفحمة مثلما تتفحم عظام الدجاج عند إلقائها في المدفأة. في الحقيقة، تبدو غام منهكة من المرض، لم يستطع السرطان قتلها، لكنه صار ساكنًا فيها، وجعل منها بيته المريح، عشش في قفصها الصدري، تجذر فيه وراح يدفع بمجساته حتى سطح جلدها فانتشرت عليه بقع وشامات سوداء كثيرة. كان يوجين يتخيل أنه إذا أقدم أحد على فتح جلدها في تلك الأماكن فلن يجد فيها دمًا على الإطلاق بل كتلة من الإسفنج السام.

قال ضيف يوجين بصوت مهذب: «سيدتي، أرجو ألا يزعجك سؤالي، كيف صار أولادك يدعونك غام؟»

قال فاريش ضاحكًا وهو يخرج من سقيفة التحنيط ومعه ضوء كهربائي يمتد شعاعه على العشب: «لا أحد يعلم سبب ذلك، لقد التصق بها هذا الاسم»، وقف خلفها وطوقها بذراعيه وراح يدغدغها كأنهما حبيبان، وقال ممازحًا: «ما رأيك أن أضعك في صندوق هذه الشاحنة الصغيرة مع الأفاعي يا غام؟»

أجابته غام من غير مبالاة: «كفى!». كانت تعتقد أن إظهار استمتاعها بهذا النوع من المعاملة الخشنة أمر غير لائق، لكنها كانت تحبها رغم ذلك؛ وعلى الرغم من أن ملامح وجهها كانت فارغة، فإن عينيها السوداوين الصغيرتين كانتا تلمعان بفرحة واضحة.

ألقى ضيف يوجين نظرة مرتابة من باب سقيفة التحنيط التي كانت دون نوافذ، وكانت غارقة في ضياء شديد منبعث من مصباح في السقف: دوارق، وأنايب نحاسية، وشبكة شديدة التعقيد من مضخات إخلاء الهواء والمواقد الغازية الصغيرة وأنواع مختلفة من الأنابيب وصنابير قديمة، وأشياء مروعة تتعلق بالتحنيط مثل جنين فهد محفوظ في محلول الفورمول، وصندوق بلاستيكي شفاف لأدوات صيد الأسماك فيه أنواع مختلفة من الأعين الزجاجية، ذلك كله جعله يشعر أنه يقف أمام مختبر فرانكشتاين. قال فاريش بعد أن ترك غام وأمسك بلويال من ياقة قميصه ومضى به يجره ويدفعه عبر باب المختبر: «هيا! هيا، ادخل!»

تبعه يوجين متوجسًا، لعل ضيفه اعتاد أن يلقي هذه المعاملة الخشنة من شقيقه دولفوس فلم يظهر عليه أي انزعاج، لكن يوجين كان يعرف فاريش بما يكفي ليعلم أن مزاجه الجيد أحيانًا قد يكون سببًا للقلق.

قال بصوت مرتفع: «فاريش! فاريش!»

في الداخل، كانت الرفوف الداكنة مزدحمة بعبوات زجاجية فيها مواد كيميائية وصفوف من زجاجات الويسكي التي أزيلت ملصقاتها، ممثلة بسائل داكن يستخدمه فاريش في عمله

بالمختبر. كان داني يجلس فوق دلو بلاستيكية مقلوبة يرتدي زوجًا من قفازات المطبخ المطاطية، ويعبث بشيء في وعاء صغير. خلفه كانت قارورة فلترة زجاجية تغلي، فيما كان هناك صقر محنط جناحاه مفرودان يحدق حانقًا بين الظلال عند عوارض السقف كأنه على وشك الانقراض، وعلى الرفوف كانت أيضًا سمكة كبيرة الفم مثبتة إلى لوح خشبي خشن، بالإضافة إلى قوائم ديوك رومية ورؤوس ثعالب وقطط بيتية (من القطط البالغة الكبيرة نزولًا إلى القطط الصغيرة) وطيور نقار الخشب وصائدات الأفاعي وطائر بلشون أبيض... كلها غير جاهزة بعد، تتبعث منها رائحة كريهة.

«أتعرف، يا لويال؟ أتاني أحدهم ذات مرة بأفعى نحاسية الرأس كبيرة بهذا الحجم، ليثها كانت لا تزال عندي لأريك إياها لأنني متأكد من أنها أكبر من كل ما لديك هناك في سيارتك». دخل يوجين وهو يقرض ظفر إبهامه، نظر من فوق كتف لويال فرأى -كأنه يرى أول مرة، أو كأنه يرى من خلال عيني لويال- تلك القطط المحنطة والبلشون ذا الرقبة الطويلة والعينين المتفضنتين كأنهما صدفتان بحريتان. قال بصوت عالٍ عندما لاحظ نظرات لويال إلى صفوف زجاجات الويسكي: «هذا من أجل أعمال التحنيط».

قال لويال وهو ينظر إلى الجدران القاتمة التي بدت بما فيها من الرائحة والجثث والظلال كأنها مقطع عرضي من الجحيم: «يريد الرب أن نحب مملكته، وأن نحرسها، وأن نرعاها تحت سيادتنا.. سامحني إن كنت لا أدري إن كان هذا يعني أنه من حقنا تعليقها وتحنيطها».

انتبه يوجين إلى كومة من مجلات «هَسَلر» في الزاوية، كانت الصورة التي على غلاف المجلة العليا تثير الغثيان، وضع ذراعه على ذراع لويال، وقال له: «هيا بنا! دعنا نغادر!» قال هذا لأنه لم يدرِ ما قد يقوله لويال أو يفعله إن رأى تلك الصورة: وأي سلوك غير متوقع مهما يكن نوعه أمر غير مستحسن بوجود فاريش.

قال فاريش: «لا بأس! لا أدري إن كنت محقًا، يا لويال». دُعر يوجين عندما انحنى فاريش فوق طاولة العمل المصنوعة من الألمنيوم ورد شعره خلف كتفه، ونشق شيئًا أبيض مستخدمًا ورقة نقدية من فئة دولار واحد ملفوفة على شكل أنبوب. افترض يوجين أن تلك مخدرات، تابع فاريش كلامه: «اعذرني هنا! ولكن، يا لويال، هل أكون مخطئًا إذا افترضت أنك ستلتهم شريحة لحم ضخمة بسرعة مثل أخي؟»

قال لويال متسائلًا: «ما هذه؟»

«مسحوق للصداع».

تدخل داني: «فاريش مريض».

قال لويال بصوت لطيف مخاطبًا غام التي كانت تسير ببطء شديد كالحلزون، ولم تقلح في الوصول إلا إلى الباب: «يا إلهي! المعاناة بالتأكيد معلم قاسٍ لأولادك».

رد فاريش شعره إلى الخلف واعتدل من انحنائه فوق الطاولة، ونشق بأنفه، فعلى الرغم من أنه الشخص الوحيد في العائلة الذي يحصل على إعانات الإعاقة، فلم يكن يحب تذكّر محنته في نفس السياق مع تشوّه وجه يوجين، وبالتأكيد ليس مع مشكلات كورتيس التي يرى أنها أكبر بكثير.

قالت غام وهي تهز رأسها بأسى: «هذه هي الحقيقة، لقد جعلني الرب الرحيم أعاني كثيراً مع السرطان ومع التهاب المفاصل وداء السكري، وهذا الشيء هنا...». أشارت إلى بقعة سوداء قرمزية على رقبتها؛ بقعة بحجم ربع دولار.. «هنا فتح الأطباء أوعيتي الدموية...»، قالت هذا بنبرة حذرة وهي ترفع رقبتها وتميل بها جانباً كي يستطيع لويال أن يراها جيداً، «هنا تماماً أدخلوا القسطرة، تماماً من هنا، كما ترى...».

قال داني مرحاً وقد وضع إصبعه على منخره بعد أن أخذ نشقة من المسحوق المضاد للصداع: «في أي ساعة هذه الليلة قررتما الذهاب لتوعية أولئك الناس؟»

قال يوجين للويال: «علينا أن ننطلق! هيا بنا!»

لكن غام كانت تقول للويال: «وعند ذلك، أدخلوا ذلك الشيء... ماذا يسمونه، ذلك البالون... أدخلوه في رقبتى، هنا، ثم...».

«غام، علينا أن نذهب الآن!»

ضحكت غام وأمسكت بكم قميص لويال الأبيض الطويل بيدها المبقعة بالسواد. كانت مسرورة لأنها اكتشفت مستمعاً يهتم بحديثها فلم تشأ أن تتركه يذهب بهذه السهولة.

سارت هاربيت عائدة من بيت تات، كانت الأرضفة العريضة تظللها أشجار البيكان والمغنوليا وعليها أزهار متناثرة مسحوقة تساقطت من شجيرات الآس. وفي الهواء الدافئ كانت أصوات أجراس المساء تتسلل خافتة من الكنيسة المعمدانية الأولى، كانت بيوت شارع مين أكبر من البيوت الجورجية والقوطية

في شارع جورج... بيوت على نمط النهضة الإغريقية، وبيوت على النمط الإيطالي، وبيوت على نمط الإمبراطورية الفيكتورية الثانية... بقايا اقتصاد القطن الذي انهار. لا يزال بعض هذه البيوت (بعضها فقط) ملك أشخاص منحدرين من العائلات التي بنتها، واشترى بعضها أثرياء من خارج البلدة، لكن كان هناك أيضًا عدد متزايد من المنازل المشوهة، مع دراجات ثلاثية في الفناء وحبال غسيل مشدودة بين أعمدة على الطراز الدوري. كان ضياء النهار يخفت تدريجيًا، لمعت أمامها حشرة مضيئة عند آخر الشارع، ثم ظهرت أمام أنفها حشرتان غيرها، ظهرتا في تتابع سريع، لم تكن مستعدة تمامًا للذهاب إلى البيت (ليس بعد)، ومع أن شارع مين صار مهجورًا موحشًا في هذا الجزء منه، أقنعت نفسها بأنها ستسير قليلًا فقط حتى تصل إلى فندق ألكساندريا. لا يزال الجميع يدعونه فندق ألكساندريا مع أنه لم يكن هناك فندق منذ أن ولدت هاربيت بل حتى منذ أن ولدت إيدي. فخلال فترة وباء الحمى الصفراء سنة 1879، عندما اجتاح البلدة مرضى غريباء، مذعورين هاربين شمالاً من نيو أورليانز ومن ناشيز، كان المحتضرون يحتشدون كالسرددين في مدخل الفندق المزدهم وشرفته (يصرخون ويهذون ويصيحون طالبين الماء)، في حين كانت الجثث تتكدس على الرصيف أمامه.

كل بضع سنوات يحاول أحدهم إعادة افتتاح مبنى فندق ألكساندريا لجعله متجرًا للمواد الغذائية الجافة أو صالة لقاءات أو شيئًا آخر، لكن تلك المساعي لم يكن مقدراً لها أن تدوم طويلاً، فمجرد السير بجانب المكان كان يجعل الناس يشعرون

بعدم الراحة، قبل سنوات قليلة حاول بعض الغرباء من خارج البلدة افتتاح صالة شاي في الردهة، لكنها الآن مغلقة.

توقفت هاربيت على الرصيف، لاح لها الفندق عند نهاية الشارع الخالي، بقايا مبنى أبيض ذي نوافذ أشبه بالعين الواسعة تحدد في الظلام المتزايد، وفجأة خيل لها أنها رأت شيئاً يتحرك في نافذة بالطابق العلوي (شيئاً يرفرف كأنه قطعة ملابس)، فما كان منها إلا أن استدارت وركضت هاربة في الشارع الطويل الذي بدأ يظلم، وقلبها يخفق بشدة كأن أشباحاً تطاردها.

ركضت طوال الطريق إلى المنزل دون توقف، ودخلت عبر الباب الأمامي لاهثة مرهقة، وهي ترى بقعاً تتقافز أمام عينيها، كانت أليسون في الأسفل جالسة أمام التلفاز.

قالت لها: «أمي قلقة، اذهبي وأخبريها إنك عدت. أوه، وهيلي اتصل.»

لم تبلغ هاربيت منتصف السلم حتى اندفعت أمها نازلة إليها وشبشبها يقعقع على درجات السلم: «أين كنت؟ أجيبيني حالاً». كان وجهها محمراً ولامعاً، وقد ارتدت على عجل قميصاً أبيض مجعداً كان يخص والد هاربيت فوق قميص نومها. أمسكت بكثف هاربيت وهزتها، ثم دفعتها نحو الحائط فاصطدم رأسها بإطار صورة المغنية جيني ليند.

كانت هاربيت مذهولة، سألتها وهي ترمش بعينيها: «ما الأمر؟»
«هل تعلمين كم كنت مذعورة؟»، كان صوت أمها غريباً، وكان عالياً.. «لم أعرف أين كنت!»

«ماما!»، غطت هاربيت وجهها بذراعها في حيرة، لعلها ثملة؟ أحياناً، تكون تصرفات والدها هكذا عندما يعود إلى البيت يوم عيد الشكر ويفرط في الشراب.

«حسبت أنك متٌ، كيف تجرئين على...».

«ما المشكلة؟». كانت إضاءة مصابيح السقف خشنة وقاسية، ولم تستطع هاربيت التفكير في شيء سوى الصعود إلى غرفتها، «كنت عند تات».

«كلام فارغ، قل لي الحقيقة».

قالت هاربيت نافذة الصبر وهي تحاول من جديد أن تتجاوز أمها وتتابع صعودها: «كنت عندها، اتصلي بها إن كنت لا تصدقيني».

«سأتصل بها بالتأكيد. سيكون هذا أول ما أفعله صباح الغد، أما الآن فعليك أن تقولي لي أين كنت».

قالت هاربيت وقد ضاقت ذرعاً بأمها التي تسد طريقها: «هيا! اتصلي بها الآن!»

خطت والدة هاربيت خطوة سريعة وغاضبة نحوها، تراجعت هاربيت بنفس السرعة خطوتين إلى أسفل الدرج، استقرت نظرتها الحائرة على لوحة بورترية لوالدتها مرسومة بالباستيل (عينان لامعتان، وملامح ساخرة، ومعطف من وبر الجمل، وشعرها اللامع مربوط خلف رأسها)، رسمت هذه اللوحة في أحد شوارع باريس خلال سنتها الأولى في الكلية، كانت العينان في الصورة، تلك العينان المتألفتان كنجمتين لكثرة ما عليهما من ظلال مرسومة بالطباشير البيضاء تبدوان كأنهما تتسعان متعاطفتين معها في هذه المحنة.

«لماذا تعذبنني هكذا؟»

حوّلت هاربيت عينيها عن الصورة لتعود إلى التحديق في وجه والدتها نفسه الذي صار أكبر سنًا وصار يبدو (على نحو غامض) وجهًا غير طبيعي كأنه وجه أعيد تكوينه بعد حادثة مروعة.

صرخت أمها: «لماذا؟ هل تريد أن يصيبني الجنون؟»

أحست هاربيت بوخزة خطر في فروة رأسها، يحدث كثيرًا أن تصير تصرفات أمها غريبة أو مشوشة ومضطربة لكن ليس هكذا، لم تتجاوز الساعة السابعة مساءً، والوقت صيف، كانت هاربيت كثيرًا ما تبقى في الخارج تلعب حتى العاشرة، ولم تكن والدتها تلاحظ حتى.

كانت أليسون تقف أسفل السلم ويدها على رأس عمود الدرابزين المصنوع على شكل زهرة التوليب.

سألته هاربيت بقدر من الفضاظة: «أليسون! ما مشكلة ماما؟» صفعتها أمها، كان صوت الصفعة قويًا، مع أنها لم تؤلمها كثيرًا، وضعت هاربيت يدها على خدها ونظرت إلى أمها التي كانت تتنفس بسرعة أنفاسًا قصيرة غريبة.

كانت صدمتها كبيرة فلم تبك: «ماما! ماذا فعلت؟ إن كنت قلقة هكذا، فلماذا لم تتصلي بهيلي؟»

«لا أستطيع أن أتصل به وإيقاظ عائلته في هذه الساعة من الصباح».

أليسون الواقفة عند أسفل السلم بدت مذهولة مثل هاربيت، لسبب ما اشتبهت هاربيت أن أليسون كانت السبب وراء هذا الالتباس.

صاحت بها: «لقد فعلت شيئاً، ماذا قلت لها؟»
لكن عيني أليسون كانتا مثبتتين على أمها (مستديرتين ومذهولتين). قالت لها: «ماما.. ماذا تعنين بكلمة صباح؟»
بدت الدهشة على تشارلوت، كانت مستعدة إلى درابزين السلم بيدها.

قالت أليسون: «الوقت ليل، هذه ليلة الثلاثاء».
تجمدت تشارلوت بضع لحظات: عيناها متسعتان وفمها مفتوح قليلاً، ركضت نازلة السلم (شبشبها الذي من غير كعب كان يحدث صوتاً عالياً مع كل خطوة)، ونظرت من النافذة بجانب باب البيت.

قالت وهي تميل إلى الأمام، ويدها تستندان إلى عتبة النافذة: «يا إلهي!»، فتحت الباب وخرجت إلى الشرفة الأمامية التي لا يزال ضياء الغسق ينيهرها، سارت ببطء شديد كأنها في حلم إلى الكرسي الهزاز وجلست.

قالت: «يا إلهي! أنت مُحَقَّة، استيقظت فرأيت الساعة تشير إلى السادسة وثلاثين دقيقة فظننت الوقت صباحاً».

مر بعض الوقت لم يكن مسموعاً فيه أيُّ صوت سوى غناء الجنادب والأصوات القادمة من الشارع، ثمة ضيوف عند آل غودفري: سيارة غريبة بيضاء مركونة في الممر أمام البيت، وسيارة ستيشن متوقفة بمحاذاة الرصيف، ونفحات من دخان الشواء متصاعدة عبر الإضاءة الصفراء في شرفتهم الخلفية.
رفعت تشارلوت رأسها ناظرة إلى هاربيت، كان وجهها مبللاً بالعرق شاحباً جداً، وحدقتا عينيها متسعيتين وسوداوين لدرجة

أنهما ابتلعتا القزحية التي تقلصت إلى هالة زرقاء متوهجة على
حواف أقمار مظلمة.

«هاربيت.. كنت أظنك غائبة في الخارج طوال الليل..»، كانت
ترتجف وتلهث، كأنها نجت لتوها من الفرق: «أوه، يا طفلي! ظننت
أنك اختطفك أو مت، لقد رأيت حلمًا سيئًا و.. أوه! لقد ضربتك»،
دفنت وجهها بين كفيها وبدأت تبكي.

قالت أليسون بصوت خافت: «ادخلي، يا ماما! أرجوك!». لم
يكن من اللائق أن يراها آل جودفري أو السيدة فونتين وهي تبكي
على الشرفة الأمامية مرتدية قميص نومها.

«هاربيت! تعالي! كيف يمكن أن تصفحي عني؟ أنا مجنونة. أنا
أسفة..»، راحت تذرف دموعها في شعر هاربيت.

كانت هاربيت مشدودة إلى صدر أمها بزاوية غير مريحة
إطلاقًا، لكنها حاولت ألا تتحرك، شعرت بالاختناق. وفي الأعلى
(كأن ذلك آتٍ من مسافة بعيدة)، كانت أمها تتنحب وتسعل بصوت
مكتوم كأنها ناجية من سفينة غارقة دفعته الأمواج إلى الشاطئ،
كان قماش قميص النوم الوردى المضغوط على خدها يبدو مكبرًا
لدرجة أنه لم يعد يبدو كقماش، بل مثل شبكة من حبال خشنة
متقاطعة، كان ذلك أمرًا لافتًا. أغمضت هاربيت عينها القريبة من
صدر أمها فاختفى اللون الوردى، فتحت كلتا عينيها فعاد اللون
الوردى، بدأت تجرب إغلاق عينيها بالتناوب، تراقب هذا الوهم
البصري يتقاذز ذهابًا وإيابًا، إلى أن سقطت دمة كبيرة (دمة
ضخمة) على النسيج فصارت عليه بقعة قرمزية.

أمسكتها أمها من كتفيها، كان وجهها لامعاً ورائحة الكريم
تفوح منه، عيناها سوداوان كالحبر وغريبتان مثل عيني قرش
رأته هاربيت في معرض الأسماك عند شاطئ الخليج.
قالت لها: «أنت لا تعلمين كيف يكون هذا».

مرة أخرى وجدت هاربيت نفسها مضغوطة على قميص نوم
أمها، قالت لنفسها: ركّزي! إذا استطعت تركيز تفكيرك مثلما
ينبغي، ففي وسعك أن تكوني في مكان آخر.

انسكبت في الشرفة الأمامية خيوط ضوء متوازية، وكان باب
البيت نصف مفتوح. سمعت هاربيت صوت أليسون يقول: «ماما!»؛
ثم صار خافتاً جداً.. «من فضلك».

أخيراً عندما سمحت والدّة هاربيت أن يدخلوها إلى البيت،
أخذتها أليسون حتى الأريكة فأجلستها ووضعت وسادة خلف
رأسها، ثم شغلت التلفاز... كانت الأصوات المرحّة والموسيقى
الحية والأحاديث غير المبالية بهم تبعث على الراحة قليلاً. بعد
ذلك أحضرت أليسون المحارم الورقية ودواء الصداع والسجائر
ومنفضة السجائر وكأساً من الشاي المثلج، ثم أحضرت كيس
جليد تحتفظ به أمها في الفريزر (كيس من النايلون الشفاف
لونه أزرق فاتح، وهو على هيئة نصف قناع مثل الذي يستخدمه
المهرجون... كيس من احتفال «يوم الثلاثاء الدسم»⁽¹⁾). تضع أمها
هذا الكيس على عينيها عندما تزعجها جيوبها، أو عندما تعاني
ما تدعوه «صداعاً شديداً».

(1) احتفال سنوي يُقام في اليوم الذي يسبق أربعاء الرماد، وهو بداية الصوم الكبير
في التقاليد المسيحية. يُعرف الاحتفال بأصوله الكاثوليكية، كان الناس يستمتعون
بالطعام والمرح قبل دخول فترة الصيام والتقصّف.

أخذت والدتهما المناديل الورقية والشاي من كومة الأشياء المريحة، ثم ضغطت كيس الجليد الأزرق على جبهتها وهي تغغم شاردة الذهن: «أنا خجلى كثيراً من نفسي.. ماذا يمكن أن تظنا بي؟». لم تكن هاريت غافلة عن هذا الكيس الأزرق. جلست تراقب والدتها من الكنبه المقابلة؛ لقد رأت أباهما مرات كثيرة صباح اليوم التالي لشربه الكحول جالساً إلى مكتبه وقد ربط هذا الكيس إلى رأسه وهو يجري مكالمات هاتفية أو يقلّب أوراقه حانقاً، لكن أنفاس أمها كانت خالية من رائحة الكحول، لم تشم شيئاً عندما كانت تشدها إلى صدرها هناك على الشرفة. حقيقة الأمر أن أمها لا تشرب مثلما يشرب والدها، من وقت إلى آخر تمزج لنفسها كأساً من البوربون والكوكا كولا، لكنها كثيراً ما تحمل تلك الكأس معها طيلة المساء إلى أن تذوب قطع الجليد ويصبح المنديل الورقي رطباً كله، ثم تغفو قبل أن تفلح في إنهاء شربها.

ظهرت أليسون مجدداً عند الباب، نظرت بسرعة نحو أمها لتتأكد من أنها لا تنتظر إليها، ثم حركت شفيتها قائلة لهاريت دون صوت: اليوم عيد ميلاده.

رمشت هاريت بعينيها دهشة، بالتأكيد! كيف نسيَتْ ذلك؟ عادة ما تكون ذكرى وفاته في شهر أيار هي ما يثير والدتهما: نوبات بكاء، ونوبات ذعر غير مفهومة. منذ بضع سنوات ساء الوضع كثيراً فصارت غير قادرة حتى على الخروج من البيت كي تحضر احتفال أليسون بإنهاء الصف الثامن، وأما في شهر أيار هذه السنة فقد مرت المناسبة دون أي حادثة.

تتحننت أليسون وقالت: «ماما، سأجهز لك الحمام»، كان صوتها جازماً على نحوٍ غريب كأنه صوت شخص كبير، «لست مضطرة إلى الاستحمام إن لم ترغبني».

نهضت هاربيت لتصعد إلى الطابق العلوي لكن أمها مدت ذراعها أمامها بحركة مذعورة سريعة كالبرق كأن هاربيت على وشك أن تخطو في الشارع أمام سيارة مسرعة.

«فتاتي! بنتي الجميلتين!» ربت على الأريكة بيديها الاثنتين من هذه الجهة ومن تلك الجهة، ومع أن وجهها قد تورّم لكثرة بكائها، فقد كانت في صوتها بهجة غريبة، بهجة واهية لكنها متألفة.

قالت: «هاربيت، لماذا لم تقولي لي؟ هل أمضيت وقتاً طيباً مع تات؟ عن أي شيء تحدثتما؟»

مرة أخرى وجدت هاربيت نفسها عاجزة عن الكلام تحت وهج اهتمام والدتها غير المرحب به. ولسبب ما كل ما خطر في بالها كان صعود أرجوحة مدينة الملاهي عندما كانت صغيرة، كان هناك شبح يتحرك بهدوء جيئة وذهاباً على امتداد صف من قصبات صيد الأسماك في الظلام، تذكرت كيف قفز ذلك الشبح قفزة مفاجئة فصار أمام وجهها، بعض الأحيان لا تزال حتى الآن تستيقظ استيقاظاً مفاجئاً من نومها العميق عندما يطير إليها ذلك الشكل الأبيض آتياً من الظلام.

«ماذا فعلت في بيت تات؟»

«لعبنا الشطرنج». في الصمت الذي تلا ذلك، حاولت هاربيت التفكير في كلمات طريفة أو مسلية تضيفها إلى هذه الإجابة،

طوقت أليسون أمها بذراعها كي تشعر أنها مشمولة بعاطفتها أيضاً، «ولماذا، لم تذهبي معها، يا حبيبتي؟ هل تناولت عشاءك؟» قال التلفزيون: نقدم الآن فيلم محطة ABC لهذا الأسبوع، فيلم «أنا وناتالي» من بطولة باتي ديوك وجيمس فارنتينو ومارتن بالزام.

في أثناء ظهور العناوين التي تكون في مقدمة الفيلم، نهضت هاريت واقفة وسارت إلى غرفتها، لكن أمها لحقت بها وصعدت السلم.

وقفت بباب الغرفة حزينة، سألتها: «هل تكرهين أمك لأن تصرفاتها جنونية؟ لماذا لا تتابعين الفيلم معنا؟ نحن الثلاثة فقط؟»

أجابت هاريت بكل تهذيب: «لا، شكرًا!»

كانت أمها تنتظر إلى السجادة، لاحظت هاريت أنها تنظر إلى مكان قريب جدًا من البقعة المتسخة بلون أسود، كان جزء من تلك البقعة ظاهرًا تحت حافة السرير.

«أنا...»، بدا لها أن صوت أمها قد انقطع، وبحركة موحية بالعجز، التفتت صوب حيوانات أليسون وإلى رزمة الكتب على إطار النافذة عند سرير هاريت، وقالت بصوت صدى: «لا بد أنك تكرهيني».

نظرت هاريت إلى الأرض، لا تطيق أمها عندما تصير مأساوية هكذا، وقالت لها: «لا يا ماما، لكني لا أرغب في مشاهدة الفيلم». «أوه، يا هاريت! كان حلمي سيئًا جدًا. كنت في غاية الذعر عندما استيقظت ولم أجدك، تعلمين أنني أحبك، ألا تعلمين هذا يا هاريت؟»

وجدت هارييت صعوبة في الإجابة، أحست بخدر خفيف كأنها
تحت الماء: الظلال الطويلة، وضوء المصباح الأخضر الغريب،
وحفيف الستائر في النسيم.

«ألا تعلمين أنني أحبك؟»

قالت هارييت: «أعلم»، لكن صوتها بدا واهياً كأنه آتٍ من
مكان بعيد جداً أو كأنه صوت شخص غيرها.

الفصل الرابع

المهمة التبشيرية

استغربت هاربيت من نفسها أنها لم تكره كورتيس على الرغم مما عرفته مؤخراً عن أسرته. بعيداً في هذا الشارع، في نفس المكان الذي صادفته فيه آخر مرة، كان كورتيس يسير بهمة على الرصيف، يخطو بقدميه المسطحتين، ويتمايل إلى الأمام والخلف ومسدسه المائي بين يديه الاثنتين، وجسده الممتلئ الرخو يتأرجح يميناً ويساراً.

ومن البيت العتيق الذي كان كورتيس يزعم أنه «يحرسه» (شقق ذات إيجار زهيد)، سُمع صوت إغلاق باب. ظهر على السلم الخارجي رجلان يحملان صندوقاً ضخماً مغطى بمشمع. الرجل الذي واجه نظرات هاربيت كان في مقتبل شبابه، وبدت هيئته غريبة جداً: جبهته لامعة، وشعره منتصب، وعيناه مدورتان تحملان مزيجاً من الصدمة والتوتر، كأنهما شهدتا كارثة للتو. أمّا الرجل الآخر، الأكبر سنّاً والأثقل وزناً، فكان يخطو نزول السلم بتعجل كاد يُسقطه. ومع ذلك، لم يتوقف الرجلان عن حمل الصندوق، رغم ثقله وضيق السلم والمشمع المتهدل الذي بدا أنه سيزلق في أي لحظة ليوقعهما أرضاً.

وسط كل هذا الارتباك، اقترب كورتيس مُتمايلاً، ثم أطلق صيحة أشبه بمواء قط، وصوّب مسدسه المائي نحو الرجلين. لم يلتفتا إليه، فقد كانا مشغولين بنقل الصندوق إلى سيارة بيك أب مركونة في الممر أمام البيت. كان صندوق السيارة مغطى

بمشمع آخر ممتد بعناية. عندها، استدار الرجل الأكبر سنًا، ذو القميص الأبيض والبنطلون الأسود والصدّار الأسود المفتوح، وأدار الصندوق بمرفقه ليرفع جانبه نحو صندوق السيارة.

في تلك اللحظة، مال الصندوق مصدرًا صوت قعقة قاسية. صاح الرجل الأصغر، صاحب الشعر المنتصب، محذرًا وهو يرفع يديه كأنما يحاول الإمساك بشيء على وشك الانهيار: انتبه!».

مسح الرجل الأول (لا يزال ظهره تجاه هارييت) جبهته بمنديله، كان شعره الرمادي مصفّفًا إلى الخلف ومغطى بطبقة لامعة من الزيت. تعاون الاثنان على وضع الصندوق في مكانه، ثم أعادا تغطيته بالمشمع قبل أن يصعدا السلم عائدين من حيث أتيا. لم تبدِ هارييت -وهي تتابع هذا المشهد الغامض- اهتمامًا كبيرًا. كانت تعرف أن هيلي قد يقضي ساعات يتأمل العمال في الشوارع، وربما يذهب إليهم ليسألهم عن حمولتهم أو عملهم أو معداتهم، لكنه بالنسبة إليها كان أمرًا يبعث على الضجر. الشيء الوحيد الذي أثار فضولها حقًا هو كورتيس. إن كان ما تسمعه عنه طيلة حياتها صحيحًا، فإن أشقاءه ليسوا طبيين معه. كانت الكدمات الحمراء التي تظهر على ذراعيه وساقيه، بكثافتها ولونها الغريب المشابه لعصير التوت البري، تجعل الأمر أكثر وضوحًا. كان جسمه هشًا فيصيبه الزكام أكثر مما يصيب بقية الأطفال. كان معلموه يلاحظون تلك الكدمات دائمًا ويسألونه عنها، لكن هارييت لم تكن تعرف طبيعة أسئلتهم أو ما يجيب به كورتيس. وكان الأطفال في المدرسة يتحدثون عن كورتيس بنبرة من التعاطف الممزوج بالهمس. الجميع يعرف أنه طفل بلا أم ولا

أب، يعيش تحت رعاية أشقائه وجدته العجوز التي كانت كثيرًا ما تشكو من ضعفها وعجزها عن الاعتناء به. كان يأتي إلى المدرسة في أيام الشتاء القارس بلا معطف يقيه البرد، وأحيانًا بلا طعام للغداء أو حتى مال لشراء وجبة. وعندما كان يحضر طعامًا، كان غالبًا غير مناسب؛ مثل علبة جيلي صغيرة، تضطر المعلمات إلى مصادرتها.

ما كان يزيد من غرابة هذا الوضع هو أن كورتيس يدرس في أكاديمية ألكساندريا، مدرسة خاصة برسوم دراسية تبلغ ألف دولار سنويًا. هذا التناقض كان يثير الاستغراب والشكوك بين المعلمات. إذا كانت عائلته قادرة على دفع رسوم المدرسة، فلماذا لا تستطيع توفير معطف له أو وجبة غداء مناسبة؟ التبريرات الواهية التي كانت تقدمها جدته لم تفعل شيئًا سوى إثارة مزيد من التساؤلات والنظرات المشككة.

كانت هاربيت تشعر بالأسف تجاه كورتيس، لكنه كان شعورًا حذرًا ومن بعيد. طبيته وحركاته الغريبة كانت تثير توتر الجميع من حوله. الأطفال الصفار يخافونه، والفتيات في المدرسة يرفضن الجلوس بقربه لأنه يميل إلى لمس وجوههن أو ثيابهن أو شعورهن دون أن يدرك مدى غرابة تصرفاته. رغم أنه لم يلحظ وجودها في هذه اللحظة، فإن فكرة ما قد يحدث لو انتبه إليها كانت تبعث في نفسها قلقًا شديدًا.

بتلقائية أشبه بالهرب، عبرت الشارع إلى الجهة الأخرى، خافضةً عينيها نحو الأرض، وإحساس بالخجل يفمرها كما لو أنها هي المخطئة.

في تلك الأثناء، سمعت صوت الباب مجدداً، ونظرت لترى الرجلين يعودان حاملين صندوقاً آخر على درجات السلم. وبينما كانا ينزلان، لاحت في زاوية الشارع سيارة لينكولن كونتيننتال طويلة وأنيقة، بلون لؤلؤي. عبرت السيارة الطريق بسلاسة، وعندما استدارت لتدخل الممر المؤدي إلى البيت، رأت فيها السيد دايال. لمحته من جانب وجهه، ودُهِشت عندما توقف السيارة أمام ذلك البيت.

بعد أن وضع الرجلان الصندوق في السيارة وغطياه بالمشمع، عادا إلى السلم بخطوات هادئة مسترخية. حينها انفتح باب السيارة، وخرج السيد دايال، منادياً بصوت مرتفع: «يوجين!». لم يأبه بكورتيس الذي وقف متجمداً في مكانه، بل اندفع السيد دايال بخطوات سريعة، قائلاً: «يوجين! انتظرني لحظة واحدة فقط».

توقف الرجل ذو الشعر الرمادي المسرّح والمربوط خلف رأسه فجأة، والتفت ببطء. عند رؤيته، أجفلت هاربيت كأنها ترى كابوساً؛ فقد لفتت نظرها علامة حمراء كبيرة تملأ جانب وجهه، كأنها كتابةٌ بطلاء أحمر.

اقترب السيد دايال من السلم بخطوات واثقة، ورفع صوته قائلاً بودّ ظاهري:

«يسرني أن ألتقيك هنا، يا يوجين. أنت رجل يصعب العثور عليه!»

مدّ يده بابتسامة مصطنعة نحو الشاب النحيل الذي وقف بعينين جاحظتين وملامح تتم عن توتر كأنه على وشك الفرار،

«أنا روي دايال، من شركة دايال شيفروليه».

قبل أن يتكلم الشاب، تدخل الرجل الأكبر سنًا، قائلاً بنبرة قلقة وهو يعبث بأصابعه بتلك العلامة الحمراء على خده:
«هذا ... هذا لويال ريزي».

كان التوتر واضحًا في صوته وفي حركاته. لاحظ السيد ديال عدم ارتياحه، لكنه لم يتراجع. نظر إلى الرجل النحيل بابتسامة تحمل أكثر من معنى، وقال بلطف لا يخلو من الفضول:

«ريزي، أظن أنك لست من هذه المنطقة، أليس كذلك؟»

تمتم الرجل ببضع كلمات ردًا على سؤاله، لكن هاربيت لم تستطع فهم ما قاله. كانت لكتته واضحة، تحمل صدى صوت أنفي من منطقة أعالي الجبال.

قال السيد دايال: «آه! يسرني أن تكون عندنا، يا سيد لويال... هل أنت هنا في زيارة؟ أقول هذا لأن...» رفع يده ليقطع أي اعتراض «لأن هناك شروطًا للإيجار: شخص واحد. لا مشكلة أبدًا في التأكد من أن كلًا منا يفهم الآخر، أليس كذلك؟». طوى السيد دايال ذراعيه على صدره بنفس الطريقة التي يفعلها في دروس الأحد التي اعتادت هاربيت حضورها، وأضاف: «وبالمناسبة، هل أعجبك الباب الذي ركبته لك؟».

حاول يوجين رسم ابتسامة على وجهه، وقال: «باب جيد، يا سيد دايال. إنه أفضل من بقية الأبواب الأخرى». لكن بين ابتسامته والندبة البارزة على وجهه، بدا لهاربيت كقول طيب القلب من فيلم رعب.

قال السيد دايال وهو يفرك يديه ببطء: «وماذا عن سخان الماء؟ أعلم أنه سخان أسرع بكثير الآن. يسخن ماء الحمام وكل شيء كما يجب. لديك ماء حار بقدر حاجتك، أليس كذلك؟ ها ها ها!»

«في الواقع، يا سيد دايال...»
قاطعه السيد دايال مائلاً برأسه جانباً: «يوجين، سأدخل في صلب الموضوع إذا لم تمنع. من مصلحتك كما من مصلحتي أن تظل خطوط التواصل بيننا مفتوحة. ألا توافقني؟»
بدت الحيرة على وجه يوجين.

«عندما زرتك آخر مرتين لأراك، لم تسمح لي بدخول الشقة. ساعدني في هذا الأمر، يا يوجين». رفع السيد دايال يده بمهارة لمنع أي مقاطعة: «ما الذي يجري هنا؟ وكيف يمكننا تحسين هذا الوضع؟»

«يا سيد دايال، لا أفهم ما الذي تلمح إليه؟»
«أنا متأكد من أنني لست مضطراً إلى تذكيرك يا يوجين بأنني مالك هذه الشقة، ومن حقي الدخول إليها كلما رأيت ذلك مناسباً. دعنا نكون متعاونين في هذا الشأن، ما رأيك؟» بدأ يصعد السلم، فيما كان الشاب لويال ريزي يتراجع أمامه بخطوات مرتبكة، ودهشته تزداد وضوحاً مع كل خطوة.

«في الحقيقة، يا سيد دايال، لا أفهم المشكلة. إن كنت تعتقد أنني فعلت شيئاً خاطئاً...»

قاطعه السيد دايال بنبرة صارمة: «يوجين، دعني أكون واضحاً: لقد تلقيت شكاوى بشأن روائح غريبة قادمة من هنا. حتى أنني لاحظتها بنفسني في زيارتي السابقة.»

«هل ترغب في الدخول قليلاً، يا سيد دايال؟»

«بالطبع أرغب يا يوجين، إن لم يكن لديك مانع. كما ترى،
لدي مسؤوليات تجاه جميع المستأجرين».

فجأة، قطع كورتيس الصمت بصيحة مفاجئة: «قبعة!».

قفزت هارييت في مكانها وهي ترى كورتيس يتمايل بجسمه
من جانب إلى جانب ويلوح بيده نحوها، مغلقاً عينيه كعادته
الغريبة.

صاح مخاطباً إياها: «أعمى!»

استدار السيد دايال نصف التفاته، نظر إلى كورتيس بملامح
تجمع بين المرح والاشمئزاز الطفيف، وقال بلهجة ودية مصطنعة:
«مرحباً، يا كورتيس!»

في تلك اللحظة، استدار كورتيس على عقبيه وسار بخطوات
عريضة، ضارباً الشارع بقدميه متجهاً صوب هارييت. مدّ ذراعيه
أمامه في مشهد أقرب إلى شخصية فرانكشتاين، وكفاه متدليتان
بشكل غريب.

غمغم قائلاً: «وحش، وووو، وحش!»

تجمدت هارييت في مكانها مذعورة، لكن السيد دايال لم
يرها، والتفت إلى الرجلين متابعاً كلامه: «لا، انتظر لحظة يا
يوجين. أريد حقاً أن تفهم موقعي هنا...»، وتابع صعود درجات
السلم بخطوات واثقة، في حين تراجع الرجلان أمامه متوترين.
توقف كورتيس أمام هارييت، وقبل أن تفلح في قول أي شيء،
انفتحت عيناه وأمرها: «اربطي لي حذائي».

«حذاؤك مربوط يا كورتيس»، كان هذا أمرًا معتادًا لأن كورتيس لا يعرف كيف يربط شريط حذائه، ولأنه يذهب إلى الأطفال في باحة المدرسة طالبًا منهم مساعدته. الآن، كان هو الذي بدأ الحديث بصرف النظر إن كان حذاؤه في حاجة إلى ربط أو لم يكن.

ومن غير إنذار، اندفعت يد كورتيس سريعًا وأمسكت بهارييت من معصمها، صاح بها: «أمسكت بك».

لم تدرِ إلا وقد بدأ يجرها بقوة عابرًا بها الشارع، قالت غاضبة: «توقف!» حاولت تحرير يدها، «اتركني».

لكن كورتيس تابع سيره، كان قويًا جدًا، سارت هارييت خلفه متعثرة، وصاحت به: «توقف!»، وركلته على ساقه بأقصى قوة استطاعتها.

توقف كورتيس فجأة، وتراخت قبضته قليلًا عن معصمها. نظر إليها بوجه خالٍ من أي تعبير، لكن ملامحه كانت مخيفة بعض الشيء. ثم، بطريقة مفاجئة وبريئة، مد يده وربت على رأسها بخفة. كانت لمسته أشبه بلمسة طفل صغير يربت على قطعة، قال لها: «أنت قوية.. قبعة!»

ابتعدت هارييت عنه، وبدأت تفرك معصمها، غمغمت قائلة: «لا تفعل هذا مرة أخرى! لا تجرّ الناس في الشارع!»

زمجر كورتيس مقلدًا صوت وحش غاضب: «أنا وحش طيب... قبعة! نحن صديقان!» ربت على بطنه «أكل الحلوى فقط!»

نظرت هارييت حولها لتجد أنه قد جرها إلى الناحية الأخرى من الشارع، حيث بداية الممر الذي كانت السيارة متوقفة فيه.

كان كورتيس قد اتخذ وضعية الوحش الذي يأكل الحلوى، أصابعه متدلّية تحت ذقنه في مشهد مضحك. فجأة، قفز إلى صندوق السيارة ورفع الغطاء المشمع «انظري! قبعة!»

قالت هاريت متذمّرة: «لا أريد أن أنظر»، واستدارت مبتعدة عن السيارة، لكن صوت فحيح جاف وغاضب انبعث من داخلها فجأة، ليجبرها على الالتفات.

أفاع! رمشت هاريت بعينيها مدهوشة. هناك، داخل السيارة، كانت تقبع صناديق مشبّكة بفتحات معدنية، وفي داخلها أفاعٍ من كل صنف ولون: أفاعٍ ذات أجراس، وأفاعٍ قطنية الفم، وأخرى نحاسية الرأس. أفاعٍ كبيرة وصغيرة متشابكة في كتل متداخلة، أجسادها المرقّطة وأخطامها البيضاء الحرشفية تخرج ألسنتها الرقيقة المشقوقة كأنها شرارات متوهجة. كانت الأفاعي تتحرك بلا هواده، رؤوسها المستدقة تصطدم بجدران الصناديق، ترتدّ، ثم تلتف على نفسها لتهاجم الشبك المعدني والخشب، أو حتى بعضها بعضاً. أعينها الزجاجية الخالية من أي شعور تحدّق ببرود، ورؤوسها المنخفضة تلامس الأرض وهي تتساب بشكل متعرج يشبه حرف S... تك تك تك... حتى تصطدم من جديد بجدران الصندوق، فتعود إلى الكتلة لتصدر هسيساً مرعباً.

من خلفها، انبعث صوت كورتيس الغليظ قائلاً: «لا تلمسيها، أيتها الصديقة. مجرد قبعة، لا تلمس».

كانت الصناديق محكمة الإغلاق، مفصلاتها قوية، وشبكها المعدني مثبت بإحكام. جوانبها مزوّدة بمقابض، وبعضها كان مطلياً بألوان بارزة: أبيض وأسود وأحمر قرميدي، كأنها مستوحاة

من بيوت المزارع. زُيّنت الصناديق بكتابات مستوحاة من الإنجيل،
حُفرت بحروف صغيرة متعرجة، إلى جانب رسوم بأشكال متعددة:
صلبان، جماجم، نجوم سداسية، شمس وأقمار وأسماك. على
الأسطح، زُخرفت الصناديق بأغطية زجاجات، وأزرار، وشظايا
زجاجية، وحتى صور فوتوغرافية. الصور الباهتة أظهرت توابيت،
وعائلات متشحة بالوقار، وأولاد ريفيين يحملون أفاعي ذات
أجراس بأيدي مرتفعة، وخلفهم نار متوهجة تكاد تخفي ملامح
المكان. في إحدى الصور الشبحية الباهتة، كانت هناك فتاة
جميلة بشعر مرفوع وعينين مغمضتين بإحكام، وجهها الجميل
الحاد مرفوع نحو السماء. أطراف أصابعها ملامسة صدغيها،
فيما أفعى ذات جرس غليظة متربعة فوق رأسها، وذيلها ملتف
حول عنقها. فوق الأفعى كانت هناك كلمات مكتوبة بحروف
صفراء مقصوصة من صحيفة، تقول:

نامي مع يسوع

ريزي فورد

1935م - 1952م

كان كورتيس يهدل من خلفها... أنين غير مميز بدا لها كأنه
يقول «شبح».

في زحمة الصناديق المتكدسة، وسط زخارفها وكتاباتاتها
اللامعة المتنوعة، وقع نظر هاريت على مشهد جعلها تتوقف
مذهولة. للحظات، عجزت عن تصديق ما رآته عيناها: في
صندوق رأسي منفرد، كانت أفعى كوبرا ملكية تتلوى ببطء. كانت
وحيدة في مسكنها، لا تشاركها أفعى أخرى. وتحت المفصلة

التي تربط الشبك المعدني بالخشب، كُتبت كلمتان باللون الأحمر باستخدام المسامير اليدوية: «الرب يسوع». لكن هذه الكوبرا لم تكن بيضاء اللون كما صورتها هاربيت للوهلة الأولى، ولم تشبه تلك التي واجهها ماوكلي في الوكر البارد. كانت سوداء بالكامل، سوداء مثل «ناغ» وزوجته «ناغاينا» اللذين حارب ضدهما النمس «ريكي تيكي تافي»⁽¹⁾ في معركة شرسة دفاعاً عن الصبي تيدي في حدائق البنغالو الكبير بقاعدة سيفغولي كانتونمنت العسكرية. ساد الصمت. رفعت الكوبرا رأسها وانبسط كأنه قبة. كانت منتصبية وثابتة، تحدّق بهدوء إلى هاربيت. يتمايل جسدها إلى الأمام والخلف بخفة كأنها تتنفس بهدوء عميق. «انظري... وخافي!» هاتان العينان الصغيرتان الحمراءوان هما عينا الرب اللتان لا تغفلان: ها هي ذي الكوبرا تجسد الأدغال بقسوتها وهياجها وحكمتها القديمة وطقوسها الغامضة. كانت هاربيت تعرف أن على ذلك الرأس المنبسط كالقبة علامة مميزة⁽²⁾.

(1) «ريكي تيكي تافي»: قصة قصيرة شهيرة كتبها روديارد كيبلينغ ضمن كتاب الأدغال. تحكي عن نمس صغير يدعى ريكي تيكي تافي، يُنقذ من فيضان ويعيش مع عائلة بريطانية في الهند الاستعمارية. يُظهر النمس شجاعة استثنائية عندما يتصدى لشعابين الكوبرا الشريرة ناغ وزوجته ناغاينا اللذين يخططان لقتل أفراد العائلة، خاصة الطفل تيدي. يخوض النمس معركة شرسة ويقتل الشعابين؛ فينقذ العائلة ويحمي الحديقة. القصة تجسد قيم الشجاعة والوفاء في مواجهة الخطر.

(2) تشير فكرة «العلامة» إلى أسطورة هندوسية مفادها أن الإله براهما (الإله الخالق في الهندوسية) وضع علامة مميزة على الكوبرا كرمز لقداستها وحمايتها. وتعود القصة إلى أن أول كوبرا رفعت قلنسوتها لتوفر الظل والحماية للإله براهما في أثناء نومه. هذه العلامة، التي تُشبه النقش أو الخطوط على قبة الكوبرا، أصبحت رمزاً لجميع الكوبرا لاحقاً. في الثقافة الهندوسية، تُعتبر الكوبرا كائنًا مقدسًا ومبجلًا، وكثيراً ما ترمز إلى الحكمة، والحماية، والخلود.

علامة تشبه نظارة وضعها الرب براهما على شعب الكوبرا حين مدت أول كوبرا رأسها وبسطت قبعتها لتحميه وهو نائم.

قطع صمت المشهد صوت مكتوم صادر من جهة البيت، صوت إغلاق باب. رفعت هاربيت رأسها نحو النوافذ، ولاحظت لأول مرة أن جميع نوافذ الطابق الثاني مغلقة. كانت مغطاة بورق معدني فضي اللون، تمنحها مظهرًا معدنيًا غريبًا. شحذت هذه النوافذ إحساسها بالقلق، فقد كانت، بطريقة ما، مخيفة مثل الأفاعي. بينما كانت تحقق في تلك النوافذ الغامضة، قام كورتيس بحركة بطيئة أمام وجهها، جمع أطراف أصابعه كأنه يُكوّن فمًا مغلقًا، ثم فتح أصابعه ببطء كأنه فم يلتهم فريسة. همس لها: «وحش». ثم ضم أصابعه من جديد، مكرّرًا الحركة مرتين: «يعض».

أغلق الباب في الطابق العلوي، ابتعدت هاربيت عن الشاحنة وأصاحت السمع إلى الصوت القادم من الأعلى. كان صوتًا مكتومًا، لكنه يحمل نبرة استياء واضحة، قاطعًا المتكلم الآخر: السيد دايال لا يزال في الأعلى، خلف النوافذ المغطاة بالورق الفضي. ولأول مرة في حياتها، سرّها سماع صمته.

لكن كورتيس باغتها فجأة، أمسك بذراعها وبدأ يجرها نحو السلم. كانت الحركة مفاجئة ومباغته، فلم تقاوم في البداية، لكن حينما أدركت وجهته، بدأت تصارع قبضته، وراحت تركله بكل قوتها محاولة التملص منه، ثم صاحت به: «لا، يا كورتيس! لا أريد، توقف من فضلك!»

همّت بأن تعض ذراعه، ولكن عينيها أبصرتا حذاءه الأبيض الكبير.

قالت له: «كورتيس، اسمع يا كورتيس! شريط حذائك غير مربوط».

توقف كورتيس فجأة، ونظر إلى حذائه، ثم وضع يده على فمه «آه، آه». جثا على الأرض مضطرباً يحاول ربط حذائه، فاغتمت هاربيت الفرصة وجرت مبتعدة، جرت بأسرع ما استطاعت.

قال هيلي بصوته المزعج كأنه خبير بكل شيء: «إنهما يعملان مع السيرك». كان يجلس في غرفته على السرير السفلي من سريريه ذي الطبقتين إلى جانب هاربيت. كانت الغرفة شبه مغلقة، وكل ما فيها باللونين الأسود والذهبي، وهما لونا نادية المفضل لكرة القدم: نيو أورليانز سينتس.

قالت هاربيت: «لا أظن ذلك» وهي تحك ظفر إبهامها بعقدة خيط بارزة من مفرش السرير الأسود. كان صوت موسيقا مكتوم يتسرب من غرفة بمبرتون المجاورة.

«إذا ذهبنا إلى مزرعة الأفاعي، فستجدين صوراً ونقوشاً تغطي جدران المباني».

قالت هاربيت بتردد: «صحيح». ورغم عجزها عن وصف ما يجول في ذهنها، بدت لها تلك الصناديق التي رأتها في الشاحنة الصغيرة، (بزخارفها من جماجم ونجوم وأهلة وكتابات معوجة مليئة بالأخطاء) مغايرة تماماً لإعلان مزرعة الأفاعي المتألق، حيث تظهر حية خضراء وهي ملتفة حول امرأة رخيصة المظهر ترتدي ثوب سباحة من قطعتين.

تساءل هيلي: «لا بأس، فلمن قد يكونان تابعين؟»، وهو يتفحص مجموعة من بطاقات العلكة بين يديه... «ربما يكونان مورمونيين. إنهما يسكنان في شقة مستأجرة هناك».

«هممم». كان المورمونيان اللذان يعيشان في شقة السيد دايال شخصين بليدين، ويبدو أنهما شخصان منعزلان يعيشان وحيدين هناك، كأنهما لا يملكان عملاً حقيقياً.

قال هيلي: «يقول جدي إن المورمون يعتقدون أن لهم كوكباً خاصاً يعيشون عليه بعد الموت، ويعتقدون أيضاً أن تعدد الزوجات ليس مشكلة بالنسبة إليهم».

علقت هاربيت: «المورمونيان اللذان يعيشان في شقة السيد دايال ليس لديهما زوجات». تذكرت زيارتهما لإيدي ذات يوم، عندما سمحت لهما بالدخول وأخذت منهما بعض المنشورات، بل وقدمت لهما عصير الليموناضة بعد أن رفضا الكوكا كولا. علقت إيدي لاحقاً بأنهما شابان لطيفان، لكن معتقداتهما سخيفة.

قال هيلي فجأة: «اسمعي، فلنتصل بالسيد دايال؟»
«حقاً، كيف؟»

«أعني، اتصلي به متظاهرة بأنك شخص آخر، واسأليه عمّ يجري هناك».

«أتظاهر بأنني... من؟»

«لا أدري... هل تريدان هذه؟»، ورمى إليها ملصق «واكي باكس»، عليه صورة وحش أخضر له عيان حمراوان بارزتان يقود عربة رياضية فوق كثبان رملية... «لدي منه اثنان».

«لا، شكرًا». كانت الستائر السوداء والذهبية والملصقات المتنوعة على زجاج النوافذ قد حجبت ضوء الشمس تمامًا؛ ما حول غرفة هيلي إلى مكان كئيب يشبه القبو.

قال هيلي: «إنه مالك البيت، هيّا اتصلي به».

«ماذا أقول له؟»

« من الممكن أيضًا أن تتصلي بإيدي... إن كانت تعرف كل هذه الأمور عن المورمون».

فجأة، فهمت هاربيت سبب إصراره على إجراء المكالمات الهاتفية؛ كان الأمر متعلقًا بهاتفه الجديد الذي استقر على الطاولة بجوار السرير، به أزرار مدمجة في سماعة على شكل قبة كرة قدم تحمل شعار نادي سينتس.

أومأ هيلي نحو الهاتف وقال: «إن كانوا يؤمنون بفكرة الحياة على كوكبهم الخاص وكل تلك الخرافات، فمن يدري؟ ربما لهذه الأفاعي علاقة بعقيدتهم».

بينما كان هيلي منشغلًا بالتحديق إلى هاتفه، وجدت هاربيت نفسها تلتقط الهاتف وتتصل برقم إيدي، دون أن تجد شيئًا آخر تفعله.

بعد رنيتين، أتاها صوت إيدي الحاد.

قالت هاربيت عبر الهاتف القبة: «إيدي... هل لمعتقدات المورمون أي علاقة بالأفاعي؟».

«هاربيت!»

«أعني، هل يربون الأفاعي كأنها حيوانات أليفة أو... لا أدري... هل لديهم أفاعٍ تعيش معهم في بيوتهم؟»

«بحق السماء، من أين تأتين بهذه الأفكار يا هاريت؟»

صمتت هاريت لحظة مرتبكة، ثم قالت: «من التلفزيون».

قالت إيدي غير مصدقة ما سمعته: «من التلفزيون! أي

برنامج؟»

«ناشيونال جيوغرافيك».

«لم أكن أعرف أنك تحبين الأفاعي يا هاريت. أليس أنت من

كانت تصيح وتصرخ أنقذوني! أنقذوني! كلما رأت أفعى صغيرة

في فناء البيت».

ظلت هاريت صامته ولم تعلق على هذه الملحوظة المزعجة.

«عندما كنا صغاراً، كنا نسمع عن واعظين يلاعبون الأفاعي

في الغابات، لكنهم لم يكونوا مورمونيين، فقط ريفيون سذج من

تينيسي. وبالمناسبة، هل قرأت كتاب «دراسة في القرمزي»⁽¹⁾

لآرثر كونان دويل؟ يحتوي على معلومات شائقة ومفيدة عن

معتقدات المورمون».

قالت هاريت: «نعم، أعلم»، متذكرة حديث إيدي عن هذا

الموضوع عندما زارها المورمونيان.

(1) أول رواية من تأليف السير آرثر كونان دويل عن المحقق الشهير شيرلوك هولمز وصديقه الدكتور واطسون، نُشرت عام 1887. تدور الرواية حول جريمة قتل غامضة في لندن، حيث يقود هولمز التحقيق بأسلوبه المميز في التحليل والاستنتاج. تتميز الرواية بجزء ثانٍ يشرح الخلفية التاريخية للجريمة، متناولاً مجتمع المورمون في يوتاه، مع التركيز على تأثيرهم في سياق القصة. رغم أن الرواية تصور المورمون بطريقة درامية ومثيرة للجدل، فإن هذا التصوير انتُقد لاحقاً لعدم دقته التاريخية. تُعد الرواية من الأعمال التي أسست أسلوب الروايات البوليسية في الأدب.

«أظن أن مجموعة كتب شرلوك هولمز موجودة في منزل خالتك تات، وربما حتى نسخة من «كتاب المورمون» ضمن صندوق الكتب الذي كان لأبي، مع كتابات كونفوشيوس والقرآن وبعض الكتب الدينية لـ...».

«نعم... لكن أين يمكنني قراءة شيء عن الأفاعي؟»
«آسفة... لا أستطيع سماعك جيداً، ما هذا الصدى؟ من أين تتصلين؟»

«من بيت هيلي؟»

«يبدو الصوت كأنك جالسة في المرحاض».

«لا... لكن هذا الهاتف يبدو غريباً. اسمعي يا إيدي...» قالت ذلك بينما كان هيلي يلوح لها بذراعيه محاولاً لفت انتباهها...
«ماذا عن أولئك الناس الذين يلاعبون الأفاعي؟ أين يمكن أن نجدهم؟»

قالت إيدي بصوت مفخم: «في الغابات البعيدة، والجبال، والمناطق النائية. هذا كل ما أعرفه».

ما إن أنهت هاربيت المكالمة، قال هيلي بحماس: «هل تعرفين أن هذا البيت كان يضم صالة لعرض طرائد الصيد... في الطابق العلوي؟ تذكرت هذا الآن! أظن أن المورمون يسكنون الطابق السفلي فقط».

«ومن يسكن الطابق العلوي الآن؟»

أشار هيلي بإصبعه (متحمساً) إلى الهاتف، ولكن هاربيت هزت رأسها: لن تتصل بإيدي مرة ثانية.

«وماذا عن الشاحنة الصغيرة؟ هل لاحظت المكتوب على لوحاتها؟»

«أوه! لا». لم يخطر هذا الأمر ببالها، ولكن المورمون لا يقودون السيارات.

قال هيلي بصوت ميلودرامي: «هل لاحظت إن كانت لوحة السيارة من ألكساندريا أم لا؟ فكري يا هاريت فكري! يجب أن تتذكري!»

«لماذا لا نذهب ونرى؟ إذا ذهبنا الآن... ماذا بك؟ كفّ عن هذا»، قالت ذلك منزعجة وهي تشيح بوجهها لأن هيلي بدأ يحرك يده أمام وجهها جيئة وذهابًا متظاهرًا بأن أصابعه عقارب ساعة تشير إلى انقضاء الزمن بسرعة.

قال هيلي بلكنته الترانسالفانية⁽¹⁾ الثقيلة: «أنت تصيرين ناعسة جدًا جدًا... جدًا جدًا».

دفعته هاريت عنها، لكنه استدار وعاد لتحريك أصابعه أمام وجهها قائلاً: «جداً جداً». أدارت هاريت رأسها بغضب، لكنه واصل مضايقاته، فلكنته لكمة قوية، فصرخ هيلي متألماً: «يا إلهي!»، ممسكاً بذراعه وسقط مرتميًا على السرير.

«قلت لك أن تتوقف».

«يا للهول! هاريت! لقد ضربتني في مكان مؤلم!»، جلس وراح يفرك ذراعه ويكشر.

«إذا، كف عن مضايقتي!»

(1) "Transylvanian accent" تعني "لهجة ترانسيلفانيا"; إشارة إلى الطريقة التي يتحدث بها سكان منطقة ترانسيلفانيا (Transylvania)، وهي منطقة تقع في رومانيا. هذه اللهجة مشهورة عالميًا بسبب ارتباطها بشخصية دراكولا، التي أبدعها الكاتب برام ستوكر في روايته الشهيرة "دراكولا" عام 1897.

فجأة، انهالت طرقات قوية على باب غرفة هيلي المغلق، وسمع صوت يقول: «هيلي! هل رفيقتك معك؟ افتح الباب حالاً!» انقلب هيلي على ظهره فوق السرير وصرخ: «إيزي! نحن لا نفعل شيئاً هنا».

«افتح هذا الباب! افتحه!»

«افتحيه بنفسك!»

اقتحمت إيزي الغرفة بعنف، مدبرة المنزل الجديدة التي تبدو حديثة العهد تماماً، جديدة إلى درجة أنها لم تحفظ اسم هاربيت بعد... أو ربما تتظاهر بذلك، كما تعتقد هاربيت. كانت إيزي في منتصف الأربعينيات من عمرها، أصغر بكثير من آيدا، بوجنتين ممتلئتين وشعر مفروود (صناعياً) أطرافه متقصفة.

صاحت: «ماذا تفعلان هنا؟ ينبغي أن تخجلا من نفسيكما! تلعبان هنا والباب مغلق، لن تغلق هذا الباب بعد الآن، هل تسمعنني؟».

«لكن بمبرتون يبقى باب غرفته مغلقاً».

«وهو أيضاً لا يجوز أن تكون معه فتاة في الغرفة»، تمايلت إيزي وحدقت إلى هاربيت بنظرة غاضبة كأنها بقية من فضلات قطعة على السجادة... «تصرخان وتطلقان الشتائم هنا».

صاح هيلي: «من الأفضل أن تتوقفي عن مخاطبة رفيقتي بهذا الأسلوب، سوف أخبر أمي!»

قالت إيزي مكشرة وهي تقلد صوته: «سأخبر أمي! هيّا، اذهب وأخبرها! دائماً ما تخبرها بأشياء لم أفعلها، تماماً كما زعمت أنني أكلت قطع الشوكولاتة، فيما كنت أنت من أكلها، نعم... تعلم أنك أنت من أكلها».

«اخرجني من هنا».

بقيت هارييت تنظر إلى السجادة، شعرت بضيق شديد يثقل كاهلها. لم تألف يوماً هذه المشاهد الدرامية التي تتفجر في بيت هيلي عندما يكون والداه في العمل: صدمات مستمرة بين هيلي وبمبرتون (أقفال تُفتح بالقوة، وملصقات تمزق عن الجدران، وفروض مدرسية تُسرق وتُمزق)، أو، غالباً، تحالف بين هيلي وبمبرتون ضد مدبرة المنزل المتغيرة باستمرار: روبي التي كانت تأكل الخبز الأبيض المطوي نصفين ولا تسمح لهما بمشاهدة التلفزيون في أثناء عرض مسلسل «المستشفى العمومي»، والأخت بيل التي كانت من شهود يهوه، وشيرلي ذات أحمر الشفاه البني والخواتم الكثيرة والمكالمات الهاتفية الطويلة، والسيدة دوين العجوز المتجهمّة التي كانت تخشى اللصوص وتجلس عند النافذة بسكين ضخمة، ورامونا التي كانت تتفجر غضباً وتطارده هيلي بفرشاة الشعر. لم تكن أيّ منهن ودودة أو لطيفة، لكن لا يمكن لومهن كثيراً، فقد اضطررن إلى التعامل يومياً مع هيلي وبمبرتون.

قالت إيزي بازدرء: «ألا تسمع نفسك؟ إنه شيء قبيح!»، وأشارت بيدها نحو الستائر القبيحة والملصقات التي تحجب ضوء النوافذ... «أتمنى أن أتخلص من هذه الأشياء المزعجة كلها وأحرقها».

احمر وجه هيلي وصرخ: «إنها تهددني بحرق بيتنا، تسمعين هذا يا هارييت! لدي شاهد! إنها تهددني بحرق...». «لم أقل كلمة واحدة عن البيت، من الأفضل لك...».

قاطعها هيلي: «بل قلت ذلك، ألم تقل يا هارييت؟ سأخبر أمي...». صاح دون أن ينتظر ردًا من هارييت التي صدمها ما يحدث، حتى عجزت عن الكلام... «وستتصل أمي بمكتب التوظيف لتخبرهم بأنك مجنونة، وتطلب منهم ألا يرسلوك إلى أي بيت آخر».

من خلف إيزي، ظهر بمبرتون عند الباب، مطّ شفته بتكشيرة طفولية ناظرًا إلى هيلي، قال بسخرية مزيفة: «انظروا من وقع في مشكلة!»

كان كلامه في غير وقته وغير مناسب، فجحظت عينا إيزي وصاحت بغضب: «كيف تجرؤ على مخاطبتي بهذه الطريقة؟» نظر إليها بمبرتون بحاجبين منعقدين، ورفرفت عيناه كأنهما لا تريانها.

«أمر مؤسف، اذهب واستلق في سريرك طيلة النهار، أنت لن تعمل يومًا واحدًا في حياتك كلها. أما أنا فعليّ أن أكسب مالا. أطفالي...».

سأل بمبرتون هيلي ببرود: «ما مشكلتها؟»

أجاب هيلي: «هددتي بحرق البيت»، وأضاف بوقاحة: «وهارييت شاهدة على ذلك».

بدأت وجنتا إيزي الممثلةتان ترتعشان من شدة الغضب، وصاحت: «لم أقل ذلك! هذا افتراء!»

تتحنح بمبرتون وهو لا يزال واقفًا في الممر، وإيزي غافلة عنه. أخرج يده من خلف كتفها وأشار: فلنذهب. وبحركة من إبهامه أشار نحو السلم.

دون أي مقدمات، أمسك هيلي يد هاربيت وسحبها إلى الحمام الذي يصل غرفته بغرفة بمبرتون، وأغلق الباب خلفهما. صاح مخاطبًا بمبرتون الذي دخل غرفته وراح يحاول فتح باب الحمام من جهته: «أسرع!». اندفع الثلاثة معًا إلى غرفة بمبرتون (تعثرت هاربيت بمضرب تنس متروك على الأرض) ثم انطلقوا مسرعين نحو السلم.

قال بمبرتون: «كان هذا جنونًا»؛ أول شيء ينطق به أحدهم منذ وقت. جلس الثلاثة إلى الطاولة الوحيدة خلف محل «جامبو»، مقعدهم بلاطة أسمنتية تحيط بها لعبتا أطفال مهجورتان: فيل صغير وبطة صفراء شاحبة اللون، وكل منهما مثبت على نابض ضخم. جابوا بسيارة الكاديلاك (بلا وجهة محددة، وجميعهم في المقعد الأمامي) قرابة عشر دقائق دون تشغيل المكيف، حتى كادت الحرارة تحرقهم، فتوقف بمبرتون أخيرًا عند محل «جامبو». قال هيلي: «ربما كان علينا التوقف عند ملعب التنس كي نخبر ماما». على غير المعتاد، صارت العلاقة بينه وبين بمبرتون ودية، وإن كان ذلك غير واضح كثيرًا... وحدثتهما تلك المشاجرة مع إيزي.

شرب بمبرتون آخر جرعة من زجاجة العصير التي في يده ثم رماها في سلة المهملات.

«يا رجل، أنت السبب في تلك المشاجرة». انعكس وهج شمس بعد الظهر على النافذة الزجاجية مثل لهب أبيض على أطراف شعره المتموج بفعل السباحة... «تلك المرأة مجنونة، شعرت

بالخوف لأنها بدت على وشك إيدائكما أو فعل شيء ما».

نصب هيلي قامته وقال: «اسمع! إنها صفارة!». صمتوا لحظة، وأصغوا إلى صوت صفارة قادم من بعيد.

قال هيلي بنبرة كئيبة: «لعلها سيارة الإطفاء، قد تكون ذاهبة إلى بيتنا!»

قال بمبرتون: «أعد عليّ ما حدث! هل فقدت صوابها هكذا فجأة؟ من دون سبب؟»

قال هيلي: «مجنونة تمامًا! اسمع، أعطني سيجارة». قالها بنبرة عادية عندما رأى بمبرتون يخرج سيجارة من علبة مارلبورو مهشمة الحواف، أخرجها من جيب بنطاله ووضعها على الطاولة، وبدأ يبحث عن علبة الكبريت في جيب آخر.

أشعل بمبرتون سيجارته ثم أبعد علبة السجائر والكبريت عن متناول هيلي. كانت رائحة الدخان قاسية، خانقة على نحو غير عادي، وسط الحرارة اللاهبة والدخان المتصاعد من السيارات على الطريق السريع.

هز رأسه وقال: «لقد توقعت هذا! قلت لماما.. قلت لها إن تلك المرأة مختلة، وربما هي هاربة من مصحة المجانين!». قالت هاريت التي لم بقيت صامتة منذ أن خرجوا من البيت مسرعين: «لم يكن الأمر سيئًا إلى هذا الحد».

التفت إليها بمبرتون وهيلي بدهشة وحدقا إليها كأنها فقدت عقلها، قال بمبرتون: «هاه!»

صرخ هيلي غاضبًا: «مع من أنت؟»

«لم تقل إنها ستحرق البيت».

«بل قالت».

«لا! لم تقل إلا إنها ستحرق، لم تتطرق كلمة «البيت»، كانت تقصد ملصقات هيلي وتلك الأشياء».

قال بمبرتون محاولاً أن يبدو منطقيًا: «أوه، حقًا تحرق ملصقات هيلي! أظنك ترين هذا أمرًا مقبولاً».

قال هيلي حانقًا: «ظننت أنك تحبينني يا هاريت».

قالت هاريت: «ولكنها لم تقل إنها ستحرق البيت، لم تقل إلا... أعني: الأمر لم يكن خطرًا إلى هذا الحد». رأت كيف اتسعت عينا بمبرتون وهو ينظر إلى هيلي.

بحركة مدعية، ترحزح هيلي على المقعد قليلًا مبتعدًا عنها.

قالت هاريت: «ولكن، لم يكن ذلك أمرًا مهمًا! كل ما في الأمر أنها كانت... غاضبة»، لكن نبذة صوتها فقدت شيئًا من الثقة.

نظر بمبرتون إليها مدهوشًا.. نفث سحابة من دخان، ثم قال: «هل هذا مزاح، يا هاريت؟»

«ولكن... أنتما تتكلمان كأنها كانت تلاحقنا حامله سكين جزار».

أطلق هيلي ضحكة ساخرة: «لا بأس! ربما تفعل ذلك في المرة القادمة! لن أقبل أبدًا البقاء معها وحدي في البيت بعد الآن». قال ذلك بنبرة ملؤها الإشفاق على نفسه، وحدث إلى الأرض الأسمنتية واجمًا... «لقد سئمت تلقي تهديدات بالقتل طوال الوقت!»

كانت الرحلة عبر ألكساندريا قصيرة، ولم تحمل في طياتها
جديداً يتجاوز حدود المؤلف. يتدفق نهر هوما باتجاه الشرق
من ألكساندريا، ثم ينعطف جنوباً، متعرجاً حول نحو ثلثي البلدة.
في لغة تشوكتاو، تعني كلمة «هوما» الأحمر، لكن النهر، على غير
معناها، يميل إلى الاصفرار: نهر هادئ، ساكن، ينساب ببطء،
مكسو بمظهر لامع يشبه لمعان زيت الطلاء المتدفق من أنبوب
مضغوط. يعبر هذا النهر من جهة الجنوب عبر جسر حديدي
مزدوج المسار، أُقيم في عهد إدارة الرئيس روزفلت، ليدخل
المارّة إلى ما يُطلق عليه الزوّار «الحي التاريخي». هناك، تمتد
جادة واسعة، مستوية، تفتقر إلى الحفاوة، وتفرق في سكون
مرهق تحت أشعة الشمس الساطعة، تفضي الجادة إلى ساحة
البلدة. في مركزها، ينتصب تمثال كئيب لجندي اتحادي يتكئ
على بندقيته. فيما مضى، كان هذا التمثال تحت ظلال أشجار
السنديان، لكن هذه الأشجار قُطعت قبل عام أو عامين لتوفير
مساحة لإضافة مجموعة من النصب التذكارية المتفرقة، ولكنها
حماسية. تضم هذه المجموعة برج ساعة، وأعمدة إنارة، وأكشاك
صغيرة بمقاعد للجلوس ومنصة للموسيقا. أصبحت تلك البقعة
الصغيرة الآن مزدحمة بمكونات كأنها ألعاب متراصة بلا ترتيب
أو جاذبية.

تمتد بيوت شارع مين وصولاً إلى الكنيسة المعمدانية الأولى،
وأغلبها كبير وقديم الطراز. إلى الشرق، بعد شارعي مارجن
وهاي، حيث تعبر سكة القطار، يظهر محلج القطن المهجور
والمستودعات التي اعتاد هيلي وهاربيت اللعب عندها. بعدها،

باتجاه النهر وشارع ليفي، تلوح المناطق الفقيرة: ساحات مليئة بالخردة، ومساحات تستخدم كمواقف للسيارات العتيقة، وأكواخ سقوفها معدنية وشرفاتها متداعية، محاطة بدجاجات تتجول في الطين.

يتصل شارع مين بالطريق السريع رقم 5 عند أسوأ نقطة منه، تحديداً عند فندق ألكساندريا. يمر الطريق العابر للولايات بعيداً عن البلدة، لكن الطريق السريع أصبح يعاني الإهمال ذاته الذي أصاب متاجر ساحة البلدة. المتاجر مغلقة، وساحات انتظار السيارات مهجورة ومليئة بحرارة ضبابية سامة. متجر «تشكربورد فيد» ومحطة وقود ساوثلاند القديمة أصبحتا محجوبين خلف ألواح خشبية تحمل إعلاناً باهتاً لقط صغير أنيق يرتدي مربلة وجوربين طويلين ويضرب كرة قطنية بكف قدمه. بالانعطاف شمالاً نحو طريق كاونتري لاين، وصلوا إلى عزبة مروج السنديان، حيث مروا بمعبّر مهجور يربط الطريق الرئيسي بمراعي الأبقار وحقول القطن، إضافة إلى مزارع صغيرة يمتلكها الفلاحون، منتشرة على أراضٍ قاحلة من الطين الأحمر الصلصالي. تقع مدرسة هاربيت وهيلي (أكاديمية ألكساندريا) هناك، على بُعد ربع ساعة بالسيارة من البلدة: مبنى منخفض مشيد من الآجر الرملي ومغطى بألواح معدنية متموجة. ينهض البناء في وسط مساحة مغلّبة تبدو كأنها جزء من هيكار مهجور في أحد المطارات. وعلى بُعد عشرة أميال شمالاً من الأكاديمية، تبدأ أشجار الصنوبر بالظهور، لتحل محل المراعي المفتوحة. تصطف الأشجار على جانبي الطريق، متشابكة بأغصانها الكثيفة لتشكّل جداراً شاهقاً داكناً وموحشاً.

يستمر هذا الجدار الطبيعي بلا انقطاع، ممتداً كأنه شريط لا نهاية له، حتى يبلغ حدود ولاية تينيسي.

بدلاً من متابعة طريقهم نحو الريف، توقفوا عند إشارة المرور الحمراء قرب «جامبو»، حيث يقف تمثال فيل السيرك الشامخ على قائمتيه الخلفيتين، حاملاً بخرطومه -الذي بهتت ألوانه بفعل الشمس- كرة نيون كتب عليها:

آيس كريم

عصير

برغر

خلف مقبرة البلدة التي تعلّي تلة أشبه بخلفية خشبة مسرح (أسوار معدنية سوداء، وملائكة حجرية ذات أفواه مفتوحة تحرس عمودي البوابة الرخاميين من جهة الشمال والجنوب والغرب)، انعطفوا ودارت السيارة حول البلدة من جديد.

عندما كانت هاربيت صغيرة، كان معظم سكان الجانب الشرقي من شارع ناتشيز من البيض. أما الآن، فقد أصبح البيض والسود يتعايشون فيه بانسجام في معظم الأحيان. تضم المنطقة أسراً سوداء شابة، وميسورة الحال، ولديها أطفال، فيما يغلب على السكان البيض (من بينهم معلم البيانو الذي تأخذ أليسون دروسها عنده، والسيدة نيومان ماكليمور صديقة ليبي) طابع الشيخوخة، إذ معظمهم من كبار السن أو السيدات المترملات اللواتي يعشن دون أسر.

قال هيلي: «بمبرتون! أبطئ قليلاً عند بيت المورمون هنا».

نظر إليه بمبرتون مستغنياً، سألته: «ما الأمر؟»، لكنه استجاب وأبطأ السيارة.

كان كورتيس قد اختفى، وكذلك سيارة السيد ديال. أما في الممر أمام المنزل، فتوقفت شاحنة صغيرة بدت لهارييت مختلفة عن تلك التي رآوها سابقًا. كانت بوابة صندوق الشاحنة مفتوحة، وصندوقها خاليًا إلا من صندوق أدوات معدني.

كان هيلي مستغرقًا في التذمر من إيزي، لكنه توقف فجأة وقال: «هل هي داخل ذاك...؟»

أوقف بمبرتون السيارة وسط الشارع، قال له: «يا رجل، ما هو «ذاك»؟ هل تقصد الورق المعدني على النوافذ؟»

«هارييت... قل لي له ماذا رأيت هنا. قالت إنها رأت...».

قال بمبرتون: «لا أريد أن أعرف ما يحدث هناك، هل يصنعون أفلامًا قدرة، أم ماذا؟»، ثم نظر إلى الخلف مظللاً عينيه بكفه... «أي تافه هذا الذي يغطي نوافذه بورق معدني؟»

«أوه، يا ربي!»، تملل هيلي في جلسته، ثم راح ينظر أمامه. «ما مشكلتك؟»

«بمبرتون... هيا، فلنذهب!»

«ما الأمر؟»

قالت هارييت بعد لحظات من صمت حائر: «انظروا»، ظهر مثلث أسود في النافذة الوسطى، كان أحدهم يمزق الورق المعدني من الداخل... شخص مجهول، لكنه خبير.

ومع انطلاق السيارة، أعاد يوجين تثبيت الورق المعدني على النافذة بيدين مرتجفتين. تسلس صداد حاد إلى رأسه، وتدحرجت الدموع من عينيه. وبينما تراجع مبتعدًا عن النافذة في ظل

العمّة والارتباك، ارتطم بصندوق زجاجات الصودا؛ فاندفع ألم حاد كالصاعقة في جانب وجهه الأيسر.

كثيرة هي حالات صداع الشقيقة في عائلة راتليف؛ يقال عن جد يوجين (كان اسمه «باباو» راتليف، وقد توفي منذ زمن بعيد) إنه عانى مرة نوبة شديدة مما وصفه بـ «مرض الرأس» وصلت به إلى فقء عين بقرة بإسفين خشبي. أما والد يوجين، الذي كان يعاني أيضاً تلك النوبات، فقد صفع داني صفعاً شديداً ليلة عيد الميلاد (قبل سنوات طويلة) فطار واصطدم رأسه بالفريزر، فكسرت إحدى أسنانه الدائمة.

اجتاح الصداع رأسه دون سابق إنذار. كانت رؤية الأفاعي وحدها كافية لإثارة الغثيان في النفس، ناهيك بالقلق الذي أشعلته زيارة روي دايال المفاجئة. ومع ذلك، بدا من غير المتوقع أن تظهر الشرطة أو أن يتسلل دايال، في سيارة قديمة براقية كالتّي توقفت أمام البيت.

توجه إلى الغرفة الثانية التي كانت أكثر برودة، وجلس إلى الطاولة الصغيرة، دافئاً رأسه بين كفيه. ظلّ طعم سندويتش اللحم الذي تناوله على الغداء عالقاً في فمه، وهو طعم لم يستمتع به قط. أما الآن، فقد زاد طعم الأسبرين المر من نفوره من تلك الذكرى.

كان الصداع يجعله شديد الحساسية تجاه الأصوات والضجيج. عندما سمع صوت سيارة متوقفة في الخارج، ومحركها لا يزال يعمل، هرع إلى النافذة متوقفاً رؤية رئيس شرطة مقاطعة كلاي أو على الأقل سيارة شرطة. لكن منظر السيارة المكشوفة المتوقفة

بشكل غريب أثار استياءه. الآن، ها هو ذا الآن يقرب الهاتف منه (رغم علمه بأن عليه ألا يفعل ذلك) ويطلب رقم فاريش. صحيح أنه لا يحب أبدًا الاتصال بفاريش، لكنه ليس خبيرًا في مثل هذه الأمور. كانت السيارة بلون فاتح، ولم يتمكن بسبب صداعه ووهج الشمس من تحديد طرازها: ربما كانت لينكولن، أو كاديلاك، أو حتى كرايسلر. كذلك، لم يستطع تمييز الكثير عن الركاب سوى أنهم كانوا من العرق الأبيض، لكن أحدهم أشار بوضوح نحو النافذة. لماذا تتوقف سيارة قديمة كهذه أمام «مقر إرساليته»؟ في السجن، تعرف فاريش إلى كثير من الشخصيات الغريبة، أشخاص يمكن أن يكون التعامل معهم -في حالات كثيرة- أكثر خطورة من التعامل مع الشرطة.

حمل يوجين سماعة الهاتف متجنبًا ملامستها وجهه (كان مغمضًا عينيه) وحاول شرح ما حدث للتو. من الجانب الآخر، كانت أصوات فاريش تُسمع بوضوح؛ مضغ متواصل وطعام يتهشم في فمه كأنه يتناول قصعة من حبوب الإفطار، ومزيج من القوام الهش والسائل. انتهى يوجين من كلامه، لكن الصمت استمر، لم يُسمع سوى أصوات المضغ والبلع الصادرة من فاريش.

لم يطق يوجين الانتظار أكثر، فقال وهو يدعك عينه اليسرى في الظلمة: «فاريش!»

«أنت محق في أمر واحد؛ لن يأتي شرطي أو مخبر ويوقف سيارته أمامك مثلما تقول، قد يكونون إحدى العصابات من ساحل الخليج؛ فقد كان للأخ دولفوس أعمال في تلك المنطقة».

ارتطمت قصعة الطعام بسماعة الهاتف عندما رفعها فاريش إلى فمه لينهي الحليب المتبقي. انتظر يوجين بصبر أن يكمل شقيقه حديثه، لكن فاريش لم يصف شيئاً، مكتفياً بتمطيق شفثيه وتهد عميق، تلاه صوت خافت لمعلقة اصطدمت بإناء خزفي. سأله آخر الأمر: «ما الذي يمكن أن تريده مني عصابة من ساحل الخليج؟»

«وما أدراني! لملك قلت شيئاً ولم تكن صادقاً فيه!»

رد يوجين بجفاف: «الصدق هو المفتاح يا أخي. كل ما أفعله هو إدارة هذه البعثة التبشيرية وخدمة طريق المسيحية».

«لا بأس! لنفترض أن هذا صحيح، هل يمكن أنهم جاؤوا من أجل ريزي؟ من يدري أي مشكلات قد يكون واقعاً فيها؟»

«كن واضحاً معي يا فاريش، لقد ورطتني في أمر ما، أعلم ذلك... أعلم، أعلم» كرر هاتين الكلمتين ردّاً على محاولة فاريش الاعتراض... «أعلم أن الأمر له علاقة بالمخدرات، وهذا هو السبب وراء قدوم ذلك الفتى من كنتاكي. لا تسألني كيف عرفت، أنا فقط أعرف. أتمنى أن تخبرني لماذا دعوته للإقامة عندي». ضحك فاريش: «أنا لم أدع أحداً، دولفوس هو الذي قال لي إن شقيقه آتٍ بسيارته إلى...».

«إلى شرق تينيسي؟»

«نعم، أعلم هذا، أعلم».

«لكنه لم يأت إلى هذه المنطقة من قبل. ظننت أنك قد ترغب في قضاء بعض الوقت معه، خاصة أنك بدأت التبشير مؤخراً».

ذلك الفتى لديه عدد كبير من الأتباع، وأقسم بالرب إن هذا كل ما أعرفه عن الأمر».

عم الصمت طويلاً على الهاتف، ومع ذلك، كان صوت أنفاس فاريش يوحى بابتسامة خفية على وجهه، ابتسامة شعر يوجين بوجودها كأنه يراها بعينه..

قال فاريش صابراً: «ولكنك محق في أمر واحد؛ من الصعب فهم نيات ذلك اللويال، لهذا أعتذر إليك. صديقي دولفوس له يد في كل مشكلة يمكنك تخيلها».

«لويال لا علاقة له بالأمر، هذا أمر اتفقت عليه أنت وداني ودولفوس».

قال فاريش: «كلامك فظيع! أترك تعاني نوبة جديدة من نوبات صداeck تلك!»
«أنا في حال سيئة جداً».

«اسمع... لو كنت مكانك، لذهبت ونمت، هل ستذهب الليلة لإلقاء المواعظ؟»

سأله يوجين مرتاباً: «لماذا؟» بعد أن نجا هو ولويال بأعجوبة من دايال (لحسن حظهما، تمكنا من إنزال صناديق الأفاعي إلى السيارة قبل وصوله)، قدم لويال اعتذاره قائلاً: «لم أدرك الموقف جيداً، ولم أفكر أنك تقيم هنا، في هذه البلدة»، ثم أخذ الأفاعي إلى مكان لم يُفصح عنه.

قال فاريش بلطف: «سنأتي أنا وداني لنسمع هذا الكلام منك».

مسح يوجين عينيه بيديه: «لا أريد أن تأتي!»

«متى يعود لويال إلى دياره؟»

«غداً. انظر، أعلم أنك تخطط لأمر يا فاريش! أريد ألا تورط هذا الفتى في أي مشكلات».

«ولماذا أنت قلق عليه الآن؟»

قال يوجين: «لا أدري»، وكان هذا صحيحاً.

«إذن، نراك الليلة». أنهى فاريش المكالمة قبل أن يتمكن يوجين من إضافة أي تعليق.

قال بمبرتون لها: «ليس لدي أدنى فكرة، يا عزيزتي، عمّا يحدث هناك، لكن يمكنني إخبارك باسم المستأجر. إنه داني، شقيق كورتيس راتليف الأكبر، ويعمل واعظاً».

سمع هيلي تلك الكلمة الأخيرة فالتفت إلى هاريت ونظر إليها حائراً.

قال بمبرتون: «إنه أبله حقيقي، وثمة شيء غير طبيعي في وجهه؛ فهو يقف على الطريق السريع يصرخ على السيارات ويلوح بالإنجيل».

قال هيلي: «أهو الشخص نفسه الذي أتى ونقر على زجاج النافذة عندما توقف أبي عند تقاطع الطرق؟ ذلك الشخص صاحب الوجه الغريب؟»

قال بمبرتون: «ربما لا يكون مجنوناً، قد يكون مجرد تمثيل! معظم هؤلاء الواعظين الغريبين الذين يصرخون ويغمى عليهم ويقفزون على الكراسي ويركضون في ممرات الكنيسة... كل ذلك مجرد عرض زائف، لا أكثر».

قال هيلي بحماسة شديدة، متململاً في مقعده: «هاربيت... هاربيت، هل تعرفين؟ أنا أعرف هذا الرجل! إنه يعظ في الساحة كل يوم سبت، لديه صندوق صغير أسود ومايكروفون موصول به، و...». ثم التفت إلى أخيه وقال: «أتظن أنه يلاعب الأفاعي؟ هاربيت، أخبريه بما رأيته هناك!»
قرصته هاربيت.

قال بمبرتون: «هممم! أفاعٍ! إن كان يلاعب الأفاعي فهو أبله أكثر مما ظننت».

قال هيلي: «ربما هي أفاعٍ مستأنسة».
«أنت أبله، لا يمكن استئناس الأفاعي».

أخطأ يوجين حين أخبر فاريش بأمر السيارة، وندم على كل ما قاله بشأنها. بعد نصف ساعة من المكالمات الأولى، اتصل به فاريش مجدداً عندما بدأ يفزو، ثم اتصل مرة أخرى بعد عشر دقائق ليسأله: «هل لاحظت أي أشخاص مريبين قرب بيتك؟ مثل مرتدي ملابس الجري أو البوابين؟»
«لا».

«هل شعرت بأن أحداً يراقبك أو يتعقبك؟»

«اسمع، يا فاريش! أنا أحاول أن أرتاح قليلاً».

«لكي تكتشف إن كان هناك من يتعقبك. تجاوز إشارة حمراء، أو اسلك طريقاً ممنوعاً في شارع ذي اتجاه واحد لترى إن كان أحدهم خلفك. أو... سأقول لك ماذا... سأتي إليك بنفسك كي ألقى نظرة في الجوار».

بعد جهد، أقنع يوجين فاريش بعدم القدوم إلى «مقر الإرسالية» لإجراء ما أسماه تفتيشًا. استلقى بعدها ليحاول النوم، وعندما بدأ يفرق في نوم قلق، استيقظ ليجد لويال يقف فوقه.

قال مضطربًا: «لويال!»

قال لويال: «أحمل أخبارًا سيئة».

«ما هي؟»

«وجدت مفتاحًا مكسورًا في القفل، ولم أستطع الدخول».

جلس يوجين ببطء دون أن ينبس بكلمة، محاولًا استيعاب ما سمع بينما كان لا يزال نصف نائم. في حلمه، كانت هناك مفاتيح مفقودة، مفاتيح سيارات، وكان عالقًا في بار بشع تصدح فيه موسيقى صاخبة، وسط ليلٍ على طريق ترابي بلا وسيلة للعودة إلى البيت.

قال لويال: «أخبروني أن بإمكانني وضع الأفاعي في كوخ صيد بمقاطعة وبستر، لكنني وجدت مفتاحًا مكسورًا في القفل ولم أستطع إخراجه».

هز يوجين رأسه محاولًا تصفية ذهنه، ثم ألقى نظرة حول الغرفة وقال: «إذًا، هذا يعني...».

«الأفاعي في الأسفل، في السيارة».

حل صمت طويل.

«لويال، سوف أقول لك الحقيقة... أصابتي نوبة الشقيقة».

«سوف أجلبها بنفسي، لست مضطرًا إلى مساعدتي، أستطيع

حمل الصناديق بنفسي».

راح يوجين يدعك صدغه.

«اسمع، أنا في وضع صعب. من القسوة تركها هناك وسط هذا الحر».

قال يوجين بيرود: «صحيح»، لكنه لم يكن مهتمًا بحال الأفاعي بقدر ما كان يخشى أن يكتشف أحد وجودها، مثل السيد دايال أو ذلك المتلصص الغامض في السيارة المكشوفة... من يدري؟ فجأة، تذكر حلمه؛ أفعى خطيرة تتلوى بين الناس في مكان مزدحم.

قال للويال: «لا بأس! اجلبها!»

«أعدك بأنها ستكون خارج هذا المكان صباح الغد، أعلم أن هذا الأمر قد أرهقك» كانت نظرة عينيه الزرقاوين صادقة متعاطفة... «أعني، أرهقك وجودي هنا».

«هذا ليس ذنبك أنت».

مرر لويال أصابعه في شعره وقال: «أتمنى أن تعلم أنني استمتعت بصحبتك. إذا لم يُوجهك الرب لحمل الأفاعي، فإن له حكمته في ذلك. حتى أنا، أحيانًا، لا أشعر بدعوته إلى ذلك».

أجاب يوجين: «أفهم ذلك»، ولكنه شعر بضرورة قول المزيد، إلا أنه عجز عن التعبير عن أفكاره. كان يخجل من الاعتراف بحقيقة ما يشعر به: أن روحه جافة وفارغة، وأنه ليس طيبًا بالفطرة لا في قلبه ولا في عقله. خجل من الاعتراف بأن دمه ملوث ونسبه مشوه، وأن الرب يزدريه كما ازدرى قابيل.

قال بنبرة فيها بهجة لم يشعر بها حقًا: «سيدعوني الرب يومًا ما، كل ما في الأمر أن ذلك اليوم لم يحن بعد».

قال لويال: «هناك أمور أخرى وهبها لنا الروح القدس: الصلاة، والوعظ، والتبؤ، والرؤى، وشفاء المرضى، والعمل الصالح، حتى داخل عائلتك نفسها...». ثم تردد لحظة وأردف: «هناك خير يمكنك تحقيقه هناك».

رفع يوجين المرهق رأسه ونظر إلى عيني زائره اللطيفتين الصادقتين.

قال لويال: «الأمر لا علاقة له بما تريد؛ إنها إرادة الرب».

دخلت هاربيت من الباب الخلفي للمنزل، فلاحظت أن أرضية المطبخ رطبة والطاولة نظيفة، لكنها لم تجد آيدا. كان البيت ساكناً: لا صوت لراديو أو مروحة أو خطوات، سوى مهمة البراد الرتيبة. سمعت خشخشة خلفها، فاستدارت بخوف لترى سحلية رمادية صغيرة تحاول تسلق الشبك المعدني للنافذة.

أثارت رائحة مادة التنظيف بنكهة الصنوبر التي تستخدمها آيدا صداً في رأسها تحت وطأة الحر. دخلت غرفة الطعام لتجد بوفيه الأنية الخزفية الكبير القادم من بيت «تريببوليشن» جاثماً وسط أكوام الصحف المبعثرة في كل مكان.

زين طبقان كبيران مائلان أعلى البوفيه؛ ما منحه مظهر وجه بعينين متوحشتين، أشبه بوحش متوتر جاثم على قوائمه القصيرة. كان البوفيه مائلاً قليلاً عن الجدار، كأنه نمر عتيق مستعد للانقضاض على أكوام الصحف. لامست هاربيت البوفيه بيدها في أثناء مرورها، فشعرت كأنه استجاب للمساتها بالتراجع قليلاً ليمنحها ممراً أوسع.

وجدت آيدا ريو جالسة في غرفة المعيشة على أحد كراسيها المفضلة، حيث اعتادت تناول الطعام، أو خياطة الأزار، أو تفصيل البازلاء وهي تتابع مسلسلاً تليفزيونياً. تلك الكراسي أصبحت شبيهة بآيدا نفسها، كما يشبه الكلب صاحبه: مريحة، ممتلئة، ذات تجيد مهترئ من قماش التويد مع حشوة متكتلة. عندما تعجز هاربيت عن النوم ليلاً، كانت أحياناً تنزل إلى الطابق السفلي لتتكور على هذا الكرسي، تلصق خدها بقماشه البني، وتهمس لنفسها بأغانٍ حزينة قديمة لم تسمعها إلا من آيدا. أغانٍ استرجعت بها ذكريات طفولتها، غارقة في غموض الزمن وعاطفته، أغانٍ تحكي عن أشباح وقلوب مكسورة وأعزاء راحلين إلى الأبد:

ألا تفتقد أمك أحياناً، أحياناً؟

ألا تفتقد أمك أحياناً، أحياناً؟

الأزهار متفتحة أبد الدهر،

والشمس هناك لا تغرب أبداً.

كانت أليسون مستلقية على بطنها عند أسفل السلم، وصالبة كاحليها. هي وآيدا كانتا تراقبان النافذة المقابلة، حيث الشمس البرتقالية تتخفض في الأفق وهوائيات التليفزيون تنتصب فوق سطح منزل السيدة فاونتين، وسط وهج ضوء العصر.

كم تحب آيدا! أشعرتها هذه الفكرة بدوار غريب، دون أن تفكر كثيراً، نهضت واقتربت من آيدا، وطوقت عنقها بذراعيها.

أجفلت آيدا وقالت: «يا إلهي! من أين ظهرت؟». أغلقت هاربيت عينيها وأرخت وجهها على دفء رقبة آيدا الرطبة، التي

تفوح برائحة الشاي والقرنفل والبخور، مع نفحة حلوة وناعمة، لكنها واضحة جدًا... بالنسبة إلى هاربيت، كانت هذه هي رائحة الحب.

رفعت آيدا يديها وفكت ذراعي هاربيت عن عنقها قائلة: «هل تحاولين خنقي؟ انظري! نحن نراقب الطائر الذي يقف على السطح».

قالت أليسون دون أن تلتفت: «إنه يأتي كل يوم».

ظللت هاربيت عينيها بكفيها. وعلى مدخنة منزل السيدة فاونتين، لمحت طائرًا أسود بجناحين أحمرين، يقف برشاقة بين طوبتين: منتصبًا كجندي، بعينين حادتين وثاقبتين، وعلى جناحيه خطان قرمزيان يبدوان كرتب عسكرية.

قالت آيدا: «إنه طائر غريب، استمعي إلى صوته»، ثم ضغطت شفثيها وقلدته بمهارة. لم يكن صوته كالمزممار السيال لطائر السمّان الذي يخبو بين صرير الجنادب ثم يعود كزقزقة حزينة، ولم يكن كصفير العصافير الصغيرة بثلاث نغمات، ولا كصيحة طائر أبو زريق الخشنة التي تشبه صرير باب صدئ. بل كان صوتًا مفاجئًا، قويًا، وغير مألوف، أشبه بصيحة تحذيرية تخنق نفسها لتتحول إلى صافرة خافتة.

ضحكت أليسون بصوت عالٍ وقالت وهي تنهض على ركبتها: «انظرا!»، كان الطائر قد استدار وأمال رأسه الصغير اللامع جانبًا... «لقد سمعك!»

قالت هاربيت: «افعلي ذلك مرة أخرى!»، لكن آيدا لم تكن لتقلد الطائر بناءً على هذا الطلب؛ لا بدّ من اختيار لحظة مزاج مناسب.

«نعم، يا آيدا، أرجوك».

لكن آيدا اكتفت بالضحك وهزت رأسها قائلة: «ألا تتذكران القصة القديمة... عن كيف أصبح جناحه أحمر اللون هكذا؟» على الفور قالت هاربيت وأليسون معاً: «لا»، على الرغم من أنهما تتذكران تلك القصة. مع مرور الوقت وبعد أن كبرتتا، بدأت قصص آيدا تتناقص شيئاً فشيئاً، وكان هذا مخيباً للآمال، لأن قصصها كانت دائماً جامحة وغريبة، بل ومفزعة في بعض الأحيان: حكايات عن أطفال غرقوا، وأشباح في الغابات، وحفلات صيد تقيمها النسور، وراكونات بأسنان ذهبية تعض الأطفال الرضع، أو حتى أوعية حليب مسحور يتحول إلى دم في الليل.

قالت آيدا: «لا بأس! اسمع هذه القصة... في قديم الزمان، كان هناك رجل قصير أحذب وقبيح المظهر، يمتلئ غضباً تجاه كل شيء. قرر أن يحرق العالم بأسره، فأخذ مشعلاً وسار وهو يغلي غضباً حتى وصل إلى النهر الكبير حيث كانت تعيش جميع الحيوانات. في تلك الأيام لم تكن هناك جداول أو أنهار صغيرة كما نعرفها الآن، بل كان هناك نهر كبير واحد فقط».

رفرف الطائر بجناحيه فوق مدخنة منزل السيدة فاونتين، وبدا كأنه مشغول جداً، ثم طار مبتعداً.

قالت آيدا وهي تطلق زفرة عميقة: «أوه، انظروا لقد ذهب، ألا يحب سماع قصتي؟» ثم نظرت إلى الساعة ونهضت ببطء وتمطت، فخاب أمل هاربيت... «حان وقت عودتي إلى البيت».

«أكملي القصة».

«سأكملها غداً».

صاحت هارييت: «آيدا، لا تذهبي!»، فقطعت تلك اللحظة الهادئة التي أتبعها آيدا بتهدة طويلة قبل أن تتجه ببطء نحو الباب بخطوات ثقيلة كأن ساقها تؤلمانها... آيدا المسكينة! نادتها مرة أخرى: «من فضلك!»

ردت آيدا بنبرة حادة قليلاً دون أن تلتفت: «أوه، سأعود غداً». ثم حملت كيس التسوق الورقي البني تحت إبطها، وابتعدت بخطوات بطيئة وثقيلة «سأعود، لا تقلقي».

قال فاريش: «اسمع يا داني، ريزي سيرحل قريباً، وبعد ذلك سنضطر إلى الذهاب إلى الساحة لنستمع إلى يوجين...»، ولوح بيده بلا اكتراث... «كما تعلم، ذلك الهراء الكنسي».

قال داني، وهو يدفع كرسيه إلى الخلف: «لماذا؟ لماذا يجب أن نذهب؟».

«سيرحل الفتى صباح الغد، في وقت مبكر جداً. أنت تعرفه جيداً».

«لا بأس، ماذا بك؟ يكفي أن نذهب الآن إلى الإرسالية ونضع تلك الأشياء في صندوق السيارة».

«لا نستطيع، لقد ذهب إلى مكان ما».

«اللجنة!»، جلس وفكر لحظة... «أين ستخفيها؟ في المحرك؟».

«أعرف الأماكن التي لا يمكن للإف بي أي اكتشافها، حتى لو فتشوا السيارة كلها».

«كم سيستغرق ذلك؟ ... هل سمعتي؟ كم سيستغرق؟» كرر داني كلامه عندما لاحظ النظرة العدائية في عيني فاريش...

«لتخبئة المواد». كان فاريش يعاني صممًا جزئيًا في إحدى أذنيه بسبب إصابة بطلق ناري، وأحيانًا، عندما يكون مرهقًا أو يستولي عليه رهابه، يسيء فهم الكلمات بطريقة غريبة جدًا، فيظن أنك تشتمه حتى لو كنت تطلب أمرًا بسيطًا كإغلاق الباب أو تمرير المملحة.

رفع فاريش يده مشيرًا بخمس أصابع وقال: «كم تظن أنت؟» «إذن، لا مشكلة الآن. إليك ما سنفعله: سنتجاهل الذهاب لسماع الموعظة، ثم نتوجه إلى الإرسالية بعد ذلك. سأشغلها في الطابق العلوي ريثما تضع الحزمة في السيارة كما تخطط، وينتهي الأمر كله».

قال فاريش فجأة: «سأقول لك ما يشغل بالي». جلس بجوار داني إلى الطاولة وبدأ ينظف تحت أظافره بسكين جيب: «كانت هناك سيارة متوقفة أمام بيته قبل قليل. يوجين اتصل وأخبرني بذلك».

«سيارة! ما نوعها؟»

«مجرد سيارة عادية توقفت أمام البيت»، أطلق فاريش زفرة غاضبة. «ابتعدت عندما رأوا يوجين ينظر إليهم من نافذته».

«على الأرجح، هذا لا شيء».

ارتد فاريش إلى الخلف ورمشت عيناه: «ماذا قلت؟ لا تكلمني همسًا! لا أطيق أن تكلمني همسًا».

«قلت إنه لا شيء»، نظر داني مليًا إلى شقيقه ثم هز رأسه... «لماذا قد يهتم أي شخص بيوجين؟»

رد فاريش بجديّة: «إنهم لا يتعقبون يوجين، بل يلاحقونني أنا. أقول لك، ملفي عند بعض الجهات الحكومية كبير جدًا».

«فاريش!»

إذا تركت فاريش يبدأ الكلام عن الحكومة الاتحادية عندما يكون مزاجه سيئًا هكذا، فلن يتوقف عن الثرثرة حتى بزوغ الفجر.

قال له: «اسمع! إذا ذهبت وسددت تلك الضريبة...»، لكن فاريش رمقه بنظرة سريعة حانقة.

«وصلتك رسالة قبل أيام، إذا لم تدفع ضرائبك يا فاريش، فسوف يلاحقونك».

قال فاريش: «هذا أمر لا علاقة له بالضرائب. الحكومة تراقبني منذ عشرين عامًا».

فتحت والدّة هاربيت الباب المفضي إلى المطبخ، حيث كانت هاربيت متكئة على الطاولة دافئة رأسها بين يديها، زادت من انكبابها فوق الطاولة أملًا أن تسألها أمها عمّ بها، لكن أمها لم تتبه لها، بل اتجهت نحو الفريزر وفتشت عن تلك اللعبة الكبيرة المخططة؛ لعبة الآيس كريم بنكهة النعناع.

جلست هاربيت تراقبها وهي تشب على رؤوس أصابعها كي تتناول كأسًا عن الرف العلوي، ثم وضعت في الكأس (بمشقة) بضع ملاعق من الآيس كريم. كان قميص نومها قديمًا جدًا، له من الأسفل طيات رقيقة فاتحة الزرقة وشرائط عند الرقبة. عندما كانت هاربيت صغيرة، كان هذا القميص يسحرها، فقد كانت تراه

شبيهاً بثوب الجنية الزرقاء في كتاب بينوكيو، أما الآن، فهي لا تراه إلا ثوباً قديماً متهدلاً، صار رمادياً عند درزات الخياطة.

التفتت والددة هاربيت كي تعيد عبوة الآيس كريم إلى الفريزر فرأت هاربيت متكئة إلى الطاولة، فقالت لها وهي تغلق باب الفريزر: «ما الأمر؟».

قالت هاربيت بصوت عالٍ: «أولاً، أنا جائعة جداً».

تقلّصت ملامح أمها بطريقة جعلت أنفها يبدو غريباً وجذاباً في آنٍ معاً، ثم سألتها السؤال الذي توقعت هاربيت سماعه: «لم لا تأكلين بعضاً من هذا الآيس كريم؟».

«أنا... أكره... هذا... النوع... من... الآيس... كريم»، كم مرة ينبغي أن تقول لها هذا!

«هممم!»

«أمي، أنا أكره الآيس كريم بنكهة النعناع». فاجأها إحساسها باليأس الشديد... لماذا لا يصفني إليها أحد؟ «لا أطيعه! لم أحبه في حياتي كلها! لا أحد يحبه غيرك».

أرضتها رؤية تعبير الجرح في وجه أمها. «أنا... آسفة... ظننت أننا جميعاً نحب أن نأكل شيئاً خفيفاً بارداً... لأن الحر شديد في الليل...».

«أنا لا أحب هذا».

«لا بأس! اطلبي من آيدا أن تحضر لك شيئاً».

«آيدا ذهبت».

«ألم تترك لك شيئاً؟»

مكتبة

t.me/soramnq1463

«لا!»، على أي حال، لم تترك لها شيئاً تحبه: لحم التونة فقط.
قالت أمها هذا بحذر: «إذا، ماذا تحبين؟ الحر شديد... ينبغي
ألا تأكلي شيئاً ثقيلاً».
«أحب أن أكل شيئاً ثقيلاً».

في بيت هيلي، مهما يكن الحر شديداً، يجلسون كل ليلة
ويتناولون عشاء حقيقياً، عشاء كبيراً حاراً ودسماً، تفوح رائحته
في المطبخ كله: لحم مشوي، ولازانيا، وقريدس مقلي.
ولكن أمها لم تصغ إليها، قالت باسمه وهي تعيد علبة الآيس
كريم إلى الفريزر: «ما رأيك في قليل من التوست؟»
«توست!»

«ماذا؟ ما المشكلة في التوست؟»

«لا يأكل الناس التوست على العشاء، لماذا لا نستطيع أن نأكل
مثلاً يأكل الناس الآخرون؟»، في المدرسة، في درس «الاهتمام
بالصحة»، طلبت معلمة هاربيت من الأطفال أن يسجلوا كل ما
يأكلون طيلة أسبوعين، فصدمت هاربيت عندما رأت كم بدت
وجباتها سيئة عندما صارت مكتوبة على الورق، لا سيما في
الليالي التي لا تطهو فيها أيداً شيئاً: الآيس كريم، والزيتون
الأسود، والتوست، والزبدة، وما كان منها إلا أن مزقت تلك الورقة
وفتحت كتاب الطهو الذي تلقته أمها هدية يوم زفافها، كان اسمه
«ألف طريقة لإسعاد أسرتك»، كانت في الكتاب مجموعات كاملة
من وجبات الطعام المتوازنة: بيكاتا الدجاج، وغراتان الصيف،
وسلطة خضراء، ومربى التفاح.

قالت أمها بحدة مفاجئة: «من مسؤولية آيدا أن تجهز لك شيئاً، لهذا أدفع لها أجراً، وإذا كانت مقصرة في أداء واجباتها فسيكون عليّ أن أبحث عن واحدة غيرها».

صرخت هارييت: «أطبقني فمك!» أفزعها هذا الظلم.
«والدك يسألني دائماً عن آيدا ويقول إنها لا تقوم بعمل كافٍ في البيت، أعلم أنك تحبين آيدا، ولكن لا...».
«هذا ليس ذنبها».

«... إذا لم تكن تؤدي عملها مثلما ينبغي أن تؤديه، فسوف يكون بيننا كلام غداً».

خرجت من المطبخ حاملة كأس الآيس كريم. هذه الوجهة التي اتخذها الحديث جعلت هارييت تشعر بدوار وحيرة، فأسندت جبهتها إلى الطاولة.

بعد لحظة قصيرة، سمعت خطوات قادمة إلى المطبخ، رفعت رأسها متكاسلة فرأت أليسون واقفة عند العتبة.
قالت لها: «ما كان ينبغي أن تقولي هذا».
«اتركيني وحدي».

وفي تلك اللحظة، رن الهاتف، رفعت أليسون السماعة وقالت: «ألو»، وخلا وجهها من كل تعبير، تركت السماعة تسقط من يدها فراحت تتأرجح من السلك.

قالت لهارييت: «المكالمة لك»، وخرجت من المطبخ.
ما إن نطقت كلمة «ألو»، قال لها هيلي مندفعاً: «هارييت... استمعي إليّ...».

قاطعته: «هل أستطيع أن أتغشى عندكم؟»

قال هيلي بعد لحظة صمت مرتبك: «لا». انتهت وجبة العشاء عندهم، لكنه كان في إثارة شديدة فلم يأكل. قال: «اسمعي! إيزي جن جنونها، حطمت بضع كؤوس في المطبخ ثم ذهبت. ذهب أبي إلى بيتها بالسيارة فخرج صديقها إلى الشرفة ودارت بينهما مشادة كبيرة، طلب منه أبي إخبار إيزي بألا تعود إلى بيتنا، قال له إنها مطرودة. يااااا ولكن ليس هذا سبب اتصالي». قال تلك الكلمات سريعاً لأن هاربيت راحت تدمدم مستاءة مما سمعت... «هاربيت، اسمعي! ليس لدي وقت طويل، ذلك الواعظ ذو الندبة موجود الآن في الساحة، إنهما واعضان اثنان، رأيت ذلك مع أبي في طريقنا إلى بيت إيزي، ولكني لا أعلم كم من الوقت سيظلان هناك، لديهما مكبر صوت، أستطيع سماعهما من هنا، من بيتي». وضعت هاربيت السماعة على الطاولة وذهبت إلى الباب الخلفي. بكل تأكيد، سمعت صدى مكبر بصوت معدنيٍّ آتٍ من بين أغصان الكرمة المتدلية على الشرفة: شخص يصيح بكلمات غير مفهومة، وخشخشة مايكروفون رديء.

عندما عادت إلى المطبخ وحملت السماعة، صار صوت هيلي خافتاً، سرّياً.

سألته: «هل تستطيع الخروج؟»

«أراك عند زاوية الشارع».

تجاوزت الساعة السابعة، ولكن ضوء النهار في الخارج لا يزال باقياً، غسلت هاربيت وجهها بالماء فوق المجلى، ثم ذهبت إلى سقيفة الأدوات كي تأتي بدراجتها. قادت الدراجة في الممر مسرعة، وكان الحصى يفرقع تحت عجلتيها إلى أن صارت العجلة الأمامية فوق إسفلت الشارع، انطلقت بأقصى سرعة.

وجدت هيلي في انتظارها عند ناصية الشارع ممطياً دراجته. انطلق ما إن رآها آتية من بعيد، فتسارعت قدماها على الدواستين فأدركته. مصابيح الشوارع غير مضاءة بعد، ورائحة تقليم الأشجار فائحة في الهواء، ومثلها رائحة مبيد الحشرات والأزهار العسلية. أحواض الورد متألقة ألوانها: أرجوانية وقرمزية وبرتقالية في ضياء الشمس المتلاشي. انطلقا مسرعين يتجاوزان البيوت الساكنة وهسيس رشاشات المياه وكلب ينبح ويركض وراءهما. ظل هيلي مسرعاً، وكانت ساقاه القصيرتان تطوحيان يميناً وشمالاً، ثم توقف.

انعطفا انعطافاً حاداً عند شارع والثال. جمالونات بيت السيد ليلي الخشبية طارت صوبهما مائلة بزاوية خمس وأربعين درجة كأنها بيت عائم رسا مائلاً عند رصيف أخضر. تركت هاربيت قوة اندفاعها تسوقها عبر المنعطف ومن حولها شذا ورود ذلك البيت: غيوم من أزهار وردية متدلّية أكواماً من فوق الشرفة، عبير فواح سريع الزوال مربها في اندفاعها حرة، ثانية أو ثانيتين، ثم عادت قدماها إلى دفع الدواستين فخرجت إلى شارع مين: جمهرة من مرايا، وواجهات بيوت وأعمدة بيضاء في الضياء الغني ماضية في خطين طويلين متقاربين صوب الساحة حيث الضياء الأبيض الواهي منبعث من فتحات الأكشاك والشرفات المائلة في البعيد الذي بلون الخزامى على خلفية سماء من نسيج داكن الزرق، هدوء وصفاء كأن ذلك كله إضاءة خلفية في مسرحية في المدرسة الثانوية؛ مسرحية «بلدتنا» باستثناء الرجلين المرتدين قميصين أبيضين وبنطلونين داكنين، الرجلين

اللذين يخطوان جيئةً وذهاباً يلوح كل منهما بذراعيه وينحنيان ثم يتراجعا ويصيحان في أثناء سيرهما، مسارهما يلتقيان وسط التقاطع المؤدي إلى الزوايا الأربع كلها، كانا كأنهما في مزاد علني يبريران بعبارات إيقاعية مبالغ فيها، عبارات تتلاقى وتتصادم وتتباعد في اتجاهين مختلفين... صوت يوجين راتليف الجمهوري وصوت مرافقه الشاب الحاد، صوت جبلي النغمة حاد النبرات.

«... وأملك...»

«... وأبوك...»

«... وطفلك الصغير المسكين الذي على الأرض...».

«... هل تريد القول لي إنهم سيقومون؟»

«أريد القول لك إنهم سيقومون.»

«أتريد القول لي إنهم سيقومون من جديد؟»

«أريد القول لك إنهم سيقومون من جديد.»

«يريد الكتاب إخباركم أنهم سيقومون من جديد.»

«يريد المسيح إخباركم أنهم سيقومون من جديد.»

«يريد الأنبياء إخباركم أنهم سيقومون من جديد...».

راح يوجين راتليف يضرب الأرض بقدميه ويصفق بيديه فانفلتت خصلة من شعره الرمادي المربوط وسقطت على وجهه، لوح صاحبه ذو الشعر المجنون بيديه، رفعهما عاليًا وبدأ يرقص. يداه البيضاءوان مرتعشتان مع ارتعاش جسده كله كأن الكهرباء المشعة من عينيه ومن شعره المنتصب سرت في جسده كله وراحت تهزه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه... اختلاجات شديدة فوق تلك المنصة.

«... أريد أن أصبح بهذا مثلما كان في زمن الإنجيل...».

«... أريد أن أصبح بهذا مثلما صاح يوحنا».

«... أصبح بها عاليًا كي يغضب الشيطان...».

«... هيا يا أطفال كي نغضب الشيطان!»

من الناحية العملية، كانت الساحة خالية من الناس، فتاتان مرهقتان واقفتان إلى الناحية الأخرى من الشارع تضحكان مرتبكتين، والسيدة ميريل آبوت واقفة بباب متجر المجوهرات. وعند متجر العدد والأدوات، أسرة جالسة في سيارة متوقفة أنزلت نوافذها وراحت تنظر، في إصبع الواعظ راتليف، في إصبعه الصغرى (كان حاملاً ذلك المايكروفون الذي لا تتجاوز ثخانتها ثخانة قلم رصاص وقد ارتفعت إصبعه الصغرى قليلاً كأنه يحمل فنجان شاي)، تألق حجر في خاتمه ملتقطاً ضوء الشمس الغاربة؛ لمعان أحمر داكن.

«... نحن الآن في آخر الزمان...».

«... نحن هنا نعظ بالحقيقة التي في الإنجيل...».

«... نعظ بهذا الكتاب مثلما كانوا يعظون في الأيام الخوالي...».

«... نعظ به مثلما كان الأنبياء يعظون...».

رأت هاربيت الشاحنة الصغيرة، وخاب أملها عندما رأت صندوق السيارة خاليًا إلا من مكبر صوت له حافة بلاستيكية جعلته أشبه بحقيبة رخيصة.

«أوه... مر زمن طويل منذ كان بعضكم هنا...».

«... اقرؤوا إنجيلكم...».

«... اذهبوا إلى الكنيسة...».

«... اركعوا مثلما يركع طفل صغير...».

أجفلت هاربيت عندما لحظت أن يوجين راتليف ينظر إليها مباشرة.

«... إن كنت مهتمًا بالدنيا فهذا هو الموت...».

«... إن كنت تفكر في الانتقام فهذا هو الموت».

«... لأن شهوات الأجساد موت...».

قالت هاربيت من غير أن تنتبه: «الجسد».

سألها هيلي: «ماذا؟»

«الجسد، وليس الأجساد».

«... لأن ارتكاب المعاصي موت...».

«... لأن أكاذيب الشيطان جحيم وموت...».

انتبهت هاربيت إلى أنهما مخطئان، اقتربا أكثر مما ينبغي، ولكنهما لا يستطيعان إصلاح الأمر الآن، وقف هيلي محدقًا فاغرًا فمه، لكزته بين أضلاعه، همست له: «هيا».

قال هيلي وهو يمسح جبهته الدبقة بذراعه: «ماذا؟»

أشارت هاربيت بعينيها إشارة تعني «فلنذهب».

استدارا من غير أي كلمة وسارا مبتعدين بدراجتيهما إلى أن بلغا زاوية الشارع، بعيدًا عن الأنظار.

تساءل هيلي بحزن: «ولكن، أين الأفاعي؟ ألم تقولي إنها كانت في السيارة؟»

«لا بد أنهما أعاداها إلى الشقة بعد مغادرة السيد ديال».

قال هيلي: «هيا، فلنذهب إلى هناك، أسرعي قبل أن ينتهيا».

قفزا إلى دراجتيهما وانطلقا إلى بيت المورمون بسرعة كبيرة. صارت الظلال أطول من ذي قبل وصارت أكثر تشابكاً، الشجيرات المزهرة على طول الخط الفاصل على الاتجاهين في شارع مين كانت متألقة بضوء الشمس الغاربة كأنها صف من أقمار صار ثلاثة أرباع الواحد منها واقعاً في الظل ففدت أهلة... ولكنها لا تزال مرئية. بدأت الضفادع والجنادب صياحها بين حواف الشجيرات المظلمة على امتداد الشارع. وصلاً أخيراً لاهثين. مرا أمام ذلك البيت، كانت الشرفة مظلمة ومكان وقوف السيارة خالياً. نظرا في الاتجاهين، ما من أحد في الشارع سوى رجل عجوز أسود بوجنتين حادثين لامعتين ووجه كوجه مومياء، كان سائراً على الرصيف حاملاً تحت إبطه كيس ورقي.

خبأ هيلي وهاربيت دراجتيهما تحت شجيرة مزهرة في الشارع. وقفوا يراقبان من خلف تلك الشجيرة. ظللاً حذرين إلى أن ابتعد العجوز وانعطف عند زاوية الشارع فاختفى عن الأنظار، ثم عبرا الشارع مسرعين وجثما بين أغصان شجرة تين منخفضة في الفناء المجاور (لأن ما من غطاء لهما في فناء البيت المقصود... لا شجرة ولا شيء غير حزم متناثرة من أعشاب قصيرة من حول جذع باقٍ من شجرة نُشر ساقها).

نظرت هاربيت إلى المزراب النازل من الطابق الثاني إلى الطابق الأول وقالت: «كيف سنصعد؟»

قال هيلي: «انتظري!»، اندفع مدهوش الأنفاس لجراته، فخرج من مخبئه تحت شجرة التين وجرى سريعاً، صعد السلم ثم استدار ونزل من جديد، اجتاز الفناء المكشوف وعاد إلى مخبئه

إلى جانب هاربيت، قال وهو يرفع كتفيه بحركة كوميدية: «الباب مقفل».

جلسا يراقبان البيت بين أوراق الشجرة المهتزة. كان الجانب المقابل لهما مظلمًا، أما جهة الشارع فكانت مضاءة، كان ضوء الشمس منعكسًا على النوافذ.

أشارت هاربيت بإصبعها وقالت: «هناك، في الأعلى، السقف مستو، أترى؟»

لاح من فوق سطح البيت جدار مثلث صغير فيه نافذة مغطاة، نافذة صغيرة جدًا مفتوحة عند أسفلها، بمقدار إنش واحد أو إنشين، كان هيلي على وشك سؤالها كيف تعتزم الوصول إلى تلك النافذة (ارتفاعها أكثر من خمسة عشر قدمًا فوق الأرض) عندما قالت: «سوف أتسلق المزراب إن رفعتي».

قال هيلي: «مستحيل!»، كان المزراب صدئًا جدًا يكاد يتفتت. كانت نافذة صغيرة جدًا لا يكاد عرضها يبلغ قدمًا واحدة، قالت هاربيت: «لا بدّ أنها نافذة الحمام»، أشارت إلى نافذة مظلمة واقعة عند منتصف ارتفاع الجدار، «وهذه النافذة؟»
«هذه نافذة المورمونيين، تأكدت من ذلك».

«ماذا في الداخل؟»

«سَلَم، على فسحة السلم، هناك لوحة إعلانات عليها بعض الأوراق».

قالت هاربيت: «ربما»، وصفعت ذراعها بيدها ثم نظرت إلى البعوضة المسحوقة المدماة على كف يدها.

قالت لهيلي: «قد يكون السلم الذي في الطابق السفلي والسلم الذي في الطابق العلوي متصلين داخل البيت، أنت لم تر أحداً في البيت».

«هارييت، هما ليسا في البيت، إذا عادا وأمسكا بنا فسوف نقول إن هذا كان تحدياً بيننا. ولكن علينا أن نسرع، وإلا فلننسى الأمر، لن أجلس هنا طوال الليلة».

«لا بأس»، استنشقت نفساً عميقاً ثم اندفعت عبر الفناء الفارغ، واندفع هيلي خلفها، جريا صاعدين السلم. وقف هيلي يراقب الشارع في حين وضعت هارييت يدها على الزجاج ونظرت إلى الداخل: سلم مهجور مكس فيه عدة كراسي قابلة للطي، جدران ذات لون حزين داكن تثيرها حزمة ضوء مرتدة من نافذة في البيت المقابل على الجانب الآخر من الشارع. خلف الكراسي، رأت براد ماء وخلفه لوحة إعلانات عليها ملصقات.

كانت النافذة مغلقة ودون ستارة، وقفا جنباً إلى جنب وراحا يمدان أصابعهما مثنية من تحت لسان المزلاج المعدني كي يفتحاه، ولكن عبثاً.

همس هيلي: «سيارة!»، التصق الاثنان بالجدار خفق قلباهما بشدة... إلى أن مرت السيارة ومضت في سبيلها، وما إن ذهبت حتى خرجا من الظلال وحاولا من جديد.

همس هيلي: «وماذا عن هذا؟»، ووقف على أطراف أصابعه كي ينظر إلى وسط النافذة حيث كان خط التقاء لوحى الزجاج العلوي والسفلي: خطاً مستقيماً لا فتحات فيه.

أدركت هاربيت ما يعنيه؛ إنَّ النافذة من غير قفل، وما من مسافة بين لوحى الزجاج كي ينزلق واحد منهما فوق الآخر، مررت بإصبعها على خط التقاء اللوحين.

فجأة، سمعت هيلي يهمس ويشير بأن تساعد.

تعاوننا معًا فدفعنا لوح الزجاج العلوي صوب الداخل، منعهما الزجاج قليلًا، وصرّ قليلًا، ثم أطلق أنينًا، ثم انفتح إلى الخارج فصار أفقيًا. ألقى هيلي نظرة أخيرة على الشارع الذي صار مظلمًا (لا أحد في الشارع). وبعد لحظة، كان الاثنان يدخلان النافذة معًا، رأساهما إلى أسفل، ورؤوس أصابعهما على الأرض. رأى هيلي الشذرات الرمادية على أرضية اللينيوم مندفعة إليه سريعًا، كأن تلك الأرضية التي تحاكي شكل الجرانيت كانت كسطح كوكب غريب مندفع إليه بسرعة ألف ميل في الساعة... بوووم! اصطدمت الأرض برأسه فانقلب وصار كله في الداخل، سقطت هاربيت على الأرض إلى جواره.

صارا داخل البيت: فسحة سلم من الطراز القديم، صعدا ثلاث درجات فقط من بعدها فسحة طويلة في أعلى السلم، عاصفة من الإثارة والحماسة. حاولا ألا يكون صوت أنفاسهما عاليًا، تحاملا على نفسيهما فوقفا وصعدا الدرجات الثلاث، انعطفا عند الزاوية فكادا يصطدمان بباب ثقيل عليه قفل ضخم متدلّ من حلقة.

كانت هناك أيضًا نافذة أخرى؛ نافذة خشبية قديمة لها مزلاج صغير، توقف هيلي عندها وراح يتفحصها. كانت هاربيت واقفة عند القفل الكبير تتظر إليه عاجزة عندما بدأ هيلي يشير إليها

أن تأتي، يشير متحمسًا ويشد على أسنانه لفرط إثارته: كان خلف هذه النافذة إفريز السطح المؤدي مباشرة إلى النافذة الصغيرة التي كانا ينظران إليها من الخارج.

راحا يجذبان النافذة الخشبية بقوة شديدة جعلت وجهيهما أحمرين فاستطاعا رفع الإطار نحو ثمانية إنشات، عبرت هاربيت أولاً (كان هيلي ممسكًا بساقيها كأنه يوجه محراثًا، ركلته من غير أن تقصد ذلك فشتمها وقفز متراجعًا)، كان إفريز السطح حارًا، وكان دبقًا تحت كفيها، نهضت واقفة على قدميها بحذر شديد، أغمضت عينيها بأشد ما استطاعت وظلت ممسكة إطار النافذة بيدها اليسرى، مدت يدها اليمنى إلى هيلي فتسلق الحافة وعبر النافذة وصار إلى جانبها.

بدأ النسيم يبرد قليلًا. خط مائل من أثر طائفة نفثة في السماء، خط أبيض دقيق كأنه أثر زورق سريع في بحيرة ضخمة. كان تتفس هاربيت سريعًا، وكانت خائفة من النظر إلى أسفل. شمّت عبيرًا خفيفًا من زهرة فوّاحة، في الأسفل: لعلها رائحة خزامى، أو نبتة التبغ الحلو، أمالت رأسها خلفًا ونظرت إلى السماء. غيوم عملاقة حوافها السفلية مصبوغة بلون وردي متألق كأنها غيوم في لوحة في قصة من قصص الإنجيل. بحذر شديد جدًا، ظهر كل منهما إلى الجدار، وحماستهما مثل تيار كهربائي، تقدما شيئًا فشيئًا إلى أن تجاوزا الزاوية فوجدا نفسيهما ناظرين إلى شجرة التين في الأسفل، الشجرة نفسها التي كانا مختبئين تحتها.

كانت أظافرهما متشبثة بالحافة المصنوعة من الألمنيوم. لا تزال محتفظة بحرارة النهار، حارة عند لمسها. تقدما إنشأ فإنشأ حتى اقتريا من الجمالون، وصلت هاربيت قبل هيلي، وقفت عند النافذة الصغيرة ثم ترحزحت قليلاً كي تفسح له مكاناً. النافذة صغيرة جداً، ليست أعرض كثيراً من واحدة من علب الأحذية. مفتوحة قليلاً من أسفلها. اليد بعد اليد، وبكل حذر، أفلتا حافة السطح وصارا ممسكين بإطار النافذة. جذباه معاً صوب الأعلى: كانا حذرين أول الأمر فقد تفتحت النافذة سريعاً فيفقدان توازنهما ويسقطان، انزلقت النافذة صاعدة مسافة أربعة أو خمسة إنشات، ثم توقفت في مكانها رافضة الحركة على الرغم من مواصليتهما جذبها إلى أن آلمتهما أيديهما.

صارت راحتا يدي هاربيت رطبتين، وكان قلبها يقفز في صدرها كأنه كرة تنس، عندئذٍ سمعت في الأسفل صوت سيارة مقترية في الشارع.

تجمد الاثنان، ولكن السيارة مرت دون أن تتوقف، سمعت هيلي يهمس لها: «لا تنظري إلى الأسفل»، كان على مسافة بضعة إنشات منها وما من تماس بينهما، ولكن هالة محسوسة من حرارة رطوبة كانت مشعة منه، من رأسه حتى قدميه، كأنها حقل مغناطيسي.

استدارت صوبه فرأته في ضياء الغسق الملون المتفلّت يرفع إبهامه بكل بسالة، ثم يدخل رأسه وذراعيه في النافذة مثلما يفعل سباح يغطس في الماء. ثم بدأ جسمه يدخل النافذة رويداً رويداً.

كانت ضيقة جدًا، علق قليلاً عند وسطه، كانت هاربيت ممسكة حافة الألمنيوم بيدها اليسرى وبدها اليمنى تحاول رفع إطار النافذة، ولكنها تراجعت قليلاً، تراجعت قدر استطاعتها كي تتفادى قدميه اللتين راحتا ترفسان الهواء، كان الإفريز ضيقاً جداً فانزلقت وكادت تقع ولكنها استطاعت استعادة توازنها في اللحظة الأخيرة. قبل أن تبتلع ريقها وقبل أن تلتقط أنفاسها، كان الجزء العلوي من جسم هيلي قد صار داخل الشقة، سمعت صوت ارتطامه بالأرض وما عاد ظاهراً خارج النافذة غير قدميه في حذائه الرياضي. كفّ عن الحركة لحظة واحدة ثم جذب قدميه إليه فصار كله في الداخل. سمعته هاربيت يقول: «نعم!»، صوته بعيد، مبتهج... تلك النشوة المألوفة التي يشعران بها في عتمة عليّة البيت عندما يكونان جاثيين على ركبهما وأيديهما وبينان قلاعاً من صناديق الورق المقوى.

أدخلت رأسها في الفتحة، رآته في الضياء الخافت: متكوماً على نفسه يدعك ركبته التي آلمته عند اصطدامها بالأرض. نهض على ركبتيه بحركة خرقاء وتقدم من النافذة فأمسك بذراعي هاربيت ومال بثقله إلى الخلف. ابتلعت هاربيت بطنها وبذلت جهداً كي تعبر الفتحة الضيقة، قدماها ترفسان الهواء، كأنها دب صغير أدخل رأسه في جحر أرنب.

تلوت إلى أن سقطت في الداخل، نصفها على هيلي ونصفها على سجادة رطبة عفنة رائحتها كرائحة شيء مأخوذ من قعر قارب، انقلبت جانباً فاصطدم رأسها بالجدار. فعلاً، كانا في حمام، حمام صغير جداً: مرحاض ومغسلة من غير صنبور،

وجدران من ألواح خشبية مطلية بحيث تبدو كأنها مصنوعة من بلاط.

الآن، كان هيلي واقفاً على قدميه، ساعدها على الوقوف. لحظة وقوفها، شمت رائحة لازعة، رائحة تشبه رائحة الأسماك... ليست رائحة عفونة مع أن في الهواء عفونة تخالطها؛ رائحة حادة، مميزة، خبيثة كلها، كبتت المذاق الرديء الذي أحسته في حلقها وحوّلت ذعرها المتزايد إلى جهد بذلته في فتح الباب (باب أكورديون بلاستيكي مطبوع بلون يجعله يبدو كأنه مصنوع من خشب)، كان الباب المنزلق عالقاً في سكوته.

انفتح الباب انفتاحاً مفاجئاً فسقط الاثنان في غرفة كبيرة فيها تلك الرائحة الثقيلة نفسها، ولكنها أشد ظلمة. كان الجدار البعيد عنهما متحدياً في اتجاههما، وكان مسوداً كأنه محترق، ولكنه رطب جداً. ومن غير سابق إنذار، استولى على هيلي (اللاهث لشدة الإثارة، المندفع مثل كلب يطارد رائحة) خوف شديد جداً جعله يحس بطعم معدني على لسانه. بسبب روبيين وما حدث لروبيين، كان أهله يحذرونه طيلة حياته قائلين له إن الأشخاص الكبار ليسوا طبييين جميعاً، فبعضهم (ليسوا كثيرين، بل قلائل) يسرقون الأطفال من أهلهم، ويعذبونهم، بل يقتلونهم أيضاً. لم ير حقيقة الأمر بهذه القوة كلها إلا الآن، أتته مثل ضربة أصابت صدره، ولكن الرائحة الثقيلة وبقع الرطوبة البشعة على الجدران جعلته يشعر بالغثيان، عادت إليه قصص الرعب كلها التي سمعها من أبيه وأمه (أطفال مكتمو الأفواه مقيدون في بيوت مهجورة، وأطفال مشنوقون بحبال أو محبوسون في خزائن

مقفلة كي يموتوا جوعاً)، تلك القصص كلها عادت حية، عادت تنظر إليه بعيون صفراء وتبتسم له ابتسامات كبيرة تلوح من خلفها أسنان كأسنان القرش، أسنان تأكله.

لا يعلم أحد مكان وجودهما، لا أحد... لا جار، ولا عابر طريق رآهما يدخلان هذه النافذة، إذا لم يعودا إلى البيت فلن يعلم أحد ماذا جرى لهما.

سار خلف هاربيت التي كانت متجهة بكل ثقة صوب الغرفة الأخرى، تعثر بسلك كهربائي وكاد يسقط على الأرض.

«هاربيت»، كان صوته غريباً. وقف في الظلمة الخفيفة منتظراً إجابتها وحدق إلى النور المرئي الوحيد: ثلاثة مثلثات كأنها نار ملتهبة على النوافذ الثلاث المغلفة بورق معدني... نور مخيف سابح في الظلام... ومن غير أن يدري، انخسفت الأرض من تحته، لعل هذا فخ؛ فما أدراهما أن ما من أحد في البيت!

صاح: «هاربيت!»، وفجأة، أحس بحاجة شديدة إلى التبول، حاجة أشد مما عرفه في حياته كلها، امتدت يده إلى سحاب البنطلون وهو لا يكاد يعلم ما يفعله، استدار وبال على السجادة مباشرة، بال بشكل سريع من غير اهتمام بوجود هاربيت، كان يعلو ويهبط في غمرة عذابه؛ فلقد زرع أبوه وأمه في عقله، من غير أن يقصدا ذلك، أفكاراً غريبة عندما كانا يحذرانه تحذيراً شديداً من الأشخاص المختلفين، ومن بين تلك الأفكار فكرة مخيفة مفادها أن خاطفي الأطفال لا يسمحون لهم باستخدام المرحاض بل يرغمونهم على قضاء حاجاتهم في ملابسهم أينما كانوا: مقيدين إلى فراش قدر أو محبوسين في صندوق سيارة، أو مدفونين في تابوت له أنبوب للتنفس...

هكذا! قالها في نفسه وهو يحس ارتياحًا يكاد يكون هذيانًا، فحتى إذا عذّبه أولئك الأوغاد (بسكاكين كبيرة أو بملاقط تعصر أظافره، أو بأي شيء) فلن يسعدوا بأن يروه يبول في ملابسه. في تلك اللحظة، سمع من خلفه صوتًا فشعر بقلبه ينزلق من مكانه مثلما تنزلق سيارة على أرض متجمدة.

ولكن تلك كانت هاربيت... كانت عيناها كبيرتين داكنتين، بدت له صغيرة جدًا بالمقارنة مع إطار الباب الذي كانت واقفة عنده، سرته رؤيتها كثيرًا فلم يفكر إن كانت قد رآته يبول أم لا.

قالت بصوت مسطح: «تعال لترى هذا!»

تبخر خوفه أمام هدوئها، تبعها إلى الغرفة الأخرى. لحظة دخول الغرفة، صدمته تلك الرائحة الغريبة العفنة، رائحة ثقيلة يكاد يستطيع أن يشعر بمذاقها على لسانه... كيف له ألا يعرف هذه الرائحة!

قال: «يا إلهي!»، وغطى أنفه بيده.

قالت بنبرة انتصار: «ألم أقل لك؟»

كانت الصناديق تلمع في العتمة الخفيفة (صناديق كثيرة تكاد تكون كافية لأن تغطي أرض الغرفة كلها) أزوار صدفية، وشظايا من مرايا، ورؤوس مسامير، وزجاج مطحون، وحجارة لامعة... صناديق تلمع كلها في الظلمة كأنها كهف يضم كنز قرصان وصناديق بحرية خشنة متناثرة فيها ألماس وفضة وجواهر.

نظر إلى الأسفل، في الصندوق القريب من حذائه، على مسافة إنشات فقط، أفعى ذات جرس متكورة على نفسها، تهز ذيلها، تك تك تك، قفز متراجعًا من غير تفكير عندما لمح بطرف عينه

أفعى أخرى متجهة إليه دون صوت وقد اتخذ جسمها الزاحف شكل حرف S، ارتدت الأفعى عندما اصطدم خطمها بجدار الصندوق وأصدرت هسيسًا وانتفضت انتفاضة قوية (حركة غير معقولة كأنه يرى فيلمًا يرجع خلفًا، كأنه يرى حبلًا ناهضًا من بركة حليب مسفوح على الأرض ويطير عائداً إلى علبته)، قفز هيلي من جديد واصطدم بصندوق آخر فانبعثت من الصندوق موجات من هسيس شديد.

رأى هاربيت تدفع صندوقًا منقلبًا على جنبه، تدفعه باتجاه الباب المغلق بمزلاج. توقفت وأزاحت شعرها عن وجهها. قالت له: «أريد هذا الصندوق، ساعدني!»، فوجئ هيلي كثيرًا. لم يدرك حتى الآن، حتى هذه اللحظة عينها، أنه لم يصدق ما قالته له، لم يصدق أنه الحقيقة. سرت فيه فقاعة إثارة جليدية، إثارة مدغدة، قاتلة، لذيدة، شيء مثل مياه البحر الخضراء تتدفع داخله عبر ثقب في قعر زورق، شدت هاربيت على شفتيها وزلقت الصندوق عدة أقدام عبر مساحة خالية من أرضية الغرفة، ثم قلبته جانبًا. قالت: «سنأخذ هذه...». توقفت كي تدعك راحتي يديها معًا... «سنأخذ هذه الأفعى وننزل عبر السلم الذي في الخارج».

«لا نستطيع أن نسير في الشارع حاملين هذا الصندوق».

«ما عليك إلا أن تساعدني»، أطلقت زفرة ودفعت الصندوق فتحرك من مكانه الذي كان فيه.

اقترب هيلي منها، كان المرور بين تلك الصناديق غير لطيف أبدًا، ومن خلف فتحات الصناديق (رأى فتحة يستطيع أن يدخل

قدمه عبرها)، كان لديه إدراك غامض بوجود حركة في الظلال: حلقات تتفكك وتتحل ثم تتجمع من جديد، وماسات سوداء سابحة واحدة تلو أخرى في دوائر صامتة خبيثة، شعر بالهواء يملأ رأسه، قال في نفسه: هذا ليس حقيقياً! ليس حقيقياً! لا، هذا ليس إلا حلمًا! ظل بعد ذلك سنوات طويلة (حتى بعد أن صار كبيراً) يرى أحلاماً تجعله يعود عودة عنيفة إلى هذه الظلمة ذات الرائحة البشعة بين صناديق الكنوز التي تفوح وتهمس في كوابيسه.

لم ينتبه هيلي إلى غرابة تلك الكوبرا (كوبرا ملكية، منتصبة، واقفة وحدها، تتمايل وقد أزعجتها حركة صندوقها)، ما كان منتبهاً إلى شيء غير انزلاق ثقلها من جهة إلى جهة ومن غير ضرورة إلى إبقاء يده بعيدة عن الفتحة ذات الشبك المعدني، دفعا الصندوق حتى باب الشقة الخلفي. فكت هاربيت قفل الباب وفتحته على اتساعه، وبعد ذلك، حملا الصندوق معاً، حملاه بينهما ونزلا درجات السلم الخارجي (فقدت الكوبرا توازنها وراحت تتنفض بعنف جاف)، وضعا الصندوق على الأرض. لقد حل الظلام الآن، أضيئت مصابيح الشارع وكانت مصابيح شرفات البيوت مشعة من الناحية الأخرى. دوار في رأسيهما، وخوف حتى من النظر إلى الصندوق، خوف من تلك الضربات المكتومة الغاضبة المنبعثة من داخله، دفعاه تحت البيت بأقدامهما.

كانت في نسيم الليل لذعة برودة؛ فسرت قشعريرة في ذراعي هاربيت. في الأعلى (خلف الزاوية، محجوباً عنهما) كان النسيم يفتح الباب فيصطدم بدرابزين السلم، ثم ينغلق من جديد، قال لها

هيلي: «انتظري!»، ثم نهض بعد أن كان جاثياً على الأرض واندفع صاعداً السلم من جديد، بيدين مرتجفتين تراخت أصابعهما، أمسك بمقبض الباب وراح يبحث عن القفل، يداه دبقتان لشدة تعرقهما، وخفة غريبة أشبه بالحلم هيمنت عليه، وعالم مظلّم من غير شواطئ أحاط به من كل جهة كأنه واقف على سارية سفينة قرصان في كابوس من الكوابيس يتأرجح ويتميل وريح الليل تصفر في عرض البحر...!

كان يقول لنفسه: أسرع! أسرع ودعنا نبتعد عن هذا المكان، لكن يديه لم تقدرًا على العمل مثلما ينبغي؛ تتزلقان وتتزلقان على الباب كأنهما ليستا يديه.

ومن الأسفل، سمع صيحة هاربيت الغريبة، صيحة كلها دهشة وذعر ويأس، صرخة اختنقت قبل اكتمالها.

صاح في الصمت المريب الذي أعقب ذلك: «هاربيت!»، بدا له صوته مسطحاً، بدا عادياً إلى حدٍّ غريب. وبعد لحظة، سمع صوت عجلات سيارة على الحصى، انداح ضوء مصابيحها عبر فناء البيت. في السنوات التي أعقبت ذلك، كلما فكر هيلي في هذه الليلة، كانت الصورة التي يستعيدها حية تماماً على النحو الآتي: الأعشاب القصيرة المصفرة في ضوء السيارة، ورؤوسها المرتفعة هنا وهناك مرتعشة تحت الإنارة الشديدة...

قبل أن يتسنى له وقت للتفكير، أو حتى للتنفس، انطفأ مصباحا السيارة الكبيران وما بقي غير المصباحين الصغيرين، عاد العشب إلى ظلمته، ثم انفتح باب السيارة وسمع هيلي ما بدا له صوت أقدام كثيرة تصعد السلم.

دُعر هيلي. سوف يعجب في وقت لاحق من أنه لم يرم بنفسه من أعلى السلم في غمرة ذلك الخوف فيكسر ساقه، بل ربما عنقه. ولكن خوفه جعله غير قادر على التفكير في شيء غير وجه ذلك الواعظ، الوجه ذي الندبة آتياً إليه في الظلام، وما كان أمامه مفر غير أن يجري داخلاً الشقة، اندفع داخلاً، غاص قلبه في تلك الظلمة. طاولة صغيرة، وكراسي قابلة للطي، وصندوق للجليد، أين يختبئ! جرى إلى الغرفة الخلفية، فاصطدمت مقدمة حذائه بواحد من صناديق الديناميت.

استجاب له الصندوق بنبرة غاضبة وبخشخشة من ذيول الأفاعي، أدرك غلطته الرهيبة، ولكن الأوان قد فات، سمع صوت صرير باب الشقة، تساءل في نفسه: ألم أغلقه خلفي؟ اجتاحه خوف زاحف ممض.

ثم أتى الصمت... أطول صمت عرفه هيلي في حياته، وبعد ما بدا له زمناً أبدياً، سمع صوتاً واهياً، صوت مفتاح يدور في القفل، ثم يدور سريعاً من جديد، مرتين.

قال بصوت متكسر، صوت رجل: «ما الأمر؟ ألا يعمل المفتاح؟»
أضاء المصباح في الغرفة المجاورة، رأى هيلي في الضوء الذي تسرب عبر الباب أنه عالق هنا: لا مهرب، ولا مخبأ، لا شيء في الغرفة غير هذه الأفاعي، غرفة خالية من الناحية العملية: صحف، وصندوق أدوات، ولافتة مكتوبة باليد مسنودة إلى أحد الجدران (بعون الرب الرحيم: نلتزم الدين البروتستانتي والقوانين المدنية كلها)، وفي الزاوية القصية، كنية «كيس الفاصولياء» من الفينيل. أسرع في غمرة عذابه (يستطيعان رؤيته بمجرد التفاتة

صوب باب الغرفة المفتوح) فانسلّ بين صناديق الديناميت قاصداً تلك الكنبه.

صوت المفتاح من جديد: «نعم، إنه يعمل»، قالها الصوت نفسه، الصوت الذي لم يستطع تمييزه، في اللحظة نفسها، كان هيلي ينبطح أرضاً ويدس نفسه تحت الكنبه بأفضل ما استطاع. حاول أن يجرها قليلاً كي تغطيه كله.

مزيد من الكلام الذي لم يعد الآن قادراً على سماعه، كانت الكنبه ثقيلة، وما كان وجهه في اتجاه الباب، ساقاه مطويتان تحته، السجادة المضغوطة على خده الأيمن كانت رائحتها كرائحة جوارب متعركة. ثم، ويا للذعر، أضىء المصباح الذي في سقف الغرفة!

ماذا يقولان؟ حاول أن يجعل نفسه صغيراً إلى أقصى حدّ مستطاع. ولما كان غير قادر على التحرك، فما كان لديه أي خيار (إلا إذا أغمض عينيه) غير التحديق في خمس أو ست أفاعٍ تتحرك داخل صندوق مبهرج الألوان على جانبه شبك معدني لا يبعد عن أنفه أكثر من قدمين اثنتين. راح هيلي يحدق في تلك الأفاعي، وكان نصفه مشلولاً، والذعر مطبق على عضلاته. أفعى صغيرة ابتعدت عن رفيقاتها وتسلمت الشبك المعدني حتى منتصفه، كان باطن فمها أبيض اللون وعلى بطنها حراشف وتتحرك على هيئة صفائح طويلة أفقية ذات لون أبيض فضي.

أغمض هيلي عينيه، ولكنه تأخر مثلما يحدث أحياناً عندما يضبط نفسه ناظراً إلى أحشاء حيوان سحقته عجلات السيارات في الطريق السريع، دوائر سوداء على خلفية برتقالية... بقية

الضوء بعد أن أغمض عينيهِ صارت كأنها صورة سلبية... دوائر نابعة من أعماق رؤيته، واحدة تلو أخرى كأنها فقاعات في حوض أسماك تعلو فتصير أوهى فأوهى ثم تتلاشى...

اهتزاز في أرض الغرفة: وقع خطوات، توقفت الخطوات، ثم خطوات رجل آخر، خطوات أثقل وأسرع اقتربت منه ثم توقفت توقفاً مفاجئاً.

ماذا لو كان حذائي ظاهراً؟ فكر هيلي في هذا فهزه دعر لم يستطع ضبطه.

ثم هدأ كل شيء، تراجعت الأقدام خطوة أو اثنتين، مزيد من الكلام المكتوم. بدا له أن زوجاً من تلك الأقدام قد مضى إلى النافذة بخطوات بطيئة، ثم عاد. كم صوتاً في الغرفة؟ لم يقدر على معرفة هذا، ولكن صوتاً بعينه كان مختلفاً، كان صوتاً مشوهاً، غنائياً، صوتاً يشبه الصوت في تلك اللعبة التي يلعبها أحياناً مع هاربيت في بركة السباحة إذ يتناوبان على قول جمل تحت الماء ويحاول كل منهما فهم ما يقوله الآخر. في الوقت نفسه، كان منتبهاً إلى صوت احتكاك آتٍ من صندوق الأفاعي، صوت واهٍ ظن أنه يتخيله، فتح عينيهِ. ضمن الحيز الضيق الباقي بين الكنبه والسجادة وبرائحة كريهة، وجد نفسه ينظر إلى ثمانية إنشآت من بطن الأفعى ملتصقة بالشبك المعدني التصاقاً غريباً. كان بطن الأفعى يهتز أماماً وخلفاً كأنه نهاية مجسّ واحدٍ من تلك المخلوقات البحرية، كأنه ماسحة زجاج في سيارة... أدرك هيلي مسحوراً أن الأفعى تحك بطنها.

انطفأ مصباح الغرفة وابتعدت الخطوات وابتعدت الأصوات ولم يبقَ أي شيء غير صوت احتكاك بطن الحية في الشبك المعدني.

كان هيلي متيبساً، ويداه بين ركبتيه، كان يحدق في الظلمة يائساً، لا يزال بطن الحية مرئياً، أو شبه مرئي عبر الشبك المعدني، ماذا إن اضطر إلى البقاء هنا طيلة الليل؟ راحت أفكاره تتطاير في كل اتجاه، تتطاير يائسة في اضطراب شديد فشعر بالغثيان، قال لنفسه: تذكر طريق الخروج! كان هذا ما يقول كتاب «دليل الصحة» إن ما عليه فعله في حالة الحريق أو في حالة طوارئ، ولكنه لم يكن منتبهاً جيداً... المخارج التي يتذكرها لا فائدة منها الآن: الباب الخلفي الذي لا سبيل إلى الوصول إليه، والسلم الداخلي الذي فيه باب عليه قفل معلق، ونافذة الحمام: نعم، هذا مخرج محتمل، ولكن الدخول من تلك النافذة كان شديد الصعوبة، فكيف تكون محاولة الخروج منها في الظلام من غير أن يسمعه أحد؟

ولأول مرة، تذكر هاربيت، أين هي الآن؟ حاول التفكير في ما يمكن أن تفعله هاربيت إن كانت مكانه. هل يمكن أن تفكر في الاستعانة بشخص آخر؟ في ظرف غير هذا، سيفضل هيلي أن تضع على ظهره جمرات مشتعلة على أن تتصل بوالده. أما الآن، فهو غير قادر على رؤية بديل آخر إلا الموت، كان والد هيلي بديناً قليلاً، وبدأ الصلع يغزو رأسه، ولم يكن ضخماً ولا صاحب هيبة. يمكن القول إن طول قامته أقل قليلاً من متوسط، ولكن السنوات التي أمضاها مدير مدرسة أكسبته تلك النظرة التي هي

نظرة السلطة نفسها وأكسبته تلك القدرة الحجرية على إطالة صمته إلى أن يتلعثم أمامه رجال كبار.

هاربيت! تخيل صورة هاتف غرفة نوم والديه، ذلك الهاتف الذي على هيئة أميرة بيضاء. لو علم والد هيلي بما جرى، لكان قد أتى مباشرة من غير أي خشية، ولكان قد شده من كتفه فأنهضه عن الأرض وجرّه خلفه إلى السيارة كي يضربه ثم يلقي عليه في طريق العودة إلى البيت محاضرة طويلة تجعل أذني هيلي تؤلمانه، في حين يظل الواعظ حائرًا بين أفاعيه ولا يجد شيئًا يقوله سوى غمغمة كلمات مثل: «نعم، يا سيدي!» و«شكرًا يا سيدي!»... ولن يدرك ما حل به.

آلمته رقبته، صار غير قادر على سماع أي شيء، ولا حتى أصوات الأفاعي، تبادر إلى ذهنه فجأة أن هاربيت يمكن أن تكون قد ماتت: خُنقت، أو أُطلقت عليها النار، أو صدمتها سيارة الواعظ ثم دهستها.

لا يعلم أحد مكاني! تشنج في ساقيه؛ فردهما قليلًا... لا أحد، لا أحد، لا أحد.

موجة من وخزات الدبابيس انتشرت في ربلي ساقيه، ظل بضع دقائق يرقد في سكون تام، وكان متوترًا في انتظار أن يأتي الواعظ في أي لحظة وينقض عليه. آخر الأمر، عندما لم يحدث شيء، انقلب هيلي على ظهره، جرى الدم في أطرافه المتيبسة، حرك أصابع قدميه وأدار رأسه إلى هذا الجانب ثم إلى ذلك الجانب، ثم انتظر، ثم... عندما لم يعد يطيق انتظارًا، أخرج رأسه من تحت الكنبه.

كانت الصناديق متألئة في الظلمة، رقعة مستطيلة مائلة من ضوء كان ساقطاً على السجادة الرمادية آتياً من جهة الباب، ومن خلف ذلك الباب، غرفة ذات لون أصفر متسخ ينيرها إنارة ساطعة مصباح معلق في سقفها، رأى هيلي ذلك عندما رفع نفسه قليلاً على مرفقيه، سمع صوتاً ريفياً حاد النبرة ماضياً في كلامه... كلام سريع وغير واضح.

قاطعه صوت هادر: «يسوع لم يفعل لي شيئاً، والقانون أيضاً لم يفعل لي شيئاً»، وبعد ذلك، على نحو مفاجئ جداً، أتى ظل ضخم فحجب الضياء عن الباب.

تشبث هيلي بالسجادة ورقد مشلولاً وحاول ألا يتنفس، ثم سمع الصوت الآخر متحدّثاً من جديد، كان صوتاً بعيداً، نكدًا: «هذه الأفاعي لا علاقة لها بالرب أبداً، كريهة فحسب».

أطلق الظل الواقف عند الباب ضحكة حادة غريبة، تجمد هيلي كله، إنه فاريش راتليف! من فتحة الباب، جالت عينه المصابة (عينه ذات اللون الشاحب كأنها عين سمكة مسلوقة) في ظلام الغرفة فبدت كأنها مصباح منارة بحرية.

«سأقول لك ما ينبغي فعله...»، شعر هيلي براحة غامرة عندما ابتعدت تلك الخطوات الثقيلة، سمع من الغرفة الأخرى صوت زقزقة... كأنه صوت فتح باب خزانة مطبخ، فتح عينيه آخر الأمر فوجد أن الظل لم يعد واقفاً بالباب.

«... ما عليك فعله، إن كنت سئمت حمل هذه الأفاعي أينما ذهبت، هو أن تأخذها إلى الغابة، وأن تفلتها وتطلق النار عليها، اقتلها كلها، أضرم بها نارا»، قال هذا بصوت عالٍ طغى على

صوت الواعظ، «ألق بها في النهر، لا يهمني، عندئذٍ، لن تكون لديك أي مشكلة».

صمت متوتر غاضب، سمع شخصاً آخر يقول: «تستطيع الأفاعي أن تسبح»، كان ذلك أيضاً صوت رجل أبيض، ولكنه أصغر سناً.

«لن تستطيع السباحة وهي في ذلك الصندوق اللعين، أليس كذلك؟»

صوت اصطدام كأن فاريش ارتطم بشيء، تابع كلامه بصوت مازح متقطع: «انظر، يا يوجين! إن كنت لا تريد العبث معها، فأنا لدي مسدس في السيارة، مقابل عشرة سنتات فقط، سأذهب الآن وأقتلها كلها».

غار قلب هيلي في صدره، هاربيت! أين أنت؟ هذان هما الرجلان اللذان قتلا شقيقها، وعندما يجدانه هنا (كان متأكداً من أنهما سيجدانه هنا) سيقتلانه أيضاً، ما السلاح الذي معه؟ كيف يدافع عن نفسه؟ كانت أفعى جديدة التصقت بالشبك المعدني إلى جانب الأفعى الأولى، وضعت خطمها تحت فك رفيقتها، كان مظهر الاثنتين مثل الأفعيين الملتفتين اللتين تكونان مرسومتين على المواد الطبية، لم ينتبه قط من قبل إلى بشاعة هذا الرمز الشائع، الرمز المطبوع بلون أحمر على مجموعة المغلفات التي عند أمه (مغلفات جمعية الرئة). غامت أفكاره، ومن غير أن يدرك تماماً ما يفعله، مد هيلي يده المرتعشة ورفع مزلاج صندوق الأفاعي الذي أمامه. قال في نفسه وهو ينقلب على ظهره وينظر إلى السقف المغلف بألواح الفوم: هكذا، هذا ما سيبطئهم. قد

يفلح في الفرار في خضم الفوضى التي ستبدأ الآن، وحتى إذا لدغته أفعى، فقد يفلح في الوصول إلى المستشفى. كانت واحدة من الأفاعي قد هاجمت يده عندما امتدت على القفل، هاجمتها عدة مرات، شعر بشيء دبق على يده.. سم؟ لقد حاولت الأفعى مهاجمته ورشته بسمها عبر الشبك المعدني، أسرع فمسح يده بينظلوله القصير على أمل ألا تكون فيها جروح أو خدوش لا يتذكرها.

مر بعض الوقت قبل أن تدرك الأفاعي أنها صارت طليقة. الاشتان اللتان كانتا ملتصقتين على الشبك المعدني، صارتا حرتين فوراً ولكنهما ظلتا بضع لحظات من غير أي حركة إلى أن بدأت الأفاعي الأخرى تمد رؤوسها من فوقهما كي ترى ما هو جارٍ، وفوراً (كأن إشارة قد أتمتها) أدركت أنها صارت حرة فانسابت مسرورة، ماضية في كل اتجاه.

سحب هيلي جسده المتعرق من تحت الكنبه وسار خافض الرأس فتجاوز الباب المفتوح مسرعاً وعبر بقعة الضوء المنسكبة من الغرفة المجاورة، على الرغم من شدة توتره، لم يجروء على النظر داخل الغرفة بل ظل خافضاً عينيه خشية أن ينتبهوا إلى أن ثمة من ينظر إليهم.

بعد أن تجاوز الباب بسلام، لاذ بظلال الجدار المقابل وقد أرهقه خفقان قلبه العنيف وهزه هزاً، لم تكن لديه أي أفكار، وإذا قرر واحد ممن في تلك الغرفة أن ينهض من جديد ويأتي ويضيء المصباح في هذه الغرفة، فسوف يراه فوراً. سوف يراه عاجزاً عديم الحول ملتصقاً بهذا الجدار المصنوع من ألواح مؤقتة.

هل أقدم فعلاً على إطلاق سراح هذه الأفاعي؟ من حيث كان واقفاً، رأى اثنتين منها راقدتين على الأرض المكشوفة، ورأى أخرى ماضية صوب الضوء بحركة نشطة سريعة. قبل لحظة واحدة فقط، بدت له هذه الفكرة حسنة، ولكنه صار الآن نادماً أشد الندم: يا ربي، أرجوك يا ربي، لا تدعها تأتي إلي! كانت على ظهور الأفاعي نقوش تشبه النقوش التي على الأفاعي نحاسية الرأس، ولكنها أشد حدة، وعلى ظهر الأفاعي النشيطة الماضية سريعاً صوب الغرفة الأخرى، رأى صفّاً من الحلقات عند ذيلها. ولكن الأفاعي التي لا يراها هي التي جعلته متوتراً، على أقل تقدير، كان في ذلك الصندوق خمس أو ست أفاعٍ... ربما أكثر من ذلك، فأين هي الآن؟

النوافذ الأمامية مطلة على الشارع مباشرة، والحمام أمله الوحيد. إذا خرج إلى السطح؛ ففي وسعه أن يتدلى من الإفريز ثم يترك نفسه يسقط بقية المسافة، لقد قفز فيما مضى من أغصان أشجار يكاد ارتفاعها يعادل هذا الارتفاع.

أسقط في يده عندما لم يجد باب الحمام، حيث توقع أن يكون، فتقدم ملتصقاً بالجدار، تقدم أكثر مما يجب أن يتقدم لأنه صار قريباً من المكان الذي أطلق فيه سراح تلك الأفاعي، ولكن ما ظنه باباً لم يكن باباً إطلاقاً بل لوحاً خشبياً مسنداً إلى الجدار.

حار هيلي في أمره، فقد كان باب الحمام إلى جهة اليسار، ولا شك لديه في هذا، وقف يفكر إن كان عليه أن يتابع تقدمه أو يعود أدراجه عندما انتفض قلبه متألماً لإدراكه أن ذلك الباب الواقع إلى جهة اليسار كان في الغرفة الأخرى.

صعقه هذا الاكتشاف فلم يستطع حراكًا، مرت لحظة شعر فيها أن الغرفة كلها قد ابتعدت عنه (مسافات كبيرة، وجدران من غير صوت، وحدقات عيون غاب عنها النظر)، وعندما اندفعت الغرفة عائدة إليه، ظل لحظة قبل أن يدرك أين هو. أسند رأسه إلى الجدار وراح يهزه أمامًا وخلفًا. كيف استطاع أن يكون غيبًا هكذا؟ على الدوام، لديه مشكلة في الاتجاهات... يخلط بين اليمين واليسار... تتبادل الحروف والأرقام مواضعها لحظة يحول عينه عن الصفحة، ثم تنظر إليه ضاحكة من أماكنها الجديدة، بل إن الأمر يبلغ به أحيانًا أن يجلس في المدرسة على مقعد غير مقعده من غير أن ينتبه. مهمل! مهمل! كتابة بحبر أحمر على سجله المدرسي وعلى اختبارات الرياضيات وواجباته البيتية التي يكتبها كيفما اتفق. مكتبة سُرْمَن قرأ

فوجئت هارييت عندما صار الممر أمام البيت مضاء كله. ارتمت على الأرض وتدحرجت حتى صارت تحت البيت واصطدمت بصندوق الكوبرا التي استجابت بانتفاضة غاضبة. قفقة على الحصى، وقبل أن تستطيع التقاط أنفاسها، مرت عجلات السيارة على مسافة بضعة أقدام قبالة وجهها آتية بهبة ريح وضياء مزرق سرى بين الأعشاب الفقيرة.

كان وجه هارييت ملتصقًا بالغبار الناعم الذي على الأرض، شمت رائحة قوية مقرزة، رائحة شيء ميت. بيوت ألكساندريا كلها مرتفعة قليلًا عن الأرض خوفًا من الفيضانات، ولكن علو هذا البيت لم يكن يتجاوز قدمًا واحدة... مكان ضيق كأنه قبر.

كانت الكوبرا (التي لم تسرها رحلة نزول السلم ولم يمتعها انقلاب صندوقها) تضرب جدار الصندوق، تنقره نقرات جافة عجولة شعرت بها هاربيت عبر الخشب، ولكن الغبار كان أسوأ من الأفعى وأسوأ من رائحة الجرد الميت لأنه دغدغ أنفها دغدغة غير محتملة، أدارت رأسها، شريط من ضوء أحمر صادر عن مؤخرة السيارة امتد من تحت البيت فأثار خطوطاً رسمتها ديدان الأرض، وتلألأ ترابية صنعها الرمل، وشظية زجاج متسخة. ثم ساد الظلام كل شيء، وسمعت صوت إغلاق باب السيارة. قال صوت خشن ليس صوت الواعظ: «وذلك ما أشعل النار في السيارة»، فقلت له: «لا بأس، كانوا قد ألقوني على الأرض في الخارج، أنا صادق معك يا سيدي، وفي وسعك أن تأخذني إلى السجن فوراً، لكن هذا الرجل لديه مذكرة توقيف صادرة في حقه، مذكرة طويلة بطول ذراعك»، «هال»، ما كان منه إلا أن جرى هارباً.

«أظن أن هذا كل ما حدث حينها».

أصدر صوت ضحكة غير لطيف، ثم قال: «أنت محق».

كانت الأقدام متجهة نحوها، حبست هاربيت أنفاسها وقاومت حاجتها الشديدة إلى العطاس، ضغطت بيدها على فمها وأغلقت أنفها بإصبعيها، ثم سمعت صوت الخطوات تصعد السلم، شيء وخزها عند كاحلها، وخزها متردداً، ثم لم يجد مقاومة، فازدادت وخزاته عمقاً، في حين كانت حاجة هاربيت الملحة إلى صفع ذلك الشيء وإبعاده عنها تهزها من رأسها حتى قدميها، لسعة أخرى، على ريلة ساقها هذه المرة، لسعات نمل، ممتاز!

كان الصوت الخشن يقول: «وعندما عاد إلى البيت، راح كل من فيه يحاول جعله يحكي القصة الحقيقية»، ولكن ذلك الصوت صار الآن أقل ارتفاعاً، وصار بعيداً عنها.

صمتت الأصوات، وفي الأعلى، كان كل شيء هادئاً، ولكنها لم تسمع صوت فتح الباب، فتوقعت ألا يكون الاثنان قد دخلا، وأنهما ظلا واقفين على فسحة السلم في الأعلى يراقبان، ظلت متجمدة حيث هي، وأصاحت السمع، وركزت انتباهها كله.

مرت الدقائق، وراحت النملات تقرر ذراعيتها وساقيتها بعزيمة أكبر وبأعداد أكبر، وظهرها لا يزال مضغوطاً إلى الصندوق، ومن حين إلى آخر عبر جداره الخشبي، كانت الكوبرا تضرب عمودها الفقري، في ذلك الهدوء الخانق، تخيلت أنها تسمع أصواتا، أنها تسمع خطوات، ولكنها ركزت انتباهها كي تتبين ما تسمعه، لكن الأصوات خفتت، ثم تلاشت مختفية في العدم.

ظلت راقدة على جنبها، متجمدة لشدة خوفها، وظلت ترقب الممر المظلم، فكم من الوقت سيكون عليها أن تظل مستلقية هنا؟ إذا بحثا عنها، فلن يكون أمامها من خيار غير أن تزحف إلى مكان أعمق تحت البيت، وهناك، لا أهمية للساعات النمل؛ إذ تقيم الدبابير أعشاشها تحت البيوت، وكذلك يفعل الظريان، وكذلك تفعل العناكب، وكذلك تفعل أنواع الزواحف والقوارض، تجرجر القطط المريضة وحيوانات البوسوم الكلبة أنفسها كي تموت هناك، ورجل من السود اسمه سام بيبوس يعمل في إصلاح الأفران في بيوت الناس، ظهر منذ آونة على صدر الصحيفة عندما عثر على جمجمة بشرية تحت مبنى «مارسيليز» الذي هو

إرسالية إحيائية يونانية واقعة في شارع مين، ولا تبعد أكثر من
بضع كتل سكنية.

وعلى حين غرة، ظهر القمر خلف الغيوم فأسبغ ضياءه الفضّي
على الأعشاب النامية عند حواف البيت، فتجاهلت قرصات النمل
ورفعت خدها عن التراب وأصغت جيداً، أنصال العشب الطويلة
التي ابيضت حوافها في ضوء القمر، كانت تتمايل على مستوى
عينها، ثم تتحني مع النسيم فتلامس الأرض لحظة واحدة قبل
أن تتصب واقفة من جديد، تتصب شعثاً غاضبة. انتظرت،
وفي نهاية المطاف بعد صمت طويل، حبست أنفاسها، زحفت
على مرفقيها إلى أن أخرجت رأسها من تحت البيت.

همست: «هيلي!»، كان الفناء صامتاً صمت الموت، والأعشاب
على هيئة سنابل القمح الخضراء نامية من بين الحجارة الصغيرة
اللامعة في الممر، وفي آخر ذلك الممر، رأت الشاحنة الصغيرة،
رأتها عالية، كبيرة جداً، رأتها صامتة وداكنة، ومؤخرتها في
اتجاهها.

صفرت هاربيت، ثم انتظرت، وأخيراً بعد زمن بدا لها طويلاً،
زحفت خارجة ومشّت على قدميها، شيء كأنه يرقّة حشرة كان
عالقاً على خدها، فنفضت ذلك الشيء عنها بيد مغبّرة، ثم
نفضت النملات عن ساقها وذراعيها، فساقت الريح سحابات
بنية خفيفة مثل أبخرة البنزين فمرت بالقمر، ثم انجلت كلها،
ففرق الفناء في ضياء رمادي صافٍ.

أسرعت هاربيت وعادت إلى الظلال اللصيقة بالبيت، وكان
المرج الخالي من الأشجار مضاءً كأن الوقت نهار، ولأول مرة،
انتبهت إلى أنها لم تسمع هيلي نازلاً السلم.

مدت رأسها ونظرت خلف الزاوية؛ في فناء البيت المجاور، كانت ظلال أوراق الأشجار مترجرجة على العشب، الفناء كله خاليًا تمامًا، وقلقلها في تزايد، فسارت على طول ضلع البيت الجانبي، ووصلت إلى سياج شبكي، فوجدت نفسها تنظر إلى سكون فناء بيت آخر فيه بركة سباحة للأطفال الصغار جاثمة هناك وحدها، ومن حولها أعشاب ينيرها ضوء القمر.

في الظلال، ظهرها إلى الجدار، دارت هاربيت حول البيت كله، لكنها لم تجد أثرًا لهيلي؛ الاحتمال الأرجح أنه عاد إلى بيته وتركها هنا، سارت على العشب بخطوات مترددة، ورفعت رأسها كي تنظر إلى الطابق الثاني: فسحة السلم خالية، ونافذة الحمام لا تزال مفتوحة جزئيًا ولكنها معتمة، وفي الطابق الثاني نور وحركة وأصوات غامضة لا تستطيع تمييزها، استجمعت هاربيت شجاعته وجرت لتعبر الشارع ذا الإضاءة الشديدة، فبلغت الشجيرات التي تركا الدراجتين تحتها، قفز قلبها في صدرها عندما توقفت فجأة غير قادرة على تصديق ما رأت؛ فتحت الأغصان المزدانة بزهور بيضاء، كانت الدراجتان مضطجعتين على جنبيهما ولم تمتد إليهما يد.

تجمدت مكانها لحظة، ثم استجمعت شتات نفسها ودارت حتى صارت خلف الشجيرات وجثت على ركبتها، كانت دراجة هيلي غالية الثمن وجديدة، وكان شديد الاهتمام بها إلى حد سخي، دفنت رأسها بين يديها وحدقت في تلك الدراجة محاولة ألا تستسلم للذعر، ثم باعدت بين الأغصان ونظرت عبر الشارع إلى الطابق الثاني المنار.

هدوء البيت ونوافذ الطابق الثاني اللامعة لمعانًا غريبًا، جعلتها تشعر بخوف عظيم، وعلى الفور، جثم ثقل اللحظة عليها؛ هيلي لا يزال محصورًا هناك، كانت متأكدة من هذا، وعليها أن تساعد، لكنها وحيدة ولا وقت لديها، ظلت بضع لحظات جالسة مكانها، والدوار في رأسها، تنظر حولها، وتحاول تقرير ما ينبغي فعله، لديها نافذة الحمام العالية لا تزال مفتوحة قليلًا، ولكن ما نفع ذلك؟ في كتاب «فضيحة في بوهيميا»، رمى شارلوك هولمز على النافذة قنبلة دخان كي يستطيع إخراج إيرين آدلر من البيت، فكرة جميلة! ولكن هارييت لا تملك قنبلة دخان ولا أي شيء عدا العصي والحجارة.

ظلت جالسة تفكر، ثم جرت تحت ضياء القمر العالي الوضاء، فعبرت الشارع من جديد متجهة إلى البيت المجاور، إلى الفناء الذي احتميا فيه تحت شجرة التين، تذكرت أنها رأت تحت مجموعة من أشجار البيكانيكا حوضًا فيه بعض النباتات التي تنمو في الظل، وكانت حول ذلك الحوض دائرة من حجارة بيضاء. جثت على ركبتيها وحاولت حمل إحدى تلك الحجارة، ولكنها كانت مثبتة بالأسمنت. بصوت خافت آتٍ من الداخل من خلف نافذة جانبية فيها مكيف هادر ينفث الهواء الحار إلى الخارج، صدر صوت نباح كلب لا ينقطع، ومثلما يفعل الراكون عندما يبحث عن الأسماك في قاع جدول، دفعت بيديها بين النباتات التي أمامها، وراحت تتحسس الأرض تحسسًا أعمى إلى أن صادفت أصابعها كتلة أسمنتية ثقيلة، حملت الكتلة بيديها الاثنتين، والكلب ما زال ينبح، ثم صاح صوت قبيح حاد ذو نبرة شمالية: «بانتشوا!»؛ إنه

صوت امرأة عجوز خشن كحجر الشحذ، وقد بدا لها أنه صوت امرأة مريضة... «أطبق فمك!»

جرت هاربيت عائدة إلى الممر أمام البيت منحنية الظهر لتقل الحجر بين يديها، فرأت سيارتين متوقفتين هناك عند أول الممر من جهة الشارع؛ سيارة من ولاية ميسيسيبي في مقاطعة ألكساندريا، ولكن لوحة تسجيل السيارة الأخرى كانت من كنتاكي. وقفت هاربيت هناك والحجر الثقيل بين يديها، وتمهلت لحظة كي تحفظ رقمي السيارتين، لم يفطن أحد إلى الانتباه إلى الأرقام عندما قُتل روبين!

أسرعت ووقفت خلف السيارة الأولى؛ سيارة كنتاكي، ثم رفعت كتلة الأسمنت (لاحظت الآن أنها ليست كتلة أسمنت عادية، بل كانت حجرًا تزيينياً للمرج على هيئة قطعة متكورة على نفسها) وضربت بها المصباح الأمامي.

انكسر المصباح مطلقاً صوتاً انفجارياً خفيضاً، كان ذلك سهلاً، وكان الانفجار أشبه بانفجار مصباح عادي، فركضت عائدة إلى السيارة الخلفية، وحطمت مصابيحها كلها الأمامية والخلفية أيضاً، وعلى الرغم من رغبتها في تحطيم كل شيء، فقد تمكنت من إيقاف نفسها؛ خشيت أن ينبه الصوت الجيران، ثم إن الأمر لم يكن بحاجة إلى أكثر من ضربة واحدة قوية (كمن يكسر بيضة)، تناثرت الشظايا في كل اتجاه، وسقطت على حجارة الممر مثلثات كبيرة من الزجاج.

جمعت أكبر تلك الشظايا الزجاجية وغرزتها في أخايد العجلتين الخلفيتين، غرزتها بأقوى ما استطاعت من غير أن تجرح

يديها، ثم ذهبت إلى مقدمة السيارة وكررت الأمر نفسه، قلبها يخفق بشدة، فاستنشقت نفساً عميقاً، ثم استجمعت قواها كلها ورفعت الحجر بيديها الاثنتين، ووقفت رافعة القطعة الأسمنتية إلى أعلى ما استطاعت، ثم قذفت بها صوب زجاج السيارة الأمامي. تحطم الزجاج، فتدفق شلال من حبيبات زجاجية داخل السيارة، في الناحية الأخرى من الشارع، أُضيء مصباح إحدى الشرفات، ثم تبعه مصباح آخر في بيت مجاور، ولكن الممر الفارق في ضوء القمر، والمتألئ بشظايا الزجاج المكسور، كان الآن خالياً؛ لأن هارييت قد بلغت منتصف السلم.

«ما هذا الصوت؟»

صمت...

ثم ويا لذعر هيلي! مئة وخمسون واطاً من الكهرباء البيضاء الساطعة انسكبت عليه من المصباح الذي في السقف، فأعماه الضياء المتوهج، والتصق مذعوراً باللوح الخشبي المستند إلى الجدار، التصق به حتى قبل أن تفلح عيناه في رؤية شيء (كان على السجادة عدد رهيب من الأفاعي)، سمع أحدهم يطلق شتيمة، ثم عاد السواد من جديد.

جسد ضخم عبر الباب إلى الغرفة المظلمة، وبخطوات رشيقة بالمقارنة مع حجمه، مر بجانب هيلي ماضياً إلى النوافذ الأمامية.

تجمد هيلي، وأحس أن دمه قد غاض من رأسه وصار كله عند قدميه، لكن هرجاً ومرجاً دباً في الغرفة الأخرى قبل أن تبدأ الغرفة المظلمة بالتأرجح جيئة وذهاباً، هناك كلام مستثار غير

مسموع جيداً، وصوت انزلاق كرسي، قال أحدهم بصوت واضح:
«لا، لا تفعل».

همسات محمومة، وفي الظلام على مسافة أقدام معدودة
منه، كان فاريش راتليف واقفاً في الظلال، مُصغياً من غير حركة،
ورافعاً ذقنه، ومباعدًا بين ساقيه القصيرتين، كأنه دب متأهب
للهجوم!

وفي الغرفة الأخرى، انفتح الباب مزقزقاً، وقال واحد من
الذين فيها: «فاريش»، ثم فوجئ هيلي لسماعه صوت طفلة؛
صوتاً شاكياً متقطع الأنفاس بعيداً.

أجابه فاريش بنبرة حادة: «من هذا؟»، وكان قربه مخيفاً.
جلبة في الخارج، استتشق فاريش نفساً طويلاً، ثم استدار
على عقبيه ومضى إلى الغرفة الأخرى مسرعاً، كأنه ماضٍ إلى
خفق أحدهم.

تتحنح رجل ثم قال: «فاريش، انظر هنا».

ثم أتى ذلك الصوت الجديد، الصوت الطفولي، كان صوتاً
ريفيًا شاكياً، ولكن هيلي انتبه إلى أن نبرة الشكوى في ذلك
الصوت كان مبالغاً فيها، فشعر بموجة أمل يصعب تصديقه.
«فاريش، تقول إن السيارة...».

صاح الصوت الصغير: «لقد كسر نافذة سيارتكم، إذا
أسرعتم...».

صدر صوت حركة شديدة في الغرفة قطعه خوار شديد كافٍ
لأن يهدم جدران البيت كله!

قالت هارييت وقد تخلت عن اللكنة المصطنعة وعادت إلى صوتها العالي المتحذلق: «إذا أسرعتم، ففي وسعكم أن تُمسِكوا به»، كان هذا صوتها الحقيقي، ولكنَّ الظاهر أن أحدًا لن ينتبه إليه في زحمة الشتائم واللعنات! ثم صدر صوت أقدام تجري على السلم الخلفي.

صاح أحدهم من الخارج: «اللعنة على هذا!»

وفي الأسفل، انطلقت موجة صاخبة من صياح وشتائم، فاقترب هيلي من الباب بخطوات حذرة، ووقف مصغيًا بضع لحظات. كان تركيزه على الأصوات التي يسمعها شديدًا، فلم ينتبه في تلك الإنارة الضعيفة إلى أفعى صغيرة ذات جرس ملتفة على نفسها استعدادًا للهجوم، أفعى لا تبعد عن قدمه أكثر من اثني عشر إنشًا.

وأخيرًا همس: «هارييت!» (أو حاول أن يهمس، فقد كاد يفقد صوته كله)، ولأول مرة، أدرك كم كان ظمؤه رهيبًا. ومن الأسفل، من الممر، أتت صيحات مضطربة، وصوت قبضة تضرب على المعدن على جسم السيارة ضربات متكررة، وكان صوتها مفرغًا مثله، ومثل ذلك الصوت الذي كان يصدره حوض الاستحمام المعدني الذي يستخدمونه في المسرحيات المدرسية لتقليد صوت الرعد.

مد رأسه من باب الغرفة بحذر شديد، ونظر حوله، كانت الكراسي مدفوعة في كل اتجاه، على الطاولة كؤوس فيها قطع جليد تذوب، ومن حولها حلقات متصلة من الماء ومنفضة سجائر وعلبتا سجائر. كان الباب المفضي إلى السلم الخارجي مواربًا،

وكانت حية صغيرة أخرى قد زحفت إلى الغرفة ورقدت تحت مشع التدفئة العمودي، لكن هيلي كان قد نسي أمر الأفاعي كله، ومن غير أن يضيع أي لحظة أخرى، ومن غير حتى أن ينظر إلى موضع قدميه، جرى صوب الباب الخلفي.

وقف الواعظ على الرصيف، مكتفياً ذراعيه أمام صدره، ينظر إلى البعيد كأنه ينتظر وصول قطار. لم يكن الجانب المشوه من وجهه من ناحية هاربيت، ومع ذلك بدا مظهره الجانبي مخيفاً، لا سيما مع عادته المقرزة: إخراج طرف لسانه بين شفثيه من حين إلى آخر. وقفت هاربيت بعيدة عنه قدر الإمكان، وأدارت وجهها بحيث لا يتمكن من رؤيتها جيداً، ولا يلحظها الآخرون أيضاً (الذين كانوا واقفين في الممر، ويطلقون الشتائم). شعرت برغبة شديدة في الفرار بعيداً عن هذا كله، بل كادت تفعل، لكن الواعظ ترك الضجيج وبدأ يتبعها. لم تكن متأكدة إن كانت قادرة على تجاوزه ركضاً. حين عادت إلى الأعلى، حاولت تفحص أرجاء الغرفة، حيث كان الرجال يقفون عند المدخل المضاء. بدت هيئاتهم ضخمة، ووجوههم أحرقها الشمس، وعليها ندوب ووشوم وزيت، بأعين حجرية فاتحة اللون محمقة إليها. كان أقذرهم وأضخمهم جميعاً رجل ملتج له شعر أسود كثيف وعين بيضاء مخيفة شبيهة بعين بيو الأعمى في «جزيرة الكنز». هوى بقبضته على إطار الباب، مطلقاً سيلاً من الشتائم الحادة بصوت جهوري مخيف، جعل هاربيت تتراجع مصدومة. كان شعره المتموج الموشح بخطوط الشيب يتطاير في الهواء، وراح يسحق بقايا مصباح سيارته الخلفي بضربات متكررة من حذائه. بجذعه

القوي وساقيه القصيرتين، بدا كأنه نسخة شريرة من «الأسد الخجول».

قال الواعظ وهو يدير وجهه وندبته نحوها كي ينظر إليها:
«هل قلت إنهم كانوا بلا سيارة؟»

هزت هاربيت رأسها نفياً وبقيت عيناها مثبتتين على الأرض. على مقربة، كانت الجارة صاحبة كلب التشيواوا تعود نحو منزلها، ترتدي قميص نوم بلا أكمام وصندلاً خفيفاً مخصصاً للمساج. حول معصمها سوار بلاستيكي وردي يُشبه ما يُوضع في معاصم المرضى. كانت قد خرجت وهي تحمل كلبها وسجائرهما مع قداحة محفوظة في علبة أنيقة من الجلد المشغول. توقفت عند طرف الفناء، تتأمل المشهد الدائر، فيما كان كلبها يواصل نباحه بصخب. بدا كأنه يحدق إلى عيني هاربيت بتركيز لا ينقصه الغضب، كما لو أن أمنيته الوحيدة في العالم أن يهرب من قبضة سيدته ويهاجم هاربيت ليُمزقها إرباً.

قال الواعظ: «هل كان من البيض؟»، كان مرتدياً سترة جلدية قصيرة من فوق قميصه الأبيض ذي الكمين القصيرين، وكان شعره الرمادي مردوداً إلى الخلف و متموّجاً: «أمتأكدة من هذا؟ أومأت هاربيت برأسها، وتصنعت الحياء، فأسدلت خصلة من شعرها لتخفي وجهها.

«أنت باقية في الخارج حتى ساعة متأخرة من هذا المساء، ألم أرك اليوم في الساحة؟»

هزّت هاربيت رأسها نفياً مجدداً، ثم استدارت ونظرت نحو البيت، فرأت هيلي ممتقع الوجه شاحباً كملاءة سرير. كان يهبط

درجات السلم بخطى متسارعة، وعندما وصل إلى الأرض، تابع ركضه من دون أن يلتفت إلى أحد، لا إلى هاربيت ولا إلى غيرها. ووسط اندفاعه، اصطدم بالرجل ذي العين الواحدة، الذي كان يدمدم بكلمات مبهمّة وسط لحيته الكثيفة، ويسير بخطوات واسعة، ورأسه منخفض نحو البيت.

تراجع هيلي مترنحًا، مطلقًا صرخة بائسة مذعورة، فيما واصل فاريش سيره متجاوزًا إياه وصاعدًا السلم. كان يهز رأسه ويتحدث بصوت غاضب متقطع: «من الأفضل لك ألا تحاول هذا، من الأفضل...»، كأن مخلوقًا غير مرئي يتبعه على مسافة ثلاثة أقدام. وفجأة، ارتفعت يده لتصفع الهواء بعنف، كأنها ارتطمت بشيء حقيقي، شيطان أحذب كان يلاحقه.

اختفى هيلي عن الأنظار، وفجأة وقع ظل فوق هاربيت: «من أنت؟»

ارتجفت هاربيت بشدة، ورفعت رأسها لترى داني راتليف يحرق إليها من الأعلى.

قال وهو يزيح الشعر عن وجهه ويضع يديه على خصره: «هل صادفتِ الأمر؟ وأين كنتِ عندما كان زجاج السيارات يُحطم؟»، ثم التفت إلى شقيقه: «من أين أتت هذه؟»

رفعت هاربيت رأسها، مذهولة، لتكتشف من ارتجاف أنفه المفاجئ أن وجهها قد أفصح عن نفورها منه.

صرخ بها: «لا تنظري إليّ هكذا!»، وعلى هذه المسافة القريبة لاحظت أنه نحيل، وأسمر كذئب بري. كان يرتدي بنطلون جينز وقميصًا طويل الأكمام تفوح منه رائحة كريهة. عيناه الضيقتان،

شبه المختلفيتين تحت حاجبيه؛ الكثيفين، كانت لئيمتين ومتباعدين قليلاً، مما زاد من اضطرابها: «ما قصتك؟»

قال الواعظ الذي بدا شديد التوتر وهو يتلفت يميناً ويساراً، طاوياً ذراعيه على صدره وداساً كفيه تحت إبطيه: «لا تقلقي، نحن لن نعضك!»، قالها بنبرة حادة تحاول أن تكون مطمئنة لكنها زادت من قلقها.

وعلى الرغم من شدة الخوف الذي سيطر عليها، لاحظت الوشم الأزرق الملتوي على ذراعه. تساءلت: أي واعظ يكون هذا الذي يحمل وشوماً كهذه؟

قال لها الواعظ بصوت مريح إلى حدٍّ ما: «ما بك؟ هل أخافك وجهي؟»، ودون مقدمات، أمسك بكففيها وقرب وجهه من وجهها بطريقة توحى بأن مظهره قد خُلق ليُرهّب من يراه.

تجمدت هاربيت في مكانها، وكان أثر يديه على كتفيها أشد وقعاً فيها من نظراته المشتعلة (عيناه الزجاجيتان المحمرتان تلمعان بوهج دموي فجّ). انبعث من عينيه إشعاع غريب كأنهما مصنوعتان من زجاج أزرق مشع. أطلق قبضته عنها فجأة، وكأنه يستعد لصفعها، لكنّ عينيه تالأتا عندما لمح الفزع في وجهها، فقال بلهجة منتصرة: «أها!». داعبت إصبعه خدها بخفة؛ ما أشعل غضبها، وعندما مرّت يده أمام وجهها، اكتشفت شيئاً غير متوقع؛ شريحة علكة مطوية بين سبابته والوسطى.

قال داني: «لا كلام لديك الآن، أليس كذلك؟ قبل دقيقة واحدة فقط، كان كلامك كثيراً كثيراً في الأعلى!»

أمعنت هاربيت في يديه؛ بدتا نحيلتين بمظهر صبياني، لكنهما كانتا مليئتين بالندوب، وأطراف أظافرهما المقضومة سوداء. تزين أصابعه خواتم كبيرة قبيحة (واحدة على شكل جمجمة فضية، وأخرى تحمل شعارًا للدراجات النارية)، مثل تلك التي يرتديها نجوم الروك.

«أيًا يكن من قام بهذا الفعل، فقد هرب بسرعة بالتأكيد».

رفعت هاربيت رأسها وألقت نظرة خاطفة على وجهه، يصعب تخمين ما يفكر فيه. كان يحدق إلى الشارع يمينًا ويسارًا، وعيناه تتفافزان بقلق ونزق، مثل تلميذ مؤذٍ يتأكد من أن المعلمة لا تراقبه قبل أن يهاجم أحد زملائه!

ما زالت العلكة متدلية أمام وجهها، فسألها الواعظ: «ألا تريدونها؟»

«كلا، شكرًا»، لكنها ندمت فور خروج الكلمات من فمها.

سألها داني راتليف فجأة، متقدمًا نحوها كأنها أهانتة: «وماذا تفعلين هنا بحق الجحيم؟! ما اسمك؟»

همست هاربيت: «ميري!»، وارتجف قلبها؛ لقد كان اختيار الاسم فكرة سيئة. كان شعرها متشابكًا بأوراق الشجر، وذراعاها وساقاها متسختين بالتراب، فمن ذا الذي سيصدق أنها فتاة ريفية؟ بالتأكيد لا أحد على الإطلاق.

«هووو!»، أطلق داني راتليف قهقهة حادة وعالية أفزعته... «لا أسمعك»، بصوت سريع بالكاد حرك فيه شفثيه «ارفعي صوتك». «اسمي ميري».

كان حذاؤه ضخماً ومخيفاً، عليه بكلات كثيرة: «قولي يا ميري، ميري ماذا؟ من أهلك؟»

نسمة ريح مرتعشة بين الأشجار، وظلال الأوراق مترقصة على الرصيف تحت ضوء القمر.

أجابته هاربيت بصوت خافت: «ميري جونسد... جونسون»، وقالت في نفسها: ماذا بي! ألا أستطيع أن أكون أفضل من هذا؟ قال الواعظ: «جونسون! أي جونسون؟»

قال داني: «غريب! مظهرك يوحي بأنك من عائلة أودوم» وفكه يتحرك بخفة كأنه يعض باطن خده «كيف تخرجين وحدك في هذا الوقت؟ ألم أرك عند صالة البلياردو؟»

«أمي...»، ابتلعت هاربيت ريقها وقررت أن تبدأ من جديد: «أمي هي ليست...».

لحظت أن داني راتليف ينظر إلى حذائها الغالي الذي طلبته لها أيدي من متجر ل. ل. بين.

قالت بصوت خافت متردد: «أمي لا تسمح لي بالذهاب إلى هناك».

«ما اسم أمك؟»

قال الواعظ متلطفًا وهو يطوي ذراعيه على صدره: «زوجة أودوم ميتة».

قال داني: «لا أسألك أنت، أسألك هي» راح يقضم حافة ظفره ويحدق إلى هاربيت بعينين جامدتين جعلتاها تشعر بالضيق.

قال لشقيقه وهو يشير إليها بإيماء عصبية برأسه: «انظر إلى عينيها!»

بحركة لطيفة، انحنى الواعظ ونظر إلى عينيها: «نعم، بلا شك.. إنها خضراوان. من أين أتيت بهاتين العينين الخضراوين؟»

قال داني بصوته الحاد: «انظر إليها كيف تحقق إلى وجهي!»
انظر كيف تحقق! ما مشكلتك يا بنت؟»

كان كلب التشيواوا ما زال ينبح بلا توقف، ومن بعيد سمعت هاربيت صوتاً كأنه صافرة سيارة شرطة.. سمع الرجال الصوت أيضاً، فتجمدوا في أماكنهم! في تلك اللحظة، سُمعت صرخة مروعة آتية من الطابق العلوي.

تبادل داني وشقيقه نظرة خاطفة، ثم اندفع داني مسرعاً نحو السلم. مرّ يوجين يده على فمه وقد أعجزته الصدمة عن الحركة، ولم يستطع التفكير إلا في السيد دايال (إن لم يُفلح هذا الصراخ في استدعاء دايال والشرطة، فلن يُفلح أي شيء آخر). من خلفه، سمع صوت خطوات سريعة على الرصيف، فالتفت ورأى الفتاة تهرب.

صرخ بها: «يا بنت، أنتِ يا بنت!» وهمّ أن يلحق بها، لكن في تلك اللحظة، تحطمت نافذة في الطابق العلوي، وطارَت في الهواء أفعى بدا بياض بطنها واضحاً تحت السماء المظلمة. قفز يوجين متراجعاً.. أخرسته المفاجأة فلم يتمكن من الصراخ؛ كانت الأفعى مهشمة في وسطها، ورأسها كتلة مدماة، لكنها ظلت تتلوى وتتفض على العشب.

فاجأه صوت لويال ريزي من خلفه: «هذا لا يجوز!» وهو يحدق إلى الأفعى الميتة. لكن في اللحظة ذاتها، كان فاريش يهبط السلم بخطوات سريعة، بقبضتين مشدودتين والجريمة في عينيه، وقبل أن يفلح لويال في قول أي كلمة أخرى (الذي كان يرمش بعينه كطفل مذعور)، أداره فاريش وسدد إلى فمه لكمة جعلته يترنح.

زار بصوت غاضب: «لصالح من تعمل؟»

تراجع لويال وكاد يهوي على الأرض، فتح فمه النازف قليلاً، لكنه لم ينطق بأي كلمة لثوانٍ.

ألقى فاريش نظرة سريعة من فوق كتفه، ثم سدد إليه كلمة رمته أرضاً.

صرخ به: «من أرسلك؟»

امتلاً فم لويال دمًا، فأمسكه فاريش من ياقة قميصه وجذبه فأنهضه واقفاً على قدميه: «فكرة من هذه؟ أنت ودولفوس ظننتما أنكما تستطيعان العبث معي، وأن تكسبا مالاً سهلاً، ولكنكما تعبثان مع الشخص الخطأ».

صاح داني وهو يهبط السلم بسرعة، قافزاً درجتين درجتين، ووجهه شاحب كالطباشير: «فاريش، أليس مسدسك في السيارة؟» قال يوجين مذعوراً: «توقف، أنت لم تفهم الأمر!»، أتريدان إطلاق النار هنا، في مكان مستأجر من السيد دايال؟ أتريدان ترك جثة هنا؟ لوح بيديه في الهواء: «فليهدأ الجميع».

ألقى فاريش لويال أرضاً، وقال له مهدداً: «لدي الليل بطوله يا ابن الحرام! أتخونني؟ سأكسر أسنانك وأفتح فجوة في صدرك». أمسك داني بذراع فاريش: «اتركه يا فاريش! تعال معي؛ نحن بحاجة إلى المسدس في الطابق العلوي».

رفع لويال جسده قليلاً مستنداً إلى مرفقيه، وقال بصوت بريء مدهوش: «هل أفلتت الأفاعي؟»، كلمات جعلت فاريش يتوقف فجأة في مكانه.

تراجع داني متعثراً بحذاء الدراجة الآلية الذي ينتعله، ومسح
جبهته بذراعه المملخة. بدا في حالة صدمة شديدة، قال: «لقد
انتشرت في المكان كله».

بعد عشر دقائق، قال لويال وهو يمسح بظهر يده لعاباً مختلطاً
بالدم ينزف من فمه: «لا تزال هناك واحدة».

قال داني: «أشم رائحة غريبة في هذا المكان، أشبه برائحة
البول. ألا تشمها يا يوجين؟»

فجأة، صاح فاريش: «ها هي ذي!»، ثم اندفع نحو عداد ماء
التدفئة المعطل، حيث كان ذيل الأفعى يظهر خارجه مسافة ستة
إنشات.

اهتزّ الذيل مصدراً صوت خشخشة، ثم اختفى كله داخل
العداد.

قال لويال لفاريش الذي راح يضرب العداد بمقدمة حذائه:
«كفّ عن هذا!»، ثم اقترب بسرعة وانحنى فوق العداد دون خوف.
(تجمد يوجين وداني وحتى فاريش في أماكنهم وتراجعوا خطوة
إلى الخلف). ضم لويال شفثيه وأطلق صفيراً حاداً منخفضاً، بدا
كأنه خليط بين صفير غلاية ماء وصوت إصبع رطبة تتزلق على
بالون منفوخ.

صمت.

من جديد، ضم لويال شفثيه المتورمتين المملختين بالدم،
وأطلق الصفير ذاته «يبيبي»؛ صفيراً يبعث القشعريرة في
الأبدان، ثم أصفى واضعاً أذنه على الأرض. مضت بضع دقائق
من الصمت قبل أن يقف متألماً، ممسحاً كفيه بينطاله.

قال: «لقد اختفت».

قال يوجين: «اختفت؟ أين اختفت؟»

مسح لويال فمه بظاهر يده وقال واجمًا: «لقد نزلت إلى الشقة في الأسفل».

قال فاريش وهو ينظر إلى لويال نظرة احترام غير مألوفة: «يجب أن تعمل في السيرك! يا لها من خدعة! من علمك أن تصفر هكذا؟»

قال لويال متواضعًا عندما رأى الأعين كلها تنظر إليه: «الأفاعي تحترمني».

«هوووو!»، احتضنه فاريش بذراعه وقد أذهله الصغير لدرجة أن غضبه تلاشى: «أظن أنك تستطيع تعليمي هذا!»

نظر داني من النافذة وقال: «هناك أمر غريب يحدث هنا». صرخ به فاريش: «ما هذا؟ إن كان لديك ما تود قوله يا داني، فقله لي في وجهي!»

«قلت إن أمرًا غريبًا يحدث هنا. كان الباب مفتوحًا عندما وصلنا الليلة».

سعل لويال وقال: «يوجين، عليك أن تتصل بالذين يقطنون في الطابق السفلي. أنا متأكد من أن الأفعى تسللت إلى العداد ونزلت حيث دفء أنابيب المياه الساخنة».

قال فاريش: «أتظن أن هذا يفسر عدم عودتها؟»، ثم حاول عبثًا أن يقلد الصغير الغريب الذي استخدمه لويال لجعل ست أفاع من ذوات الأجراس تخرج واحدة تلو الأخرى من مخابئها في أنحاء الغرفة... «أليست هذه الأفعى مدربة كبقية الأفاعي؟»

قال لويال وهو يحك رأسه ويتأمل العداد: «هذه الأفاعي ليست مدربة، ولا تحب هذا الصياح والضجيج. لا، لقد اختفت». «كيف ستجعلها تعود؟»

قال يوجين متألمًا وهو يضغط على راسه المتورم: «أحتاج إلى زيارة الطبيب». كانت يده منتفخة بالكامل، أشبه بقفاز مطاطي منتفخ.

قال فاريش: «اللعة عليّ! لقد لدغتك أفعى». «أخبرتكَ أنني لدغت هنا، وهنا، وهنا».

اقترب لويال ليتفحص الوضع، وقال: «عادة، الأفعى لا تفرغ كل سمّها في لدغة واحدة».

قال يوجين: «غرزت الأفعى أنيابها كأنها تتشبث بي». بدأت حواف الغرفة تفرق في السواد، وأحس بحرقّة في يده ممزوجة بنشوة غريبة. لم يكن ذلك الألم مزعجًا بقدر ما كان يُذكره بشعور مألوف؛ شعور انتابه في الستينيات عندما كان في السجن قبل أن ينقذه الرب، أو عندما كان ينتشي باستنشاق أبخرة سائل التنظيف في غرفة الغسيل، حيث بدت الممرات المبنية من الآجر الرملي مغلقة ببخار غريب، كأنها تغلق عليه لتضييق الرؤية إلى دائرة صغيرة ساحرة، أشبه بالنظر من خلال أنبوب لفافة ورق مرحاض.

قال فاريش: «لقد مررت بما هو أسوأ من هذا». لم يكن يكذب؛ فقد لدغته أفعى قبل سنوات عندما كان يرفع حجرًا في أثناء تنظيفه لحقل مغطى بالنباتات... «لويال، ألا تملك صفيّرًا يعالج هذا الأمر؟».

أمسك لويال بيد يوجين المتورمة وقال واجمًا: «أوه، يا إلهي!».
ابتسم فاريش وقال: «هيا، صلّ من أجله أيها الواعظ! اطلب
العون من الرب، اضطلع بعملك!»

قال لويال ليوجين بجدية: «الأمر ليس بهذه البساطة؛ الحقيقة
أن لدغة تلك الأفعى كانت شديدة! تمامًا في هذا العرق هنا».

مرر داني أصابعه في شعره متوترًا، وأشاح بوجهه، شعر بجسده
متيبسًا، بل متألمًا من شدة التوتر، كأن عضلاته أسلاك معدنية
مشدود جدًا. تمنى لو أنه في مكان آخر، لو يخرج ويترك «البعثة
الإرسالية» تذهب إلى الجحيم، لا يهمه إن خسر يوجين ذراعه،
ثم إنه سئم من فاريش أيضًا؛ فها هو ذا قد جرّه من آخر البلدة
إلى هذا المكان. ولكن، هل خرج فاريش ووضع المخدرات في
شاحنة لويال عندما كان في وسعه أن يفعل ذلك؟ لا، ظل جالسًا
قراءة نصف ساعة، ظل مرتاحًا على كرسيه مستمتعًا بأن ذلك
المهذب كان مصغيًا إلى كلامه؛ فقد راح يتشدد ويتشدد ويحكي
قصصًا سمعها شقيقاه مليون مرة على الأقل! ظل يتكلم ويتكلم!
وعلى الرغم من تلميحات (لم تكن تلميحات خفية تمامًا) داني
الكثيرة، فقد ظل جالسًا ولم يخرج لينقل المخدرات من الحقيبة
العسكرية إلى حيث يريد إخفاءها في سيارة الواعظ. لا، صار
الآن شديد الاهتمام بلويال ريزي وكيفية التعامل مع الأفاعي ذات
الجرس، ثم إنه تهاون كثيرًا في شأن شكه في ريزي، تهاون كثيرًا
جدًا، أحيانًا، عندما يكون فاريش منتشيًا بالمخدرات، يتمسك
بأفكار وخيالات فلا يستطيع أن يتركها، ولا يمكن التنبؤ أبدًا بما
قد يستولي على اهتمامه؛ فأى أمر صغير لا علاقة له بأي شيء

كنكته أو رسوم متحركة في التلفزيون، يمكن أن يشوشه ويشغله كأنه طفل صغير! هكذا كان أبوه؛ فمن الممكن أن يكون منهمكاً في ضرب مايك أو ريكي لي حتى يكاد يموت، وذلك من أجل أمر تافه! ولكنه يسمع نبأ لا أهمية له فيتوقف على الفور، ويترك ابنه متكوّماً على الأرض باكياً، ويجري إلى الغرفة المجاورة كي يرفع صوت الراديو، أسعار المواشي في ارتفاع نعم! تخيلوا هذا!

قال بصوت مرتفع: «سأقول لك ما أريد معرفته الآن»، لم يكن واثقاً قط بدولفوس، ولم يكن واثقاً بهذا اللويال: «كيف استطاعت الأفاعي أصلاً أن تخرج من صندوقها؟»

قال فاريش: «أوه، اللعنة!»، ثم اندفع إلى النافذة. وبعد بضع لحظات، أدرك داني أن ذلك الصوت الذي كان في أذنيه (بب بب) ما كان من صنع مخيلته، بل لسيارة حقيقية تسير على الحصى في الخارج.

شعر داني بوخز دبوس حار كأنه يراعة صغيرة مشتعلة ضمن مجال رؤيته. ما إن التفت حتى اختفى لويال في الغرفة الخلفية، فرأى فاريش عند الباب يقول: «تعال! قل له سبب تلك الضجة. يوجين، قل له إن أفعى لدغتك في الفناء».

قال يوجين، وعيناه غائمتان وجسده يترنح تحت الضوء الساطع: «قل له... قل له أن يأخذ أفاعيه اللعينة! وأخبره أنه من الأفضل ألا يكون هنا عندما أستيظ صباحاً».

قال فاريش وهو يسد الباب بجسده أمام شخص غاضب يحاول الدخول: «آسف يا سيد!»

«ماذا يحدث هنا؟ ما هذه الحفلة التي...».

قال فاريش: «هذه ليست حفلة يا سيد! لا، لا تدخل». وقف عند الباب بجسده الضخم، مانعًا الدخول: «لا وقت للزيارة الآن. نحن بحاجة إلى مساعدة. لقد لدغت أفعى أخي دون أن ينتبه. ألا ترى ذلك؟ ساعدني في نقله إلى السيارة».

صاح يوجين مخاطبًا روي دايال الذي صار يراه أحمر الوجه لشدة هلوسته: «أنت أيها الشيطان المعمداني!»، كان دايال مرتديًا بنطلونًا قصيرًا وقميص غولف أصفر زاهيًا، فرآه متمايلًا في آخر نفق رؤيته المظلم، في دائرة من ضوء تضيق وتضيق.

في تلك الليلة، بينما كانت امرأة تكلى تصلي وتبكي وسط الناس والأزهار، تبكي عند ستارة تجمع بين البياض والسواد معلقة أمام باب ضخيم يفضي إلى ممر عريض يتدفق فيه البشر إلى هلاكهم، كان يوجين في ثوب المستشفى، تتبعث من أنفه رائحة تشبه رائحة الملابس المحترقة. كان تركيزه يتقل بين الستائر البيضاء وصلوات المرأة وبكائها، وبين عاصفة تضرب شواطئ نهر بعيد مظلم. كانت الصور تتساقط في ذهنه وتتبدد كما لو كانت نبوءات: حمامات متسخة، وعش طائر شرير مبني من حراشف جلد الأفاعي، وأفعى طويلة سوداء تزحف خارجة من جحر، وفي بطنها طيور وكتل صغيرة ما زالت حية، تحاول أن تغني في ظلمة بطن الأفعى.

عودة إلى «الإرسالية»: كان لويال متكورًا في كيس نومه، غارقًا في نوم عميق رغم عينه المتورمة؛ لم تعكر صفو نومه لا أفاع ولا كوايبس. استيقظ قبل الفجر مرتاحًا، فبدأ بتلاوة صلواته، وغسل

وجهه، وشرب كأس ماء، ثم نقل أفاعيه إلى السيارة بسرعة دون تأخير. صعد ثانية وجلس إلى طاولة المطبخ، وكتب إلى يوجين رسالة شكر قصيرة، كتبها على إيصال من محطة الوقود، وتركها على الطاولة، إلى جانب علامة كتاب مستطيلة مصنوعة من الجلد المزخرف، ولها شرابة أنيقة. ترك أيضاً نشرة بعنوان «محدثات العمل»، مع رزمة من سبع وثلاثين ورقة نقدية من فئة الدولار الواحد. ومع شروق الشمس، انطلق في سيارته ذات المصابيح المكسورة على الطريق السريع، في طريقه إلى لقائه الكنسي في شرق تينيسي. لم يلاحظ غياب الكوبرا (أفعاء المفضلة، الوحيدة التي دفع مالا من أجلها) إلا حينما وصل إلى نوكسفيل. حاول الاتصال بيوجين فلم يرد على اتصاله. ولم يكن في «الإرسالية» من يسمع صراخ الشابين المورمونيين اللذين استيقظا متأخرين (في الساعة الثامنة، بعدما عادا متأخرين من ممفيس الليلة السابقة)، ففزعا وهما يؤديان صلوات الصباح حين شاهدا أفعى ذات جرس ترقبهما من فوق سلة فيها قمصان مغمسولة نظيفة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

استيقظت هاربيت في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي وجسدها يحكها، كانت متسخة كلها والتراب بين ملاءات فراشها. تسلت رائحة المكان الذي اختبأت فيه والصناديق الملونة المرصعة برؤوس المسامير والظلال الطويلة في باب الشقة المضاء إلى منامها، واختلطت بشكل غريب مع رسومات قلم الحبر في نسختها الرخيصة من كتاب «ريكي تيكي تابي»: الدب تيدي ذي العينين الواسعتين والنمس وحتى الأفاعي التي بدت مرحة ولطيفة.

وكان في الحلم أيضاً مخلوق مسكين مقيد يتخبط في أسفل الصفحة كأنه لوحة ختامية لقصة أطفال، كان يتألم؛ كان بحاجة إلى مساعدتها بطريقة لم تستطع فهمها، ولكن وجوده في حد ذاته كان توبيخاً لها، وتذكيراً لها بتقصيرها وظلمها لأنها شعرت باشمئزاز شديد من المخلوق لدرجة أنها لم تستطع مساعدته أو حتى النظر في اتجاهه.

قالت لها إيدي بصوت غنائي: تجاهليه يا هاربيت!، وكانت تقف مع الواعظ في زاوية غرفتها إلى جانب خزانة الملابس يجهزان آلة تعذيب تشبه كرسي طبيب الأسنان، تبرز منها إبر ناتئة من مسندي الذراعين ومسند الرأس، بطريقة مزعجة بدا كأنهما عاشقان يتبادلان نظرات الإعجاب. كانت إيدي تختبر رؤوس الإبر بلمسها بطرف إصبعها لمساً خفيفاً، في حين تراجع

الواعظ إلى الخلف مبتسمًا ابتسامة ولهة، وذراعا مطويتان على صدره، ويداه مدسوستان تحت إبطيه.

بينما كانت هاربيت تنزلق بقلق إلى المياه الراكدة للكابوس مجددًا، استيقظ هيلي فزعًا في سريره العلوي، ونهض سريعًا فاصطدم رأسه بالسقف، ألقى ساقيه إلى الخارج دون تفكير وكاد يسقط، لأنه كان قد فكّ السلم ورماه إلى السجادة في الليلة السابقة من شدة خوفه مما قد يتسلك نحوه.

صار منتبهًا إلى حركاته (كأنه تعثر في الملعب والناس يشاهدونه)، اعتدل في سريره، ثم قفز إلى الأرض، وخرج من غرفته الصغيرة المظلمة ذات الهواء المكيف، ولم ينتبه إلا بعد أن اجتاز نصف الممر إلى أن البيت ساكن جدًا. نزل إلى المطبخ فلم يجد هناك أحد، كانت مفاتيح سيارة والدته غير موجودة، سكب لنفسه قصعة من حبوب الإفطار مع الحليب، وأخذها إلى غرفة العائلة، وشغل التلفاز؛ كانوا يعرضون مباراة رياضية، فجلس يأكل حبوب الإفطار، ومع أن الحليب كان باردًا بما فيه الكفاية، فقد خدشت تلك الكرات الهشة سقف فمه، كانت عديمة الطعم بشكل غريب، حتى أنها لم تكن حلوة!

انتاب هيلي ضيق شديد لهدوء البيت وصمته، ذكره هذا بذلك الصباح الفضيع عندما شرب مع ابن عمه تود زجاجة روم كانت في كيس ورقي في المقعد الأمامي لإحدى السيارات غير المغلقة في النادي الريفي؛ شربا نحو نصف الزجاجة، فيما كان أهلها يتبادلون الحديث عند بركة السباحة ويأكلون نقانق الكوكتيل الصغيرة، استعار مع تود عربية غولف واصطدما بها في شجرة

صنوبر، مع أن هيلي بالكاد يتذكر هذا الجزء: الشيء الأساسي الذي يتذكره هو استلقاؤه على جنبه وتدحرجه على تلة شديدة الانحدار خلف ملعب الجولف مرارًا وتكرارًا.

لاحقًا عندما بدأت معدته تؤلمه، نصحه تود بالذهاب إلى البوفيه وتناول أكبر كمية ممكنة من النقانق بأسرع ما يستطيع؛ قال إن ذلك سيوقف الألم، تقيأ على ركبتيه في موقف السيارات خلف سيارة كاديلاك لا يعلم لمن تكون، فضحك منه تود ضحكًا شديدًا حتى صار وجهه الوضع الممتلئ نمشًا أحمر اللون كالطماطم. لا يتذكر هيلي ما جرى بعد ذلك، ولكن أحدهم أخذه إلى البيت ووضعه في سريره فنام، وعندما استيقظ في صباح اليوم التالي، وجد البيت خاليًا؛ فقد ذهبوا جميعًا إلى ممفيس وتركوه هناك؛ ذهبوا كي يوصلوا تود وأهله إلى المطار.

كان ذلك اليوم أطول يوم في حياة هيلي، اضطر إلى التجول في أرجاء المنزل بمفرده ساعات طويلة وحيدًا، لا شيء يفعله، يحاول أن يستعيد تفاصيل ما حدث في الليلة السابقة ويقلق بشأن العقاب الرهيب الذي ينتظره عند عودة والديه، والذي كان عقابًا شديدًا بالفعل، اضطر إلى تسليم كل أموال عيد ميلاده للمساهمة في دفع تكاليف الأضرار (اضطر والداه إلى دفع الجزء الأكبر منها)، كما اضطر إلى كتابة رسالة اعتذار إلى صاحب عربة الجولف، وفقد امتياز مشاهدة التلفاز لمدة بدت كأنها أبدية.

ولكن الأسوأ من كل ذلك كان سماعه والدته وهي تتساءل بصوت عالٍ عن المكان الذي تعلم فيه السرقة: «زجاجة الروم ليست هي المشكلة، بل سرقة إياها»، كررت ذلك أمام والده ربما ألف مرة،

لكن والده لم يكن يفرق بين الأمرين؛ فقد تصرف كأن هيلي قد سطا على بنك. ظل والده مدة طويلة لا يتحدث إليه إلا ليقول عبارات مثل «ناولني الملح»، وحتى في تلك الحالات لم يكن ينظر إليه، لم تعد الحياة في المنزل كما كانت من قبل. وكما هو معتاد، ألقى تود -الذي كان يُلقب بـ«العبقري الموسيقي» وعازف الكلارينيت الأول في فرقة مدرسته الإعدادية في إيلينويز- اللوم بالكامل على هيلي، وهو ما كان يفعله دائماً خلال طفولتهما كلما التقيا، وهو ما لم يحدث كثيراً لحسن الحظ.

كانت إحدى ضيفات البرنامج المشهورات قد تلفظت بكلمة بذيئة في برنامج مسابقات (كان البرنامج لعبة كلمات متقاطعة، إذ يتعين على المتسابقين العثور على الكلمة التي تكمل اللغز). احتج مقدم البرنامج على تلك الكلمة البذيئة بأن أطلق صوتاً قبيحاً يشبه عواء كلب صغير، ولوّح بإصبعه في وجه الضيفة المشهورة، التي وضعت يدها على فمها ورفعت عينيها بطريقة ساخرة.

أين والداه بحق السماء؟ لماذا لم يعودا إلى المنزل لينتهي هذا الأمر؟

عيب! عيب! كان مضيف البرنامج يكرر هذه الكلمة ضاحكاً، كان الضيف الآخر في لجنة التحكيم يميل على كرسيه ويصفق بإعجاب.

حاول هيلي أن يتوقف عن التفكير في الليلة الماضية، كانت ذكرى أمس تُخرّب الصباح وتضفي عليه ظلمة مثلما تفعل الآثار الباقية من كابوس، حاول أن يقنع نفسه بأنه لم يفعل شيئاً خاطئاً

حقاً؛ لم يتسبب في إتلاف ممتلكات الغير ولم يؤذِ أحداً ولم يأخذ شيئاً لا يخصه، صحيح أنهم أخذوا الأفعى ولكنهم لم يأخذوها فعلاً؛ فما زالت تحت المنزل، أما الأفاعي الأخرى فقد أطلقها، ولكن ماذا في ذلك؟ إنه في ولاية ميسيسيبي، الأفاعي تزحف في كل مكان على أي حال، فمن سيلاحظ بضع أفاعٍ إضافية؟ لم يفعل شيئاً غير أنه رفع ذلك المزلاج، مزلاجاً واحداً فقط، ما الأمر الكبير في ذلك؟ هذا ليس مثل سرقة عربة غولف من عضو في المجلس البلدي وتحطيمها.

صوت جرس يرن: حان وقت الشوط الفاصل في مسابقة هذا اليوم! كان المتسابقون -وأعينهم تلمع بالتوتر- يقفون أمام اللوحة الكبيرة ويبلعون ريقهم، ماذا لديهم ليقلقوا بشأنه؟ فكر هيلي بمرارة. لم يتحدث إلى هاربيت بعد هروبه، لم يكن متأكداً حتى إن كانت قد وصلت إلى منزلها، وهو أمر بدأ يقلقه. فور مغادرته الفناء، عبر إلى الجانب الآخر من الشارع وركض إلى منزله، متجاوزاً الأسوار وأفنية البيوت، والكلاب تتبح عليه من كل اتجاه في الظلام.

عندما وصل إلى المنزل تسلل عبر الباب الخلفي، كان وجهه أحمر وأنفاسه متلاحقة، رأى الساعة على موقد المطبخ تشير إلى أن الوقت ما زال مبكراً، إنها التاسعة فقط، سمع والديه يشاهدان التلفاز في غرفة العائلة. الآن هذا الصباح تمنى لو أنه أطل برأسه إلى غرفة العائلة وقال شيئاً لهما، لو أنه قال «تصبحان على خير» قبل أن يصعد السلم أو أي شيء، لكنه لم يملك الجرأة لمواجهتهما، فهرب إلى فراشه دون أن يتحدث إليهما.

لم يكن لديه أي رغبة في رؤية هاربيت، مجرد ذكر اسمها يجعله يتذكر أمورًا يفضل نسيانها. بدت غرفة العائلة غريبة وغير آمنة، وبدا كل شيء فيها مريبًا: السجادة البنية والأريكة المخملية وكؤوس التمس في خزانة خلف البار الرطب.

راح يحدق إلى الشخصيتين المشهورتين وهما تتشاوران بشأن تلك اللعبة خاليتي البال، شعر بتصلب كأن مراقبًا معاديًا يحدق إلى ظهره من باب الغرفة، حاول نسيان مشكلاته: لا هاربيت، لا أفاعٍ، لا عقاب وشيك من والده، أراد نسيان أولئك الرجال الريفيين المخيفين الضخمين الذين تعرفوا عليه، كان متأكدًا أنهم تعرفوا عليه.. ماذا لو ذهبوا إلى والده؟ أو ما هو أسوأ: جاؤوا وراءه؟ من يعلم ما الذي قد يفعله مجنون مثل فاريش راتليف؟ توقفت سيارة أمام البيت فكاد هيلي يصرخ، ولكنه نظر من النافذة فرأى أنها ليست سيارة راتليف بل سيارة والده، حاول أن يتكئ ويتظاهر بالاسترخاء وأن يجلس في وضعية أكثر عفوية، لكنه لم يستطع أن يشعر بالراحة، تجمد في مكانه متوقعًا أن يسمع صوت الباب وهو يُغلق بعنف، وخطوات والده السريعة تدوي في الممر كما كان يحدث دائمًا عندما يستبد به الغضب ويعتزم توبيخه.

كان هيلي يرتجف من شدة القلق، فحاول بجهد كبير ألا يبدو متصلبًا، لم يستطع كبح فضوله، لذا ألقى نظرة خائفة ليجد والده يخرج من السيارة ببطء يثير الجنون، بدا غير مكترث وضجرًا، على الرغم من أن تعبير وجهه كان من الصعب قراءته من خلال نظارته الشمسية الرمادية المثبتة فوق نظارته الطبية.

لم يستطع هيلي أن يحول عينيه بعيداً، وظل يراقب والده وهو يدور حول السيارة ويفتح صندوقها الخلفي، أفرغ المشتريات تحت ضياء الشمس الساطع ووضعها على الأسمنت: دلوًا من الطلاء، ودلاء بلاستيكية، ولفافة من خرطوم الحديقة الأخضر. نهض هيلي بهدوء شديد، وأخذ وعاء حبوب الإفطار إلى المطبخ وغسله، ثم صعد إلى غرفته وأغلق الباب. تمدد على السرير السفلي في سريره ذي الطابقين، وراح يحدق إلى الألواح الخشبية فوقه محاولاً ضبط تنفسه السريع وتجاهل دقات قلبه. بعد قليل سمع خطوات خارج الباب، كان والده واقفاً خلف الباب: «هيلي؟»

«نعم يا أبي!»، فكر: لماذا يرتعش صوتي هكذا؟
«أظن أنني قلت لك أن تطفئ التلفاز عندما تنتهي من مشاهدته».

«نعم يا أبي».

«أريد منك أن تأتي وتساعدني في ري حديقة أمك، ظننت أنها ستمطر هذا الصباح، ولكن يبدو أن الغيوم تبددت».
خشي هيلي أن يجادله؛ كان يكره حديقة الأزهار التي زرعها أمه، وكانت روبي (الخادمة التي عملت قبل إيزي لي) ترفض تقليم شجيرات الورود الكثيفة؛ وكانت تقول دائماً: «الأفاعي تحب الزهور».

ارتدى حذاء التنس وخرج من الغرفة، كانت الشمس قد ارتفعت وصارت حارة، أزعج وهج الضوء عينيه، وجعلته الحرارة يشعر بالدوار، وقف على العشب الأصفر اليابس بعيداً عن الزهور

مسافة سبعة أقدام أو ثمانية وراح يوجه خرطوم الري إلى حوض
الزهور ممسكاً به بعيداً عن جسده قدر الإمكان.

خرج أبوه من المرأب، وقال له: «أين دراجتك؟»

قال: «أنا..»، غار قلب هيلي، كانت دراجته حيث تركها يوم
أمس تحت الشجيرات أمام ذلك البيت.

«كم مرة ينبغي أن أقول لك هذا؟ لا تدخل البيت إلا بعد أن
تضع الدراجة في المرأب، سئمت وتعبت من القول لك إن عليك
ألا تتركها في الفناء».

شعرت هاربيت بأن هناك شيئاً غير طبيعي عندما نزلت إلى
الطابق السفلي، كانت والدتها ترتدي فستاناً قطنياً كالذي ترتديه
في العادة عند الذهاب إلى الكنيسة، وكانت تدور في المطبخ
بنشاط. قدمت لها قطعة من التوست البارد وكوباً من الحليب
قائلة: «خذي»، فيما كانت آيدا تمسح الأرض أمام الموقد،
وظهرها في اتجاه هاربيت.

قالت لها هاربيت: «أين أنت ذاهبة؟»

ردت والدتها: «لست ذاهبة إلى أي مكان يا حبيبتي»، على
الرغم من أن صوت أمها كان مبتهجاً فقد كان فمها متوتراً قليلاً،
وكان أحمر الشفاه الشمعي القرمزي على شفتيها يجعل وجهها
يبدو أبيض اللون تماماً، أضافت: «فكرت في أن أنهض وأعد لك
الإفطار هذا الصباح، هل هذا جيد؟»

نظرت هاربيت خلفها نحو آيدا التي لم تلتفت إليها، كانت
وضعية كتفيها غريبة. فكرت هاربيت مذهولة: لا بد أن شيئاً

حدث لإيدي.. ربما إيدي في المستشفى، وقبل أن تستوعب هذه الفكرة التي تبادرت إلى ذهنها، انحنت آيدا (دون أن تنظر إلى هارييت) حاملة مجرفة الكنس، ففوجئت هارييت أنها تبكي. عاد إليها خوف الساعات الأربع والعشرين الماضية كله دفعة واحدة، ومعه خوف آخر لم تستطع تحديده، سألت بصوت خافت: «أين إيدي؟»

بدت الحيرة على وجه أمها، وقالت لها: «إيدي في بيتها، لماذا؟»

كان التوست بارداً ولكن هارييت أكلته، جلست أمها معها إلى الطاولة تنظر إليها، أسندت مرفقيها إلى الطاولة ووضعت ذقنها بين كفيها، ثم سألتها: «هل هو لذيذ؟»

«أجل يا أمي»، ركزت انتباهها على التوست الذي أمامها لأنها لم تعلم ما الذي كان يحدث أو كيف تتصرف، تنهدت أمها فرفعت هارييت رأسها ورأت والدتها تهض عن الطاولة خائفة القوى وتغادر المطبخ.

فور خروجها، همست هارييت: «آيدا!» هزت آيدا رأسها ولم تقل شيئاً، وكان وجهها خالياً من أي تعبير، لكن دموعاً كبيرة لامعة تجمعت في عينيها، ثم أدارت ظهرها بشكل متعمد دون أن تتطرق بكلمة.

شعرت هارييت بالصدمة، حددت إلى ظهر آيدا حيث تتقاطع أربطة مريلتها فوق فستانها القطني، صارت الأصوات الصغيرة مسموعة بشكل واضح ومزعج: أزيز الثلاجة، وطنين ذبابة فوق حوض المطبخ.

أفرغت آيدا المجرفة في سلة القمامة تحت المجلى، ثم أغلقت الخزانة، وقالت لها دون أن تلتف: «لماذا شكوتني لأمك؟» «شكوتك؟!»

ردت آيدا وهي تعيد المجرفة إلى مكانها عند سخان الماء بجانب الممسحة والمكنسة: «أنا لطيفة دائماً معكِ، لماذا تريدني أن أواجه المشكلات؟»

«لأي سبب أشكوك؟ أنا لم أفعل هذا!»
«بل فعلت! وهل تعلمين ماذا أيضاً؟»، انكمشت هاربيت أمام نظرتها الثابتة وعينيها المحمرّتين، أكملت آيدا: «تسببت أيضاً بطرد تلك المرأة المسكينة في بيت السيد كلود هال».

تابعت تقول عندما رأت تلمل هاربيت ودهشتها: «نعم، لقد فعلت هذا! ذهب إلى بيتها السيد كلود بسيارته الليلة الماضية، كان يجب أن تسمعي كيف كلّم تلك المرأة المسكينة كأنه يكلم كلباً! لقد سمعت ذلك كله، وسمعه تشارلي أيضاً».

«أنا لم.. أنا..».

قالت آيدا بصوت كالفحيح: «لا تقولي شيئاً، ينبغي أن تكوني خجلى من نفسك؛ كيف تقولين للسيد كلود إن تلك المرأة تحاول إشعال حريق في البيت؟ وماذا فعلت بعد ذلك؟ عدت إلى البيت سريعاً وقلت لأمك إنني لا أطعمك جيداً».

«أنا لم أقل شيئاً عنها! إنه هيلي!»
«أنا لا أتحدث عن هيلي؛ أتحدث عنكِ».

«ولكنني طلبت منه ألا يقول شيئاً، كنا في غرفته فقرعت الباب وبدأت تصرخ...».

«نعم، وماذا فعلت بعد ذلك؟ قلت لأملك إنني لا أطعمك، أنت غاضبة مني لأنني لم أبقَ بعد انتهاء عملي لأروي لك القصص، لا تقولي إنك لم تكوني غاضبة؟»

«آيذا! أنت تعلمين كيف تختلط الأمور على أمني، لم أقل لها إلا...».

«سأقول لك لم فعلت هذا: أنت غاضبة مني لأنني لا أبقى هنا طيلة الليل لأعد لك الدجاج المقلي وأحكي لك القصص، ولكني أعود إلى بيتي لأكمل عملي هناك، بعد أن أمضي نهاري كله في تنظيف بيتكم».

خرجت هارييت من البيت، كان يوما حارًا ومشرقًا والسماء صافية، شعرت كأنها خرجت للتو من عند طبيب الأسنان بعد أن حشا ضرسها: ألم شديد قاتم في أضرارها كلها، وهي تمشي عبر الأبواب الزجاجية نحو الوهج والحرارة القاسية في موقف السيارات، كانت موظفة الاستقبال تسألها: «هارييت، هل هناك من ينتظرك؟»، وكانت تجيب دائمًا: «نعم، سيدتي»، سواء كان هناك أحد ينتظرها أم لا.

لم تسمع صوتًا من المطبخ، كانت نوافذ غرفة أمها مغلقة، هل طردت آيذا؟ لم تستطع تصديق أن هذا التساؤل لم يسبب لها هذا السؤال ألمًا ولا قلقًا، فقط شعور غامض يشبه عندما تعضّ داخل خدها بعد حقنة بنج ولا تشعر بالألم.

فكرت هارييت: سوف أقطف لها بعض الطماطم من أجل الغداء، ضيّقت عينيها في وهج الشمس ومضت إلى حديقة الخضراوات الصغيرة التي زرعها آيذا إلى جانب البيت؛ وهي

رقعة أرض غير مسوّرة مساحتها اثنا عشر قدمًا مربعًا، تعاني الإهمال وتحتاج إلى إزالة الأعشاب، ليس في بيت آيدا متسع من أجل زراعة الخضار، وعلى الرغم من أنها تعد لهم شطائر الطماطم يوميًا، فإنها تأخذ معظم الخضراوات معها إلى بيتها. وفي كل يوم تقريبًا تعرض آيدا على هارييت (متكرمة) نوعًا من الإغراءات مقابل مساعدتها في العناية بالحديقة: لعبة داما أو حكاية، ولكن هارييت ترفض دائمًا؛ كانت تكره العمل في الفناء، ولا تطيق التراب على يديها، ولا تطيق الحر ولا الحشرات ولا تلك الشعيرات اللاسعة على نباتات القرع التي تسبب الحكّة لساقها. ولكنها الآن تشعر بالغثيان من أنانيتها، كانت الأفكار المؤلمة تحاصرها وتلسعها، آيدا كانت تعمل بجد طوال الوقت.. ليس فقط هنا، بل في منزلها أيضًا، فماذا كانت هارييت تفعل؟ لا شيء تقريبًا.

بعض الطماطم، سيعجبها هذا! قطفت أيضًا بضع ثمرات من الفلفل والبامية وباذنجانة كبيرة سوداء من باكورة الموسم الصيفي، وضعت الخضراوات الموحلة في صندوق كرتوني صغير، ثم بدأت بإزالة الأعشاب الضارة، ولكنها كانت تشد على أسنانها بانزعاج، كانت ترى أن نباتات الخضراوات تشبه الأعشاب الضارة بأوراقها الخشنة غير الجذابة وفروعها المتشابكة، وليس فيها شيء مختلف غير الثمار التي تحملها؛ لذا تركت كل نبتة لم تكن متأكدة منها، ولم تقتلع إلا الأعشاب التي تعرفها مثل البرسيم والهندباء (هذه سهلة)، وعشبة جونسون ذات السيقان الطويلة التي كانت آيدا تمتلك طريقة بارعة في طيها فتصدر

صوت صفير حاد وغير مألوف عندما تضعها بين شففتيها وتتفخ بطريقة معينة.

لكن تلك السيقان كانت حادة، ولم يمر وقت طويل قبل أن تترك واحدة منها شقاً أحمر كجرح الورق في قاعدة إبهامها. تراجعت هاربيت إلى الوراء على كعبيها المغبرين وهي تتصبب عرقاً، كان لديها قفازان حمراوان صغيران للحديقة بمقاس يناسب الأطفال، اشترتهما آيدا ريو لها من متجر الأدوات الصيف الماضي. جعلها التفكير بذلك الآن تشعر بالسوء، لم تكن آيدا تمتلك كثيراً من المال، وبالتأكيد ليس ما يكفي لشراء الهدايا، والأسوأ من ذلك أن هاربيت كانت تكره العمل في الحديقة لدرجة أنها لم ترتدِ القفازان قط، ولا مرة واحدة.

في إحدى الأمسيات عندما كانتا جالستين على الشرفة سألتها آيدا بصوت حزين: «ألا يعجبك القفازان الصغيران اللذان اشتريتهما لك؟»

هزت رأسها عندما اعترضت هاربيت قائلة: «أحبهما، أحبهما. أرتديهما في أثناء اللعب...».

«لست مضطرة إلى اختلاق قصة يا طفلتي! ولكن يؤسفني أنك غير مهتمة بهما!»

احمر وجه هاربيت خجلاً؛ كان ثمن القفازين ثلاثة دولارات، وهذا ما يعادل أجر يوم عمل كامل لآيدا المسكينة، الآن اكتشفت عندما فكرت في الأمر أن القفازين الأحمرين كانا الهدية الوحيدة التي قدمتها آيدا لها، ولكنها أضاعتهما! كيف استطاعت أن تكون مهملة هكذا؟ خلال الشتاء كان القفازان مرميان بإهمال في دلو

معدنية في سقيفة الأدوات مع مقص التقليم ومقص شجيرات السياج وبعض الأدوات الأخرى التي يستخدمها تشيستر.

تركت الأعشاب التي اقتلعتها متناثرة على التراب، وهرعت إلى سقيفة الأدوات، ولكنها لم تجد القفازين في تلك الدلو المعدنية، ولم تجدهما أيضاً على طاولة الأدوات التي يستخدمها تشيستر، ولم تجدهما على الرف إلى جانب أصص الزهور وأكياس الأسمدة، ولم تجدهما خلف علب الورنيش والطلاء.

وجدت على الرفوف مضارب الريشة الطائفة ومقص تقليم ومنشاراً يدوياً وعدداً كبيراً من الحبال، وجدت أيضاً قبعة بلاستيكية صلبة تشبه ما يستخدمه عمال البناء، وجدت مختلف أدوات البستنة؛ وجدت قطعة ومقصاً صغيراً للورد وشوكة لاقتلاع الأعشاب ومجرفة وثلاث مجارف أخرى من مقاسات مختلفة وقفازات تشيستر، ولكنها لم تجد القفازين اللذين أهدتها إياهما آيدا، شعرت بحالة من الهستيريا، وقالت تكلم نفسها: «تشيستر يعرف أين هما، سوف أكلم تشيستر».

ولكن تشيستر لا يعمل إلا أيام الاثنين؛ وفي الأيام الأخرى كان يعمل لصالح إدارة المقاطعة يقتلع الأعشاب الضارة ويجز العشب في المقبرة أو في أعمال متفرقة في أنحاء المدينة.

كانت هاربيت تتنفس بصعوبة وسط الغبار والرائحة الخانقة للبنزين، وهي تحرق إلى كومة الأدوات المبعثرة على الأرض الزيتية وتتساءل عن المكان الذي يمكن أن تبحث فيه بعد ذلك، عليها أن تجد القفازين الأحمرين! فكرت في نفسها وعيناها تتجولان بين زحام الأدوات: ينبغي أن أعثر عليهما، سأموت إذا أضعتهما!

في تلك اللحظة وصل هيلي راكضاً وأطلّ برأسه عبر الباب، ثم أمسك بإطار الباب وقال لاهتاً: «هاريت، علينا أن نذهب لإحضار الدراجتين».

قالت هاريت بعد لحظة صمت مرتبكة: «إحضار الدراجتين؟»
«لا تزال الدراجتان هناك، انتبه أبي إلى أن دراجتي ليست موجودة، وسوف يضربني إذا فقدتها، تعالي!»

حاولت هاريت أن تركز انتباهها على قصة الدراجتين، لكنها لم تستطع التفكير في شيء غير القفازين الأحمرين، وأخيراً قالت له: «سأذهب لاحقاً».

«لا! بل الآن! لن أذهب وحدي».

«حسناً انتظر قليلاً وسأذهب...».

صاح هيلي بصوت كالنواح: «لا! علينا أن نذهب الآن!»
«انظر، ينبغي أن أغسل يدي، في أثناء ذلك ضع هذه الأدوات كلها على الرف، هل اتفقنا؟»

حدق هيلي إلى الأدوات الكثيرة المتناثرة على الأرض: «كلها؟»
«هل تتذكر القفازين اللذين كنت أملكهما؟ كانا في تلك الدلو هناك».

نظر هيلي إليها مستغرباً كأنها مجنونة!
«قفازان للعمل في الحديقة، قفازان قماشيان حمراوان لهما مطاط عند الرسفين».

«هاريت، أنا جاد! بقيت الدراجتان في الخارج طيلة الليل، من الممكن أن نذهب فلا نجدتهما هناك».

قالت هاريت: «إذا وجدتهما، فقط أخبرني، حسناً؟»

ركضت عائدة إلى حديقة الخضراوات، وجمعت الأعشاب التي اقتلعتها في كومة واحدة دون ترتيب، ثم قالت في نفسها: لا بأس، سوف أرفعها فيما بعد، ثم حملت صندوق الخضار وعادت إلى المنزل.

لم تكن آيدا في المطبخ، فأسرعت هاربيت وغسلت يديها فوق المجلى، وأزالت التراب عنهما بالماء من غير صابون، ثم حملت الصندوق إلى غرفة المعيشة حيث كانت آيدا جالسة على كرسيها المعهود متباعدة الركبتين ورأسها بين يديها.

قالت هاربيت بصوت وجل: «آيدا»

رفعت آيدا رأسها بتثاقل، كانت عيناها لا تزالان محمرتين.

«أنا.. لقد أحضرت لك شيئاً»، تلعثت هاربيت، ووضعت الصندوق على الأرض عند قدمي آيدا.

حدقت آيدا إلى الخضار بنظرة باردة، ثم هزت رأسها وقالت: «ماذا سأفعل؟ أين أذهب؟».

قالت هاربيت آملة: «تستطيعين أخذها إلى البيت إن أردت ذلك»، حملت الباذنجانة لترها لآيدا.

«تقول أمك إنني لا أقوم بعملي جيداً؛ كيف أستطيع أن أعمل عندما تكون أكداس الجرائد مكومة في كل مكان؟»، رفعت زاوية مريبتها ومسحت بها عينيها: «كل ما تدفعه لي عشرون دولاراً في الأسبوع، هذا ليس عادلاً، أودين التي تعمل عند الآنسة لوبي تأخذ خمسة وثلاثين دولاراً، وليست في ذلك البيت تلك الفوضى كلها، وأيضاً ليست فيه طفلتان».

شعرت هاربيت بأن يديها متدليتان بجانبها بلا فائدة، تمنّت أن تحتضن آيدا وتقبل خدها وأن تلقي بنفسها في حضنها وتتفجر باكية، ولكن شيئاً في صوت آيدا وفي جلستها المتوترة غير الطبيعية جعلها خائفة، فخشيت الاقتراب منها أكثر من ذلك.

«تقول أمك.. تقول إنكما الآن كبيرتان ولم تعودا في حاجة إلى رعاية، أنتما الاثنتان في المدرسة، وبعد المدرسة تستطيعان أن تقوموا بأعمال البيت».

التقت عيناها بعيني هاربيت؛ عينا آيدا حمراوان دامعتان، وعينا هاربيت متسعتان ناطقتان بالذعر، ظلّتا هكذا لحظة سوف تتذكرها هاربيت إلى أن تموت، وكانت آيدا هي التي أشاحت بوجهها أولاً.

قالت بصوت أشد تقبلاً: «هي محقة؛ أليسون في المدرسة الثانوية، وأنت لم تعودي بحاجة إلى من يبقى في المنزل طوال اليوم ليعتني بك، فأنت في المدرسة معظم السنة على أي حال».

«أنا في المدرسة منذ سبع سنين».

«أعلم، ولكن هذا ما تقوله لي أمك».

ركضت هاربيت إلى غرفة والدتها ودخلت دون أن تطرق الباب، وجدت والدتها جالسة على طرف السرير وأليسون جاثية على ركبتيهما، تبكي ووجهها مدفون في مفرش السرير، عندما دخلت هاربيت رفعت أليسون رأسها ونظرت إليها نظرة معذبة فاجأتها كثيراً.

قالت أمها: «وأنت أيضاً!»، كان صوتها مشوشاً وعيناها ناعستين: «اتركاني وحدي أيتها البنّتان، أود أن أستلقي قليلاً».

«لا يجوز أن تطردي آيدا».

«الحقيقة أنني أحب آيدا أيضاً يا ابنتي، لكنها لا تعمل مجاناً، ومؤخراً يبدو أنها غير راضية».

كانت هذه الكلمات مما يقوله والدها عادةً، وكان صوتها بطيئاً وآلياً كأنها تردد خطاباً محفوظاً.

كررت هاربيت جملتها بصوت حاد: «لا يجوز أن تطرديها».

«يقول والدك...».

« قاطعتها هاربيت بغضب: «وما شأنه؟ إنه لا يعيش هنا.»

«لا بأس يا ابنتي سيكون عليكما أن تكلمتا آيدا، هي متفقة معي على أن كلتينا غير راضيتين عن سير الأمور هنا».

لحظة صمت طويلة.

قالت هاربيت: «لماذا قلت لآيدا إنني شكوتها إليك؟ ماذا قلت لها؟»

«سنتكلم في هذا الأمر لاحقاً»، استدارت تشارلوت واستلقت على الفراش.

«لا الآن!»

قالت تشارلوت: «لا تقلقي يا هاربيت»، وأغمضت عينيها: «وأنت يا أليسون، كُفّي عن البكاء، من فضلك كُفّي عن البكاء، لا أستطيع احتمال هذا»، كان صوتها كأنه يغيب شيئاً فشيئاً: «سوف نجد حلاً، أعدكما».

لم يكن هناك شيء كافٍ للتعبير عن الغضب الذي تفجر في هاربيت: لا صياح ولا بصاق ولا عض ولا خرمشة، حدقت إلى وجه أمها الساكن، كان صدرها يرتفع وينخفض بهدوء مع تنفسها،

وهناك رطوبة لامعة على شفتها العليا حيث اضمحل أحمر الشفاه وغار بين تجاعيد شفتيها الدقيقة، كانت أجفانها مزيتة ومتورمة، وهناك تجاويف عميقة أشبه بآثار إبهام في الزوايا الداخلية لعينيها.

نزلت هاربيت إلى الطابق السفلي، تاركة أليسون إلى جانب سرير أمها، وهي تضرب الدرابزين بيدها، كانت آيدا لا تزال جالسة على كرسيها تحقق إلى النافذة وقد أسندت خدها إلى كفها، توقفت هاربيت بالباب وحدقت إليها حزينة، بدت آيدا كأنها تتألق في واقعها القاسي الذي لا يرحم، لم يسبق لها أن بدت بهذا الوضوح، بهذه القوة والثبات، بهذه الصلابة المدهشة، كان صدرها تحت القماش القطني الرمادي الباهت لفستانها البالي يعلو وينخفض بقوة مع كل نفس.

خطت هاربيت نحو الكرسي بعاطفة، لكن آيدا -والدموع لا تزال تلمع على وجنتيها- أدارت رأسها صوبها ورمقتها بنظرة أوقفته في مكانها.

ظلت كل واحدة منهما تنظر إلى الأخرى مدة طويلة، منذ أن كانت هاربيت صغيرة، كانت تجري بينهما مباريات في التحديق؛ كانت تلك المباريات لعبة.. اختباراً لقوة الإرادة.. شيئاً للضحك، لكن هذه المرة لم تكن لعبة؛ كل شيء كان خاطئاً ومريعاً، ولم يكن هناك ما يدعو للضحك عندما اضطرت هاربيت أخيراً إلى أن تخفض عينيها في خجل.

انحنى هاربيت برأسها ومشيت مبتعدة بصمت، فلم يكن هناك ما يمكن فعله، فيما كانت العينان الحبيبتان الحزینتان تخترقان ظهرها كأنهما نار مشتعلة.

سأل هيلي عندما رأى شحوب وجه هارييت وذهوله: «ما الأمر؟» كان على وشك أن يوبخها على تأخرها الطويل، لكن النظرة التي رأى في وجهها جعلته واثقاً بأنهما في ورطة كبيرة جداً، ربما أسوأ ورطة في حياتهما.

«أمي تريد أن تطرد آيدا».

قال هيلي مواسياً: «يا له من فعل قاسٍ».

نظرت هارييت إلى الأرض وحاولت أن تتذكر كيف يكون وجهها وصوتها عندما تكون الأمور بخير، ثم قالت له: «فلنؤجل قصة الدراجتين!»، شعرت بالرضا لأنها استطاعت جعل صوتها يبدو طبيعياً.

«لا، سوف يقتلني أبي!»

«قل له إنك تركت دراجتك هنا».

قال بتوسل يائس: «لا أستطيع أن أتركها في الشارع، سوف يسرقها أحدهم، انظري، قلت لي إنك ستذهبين معي».

«لا بأس، ولكن عليك أولاً أن تعدني».

«أرجوك يا هارييت! لقد أعدت هذه الأشياء كلها إلى أماكنها من أجلك أنت».

«عدني بأنك ستذهب معي الليلة كي نأتي بالصندوق».

قال هيلي وقد فوجئ بهذا الكلام: «أين ستأخذينه؟ لا نستطيع إخفاءه في بيتي».

رفعت هارييت يديها وأظهرت أنهما خاليتان من أي أصابع متقاطعة، إشارة إلى الجدية والالتزام في وعدها.

قال هيلي: «حسنًا».

ثم رفع يديه مثلها؛ كان هذا جزءًا من لغة الإشارة بينهما، وكان وعدًا مُلزمًا مثله مثل أي وعد منطوق، بعد ذلك استدار وسار بخطوات سريعة فعبر الفناء وخرج إلى الشارع، وهاربيت تتبعه مباشرة.

سارا على مقربة شديدة من الشجيرات الكثيفة وهما يختبئان خلف الأشجار إلى أن صارا على مسافة أربعين قدمًا من ذلك البيت نفسه، أمسك هيلي بيد هاربيت وأشار بيده الأخرى، لمع قضيب طويل من الكروم تحت الشجيرات خلف الأعشاب الطويلة. اقتريا بحذر، كان المدخل خاليًا، وأمام البيت المجاور -بيت الكلب بانتشو وسيدته- كانت متوقفة سيارة بيضاء، عرفتھا هاربيت: سيارة السيدة دورير، كل يوم ثلاثاء عند الساعة الثالثة وخمس وأربعين دقيقة تتوقف سيارة دورير البيضاء أمام بيت ليبي وتخرج منها السيدة دورير مرتدية بذلة الخدمات الصحية الزرقاء لقياس ضغط دم ليبي، تربط حزام مقياس الضغط بقوة حول ذراع ليبي الهزيلة، وتعد الثواني في ساعة يدها الذكورية الكبيرة، فيما تجلس ليبي -التي كانت تشعر بقلق كبير من أي شيء يتعلق بالطب أو المرض أو الأطباء- تنظر إلى السقف، وعيناها تمتلئان بالدموع خلف نظارتها، ويدها مضغوطة على صدرها، وشفاتها ترتعشان.

قال هيلي، وهو ينظر خلفه: «فلننجز الأمر».

أشارت هارييت إلى السيارة البيضاء، وهمست: «المرضة هناك، انتظر حتى تتصرف».

انتظرا خلف شجرة، وبعد بضع دقائق قال لها هيلي: «ما الذي يؤخرها هكذا؟»

قالت هارييت: «لا أعرف» وكانت تفكر في الأمر نفسه؛ لأن السيدة دورير لديها مرضى في أنحاء المقاطعة كلها، كانت تدخل بيت ليبي ثم تخرج منه سريعاً دون أن تتوقف للدردشة أو لشرب فنجان قهوة.

همس هيلي بتوتر: «لن أنتظر هنا طيلة اليوم!»، ولكن في تلك اللحظة انفتح باب البيت، وخرجت السيدة دورير بقبعتها البيضاء وزياها الأزرق، وخلفها ظهرت امرأة لوحت الشمس وجهها ترتدي شبشباً قذراً وثوباً منزلياً أخضر زاهياً، وتحمل الكلب «بانتشو» على ذراعها، ثم قالت بصوت حاد النبرة: «دولاران ثمن حبة دواء واحدة! أنفق أربعة عشر دولاراً على الدواء كل يوم! قلت لذلك الفتى هناك في الصيدلية...».

ردت السيدة دورير بلباقة: «الدواء مكلف»، ثم استدارت كي تتصرف، كانت طويلة القامة ونحيلة تمشي بقامة منتصبية، في الخمسينيات من عمرها تقريباً، وهناك خصلة رمادية في شعرها الأسود.

«قلت له يا بني لديّ انتفاخ في الرئة، وحصى في المرارة، والتهاب في المفاصل! أنا.. ما مشكلتك يا بانتشو؟»، خاطبت الكلب الذي توتر بين يديها وانتصبت أذناه الكبيرتان؛ بدا كأنه قادر على رؤية هارييت في مخبئها خلف الشجرة، كانت عيناه

الشبيهتان بعيني قرد الليمور متجهتين إليها مباشرة، ثم كشر عن أنيابه، وبدأ ينبح ويحاول بعنف أن يفلت من يد صاحبه.

صفعته المرأة براحة يدها على رأسه: «أطبق فمك!»

ضحكت السيدة دورير ضحكة خفيفة متوترة، ثم حملت حقيبتها وبدأت تنزل درجات السلم: «إذن، أراك يوم الثلاثاء القادم».

أجابتها المرأة وهي لا تزال تعارك الكلب بانتشو: «إنه متوتر لا أكثر! كانت لدينا جلبة كبيرة هنا الليلة الماضية؛ جاءت الشرطة إلى البيت المجاور».

توقفت السيدة دورير عند باب سيارتها وقالت: «يا إلهي! هل أنت جادة؟ لا أصدق ذلك!»

ظل الكلب «بانتشو» ينبح بقوة، دخلت السيدة دورير سيارتها وابتعدت ببطء، فيما حملت المرأة «بانتشو» إلى الداخل، وصفقت الباب بقوة بعد أن ضربته مجدداً.

انتظر هيلي وهاريت بضع لحظات، وعندما تأكدا من عدم وجود سيارات أخرى قادمة، عبرا الشارع مسرعين إلى المساحة العشبية وجثما بجانب الدراجتين.

أشارت هاريت برأسها نحو ممر المنزل وقالت: «ما من أحد هناك»، زالت الغمة الجاثمة على صدرها وشعرت الآن بخفة أكبر، وأصبحت نشيطة وسريعة.

جذب هيلي دراجته وحررها من بين أغصان الشجيرة.

«ينبغي أن أجلب الأفعى من تحت البيت».

جعلته نبرة صوتها الحادة يشعر بالشفقة عليها دون أن يفهم السبب! أوقف دراجته على عجلتيها، فيما كانت هاربيت قد جلست على دراجتها، وحدقت إليه غاضبة.

قال لها متجنبًا نظرتها: «حسنًا! سأتي معك»، ثم وثب إلى دراجته وانطلقا في الشارع مسرعين.

تجاوزته هاربيت، وعندما بلغا زاوية الشارع مرّت أمامه بعدوانية قاطعة طريقه، تتصرف كأنها في غاية الانزعاج! فكر هيلي وهو ينظر إلى ظهرها المنحني فوق الدراجة، وإلى قدميها المتحركتين سريعًا على الدواستين، مثل دينيس بيت أو تومي سكوغز، ولدان وضيعان يضريان الأطفال الأصغر منهما ويضربهما الأطفال الأكبر منهما!

تثيره رؤية هاربيت عندما تكون في هذا المزاج الجريء، المتهور؛ لعل هذا يثيره لأنها فتاة! كان التفكير في الكوبرا يثيره أيضًا؛ على الرغم من أنه لم يشعر بالراحة ليشرح لهاربيت -ليس بعد- أنه أطلق نصف دزينة من الأفاعي الجرسية في الشقة، فقد خطر بباله للتو أن المنزل الخشبي فارغ، وقد يظل كذلك بعض الوقت.

سألته هاربيت: «متى ينبغي إطعامها في رأيك؟»، كانت منحنية تدفع العربة من الخلف، في حين كان هيلي يجرها من الأمام، لم يكونا يسيران بسرعة كبيرة لأن الظلام قد اشتد، ولم تعد رؤية الطريق سهلة، «ربما نعطيهما ضفدعًا لتأكله».

رفع هيلي العربة قليلاً لينزلها من الرصيف إلى الشارع، كان الصندوق مغطى بمنشفة سباحة أتى بها من بيته، ثم أجابها: «لن أطعم هذا الشيء ضفدعاً»، كان حدسه بشأن خلو منزل المورمونيين صحيحاً؛ كان حدساً فحسب لا أكثر، وكان ناجماً عن اقتناعه الشخصي بأنه يُفضّل أن يمضي ليلته محبوساً في صندوق سيارة، على أن يظل في بيت تتجول الأفاعي فيه حرة. حتى تلك اللحظة لم يخبر هاربيت بما فعله الليلة السابقة، ولكنه كان قد فكر في فعلته تفكيراً طويلاً كافياً لإثبات براءته، لم يدر أن المورمونيّين كانا في تلك اللحظة جالسَيْن في غرفة في فندق هوليدي، يناقشان مع محام عقاري من سولت ليك مسألة إن كان وجود أفعى سامة في شقة مستأجرة خرقاً للعقد. تمنى هيلي ألا تمر بهما سيارة وألا يراها أحد، كان من المفترض الآن أن يكون في السينما مع هاربيت؛ فقد أعطاهما والده مالا ليذهبا إلى السينما، لقد أمضت في بيته وقت العصر كله، وكان هذا أمراً غير معتاد؛ فعادة ما تضجر منه وتعود إلى بيتها مبكراً حتى عندما يرجوها أن تبقى، ظلاً بضغ ساعات جالسين على أرض غرفة هيلي يتظاهران باللعب، ولكنهما يناقشان أمر الكوبرا المسروقة وما سيفعلانه بها، كان صندوقها أكبر من أن تستطيع إخفاءه في أي مكان في بيتها أو في بيته، وبعد تفكير طويل استقر الرأي على وضعه فوق جسر للمشاة لا يستخدمه أحد، يقع في الناحية الغربية من البلدة على مقربة من «الطريق الريفي» في منطقة مهجورة خارج حدود العمران.

كان إخراج صندوق الديناميت من تحت المنزل وتحمله على

العربة الصغيرة الحمراء القديمة لهيلي أسهل مما تخيلاً؛ لم يريا أي شخص، كانت الليلة سديمية وضبابية مع دوي رعد من بعيد، أزال الناس الوسائد من أثاث شرفاتهم، وأغلقوا رشاشات المياه في حدائقهم، وأدخلوا ققطهم إلى المنازل.

جرّاً العربة على الرصيف المبلط، لم يكن يفصل بينهما وبين محطة القطار سوى كتلتين سكنيتين على طول شارع هاي، وكلما اقتربا من ساحات الشحن والنهر، قلّت الأضواء التي يريانها، وصدرت أصوات خشخشة من الأعشاب الطويلة في الساحات المهملة التي كانت تحمل لافتات كتب عليها: للبيع، وممنوع الدخول.

لم يكن يتوقف في محطة قطارات ألكساندريا سوى قطارين للركاب يومياً؛ فعند الساعة السابعة وأربع عشرة دقيقة صباحاً يتوقف قطار «مدينة نيو أورليانز» في ألكساندريا قادماً من شيكاغو، وعند الساعة الثامنة وسبع وأربعين دقيقة في المساء يتوقف القطار مجدداً في طريق العودة، وبقية الوقت تكون المحطة شبه مهجورة. كان مكتب التذاكر الصغير المهترئ بسقفه المنحدر وطلائه المتقشر مظلماً، مع أن مسؤول التذاكر سيصل خلال ساعة ليفتحه. خلف المحطة سلسلة من الطرق الترابية غير المستخدمة تصل بين ساحات تبديل الخطوط وساحات الشحن، ومنها إلى محلج القطن ومصنع الأخشاب والنهر.

توقف الطفلان وتعاونوا على إنزال العربة من الرصيف إلى الأرض المفروشة بالحصى. كانت الكلاب تتبع؛ كلاب كبيرة ولكنها بعيدة جداً، إلى الجنوب من مستودع محطة القطار كانت أضواء

ساحة الأخشاب، وإلى الخلف أكثر أضواء الشوارع المألوفة في حيهم. أدارا ظهريهما لآخر ومضات الحضارة هذه، مضيا بثبات في الاتجاه المعاكس نحو الظلام الخارجي، والمناطق الواسعة والمستوية المهجورة التي تمتد شمالاً متجاوزة ساحات الشحن الخالية بصناديقها المفتوحة وعرباتها القطنية الفارغة، وصولاً إلى طريق ضيق من الحصى يتلاشى في غابات الصنوبر السوداء. كان هيلي وهاريت يلعبان أحياناً على هذا الطريق المعزول المؤدي إلى مستودع القطن المهجور، ولكنهما لم يكونا يكثران القدوم إلى هذا المكان.

كانت الغابة ساكنة ومخيفة؛ حتى في وضح النهار كان هذا المسار الضيق معتماً تحت غطاء كثيف من أشجار الصنوبر وغيرها من الأشجار دائمة الخضرة. كان الهواء رطباً وملئاً بالبعوض، وكانت الغابة هادئة لا يكسر صمتها سوى أصوات مفاجئة: ارتطام أرنب يندفع بين الشجيرات، أو صرخات حادة لطيور غير مرئية. قبل عدة سنوات كان هذا المكان مأوى لعدد من السجناء الذين فروا عندما كانوا يساقون إلى العمل خارج السجن، لم يسبق لهم أن رأوا روحاً حية في تلك البرية إلا مرة واحدة، طفلاً صغيراً أسود يرتدي سروالاً داخلياً أحمر، انحنى على ركبتيه وقذف حجراً باتجاههم، ثم اختفى صارخاً في الأدغال. كان مكاناً موحشاً، ولم يستمتع أي منهما باللعب هناك، على الرغم من أنهما لم يعترفا بذلك.

كانت عجالات العرية تصدر صوت قرقعة عالية على الحصى، حامت حولهما أسراب من البعوض غير مكترثة برائحة طارد

الحشرات الذي رشه الاثنان على جسديهما من الرأس إلى القدمين، بالكاد كان بإمكانهما رؤية ما أمامهما في الظلال والغسق، كان هيلي قد أحضر كشافاً ولكن فكرة إنارة هذا المكان بدت له الآن فكرة غير حسنة.

أصبح الطريق أضيق وأكثر اختناقاً بالشجيرات التي ضغطت عليهما من الجانبين كجدارين؛ ما أجبرهما على التحرك ببطء شديد والتوقف من حين إلى آخر ليزيحا عن وجهيهما الأغصان والعساليج في ذلك الغسق الأزرق الكثيف. قال هيلي السائر في المقدمة: «أووووف!»، تصاعد طنين البعوض وشمّت هاربيت رائحة متعفنة رطبة.

سمعت هيلي يصيح: «يا له من مشهد مقزز».

«ماذا هناك؟»

تساءلت بصوت مرتجف فيما كانت الظلمة تزداد حدة، ولم تعد ترى سوى خطوط بيضاء باهتة على ظهر قميصه. تردد صوت الحصى المتناثر عندما رفع هيلي مقدمة العربة ودفعها نحو اليسار.

«ما هذا؟»، كانت الرائحة بشعة جداً.

«أبوسوم نافق»، كانت الكتلة الداكنة المتكومة أمامهما تعج بالحشرات، أشاحت هاربيت بوجهها وأسرعت لتتجاوزها على الرغم من صفعات الأغصان على وجهها.

واصل هيلي وهاربيت السير حتى خبا طنين البعوض المعدني وصارت الرائحة خلفهما، فتوقفا لحظة ليرتاحا. أضاءت هاربيت المصباح الكاشف ورفعت حافة المنشفة بأطراف أصابعها، في

ضوء المصباح لمعت عينا الكوبرا الصغيرتان ونظرت إليها نظرة حقد، وعندما فتحت فمها كي تُقَحَّ عليها كان شكل ذلك الفم المفتوح يشبه ابتسامة مخيفة.

قال هيلي بصوت خشن وقد استند بيديه إلى ركبتيه: «كيف حالها؟»

قالت هارييت: «بخير»، ثم قفزت متراجعة فتأرجح شعاع الضوء بجنون بين قمم الأشجار، لحظة هاجمت الأفعى الشبك المعدني الفاصل بينهما.

«ماذا حدث؟»

قالت هارييت: «لا شيء»، أطفأت المصباح، وأضافت: «يبدو أنها لا تمانع البقاء داخل الصندوق كثيراً»، بدا لها صوتها عالياً جداً في ذلك الصمت: «أظنها عاشت في الصندوق طيلة حياتها، لا يستطيعون تركها تتجول على هواها، أليس كذلك؟»

بعد لحظة من الصمت، استأنفا السير مجدداً على مضض.

قالت هارييت: «لا أظن أن الحرارة تزعجها؛ فهذه الكوبرا من الهند، والطقس هناك أشد حرارة».

كان هيلي يحاول الانتباه جيداً إلى موضع قدميه بقدر ما يستطيع في الظلام، كان نقيق الضفادع تحت أشجار الصنوبر يتردد حولهما في جوقة متناغمة من جميع الاتجاهات مثل صوت الستيريو.

فتح الدرب الضيق على فسحة بين الأشجار حيث كان مستودع القطن الرمادي مضاء بنور القمر، بدت زوايا رصيف التحميل -حيث كانا يجلسان في كثير من الأمسيات ويتبادلان الأحاديث

وأرجلها متدلية- غريبة في الظلال العميقة، لكن آثار الأوساخ المستديرة التي خلفوها برمي كرات التنس على الأبواب الفارقة في ضوء القمر كانت واضحة تمامًا.

حملا العربة معًا ليتجاوزا خندقًا في الطريق، انتهى الجزء الصعب الآن؛ كان طريق المقاطعة يبعد خمسًا وأربعين دقيقة بالدراجة عن منزل هيلي، ولكن الطريق الذي خلف المستودع يختصر المسافة؛ فخلفه تمامًا تقع سكة القطار، وبعد دقيقة أو نحو ذلك يظهر المسار بشكل ساحري عند طريق الولاية، تمامًا بعد الطريق السريع رقم 5.

كانت سكة القطار مرئية خلف المستودع، أعمدة التلغراف والنباتات المتسلقة عليها برزت سوداء أمام سماء أرجوانية مظلمة، التفت هيلي خلفه فرأى هاربيت تنظر حولها بقلق إلى الأعشاب التي يبلغ علوُّها ركبتها.

سألها: «ما الأمر؟ هل سقط منك شيء؟»

«لدغني شيء».

مسح هيلي جبينه المتعرق بذراعه، وقال: «لن يمر القطار إلا بعد ساعة من الآن».

رفعوا العربة معًا ووضعوها على سكة القطار، صحيح أن قطار الركاب القادم من شيكاغو لن يأتي إلا بعد وقت، ولكنهما يعلمان أن قطارات الشحن تمر أحيانًا في أوقات غير متوقعة، كانت القطارات المحلية التي تتوقف عند المستودع تتحرك ببطء شديد ويستطيع المرء أن يسبقها ركضًا، أما قطارات الشحن السريعة إلى نيو أورليانز فكانت تمر بسرعة هائلة، لدرجة أن هيلي لم

يكن يتمكن من قراءة الكلمات المكتوبة على العربات عندما كان ينتظر مع والدته خلف بوابة المعبر المغلقة على الطريق السريع رقم 5.

صار تقدمهما الآن أسرع كثيرًا بعد تجاوزهما منطقة الأشجار، كانت العربة تهتز بعنف وهما يدفعانها فوق عوارض السكة، شعر هيلي بألم في أسنانه من شدة الاهتزاز، كانا يحدثان كثيرًا من الضجيج؛ وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك أحد يسمعهما، كان يخشى أن يُغطي هذا الصوت مع نقيق الضفادع على صوت اقتراب قطار الشحن فلا يعرفان به حتى يصبح فوقهما مباشرة. ظلت عيناه مثبتتين على قضبان السكة وهو يركض، بدا كأنه مخدر بسبب تتالي العوارض تحت قدميه وإيقاع أنفاسه اللاهث، بدأ يتساءل إن كان من الأفضل أن يبطنًا قليلًا ويشعلا المصباح الكاشف عندما أطلقت هاربيت تهيدة كبيرة، رفع رأسه وتنفس الصعداء لرؤية أضواء النيون الحمراء تومض في البعيد.

بلغا حافة الطريق السريع، فجثما إلى جوار العربة بين الأعشاب الطويلة، وراحا ينظران إلى تقاطع سكة القطار مع الطريق حيث كانت لافتة تقول: «توقف، انظر، استمع!»، هبت نسمة خفيفة على وجهيهما منعشة وباردة كالمطر، إذا نظرنا إلى جهة اليسار من الطريق جنوبًا في اتجاه المنزل، فسيستطيعان رؤية لافتة محطة الوقود في البعيد وأضواء النيون الوردية والخضراء في متجر جامبو، ولكن الأضواء هنا متباعدة كثيرًا؛ فلا متاجر ولا إشارات مرور ولا ساحات لتوقف السيارات؛ لا شيء سوى حقول تغطيها الحشائش وأكواخ بأسقف من ألواح معدنية مموجة.

مرت بهما سيارة مسرعة فجفلا، ثم نظرا في الاتجاهين للتأكد من عدم قدوم سيارة أخرى، وعبرا الطريق صامتَيْن، اجتازا مرعى أبقار والعربة تقعع بينهما على السكة في الظلام، ثم تابعا السير باتجاه طريق المقاطعة، الطريق مهجور في هذا المكان البعيد بعد النادي الريفي، والمراعي المسوّرة هناك فيها مساحات واسعة من التراب الذي سوته الجرافات.

انبعثت رائحة روث شديدة في وجه هيلي، وبعد لحظة انتبه إلى أن حذاءه الرياضي صار زلِقًا على نحو غريب.

«ما الأمر؟»

ردّ وهو يجر حذاءه على العشب بامتعاض: «انتظري قليلاً»، على الرغم من بعد المكان عن أي أضواء فقد كان ضياء القمر كافياً ليدركا تمامًا أين هما الآن، على موازاة الطريق امتد شريط مهجور من الإسفلت الأسود طوله نحو عشرين ياردة قبل أن يتوقف فجأة، كان من المقرر أن يكون طريقاً سريعاً ولكنهم توقفوا عن إنشائه عندما قررت «لجنة الطريق السريع» أن يمر الطريق العابر للولايات من الجهة الأخرى ليتجاوز ألكساندریا، كانت الأعشاب نامية عبر شقوق الإسفلت، وإلى الأمام يبدو الجسر المهجور أشبه بقنطرة فوق طريق المقاطعة.

تابعا سيرهما، فكرا في إخفاء الأفعى في الغابة ولكن تجربتهما في «عزبة مرج السنديان» ما زالت عالقة في ذهنيهما، لذلك لم تعجبهما فكرة التوغل بعد حلول الظلام في الأحراش الكثيفة بين الأشواك والجدوع المتعفنة وهما يحملان صندوقاً يزن خمسين رطلاً. كما فكّرا في إخفائه داخل أحد المستودعات، لكن حتى

تلك المهجورة منها، كانت نوافذها مغلقة بألواح خشبية وعليها لافتات «ملكية خاصة».

لم يكن الجسر يحمل هذه المخاطر، كان الوصول إليه سهلاً من شارع ناتشيز عبر طريق مختصر؛ فهو يعبر طريق المقاطعة؛ وفوق ذلك كان مغلقاً أمام حركة المرور، وبعيداً بما يكفي عن المدينة ليقلّ احتمال وجود عمال أو متطفلين كبار السن أو أطفال يلعبون.

لم يكن الجسر ثابتاً بما يكفي لتحمل السيارات، وحتى لو كان كذلك فلا يمكن لأي مركبة أن تصل إليه سوى سيارة جيب، لكن العربة الحمراء صعدت بسهولة، وهاربيت تدفعها من الخلف، ارتفعت على جانبي الجسر جدران خرسانية بارتفاع ثلاثة أقدام، سهل الاحتماء خلفها في حالة مرور سيارة على الطريق أسفل الجسر، ولكن عندما رفعت هاربيت رأسها لتتظر كان الطريق مظلماً في كلا الاتجاهين، وفي الأفق امتدت الأراضي المنخفضة الواسعة غارقة في الظلام مع أضواء بعيدة متألئة باتجاه المدينة.

عندما بلغا قمة الجسر كانت الريح أقوى؛ كانت ريحاً باردة خطيرة منعشة، وكان الغبار كالرماد يغطي سطح الطريق والجدران الخرسانية، مسح هيلي يديه المبيضتين بأعلى بنطلونه القصير، ثم أضاء مصباحه وراح يديره في أرجاء المكان، كان هناك حوض معدني ممتلئ بالأوراق القديمة المرمية وكتلة خرسانية مائلة وأكياس أسمنت متراكمة وزجاجة تحتوي على بقايا دبقة من الصودا بالليمون.

أمسكت هارييت بالجدار ومالت إلى الأمام لتتظر إلى الطريق المظلم أدناها كأنها تقف على حاجر سفينة في المحيط. كان الهواء يبعثر شعرها على وجهها، فبدت لهيلي أنها أقل كآبة مما كانت عليه طوال اليوم.

سمعا صفير القطار الطويل المخيف من بعيد، هتفت هارييت: «عجيب! الساعة لم تبلغ الثامنة بعد، أليس كذلك؟»

شعر هيلي بضعف في ركبتيه وهو يجيب: «صحيح»، وكان يسمع صوت عجلات القطار المتسارعة قادمة من الظلام متجهة نحو الطريق السريع رقم 5، وصوتها يعلو شيئاً فشيئاً.

انطلقت الصافرة من جديد وكانت أشد قريباً هذه المرة، ثم مر قطار الشحن، وقفوا يراقبانه وهو يندفع على السكة التي كانا يدفعان عليها عربتهما منذ أقل من خمس عشرة دقيقة، تردد صدى الصافرة التحذيرية في الأفق البعيد، ومن فوق النهر بين الغيوم الكثيفة ناحية الشرق لمع برق متكسر صامت أزرق اللون. قالت هارييت: «علينا أن نأتي إلى هنا أكثر»، لم تكن تتظر إلى السماء بل إلى الإسفلت الأسود اللزج الذي يندفع عبر النفق تحت أقدامهما؛ كانت تتحدث مع نفسها كأنه ليس هناك من يسمعها مع أن هيلي كان يقف خلفها مباشرة، كأنها تتحني فوق شلال ماء يتدفق من السد، ورذاذه يتساقط على وجهها، وضجيجها يصم الأذان عن كل شيء عدا صوت الماء.

نقرت الأفعى على الصندوق فأفزعتها.

قالت هارييت بصوت مرح وودود: «حسنًا، اهدئي الآن»، حملا الصندوق معاً ووضعاه بين الجدار الخرساني وأكياس الأسمنت

المتكدسة، ثم ركعت هاربيت على الأرض بين بقايا أكواب القهوة البلاستيكية المتكسرة وأعقاب السجائر التي تركها العمال، وحاولت إخراج كيس أسمنت فارغ من تحت الأكياس المكسدة. قال هيلي وهو مرهق من الحر: «علينا أن نسرع»؛ كان يشعر أن هذا الطقس الساخن يشبه بطانية رطبة تثير الحكّة، وكان أنفه يسيل بسبب غبار الأسمنت والقش الذي في الحقول والهواء الراكد المشحون.

تمكنت هاربيت من انتزاع الكيس الفارغ، فراح يرفرف في الهواء كأنه راية غريبة في بعثة استكشافية إلى القمر! أسرع فوضعتَه على الأرض، وانحنت خلف أكياس الأسمنت التي تشبه متراًساً، فانحنى هيلي بجانبها وساعدها في وضع الكيس فوق صندوق الأفعى، وثبّته من الحواف بقطع الأسمنت حتى لا يطير مع الريح.

تساءل هيلي في نفسه في فضول غريب عمّ يفعله الكبار الآن في البلدة داخل منازلهم: هل يراجعون حساباتهم ويتابعون التلفاز أم يلعبون كلابهم؟ كان هواء الليل منعشاً منشطاً، ويمنحك إحساساً بالوحدة، لم يشعر هيلي أنه بعيد عن عالمه المألوف كما يشعر الآن، كأن سفينته الفضائية تحطمت على كوكب صحراوي؛ حطام سفينة ورايات مرفرفة وجنازة عسكرية للضحايا وصلبان يدوية ملقاة على التراب، وفي الأفق البعيد تلوح أنوار متفرقة من مستوطنة معادية للاتحاد، هتف صوت صارم في رأسه: ابقَ بعيداً عن السكان! وإلا ستجلب الموت لك وللقتاة.

نهضت هاربيت واقفة وقالت: «سوف تكون بخير هنا».

قال هيلي بصوت عميق كأنه رائد فضاء: «ستكون بخير!»
«الأفاعي ليست في حاجة إلى أن تأكل كل يوم، أمل فقط أن تكون قد شربت جيداً عندما كانت في تلك الشقة».
لمع البرق مجدداً، كان أكثر سطوعاً هذه المرة، وعلى الفور تقريباً دوى الرعد.

أزاح هيلي شعره عن عينيه وقال: «لنعد من الطريق الطويل».
قالت: «لماذا؟»، ثم أضافت عندما لم يجبها: «لا يزال أمامنا زمن طويل قبل وصول القطار القادم من شيكاغو».
فاجأته حدة نظرتها... «سوف يمر القطار خلال نصف ساعة من الآن».
«نستطيع أن نسبقه».

قال هيلي: «افعلي ما تشائين! أنا سأسير على الطريق»، كان سعيداً لأن صوته خرج أقوى مما يشعر.
قالت بعد صمت: «إذن، ماذا ستفعل بهذه العرية؟»
فكر هيلي لحظة، ثم قال: «أظنني سأتركها هنا».
«في العراء؟»

قال هيلي: «من يهتم؟ لم أعد أعب بها».
«قد يعثر عليها أحدهم».
«لن يصعد أحد إلى هذا الجسر».

ركضا نزولاً على المنحدر الأسمنتي، وكان ذلك ممتعاً والرياح تلاعب شعريهما، جعلتهما قوة الاندفاع يبلغان وسط البقعة الترابية المظلمة قبل أن يفلحا في استعادة أنفاسهما ويتباطأ إلى مشية سريعة.

قالت هاربيت: «ستمطر بعد قليل».

أجاب هيلي وهو يشعر أنه لا يقهر: «وماذا في ذلك؟» كان يشعر بالانتشاء كأنه قائد عسكري كبير.. فاتح الكواكب! ثم قال: «انظري يا هاربيت!»، وأشار إلى لافتة ذات إنارة جميلة تتألق بشكل خفيف وسط الأرض التي قلبتها البلدوزرات فصارت أشبه بسطح القمر، كان مكتوبًا على اللافتة:

«كروم التراث»

بيوت المستقبل

قال هيلي، وهو يضحك: «يبدو أن المستقبل سيكون فظيئًا، أليس كذلك؟»

سارا على حافة الطريق السريع رقم 5 متجنبين أعمدة الإنارة وصناديق القمامة، كان هيلي واعيًا لخطورة أن يشاهدهما والده؛ فهو يعلم أن أمه طلبت من والده أن يذهب إلى متجر جامبو قبل أن يغلق أبوابه لشتري لها الآيس كريم. دخلا الشوارع الجانبية المظلمة فور تمكنهما من ذلك، وسارا متجهين نحو الساحة إلى سينما بيكس.

قالت الفتاة ذات الوجه اللامع الجالسة خلف كوة بيع التذاكر وهي تنظر إليهما من فوق حافة نظارتها: «انتهى نصف الفيلم». قال هيلي: «لا مشكلة في ذلك»، أعطى الفتاة الدولارين اللذين كانا معه، وتراجع قليلًا، وهو يلوح بذراعيه، وساقاه ترتجفان بتوتر. كان آخر شيء في العالم يرغب في فعله هو الجلوس لمشاهدة النصف الأخير من فيلم عن سيارات فولكس فاغن تحدث. وفي اللحظة التي أغلقت فيها الفتاة صندوق النقود

ومدت يدها لتأخذ حلقة مفاتيحها لتفتح الباب لهما، دوى صوت صافرة بخار من بعيد: قطار الثامنة وسبع وأربعين دقيقة المتجه إلى نيو أورليانز، يدخل الآن محطة ألكساندريا.

لكم هيلي كتف هاربيت، وقال: «علينا أن نقفز إلى ذلك القطار ونذهب إلى نيو أورليانز.. في يوم ما».

أشاحت هاربيت عنه بوجهها وطوت ذراعيها على صدرها ثم نظرت إلى الشارع، كان الرعد يهدر في الأفق البعيد، وعلى الرصيف المقابل كانت المظلة الواقية أمام متجر الأدوات تخفق في الريح، وبضعة أوراق ممزقة تتطاير وتتدحرج على الرصيف. نظر هيلي إلى السماء ومدّ يده، وفي اللحظة التي وضعت فيها الفتاة المفتاح في قفل الباب الزجاجي، سقطت على جبهته قطرة ماء ضخمة.

قال داني: «غام! هل أنت قادرة على قيادة السيارة؟»، كان منتشياً من المخدرات كأنه طائفة ورقية. بدت له جدته نحيلة جداً كأنها صبار عجوز في فستانها البيتي الأحمر المزهر. فكر في نفسه وهو ينظر إليها من الكرسي الذي يجلس عليه: جدتي مزهرة! زهرة ورقية حمراء.

وقفت غام ثابتة (كأنها صبار) لحظة قبل أن تتهد وتجييه بصوتها الشائك: «قيادة السيارة ليست مشكلة، المشكلة أن تلك السيارة منخفضة جداً، وليست مناسبة لي لأنني مصابة بالتهاب المفاصل».

«حسنًا، أنا لا أستطيع...»، توقف داني وأعاد النظر في كلامه، ثم أكمل بعد لحظة: «أستطيع أن أوصلك إلى المحكمة إن أردت، لكن ذلك لن يصلح مشكلة انخفاض السيارة».

كان كل شيء يبدو غير ملائم لطول جدة داني، حينما كانت شاحنة البيك آب تعمل كانت تشتكي أن المقعد عالٍ جدًا. قالت غام بصوت وادع: «أوه، لا أمانع إذا أوصلتني يا بني! قد تكون هذه فرصة لتستفيد من دروس قيادة الشاحنات التي دفعت من أجلها مالا كثيرًا».

مضت إلى السيارة بخطوات بطيئة جدًا وهي مستتدة إلى ذراع داني بيدها البنية الصغيرة المتيبسة، سارا عبر الفناء الترابي الممهّد حيث كان فاريش جالسًا على كرسيه يفك هاتفًا، تبادر إلى ذهن داني أن أشقاءه جميعًا -وهو أيضًا- لديهم نظرة عميقة إلى جوهر الأشياء (ومضت هذه الفكرة في ذهنه فجأة، مثلما تأتي الأفكار العظيمة عادة). يستطيع كورتيس أن يرى الخير الذي في الناس، ويستطيع يوجين رؤية حضور الرب في العالم وكيف يكون لكل شيء مكانه ومرتبته في الطبيعة، ويرى داني ما في عقول الناس، ويفهم ما يجعلهم يتصرفون بهذا الشكل أو ذاك، بل هو قادر أحيانًا (هذا ما جعلته المخدرات يفكر فيه) على رؤية شيء من المستقبل، أما فاريش (قبل إصابته على أي حال) فكانت نظرته عميقة أكثر منهم، فاريش يفهم القوة والاحتمالات الخفية وما يجعل الأشياء تسير وتعمل سواء كان ذلك محركات أم حيوانات في سقيفة التحنيط. أما في هذه الأيام فإذا اهتم فاريش بشيء ما فإنه يقطعه إربًا ويرمي أجزائه على الأرض في كل اتجاه حتى يتأكد أنه لا يوجد شيء مشتبه فيه داخله.

لا تحب غام الراديو، لهذا قاد السيارة إلى البلدة في صمت تام، كان داني منتبهًا إلى كل جزء معدني في هيكل السيارة البرونزي، وكيف تعمل هذه الأجزاء متغاممة مع بعضها.

قالت له بصوت مسالم: «كنت قلقة منذ البداية أنك لن تستفيد شيئاً من وظيفتك في قيادة الشاحنات».

لم يقل داني شيئاً، كانت أيام قيادة الشاحنات قبل أن يُعتقل للمرة الثانية أسعد أيام حياته، كان يتجول كثيراً ويعزف الغيتار في الليل، وكان لديه آمال ضبابية بأن ينشئ لنفسه فرقة موسيقية. كانت قيادة الشاحنة تبدو له أمراً عادياً مضجراً جداً إذا قورنت بالمستقبل الذي رسمه لنفسه، أما الآن عندما يستعيد تلك الأيام ويتذكرها (لم يمضِ عليها إلا بضع سنوات مع أنها تبدو عمراً كاملاً) فإنه يحن إلى الأوقات التي قضاها في الشاحنات وليس في الحانات.

تهددت غام وقالت بصوتها الواهي: «أعتقد أن هذا أفضل، كنت ستمضي حياتك كلها في تلك الشاحنة حتى تموت».

فكر داني في نفسه: هذا أفضل من بقائي عالقاً في المنزل. كانت جدته تعدّه غيباً لأنه يحب ذلك العمل، كانت تكرر دائماً: «داني ليس لديه طموح في الحياة، من الجيد أنه ليس لديك توقعات كبيرة يا داني، لأن أملك لن يخيب». كان هذا أهم درس زرعته في رؤوس أحفادها: لا تتوقع كثيراً من هذا العالم! العالم مكان قاسٍ... كلب يأكل كلباً (كانت هذه من بين مقولاتها المفضلة)، إذا بالغ أيٌّ من أحفادها في تطلعاته، أو حاول أن يعلو وأن يتجاوز نفسه فسوف يشهد سقوط آماله وتحطمها، لكن من وجهة نظر داني لم يكن هذا درساً ذا قيمة.

قالت وهي تضع يديها في حجرها، كان ظهر يديها مليئاً بالبقع الداكنة والندبات والأوردة الضامرة: «مثلما كنت أقول لريكي لي عندما حصل على منحة كرة السلة لدخول جامعة دلتا، كان عليه أن يعمل في الليل بالإضافة إلى دراسته وتدريبات كرة السلة فقط ليتمكن من دفع ثمن كتبه. قلت له: لا تعجبني أبداً فكرة أنك مضطر إلى العمل بجهد أكثر من أي شخص آخر يا ريكي، وفي النهاية سيتمر عليك الأولاد الأغنياء الذين يملكون أكثر منك».

قال داني: «صحيح»، عندما أدرك أن جدته كانت تتوقع منه أن يقول شيئاً. لم يقبل ريكي لي المنحة؛ فقد نجحت جدته مع فاريش في إقناعه برفضها بعد أن أمطراه بسيل من العبارات الساخرة، وأين أصبح ريكي الآن؟ في السجن.

«تخيل هذا! يذهب إلى الجامعة ويعمل طيلة الليل، فقط كي يلعب كرة السلة».

أقسم داني على أنه سيجعل غام تقود السيارة بنفسها عند ذهابها إلى المحكمة في الغد.

استيقظت هاربيت ذلك الصباح وظلت تحرق إلى السقف بعض الوقت قبل أن تتذكر أين هي، نامت وهي ترتدي ملابسها كلها مرة أخرى، ودون أن تغسل قدميها، استوت جالسة ونزلت إلى الطابق السفلي.

كانت آيدا ريو تنشر الملابس المغسولة في الفناء، وقفت هاربيت تنظر إليها، فكرت في أن تذهب وتستحم دون أن يطلب

منها أحد ذلك لتُرضي آيدا، لكنها عدلت عن تلك الفكرة: فإذا كان ظاهراً عليها أنها لم تغتسل ووثيابها متسخة، فإن هذا سيوضح لآيدا أهمية بقائها هنا، كانت آيدا مُنحنية فوق السلة تهمهم وفمها ممتلئ بملاقط الغسيل، لم يَبْدُ عليها حزن أو انزعاج.. كانت مشغولة فقط.

نظرت إليها هاربيت، ثم سألتها: «هل طُردت؟» أجفلت آيدا، ثم أخرجت مشابك الغسيل من فمها، وقالت ببهجة عميقة جعلت قلب هاربيت يغور في صدرها: «صباح الخير يا هاربيت! ألسنت متسخة كثيراً؟ ادخلي واستحمي».

«هل طُردت؟»

قالت آيدا وهي تعود إلى عملها: «لا، أنا لم أُطرد، قررت أن أذهب إلى هاتيسبرغ لأعيش هناك مع ابنتي».

كانت العصافير تغرد فوق رؤوسهم، هزت آيدا غطاء وسادة مبلاً بقوة فأصدر صوتاً شديداً، وضعت على الحبل وثبته بملقط، قالت: «هذا ما قررت فعله، لقد حان الوقت».

كان فم هاربيت جافاً، وقالت لها: «كم تبعد هاتيسبرغ؟».

طرحت هذا السؤال على الرغم من معرفتها -دون أن يخبرها أحد بهذا- أن تلك البلدة قريبة من ساحل الخليج على بعد مئات الأميال.

«بعيدة جداً، على طول الطريق إلى هناك تنتصب أشجار الصنوبر ذات الأوراق الطويلة، أنت لم تعودتي بحاجة إليّ..»، قالت آيدا تلك الكلمات الأخيرة بطريقة عادية جداً كأنها تقول لهاربيت إنها لم تعد بحاجة إلى تناول مزيد من الحلوى أو الكوكا كولا،

أكملت: «كنت أكبر منك ببضع سنوات عندما تزوجت وأصبح لدي طفل»

شعرت هارييت بالصدمة والإهانة. كانت تكره الأطفال، وكانت آيدا تعلم جيدًا كم تكرههم.

«نعم، يا سيدتي!»

قالت آيدا دون اهتمام، وهي تعلق قميصًا آخر على حبل الغسيل: «كل شيء يتغير، كان عمري خمسة عشر عامًا عندما تزوجت تشارلي تي، وأنت أيضًا ستتزوجين عما قريب».

لم يكن هناك جدوى من الجدل معها: «هل سيذهب تشارلي تي معك؟»

«سيذهب».

«هل يرغب في الذهاب؟»

«أظن ذلك».

«ماذا ستعملين هناك؟»

«ماذا؟ أنا أم تشارلي؟»

«أنت».

«أظن أنني سأعمل في بيت أحدهم هناك، أهتم بأطفال آخرين».

هل يعقل أن آيدا.. آيدا ستتركها؟! من أجل طفل صغير يسيل لعابه!

سألت آيدا ببرود: «متى ستذهبين؟»

«الأسبوع القادم».

لم يكن هناك شيء آخر ليقال، كان تصرف آيدا يدل بوضوح

على أنها غير مهتمة بمواصلة الحديث. وقفت هاربيت تراقبها لحظة، وهي تتحني إلى السلة، وتعلق الملابس، ثم تتحني إلى السلة مجددًا، غادرت هاربيت عبر الحديقة في ضوء الشمس الخالي من الحياة. دخلت المنزل فرأت أمها تتجول حائرة وهي ترتدي قميص نومها الأزرق الخفيف، عبرت المطبخ وحاولت تقبيلها، لكن هاربيت تملصت منها وخرجت من الباب الخلفي. قالت والدتها: «هاربيت! ما بك يا حبيبتي؟»، كانت تقف بالباب الخلفي تناديه بصوت يثير الشفقة: «بيدو أنك غاضبة مني يا هاربيت!»

نظرت آيدا إلى هاربيت عندما مرت على مقربة منها، فأخرجت ملاقط الغسيل من فمها، وقالت لها بذلك الصوت الذي كان يجعلها تتوقف على الفور: «أجيبي أمك!» قالت هاربيت: «لم أعد مضطرة إلى سماع كلامك!»، ثم تابعت سيرها.

قالت إيدي: «إذا كانت أمك راغبة في ترك آيدا تذهب فلا يمكنني التدخل».

حاولت هاربيت أن تنظر في عيني إيدي، لكنها فشلت في ذلك، قالت أخيرًا: «لَمْ لَا؟» عندما رأت إيدي تعود إلى قلمها ودفترها: «إيدي.. لَمْ لَا؟»

أجابتها إيدي، وهي تحاول أن تقرر ماذا ستأخذ معها في رحلتها إلى تشارلستون: «لأنني لا أستطيع» كانت ترتدي حذاءً أزرق مريحًا، لكنها كانت تشعر أنه لا يتماشى مع بدلاتها الصيفية

الفاتحة، كانت أيضًا منزعة قليلاً لأن تشارلوت لم تستشرها في قرار مهم مثل فصل خادمتها.

قالت هاربيت متسائلة: «لكن لماذا لا تستطيعين التدخل؟»

وضعت إيدي قلمها من يدها، وقالت: «يا هاربيت، هذا ليس من شأني».

«شأنك!»

قالت إيدي بصوت أكثر إشراقاً: «لم أَسْتَشِرْ في الأمر، لا تقلقي يا فتاتي الصغيرة»، نهضت لتصب كوباً آخر من القهوة، وضعت يدها على كتف هاربيت، وقالت: «كل شيء سيحل لصالحك! سترين!»

جلست إيدي مع قهوتها راضية بأنها أوضحت الأمور لهاربيت بسهولة، قالت بعد لحظة من الصمت الذي كان يبدو مريحاً لها: «أتمنى لو كان لدي بعض تلك البدلات الجميلة التي لا تحتاج إلى الكي لأخذها في رحلتي. البدلات التي لدي كلها مهترئة، القطن والكتان ليسا عمليان للسفر. كان بإمكانني تعليق البدلات في المقعد الخلفي في السيارة...».

لم تكن تنتظر إلى هاربيت بل إلى مكان فوق رأسها، عادت إلى أفكارها من غير أن تلاحظ احمرار وجه هاربيت ونظراتها العدوانية.

بعد لحظات (كانت إيدي خلالها شاردة الذهن) سمعت خطوات تقترب من الباب الخلفي، اقترب شكل مظلم من الباب، وضع يده على جبهته، وراح ينظر من خلال شبكة الباب: «مرحباً! إيديث؟»

صاح صوت آخر مبتهج: «أوه، لا أصدق! هل هذه هارييت التي أراها عندك؟»

قبل أن تفلح إيدي في النهوض، كانت هارييت قد قفزت وركضت إلى الباب، تجاوزت تات ومضت إلى ليبي التي لا تزال واقفة على الشرفة.

قالت إيدي لتات التي كانت تنظر إلى هارييت وتبتسم: «أين هي أديليد؟»

نظرت تات إليها وقالت: «توقفت عند متجر البقالة لتشتري علبة قهوة دون كافيين».

قالت ليبي بصوت خافت: «هارييت، يا إلهي! ما أروع هذا الترحيب...».

قالت إيدي بنبرة حادة: «هارييت، لا تتعلقي بليبي هكذا». سمعت من الشرفة صوت ليبي يقول: «هل أنت واثقة بأنك بخير يا ملاكي؟»

قالت تات: «يا للهول! لماذا تبكي هذه الطفلة؟»

«ليبي.. كم تدفعين لأودين كل أسبوع؟»

«يا إلهي! ما الذي يجعلك تطرحين سؤالاً كهذا؟»

نهضت إيدي وسارت إلى الباب، وخاطبتها بنبرة حادة: «هذا ليس من شأنك يا هارييت! ادخلي».

قالت ليبي وهي تستعيد ذراعها من هارييت وتعديل نظارتها على عينيها وتنظر إلى هارييت بحيرة بريئة لا ريبة فيها: «أوه..! هارييت لا تضايقني».

قالت تات وهي تسير خلف إيدي: «تعني جدتك.. ما تعنيه جدتك يا هارييت أنه ليس من التهذيب سؤال الناس عن النقود». منذ طفولة هارييت، كانت مهمة تات أن تعيد صياغة عبارات إيدي وقراراتها الحادة بطريقة دبلوماسية.

قالت ليبي صادقة: «لا يهمني، اسمعي يا هارييت! أدفع لأودين خمسة وثلاثين دولارًا كل أسبوع».

«لكن أُمي لا تعطي أيًا إلا عشرين دولارًا، هذا ليس عدلاً، أليس كذلك؟»

دهشت ليبي من كلام هارييت، رفرفت بعينيها وقالت بعد لحظة صمت قصيرة: «الحقيقة، أنا لا أعلم.. أعني، أن أمك ليست مخطئة، لكن..».

قاطعتها إيدي التي لم تكن ترغب في تضييع فترة الصباح كلها في مناقشة أمر خادمة مطرودة: «يبدو شعرك جميلاً يا ليبي! أليس شعرها جميلاً؟ من الذي صفف شعرك هذه المرة؟» قالت ليبي: «إنها السيدة رايان». رفعت يدها إلى شعرها بحركة مرتبكة.

قالت تات بنبرة بهيجة: «الآن صرنا كلنا شائبات، وصار يصعب التفريق بيننا».

قالت إيدي بنبرة صارمة: «ألا يعجبك شعر ليبي، يا هارييت؟» أشاحت هارييت بوجهها فقد كانت على وشك البكاء.

قالت تات مازحة: «أعرف فتاة صغيرة لا تطيق الجلوس لقص شعرها، هل لا تزال أمك ترسلك إلى الحلاق يا هارييت، أم أنك صرت تذهبين إلى صالون التجميل؟»

قالت إيدي: «أظن أن السيد ليبرتي يؤدي عمله جيداً ولا يتقاضى نصف ما يتقاضاه صالون التجميل. كان عليك يا تات أن تقولي لأديلايد ألا تتوقف عند متجر البقالة. قلت لها إن لدي كمية من شراب الشوكولاتة في تلك المغلفات الصغيرة التي أشتريها دائماً من أجلها».

«أنا لم أقل لها يا إيدي! لكنها تقول إنها لا يجوز أن تستهلك السكر».

تراجعت إيدي إلى الخلف خطوة متظاهرة بالدهشة: «لم لا؟ هل يجعلها السكر متوترة الأعصاب أيضاً؟»

في الآونة الأخيرة، كانت أديلايد ترفض تناول القهوة قائلة إنها تسبب لها توتراً.

«إن كانت تريد قهوة دون كافيين، فلا أرى سبباً لئلا تشتريها».

أطلقت إيدي ضحكة ساخرة، وقالت: «ولا أنا، بكل تأكيد، لا أريد أن تتوتر أعصاب أديلايد».

فوجئت ليبي بهذا الكلام، فقالت: «ماذا؟ ماذا تقولون عن توتر الأعصاب؟»

«أوه، ألا تعلمين؟ أديلايد لا تستطيع شرب القهوة، لأنها تجعلها متوترة الأعصاب». بدأت أديلايد تقول هذا مؤخراً بعد أن سمعته من صديقتها في جوقة الكنيسة السيدة بيتكوك.

قالت تات: «أنا أيضاً أحب أن أتناول فنجان قهوة دون كافيين من وقت إلى آخر، لكن هذا لا يعني أنني لا أشرب غيرها، يمكنني الاستغناء عنها».

«نحن لسنا في رحلة إلى الكونغو البلجيكي. يبيعون قهوة دون كافيين في مدينة تشارلستون، وليست بحاجة إلى أن تحمل في حقيبتها عبوة كبيرة من تلك القهوة».

«لا أرى مانعاً أن تأخذها معها، ألا تأخذين عبوات الشوكولاتة التي تحبينها معك؟»

تدخلت ليبي وقد صارت قلقة قليلاً: «تعلمين يا إيديث أن آدي تستيقظ في الصباح مبكراً، وهي تخشى ألا تبدأ خدمة الغرفة في الفندق قبل الساعة السابعة أو الثامنة...».

«ولهذا السبب، سأخذ معي هذه الشوكولاتة! لن يضر فتجان من الشوكولاتة الحارة أدليداً».

قالت ليبي: «لا يزعجني أي مشروب، تبدو الشوكولاتة الحارة مشروباً لذيذاً». صفقت بيديها والتفتت إلى هاريت وأضافت: «فكري فقط!.. فكري في أننا سنكون في ساوث كارولينا في مثل هذا الوقت من الأسبوع المقبل! أنا متحمسة جداً!»

قالت تات مبتسمة: «صحيح، وسوف تقود جدتك البارعة السيارة بنا طيلة تلك المسافة».

«لا أدري إن كنت بارعة، لكنني أتوقع أن أستطيع الوصول بنا جميعاً إلى ذلك المكان ثم العودة سالمين».

قالت هاريت بسرعة: «ليبي.. آيدا ريو تركت العمل، سوف ترحل عن البلدة...».

قالت ليبي: «تركت!»، كان سمعها ثقيلاً بعض الشيء، ثم نظرت إلى إيديث مستفهمة، إذ إن إيديث تميل دائماً إلى الكلام بصوت مرتفع وبنبرة أوضح.. «أظن أن عليك أن تتكلمي ببطء أكبر يا هاريت».

قالت إيدي وهي تعقد ذراعها على صدرها: «إنها تتحدث عن آيدا ريو التي تعمل لديهم، سوف ترحل، لكن هاربيت حزينة لهذا، أخبرتها أن الأمور تتغير وإن الناس يغادرون، هكذا هو العالم». نظرت ليبي إلى هاربيت نظرة تعاطف صادق.

قالت تات: «أوه، هذا نبأ سيئ جداً، سوف تشتاقين إلى آيدا، أعلم أنك ستشتاقين إليها يا حبيبتي، إنها معك منذ زمن طويل». قالت ليبي: «آه.. لكن هذه الطفلة تحب آيدا، أنت تحبين آيدا، أليس هذا صحيحاً يا عزيزتي؟ أنت تحبينها مثلما أحب أودين». تبادلت تات وإيدي نظرات كلها دهشة، قالت إيدي: «أنت تحبين أودين أكثر مما ينبغي يا ليبي!». منذ زمن بعيد لا يزال كسل أودين موضوع تدُّر بين شقيقات ليبي، تجلس في البيت وتقول إنها تشعر بتوعك، فتحضر لها ليبي المشروبات الباردة وتغسل الأطباق والأواني بدلاً منها.

قالت ليبي: «لكن أودين معي منذ خمسين عاماً، إنها أسرتي. بحق السماء، لقد كانت معي في بيت تريبيوليشن، وهي الآن ليست في صحة حسنة».

قالت تات: «إنها تستغلك، يا ليبي».

قالت ليبي التي تورّد وجهها كله لشدة انفعالها: «عزيزتي! أريد أن أقول لك إن أودين حملتي وخرجت بي من البيت عندما كنت مريضة بالالتهاب الرئوي.. في ذلك الوقت، عندما كنا في الريف، حملتي! حملتي على ظهرها طيلة الطريق من تريبيوليشن حتى تشيبوكيس».

قالت إيدي دون اهتمام: «لكن من المؤكد الآن أنها لا تؤدي قدرًا كبيرًا من العمل».

التفتت ليبي إلى هاريت بكل هدوء، وحدقت إليها عيناها العجوزان النديتان بنظرة ثابتة متعاطفة.

وبكل بساطة قالت: «أمر فظيع أن يكون المرء طفلًا تحت رحمة الآخرين».

قالت تات محاولة تشجيع هاريت وهي تطوق كتفيها بذراعيها: «انتظري فقط إلى أن تكبري! عندئذٍ سيكون لك بيتك وستصير أيذا ريو قادرة على القدوم لتعيش معك، ما رأيك في هذا؟»
قالت إيدي: «هذا كلام فارغ، سوف تتجاوز هذا الأمر سريعًا، الخادومات يأتين ويذهبن...».

صرخت هاريت فأفزعتهن جميعًا: «لن أتجاوز هذا الأمر أبدًا!»

قبل أن تفلح أي منهن في قول شيء، أبعدت هاريت ذراع تات عنها واستدارت لتجري خارجًا، رفعت إيدي حاجبها مستاءة كأنها تريد القول: هذا ما تحملته طوال الصباح!

قالت تات أخيرًا: «يا إلهي!» ومسحت جبينها بيدها.

قالت إيدي: «سأقول لكما الحقيقة.. أظن أن تشارلوت مخطئة، لكني سئمت التدخل في شؤونهم».

«لكنك كنت دائمًا تديرين أمور تشارلوت، يا إيدي».

«هذا صحيح، ولهذا السبب لا تعرف تشارلوت كيف تفعل أي شيء بنفسها، أظن أن الوقت قد حان لتتولى قدرًا أكبر من المسؤولية».

قالت ليبي: «ولكن، ماذا عن الفتاتين؟ هل ترين أن أحوالهما ستكون على ما يرام؟»

أومأت إيدي في الاتجاه الذي اتخذته هاربيت وقالت: «يا ليبي، كانت على عاتقك إدارة بيت تربيوليشن والاعتناء ببابا وبنا جميعًا عندما لم تكوني أكبر منها إلا قليلًا».

«هذا صحيح، لكن هاتين الطفلتين ليستا مثلنا يا إيدي! هما أكثر حساسية».

«لو كنا حساسات لما اختلف الأمر كثيرًا، لم يكن لدينا أي خيار آخر».

قالت أديلaid مع وصولها إلى الشرفة (كانت تضع البودرة وأحمر الشفاه وشعرها مسرّح حديثًا): «ما خطب تلك الطفلة؟ رأيتها تجري في الشارع بأقصى سرعتها.. متسخة جدًا، لم تقبل حتى أن تكلمني».

قالت إيدي: «فلندخل جميعًا! لقد وضعت القهوة على النار، لمن يستطيعون شربها بالطبع». كان حر ذلك الصباح في ازدياد. أطلقت أديلaid صيحة دهشة وقد توقفت كي تعبر عن إعجابها بحوض من أزهار السوسن الوردية: «يا سلام! هذه الأزهار صارت جميلة جدًا!»

«هي من نوع سوسن الزفير؟ أتيت بها من البرية؟ قلعته من الأرض في ذروة الشتاء ثم وضعته في أصص، وفي الصيف الذي أعقب ذلك لم تثبت عندي أزهار غيرها».

انحنى أديلaid صوب الأزهار: «انظري إليها الآن!»

نظرت ليبي من فوق درابزين الشرفة، وقالت: «أمنّا كانت تدعوها سوسنات المطر الوردية».

«اسمها الحقيقي سوسن الزفير».

«أمنّا كانت تدعوها المطر الوردية، لقد استخدمنا هذه الأزهار في جنازتها، واستخدمنا أيضًا أزهار مسك الروم، عندما ماتت كان الحر شديدًا».

قالت إيدي: «عليّ أن أدخل الآن سأصاب بضربة شمس، سأجلس في الداخل وأشرب فنجان قهوة ريثما تنتهين من الحديث على الشرفة».

قالت أديليد: «هل يمكنك أن تسخني لي قليلًا من الماء، لا أستطيع شرب القهوة، فهي تجعلني...».

رفعت إيدي حاجبها وقالت لها: «تجعلك متوترة! لا بأس! بكل تأكيد، لا نريد أن تكوني متوترة، يا أديليد».

طاف هيلي الحي كله على دراجته لكنه لم يستطع العثور على هاربيت في أي مكان. كان الجو الغريب في بيتها مقلّمًا (جو غريب حتى بالنسبة إلى هاربيت نفسها)، لم يأت أحدٌ لفتح الباب. فتح بنفسه ودخل فوجد أليسون جالسة إلى طاولة المطبخ تبكي، وكانت آيدا تتحرك هنا وهناك وتمسح أرض المطبخ كأنها لا تسمع بكاءها، لم تتطّق أي منهما بكلمة، واستغرب هيلي ذلك كثيرًا.

قرر أن يبحث في المكتبة العامة، لفحت وجهه نسمة هواء باردة قادمة من المكيف عندما فتّح الباب الزجاجي، كانت المكتبة

باردة دائماً صيفاً شتاء. استدارت السيدة فوسيت في كرسيها عند مكتب الاستقبال ولوحت له بيدها فرنت أساورها الكثيرة، لوّح لها هيلي بيده، وقبل أن تتمكن من الإمساك به ومحاولة تسجيل اسمه في برنامج القراءة الصيفي، تجاوزها بأقصى سرعة يمكنه أن يتحرك فيها بأدب ودخل صالة المطالعة. وجد هاريت جالسة تحت صورة لثوماس جيفرسون، كانت مستندة إلى الطاولة بمرفقيها وأمامها أكبر كتاب رآه هيلي في حياته كلها. قال وهو يجلس على الكرسي المجاور لها: «مرحباً!»، كان متحمساً جداً فلم يستطع أن يحافظ على صوته منخفضاً، وقال: «احزري ماذا! سيارة داني راتليف متوقفة أمام مبنى المحكمة». وقع نظره على الكتاب الضخم (رأى الآن أن ذلك الكتاب كان مجموعة صحف موضوعة ضمن غلاف واحد)، وفوجئ عندما رأى على ذلك الورق المصفر صورة غير واضحة لوالدة هاريت.. فمها مفتوح وشعرها أشعث. إنها واقفة أمام بيت هاريت نفسه، وكان عنوان المقالة «مأساة عيد الأم»، وفي مقدمة الصورة يظهر رجل غير واضح المعالم يحمل نقالة ويسير نحو ما بدا أنه سيارة إسعاف، لكن طبيعة السيارة ليست واضحة تماماً.

قال بصوت مرتفع، وكان مسروراً بنفسه: «انظري! إنه بيتك!» أغلقت هاريت الكتاب، وأشارت بإصبعها إلى لافتة مكتوب عليها «ممنوع الكلام».

همس هيلي: «هيا!»، وأشار إليها بأن تتبعه. دفعت هاريت بالكرسي إلى الخلف دون أن تقول كلمة واحدة، ثم لحقت به إلى الخارج.

خرج هيلي وهاربيت إلى الرصيف حيث الحر ووهج الشمس الذي يعمي العينين، فقال لها وهو يظلل عينيه بكف يده: «اسمعي! إنها سيارة داني راتليف، أنا أعرفها، لا توجد سيارة مثلها في البلدة كلها، لو لم تكن متوقفة أمام مبنى المحكمة تمامًا، لوضعت قطعة زجاج تحت إحدى عجلاتها».

فكرت هاربيت في آيدا ريو وأليسون اللتين تجلسان الآن في البيت وقد أسدلتا الستائر، تتابعان ذلك المسلسل السخيف الذي فيه أشباح ومصاصو دماء.

قالت له: «فلنأتِ بتلك الأفعى ونضعها في سيارته».

قال هيلي وقد أتاه صحو مفاجئ: «مستحيل! لا نستطيع أن نأتي بها تلك المسافة كلها محمولة على العربة، سوف يرانا الجميع!»

قالت هاربيت بمرارة: «لماذا أخذناها إن لم نكن نستطيع أن نجعلها تلدغه؟»

ظلا بعض الوقت يقفان صامتتين على درجات المكتبة، وبعد حين تنهدت هاربيت وقالت: «سأعود إلى الداخل».

«انتظري!»

التفتت إليه.

«اسمعي، كنت أفكر في...».

لم يكن يفكر في أي شيء، لكنه شعر أنه مرغم على قول شيء لينقذ ماء وجهه، أكمل: «كنت أفكر أن سيارته لها سقف متحرك». لا يزال وجه هاربيت خاليًا من أي تعبير، أضاف: «أنا مستعد للمراهنة بمليون دولار على أنه سيسلك طريق المقاطعة

ليعود إلى بيته، أولئك الأوباش جميعاً يعيشون في تلك المنطقة خلف النهر».

قالت هارييت: «صحيح، منزله هناك، بحثتُ عن عنوانه في دليل الهاتف».

«إذاً، عظيم! بما أن الأفعى موجودة فوق الجسر...»
رمقته هارييت بنظرة ازدراء.

قال هيلي: «ماذا بك؟ ألم تري ذلك في الأخبار منذ أيام؟ أولئك الأطفال في ممفيس الذين راحوا يقذفون السيارات بالحجارة من فوق الجسر؟»

انعقد حاجبا هارييت، لا أحد يتابع الأخبار في بيتها.
«كانت حادثة كبيرة جداً، مات فيها شخصان، قال أحد رجال الشرطة إن عليك أن تغير طريقك إذا رأيت أطفالاً ينظرون إليك من الأعلى». لكز هيلي قدمها بمقدمة حدائه الرياضي، وأضاف: «ماذا بك؟ أنت لا تفعلين أي شيء هنا؟ دعينا على الأقل نذهب للاطمئنان على الأفعى، أنا أودّ رؤيتها من جديد، ألا تودين هذا؟ أين دراجتك؟»

«جئت سيراً».

«لا مشكلة، اجلسي على مقود دراجتي، سأخذك إلى هناك إذا عدت معي إلى البيت».

كانت هارييت تحدث نفسها وهي جالسة فوق الجسر المغبر الذي تجلده الشمس: حياة من غير أيدي! لولا أيدي لما شعرت بكل هذا الحزن الآن. كل ما عليّ فعله هو التظاهر بأنني لم

أعرفها قط، فهذا أمر بسيط. فما من فرق سيحدث في البيت بعد رحيلها، كانت الآثار التي تدل على حضورها على الدوام قليلة: زجاجة شراب الكارو الأسود التي تحتفظ بها في خزانة المؤونة لتضع منها على الخبز، وكأس بلاستيكية حمراء تملؤها بالجليد في صباحات الصيف وتحملها معها لتشرب منها (كان والدا هاربيت لا يحبان أن تشرب آيدا من كؤوس المطبخ، تشعر هاربيت بالخجل كلما تذكرت ذلك)، هناك أيضاً المريلة التي تعلقها آيدا على شرفة البيت الخلفية، وعلب السعوط التي تضع فيها بذار الطماطم، وكذلك رقعة الخضار خلف البيت.

هذا كل شيء! لقد عملت آيدا في هذا المنزل طيلة حياة هاربيت، لكن عندما تختفي هذه الأشياء الصغيرة (الكأس البلاستيكية وعلب السعوط وزجاجة الشراب) لن يبقى فيه أي دليل على أنها كانت هنا، كان هذا الأمر يزيد من همّ هاربيت، تخيلت الحديقة مهجورة تغزوها الأعشاب الضارة.

قالت في نفسها: «سأعتني بها، سأشتري بعض البذور من الإعلان في المجلة». تخيلت نفسها مرتدية ملابس العمل، وعلى رأسها قبعة من القش تماماً مثل إيدي، وهي تدوس بقوة على حافة المجرفة. إيدي تزرع الزهور، فهل يختلف الأمر عن زراعة الخضراوات؟ ربما تشرح لها إيدي كيف تفعل هذا، ومن المحتمل أن تكون إيدي مسرورة لأن هاربيت مهتمة بشيء مفيد.

تبادر القفازان الأحمران إلى ذهنها، اجتاحت جسدها موجة من الخوف والارتباك والفراغ وسط الحر الشديد، كان القفازان هدية آيدا الوحيدة وقد أضاعتهما، حاولت أن تطرد هذه الأفكار

وقالت في ذهنها: «لا سوف أعثر عليهما، لا داعي للتفكير في هذا الآن، سأفكر في أمر آخر».

فيمَ ستفكر الآن؟ فكرت في أنها ستصبح يوماً ما عالمة نبات مشهورة تفوز بجائزة كبيرة. تخيلت نفسها مثل جورج واشنطن كارفر، تسير بين الزهور مرتدية ثوب المختبر الأبيض. ستصبح عالمة لامعة، لكنها ستظل متواضعة ولن تتقاضى مالا مقابل اختراعاتها العبقريّة.

تبدو الأشياء مختلفة عند النظر من فوق الجسر في النهار؛ المراعي ليست خضراء بل جافة بنية اللون، وفيها بقع ترابية حمراء حيث رعتها الماشية فلم تُبقِ منها شيئاً. وعلى امتداد أسيجة الأسلاك الشائكة تتسلق نباتات كثيفة متشابكة مع اللبلاب السام. وبعد ذلك مساحات واسعة لا شيء فيها، ولا حتى دروب ترابية، لا شيء غير هيكل باقٍ من كوخ قديم وألواح خشبية رمادية وسقف صدئ، شيء أشبه بسفينة غارقة قذفت بها الأمواج إلى الشاطئ.

كان ظل أكياس الأسمنت المكسدة كثيفاً بشكل غير متوقع، وكان يبعث في المكان برودة لطيفة. كان الأسمنت نفسه بارداً عندما استندت إليه هاربيت بظهرها، قالت في نفسها: «سأ تذكر هذا اليوم طوال حياتي، سأذكر إحساسي الآن» كان يُسمع هديرٌ مستمرٌ لآلة زراعية فوق التلة بعيداً عن الأنظار، وفي السماء كانت ثلاث طائرات ورقية تحلق عالياً كأنها صقور، ستظل هذه الأجنحة السوداء التي ترفرف في السماء الصافية علامة على اليوم الذي فقدت فيه أيّداً، وكذلك سيظل هذا المرعى الذي بلا ظل وهذا الهواء الجاف مثل الزجاج.

كان هيلي جالسًا قبالتها، ساقاه مطويتان وسط الغبار الأبيض، وظهره مستند إلى الجدار الأسمنتي، كان يقرأ كتابًا مصورًا على غلافه صورة سجين يرتدي بذلة مخططة، يزحف بين القبور على يديه وركبتيه. بدا هيلي نصف نائم، على الرغم من أنه ظل ساعة كاملة يراقب الطريق بتركيز جاثيًا على ركبتيه. كان يهمس: «شش! ششش!» كلما مرت سيارة تحت الجسر.

حاولت هاربيت أن تُركّز أفكارها على حديقة الخضراوات، ستكون أجمل حديقة في العالم، ستكون مليئة بالأشجار المثمرة والأسيجة المزينة والملفوف المزروع في صفوف منتظمة، في النهاية ستشغل حديقتهما الفناء كله وفناء السيدة فاونتين أيضًا. سيتوقف المارة، ويطلبون أخذهم في جولة داخل حديقتهما، وسيكون اسمها «حداائق آيدا ريو التذكارية»، لا، سارعت هاربيت إلى تصحيح فكرتها، لن تكون «تذكارية»، لأن الكلمة قد توحى أن آيدا ميتة.

فجأة انقض أحد الصقور، ثم تبعه الصقران الآخران كأن أحدهم جذب خيوط تلك الطائرات الورقية بقوة، انقضت الصقور لتلتهم فأرًا في الحقل أو جرذًا أرغمه جرار زراعي على الخروج من مخبئه، وفي البعيد شاهدت سيارة غير واضحة تقترب في الهواء المتموج، ظلت هاربيت عينيها بيديها، وقالت بعد لحظة: «هيلي!»

سقط الكتاب من يد هيلي، قال وهو يقترب لينظر: «هل أنت متأكدة؟». إنذاران كاذبان حتى هذه اللحظة.

قالت: «إنه هو»، ثم حَبَّت عبر الغبار الأبيض على يديها وركبتيها متجهة صوب الجدار الآخر حيث كان الصندوق جاثماً فوق أربعة أكياس أسمنت.

دقق هيلي نظره على الطريق؛ شاهد سيارة تلوح في الأفق ضمن موجة رجراجة من الغبار ودخان البنزين، لم يبدُ له أنها مقترية بسرعة كافية لتكون السيارة المقصودة، همّ بقول هذا عندما انعكست أشعة الشمس على السيارة فبان له لونها البرونزي المعدني. وفي وسط ذلك السراب المتأرجح من الحر، ظهرت له مقدمة السيارة لامعة مثل وجه سمكة قرش.. لا يمكن أن تخطئها العين.

أخفض رأسه خلف الجدار (أبناء راتليف يحملون مسدسات، لا يدري كيف لم يتذكر هذا الأمر إلا الآن). زحف إليها ليساعدها، تعاوناً معاً فقلبا الصندوق على جانبه حتى صار الشبك المعدني مواجهاً للطريق، في المرة السابقة عند أول إنذار كاذب، شعرا أنهما مشلولان عندما كان على أحدهما أن يمد يده إلى الواجهة ذات الشبك المعدني ليرفع المزلاج دون أن يرى ما يفعله، ظلاً حائرين مرتبكين حتى مرت السيارة تحتها، أما الآن فقد كان المزلاج مفتوحاً، وقد وضعاً مكانه عوداً من الآيس كريم حتى يتمكنوا من فتح الواجهة الشبكية دون لمسها.

نظر هيلي إلى السيارة، كانت تقترب منهما ببطء مقلق، لقد رآنا، لا بد أنه رآنا، لكن السيارة لم تتوقف، رفع رأسه متوتراً ونظر إلى الصندوق الذي كان أعلى من مستوى رأسيهما.

كانت هاربيت تتنفس كأنها مصابة بالربو، ألقت نظرة سريعة من فوق كتفها، وقالت: «حسنًا! هذا هو الوقت؛ واحد، اثنان...». اختفت السيارة تحت الجسر، فتحت هاربيت الصندوق، صار العالم كله بطيء الحركة لحظة أمالا الصندوق معًا. انزلت الكوبرا ولوحت بذيلها محاولة حفظ توازنها، وفي تلك اللحظة تدافعت في رأس هيلي أفكار كثيرة كان أهمها: كيف سيهربان الآن؟ هل يستطيعان الجري أسرع منه؟ سوف يتوقف بالتأكد، وكيف لا يتوقف عندما يرى كوبرا تسقط على سيارته، وسوف يلاحقهما.

اهتز الأسمنت تحت أقدامهما لحظة انزلت الكوبرا متحررة من الصندوق وسقطت في الهواء، نهضت هاربيت واقفة، يداها على الجدار الأسمنتي، ووجهها قاسٍ لئيم مثل صبي في الصف الثامن، قالت: «أُلْقِيَت القنبلة».

انحنيا فوق الجدار لينظرا، شعر هيلي بالدوار، كانت الكوبرا تتلوى في الهواء متجهة نحو الإسفلت في الأسفل. قال في نفسه: لقد أخطأناه! نظر إلى الطريق الخالي في الأسفل.. وفي تلك اللحظة، في تلك اللحظة تمامًا، ظهرت السيارة المكشوفة تحتها، تحت الأفعى الساقطة، تحتها تمامًا.

منذ سنوات كان بمبرتون يرمي كرات البيسبول لهيلي في الشارع أمام بيت جدتهما في حي باركواي في ممفيس، كان منزلها قديمًا مع بعض الإضافات الحديثة (معظمها من الزجاج)، قال له بمبرتون: «إذا أصبت تلك النافذة فسوف أعطيك مليون دولار».

قال هيلي: «حسنًا».

لَوَّحَ بالمضرب دون تفكير وضرب الكرة دون أن ينظر إليها، فطارت مسافة بعيدة جعلت بمبرتون يفتح فمه في دهشة شديدة، إذ رآها تمر من فوقه، وتبتعد بسرعة هائلة في خط مستقيم دون أي انحراف حتى اصطدمت بالزجاج: اخترقت واجهة الشرفة الزجاجية واستقرت في حضن جدته التي كانت تتكلم في الهاتف، كانت تكلم والد هيلي، كانت تلك رمية مستحيلة، احتمالاً لا يتجاوز واحدًا من مليون، لم يكن هيلي ماهراً في لعب البيسبول، بل كان آخر من يمكن أن يقع عليه الاختيار للمشاركة في الفريق، لم يسدد قط كرة بهذا الارتفاع ولا بهذه القوة ولا بهذه الثقة، سقط المضرب من يده وهو يحدق إلى الكرة التي راحت ترسم قوسًا واضحًا نظيفًا وتستقر في النافذة الوسطى في تلك الشرفة الزجاجية.

الغريب أنه علم في تلك اللحظة أن الكرة ستكسر زجاج جدته، شعر بذلك عندما ضربها بالمضرب. وقف ينظر إليها وهي تتجه نحو الزجاج كأنها صاروخ موجه، ولم يكن لديه وقت ليفكر في شيء سوى الفرح العارم الذي اجتاحه وضربات قلبه المتسارعة (قبل أن تصيب الزجاج، قبل أن تصيب ذلك الهدف البعيد المستحيل). أصبح هيلي وكرة البيسبول واحدًا، وشعر أنه كان يقودها بعقله كأن الرب قرر (لسبب ما) في تلك اللحظة العجيبة أن يهبه تحكمًا ذهنيًا كاملاً بهذه الكرة التي كانت تسير بأقصى سرعتها نحو هدفها المحتوم.

وعلى الرغم مما تلا ذلك من بكاء وضرب، فإن تلك اللحظة ظلت من أكثر لحظات حياته إرضاء، والآن كان هناك عدم التصديق نفسه، والذعر نفسه، والنشوة نفسها، والرعب الضاحك نفسه إزاء قوى الكون التي لا مهرب منها، تلك القوى التي هبّت متاغمة وتركزت كلها معاً في هذه اللحظة المستحيلة التي لا يمكن تصورها، وقف يراقب الكوبرا البالغ طولها خمسة أقدام وهي تسقط على السيارة وتتحرف، ثم ينزلق ذيلها الثقيل إلى داخل السيارة ليجذب بقية جسدها خلفه.

لم يعد هيلي قادراً على السيطرة على نفسه، وثب في الهواء وهو يلوح بقبضة يده قائلاً: «نعم!» راح يصرخ ويقفز في مكانه كأنه شيطان صغير، أمسك بذراع هاربيت وهزها مشيراً بإصبعه إلى السيارة التي توقفت بعد أن انحرفت جانباً إلى جانب الطريق، استقرت على حافة الطريق المرصوف بالحصى بعد أن تطايرت الحصى تحت عجلاتها وحلق غبار كثيف حولها.

ثم سكنت السيارة تماماً، وقبل أن يتمكن أيٌّ منهما من الحركة أو الكلام، فتح باب السيارة، لم يخرج منها داني راتليف بل مخلوقٌ يشبه مومياء هزيلة، مخلوق ضعيف لا جنس له يرتدي بذلة صفراء قبيحة، ترنحت تلك المومياء على الإسفلت، وهي تضرب نفسها بيدين مهترتين، ثم توقفت، ثم خطت بضع خطوات في الاتجاه المعاكس، صرخت بألم: «آآآيي!» كان صراخها ضعيفاً وخافتاً مع أن الكوبرا كانت متعلقة في كتفها: خمسة أقدام من جسد أسود طويل متدلٍّ في الهواء ومعلق من رأسه (كانت علامة النظارة واضحة تماماً على ذلك الرأس)؛ وكان ذيلها الضيق الأسود يتلوى في كل اتجاه ويشير زوبعة من غبار أحمر.

وقفت هارييت مصدومة؛ فمع أنها تصورت تلك اللحظة تصورًا واضحًا، فهي هي ذي تحدث الآن بطريقة خاطئة كأنها تنظر إليها عبر منظار مقرب مقلوب.. كانت الأصوات بعيدة وغير بشرية، والحركات غير مفهومة، حركات يسكنها دُعر طقسي لا تنتمي إلى هذا العالم، الآن صار الانسحاب مستحيلًا، وصار مستحيلًا رفع القطع وطي رقعة الشطرنج والبدء من جديد.

استدارت هارييت وانطلقت راكضة، سمعت خلفها قعقة وصوت رياح مندفة، ثم تجاوزتها دراجة هيلي نازلة المنحدر، وطارت مبتعدة على الطريق السريع.. الآن على كل واحد أن يفر بجلده، كان هيلي منحنيًا فوق دراجته كأنه واحد من «السعادين المجنحة» في كتاب «ساحر أوز»، وقدماء تدوسان بقوة على دواستي الدراجة.

ركضت هارييت، وضربات قلبها تتسارع، وصراخ ذلك الكائن الضعيف (آآآيبي.. آآآآيبي..) يتردد في أذنها دون معنى، كانت السماء تتوهج بلهبٍ قاتل متقدة بالحر، ابتعدت عن حافة الطريق، وانتقلت إلى العشب خلف السياج الذي يعلوه لافتة تقول: «ممنوع الدخول»، ثم عبرت المرعى.. ما استهدفوه وأصابوه وسط الوهج المتصاعد من الجسر، لم يكن السيارة بحد ذاتها بقدر ما كان لحظة فاصلة لا رجعة فيها: أصبح الزمن الآن مثل مرآة خلفية، والماضي يتراجع إلى الوراء حتى يتلاشى عند تلك النقطة.

قد يجعلها الركض تتقدم إلى الأمام، وقد يعيدها إلى المنزل، ولكنه لن يستطيع إعادة عقارب الزمن إلى الوراء، لا عشر دقائق، ولا عشر ساعات، ولا عشر سنوات، ولا حتى عشرة أيام، وقد

كان هذا قاسياً، لو سألت هيلي الآن لقال إنه قاسٍ؛ قاسٍ لأن الماضي هو ما ترغب في العودة إليه، ولأن ذلك الماضي كان المكان الوحيد الذي كانت تتمنى أن تبقى فيه.

مضت الكوبرا مسرورة بين الأعشاب العالية في مرعى الأبقار متجهة نحو دفاء الشمس ونباتات لا تختلف كثيراً عما اعتادته في موطنها الأصلي، مضت بعيداً داخل أسطورة البلدة وخرافاتها، في الهند كانت تصطاد عند أطراف القرى والمراعي الزراعية (تتسلل إلى مخازن الحبوب وقت الغسق وتقتات على الجردان)، وقد وجدت في مستودعات الذرة والحبوب ومقالب القمامة في موطنها الجديد هذا بيئة مثالية للتكيف والبقاء. وعلى مر السنوات القادمة سيتحدث المزارعون والصيادون والسكراري عن الكوبرا، وسوف يحاول المغامرون اصطياها أو قتلها، وسوف تقال قصص كثيرة عن ميتات غامضة في الأماكن التي تظهر فيها.

في غرفة الانتظار بقسم العناية المركزة، سأل فاريش بلهجة متوترة: «لماذا لم تكن معها؟ هذا ما أريد معرفته. ظننتك مسؤولاً عن إعادتها إلى البيت».

«كيف كان لي أن أعلم أنها خرجت مبكراً؟ كان عليها أن تتصل بي في صالة البلياردو، عندما عدت إلى مبنى المحكمة في الساعة الخامسة، كانت قد رحلت». أراد داني أن يقول: تركتني عالقاً هناك، لكنه آثر الصمت، اضطر حينها إلى السير حتى

مفسلة السيارات والبحث عن كاتفيش ليوصله إلى المنزل.
كانت أنفاس فاريش صاخبة كعادته عندما يكون على وشك أن
يفقد أعصابه، قال بحدة: «لا تبرر.. كان عليك أن تنتظر هناك
معه».

«في المحكمة! خارج المحكمة في السيارة.. طيلة النهار!»
أطلق فاريش شتيمة غاضبة، وقال وهو يشيح بوجهه: «كان
عليّ أن أخذها بنفسى، كان يجب أن أدرك أن شيئاً كهذا سيحدث».
همّ داني بالرد: «يا فاريش..»، لكنه توقف مفضلاً ألا يذكر
شقيقه بعجزه عن قيادة السيارة.

قال فاريش بصوت حاد: «لماذا لم تأخذها بالشاحنة الصغيرة؟
أجبني!»

«قالت إن الشاحنة مرتفعة جداً عليها، يصعب عليها صعودها..
مرتفعة جداً» كرر عبارته عندما لمح الشك في عيني فاريش.
قال فاريش: «لقد سمعتك». ثم نظر إلى داني نظرة طويلة،
نظرة لم تخلُ من التوبيخ والعتاب.

كانت غام في وحدة العناية المشددة موصولة بقسطرتين
وريديتين وجهاز مراقبة القلب والتنفس. أحضرها إلى المستشفى
سائق شاحنة عابرة، صادف مروره في تلك اللحظة فرأى مشهداً
غريباً.. عجوزاً مترنحة على الطريق السريع وكوبرا ملكية متدلية
من كتفها.

أوقف السائق سيارته، ونزل منها مسرعاً حاملاً أنبوباً
بلاستيكياً طوله ستة أقدام كان في صندوق سيارته. ضرب الأفعى
فسقطت، ثم زحفت بسرعة مبتعدة واختفت بين الأعشاب. أخبر

الطبيب في غرفة الإسعاف أنه واثق تمامًا بأنها كوبرا، فقد رأى علامة النظارة المميزة على رأسها المسطح، قال إنه يعرف شكل الكوبرا جيدًا لأنها مرسومة على علبة مسدس الهواء المضغوط. أضاف السائق، الذي كان رجلاً قصير القامة ذا وجه عريض مبتهج: «إنها مثل الأرماديلو والنحل القاتل، ربما جاءت من تكساس وصارت أكثر شراسة».

قال الدكتور بريدلوف الذي كان يراجع فصل «الزواحف السامة» في كتابه الطبي: «إن كان ما تقوله صحيحًا، فهي قادمة من مكان أبعد بكثير من تكساس».

كان الدكتور بريدلوف على معرفة جيدة بالسيدة راتليف من زياراتها المتكررة لقسم الطوارئ. وصفها الممرضون بطريقة ساخرة أنها تأتي دائمًا مترنحة يداها على صدرها، تلقي الأوامر على أحفادها حتى وهي في سيارة الإسعاف. بدت قصة الكوبرا خرافية، لكن أعراضها كانت تتفق تمامًا مع سم الكوبرا: تدلى جفناها، وانخفض ضغط دمها، واشتكت صعوبة في التنفس وألمًا في الصدر. لم يظهر أي تورم في موضع اللدغة، مثلما يحدث مع لدغات الأفعى ذات الجرس، لم تكن اللدغة عميقة، وبدا أن الحشوة الإسفنجية التي تبطن كتفي بدلتها منعت الأفعى من غرس أنيابها عميقًا.

غسل الدكتور بريدلوف يديه الضخمتين الورديتين، وخرج إلى مجموعة الأحفاد الواقفين خارج الغرفة بقلق واضح.

قال لهم بهدوء: «تظهر عليها أعراض تسمم عصبي: تدلى الجفون، صعوبة في التنفس، وانخفاض في ضغط الدم وعدم

وجود وذمة مكان اللدغة. سنبقيها تحت مراقبة دقيقة لأنها قد تحتاج إلى جهاز تنفس صناعي».

نظر الأحفاد إلى الدكتور بريدلوف مرتابين، في حين راح الأصغر (الذي بدا كأنه يعاني تأخرًا عقليًا) يلوح بيده بحماس قائلاً بصوت مرح: «مرحبًا!»

تقدم فاريش خطوة إلى الأمام كان واضحًا أنه زعيمهم.

قال متجاوزًا الطبيب: «أين هي؟ دعوني أكلمها».

«سيدي! سيدي! يؤسفني أن هذا غير ممكن الآن، سيدي! عليّ أن أطلب منك العودة فورًا إلى صالة الانتظار».

قال فاريش: «أين هي؟»، كان يقف وسط آلات وأنايب ومعدات تصدر طنينًا.

وقف الدكتور بريدلوف بثبات أمامه وقال: «سيدي، إنها بحاجة إلى الراحة الآن» وبحركة خبيرة (مستعينًا باثنين من المساعدين) أدار فاريش ورافقه بلطف إلى الممر قائلاً: «لا يجوز إزعاجها في هذه اللحظة، ولا يمكنك فعل شيء لمساعدتها الآن. انظر، هناك غرفة انتظار، يمكنك الجلوس هناك».

خلّص فاريش ذراعه من قبضة الطبيب، وسأله: «ماذا تفعلون من أجلها؟»، كان صوته يحمل نبرة مشحونة بالاتهام كأن أي شيء يفعلونه لها غير كافٍ.

عاد الدكتور بريدلوف إلى حديثه التوضيحي عن جهاز مراقبة القلب والتنفس وعن انسداد الأضفان وعدم وجود وذمة مكان اللدغة، لكن ما لم يقله هو أن المستشفى ليس لديه ترياق لسم الكوبرا، ولا يوجد سبيل للحصول عليه.

لم يستفد الدكتور بريدلوف كثيرًا من تلك الدقائق التي قضّاها في تقليب صفحات كتاب الطب الباطني، لم يكن الكتاب يحتوي إلا على معلومات سطحية عن هذه الحالة النادرة التي لم تُدرس في كلية الطب. صحيح أن هناك تريبًا نوعيًا للدغة الكوبرا، لكنه يتوفر فقط في المراكز الطبية الكبرى وحدائق الحيوان الكبيرة، ويجب إعطاؤه خلال ساعات قليلة من اللدغة وإلا فإنه يفقد فعاليته تمامًا.

هذا يعني إن على تلك السيدة العجوز أن تعتمد على قوتها الذاتية لتتجو، قال الكتاب إن لدغة الكوبرا قاتلة بنسبة تتراوح بين عشرة وخمسين في المئة، وهذا مجال واسع جدًا.. والأرقام لا توضح إن كانت هذه النسبة تشمل الحالات التي تُعالج أو تلك التي لا تُعالج.

علاوة على هذا كانت المريضة عجوزًا تعاني أمراضًا مزمنة عديدة، وسجلها الطبي حافل بالمشكلات الصحية. وإن ألح أحدهم على معرفة احتمالات بقائها على قيد الحياة حتى نهاية الليل أو حتى الساعات المقبلة، فليس لدى الدكتور بريدلوف أي فكرة عما يستطيع قوله في هذا الشأن.

وضعت هاربيت سماعة الهاتف وصعدت الطابق العلوي، دخلت غرفة أمها دون أن تطرق الباب، ووقفت عند سريرها، وقالت لها: «سأذهب غدًا إلى مخيم دي سيلبي».

رفعت والدتها هاربيت رأسها عن المجلة التي كانت تمسكها بين يديها، كانت تنظر نصف نائمة إلى مقال يتحدث عن إحدى

زميلاتهن السابقات في الدراسة، التي تشغل الآن وظيفة معقدة في مبنى الكونغرس، لكنها لم تستطع أن تفهم طبيعة تلك الوظيفة. «اتصلت بإيدي، سوف تأخذني بالسيارة».

«ماذا؟»

«لقد بدأت المرحلة الثانية من المخيم، قالوا لإيدي إن هذا مخالف للقواعد، لكنهم سيقبلونني. بل إنهم منحوها تخفيضاً على الرسوم».

انتظرت هاريت رد والدتها بصبر نفذ سريعاً، لكن والدتها لم تقل شيئاً، على الرغم من أن موافقتها لم تعد مهمة، فالكلمة الأخيرة الآن لإيدي، مهما كان مخيم دي سيلبي مزعجاً، فهو بالتأكيد ليس بسوء الإصلاحية أو السجن.

اتصلت هاريت بجدها بسبب ذعرها الشديد، ففي أثناء ركضها في شارع نيتشه، سمعت صفارات سيارات تعوي من بعيد (لم تدرك إن كانت تلك سيارة شرطة أم سيارة إسعاف)، كان ذلك حتى قبل أن تبلغ منزلها.

دخلت المنزل بخطوات عرجاء وهي تلهث بشدة، وساقاها متشنجتان، وألم حارق يشتعل في رثتها. أغلقت باب الحمام على نفسها في الطابق السفلي بإحكام، ثم خلعت ملابسها وألقته في سلة الغسيل. جلست متييسة في الحوض واستحمت، وهي تحرق إلى خيوط الضوء الرفيعة المتسللة عبر فتحة التهوية. لكن صوتاً غامضاً -بدا كأنه أصوات بشرية قادمة من باب المنزل- زاد من حدة ذعرها، سمعت تلك الأصوات أكثر من مرة. ماذا تفعل إذا جاءت الشرطة؟

تجمدت خوفاً وانتظرت أن يدق أحدهم باب الحمام في أي لحظة، ظلت جالسة مكانها إلى أن برد الماء، فارتدت ملابسها وخرجت، سارت على أطراف أصابعها حتى بلغت باب البيت واختلست النظر إلى الخارج من خلال الستائر الخفيفة، لكنها لم ترَ أحداً في الشارع. كانت آيدا قد غادرت، وبدا البيت ساكناً منذراً بالشؤم، شعرت كأن سنوات قد انقضت، مع أن ذلك كله لم يستغرق خمساً وأربعين دقيقة.

وقفت في صالة البيت، وراحت تنظر من النافذة، أتعبها الوقوف هناك، لكنها لم تستطع إجبار نفسها على الصعود إلى الطابق العلوي، راحت تسير جيئةً وذهاباً بين الصالة وغرفة المعيشة وتنظر من النافذة كلما مرت من أمامها. سمعت أصوات الصفارات مجدداً، وكاد قلبها يتوقف عن الخفقان عندما خيل إليها أن تلك السيارة انعطفت إلى شارع جورج، وقفت وسط غرفة المعيشة عاجزة عن الحركة من الخوف، وخلال وقت قصير جداً خانتها أعصابها فطلبت رقم إيدي، ثم حملت السماعة ومضت بها إلى النوافذ الجانبية ذات الستائر الخفيفة حتى تستطيع متابعة مراقبة الشارع في أثناء كلامها في الهاتف.

تحركت إيدي سريعاً، لا بد من الاعتراف بهذا، تحركت بسرعة تستحق الشكر عليها لدرجة أن هاربيت شعرت بشيء من العاطفة المتجددة نحوها. لم تطرح أي أسئلة حين أخبرتها هاربيت متلثمة بأنها غيرت رأيها بشأن مخيم الكنيسة، وأنها ترغب في الذهاب في أقرب وقت ممكن. على الفور اتصلت إيدي ببحيرة دي سيلبي، وعندما لمست تردداً في صوت فتاة في المكتب (بدا أن فمها

ممتلئ طعاماً) طلبت الكلام مباشرة مع الدكتور فانس، وبعد وقت قصير أتمت الترتيبات كلها، ثم عاودت الاتصال بهارييت (في غضون عشر دقائق فقط) وأخبرتها بما يتعين عليها تحضيره من أجل المخيم، وقالت لها أيضاً إن عليها أن تجلب الإذن بالتزلج على الماء، أبلغتها أنها ستنام في سرير علوي داخل أحد الأكواخ التي هناك، وأنها ستمرّ لاصطحابها إلى المخيم في الساعة السادسة صباحاً.

لم تتسَّ أيدي أمر المخيم كما ظنت هارييت، لكنها كانت قد ضاقت ذرعاً بالمعاناة المستمرة معها ومع والدتها، كانت ترى أن أم هارييت لم تكن مساندة لها في هذه الأمور، كانت أيدي مقتنعة أن مشكلة هارييت الحقيقية تكمن في قلة اختلاطها بالأطفال الآخرين لا سيما الأطفال المعمدانيين اللطيفين، ولما رأت الآن أن هارييت قد التزمت الصمت (رغم صعوبة عليها)، تحدثت بحماسة عبر الهاتف عن الوقت الرائع الذي ستقضيه هارييت في المخيم، وعن المنافع الجمة التي ستجنيها من الانضباط والروح الرياضية المسيحية.

ساد صمت ثقيل في غرفة والدتها، وضعت تشارلوت المجلة جانباً، وقالت بنبرة متعجبة: «هذا كله مفاجئ جداً، أظن أنك أمضيت وقتاً سيئاً في ذلك المخيم».

«سنغادر قبل أن تستيقظي، تحب أيدي السفر مبكراً. فكرت أنه عليّ إخبارك».

قالت تشارلوت: «ما الذي غير رأيك؟»
رفعت هارييت كتفيها بحركة وقحة.

«الحقيقة.. أنا فخورة بك»، لم تجد تشارلوت شيئاً آخر لتقوله، لاحظت أن هاربيت صارت نحيلة جداً، وأن الشمس قد لُوحت بشرتها، من أصبحت تشبه بهذا الشعر الأسود المسترسل والدقن النافر على هذا النحو؟

قالت بصوت مسموع: «أساءل أين ذهب ذلك الكتاب عن الطفلة هايواتا الذي كان لدينا في المنزل؟»

التفتت هاربيت نحو النافذة كأنها تتوقع رؤية أحد هناك. حاولت تشارلوت متابعة الحديث: «أقصد أنه من المستحسن أن تكوني جزءاً من شيء.. أن تُشاركي في النشاطات» لكن مظهر هاربيت مع ذراعيها المعقودتين وقصة شعرها تركا لديها انطباعاً غريباً.

كانت أليسون واقفة خلف باب غرفة أمها تحاول استراق السمع، أو هكذا افترضت هاربيت، تبعثها أليسون عندما خرجت إلى الممر، ووقفت عند باب غرفتهما تراقبها وهي تفتح درج خزانها، تخرج منه جوارب التنس وملابسها الداخلية وقميص المخيم الأخضر المتبقي من الصيف الماضي.

قالت: «ماذا فعلت؟»

توقفت هاربيت، وقالت: «لا شيء، ما الذي يجعلك تظنين أنني فعلت شيئاً؟»

«تتصرفين كأنك ارتكبت مشكلة».

بعد لحظة صمت طويلة عادت هاربيت إلى جمع ملابسها التي ستأخذها معها، لكنها شعرت بحرارة في وجنتيها.

قالت أليسون: «عندما تعودين من المخيم، ستكون آيدا قد رحلت».

«لا يهمني».

«هذا آخر أسبوع لها، إذا ذهبت إلى المخيم فلن تريها بعد الآن».

وضعت هاريت حذاءها الرياضي في حقيبتها وأجابت ببرود:
«وماذا في ذلك؟ هي لا تحبنا».
«أعلم ذلك».

قالت هاريت بنبرة حاولت جعلها طبيعية على الرغم من أن قلبها كاد يتوقف: «فلماذا يجب أن أهتم؟»
«لأننا نحبها».

سارعت هاريت إلى الإجابة: «أنا لا أحبها»، أقفلت هاريت حقيبتها ورمت بها على السرير.

في الطابق السفلي، أخرجت هاريت ورقة بيضاء من درج الطاولة في الصالة، وجلست في الضوء الخافت تكتب الرسالة التالية:

عزيزي هيلي
سأذهب غدًا إلى المخيم، آمل أن يكون ما تبقى من صيفك سعيدًا، ربما نكون في فصل واحد في المدرسة عندما نصبح في الصف السابع السنة المقبلة.
صديقتك

هاريت س. دو فريسنس
ما إن وضعت قلمها حتى رن جرس الهاتف، قررت هاريت ألا ترفع السماعة، لكنها غيرت رأيها بعد ثلاث أو أربع رنات، رفعت السماعة بحركة حذرة.

أثاها صوت هيلي ضعيفاً متقطعاً عبر هاتقه الذي يشبه قبة كرة القدم: «ألم تسمعي تلك الصافرات قبل قليل؟»

قالت هارييت: «كتبت إليك رسالة». شعرت بالصالة باردة كأنها في فصل الشتاء لا في شهر آب، ومن الشرفة المظلمة بأغصان الكرمة تسلك الضوء رمادياً وجافاً وباهتاً، قادماً عبر ستائر النوافذ الجانبية الصغيرة وعبر فتحة التهوية فوق الباب، تابعت: «ستأخذني إيدي غداً إلى المخيم».

«مستحيل! لا تذهبي! هل فقدت عقلك؟»، كان صوته كأنه قادم من أعماق المحيط.

«لن أبقى هنا».

«فلنهرب معاً».

«لا أستطيع»، رسمت هارييت بإصبع قدمها علامة سوداء لامعة على طبقة الغبار التي غطت قاعدة الطاولة المنحوتة من خشب الورد، ذلك الغبار النقي الذي يشبه الغبار المتراكم على ثمرة خوخ سوداء.

«ماذا لو كان أحدهم قد رأى؟ هارييت!»

«أنا هنا».

«ماذا عن عريتي الحمراء؟»

قالت هارييت: «لا أدري» لكنها كانت تفكر في عربة هيلي التي لا تزال العربة فوق الجسر مع الصندوق الفارغ.

«هل أذهب لأحضرها؟»

«لا، قد يراك أحد، اسمك ليس مكتوباً عليها، أليس كذلك؟»

«ليس مكتوباً، وأنا لا أستخدمها أبداً، لكن يا هارييت من كانت

تلك السيدة؟»

«لا أدري».

«بدت لي عجوزًا جدًّا .. تلك السيدة».

تلا ذلك صمت كصمت الكبار، ليس مثل صمتهما المعتاد عندما لا يعود لديهما شيء يقولانه فيجلس كل واحد منهما منتظرًا أن يقول الآخر شيئًا.

أخيرًا قال هيلي: «عليّ أن أذهب الآن، أمي تعد فطائر للعشاء».

«حسنًا».

ظلا على الخط، يتنفسان في صمت: هاربيت في صالة بيتها ذات السقف المرتفع، وهيلي مستلقٍ في غرفته على سريره العلوي.

قالت هاربيت: «ماذا حدث لأولئك الأطفال الذين كلمتني عنهم؟»

«أي أطفال؟»

«أولئك الأطفال الذين كانوا في الأخبار، أولئك الذين رموا حجارة من فوق الجسر في ممفيس».

«أوه! أولئك الأطفال .. قبضوا عليهم».

«وماذا فعلوا لهم؟»

«لا أدري، أظنهم أرسلوا إلى السجن».

أعقب ذلك صمت طويل آخر.

قال هيلي: «سأكتب لك بطاقة بريدية، سيكون لديك شيء لتقرئيه عندما يوزعون البريد، وإذا حدث شيء فسوف أخبرك».

«لا تخبرني، ولا تكتب أي شيء .. لا تكتب عن ذلك الأمر».

«أنا لن أخبر أحدًا».

«أعلم أنك لن تخبر أحداً، لكن لا تذكر أي شيء عن هذا الموضوع».

«حسناً، لن أتحدث فيه مع أي شخص يصادفني».

«لا تتحدث فيه إطلاقاً. ولا حتى مع.. كريغ دي لوش. هل تسمعي؟ يا هيلي»، علا صوتها على اعتراضاته... «عدني بأنك لن تخبره أبداً».

«كريغ يعيش بعيداً في هيكوري سيركل، ولا أراه إلا وقت المدرسة، فضلاً عن هذا، لا يمكن أبداً أن يشي كريغ بنا، أعلم أنه لا يمكن أن يشي بنا».

«لا تقل له أي شيء، إذا أخبرت شخصاً واحداً فقط...».

قال بصوت بائس: «ليتي كنت ذاهباً معك، ليتي أهرب إلى أي مكان. أنا خائف، أظن أننا ألقينا تلك الكوبرا على جدة كورتيس».

«اسمعي! أريد أن تعدني، لا تخبر أحداً لأن...».

«إن كانت تلك جدة كورتيس، فهذا يعني الآخرين أيضاً... داني، وفاريش، والواعظ!» انفجر ضاحكاً بشكل هستيري وأضاف: «هؤلاء الرجال سيقتلونني!»

قالت هاربيت بجدية: «صحيح؛ ولهذا لا يجوز أن تخبر أحداً. إذا حافظنا على الصمت...».

رفعت رأسها فجأة، وأجفلت عندما رأت أليسون تقف عند باب غرفة المعيشة على بعد أقدام قليلة منها.

سمعت صوت هيلي خافتاً على الهاتف: «أمر سيئ أنك ذاهبة، لا أستطيع تصديق أنك ستذهبين إلى ذلك المخيم الممعداني البائس».

أشاحت هارييت بوجهها عن أختها وأصدرت صوتًا غامضًا محاولة الإشارة إلى هيلي بأنها عاجزة عن الحديث بحرية؛ لكن هيلي لم يفهم الإشارة.

«ليتي أستطيع الذهاب إلى أي مكان، كان من المفترض أن نذهب هذه السنة في عطلة إلى جبال سموكي، لكن أبي يقول إنه لا يريد إرهاق السيارة برحلة طويلة كهذه. اسمعي... أتظنين أنك تستطيعين أن تتركي معي بضع نقود من فئة ربع دولار لأتصل بك إذا اضطررت إلى ذلك؟»

«ليس لدي أي مال»، هذه هي عادة هيلي، يحاول دائمًا ابتزازها وأخذ المال منها، مع أنه هو الذي يتلقى مصروفًا من أهله، عندما رفعت عينيها كانت أليسون قد اختفت. «أتمنى ألا تكون جدته، أتمنى ألا تكون جدته».

«عليّ أن أذهب الآن»، لماذا صار الضوء حزينًا هكذا؟ شعرت هارييت كأن قلبها يتكسر، في المرآة المقابلة رأّت في انعكاس الجدار المتسخ فوق رأسها (الخص المتشقق، والصور القاتمة المعلقة عليه، والشمعدانات المذهبة التي فقدت بريقها) غيمة من البقع السوداء المتعفنة.

لا تزال قادرة على سماع أنفاس هيلي المتقطعة، ليس هناك شيء حزين في بيت هيلي.. كل شيء بهيج وجديد، والتلفاز يعمل دائمًا، لكن صوت أنفاسه يبدو لها مختلفًا ومأساويًا عندما يبلغ بيتها عبر أسلاك الهاتف.

قال هيلي: «طلبت أُمّي أن تكون الأنسة إيرليكسون مدرستي عندما نبدأ الصف السابع هذا الخريف، أظن أننا لن نرى بعضنا كثيرًا بعد أن تبدأ المدرسة».

أطلقت هاربيت صوتًا موحياً بأنها غير مبالية بالأمر محاولة إخفاء الألم الذي شعرت به إزاء هذا الغدر، كانت السيدة كليرنس هاكني (أو كما يلقبونها «رأس البلطة») التي هي صديقة قديمة لإيدي قد علمت هاربيت في الصف السابع، وسوف تعلمها من جديد في الصف الثامن. وإذا كان هيلي قد اختار الأنسة إيرليكسون (صبيبة شقراء جديدة في المدرسة) فهذا يعني أن هيلي وهاربيت سيكونان في قاعتين دراسيتين مختلفتين وسيكون لهما توقيتان مختلفان لتناول وجبة الغداء.. صفوف مختلفة وكل شيء مختلف.

«الآنسة إيرليكسون ممتازة، تقول أُمي إنها لا تقبل أبداً إرغام أي طفل على الالتحاق بفصل السيدة هاكني، وهي تتركك تقرّرين ما يناسبك من فروض منزلية..»، توقف فجأة، ثم صاح: «حسناً، فهمت!» كان ذلك ردّاً على صوت يناديه، عاد إلى هاربيت وقال: «عليّ الذهاب الآن، حان وقت العشاء، سنتحدث لاحقاً».

ظلت هاربيت جالسة ممسكة بسماعة الهاتف السوداء حتى سمعت الطنين الذي يدل على انتهاء المكالمة، أعادت السماعة إلى مكانها ببطء، ثم جلست في صمت. شعرت كأن هيلي بصوته المبتهج النحيل وبخططه في الذهاب إلى صف الآنسة إيرليكسون أصبح شيئاً مفقوداً، أو على وشك أن يُفقد، تماماً مثل الصيف نفسه أو الحشرات الوامضة في لياليه.

بدا الضياء الخافت في الممر كأنه يتلاشى شيئاً فشيئاً تاركاً وراءه ظلالاً ثقيلة، ومع غياب صوت هيلي الذي كان يكسر الصمت، شعرت بالكآبة تتسلل إلى قلبها كثيفة وسوداء كأنها أغمضت عينيها وغرقت في العتمة.

هيلي! هيلي يعيش في عالم مزدحم، ملون، فيه بشر، وفيه كل شيء لامع وكل شيء جديد: رقائق الذرة والبنغ البونغ والستيريو والصودا وأمه التي ترتدي جينزاً ممزقاً مع تي شيرت، وتتحرك حافية على السجادة الممتدة من الجدار إلى الجدار، حتى الرائحة هناك كانت جديدة وطازجة، لا تشبه الرائحة الموجودة في بيتها، تلك الرائحة الثقيلة المزعجة لكثرة ما فيها من ذكريات، رائحة أسى وملابس قديمة وغبار. هيلي الذي ذهب ليتناول الشطائر، والذي سيذهب فرحاً إلى صف الأنسة إيرليكسون عندما يأتي الخريف.. ماذا يهمه إن كان البرد يتسلل إلى بيتها، وإن كانت الوحدة تخيم عليها؟ ماذا يعرف عن عالمها؟

في وقت لاحق عندما تذكرت هاربيت ذلك اليوم، بدا لها كأنه نقطة فاصلة، لحظة حاسمة انعطفت عندها حياتها إلى البؤس. في حياتها كلها، لم تكن يوماً سعيدة أو راضية تماماً، لكنها لم تكن مستعدة لمواجهة تلك الظلمات التي كانت تنتظرها. سوف تتذكر ما بقيت حية، سوف تتذكر متألمة أنها لم تتحلّ بالشجاعة لتبقى مساءً أخيراً واحداً، المساء الأخير تماماً! لم تبقَ لتجلس عند كرسي آيدا واضعة رأسها على ركبتيها. ما الأحاديث التي كان من الممكن أن تدور بينهما، لن تعلم ذلك أبداً، وسوف يؤلمها أنها هربت هروباً جباناً قبل أن ينتهي آخر أسبوع عمل لآيدا. سوف يؤلمها أن سوء التفاهم كله ويا للغرابة! كان غلطتها هي. سوف يؤلمها كثيراً أنها لم تودّع آيدا، ولكن أسوأ من كل هذا سوف يؤلمها أن كبرياتها الجوفاء حالت بينها وبين قولها لآيدا إنها تحبها. ففي غمرة غضبها الطائش واعتدادها الزائد بنفسها

غفلت عن حقيقة بسيطة وقاسية: أنها لن ترى أيّدا بعد ذلك أبداً. حياة كاملة بشعة بدأت تكتف هاربيت من كل الجهات.. هناك في الممر المظلم عند طاولة الهاتف، صحيح أن تلك الحياة بدت لها آنذاك جديدة، لكنها ستصبح في الأسابيع التالية مألوفة ومعتادة إلى حد فظيع.

الفصل السادس

الجنابة

قالت إيدي: «كان حسن الضيافة عنوان الحياة في تلك الأيام». ارتفع صوتها الواضح المنفعل دون جهد فوق هدير الرياح الحارة التي اندفعت من خلال نوافذ السيارة المفتوحة، انحرفت واثقة دون إعطاء أي إشارة إلى المسار الأيسر معترضةً طريق شاحنة طويلة.

كانت سيارتها الأولدزموبيل الأنيقة والفسيحة مدوّرة كأنها خروف بحر، اشترتها إيدي في الخمسينيات من معرض سيارات يُدعى «كولونيل تشيبر دي» في فيكسبرغ. كان هناك مساحة كبيرة رحبة تمتد بين مقعد إيدي (مقعد السائق) وبين المقعد الآخر حيث جلست هاريت مستتدة إلى الباب، وبينهما ترمس مزخرف فيه قهوة وعلبة دونات إلى جوار حقيبة يد إيدي القشية ذات الحمالتين الخشبيتين.

كانت إيدي تقول لها: «في بيت تربيوليشن، كانت بنات عمومة أمك يأتين فجأة لزيارتنا ويمكن أسابيع دون سابق إنذار، ولم يكن أحد يرى في هذا الأمر أي غضاضة». كانت حدود السرعة في ذلك الطريق خمسة وخمسين ميلاً في الساعة، لكن إيدي كانت تقود بسرعة مريحة لها دون استعجال: خمسة وأربعون ميلاً في الساعة غير مبالية بالسائقين الآخرين، وفي مرآة السيارة رأت هاريت سائق الشاحنة الطويلة يضرب جبهته بكفه ويلوح بيده نافذ الصبر.

قالت إيدي: «لا أعني بهذا بنات العم اللواتي في ممفيس، أتحدث عن بنات العم من باتون روج: الأنسة أولي، وجولز، وميري وايرالد، وكذلك الخالة فلوف».

وكانت هاربيت تنظر شاردة من نافذة السيارة غير مكترثة بالمشهد المحيط: مصانع أخشاب ومساحات من أشجار الصنوبر التي تبدو وردية اللون في ضياء الصباح الباكر، لاعبت ريح دافئة مغبرة شعرها ووجهها وراحت تعبث بحافة تتجيد السقف السائبة وبغلاف علبة الدونات المصنوع من السيلوفان، كانت ظمأى (وجائعة أيضاً)، ولكن لم يكن هناك شيء سوى القهوة والدونات البائتة المتجمدة، تُصر إيدي دائماً على شراء الدونات من اليوم السابق على الرغم من أن الطازجة لا تكلف سوى بضع سنتات إضافية.

قالت إيدي: «كان لعم أمي مزرعة صغيرة قرب كوفينغتون اسمها آنجيفاين»، ثم تناولت منديلاً بيدها الحرة بحركة لا يصح القول إلا أنها حركة ملكية، كأنها ملك اعتاد الأكل بيديه، تناولت من الدونات قطعة كبيرة، وتابعت: «كانت ليبي تأخذنا ثلاثنا إلى تلك المزرعة على متن القطار القديم رقم 4، نمضي هناك بضعة أسابيع، وكان لدى الأنسة أولي بيت خشبي صغير له موقد يعمل على الحطب وفيه طاولة وكراسي، كنا نحب أن نلعب في ذلك البيت الخشبي أكثر من أي شيء آخر».

كانت ساقا هاربيت ملتصقتين بمقعد السيارة، تململت مستاءة وحاولت أن تجد وضعية مريحة، مضت ثلاث ساعات على ركوبهما السيارة، وصارت الشمس عالية في السماء وحارة، كانت إيدي

تفكر كثيرًا أن تستبدل بسيارة الأولدزموبيل سيارة أخرى فيها مكيف هواء أو راديو يعمل لكنها تغير رأيها في آخر لحظة، وقد كان أهم ما يجعلها تغير رأيها ذلك السرور الخفي الذي تشعر به كلما رأت السيد روي دايال يعصر يديه في ضيق، يطير صوابه لأن سيدة معمدانية محترمة مثل السيدة إيدي تتجول في البلدة في سيارة عمرها عشرون عامًا. أحيانًا عندما تأتيه دفعة سيارات جديدة، يأتي إلى بيت إيدي في وقت متأخر بعد الظهر ويترك لها «سيارة تجربة» دون أن يطلب منه أحد ذلك، وعادة ما تكون سيارة كاديلاك حديثة جدًا. يقول رافعًا يديه في الهواء: «فقط، جريبها بضعة أيام! وانظري كيف تجدينها!»

كانت إيدي تستمتع بإبقائه في حالة ترقب، فتنظاها أنها وقعت في غرام السيارة الجديدة التي عرضها عليها، وفي اللحظة التي يبدأ فيها السيد دايال بإعداد أوراق البيع، تُعيد السيارة إليه على نحو مفاجئ، وتقول إن لونها لم يعجبها، أو إن نوافذها الكهربائية لا تناسبها، أو أنها تشكو من خلل «مجهرى» مثل سماعها خشخشة في لوحة العدادات أو تستاء من الملمس الدبق للمفتاح الذي يفضل أبواب السيارة من الداخل.

«لا يزالون يكتبون على لوحات سيارات ولاية ميسيسيبي «ولاية حسن الضيافة»، أما في رأيي فإن حسن الضيافة الحقيقي قد مات خلال النصف الأول من هذا القرن، كان والد جدي شديد المعارضة لبناء فندق ألكساندريا، وكان ذلك قبل الحرب». تابعت إيدي رافعة صوتها فوق صوت بوق الشاحنة التي خلفها: «كان

يقول إنه سيكون سعيدًا جدًا باستضافة أي مسافرين محترمين
يأتون إلى بلدتنا في منزله».

«إيدي، ذلك الرجل الذي خلفنا يطلق بوق سيارته لكي تفسحي
له الطريق».

قالت إيدي: «فليطلق البوق مثلما يحلو له!»، كانت مرتاحة
تمامًا للسرعة التي تسير بها.
«أظنه يريد تجاوزك».

«لا يضيره شيء أن يببطئ قليلًا، أين يظن نفسه ذاهبًا بتلك
الجدوع الخشبية حتى يكون في عجلة من أمره؟»

كان المشهد حول السيارة غريبًا وموحشًا (تلال من الصلصال
الرملي، وغابات صنوبر لا آخر لها) شعرت هاربيت بألم في
معدتها، كل ما تراه يذكرها بأنها بعيدة جدًا عن البيت، حتى
الناس في السيارات العابرة بدوا لها بشرًا مختلفين: وجوههم
عريضة مسطحة محمرة من الشمس، ويرتدون ملابس المزارعين،
إنهم لا يشبهون الناس في بلدتها.

مروا بتجمع شركات صغيرة كثيفة: «شركة فريلون للرزاذ»،
و«تيونز ترانسمشن»، و«شركة دكسي للحجارة والحصى». مرّ رجل
أسود مسن هزيل يرتدي أفرولاً وقبعة صيد برتقالية، ويسير
متمايلاً عند حافة الطريق حاملاً كيس تسوق بني. ماذا ستقول
أيذا عندما تصل إلى عملها فتجدها قد ذهبت؟ تسارعت أنفاس
هاربيت قليلًا عندما فكرت في ذلك.

أسلاك هاتف متدلية، وحقول ملفوف، وحقول ذرة، وبيوت
متهاكة أمامها ساحات من تراب مرصوص، ضغطت هاربيت
جبهتها على زجاج النافذة الدافئ، قد تدرك أيذا كم تأذت مشاعر

هاربيت، وقد تدرك أنه لا ينبغي لها أن تُهدد بحزم حوائجها وترك عملها كلما غضبت من هذا الأمر أو ذاك.. رجل أسود متوسط العمر على وجهه نظارة يرمي طعامًا لدجاجات حمراء اللون من علبة زيت كبيرة، رفع الرجل يده بحركة وقورة عند مرور السيارة، فلوحت له هاربيت بحماسة جعلتها تشعر بقليل من الإحراج. كانت أيضًا قلقة على هيلي، فعلى الرغم من أنه أكد لها أن اسمه غير مكتوب على العربة، فإن هاربيت لم تعجبها فكرة بقاء العربة هناك بانتظار أن يكتشفها أحدهم، جعلها تفكيرها في ما يمكن أن يحدث إذا استطاعوا الوصول إلى هيلي من خلال تلك العربة تشعر بالغثيان، فراحت تقول لنفسها: لا تفكري في هذا! لا تفكري في هذا.

تابعا السير، ومن خلف الأكواخ ظهرت غابات جديدة، كانت تقطعها أحيانًا حقول مستوية تفوح منها رائحة المبيدات الحشرية. وفي فسحة صغيرة كالحة شاهدت هاربيت امرأة بيضاء بدينة مرتدية قميصًا وشورتًا بنين وفي إحدى قدميها حذاء طبي، كانت المرأة تضع ملابس رطبة على حبل الغسيل بجانب منزلها المتنقل، نظرت المرأة إلى السيارة، لكنها لم تلوّح بيدها.

فجأة قطع زعيق المكابح أفكار هاربيت، انعطفت السيارة انعطافًا حادًا جعلها تلتصق بالباب وانقلبت علبة الدونات، كانت إيدي قد انعطفت فجأة (غير مكرثة بالسيارات التي في الطريق) ودخلت طريقًا ريفيًا ضيقًا غير مستوٍ، إنه الطريق المؤدي إلى المخيم.

قالت إيدي مبتهجة وهي تميل جانبًا لتعيد حقيبة يدها إلى مكانها: «لا أعلم لماذا يجعلون هذه اللافتات صغيرة جدًا لا

يستطيع المرء قراءتها إلا عندما يصل إليها..».

تابعتا في ذلك الطريق الترابي صامتتين، تدحرج قلم أحمر شفاه فضي اللون على المقعد، فالتقطته هاربيت قبل أن يسقط (وألقته في حقيبة يد إيدي القشية، كان مكتوباً على اللصاقة أسفل ذلك القلم: «كرزات في الثلج»).

قالت إيدي بصوت مرح: «بكل تأكيد، نحن الآن في مقاطعة جونز»، كان منظرها الجانبي الذي يبدو داكناً في مواجهة الشمس حاد المعالم، ملامحها شابة، وليس فيها ما يشي بسنها غير خط رقبتها ويديها المستقرتين على عجلة القيادة (تجاعيد ونمش). كانت ترتدي قميصاً أبيض نظيفاً، وتتوردة مكسرة وحذاء متناسلاً معهما فبدت كأنها مراسلة صحفية متحمسة في الأربعينيات تلاحق قصة صحفية كبيرة.

«هاربيت، هل تذكرين نيوت نايت⁽¹⁾ الهارب من الخدمة العسكرية الذي ذكر في كتاب تاريخ ولاية ميسيسيبي؟ كان يدعو نفسه روبن هود غابات الصنوبر! هو ورجاله كانوا فقراء بائسين، ولم يرغبوا في خوض حرب الأغنياء فاستقروا هنا في الغابات البعيدة، ورفضوا أن يكون لهم أي علاقة بالكونفدرالية⁽²⁾. دعوا

(1) نيوت نايت (Newt Knight)؛ شخصية تاريخية أمريكية، معروف بمقاومته للكونفدرالية خلال الحرب الأهلية الأمريكية.

(2) الكونفدرالية، أو الولايات الكونفدرالية الأمريكية (Confederate States of America)، كانت اتحاداً سياسياً مكوناً من 11 ولاية جنوبية انفصلت عن الاتحاد الأمريكي خلال الفترة من 1861 إلى 1865؛ ما أدى إلى نشوب الحرب الأهلية الأمريكية. أسست الكونفدرالية كرد فعل على تهديدات القوى السياسية التي كانت تسعى إلى الحد من انتشار العبودية؛ فقد كانت الولايات الجنوبية مؤيدة للإبقاء على العبودية.

أنفسهم «جمهورية جونز»! أرسل الجيش خلفهم كلابًا لتعقب أثرهم لكن النساء المسنات من سكان المنطقة خنقن تلك الكلاب حتى الموت باستخدام الفلفل الأحمر! هذه هي طبيعة الناس هنا في مقاطعة جونز».

قالت هاربيت وهي تنظر إلى وجه جدتها: «إيدي! ربما كان من الأفضل أن تفحصي عينيك».

قالت إيدي مبتسمة: «أستطيع القراءة جيدًا. نعم، يا صغيرتي! كانت هذه الغابات البعيدة تغص بالمنشقين عن الكونفيدراليين، كانوا أفقر من أن يمتلكوا عبيدًا، وكانوا يمتقنون أولئك الأغنياء الذين يمتلكون العبيد؛ ولهذا فضلوا أن يتركوا قوات الولايات المنسحبة⁽¹⁾. اهتموا بحقول القمح الصغيرة التي كانت لديهم هنا بين غابات الصنوبر وبطبيعة الحال لم يدركوا أن موضوع الحرب كان حقوق الولايات».

إلى جهة اليسار انفرجت الغابات كاشفة عن حقل مفتوح، سقط قلب هاربيت بين أضلاعها عند رؤيتها ذلك الحقل (المقاعد الصغيرة الحزينة، وشباك كرة القدم، والعشب الذي داسته الأقدام). شاهدت بضع فتيات خشنات المظهر يتقاذفن كرة مربوطة إلى عمود، وأصوات ضرياتهن ولهاثن تُسمع بوضوح في هدوء الصباح، وعلى لوحة الإعلانات لافتة مكتوبة بخط اليد تقول:

طلبة دي سيلبي!

(1) المقصود بالولايات المنسحبة هي الولايات الإحدى عشرة التي انسحبت من الاتحاد قبيل الحرب الأهلية الأمريكية.

لا شيء يحدثنا!
أحست هاربيت بتشنج في حلقها، وأدركت سريعاً أنها ارتكبت
خطأً كبيراً.

قالت إيدي: «لم يكن نيثان بدفورد فورست⁽¹⁾ منحدرًا من أغنى
العائلات ولا أفضلها تعليمًا، لكنه كان أعظم جنرالات الحرب. نعم
يا صغيرتي! كان أسرع من يجمع الجنود، هكذا كان فورست!»
قالت هاربيت بصوت خافت: «إيدي، لا أريد البقاء هنا، فلنعد
إلى البيت».

«البيت!». لم تظهر على إيدي أي دهشة، بدت كأنها سمعت
نكتة طريفة، قالت: «كلام فارغ! سوف تمضين هنا أجمل وقت
في حياتك كلها».
«لا، من فضلك! أكره هذا المكان».

«فلماذا أردتِ المجيء؟»

لم تجد هاربيت ما تقوله ردًا على هذا السؤال، عندما
دخلت السيارة ذلك المنعطف المألوف عند أسفل التلة ظهرت
أمام هاربيت مجموعة أمور مرعبة كانت قد نسيت أمرها؛
بقع العشب، وأشجار الصنوبر التي أكسبها الغبار مظهرًا كثيبًا،
والحصى الأصفر المحمر الذي يبدو لونه كلون كبِد الدجاج غير
المطهو.. كيف نسيت شدة كرهها هذا المكان! وكم كانت كل
دقيقة فيه بؤسًا خالصًا!

(1) ناثان بيدفورد فورست (Nathan Bedford Forrest): أحد القادة البارزين في الجيش
الكونفدرالي. وُلِدَ في 13 يوليو 1821 في ولاية تينيسي وتوفي في 29 أكتوبر 1877. كان
فورست ضابطًا عسكريًا بارعًا، اشتهر بمهاراته في التكتيك والقيادة على الرغم من أنه لم
يكن يمتلك خلفية تعليمية عسكرية رسمية.

أمام السيارة إلى الجهة اليسرى كانت بوابة الدخول، وخلفها غرفة كبير المستشارين غارقة في ظل كثيف يجعلك تشعر بعدم الارتياح، وفوق البوابة راية قماشية عليها صورة حمامة وكلمة «افرحوا» مكتوبة بحروف غليظة غير منتظمة.

قالت هاربيت سريعاً: «من فضلك، يا إيدي، لقد غيرت رأيي، فلنذهب!»

التفتت إيدي وحدثت إليها، ويدها لا تزالان على عجلة القيادة وعيناها باردتان مفترستان، يدعو تشيستر عينيها «إصابة محققة» لأنهما تبدوان كأنهما خلقتا للتسديد عبر ماسورة بندقية، كانت عينا هاربيت فاتحتين مثلهما (يدعوها تشيستر أحياناً «الإصابة المحققة الصغيرة»). أما بالنسبة إلى إيدي، فلم يكن يسرها أن ترى أمامها نسخة مصغرة من نظرتها الثاقبة نفسها، لم تكن منتبهة إلى القلق والحزن في تعابير وجه حفيدتها المتصلبة، ولم تر شيئاً غير الوقاحة، وقاحة عدوانية!

قالت لها بنبرة قاسية: «كفاك سخفًا»، ثم نظرت إلى الطريق من جديد، نظرت في اللحظة الأخيرة قبل أن تسقط السيارة في خندق أمامها، تابعت: «سوف تحبين المكان هنا، وخلال أسبوع واحد سوف تصرخين وتركضين هاربة لأنك لا تريدين العودة إلى البيت».

حدثت إليها هاربيت حائرة.

قالت لها: «إيدي! أنت نفسك لم يعجبك الوضع هنا، لن تقبلي البقاء مع أولئك الناس حتى مقابل مليون دولار».

راحت إيدي تقلد صوت هارييت ساخرة منها: «أوه، إيدي! أعيديني! أعيديني إلى المخيم! هذا ما سوف تقولينه عندما يحين وقت العودة إلى البيت». كانت صدمة هارييت كبيرة فلم تستطع قول شيء، وعندما أفلحت في النطق، قالت: «لن أقول هذا! لن أقول هذا!»

رفعت إيدي ذقتها إلى الأعلى وقالت بصوت غنائي صفيق مبتهج، ذلك الصوت الذي تمقته هارييت: «بل ستقولين هذا، ستقولين هذا!»، كررتها بصوت أعلى دون أن تنتظر إليها.

وفجأة صدح صوت بوق الكلارينيت، كان العزف مزعجاً وغير متقن يشبه إلى حد ما صياح حيوانات المزرعة مع نغمة ترحيب ريفية: كان الدكتور فانس يحمل الكلارينيت ويعلن وصولهما، لم يكن الدكتور فانس دكتوراً حقيقياً -ليس طبيباً- بل مجرد مدير فرقة مسيحية مبجل. كان شمالياً، له حاجبان كثيفان أشعثان وأسنان كبيرة كأسنان البغل، وكان شخصية مهمة في دائرة الشباب في الكنيسة المعمدانية. أدليايد هي التي أشارت فيما مضى (وكانت محقة) إلى أنه شديد الشبه برسم تينيل⁽¹⁾ الشهير لشخصية صانع القبعات المجنون (Mad Hatter) في قصة أليس في بلاد العجائب.

صاح منحنياً صوب نافذة إيدي المفتوحة: «أهلاً بكما، أيتها السيدتان! فليتبارك اسم الرب!»

(1) جون تينيل (John Tenniel)؛ رسام إنجليزي مشهور، وُلد في 28 فبراير 1820 وتوفي في 26 فبراير 1914. اشتهر برسوماته التوضيحية في عدة كتب، وأبرز أعماله كانت في كتاب "أليس في بلاد العجائب".

لم تكن إيدي تهتم بتلك النعمة الإنجيلية التي يتحدث بها أحيانًا الدكتور فانس، قالت له: «اسمع! اسمع! ها هي ذي صغيرتنا الآتية إلى المخيم، أظن أنكم ستسجلونها، ثم أنصرف». أخفض الدكتور فانس رأسه واقترب من النافذة مبتسمًا لهارييت، كان وجهه خشنًا غليظ الملامح مائلًا إلى الحمرة، لاحظت هارييت (مشمئزة) الشعر في منخريه وبقايا الطعام عالقة بين أسنانه الكبيرة البنية. تراجع الدكتور فانس بحركة مسرحية كأن ذلك التعبير على وجه هارييت كان طعنة له، رفع ذراعه وشم تحت إبطه، ثم نظر إلى إيدي وقال: «ظننت أنني نسيت وضع مزيل الرائحة هذا الصباح».

راحت هارييت تنظر إلى ركبتيها، وقالت في نفسها: حتى إن كان علي أن أبقى هنا، فلست مضطرة إلى التظاهر بأنني أستمتع بذلك، يحب الدكتور فانس أن يكون المشاركون في المخيم منطلقين وصاخبين ونشطين، وأما أولئك الذين لا يرقون إلى روح المخيم بالقدر الكافي، فهو يضايقهم ويمارحهم ويحاول إرغامهم على أن يكونوا منفتحين، ما المشكلة؟ ألا تفهمون النكتة؟ ألا تعرفون كيف تسخرون من أنفسكم؟ وإذا كان أحد الأطفال هادئًا أكثر من المعتاد (لأي سبب كان) فسوف يحرص الدكتور فانس على أن يقذفه الآخرون ببالونات ممثلة بالماء، أو يرغمه على الرقص أمام الجميع متظاهرًا بأنه دجاجة، أو أن يطارد خنزيرًا في بركة طينية، أو يضع على رأسه قبعة مضحكة.

قالت إيدي بعد لحظة صمت مرتبك: «هارييت!» كان الدكتور فانس يُثير ضيقها أيضًا، وهارييت كانت تدرك هذا.

نفخ الدكتور فانس في الكلارينيت مطلقاً نفمة غاضبة، وعندما فشل هذا في لفت انتباه هاربيت أدخل رأسه من النافذة ومد لسانه لها.

قالت هاربيت لنفسها: أنا الآن بين الأعداء. عليها أن تتماسك سريعاً وأن تتذكر سبب وجودها هنا؛ فبقدر ما تكره مخيم دي سيلبي، يظل هذا المخيم أكثر الأماكن أماناً في الوقت الحالي. صفر الدكتور فانس؛ كانت تصفيرته مهينة، فرمقته هاربيت بنظرة غل (لا فائدة من المقاومة لأنه سيواصل إزعاجها)، تهدل حاجباه مثلما يتهدل حاجبا مهرج حزين، ومطّ شفته السفلى، قال لها: «ليس ممتعاً أن يشعر الإنسان بالشفقة على نفسه، أتعلمين لماذا؟ هممم، لأنه سيكون وحيداً ولن يشاطره أحد شعوره».

احمرّ وجه هاربيت ونظرت عبر النافذة، نظرت خلفه إلى أشجار الصنوبر الطويلة، فشاهدت فتيات في ملابس السباحة يمشين في صف واحد على رؤوس أصابعهن بخطوات شديدة الحذر، سيقانهن وأقدامهن ملطخات بالطين الأحمر، تذكرت عبارة من إيميلي برونتي: انكسرت سلطة زعماء الجبال، لقد هجرت ديارى وذهبت إلى حيث الزهور.

سمعت الدكتور فانس يسأل بصوت متظاهر بالورع: «.. مشكلات في البيت؟»

قالت إيدي بصوت مرتفع واضح: «بالتأكيد لا، إنها.. هاربيت لديها ثقة بالنفس مبالغ فيها قليلاً».

قفزت إلى ذهن هاربيت ذكرى قبيحة: الدكتور فانس يدفعها إلى المنصة في مسابقة «هولا هوب»، والمخيم كله ينفجر ضاحكاً لشدة ضيقها.

ضحك الدكتور فانس وقال: «الحقيقة.. الحقيقة أن الثقة المفرطة بالنفس حالة نعرف كيف نعالجها في هذا المخيم». تهتدت أيدي وقالت: «هل تسمعين هذا يا هارييت؟ هارييت! لا أدري ماذا دهاها!»

«أوه! لا تقلقي سوف تندمج عندما تشارك أمسياتنا المسرحية وتلعب معنا لعبة البطاطا الساخنة⁽¹⁾».

تدفقت ذكريات مشوشة في عقل هارييت: تلك الأمسيات! ملابس داخلية مسروقة، وماء يُسكب في فراشها وسط ضحكات الفتيات (انظروا! هارييت بالت في فراشها)، وصوت فتاة تبكي: لا يمكنك الجلوس هنا، وتلك النظرات الساخرة التي تقابلها أينما توجهت: انظروا! ها هي ذي الفتاة التي تقرأ الكتب.

جاء صوت زوجة الدكتور فانس حادًا ومصطنعًا: «مرحبًا». مشت بخطوات متمائلة ودودة مرتدية شورطًا وقميصًا من البولستر. كانت السيدة فانس (أو الآنسة باتسي مثلما تحب أن يدعوها الأطفال في المخيم) مسؤولة عن قسم البنات، وهي لا تقل سوءًا عن زوجها، لكن بطريقة مختلفة: فضولية، وتلمسك بطريقة مزعجة للتعبير عن حبها، وتطرح كثيرًا من الأسئلة الشخصية عن الأصدقاء من الأولاد و«الوظائف الجسدية» وما

(1) لعبة البطاطا الساخنة: لعبة جماعية تُلعب عادةً في المناسبات أو التجمعات الاجتماعية، تعتمد اللعبة على تمرير شيء يمثل "البطاطا الساخنة" (مثل كرة صغيرة أو حقيبة خفيفة) بسرعة بين اللاعبين الذين يقفون في دائرة أو في صفوف، فيما تُشغل موسيقى أو مؤقت زمني. عندما تتوقف الموسيقى أو ينتهي المؤقت، يخرج اللاعب الذي يكون ممسكًا بـ "البطاطا الساخنة" من الجولة.

شابه. ومع أن اسمها الرسمي في المخيم هو «الآنسة باتسي» فقد كانت البنات يدعونها «المرضة».

قالت، وهي تمد يدها عبر نافذة السيارة وتقرص ذراع هارييت برفق: «مرحبًا يا حبيبتي! كيف حالك يا فتاة؟»، تمايلت وأضافت: «ما أجملك!»

قالت إيدي: «مرحبًا، سيدة فانس، كيف حالك؟»

كانت إيدي تحب التعامل مع شخصيات مثل السيدة فانس لأنهم يتيحون لها مجالاً لإظهار تفوقها وأهميتها.

أضافت السيدة فانس بحماس مصطنع يشبه أجواء مسابقات ملكة جمال ميسيسيبي أو برنامج ذا لورانس ويلك شو: «إذًا، تفضلًا فلنذهب إلى المكتب!»

قالت السيدة فانس لهارييت: «يا إلهي! لقد صرت كبيرة يا فتاة! لا أظنك ستدخلين في شجارات مع زميلاتك هذه المرة، أليس كذلك؟»

وبدوره رمق الدكتور فانس هارييت بنظرة لم تعجبها.

في المستشفى كان فاريش يستعيد تفاصيل حادثة جدته، يفكر ويتأمل ويضع النظريات لتفسير ما حدث، أمضى الليل كله يتحدث عن ذلك حتى تعب أشقاؤه من الإصغاء إليه، لقد تعبوا كثيرًا. كانوا يتجولون في صالة الانتظار أمام قسم العناية المركزة وقد تراخت أجسادهم واحمرت أعينهم لشدة تعبهم، كانوا يصغون إليه وهم يتابعون فيلم رسوم متحركة عن كلب يحل لغزًا.

قال فاريش مخاطبًا الهواء كأنه يكلم غام الغائبة في تلك اللحظة: «إن تحركت فسوف تلدغك الأفعى، كان ينبغي ألا تتحركي حتى لو كانت الأفعى راقدة في حجرك».

كان يتحدث وهو يجول في المكان، يحرك يديه بعصبية ويمرر أصابعه في شعره؛ ما أثار ضيق أشقائه الذين كانوا يحاولون متابعة البرنامج. قال يوجين بصوت عالٍ وهو يضع ساقًا على الأخرى: «فاريش! كانت غام مضطرة إلى قيادة السيارة، أليس كذلك؟»

رد داني بسخرية: «لكنها لم تكن مضطرة إلى إسقاط السيارة في خندق!»

عبس فاريش، وقال بحدة: «لو كنتُ مكانها لما غادرت مقعد السائق. كنت سأبقى هادئًا تمامًا كالضفدع. إذا تحركت...» حرّك راحة يده حركة انسيابية لينة، وأضاف: «فسوف تعتقد الأفعى أنك خطر، وستدافع عن نفسها».

«بحق الجحيم! ماذا تستطيع غام أن تفعل يا فاريش؟ لقد وقعت عليها أفعى عبر سقف السيارة اللعينة!»

فجأة ضرب كورتيس يديه معًا وأشار إلى شاشة التلفزيون، وصاح: «غام!».

استدار فاريش نحو الشاشة، وبعد لحظة انفجر يوجين وداني ضاحكين، في فيلم الرسوم المتحركة كان الكلب يدخل قلعة قديمة مخيفة مع مجموعة من الفتيات، كان هناك هيكل عظمي يبتسم بشكل غريب معلق على الجدار وحوله مجموعة من الأبواق والنفوس. كان الهيكل شديد الشبه بغام، وفجأة طار الهيكل متجهًا نحو الكلب الذي ركض هاربًا وهو ينبح مذعورًا.

قال يوجين وهو لا يستطيع التوقف عن الضحك: «هكذا.. هكذا كان شكلها عندما انقضت عليها الأفعى».

استدار فاريش نحوهم دون أن ينطق كلمة واحدة، وعيناه تحملان نظرة يأس ومرارة عميقة، وعلى الفور كف كورتيس عن الضحك مدركاً أنه فعل شيئاً خاطئاً، وراح يحدق إلى فاريش وقد بان الاضطراب في وجهه، في تلك اللحظة تماماً ظهر الدكتور بريدلوف عند الباب فصمتوا جميعاً.

قال لهم: «استعادت جدتكم وعيها، يبدو أنها ستتجاوز هذه المحنة، لقد فصلناها عن الأجهزة المساعدة».

دفن فاريش وجهه بين كفيه.

«فصلناها عن الأجهزة المساعدة، لكنها لا تزال متصلة بالقسطرتين لأن نبض قلبها لم يستقر بعد، هل ترغبون في رؤيتها الآن؟»

ساروا وراءه صفّاً واحداً بخطوات هادئة وقورة (كلهم عدا كورتيس الذي فضّل البقاء لمتابعة الفيلم). ساروا بين الآلات الطبية الغريبة حتى وصلوا إلى سرير محجوب بستائر تخفي غام عن أنظارهم، ومع أنها كانت راقدة في سكون تام مقلق، فلم تبدُ حالتها أسوأ مما هي عليه عادةً باستثناء تدلي جفניה الناجم عن الشلل العضلي.

قال الطبيب وهو يفرك يديه بنشاط: «سأترككم معها دقيقة واحدة فقط، لكن عليكم ألا ترهقوها».

كان فاريش أول من تقدم من سريرها، انحنى فوقها وقال بصوت منخفض: «هذا أنا». رمشت ببطء، ثم رفعت يدها بتأقل من تحت الغطاء، فضمها بين كفيه بحنان.

قال بصوت بدا صارمًا: «من فعل هذا بك؟» ثم انحنى أكثر مقرِّبًا أذنه من شفيتها ليسمع إجابتها.

وبعد بضع لحظات قالت جدته: «لا أدري»، كان صوتها جافًا وهزيلًا وخافتًا جدًّا، أضافت: «لم أرَ سوى بضعة أطفال من بعيد»، رفع فاريش رأسه ووقف منتصبًا، ثم ضرب كف يده بقبضته وسار نحو النافذة حيث وقف ينظر إلى ساحة السيارات. قال يوجين: «انسَ أمر الأطفال! هل تعلم من خطر ببالي؟ بورتون ستايلز». كانت ذراعه لا تزال معلقة من رقبتة بسبب لدغة الأفعى التي أصابته، أضاف: «أو ربما بدي ريبالز، يُقال إنه يحمل قائمة بأسماء من يريد قتلهم في المستقبل».

تدخل فاريش، وقد ومضت في عينيه لمحة من الفطنة المفاجئة: «ليس الجاني أحدهما، كل هذا بدأ في تلك الليلة في الإرسالية».

قال يوجين: «لا تنتظر إليّ هكذا! لست مذنبًا في الأمر».

قال داني مخاطبًا فاريش: «هل تظن أن لويال من فعل ذلك؟»

قال يوجين: «كيف يفعل ذلك وقد غادر البلدة منذ أسبوع».

قال فاريش: «نحن نعلم أمرًا مؤكدًا واحدًا: تلك الأفعى أفعاه، لا شك في هذا».

احتد يوجين: «حسنًا! أنت الذي طلبت منه أن يأتي مع أفاعيه، وليس أنا. ما زلت أخاف حتى الآن أن أذهب إلى ذلك المكان الذي هو بيتي».

ضرب فاريش الأرض بقدمه، وقال بانزعاج: «قلت إن الأفعى له، ولم أقل إنه هو من ألقاها في السيارة».

قال داني: «انظري يا فاريش! ما يقلقني من الذي كسر زجاج السيارة؟ إذا كانوا يبحثون عن شيء معين..» توقف عن الكلام ودفن يديه في جيبه عندما انتبه إلى نظرة يوجين الغريبة، لا حاجة إلى الحديث عن المخدرات في حضور غام ويوجين.

قال لفاريش: «أتظنه دولفوس؟ أو شخصاً يعمل لصالحه؟»

فكر فاريش في الأمر ثم قال: «لا، هذا ليس أسلوب دولفوس. لو كان دولفوس يريد قتلك لأرسل شخصاً ليقطعك إلى أشلاء».

قال داني: «أتعلم ما أفكر فيه؟ تلك الفتاة التي صعدت إلى باب الشقة تلك الليلة».

قال فاريش: «وأنا كنت أفكر فيها، لم أستطع رؤية ملامحها بوضوح. من أين جاءت؟ وماذا كانت تفعل بالقرب من المنزل؟» رفع داني كتفيه.

«ألم تسألها؟»

أجاب داني محاولاً الحفاظ على هدوء صوته: «يا رجل! حدثت أشياء كثيرة في تلك الليلة».

قال فاريش: «وأنت تركتها تهرب!» أدار وجهه نحو جدتهم وسألها بنبرة جدية: «قلت إنك رأيت طفلاً. هل كان أبيض أم أسود؟ صبيًا أم بنتًا؟»

قال داني: «صحيح، يا غام! ماذا رأيت؟»

قالت جدتهم بصوت ضعيف: «الحقيقة أنني لم أنظر جيدًا، تعلمون كيف هي عيناى».

«هل كان طفلاً واحدًا، أم أكثر من طفل؟»

«لم يكونوا مجموعة كبيرة، عندما خرجت السيارة عن الطريق سمعت صوت طفل يصرخ ويضحك، كان الصوت آتياً من فوق الجسر».

قال يوجين لفاريش: «تلك الفتاة... رأيتها في الساحة. كانت تتظر إلينا أنا ولويال خلال العظة تلك الليلة، هل تذكرها؟ كانت على دراجة».

قال داني: «ولكن لم يكن معها دراجة عندما أتت إلى الإرسالية، هربت جرياً على قدميها».

«أنا أقول لك ما رأيت فقط».

قالت غام: «أظنني رأيت دراجة، لكني لست متأكدة من ذلك».

قال فاريش: «أود أن أكلّم هذه الفتاة، هل قلت لي إنك لا تعرف من تكون؟»

«قالت لنا اسمها لكنه لم يكن واضحاً، ذكرت أن اسمها ميري جونز ثم غيرته إلى ميري جونسون».

«إذا رأيتها مجدداً فهل تعرفها؟»

قال يوجين: «أعتقد أنني سأعرفها، وقفت معها هناك نحو عشر دقائق، وقد نظرت جيداً إلى وجهها من قرب».

قال داني: «وأنا أيضاً».

شد فاريش على شفتيه، ثم فاجأ جدته بسؤال مباشر: «هل للشرطة أي علاقة بهذا الأمر؟ هل طرحوا عليك أي أسئلة؟»

«لم أقل لهم شيئاً».

«جيد!». ربت فاريش على كتف جدته بحركة خرقاء وقال: «سوف أعثر على من فعل بك هذا وعندما أجده، كوني واثقة بأنه سيندم كثيراً».

كانت الأيام الأخيرة لآيدا في عملها تشبه الأيام الأخيرة من حياة القط ويني، وتشبه تلك الساعات الطويلة التي قضتها أليسون مستلقية على أرضية المطبخ إلى جوار صندوقه، حيث بقي جزء صغير منه، أما الجزء الأفضل والأجمل فقد رحل. كانت الحروف السوداء المكتوبة على الصندوق «بازل لوسور» محفورة في ذاكرة أليسون بكل ما فيها من حزن وبأس، كانت ترقد على الأرض، وأنفها لا يبعد عن تلك الحروف إلا إنشات قليلة، وتحاول توقيت أنفاسها على وقع أنفاس القط السريعة والمعذبة، كأنما تريد أن تمنحه من رثتها حياة جديدة.

كم بدا ذلك المطبخ شاسعاً ومنخفضاً ومليئاً بالظلال المتراقصة في ذلك الوقت المتأخر من الليل! حتى الآن لا تزال أليسون تذكر ذلك البريق الشمعي لأرضية اللينوليوم في مطبخ إيدي، ولا يزال الشعور بالازدحام يتسلل إليها من تلك الخزائن الزجاجية المكتظة بالأطباق المرتبة بعناية كأنها جمهور متفرج عاجز ينظر في صمت، حتى التفاصيل المبهجة مثل المناشف الحمراء والستائر المزخرفة بنقوش الكرز بدت كأنها محاولة عقيمة لإضفاء لمسة من الحياة وسط هذا المشهد الكئيب. تلك الأشياء الغبية حسنة النية (صندوق الورق المقوى، والستائر الكرزية، والأطباق البلاستيكية) شاركت أليسون حزنها، وظلت ساهرة معها طيلة تلك الليلة الطويلة الفظيعة.

أما الآن ومع رحيل آيدا لم يبقَ في المنزل سوى الأشياء الجامدة التي تعكس حزن أليسون: السجادات الكثيبة، المرايا الضبابية، الكنبات المحدودة الحزينة، حتى الساعة الجدارية

القديمة الطويلة وقفت في مكانها متيبسة كأنها على وشك الانهيار بالبكاء، وفي خزانة الخزفيات كان عازفو مزمار فيينا وعرائس دولتون بفساتينهن الواسعة يشيرون بتوسل في جميع الاتجاهات، خدودهم مشتعلة، ونظراتهم الداكنة الصغيرة مجوفة ومصدومة.

ومع ذلك كان لدى آيدا أشياء كثيرة لتفعلها، نظفت البراد، أفرغت الخزائن ومسحتها، خبزت خبز الموز، وطهت بضعة أطباق، وغلّقت ذلك كله بورق معدني ووضعت في الفريزر، كانت تتحدث أحياناً وتهمهم أحياناً أخرى، وبدا عليها أنها تبذل قصارى جهدها لتظهر مبتهجة، لكنها كانت تتجنب تمامًا لقاء عيني أليسون على الرغم من حركتها المستمرة في المكان. وفي لحظة من اللحظات حسبت أليسون أنها رأتها تبكي، فوقفت عند باب المطبخ وسألتها بحذر: «آيدا، هل تبكين؟» ارتبكت آيدا لحظة، ثم وضعت يدها على صدرها وضحكت قائلة: «فليبارك الرب قلبك!»

«آيدا، هل أنت حزينة؟»

لكن آيدا اكتفت بهز رأسها ثم عادت إلى عملها، فانسحبت أليسون إلى غرفتها وأطلقت العنان لدموعها.

لاحقًا ستندم على إضاعة تلك الساعات القليلة المتبقية مع آيدا، لكن في تلك اللحظة لم تكن قادرة على تحمل رؤية آيدا منهمكة في تنظيف الخزائن وقد أدارت ظهرها إليها، كانت تلك اللحظة شديدة الحزن وحتى اليوم تشعر أليسون بالذعر والاختناق كلما تذكرتها، شعرت كأن آيدا قد أصبحت بالفعل

ذكرى أو شبحًا، مع أنها كانت لا تزال تقف أمامها حنونة وصلبة في المطبخ المشمس مرتدية حذاء الممرضة الأبيض.

ذهبت أليسون إلى متجر البقالة وأحضرت صندوقًا من الورق المقوى لتضع فيه آيدا النباتات التي ستزرعها من جديد فلا تتكسر خلال رحلتها، ثم اشترت بالمال الذي كان معها - اثني وثلاثين دولارًا من عيد ميلاد سابق - كل ما تخيلت أن آيدا قد تحتاج إليه أو ترغب فيه: علب السلمون الذي كانت آيدا تفضله مع البسكويت المملح وقت الغداء، وشراب القيقب، وجوارب طويلة تصل حتى الركبة، وصابونة فاخرة برائحة الخزامى الإنجليزي، وبسكويت التين، وعلبة شوكولاتة، ومجموعة طوابع بريدية، وفرشاة أسنان حمراء أنيقة مع معجون أسنان مخطط، وحتى عبوة كبيرة من أقراص الفيتامينات.

حملت أليسون مشترياتها إلى المنزل، ثم قضت المساء على الشرفة الخلفية تغلف النباتات بعناية فائقة، لفّت كل فسيلة في قطعة من الجرائد التي قصتها بدقة وبلّلتها قليلاً لتبقى رطبة، وجدت في العلبة صندوقًا أحمر اللون كان يحتوي على مصابيح عيد الميلاد، أفرغت محتوياته على الأرض وأخذته إلى غرفتها لتعبئة الهدايا.

وفيما كانت منهمكة في عملها، سمعت أمها تقترب في الممر بخطوات خفيفة وغير مكتثرة، أطلت الأم برأسها من باب الغرفة، وسألتهابا بتسامة: «تشعرين بالوحدة هنا دون هاربيت، أليس كذلك؟» كان وجهها مغطى بالكريم اللامع. «هل ترغبين في القدوم إلى غرفتي لمشاهدة التلفاز؟»

هزت أليسون رأسها نفياً .

غريب هذا ! لم يكن تصرف أمها هذا معتاداً ؛ إذ لم تكن تجول في المنزل بعد العاشرة ليلاً أو تُبدي اهتمامها بهذا الشكل أو توجه دعوات إلى أليسون .

قالت أمها عندما لم تجبها أليسون بشيء : « ماذا تفعلين ؟ أظن أن من الأفضل أن تأتي وتشاهدي التلفاز معي » .

أجابت أليسون بفتور : « حسناً » ونهضت واقفة ، لكن نظرة أمها إليها كانت غريبة ، أشاحت أليسون بوجهها لأنها شعرت بالحرج . في بعض الأحيان لا سيما عندما تكونان وحدهما معاً يأتيها إحساس قوي بخيبة أمل أمها لأنها تراها هي أمامها وليس روبين . لم تكن والدتها تستطيع منع نفسها من ذلك ، حاولت جاهدة إخفاء مشاعرها لكن أليسون كانت تعرف أن وجودها يذكر والدتها بأخيها الغائب ، بذلت أليسون قصارى جهدها لتظل بعيدة عن الأنظار احتراماً لمشاعر والدتها ، وجعلت من نفسها كياناً صغيراً وغير ملحوظ داخل البيت ، ولكن الأسابيع القليلة القادمة ستكون صعبة مع رحيل آيدا وغياب هاربيت .

قالت أمها أخيراً : « لست مضطرة إلى المجيء ، ظننت فقط أنك قد ترغبين في ذلك » .

شعرت أليسون باحمرار وجهها ، فتفادت نظرة أمها . كل ما في الغرفة من ألوان بدا حارقاً ومتوهجاً بما في ذلك الصندوق الأحمر .

بعد انصراف أمها أكملت أليسون توضيب الصندوق ، ووضعت المال المتبقي في مظروف مع الطوابع وصورة مدرسية لها ،

وكتبت عنوان المنزل على ورقة أنيقة، ثم ربطت الصندوق بخيط متين وشريط أخضر.

في منتصف الليل استيقظت فزعة من حلم مزعج كانت قد رآته من قبل، في الحلم كانت واقفة أمام جدار أبيض قريب جداً من وجهها، عاجزة عن الحركة كأنها محكومة بالنظر إلى ذلك الجدار إلى الأبد، ظلت راقدة في الظلام، تحديق إلى الصندوق الموضوع بجوار سريرها حتى انطفأت مصابيح الشارع وتسلل نور الفجر إلى الغرفة.

وبدأت تتقش رسائل صغيرة وسرية على الورق المقوى: «يوم آيدا الأخير»، «نحن نحبك يا آيدا»، «آيدا ر. براونلي»، «عودي يا آيدا»، «لا تنسيني يا آيدا»، «أحبك». أمضت ساعة كاملة في الكتابة حتى أشرقت الشمس وأضاءت الغرفة برمتها.

كان داني مستمتعاً بوجود جدته في المستشفى على الرغم من شعوره بالذنب حيال ذلك، فقد أصبحت الأمور أسهل في غيابها عن المنزل، فقد كانت غام تثير غضب فاريش طوال الوقت، ومع أن فاريش كان يتعاطى كمية كبيرة من المخدرات في غياب غام، ولم يكن هناك من يمنعه من الجلوس أمام التلفاز طيلة الليل ومعه الشفرة والمرآة⁽¹⁾، فإنه لم يعد ينفجر في وجه إخوته بنفس الحدة التي كان يفعلها سابقاً في ظل غياب التوتر الإضافي الذي كان يسببه اجتماعهم ثلاث مرات يومياً لتناول وجبات غام المقلية الثقيلة في المطبخ.

(1) يستخدم فاريش هذه الأدوات لاستنشاق المخدرات إذ يقطعها بالشفرة لتصبح ناعمة على سطح مستو مثل المرآة.

كان داني هو الآخر يكثر من استنشاق المخدرات لكنه كان يطمئن نفسه بأنها مجرد مرحلة عابرة، والمفارقة أن تلك المخدرات كانت تمنحه طاقة هائلة لتنظيف المقطورة من الداخل والخارج، نظف داني النوافذ والأرضيات والجدران وهو يتصبب عرقاً حافي القدمين، ولا يرتدي إلا بنطال الجينز، تخلص من جميع الدهون والزيوت الفاسدة التي كانت غام تخزينها في علب القهوة القديمة ذات الرائحة الكريهة في المطبخ. نظف الحمام بعناية، ولمع أرضية اللينوليوم حتى أصبحت لامعة، وغسل الملابس الداخلية والقمصان القديمة حتى استعادت بياضها. (لم تعتد جدته قط استخدام الغسالة التي اشتراها لها فاريش؛ كانت دائماً تخلط الملابس البيضاء مع الملونة في أثناء الغسل، فصارت تلك الملابس البيضاء رمادية كلها).

كان التنظيف يمنح داني شعوراً جيداً: شعوراً بالسيطرة، أصبحت المقطورة مرتبة ونظيفة كأنها مطبخ سفينة حتى فاريش لاحظ كيف أصبحت الأمور مرتبة، وعلى الرغم من أن داني كان يعلم جيداً أن عليه ألا يلمس أيًا من مشاريع فاريش (الآلات المفككة جزئياً، جزازات العشب المكسورة، الكريرات، ومصابيح المائدة المتهاكة)، فإن تنظيف المساحة المحيطة بها كان ممكناً، والتخلص من الفوضى غير الضرورية أحدث فرقاً كبيراً.

كان يقود سيارته مرتين في اليوم ليأخذ القمامة إلى مكب النفايات، وبعد تسخين الحساء أو قلي البيض واللحم المقدد لكورتيس، كان يغسل الصحون ويجففها فوراً بدلاً من تركها

تتراكم، بل إنه حتى توصل إلى طريقة ذكية لترتيب كل شيء في الخزانة حتى يشغل أقل مساحة ممكنة.

في الليل، كان داني يجلس مع فاريش، وهذه مزية أخرى للسرعة في إنجاز الأمور؛ يتضاعف اليوم، فيكون لديك وقت للعمل، ووقت للكلام، ووقت للتفكير.

وقد كان لديه كثير مما ينبغي التفكير فيه، فقد أدت الهجمات الأخيرة على مقر الإرسالية وعلى غام إلى توجيه اهتمام فاريش صوب نقطة واحدة، في الماضي قبل أن يُصاب في رأسه كان يتمتع بموهبة مميزة في معالجة المسائل العملية واللوجستية، واليوم بدا أن جزءاً من هذا الذكاء القديم يعود إلى الظهور وهو يقف مع داني على الجسر المهجور، يتفحصان مسرح الجريمة: صندوق الديناميت المزين الخالي الذي كانت فيه الكوبرا، وعربة أطفال حمراء، وآثار أقدام صغيرة على غبار الأسمنت.

قال فاريش: «إن كانت تلك اللعينة الصغيرة هي التي فعلت هذا، فسوف أقتلها»، ثم صمت وراح يحرق إلى غبار الأسمنت واضعاً يديه على خاصرتيه.

قال داني: «فيمَ تفكر؟»

«أتساءل كيف تمكنت طفلة من حمل هذا الصندوق الثقيل؟»

«بالعربة».

«لكنها لا تستطيع أن تحمله وتنزل به سلم الإرسالية». كان فاريش يعرض شفته السفلى مفكراً: «وأيضاً إن كانت هي من سرقت الأفعى، فلماذا قرعت الباب وأظهرت وجهها؟»

رفع داني كتفيه وقال: «الأطفال...»، ثم أشعل سيجارة واستششق

الدخان عبر أنفه، ثم أغلق قداحة زيبو الكبيرة: «الأطفال أغبياء».
«من فعل ذلك ليس غبيًا، لقد تطلب تنفيذ الأمر شجاعة
وتوقيتًا دقيقًا».

«أو حظًا!»

قال فاريش: «مهما يكن»، عقد ذراعيه على صدره، كان مظهره
يبدو عسكريًا في معطفه البني، وعلى نحو مفاجئ راح يحدق إلى
داني بطريقة أثارت قلقه.

سأله ببرود: «أنت.. لا يمكن أن تفعل أي شيء يؤدي غام،
أليس كذلك؟»

رفرفت عينا داني: «كلال» كانت صدمته كبيرة فلم يعد قادرًا
على الكلام: «يا إلهي!»
«إنها عجوز!»

قال داني وهو يزيح شعره عن وجهه بحركة عدوانية: «أعلم
ذلك».

«أحاول التفكير في من يمكن أن يكون قد علم أنها هي التي
تقود السيارة ذلك اليوم، وليس أنت».

قال داني بعد لحظة صمت قصيرة: «لماذا؟»، كان وهج الشمس
المنعكس عن الطريق في مواجهة عينيه فزاد هذا من اضطرابه،
أضاف: «ما أهمية ذلك؟ لم تقل شيئًا سوى أنها لا تحب الصعود
إلى الشاحنة الصغيرة. لقد قلت لك هذا، وفي وسعك أن تسألها
بنفسك».

«أو أنا»

«ماذا تعني؟»

مكتبة
t.me/soramnqraa

قال فاريش: «أو أنا». كانت أنفاسه الرطبة القصيرة تسمع بوضوح، أضاف: «أنت لا يمكن أن تفعل شيئاً يؤذيني، أليس كذلك؟»

قال داني بعد لحظة صمت طويلة متوترة محاولاً أن يبدو صوته هادئاً قدر إمكانه: «بلى».

ما كان يود قوله ولكنه خشي ذلك هو: اللعنة عليك. كان داني يقضي وقتاً في تجارة المخدرات لا يقلّ عن الوقت الذي يقضيه فاريش، فهو ينجز المهام، ويعمل في المختبر، بل إنه كان مضطراً إلى إيصال فاريش بالسيارة إلى كل مكان يذهب إليه، ومع ذلك لم يكن يحصل على نصيب يعادل نصيب فاريش، في الواقع لم يكن يحصل على شيء على الإطلاق، فكل ما كان يفعله فاريش هو أن يرمي له بين الحين والآخر ورقة من فئة العشرة أو العشرين دولاراً.

صحيح أن ذلك كان لحين من الزمن أفضل من أن يعمل في وظيفة ثابتة، وصحيح أنه كان يمضي أيامه في صالة البلياردو أو يقود السيارة بفاريش، أو يستمع إلى الموسيقى، أو يسهر الليل في اللعب والمتعة ومع كل المخدرات التي يمكنه تعاطيها، ولكن رؤية الشمس تشرق كل يوم أصبحت تشعره بالضجر والرتابة، ومؤخراً بدأت تصيبه بالخوف. لقد سئم هذه الحياة، وسئم نشوة المخدرات، فهل يعطيه فاريش نصيبه الحقيقي كي يستطيع ترك البلدة والذهاب إلى مكان لا يعرفه فيه أحد (لم تكن لديك فرصة في هذه البلدة لأنه من عائلة راتليف) ليجد لنفسه عملاً لائقاً على سبيل التغيير؟ بالطبع لا، لماذا يعطيه فاريش مالا؟ تسير

أعماله سيرًا حسنًا في وجود هذا العبد الذي لا يدفع له شيئًا! فجأة قال فاريش بلهجة قاطعة: «عليك أن تجد تلك الفتاة، هذه هي الأولوية القصوى الآن، أريدك أن تعرف كل شيء عنها، ولا يهمني حتى لو اضطررت إلى أن تكسر رقبتها».

قالت أديليد: «لقد زارت ويليامسبرغ الكولونيالية⁽¹⁾، ولا يهمها إن زرتها أم لا»؛ ثم التفتت متذمرة لتتظر عبر زجاج السيارة الخلفي.

تهددت أيدي بعمق، شعرت بالإرهاق من قيادة السيارة، فقد أخذت هاربيت إلى المخيم، وعادت إلى منزل ليبي مرة أخرى لأنها نسيت إطفاء المصابيح، وانتظرت أديليد مدة طويلة داخل السيارة إلى أن انتهت من كيّ الفستان الذي قررت في اللحظة الأخيرة أن تأخذه معها، وفوق كل ذلك تذكرت تات بعد مغادرتهم البلدة أنها نسيت ساعة يدها على المغسلة!

كانت هذه الفوضى كافية لجعل أكثر الناس صبرًا يفقد أعصابه، تأخرن ساعتين كاملتين عن خطتهن للانطلاق، والآن -قبل أن يغادروا البلدة حتى- راحت أديليد تطالب بزيارة موقع تاريخي في ولاية أخرى!

كانت تات متألقة منتعشة، تفوح منها رائحة صابون الخزامى ومثبت الشعر وكولونيا «سوفوني فو»، قالت بنبرة مرحة: «أوه، لن

(1) موقع تاريخي بارز في ولاية فرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكية، ويُعدّ متحفًا حيًا يعيد إحياء الحياة اليومية في المستعمرات الأمريكية خلال القرن الثامن عشر قبل الثورة الأمريكية.

نهتم إن لم نذهب إلى فيرجينيا لأننا سنرى أماكن كثيرة جميلة، ومع ذلك ستكون خسارة إن لم نذهب إليها لأننا سنكون قريبين جدًا منها».

راحت أديلaid تهوِّي على نفسها باستخدام نسخة من مجلة «ميسيبى باي-وايز» التي أحضرتها لتقرأها في السيارة..
قالت إيدي: «إن كنتِ تشعرين بالحر، فلم لا تفتحين نافذتك قليلاً؟»

«لا أريد أن أفسد تسريحة شعري، لا تزال جديدة».

مالت تات نحوها وقالت: «يمكنك فتح النافذة قليلاً...».

«لا! توقفي! هذا مقبض الباب!»

«لا يا أديلaid! إنه مقبض الباب! هذا هو مقبض النافذة».

«لا تزعجي نفسك من فضلك، أنا مرتاحة هكذا».

قالت إيدي: «لو كنت مكانك لما قلقت كثيراً على شعري، ستشعرين بحر شديد في الخلف».

ردّت أديلaid بنبرة متصلّبة: «مع كل هذه النوافذ الأخرى المفتوحة، أشعر أنني سأطير من السيارة».

ضحكت تات وقالت: «لن أغلق نافذتي!»

ردّت أديلaid بنبرة حازمة: «وأنا لن أفتح نافذتي».

أطلقت ليبي الجالسة في المقعد الأمامي إلى جانب إيدي صوتاً يوحي بالضيق، لم تكن الكولونيا الخفيفة التي وضعتها مزعجة، لكن امتزاجها بحرارة الجو وروائح ثلاثة عطور أخرى آتية من المقعد الخلفي: «شاليمار» و«إيجان كلاودز» و«سوفني فو»، كان كافياً لتشعر إيدي باحتقان في جيوبها الأنفية.

فجأة، صاحت تات: «أين حقيبتى؟!»
التفت الجميع في ذهول: «ماذا؟ ماذا؟!»
«لا أستطيع العثور على حقيبة يدي».
قالت ليبي: «إيديث، عودي إلى البيت، لقد نسيت حقيبة يدها».

«لم أتركها في البيت، كانت معي قبل قليل»
قالت إيدي بغضب مكتوم: «لا أستطيع الاستدارة والعودة الآن ونحن في منتصف الطريق».

«أين يمكن أن تكون؟ كانت معي قبل قليل!»
ضحكت أديلaid وقالت: «أوه يا تاتي! ها هي ذي حقيبتك، أنت جالسة عليها!»

سألت ليبي وهي تلتفت مذعورة: «ماذا قالت؟ هل وجدتتها؟ هل وجدت حقيبتك يا تات؟»
«وجدتها، إنها الآن معي».

«أوه! الشكر للرب! لا يجوز أن تفقدي حقيبتك، ماذا ستفعلين لو ضاعت؟»

قالت أديلaid كأنها تعلن أمرًا من خلال الراديو: «يذكرني هذا بعطلة نهاية الأسبوع المجنونة في الرابع من تموز عندما ذهبنا إلى ناتشيز، لن أنسى ذلك اليوم أبدًا».

قالت إيدي: «ولا أنا أيضًا، لن أنسى ذلك اليوم أبدًا».
كان ذلك في الخمسينيات قبل أن تُقْلَع أديلaid عن التدخين؛ كانت أديلaid مشغولة بالكلام، فأشعلت النار في منفضة السجائر داخل السيارة فيما كانت إيدي تقودها على الطريق السريع.

«يا إلهي! كانت رحلة حارة طويلة!».

قالت إيدي متهكمة: «صحيح! بكل تأكيد، لقد شعرت بحرارة شديدة في يدي».

حينها حاولت إيدي إطفاء النار بإحدى يديها وهي تقود السيارة باليد الأخرى، فالتصقت بظهر يدها قطرة حارقة من السلوفان المنصهر في علبة سجائر أديلاید، راحت تقفز وتصرخ في مقعدها، كان الحرق مؤلماً جداً وترك ندبة، وكادت إيدي تتحرف عن الطريق من شدة ألمها وصدمتها. قادت السيارة مسافة مئتي ميل في حر آب، ويدها اليمنى محشورة في كوب مليء بالماء المثلج، والدموع تنهمر على وجهها، فيما واصلت أديلاید التذمر والشكوى طوال الطريق.

قالت أديلاید ملوحة بيدها فوق صدرها بحركة كوميدية: «وهل تذكرين رحلتنا إلى نيو أورليانز في آب؟ ظننتُ يا إيدي أنني سأموت من شدة الحر، كنت ستنتظرين إلى المقعد بجانبني وترينني ميتة».

قالت إيدي في نفسها: «أنت ونافذتك المغلقة هذه! غلطة من كانت؟»

قالت تات: «صحيح، يا لها من رحلة! لقد كان ذلك...».

«أنت لم تكوني معنا».

«بل كنت!»

قالت أديلاید بنبرة قاطعة: «الحقيقة أنها كانت معنا، لن أنسى ذلك أبداً».

«ألا تتذكرين يا إيدي عندما قررنا في تلك الرحلة الذهاب إلى
ماكدونالدز في جاكسون، فتوقفت بالخطأ عند حاوية القمامة في
موقف السيارات وأخبرتها أن تسجل طلباتها؟»

ثارت موجة من الضحكات المرححة، صرّت إيدي على أسنانها
وركزت انتباهها على الطريق.

قالت تات ضاحكة: «يا لنا من سيدات عجائز مجنونات! ترى
ماذا ظن الناس الذين كانوا هناك بنا؟»

تمتمت ليبي: «أتمنى أن أكون قد أحضرت كل شيء، أمس
ظننت أنني تركت جواربي في البيت، وأنني أضعت نقودي كلها!»
ربت تات على كتف ليبي النحيلة بحنو وقالت: «أراهن أنك لم
تغمضي جفنك طوال الليل، أليس كذلك يا عزيزتي؟»

«كلام فارغ! أنا في أحسن حال!»

قالت أديلايد: «تعلمين جيداً أنها لم تتم، لقد ظلت طيلة الليل
قلقة، عليك الآن أن تأكلي شيئاً».

صفقت تات بيديها وقالت: «أتعلمين؟ هذه فكرة رائعة!»

«فلنتوقف يا إيدي».

«ماذا؟ أردت أن نطلق في السادسة صباحاً، والآن تردن
التوقف! إذا توقفنا الآن، فلن نصل إلى الطريق السريع إلا عند
الظهر، ألم تأكلن جميعاً قبل أن نطلق؟»

قالت أديلايد: «الحقيقة لم أعلم كيف سيكون شعور معدتي إلا
بعد حين من انطلاقنا».

«نحن بالكاد خرجنا من البلدة!»

قالت ليبي: «لا تقلقي عليّ يا عزيزتي. أنا متحمسة جداً
لدرجة أنني لا أستطيع تناول أي لقمة».

مدّت إيدي يدها نحو الترمس وقالت: «تات، لماذا لا تصبين لها فنجاناً صغيراً من القهوة؟»
قالت تات: «إن كانت لم تتم إطلاقاً، فالقهوة قد تسبب لها خفقاناً في القلب».

ضحكت إيدي ساخرة وقالت: «ما بالكم جميعاً؟ كتنن تشربن القهوة في بيتي دون أي شكوى عن الخفقان أو أي شيء آخر. الآن أصبحت القهوة سماً يحوّل الجميع إلى مجانين!»

فجأة صاحت أديلالايد: «أوه يا ربي! انعطفي وعودي يا إيديث!»
وضعت تات يدها على فمها وضحكت: «نحن جميعاً غير طبيعيات هذا الصباح، أليس كذلك؟»

قالت إيدي: «ما الأمر الآن؟»
قالت أديلالايد متوترة: «إنني آسفة، ولكن ينبغي أن أعود».
«ماذا نسيت؟»

ظلت أديلالايد محدقة أمامها: «نسيت القهوة منزوعة الكافيين».
«لا بأس، يمكنك شراء غيرها».

تمتت تات: «خسارة أن تشتري عبوة جديدة إن كانت لديها عبوة في البيت».

قالت ليبي وقد غطت وجهها بيديها وعيناها تحملاً قلقاً حقيقياً: «لكن ماذا لو لم تجد قهوة دون كافيين؟ ماذا لو كانوا لا يبيعونها هناك؟»

«إنها تباع في كل مكان».

قالت أديلالايد بنبرة حادة: «إيدي، رجاء! لا أريد سماع شيء من هذا! إذا كنت لا تريدين العودة، فقط توقفي هنا ودعيني أخرج من السيارة».

انعطفت إيدي انعطافة حادة دون أن تعطي أي إشارة، ودخلت ممرًا يؤدي إلى منطقة لوقوف السيارات على الطريق السريع. انزلقت تات نحو أديليد بسبب انعطافة إيدي القاسية، تمسكت بذراع أديليد ضاحكة وقالت: «السنا عجيبات من العجائب؟ ظننت أنني الوحيدة التي نسيت أشياءها هذا الصباح». كانت على وشك أن تضيف بأنها لم تشعر بأي سوء بسبب نسيانها ساعتها في البيت، عندما سمعت صرخة ليبي المبهورة من المقعد الأمامي، ثم سمعت صوت اصطدام عنيف أصاب السيارة من جهة ليبي فانحرفت مقدمتها إلى الاتجاه الآخر، دوى صوت بوق السيارة، واندفع الدم من أنف إيدي، وفجأة وجدن أنفسهن في الجهة الخاطئة من الطريق السريع ينظرن إلى السيارات القادمة عبر الزجاج المتشقق.

«أوه! هارررر... بيت!»

انطلقت الضحكات في المكان، لسوء حظ هاريت اختارت الدمية المرتدية ملابس الجينز التي يحركها المهرج المتكلم من بطنه الإشارة إليها من بين الحاضرات جميعًا، كانت هي وخمسون فتاة أخرى بأعمار متفاوتة يجلسن على مقاعد خشبية في ساحة مفتوحة بين الأشجار، يطلق عليها مدير المخيم «الكنيسة».

في الصف الأمامي جلست دون وجادا الفتاتان اللتان تشاركان هاريت الكوخ نفسه، التفتا إليها بابتسامات خبيثة وقد بدا عليهما السرور الغامر؛ إذ لم يمضِ وقت طويل على مشاجرة وقعت بينهما وبين هاريت في صباح اليوم نفسه، ولم تنتهِ تلك المشاجرة إلا بقرع جرس الكنيسة.

ضحك المتكلم من بطنه، وقال: «مهلاً خذ الأمور ببساطة، زيفي أيها العجوز!». كان المهرج مرشداً في مخيم الأولاد يُدعى زاك، وقد ذكر الدكتور والسيدة فانس أكثر من مرة أن زيف (الدمية) وزاك قد تشاركا غرفة واحدة منذ اثني عشر عاماً؛ وأن الدمية قد رافقت زاك إلى جامعة بوب جونز، وشاركته غرفته هناك. سمعت هاربيت هذه القصة مراراً ووجدتها سخيفة أكثر مما تحتمل. كانت الدمية ترتدي ملابس تشبه ملابس عصابات «ديد آند كيدز»، مع سروال قصير وقبعة من طراز بورك-باي، وكان لها فم أحمر مخيف ونمش يشبه الحصبة.

جحظت عينا الدمية وأدارت رأسها كأنها تقلد حركة هاربيت. صرخت الدمية بصوت شرس: «هيه يا زعيم! أنا التي يدعونني دمية؟»

اندلعت موجة أخرى من الضحك لا سيما من جادا ودون في الأمام اللتين كانتا تصفقان مسرورتين، شعرت هاربيت بحرارة شديدة في وجهها، لكنها أبقت رأسها مرتفعاً بنظرة متعالية، مركزة بصرها على ظهر الفتاة المتعرق التي تجلس أمامها. كانت فتاة أكبر سنًا، بدينة إلى درجة أن طيات الشحم كانت نافرة حول أربطة حمالة صدرها، فكرت: «أمل ألا يبدو شكلي هكذا يومًا! أفضل أن أموت جوعًا على أن أكون كذلك».

مضى على وجودها في المخيم عشرة أيام، ولكن تلك المدة بدت لها دهرًا، ساورها شك بأن إيدي قد أوصت بها الدكتور فانس وزوجته، فقد بدا أن الجميع يركزون عليها بنفس الطريقة المزعجة. أدركت هاربيت بوضوح أن جزءًا من المشكلة يكمن في

شخصيتها؛ لم تستطع قط أن تكون جزءاً من مجموعة دون أن تجذب الأنظار إليها، لكنها لم تكن قادرة على فعل شيء حيال ذلك.

ولإبداء اعتراضها امتنعت عن توقيع «بطاقة العهد» وإعادتها، كانت في تلك البطاقة مجموعة من التعهدات الرسمية: الامتناع عن مشاهدة الأفلام المخصصة للكبار، أو سماع موسيقى الروك الصاخبة، أو شرب الكحول، أو ممارسة الجنس قبل الزواج، أو تدخين الماريغوانا، أو إساءة استخدام اسم الرب. لم تكن لديها نية لخرق معظم هذه القواعد (ربما باستثناء الذهاب إلى السينما أحياناً فقط)، لكنها رفضت التوقيع بعناد متمسكة برأيها.

وضعت الممرضة فانس ذراعها حول هاربيت التي تجمدت على الفور، واحتضنها بطريقة ودودة، وقالت بلطف: «مرحباً يا حبيبتي! ألم تتسي شيئاً؟»
«كلا».

«لم تصلني منك بطاقة العهد».

لم تقل هاربيت شيئاً.

عانقتها الممرضة عناقاً مزعجاً مرة أخرى: «تعلمين يا حبيبتي أن الرب لا يقدم إلينا إلا خيارين اثنين، إما أن نختار الصواب وإما أن نختار الخطأ! إما أن تكوني بطلة من أجل المسيح وإما لا تكوني كذلك!». أخرجت من جيبها بطاقة عهد فارغة.

«والآن يا هاربيت، أريد منك أن تصلي فوق هذه البطاقة، ثم افعلي ما يهديك إليه الرب».

حدقت هاربيت إلى حذاء الممرضة الرياضي.

أمسكت الممرضة بيد هاربيت، وسألتها بصوت منخفض
كأنها تعرض عليها مكافأة عظيمة: «ألا تحبين أن أصلي معك يا
حبيبتي؟»
«كلا».

قالت الممرضة بحماسة مبالغ فيها: «أوه! أعلم أن الرب
سيرشدك إلى الخيار الصحيح في هذا الشأن. أوه! أعلم هذا».
كانت الفتيات في الكوخ الذي أقامت هاربيت فيه قد أنشأن
صداقات بينهن قبل وصولها، لذا فإن معظمهن تجاهلنها، صحيح
أنها استيقظت ذات ليلة فوجدت يدها مغمورة في وعاء فيه
ماء دافئ، فيما وقفت بقية الفتيات في الظلام أسفل سريرها
يتهاوسن ويضحكن خلسة (كان ذلك مزاحًا ثقيلًا، فقد كانت
الفتيات يعتقدن أن وضع يد النائم في ماء دافئ يجعله يبول
في ملابسه)، ولكنها لم تشعر أن هذا موجهٌ ضدها شخصيًا؛
على الرغم من أنهن وضعن لها تحت مقعد المرحاض طبقة
من النايلون الرقيق. سمعت ضحكات مكتومة خارج المرحاض:
«أنت، ما الذي يؤخرك في الداخل هكذا؟». انفجرت أكثر من
عشر فتيات في ضحك شديد عندما خرجت عابسة الوجه وقد
تبلى بنطلونها القصير، ولكن من المؤكد أن تلك الخدعة لم تكن
موجهة إليها تحديدًا، ومن المؤكد أيضًا أن سوء حظها قد لعب
دورًا في ذلك. مع هذا بدا لها أن الفتيات يسخرن منها جميعًا:
بث، وستيفاني، وبيرفلي، وميشيل، ومارسي، ودارسي، وسارلين،
وكريسيل، وجادا، ولي آن، وديفون، ودون. كان أكثرهن من بلديتي
توبيلو وكولومبوس، أما الفتيات اللواتي من الكساندريا فكن

مقيّمات في كوخين آخرين: أوريول وغولدفينش، ولا يعني هذا أن هاربيت تفضلهن على بقية الفتيات. كن جميعاً أطول من هاربيت، وكان مظهرهن يوحي بأنهن أكبر منها سنّاً؛ فتيات يضعن مرطب شفاه بنكهات مختلفة، ويرتدين سراويل جينز ممزقة، ويدهن أجسادهن بزيت جوز الهند عند مرسى الدراجات المائية. كانت أحاديثهن تضجرها وتزعجها؛ أحاديث تافهة عن فرقة «باي سيتي رولز» وفرقة «أزوموندز»، وعن زميل لهن في المدرسة اسمه جاي جاكسون.

توقعت هاربيت هذه الأمور كلها؛ توقعت «بطاقات العهد»، وتوقعت ضحالة الحياة دون الكتب التي تأخذها من المكتبة، وتوقعت الرياضات الجماعية التي تمقتها، وتوقعت سهرات العروض التمثيلية ودروس الإنجيل التي تحمل طابع التوبيخ، وتوقعت الانزعاج والضجر عندما تجلس في القارب في حر الظهيرة وتصفي إلى أحاديث غبية عن أمور لا تهمها أبداً. كان هذا كله سيئاً بما فيه الكفاية، ولكن هاربيت سوف تدخل الصف الثامن السنة القادمة، وما لم تكن تتوقعه هو الإهانة الجديدة والمروعة المتمثلة في تصنيفها لأول مرة في حياتها أنها فتاة مراهقة: كائن بلا عقل، كله تكورات وإفرازات، (وفقاً للمواد الثقيفية التي أعطوها لها). لم تتوقع تلك الصور الملونة المعيبة الزاخرة بمعلومات طبية مهينة، ولم تتوقع «جلسات المصارحة» الإلزامية التي يشجعون فيها الفتيات على طرح أسئلة شخصية (بعضها من وجهة نظر هاربيت كان فاحشاً وإباحياً)، والأسوأ أنهن كن مطالبات بالإجابة أيضاً.

خلال تلك المناقشات كانت مشاعر الكره والعار تحرق هاريت، شعرت بالإهانة بسبب افتراض الممرضة السخيف أن هاريت لا تختلف عن بقية الفتيات المهتمات برائحة الإبط والجهاز التناسلي والمواعدة. ضباب مزيلات الرائحة، والمستحضرات «الصحية» في غرف تبديل الملابس، والشعر النابت على السيقان، وملء الشفاه الدبق؛ كان كل شيء ملوثًا بطبقة كثيفة من «البلوغ» أو «الفحش»؛ الفحش في كل شيء فحتى قطرات الصلصة على قطع الهوت دوغ لم تكن تخلو من ذلك الإحياء المهيّن.

لكن الأسوأ من ذلك كله كان شعورها أن تلك الصور الملونة التي تحمل تفاصيل «تطور الجسد» بكل ما تحويه من أرحام وقنوات وأثداء قد أسقطت فجأة على جسدها المسكين، شعرت أن كل من ينظر إليها يرى تلك التفاصيل المزعجة حتى وهي مرتدية ملابسها، يرى أعضاء جسدها ويرى الشعر النابت في مواضع لا تليق، ومعرفة أن ذلك كان أمرًا لا مفر منه (مجرد جزء طبيعي من مرحلة النمو) لم تكن أفضل من معرفة أنها ستموت يومًا ما. على الأقل، كان الموت يحمل شيئًا من الكرامة فهو نهاية للخزي والحزن.

صحيح أن بعض الفتيات في كوخها، مثل كريستل ومارسي، كانتا تتمتعان بروح فكاهة لطيفة، ولكن الفتيات الأكثر «أنوثة» (لي آن، ودارسي، وجادا، ودون) كنّ فضات ومخيفات، وكانت هاريت شديدة النفور من رغبتهن الواضحة في تعريف أنفسهن بمصطلحات بيولوجية فجّة مثل من لديها «ثديان» ومن ليس لديها، كنّ يتحدثن عن التقبيل والدورة الشهرية باستخدام

تعبيرات مبتذلة، والأسوأ من ذلك كانت عقولهن قذرة! ذات مرة قالت هاربيت عندما كانت لي آن تحاول ارتداء سترة النجاة: انظري! ليس عليك إلا أن تُدخلي هذا هناك.

انفجرت الفتيات ضاحكات بمن فيهن ناكرة الجميل لي آن. صاحت إحداهن بخبث: «ليس عليها إلا أن تفعل ماذا يا هاربيت؟» قالت هاربيت بنبرة باردة: «تُدخله، إنها كلمة صحيحة تمامًا».

ضحكات غبية! فتيات قذرات! كلهن قذرات! تلك الجماهرة كلها من المتعرقات اللواتي تأتيهن الدورة الشهرية والمهووسات بالفتيان بشعر أجسادهن ومشكلات التعرق التي يعانون بسببها، وغمزاتهن وركلاتهن الخفية لبعضهن عند كاحلي القدمين.

«قولها مرة أخرى يا هاربيت! ما معنى هذه الكلمة؟ ماذا قلت إن عليها أن تفعل».

كان زاك وزيع قد انتقلا إلى موضوع شرب البيرة: «والآن، قل لي يا زيع، هل يمكن أن تشرب شيئاً طعمه مقزز وهو يضرك أيضاً؟»

«هذا مستحيل!»

«لكن الحقيقة، صدق أو لا تصدق، أن هذا ما يفعله كثير من الكبار، بل حتى بعض الأطفال».

تبدو الدهشة على زيع، وتجول عيناه بين الحاضرين: «هل بيننا أطفال يفعلون ذلك يا زعيم؟»

«ربما؛ فهناك بعض الأطفال الأغبياء ممن يظنون أن شرب البيرة أمر رائع». رسم زاك شارة السلام، وانطلقت ضحكات متوترة بين الحاضرين.

شعرت هارييت بالصداع من الجلوس في الشمس، ضيقت عينيها ونظرت إلى لسعات البعوض على ذراعها، بعد هذا اللقاء (ينتهي بعد عشر دقائق، الشكر للسماء!) سيكون لديهم وقت سباحة يستمر خمسًا وأربعين دقيقة، يليه مسابقة في الإنجيل، ثم يأتي وقت الغداء.

كانت السباحة النشاط الوحيد الذي أحبته هارييت في المخيم، والوحيد الذي تنتظر قدومه بفارغ الصبر، كانت تسبح وحدها منصتة إلى دقات قلبها وهي تمضي عبر البحيرة المظلمة الساكنة، عبر أعمدة أشعة الشمس الضعيفة المتراقصة التي تخترق العتمة بصعوبة، وعلى مقربة من السطح يكون الماء دافئًا كماء الاستحمام، وعندما تغطس يلامس وجهها تيارات باردة من ينابيع المياه وعكارة ناعمة تندفع مثل دخان أخضر من الطين الرقيق في القاع، تتماوج مع كل ضربة من يدها وكل ركلة من ساقها.

تسبح الفتيات مرتين كل أسبوع: يوم الثلاثاء ويوم الخميس. كانت مسرورة لأن اليوم يوم الخميس؛ فهي لا تزال تحت وقع المفاجأة المزعجة التي استقبلتها صباحًا وقت استلام البريد، تلقت رسالة من هيلي، فتحت الرسالة بسرعة لتجد بداخلها قصاصة من صحيفة «ألكساندريا إيغل» تحمل عنوانًا بارزًا: «ثعبان من بلاد غربية يهاجم امرأة». ومع القصاصة رسالة مكتوبة على ورقة من دفتر مدرسي مسطرة بخطوط زرقاء.

اختطففت دون الرسالة من يدها: «أووو! هل هي رسالة من حبيبك؟»

قرأت بصوت مرتفع كي يسمعها الجميع:

«مرحباً هارييت، ماذا يجري؟»

سقطت قصاصة الصحيفة على الأرض، فالتقطتها هارييت بأصابع مرتجفة وكوّرتها في يدها ثم أخفتها في جيبها.

كانت دون تقول: «ظننت أنك قد ترغبين في رؤية هذا، ألقى نظرة!» تلقي نظرة على ماذا؟ ما المقصود؟

كانت يد هارييت في جيبها تمزق قصاصة الصحيفة إلى نتف صغيرة بأصابعها.

قالت جادا: «إنها في جيبها، لقد وضعت في جيبها شيئاً».

«خذيها منها! خذيها منها!»

انقضت جادا عليها مسرورة، لكن هارييت عاجلتها بلكمة أصابت وجهها مباشرة.

صرخت جادا: «أوه، يا إلهي! لقد خدشتني، لقد خدشت جفني أيتها القذرة!»

قالت فتاة بصوت كالفحيح: «انتبهن! سوف نسمعنا ميل»، كانت ميلاني مشرفة الكوخ.

زعقت جادا: «أنا أنزف، لقد حاولت أن تقتلع عيني!»

وقفت دون مكانها مصعوقة فاعرة فمها المزين بلمع الشفاء، فاستغلت هارييت الفرصة واختطفّت رسالة هيلي من يدها ووضعتها في جيبها.

رفعت جادا يدها وقالت: «انظرن!»، ظهرت قطرات من الدم على أطراف أصابعها وعلى جفنيها، ليس دمًا كثيرًا ولكنه دم. «انظرن إلى ما فعلته بي!»

صرخت إحدى الفتيات بنبرة مذعورة: «أطبقن أفواهكن جميعاً
والأ حصلنا على تقدير سيئ».

قالت فتاة أخرى بصوت متذمر: «إذا حصلنا على مخالفة
أخرى، فلن يُسمح لنا بشواء المارشميلو مع الفتيان».
«نعم، هذا صحيح. اصمتن».

تقدمت جادا من هاربيت بقبضة مرفوعة كأنها في مشهد
درامي: «من الأفضل أن تتبهي لنفسك يا فتاة! من الأفضل
لك...».

«أطبقي فمك، ميلاني قادمة!»

وفي تلك اللحظة رن جرس الاستدعاء إلى «الكنيسة»، أنقذ
ذاك ودميته هاربيت من المواجهة في الوقت الراهن على الأقل،
كانت تعلم أنها ستواجه مشكلة إذا قررت جادا أن تشكوها، لكنها
لم تكن جديدة على مثل هذه المشكلات، فقد اعتادت أن تجد
نفسها في مآزق كهذه بسبب المشاجرات.

ما أزعجها فعلياً كان تلك القصاصة. كان من الغباء الشديد
أن يرسلها هيلي، على الأقل لم يرها أحد، وهذا هو الأمر المهم،
هي نفسها لم ترَ شيئاً منها غير عنوانها قبل أن تمزقها كلها
وتمزق رسالة هيلي معها، وتعجن القطع كلها معاً في جيبها.

انتبهت إلى أن شيئاً قد تغير في تلك الفسحة بين أشجار
الكنيسة؛ فقد توقف ذلك عن الكلام، وهدأت الفتيات تماماً؛ ساد
المكان صمت مفاجئ. وفي ذلك الصمت سرت في هاربيت موجة
ذعر، فانتظرت أن تلتفت الرؤوس كلها إليها، ولكن ذلك لم يلبث
أن سعل سعلة صغيرة، ففهمت هاربيت كأنها تستيقظ من حلم

أن ذلك الصمت لا علاقة له بها؛ فقد كان لحظة صلاة، أسرعت وأغمضت عينيها وأخفضت رأسها.

ما إن انتهت الصلاة حتى تفرقت الفتيات ضاحكات، وبدأن يتجمعن في مجموعات للدردشة، وكان واضحاً أن جادا ودون ودارسي يتحدثن عن هاربيت؛ فأذرعهن معقودة على صدورهن ونظراتهن العدائية متجهة إليها. اقتربت منها ميل بقبعة تنس ومسحة من واقي الشمس فوق أنفها، وقالت لها: «انسي أمر السباحة؛ الدكتور فانس وزوجته يطلبانك».

حاولت هاربيت إخفاء قلقها.

قالت ميل، وهي تمرر لسانها على تقويم أسنانها: «في المكتب»، كانت تنظر فوق رأس هاربيت، تبحث بلا شك عن زاك المتألق دائماً في نظرها خوفاً أن يغادر إلى مخيم الفتيان دون أن يتحدث إليها.

أومأت هاربيت برأسها وحاولت أن تبدو غير مبالية.

ما الذي يستطيعان فعله لها؟ هل يرغمانها على الجلوس وحدها في الكوخ طيلة اليوم؟

نادتها ميل قبل أن تبتعد، كانت قد رأت زاك ولوحت له بيدها وبدأت السير بين الفتيات متجهة إليه: «اسمعي، إذا انتهى الدكتور فانس وزوجته من حديثهما معك قبل وقت دراسة الإنجيل، تعالي إلى ملعب التنس لتشاركي في تمرينات مجموعة الساعة العاشرة، ما رأيك؟»

كان الظل تحت أشجار الصنوبر كثيفاً؛ ما وفر استراحة مرحباً بها من سطوع الشمس القاسي في الكنيسة، وكان الدرب في الغابة لطيفاً ورطباً. مشت هاربيت خافضة رأسها، فكرت في نفسها: كان ذلك سريعاً جداً! صحيح أن جادا متمرة وشرسة، ولكن هاربيت لم تتوقع أن تكون واشية.

ولكن من يدري؟ ربما لا يتعلق الأمر بشيء خطير؛ لعل الدكتور فانس استدعاها لما يسميه «جلسة»، التي يكرر فيها آيات من الإنجيل تتحدث عن الطاعة، ثم يسأل هاربيت إن كانت تقبل أن يكون يسوع مُخلصها الشخصي، أو لعله يريد أن يسألها عن دمية «حرب النجوم». (قبل ليلتين جمع الدكتور فانس المخيم كله الفتيان والفتيات، وظل يصرخ عليهم ساعة كاملة لأن أحدهم بحسب قوله سرق دمية حرب النجوم التي تخص ابنه برانتلي الذي لا يزال في حضانة الأطفال).

أو ربما لديها مكالمة هاتفية؛ فالهاتف موجود في مكتب الدكتور فانس، ولكن من عساه يتصل بها، أيكون هيلي؟ أو قد تكون الشرطة في انتظارها. فكرت في الأمر فاضطربت: لعلمهم اكتشفوا عربة هيلي! ثم حاولت إبعاد هذه الفكرة عن ذهنها. خرجت من الغابة بخطوات حذرة، وعندما وصلت أمام المكتب شاهدت إلى جانب الحافلة الصغيرة وعلى مقربة من سيارة الدكتور فانس الستيشن، سيارة أخرى تحمل لوحة «شركة دايل شيفروليه للسيارات»، وقبل أن تسنح لها فرصة التفكير إن كان لهذا علاقة بها، فتح باب المكتب مصحوباً بنغمات عذبة من الجرس المعلق عليه، وخرج الدكتور فانس وخلفه ظهرت إيدي.

فوجئت هارييت بمشاهدتها، فتجمدت مكانها دون أن تتحرك،
بدا شكل إيدي مختلفاً تماماً؛ بدت هزيلة وشاحبة الوجه، تساءلت
هارييت لحظة إن كانت مخطئة، وإن كانت هذه هي إيدي نفسها.
لكنها أدركت أنها هي بلا شك، على الرغم من النظارة الثقيلة
التي كانت تضعها إيدي على عينيها، كانت النظارة قديمة جداً،
ذات إطار أسود ضخم لا يتناسب مع وجهها الصغير؛ ما جعل
إيدي تظهر بمظهر شاحب.

رأها الدكتور فانس فلوح لها بيديه الاثنتين كأنه يقف في
الناحية الأخرى من ملعب حافل بال جماهير، فترددت هارييت ولم
تجرؤ على الاقتراب منهما. تبادر إلى ذهنها أنها قد تكون واقعة
في ورطة حقيقية، في مشكلة أكبر مما تتصور. ولكن ما إن رأتها
إيدي حتى ابتسمت لها ابتسامة دافئة. وعندما ابتسمت، شعرت
هارييت أنها ترى إيدي التي تعرفها منذ زمن بعيد، إيدي صاحبة
العبلة ذات الشكل القلبي، إيدي التي تصفر وتقذف الكرة إلى
روبين تحت سماء لها بألوان الصور الفورية.
نادتها إيدي: «هوتتوت».

وقف الدكتور فانس بجانبها بابتسامة ودودة، فيما اندفعت
هارييت -التي غمرها الحب عند سماع اسم التحبب القديم الذي
لا تستخدمه جدتها إلا فيما ندر- نحوها عبر الساحة المرصوفة
بالحصى. انحنى إيدي بسرعة ووقار وقبلتها على خدها.

قال الدكتور فانس مبتسماً وهو ينظر إليهما ويتمايل على
عقبه: «يا لها من فرحة عارمة بلقاء الجدة!». تحدث بلطف
شديد، ولكن بطريقة توحى أن لديه مشاغل أخرى.

قالت إيدي: «هارييت، هل هذه أغراضك كلها؟»

نظرت هارييت فرأت على الأرض عند قدمي إيدي حقيبتها
وكيسها القماشي مع مضرب التنس.

بعد لحظة صمت مضطربة قصيرة لم تستوعب خلالها سبب
وجود أغراضها على الأرض، قالت هارييت: «هل هذه نظارة
جديدة؟»

«النظارة قديمة، والسيارة جديدة!». أومأت إيدي برأسها
مشيرة إلى السيارة الجديدة المتوقفة إلى جانب سيارة الدكتور
فانس: «إن كانت لديك أشياء أخرى في الكوخ، فمن الأفضل أن
تذهبي سريعاً وتأتي بها».

«أين سيارتك؟»

«لا يهم الآن، أسرعي فقط!»

لم تكن هارييت ممن يضعون شروطاً عندما يبتسم الحظ لهم،
لذا ركضت بسرعة، وقد حيرها ذلك الإنقاذ المفاجئ من هذا
المكان الكريه، كانت مستعدة لأن ترمي بنفسها على الأرض عند
قدمي إيدي وتصرخ وتتوسل كي تعيدها إلى البيت.

لم يكن باقياً في الكوخ سوى بضعة أشياء لا تريدها كانت
تستخدمها في أنشطة المخيم (قفاز مطبخ قبيح الشكل، وعلبة
أقلام لم يجف طلاؤها بعد)، ولم يكن هناك شيء ترغب في
أخذه غير صندلها ومنشفتيها، يبدو أن إحدى الفتيات قد أخذت
منشفتها معها إلى حوض السباحة، فحملت المنشفة الأخرى
وركضت عائدة إلى مكتب الدكتور فانس.

كان الدكتور فانس يضع أغراضها في صندوق سيارة إيدي الجديدة، لاحظت هاريت الآن أن حركات إيدي متبسة قليلاً. لعلها آيدا! تبادرت هذه الفكرة إلى ذهن هاريت ففاجأتها؛ لعل آيدا قررت ألا تترك عملها، أو لعلها أحبت أن تراها مرة أخيرة قبل مغادرتها! ولكن هاريت أدركت أن أي واحد من هذين الاحتمالين لا يمكن أن يكون صحيحاً.

نظرت إيدي إليها مرتابة، وقالت لها: «ظننت أن لديك منشفتين». «لا».

لاحظت أثراً من مادة داكنة متبسة أسفل أنف إيدي، فهل هذا سعوط⁽¹⁾؟ تشيستر يستخدم السعوط.

قبل أن تتمكن هاريت من الصعود إلى السيارة، أتى الدكتور فانس ووقف بينها وبين الباب، وانحنى ومد لها يده ليصافحها. «إن للرب خططه يا هاريت!» قال هذا كمن يكشف عن سر: «هل يعني هذا أن تلك الخطط تعجبنا دائماً؟ لا. هل يعني هذا أننا نفهمها دائماً؟ لا. هل يعني هذا أن علينا أن نبكي ونتذمر منها؟ أيضاً لا!»

شعرت هاريت بحرج شديد، فحدقت إلى عيني الدكتور فانس القاسيتين الرماديتين. في مجموعة النقاش التي نظمتها الممرضة بعد درس «تطورك الجسدي» كان هناك كلام كثير عن خطة الرب، وعن أن تلك الأنابيب التكاثرية والهرمونات والإفرازات التي عُرضت من خلال الصور هي خطة الرب للفتيات.

(1) تبغ مطحون يُستخدم عادة عن طريق الاستنشاق من الأنف.

«وما سبب ذلك؟ لماذا يمتحننا الرب؟ لماذا يختبر إيماننا؟ لماذا علينا أن نتأمل في هذه التحديات التي تشملنا جميعاً؟» كان الدكتور فانس يحدق إلى وجهها: «ماذا تعلمنا هذه التحديات في دربنا المسيحي؟» صمت.

بلغ تقرز هاربيت حدًا جعلها عاجزة عن سحب يدها، وفي الأعلى بين أشجار الصنوبر صدحت صرخة طائر أبو زريق. «جزء من التحدي الذي يواجهنا يا هاربيت، هو قبولنا أن خطته هي الأفضل دائماً؛ فما معنى القبول؟ علينا أن ننحني أمام مشيئته، علينا أن ننحني أمامها راضين، هذا هو التحدي الذي يواجهنا عندما نكون مسيحيين».

فجأة، شعرت هاربيت بخوف شديد، كان وجهها لا يفصله عن وجهه سوى بضع بوصات، فاستجمعت طاقتها كلها لتركز نظرها على بقعة صغيرة من شعرات حمرة في ثنية ذقنه أخطأتها شفرة الحلاقة.

فاجأها الدكتور فانس بأن ضغط على يدها وقال: «فلنُصلِّ!». أغمض عينيّه وضغط عليهما بإبهامه وسبابته: «يا يسوع! يا لسعادتنا بوقوفنا اليوم أمامك، يا لبركة الصلاة معك! اجعلنا فرحين، فرحين في حضورك!»

فكرت هاربيت مذهولة: ما الذي يتحدث عنه؟ حكّتها مواضع لسعات البعوض، ولكنها لم تجرؤ على حكّها، فحدقت إلى قدميها بعينين نصف مغمضتين.

«يا رب، كن مع هاربيت وعائلتها في الأيام القادمة، احرسهم جميعاً، احرسهم وأرشدهم وارعهم، أعنهم على القبول يا رب!». كان الدكتور فانس يلفظ تلك الكلمات بوضوح شديد ويفصل بين كل كلمة وأخرى: «أعنهم على قبول أن الأحزان والمحن جزء من دربهم المسيحي».

أغمضت هاربيت عينيها وقالت في نفسها: أين ذهبت إيدي؟ هل هي في السيارة؟

كانت كف الدكتور فانس بدقة فأزعجتها ملامستها، كم سيكون محرّجاً لها إن جاءت مارسى وبقية الفتيات ورأيها واقفة هنا في ساحة وقوف السيارات ويدها في يده.

«يا رب، أعنهم كي لا يديروا إليك ظهورهم، أعنهم على الخضوع، أعنهم على المتابعة دون شكوى، أعنهم كي لا يعصوك، كي لا يتمردوا عليك، أعنهم على قبول مشيئتك والانصياع لإرادتك».

خضوع؟ خضوع لماذا؟

كانت هذه الكلمة صدمة لهاربيت.

قال الدكتور فانس بصوت مرتفع جداً أجفل هاربيت عند سماعه: «... نطلب هذا باسم يسوع المسيح، آمين». كانت إيدي واقفة من جهة باب السائق ويدها على سطح السيارة، ولكن هاربيت لم تدرك إن كانت قد تحركت بعد انتهاء الصلاة أم كانت واقفة هناك طيلة الوقت، وكيف لها أن تدري؟ ظهرت الممرضة فانس على نحو مفاجئ، ثم انحنت فوق هاربيت وضمتها إلى صدرها حتى كادت تخنقها.

قالت بصوتها المزقزق: «الرب يحبك! عليك أن تتذكري هذا!»
ربتت على ظهر هاربيت، ثم استدارت صوب إيدي مبتسمة
كما لو كانت تتوقع أن تبدأ محادثة عادية، قالت لها: «مرحبًا»،
ولكن إيدي لم تكن في مزاج اجتماعي أو متقبل مثلما كانت يوم
أوصلت هاربيت إلى المخيم، فاكفت بأن أومأت برأسها إيماءة
سريعة نحو الممرضة.

جلستا في السيارة، ألقت إيدي نظرة سريعة من فوق حافة
نظارتها على لوحة عدادات السيارة التي لم تألفها بعد، ثم شغلت
المحرك وانطلقت. وقف فانس وزوجته وسط الفسحة المفروشة
بالحصى وذراع كل منهما حول خصر الآخر، وظلا يلوحان بيديهما
إلى أن اختفت سيارة إيدي خلف المنعطف.

كانت السيارة الجديدة مزودة بمكيف هواء، وهذا جعلها أكثر
هدوءًا، جالت عينا هاربيت على كل شيء في السيارة: الراديو
الجديد والنوافذ الكهربائية ثم استقرت في مقعدها مضطربة
في الجو البارد المعزول، كانت السيارة تزأر بهدوء على الطريق
الترابي عبر الظلال المتراقصة لأوراق الأشجار، وتجتاز بسهولة
تلك الحفر التي كانت تهز سيارة الأولدزموبيل هزًا شديدًا. لم
تجرؤ هاربيت على استراق نظرة إلى جدتها حتى بلغت نهاية
الطريق الظليلة وانعطفت داخله الطريق السريع المشمس.

لكن ذهن إيدي بدا أنه في مكان آخر، انطلقتا في الطريق
السريع الواسع، كان الطريق خاليًا؛ لا سيارات في الطريق، ولا
غيوم في السماء، وحواف الطريق الترابية الحمراء ماضية صوب
نقطة التقاء بعيدة في الأفق.

فجأة قطعت إيدي الصمت بنحنة غريبة وعالية، تردد صداها في أرجاء السيارة.

جفلت هاربيت، وحولت عيناها من النافذة إلى إيدي، لتسمعها تقول لها: «أمر مؤسف يا فتاتي الصغيرة!»

مرت لحظة لم تتنفس هاربيت خلالها، وتجمد كل شيء: الظلال، وقلبها، والعقربان الأحمران في ساعة السيارة. سألتها: «ما الأمر؟»

ولكن إيدي لم تحوّل عينيها عن الطريق، كان وجهها جامداً كأنه حجر.

كان مكيف الهواء أقوى مما ينبغي، أقوى كثيراً. احتضنت هاربيت جسدها بذراعيها العاريتين، وقالت في نفسها: ماتت أمي! أم أليسون! أم أبي! في اللحظة نفسها أدركت في قرارة قلبها أنها قادرة على مواجهة أي من هذه الاحتمالات. سألتها: «ماذا حدث؟»

«إنها ليبي».

في الفوضى التي أعقبت الحادث لم يفكر أحد أن شيئاً خطراً أصاب أي من النساء الأربع؛ فبمعزل عن بضعة جروح وكدمات وعن أنف إيدي المدمى الذي كان مظهره أخطر كثيراً مما هو عليه في الواقع، كانت صدمة كل واحدة منهن أكبر مما أصابها من أذى. أجرى لهن أفراد الطاقم الطبي فحصاً شاملاً مزعجاً قبل السماح لهن بالذهاب، قال عنصر سيارة الإسعاف الذي كان يتصرف كأنه يعرف كل شيء؛ العنصر نفسه الذي اهتم بأمر ليبي

وساعدها على الخروج من السيارة المحطمة: «هذه لم يصبها أي خدش». كان شعرها الأبيض على حاله ولآلئها وفستانها الوردي الخفيف.

كانت ليبي تبدو مصعوقة؛ فالضربة الأشد في ذلك الاصطدام كانت في جرتها. ومع أنها واصلت الضغط على أسفل رقبتها برؤوس أصابعها، وكانت تجسّ رقبتها بحرص وانتباه كأنها تقيس نبضها، فقد لوحّت بيدها وقالت: «أوه! لا لا تشغلوا بالكم بي» عندما تجاهلت أيدي اعتراض العاملين الطبيين ونزلت من سيارة الإسعاف لتطمئن على شقيقاتها.

كانت رقابهن جميعاً متيبسة، شعرت أيدي أن رقبتها تفرقع مثلما سوط راعي البقر! أما أدليد التي سارت حول السيارة المصابة، فقد كانت تتفقد أذنيها للتحقق من قرطيتها، ثم قالت: «عجيب أننا لم نمت! إيديث، عجيب أنك لم تقتلينا كلنا!»

بعد أن فُحصن جميعاً للتحقق من عدم وجود ارتجاج دماغي أو عظام مكسورة، صارت إيدي تسأل نفسها: لماذا لم تصر على أن يفحص أولئك الأغبياء ضغط دم ليبي؟ لقد عملت ممرضة ولديها معرفة بهذه الأمور. كانت إيدي الوحيدة التي قرر المسعفون وجوب نقلها إلى المستشفى، كان هذا أمراً مزعجاً، لأن إيدي لم يصبها شيء، لا كسور ولا إصابات داخلية، وكانت متأكدة من هذا، لكنها تركت نفسها تتورط في المجادلة، لم يكن لدى إيدي أي إصابة جسدية تستحق الاهتمام، سوى بعض الألم في أضلاعها جراء الاصطدام العنيف بعجلة القيادة. وقد كانت تعلم من أيام عملها ممرضة في الجيش أن ما من شيء يمكن فعله للأضلاع

المصابة سوى وضع لصاقة عليها وترك الجندي يذهب في حال سبيله.

قال المسعف الآخر (مسعف آخر غير ذلك الذي يعلم كل شيء)، كان له رأس كبير يشبه ثمرة القرع: «ولكن أضلاعك مصابة يا سيدتي».

كادت إيدي تصرخ في وجهه: «نعم، أنا على علم بذلك!»
«لكن سيدتي...» كانت يداه المزعجتان تمتدان نحوها، أضاف:
«من الأفضل أن تسمح لي لنا بأخذك إلى المستشفى، سيدتي...»
«لماذا؟ لن يفعلوا شيئاً سوى وضع لصاقة على أضلاعي ويجعلوني أدفع مئة دولار مقابل مئة دولار أستطيع أن أضع تلك اللصاقة بنفسى!»

رد العامل الذي كان يعتقد أنه يعرف كل شيء، مستنداً إلى ظهر سيارة إيدي المحطمة (السيارة! السيارة! يغور قلبها كلما نظرت إليها): «ستكلفك زيارة قسم الإسعاف أكثر من مئة دولار، صدقيني».

«صورة الأشعة السينية وحدها تكلفك خمسة وسبعين دولاراً».
بحلول ذلك الوقت تجمع حشد صغير من الفضوليين؛ معظمهم من موظفي الفرع المصرفي، وفتيات صغيرات يمضغن العلكة، ويضحكن بأصوات عالية، شعرهن مصفف، وشفاهن مطلية بأحمر الشفاه البني. أشارت تات إلى سيارة الشرطة كي تتوقف ملوحة لها بحقيبة يدها الصفراء، ثم جلست في مقعد السيارة الخلفي مع ليبي (على الرغم من أن الصوت العالي للبوق كان يملأ الأجواء) طوال مدة الإجراءات مع الشرطة وسائق السيارة

الأخرى، طالت الإجراءات كثيرًا، كان سائق تلك السيارة رجلًا مزعجًا قصير القامة كثير الحركة، يتظاهر بأنه يعلم كل شيء، كان اسمه لايل بيتكت ريكسي، وكان نحيلًا جدًا، وفي قدميه حذاء طويل مدبب، وله أنف معقوف كأنه خطاف، وكان يرفع ركبتيه عاليًا في الهواء بطريقة غريبة عندما يمشي. بدا الرجل شديد الاعتزاز بحقيقة أنه من مقاطعة أتالا، وبدا فخورًا باسمه أيضًا؛ فقد كان يكرره مستمتعًا كلما سنحت الفرصة. ظل يشير إلى إيدي بإصبعه الهزيلة ويقول: «تلك المرأة التي هناك». جعل الأمر يبدو كأن إيدي كانت ثملة أو مدمنة كحول: «تلك المرأة اندفعت أمامي بسيارتها، لا تعرف النساء قيادة السيارة!» ولكن إيدي أدارت ظهرها له بتعالٍ وراحت تجيب عن أسئلة الشرطي. كان الحادث خطأها، لأنها لم تسمح له بالمرور، وأفضل ما يمكنها فعله هو قبول اللوم بكرامة. كان السيد ريكسي يتذمر للمسعفين: «تلك المرأة اختارت يومًا حارًا لتتدفع أمامي فجأة!»، كانت نظارتها قد تحطمت، ومن حيث كانت تقف في حر الصيف اللافح كانت ليبي وتات مجرد هالات وردية وصفراء في المقعد الخلفي للسيارة المحطمة.

مسحت إيدي جبهتها بمنديل رطب. في أيام بيت «تريببوليشن» في كل عيد ميلاد كانت هناك أربعة فساتين بألوان مختلفة توضع تحت الشجرة: الوردي لليبي، والأزرق لإيدي، والأصفر لتات، ولون الخزامى لأديلايد الصغيرة، وكانت لكل منهن ممحاة ملونة وشرائط ملونة وأوراق ملونة، ودُمى خزفية شقراء متماثلة ولكن فساتينها ملونة بألوان مختلفة.

قال الشرطي: «هل انعطفتِ انعطافاً كاملاً إلى الجهة الأخرى من الطريق أم لا؟»

«لم أنعطف؛ غيرت اتجاه السيارة هنا في ساحة وقوف السيارات».

على الطريق السريع لمعت مرآة سيارة مقابل عيني إيدي فشوشتهما، وفي اللحظة نفسها قفزت إلى ذهنها ذكرى غريبة من ذكريات الطفولة: دمية تات العتيقة (فستانها أصفر متسخ) معوجة الساقين مرمية على التراب في فناء مطبخ بيت تريببوليشن تحت شجرة تين، حيث تتجول الدجاجات أحياناً باحثات عن طعام. لم تكن إيدي تلعب بالدمى ولم تكن مهتمة بها أدنى اهتمام، ولكنها تذكرت الآن تلك الدمية بقدر عجيب من الوضوح بملابسها الداخلية المصنوعة من قماش بني وأنفها اللامع بلون معدني فضي بشع حيث كان الطلاء متقشرًا عنه. كم سنة ظلت تأتي تجر جر تلك الدمية المحطمة برأسها المعدني الميت في أرجاء ذلك الفناء؟ كم سنة انقضت دون أن تتذكر إيدي ذلك الوجه الصغير الغريب ذا الأنف المقشورة؟

ظل الشرطي يستجوب إيدي مدة نصف ساعة بصوته الرتيب ونظارته الشمسية العاكسة، كان الأمر أشبه بالتعرض للاستجواب من «الذبابة» في فيلم الرعب المشهور الذي يحمل نفس الاسم! كانت إيدي تظلل عينيها بيدها، وتحاول تركيز ذهنها على أسئلته، ولكن عينيها ظللتا تلاحقان السيارات التي كانت تمر بسرعة على الطريق السريع المشمس، وكل ما استطاعت التفكير فيه كان دمية تاتي القديمة البشعة ذات الأنف الفضي، ماذا كان اسم تلك

الدمية العجيبة؟ عجزت أيدي عن تذكره. لم تكن تأتي تتحدث بوضوح حتى ذهبت إلى المدرسة، وكانت جميع دماها تحمل أسماء سخيفة تبتكرها من رأسها، مثل غرايس وليليوم وأرتمو. ضجرت الفتيات الفضوليات وعُدن إلى فرع المصرف، وهُنَّ يتفحصن أظفارهن ويفتلن شعرهن حول أصابعهن، أما أديليد التي ألقت عليها أيدي اللائمة في الأمر كله (تُبا لها ولقهوتها منزوعة الكافيين!) فقد بدت في غاية الضيق؛ وقفت على مسافة من السيارة كأن ليس علاقة لها بما يحدث، وأخذت تتحدث إلى من جوقة الكنيسة السيدة كارتريت التي توقفت بسيارتها لترى ما يحدث، وفي لحظة ركبت السيارة مع السيدة كارتريت وغادرت دون أن تخبر أيدي، اتصلت بعد ذلك وقالت لتات وللمسكينة ليبي: «نحن ذاهبتان لشراء النقانق والبسكويت من عند ماكدونالدز»، ماكدونالدز! وفوق هذا كله بعد أن سمح الشرطي ذو الوجه الذي يشبه الحشرة لإيدي بأن تذهب، رفضت سيارتها المسكينة أن تتحرك بالتأكيد، فاضطرت إلى أن تنصب قامتها وتشد كتفيها وتدخل إلى فرع المصرف البائس البارد، وأن تقف أمام تلك الموظفين المتأنقات لتطلب إذنًا باستخدام الهاتف، خلال ذلك الوقت كله كانت ليبي وتات جالستين دون تذمر في مقعد الأولدزموبيل الخلفي في ذلك الحر المرعب.

لم يتأخر وصول سيارة التاكسي، ومن حيث كانت واقفة أمام مكتب المديرية عند الواجهة تتكلم في الهاتف مع رجل من ورشة إصلاح السيارات، كانت أيدي تنظر إليهما عبر النافذة وهما تسيران إلى سيارة التاكسي وذراعهما متشابكتان، وخطواتهما

حذرة بحذاءيهما الأنيقين عبر الأرض المفروشة بالحصى، نقرت على الزجاج فالتفتت تات نصف التفاتة ورفعت يدها، تذكرت إيدي فجأة اسم دمية تات القديمة فضحكت بصوت عالٍ، سألتها الرجل الذي في ورشة السيارات: «هل هناك شيء مضحك؟»، نظرت المديرية من خلف نظارتها السميكة إلى إيدي كأنها مجنونة، لكنها لم تكثرث. كان اسم الدمية لوكوبوس بالتأكيد هكذا كان اسم تلك الدمية الغريبة، كانت لوكوبوس مشاغبة تضايق أمها، ولوكوبوس هي التي دعت دمي أديليد إلى حفلة شاي ثم لم تقدم لهن شيئاً غير الماء والفجل.

وصلت آخر الأمر الشاحنة التي ستقطر سيارتها، فقبلت إيدي عرض سائقها بأن يوصلها إلى البيت، لم تصعد إلى شاحنة منذ الحرب العالمية الثانية، وقد كانت مقصورتها عالية، فألمتها أضلاعها عندما صعدت إليها، ولكن «ليس للمتسول أن يختار ما يعطى له!»، هكذا كان يقول والدها القاضي.

لم تصل إيدي إلى البيت إلا وقد بلغت الساعة الواحدة ظهراً، علقت ملابسها واستحمت بماء بارد قليلاً، ولم تتذكر أن الحقائق لا تزال في صندوق سيارة الأولدزموبيل إلا بعد أن خلعت ملابسها. جلست على حافة سريرها بعد أن ارتدت السروال الداخلي وحمالة الثديين، وشهقت ألماً وهي تضع بحرص شديد لصاقة طبية على أضلاعها، شربت بعد ذلك كأساً من الماء، وتناولت قرص إسبرين مع الكوديثين بقي لديها بعد أن عالجت أسنانها، ثم ارتدت الكومينو واستلقت على فراشها.

بعد وقت طويل استيقظت على رنين الهاتف، في البداية ظنت أن الصوت الرقيق على الطرف الآخر هو صوت والدتها الطفلتين، فصاحت: «تشارلوت!»، وعندما لم تأتِها إجابة قالت: «عفوًا، من المتكلم؟»

«أنا أليسون، أنا في بيت ليبي، تبدو منزعة».

قالت إيدي: «لا ألومها»، وانتصبت جالسة بحركة مفاجئة، فداهمها ألم حاد في أضلاعها فشهقت، ثم قالت: «ليس هذا وقتًا مناسبًا لأن تكوني عندها؛ لا ينبغي أن تزعجها يا أليسون».

«لا تبدو متعبة، إنها تقول إن عليها أن تصنع مخلل اللفت!»

أطلقت إيدي ضحكة ساخرة: «مخلل اللفت؟! سأكون منزعة إن كان علي أن أصنع مخلل اللفت اليوم!»

«ولكنها تقول...».

قالت إيدي: «أذهبى إلى بيتك واتركى ليبي ترتاح»، شعرت بدوار خفيف من الدواء المُسكّن، وكانت ترغب في إنهاء المكالمة سريعًا حتى لا يكلمها أحد عن الحادث؛ فقد طرح الشرطي احتمال أن تكون لديها مشكلة في عينيها، ودار حديث عن ضرورة فحصهما، وعن احتمال سحب رخصة قيادة السيارة.

سمعت في الخلفية تممة عصبية متقطعة.

«ماذا؟»

«إنها قلقة، طلبت مني الاتصال بك. إيدي، لا أعلم ما ينبغي فعله، من فضلك تعالي وانظري...»

قالت إيدي: «لماذا تريدان أن آتي؟ دعيني أكلمها».

«إنها في الغرفة الأخرى». أعقب ذلك كلام غير مفهوم، ثم عاد صوت أليسون واضحاً: «تقول إن عليها أن تذهب إلى البلدة، ولا تستطيع العثور على جواربها وحذاءها».

«قولي لها أن تهدأ، لا تزال الحقائق في صندوق السيارة، هل نامت قليلاً؟»

مزيد من الغممة والكلام غير المفهوم. كادت إيدي تفقد صبرها، فقالت بصوت عالٍ: «ألو!»
«تقول إنها بخير، ولكن...».

(تقول ليبي دائماً إنها بخير حتى عندما مرضت بالحمى القرمزية، ظلت تقول إنها بخير).

قالت أليسون: «ولكنها ترفض الجلوس». بدا صوتها بعيداً كأنها لم تُقرب السماعة إلى فمها بشكل صحيح: «إنها واقفة في غرفة المعيشة...».

ومع أن أليسون واصلت الكلام، وإيدي واصلت الاستماع، فقد انتهت الجملة وبدأت الجملة الأخرى قبل أن تدرك إيدي أنها لم تفهم شيئاً مما سمعت.

قالت بنبرة مقتضبة: «إنني آسفة، ولكن عليك أن ترفعي صوتك». وقبل أن تتمكن من توبيخ أليسون على صوتها المبحوح، سمعت فجأة ضجيجاً عند الباب الأمامي: طَقَ طَقَ طَقَ طَقَ، سلسلة من الطرقات السريعة.

لَقَّت جسدها بالكومينو، وشدت حزامه، ثم مدت رأسها في الممر ونظرت إلى الباب، فرأت روي دايال مبتسماً بأسنانه الصغيرة التي تشبه أسنان المنشار، يلوح لها بيده مبهجاً.

عادت إلى غرفة النوم مسرعة، وقالت في نفسها: هذا الجشع! أتمنى أن أطلق النار عليه. بدا لها في غاية السرور، كانت أليسون مستمرة في كلامها.

قالت لها: «اسمعي! عليّ إنهاء هذه المكالمة؛ ثمة شخص بالباب، وأنا لم أرتدِ ملابسي بعد».

أتاها صوت أليسون واضحاً: «تقول إن عليها أن تقابل عروساً عند محطة القطار».

لا تحب إيدي الإقرار بأن سمعها ثقيل، وكان من عاداتها أن تتغاضى عن مقاطع الكلام التي تظنها لا تحمل إضافة إلى المعنى. أخذت نفساً عميقاً فآلمتها أضلاعها، وقالت: «أخبري ليبي إنني أقول لها أن تستلقي، سأذهب إلى منزلها لأقيس ضغط دمها وأعطيها دواءً مهدئاً ما إن....».

عاد النقر على الباب: طَقَ طَقَ طَقَ طَقَ.

قالت: «ما إن أتخلص منه»، ثم ودعتها.

ألقت شالاً على كتفيها ووضعت قدميها في شبشبها وخرجت إلى الممر، فرأت من خلال زجاج الباب المُغشَّى كيف فتح السيد دايال فمه بحركة مبالغ فيها تعبر عن سروره، ورفع بيده سلة فاكهة مغلقة بنايلون أصفر اللون، وعندما رأى أنها لا تزال في قميص نومها، اتخذ وجهه تعبيراً معتذراً؛ فارتفع حاجباه عند المنتصف على شكل حرف V مقلوب، وتحركت شفاته وهو يشير إلى السلة: يؤسفني إزعاجك! أحضرت لك شيئاً، سوف أتركه هنا. نادته إيدي بعد لحظة تردد بصوت مختلف مبهج: «انتظر لحظة، سأخرج فوراً». ثم أخفت ابتسامتها لحظة أدارت ظهرها،

وأسرعت إلى غرفتها، وأغلقت الباب، وأخرجت من خزانها فستاناً منزلياً.

أغلقت سحاب الفستان، وضعت قليلاً من أحمر الخدود على وجنتيها، ومررت البودرة على أنفها، ثم مررت الفرشاة في شعرها، فأنت متألّمة عندما رفعت ذراعها، ثم ألقت نظرة سريعة في المرأة قبل أن تفتح الباب وتلاقيه.

قالت عندما قدم إليها السيد دايال السلة: «الحقيقة أنني...».

قال السيد دايال وهو يدير رأسه جانباً لينظر إليها بعينه الأخرى: «أمل ألا أكون قد أزعجتك، كانت دوروثي في متجر البقالة فصادفت سوسي كارتريت التي أخبرتها بأمر الحادث. إنني أقول منذ سنين...»، وضع يده على ذراعها تأكيداً على كلامه: «... إن عليهم أن يضعوا إشارة ضوئية عند ذلك التقاطع، منذ سنين! اتصلت بالمستشفى فقالوا لي إنك لم تكوني بحاجة إلى معالجة، فالشكر للرب». وضع يده على صدره ورفع عينيه صوب السماء تعبيراً عن شكره.

أجابته إيدي كاظمة غيظها: «نعم، الشكر للرب! أشكرك!»

«اسمعي! إنه أخطر تقاطع في البلاد كلها، أقول لك ما سيحدث، أمر مخجل، ولكن أحدهم سيُقتل هناك ذات يوم قبل أن يستفيق مجلس المشرفين ويقرر الاجتماع كي ينظر في الأمر، سيُقتل أحدهم!»

فوجئت إيدي لأن مشاعرها نحو السيد دايال لانت؛ كان ذلك لطيفاً لأن الرجل بدا مقتنعاً تماماً بأن الحادث لم يكن خطأها. وعندما أشار إلى سيارة الكاديلاك الجديدة المتوقفة

على الرصيف («مجرد خدمة.. ظننت أنك قد تحتاجين سيارة بديلة بضعة أيام»)، لم تشعر بالعدائية تجاه هذه المرأة كما كانت لتشعر منذ دقائق فقط، بل مشّت معه برضا، وهو يستعرض لها ميزاتها: المقاعد الجلدية، مسجل الأشرطة، وعجلة قيادة هيدروليكية («وصلني هذا الجمال منذ يومين فقط، وعليّ أن أقول لك عندما رأيته أول مرة فكرت: هذه هي السيارة المثالية للسيدة إيديث!»). كان من الغريب أن تشعر بالرضا في أثناء مشاهدتها عرضه كيف تعمل النوافذ الكهربائية وغيرها من المميزات، لا سيما أن بعض الناس كانوا قد تجرّؤا منذ مدة قصيرة على اقتراح أن إيدي يجب أن تتوقف عن قيادة السيارة. استمر في حديثه، كان مفعول القرص المسكن الذي تناولته قد بدأ يزول، فحاولت مقاطعته، ولكنه ظل مصرا على استغلال الفرصة لأنه علم من سائق الشاحنة التي قطرت سيارتها أن الأولدزموبيل غير قابلة للإصلاح. بدأ طرح عليها بعض الإغراءات: «هناك حسم خمسمئة دولار من السعر المعلن، لماذا؟»، ثم بسط كفيه وقال موضحاً: «ليس من باب طيبة قلبي، لا يا آنسة إيديث! سأقول لك السبب، هذا لأنني رجل أعمال ماهر، ولأن شركة دايل شيفروليه راغبة في التعامل معك». تابع توضيح أنه يقدم كفالة بعيدة المدى أيضاً.

كانا واقفين تحت شمس الصيف الحارة، أحست إيدي بوخزة ألم في صدرها، وتبادر إلى ذهنها لمحة كابوسية عما ينتظرها في شيخوختها القريبة؛ فمفاصلها تؤلمها، وعيناها مشوشتان، وطعم الأسبرين يبقى دائماً في حلقها، طلاء المنزل متقشر،

والسقف يدلّف، وصنابير المياه تنقطّ دائميًا، والقطط تبول على سجادة لا يوجد أحد ينظفها، وحديقة الفناء قد طال العشب فيها وما من أحد يجزّه، وفوق ذلك كان الزمن غادرًا لتقف ساعات في فناء البيت مصغية إلى نصاب أو محتال أو أي شخص غريب يريد المساعدة يظهر بباب البيت.

كم مرة ذهبت إلى بيت «تريبوليشن» فوجدت والدها القاضي يتحدث أمام البيت مع بائع أو مقاول نصاب أو غجري مبتسم يقلّم الأشجار ثم يزعم لاحقًا أن السعر المتفق عليه كان على الفصن لا الشجرة؟! وكم من يهودا ودود أنيق يأتي ويعرض عليه مجلات فيها صور بنات مع جرعات من الويسكي، ويعرض كذلك فرصًا ممتازة لشراء عقارات وأراضٍ وحقوق تنقيب ومناطق محمية، فضلًا عن استثمارات دون مخاطر و«فرص لا تتكرر!» وذلك كله بغية تجريد العجوز المسكين من كل ما يملك، حتى من البيت الذي هو مسقط رأسه؟!

تابعت إيدي الاستماع وهي تشعر بالسوداوية واليأس، ما فائدة المقاومة؟ كانت مثل والدها عجوز وثنية؛ على الرغم من أنها كانت تحضر الكنيسة كواجب مدني واجتماعي، فإنها لم تكن تؤمن بكلمة واحدة مما يقال هناك. كانت روائح المقابر في كل مكان: العشب المقطوع والزنابق والتربة المحروثة؛ كان الألم يثقب ضلوعها في كل مرة تأخذ فيها نفسًا، ولم تستطع التوقف عن التفكير في دبوس الصدر الألماسي الذي ورثته عن والدتها: الذي كانت قد وضعتَه -مثلما تفعل أي امرأة عجوز غبية- في حقيبة غير مقفلة، هي الآن في صندوق سيارة محطمة الآن

في الناحية الأخرى من البلدة. قالت في نفسها: ظلت أتعرض
للسرقة طيلة حياتي، وكل شيء أحبه أخذ مني.

لم تدر كيف صار وجود السيد دايال الودود مريحاً لها
بوجهه المحمر ورائحة كولونيا الحلاقة وضحكته الشبيهة بصوت
الدلفين، كانت طريقة تصرفه المتكلفة مريحة على نحو غريب؛
على الرغم من أنها تتناقض مع صلابة عضلات صدره تحت
القميص النظيف المشدود، فكرت إيدي: «لطالما اعتقدت أنه
رجل وسيم»، كان لروي دايال عيوبه، لكن على الأقل لم يكن وقحاً
لدرجة أن يقترح أن إيدي غير قادرة على القيادة، قبل أسبوع
فقط كانت قد صرخت في وجه طبيب العيون التافه: «سأقود، لا
يهمني إن قتلت كل شخص في ولاية مسيسيبي».

وفيما كانت واقفة تصفي إلى كلام السيد دايال عن هذه
السيارة وهو يضع إصبعه السمين على ذراعها، هناك أمر واحد
فقط يريد قوله لها، ثم أمر آخر بعد ذلك، ثم أمر آخر، ثم
يسألها بعد أن أرهقها إلى أقصى حد: ما الذي عليّ قوله في
هذه اللحظة لتصبحي زبونتي؟ أخبريني بما ينبغي أن أقول كي
أستطيع إبرام هذه الصفقة. وللغربة شعرت إيدي بعجزها هذه
المرة عن إنهاء الحديث فظلت واقفة تصفي إليه. وبينما كانت
تستمع إلى عرضه، شعرت ليبي بالغثيان في حوض الاستحمام،
ثم ذهبت واستلقت في فراشها، ووضعت على جبهتها قطعة
قماش باردة، ودخلت في غيبوبة لن تستيقظ منها أبداً.

سكتة دماغية، هكذا كان الأمر، ولم يدر أحد عندما أصابتها
السكتة الأولى. لو حدث هذا في أي يوم آخر لكانت أودين موجودة،

ولكن أودين كانت متغيبية لأسبوع كامل بسبب رحلتهم. عندما فتحت ليبي الباب أخيراً (استغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى فعلت ذلك لدرجة أن أليسون ظنت أنها كانت نائمة)، لم تكن ترتدي نظارتها، وكانت عيناها مشوشتين قليلاً، نظرت إلى أليسون كأنها توقعت رؤية شخص آخر.

سألتها أليسون: «هل أنت بخير؟» كانت قد سمعت كل شيء عن الحادث.

قالت ليبي: «أوه، أجل».

أدخلت أليسون، ثم غابت في أعماق البيت كأنها تبحث عن شيء أضاعته هناك، وبدأت في حالة حسنة باستثناء كدمة على وجنتها لونها كلون مري العنب الخفيف، وأن شعرها لم يكن مرتباً مثلما تحب أن يكون دائماً.

تلفتت أليسون حولها وقالت: «هل تبحثين عن الصحيفة؟» كان البيت في غاية النظافة، فالأرض ممسوحة حديثاً، والأسطح خالية من الغبار، ووسائل الأريكة في أماكنها. لم تتبهِ أليسون إلى مرض ليبي بسبب ترتيب البيت ونظافته؛ فالمرض في منزلها مرتبط بالفوضى والستائر المتسخة وملاءات الأسرة المغبرة والدروج التي تترك مفتوحة وبقايا فتات الخبز على الطاولة.

بعد بحث قصير وجدت أليسون الصحيفة مطوية عند صفحة الكلمات المتقاطعة، ووجدت النظارة موضوعة فوقها على الأرض إلى جوار كرسي ليبي، أخذت النظارة والصحيفة إلى المطبخ حيث كانت ليبي جالسة تمسد بيدها مفرش الطاولة بحركة دائرية متوترة متكررة.

قالت أليسون: «ها هي ذي الكلمات المتقاطعة». كانت إضاءة المطبخ شديدة إلى حد غير مريح؛ فعلاوة على نور الشمس المنسكب عبر الستائر كانت مصابيح السقف مضاءة لسبب ما، كأنها أمسية شتوية مظلمة لا عصر يوم من أيام منتصف الصيف. «هل تريدني أن أحضر لك قلمًا؟»

قالت ليبي وهي تدفع الصحيفة جانبًا: «لا، لا أستطيع حلّ هذه الألغاز السخيفة حاليًا؛ فالحروف لا تكف عن الانزلاق عن الصفحة، علي أن أبدأ بتحضير اللفت». «اللفت؟!»

«إن لم أبدأ الآن، فلن يكون اللفت جاهزًا في الوقت المناسب، فالعروس الصغيرة آتية إلى البلدة في الرقم 4...». انتظرت أليسون قليلًا ثم سألتها: «أي عروس؟»

لم تسمع من قبل بالرقم 4 كائنًا ما يكون.. كان كل شيء ساطعًا وغير حقيقي، لقد ذهبت أيذا ريو قبل ساعة واحدة تمامًا مثلما تذهب كل يوم جمعة باستثناء أنها لن تعود يوم الاثنين، ولن تعود أبدًا. لم تأخذ معها غير الكأس البلاستيكية الحمراء التي تشرب بها، وفي الممر في طريقها إلى الخروج رفضت هدايا أليسون المغلفة تغليفًا متقنًا قائلة إن حملها ثقيل عليها. قالت بنبرة مبتهجة وهي تلتفت لتتظر إلى عيني أليسون مباشرة: «لن أكون في حاجة إلى هذا كله». أضافت بنبرة تشبه ما يقوله أحدهم إذا عرض عليه طفل يحبو زرا وجدته في الأرض أو قطعة سكاكر أخرجها من فمه: «فيَمَ تظنين أن هذا الأشياء الفارغة تلزمني؟»

صُغِقت أليسون، وبذلت جهداً كي لا تبكي، ثم قالت: «آيدا، أنا أحبك».

قالت آيدا: «حسناً، أنا أحبك أيضاً!»

كان الأمر فظيئاً؛ كان أكثر فظاعة مما يمكن تصوره، ومع ذلك هما واقفتان هناك عند الباب. شعرت أليسون بغصة حزن في خبقها عندما رأت كيف أخذت آيدا الشيك المالي الأخضر الموضوع على طاولة الممر ووجهه إلى الأعلى (قيمتة عشرون دولاراً)، وتأكدت أن حوافه متطابقة تماماً قبل أن تطويه بين إبهامها وسبابتها بحركة سريعة، بعد ذلك فتحت حقيبة يدها السوداء الصغيرة ووضعت الشيك فيها.

قالت: «لم أعد أستطيع العيش على عشرين دولاراً». كان صوتها هادئاً وطبيعياً، وفي الوقت نفسه كان مصطنعاً. كيف يمكن أن تقفا في الممر هكذا، وكيف يمكن أن تكون هذه اللحظة حقيقية؟ أضافت: «أنا أحبكما، ولكن الحياة هكذا، وأنا أكبر في السن». لمست وجنة أليسون بيدها: «ستكونين بخير، قولي للقبيلة الصغيرة إنني أحبها». كانت آيدا تدعو هارييت بالقبيحة عندما تشاغب أو تسيء التصرف، ثم أغلقت الباب وذهبت آيدا.

قالت ليبي: «أتوقع أنها لن تستطيع الحصول عليه عندما تصل»، لاحظت أليسون بقلق أن عيني ليبي تجولان على أرض المطبخ بطريقة غريبة كأنها ترى حشرة ترفرف عند قدميها. قالت أليسون: «ماذا تقصدين؟»

قالت ليبي: «الفت! مغلل الفت! أوه! ليت هناك من يساعدي». اتسعت عيناها بتذمر وبشيء من المزاح.

«هل تريدني أن أساعدك في شيء؟»

قالت ليبي: «أين إيديث؟». كان صوتها قاسياً وغريباً: «هي من تستطيع مساعدتي!»

جلست أليسون إلى طاولة المطبخ وحاولت أن تجعل ليبي تنتبه إليها، ثم قالت لها: «هل عليك إعداد هذا المخلل اليوم يا ليبي؟»
«لا أعلم إلا ما قالوه لي». مكتبة سُرمن قرأ

أومأت أليسون برأسها، جلست قليلاً في المطبخ ذي الإنارة الشديدة متسائلة عمَّ يجب عليها فعله. أحياناً تعود ليبي من «الجمعية الإرسالية» أو «دائرة الكنيسة» وتطلب طلبات غريبة شديدة التحديد: طوابع خضراء، أو إطارات نظارات قديمة، أو لصاقات علب حساء كامبل (التي كانت تشتريها منها جمعية «بابتست» في هندوراس)، أو أعواد الآيس كريم، أو عبوات منظف لوكس قديمة من أجل المصنوعات الحرفية اليدوية في بازار الكنيسة.

قالت آخر الأمر: «أخبريني بمن أتصل، سأتصل وأخبرهم إنك تعرضت لحادث هذا الصباح، من الممكن أن يتولى شخص غيرك مهمة إحضار مخلل اللفت».

أجابتها ليبي فجأة: «إيديث سوف تساعدني»، ثم نهضت واقفة ودخلت الغرفة الأخرى.

نظرت أليسون في أعقابها، وسألتها: «هل تريدني أن أتصل بها يا ليبي؟». لم يحدث يوماً أن سمعت ليبي تتكلم بهذه الفظاظة.

قالت ليبي: «إيديث ستصحح الأمر كله». كان صوتها ضعيفاً
نكداً هذه المرة، ليس كما يكون في العادة.

ذهبت أليسون إلى الهاتف، كانت لا تزال تعاني آثار رحيل آيدا
فلم تستطع أن تعبر لإيدي بالكلمات عن هذا التغير الذي رآته
عند ليبي وكم بدت لها مضطربة، وكم كانت تعابير وجهها توحى
أنها منهارة. لم تستطع أن تشرح لها كيف كانت أصابعها تعبت
بحافة فستانها كأنّ بها خجلاً شديداً من نفسها، مطّت أليسون
سلك السماعاة إلى أقصى حد ممكن وراحت تراقب الغرفة
الأخرى في أثناء كلامها مع إيدي، ولكن هذا الجهد زاد من
تلعثمها، وبدت لها أطراف شعر ليبي البيضاء المتناثرة حمراء
كاللهب في ضوء الشمس، كان شعرها خفيفاً لدرجة أن أليسون
كانت ترى أذني ليبي الكبيرتين من خلاله.

قاطعتها إيدي قبل أن تنتهي كلامها، وقالت لها: «عودي إلى
البيت واتركي ليبي ترتاح».

قالت أليسون: «انتظري»، ثم صاحت في اتجاه الغرفة الأخرى:
«ليبي، هذه هي إيدي، ألا تأتين لكي تتكلمي معها؟»
كانت إيدي تقول: «ما هذا؟ ماذا تقولين؟ ألو!»

كان ضوء الشمس ينسكب على الطاولة في غرفة الطعام مثل
برك من ذهب متوهج، وكانت قطرات الضوء التي تشبه قطع
النقود الذهبية السائلة تتراقص على السقف منعكسة عن الثريا،
بدا هذا البيت القديم متألّفاً ومُنازراً كأنه صالة رقص. وعلى
أطراف تلك الصالة كانت ليبي تتوهج بلون أحمر ساخن مثل
جمر متوهج، وكان ضوء الشمس المسائي الذي يحيط بها كالهالة
يحمل في داخله ظلاماً يشبه شيئاً يحترق.

قالت أليسون قانطة: «إنها.. أنا قلقة عليها . من فضلك تعالي، لا أستطيع فهم ما تقولينه لي».

قالت إيدي: «اسمعي، عليّ إنهاء المكالمة؛ ثمة من يدق الباب، وأنا لم أرتدِ ملابس بعد».

ثم أنهت المكالمة، فضلت أليسون عند الهاتف لحظة محاولة استجماع أفكارها، ثم ذهبت مسرعة إلى الغرفة الأخرى كي تتفقد ليبي التي التفتت إليها وعلى وجهها تعبير جامد غريب. قالت لها: «كان لدينا مهران بنيان».

«سأتصل بالطبيب».

قالت ليبي: «لن تتصلي، لن تفعلي شيئاً من هذا القبيل!». كانت نبرتها صارمة جعلت أليسون تستسلم على الفور أما سلطتها. بدأت أليسون تبكي: «أنت مريضة».

«لا، أنا بخير، أنا بخير! ولكن ينبغي أن يكونوا الآن قد وصلوا كي يأخذوني، أين هم؟ صرنا في آخر العصر».

وضعت يدها الصغيرة الجافة مثل الورق في يد أليسون، ونظرت إليها كأنها تنتظر منها أن تأخذها إلى مكان ما.

كان عبق السوسن وأزهار مسك الروم التي تملأ قاعة الجنازة الحارة تجلب شعوراً بالغثيان إلى معدة هاربيت كلما دارت المروحة لتحمل نفحة منها نحوها. كانت ترتدي أجمل فساتينها ليوم الأحد: الفستان الأبيض المزخرف بأزهار الأقحوان، وجلست على أريكة ذات ظهر منقوش، وعيناها شاحبتان، كانت نقوش الأريكة تضغط على عظام كتفيها، وفستانها كان ضيقاً عند الصدر؛ ما

زاد من شعورها بالضييق في صدرها ومن الهواء الخانق كأنها تتنفس في فراغ كوني، ليس أكسجيناً بل غاز فارغ. لم تتناول عشاءً ولا إفطاراً؛ فقد قضت معظم الليل مستيقظة، تضغط وجهها في الوسادة وتبكي، وعندما فتحت عينيها صباحاً وجدت نفسها في غرفتها، كانت تشعر بصداع نابض في رأسها، بقيت مستلقية بهدوء بضع لحظات تتأمل الأشياء المألوفة في الغرفة: الستائر، وانعكاسات أوراق الأشجار على مرآة طاولة الزينة، وحتى كومة الكتب التي تأخرت عن موعد إرجاعها الملقاة على الأرض، كل شيء كان كما تركته في اليوم الذي غادرت فيه إلى المخيم، ثم تذكرت عند ذلك كأن حجرة ثقيلة جاثمة على قلبها: أن آيدا رحلت، وأن ليبي ماتت، وأن كل شيء أصبح مريعاً وخاطئاً.

كانت إيدي واقفة عند الباب ترتدي فستاناً أسود، وحول رقبتها عقد من اللؤلؤ؛ كم بدت مهيبة وهي تقف بجانب المنضدة التي وُضع عليها سجل الزوار! كانت تردد الجملة ذاتها لكل شخص يدخل الغرفة كأنها تلقي تحية: «التابوت في الغرفة الخلفية». رحبت برجل محمرّ الوجه يرتدي بذلة عتيقة بنية اللون فشدد الرجل على يدها، ثم قالت الجملة نفسها من فوق كتفه للسيدة فوسيت الهزيلة، التي ظلت واقفة في الخلف منتظرة دورها: «التابوت في الغرفة الخلفية، يؤسفني أن جثمانها غير ظاهر، ولكن هذا لم يكن قراري».

مرت لحظة بدت فيها السيدة فوسيت مرتبكة، ثم تقدمت بدورها فشددت على يد إيدي، قالت كأنها على وشك البكاء:

«حزنت كثيرًا عندما سمعت، كنا جميعًا في المكتبة نحب الأنسة كليف، كم كنت حزينة عندما دخلت إلى المكتبة هذا الصباح فرأيت الكتب التي وضعتها جانبًا من أجلها».

السيدة فوسيت! نظرت إليها هاربيت وقد اجتاحتها شعور محبّ يائس؛ ففي ذلك الحشد من الملابس السوداء كانت السيدة فوسيت بقعة مريحة من الألوان بفستانها الصيفي المزخرف وصندلها القماشي الأحمر، بدت كأنها جاءت مباشرة من عملها. ربت يدي على يدها، وقالت لها: «الحقيقة، لقد كانت تحبكم جميعًا في المكتبة». شعرت هاربيت بالغثيان لسماع نبرة صوتها الودودة الجافة.

كانت أديليد وتات جالستين على الأريكة المقابلة لهاربيت تتحدثان إلى سيدتين مسنتين ممثلتين، بدت السيدتان كأنهما شقيقتان. كان الحديث يدور حول الأزهار الموجودة في قاعة الجنازة التي تُركت لتذبل طوال الليل بسبب إهمال مكتب الدفن. علقت السيدتان الممثلتان على ذلك بانزعاج شديد.

قالت المرأة الأكثر بدانة ومرحًا بينهما: «ألم تستطع الخادמות أو أي شخص آخر أن يسقين تلك الأزهار»؛ كانت امرأة دائرية الوجه ممثلة بخدين يشبهان التفاح وشعر أبيض مجعد كأنها زوجة سانتا كلوز.

أومأت أديليد بذقنها وقالت ببرود: «لم يتكبدوا عناء ذلك!»، شعرت هاربيت بطعنة غير محتملة من الكراهية نحو أديليد وإيدي وجميع السيدات المسنات لما لديهن من خبرة حية في مراسم الحزن.

بالقرب من هاربيت كانت هناك مجموعة أخرى من السيدات يثرثن، لم تكن تعرف أيًا منهن باستثناء السيدة وايلدر وايتفيلد عازفة الأرغن في الكنيسة، قبل لحظة كن يضحكن بصوت عالٍ كما لو أنهن في حفلة للعب الورق، ولكن الآن فقد تقاربت رؤوسهن وبدأن يتحدثن بأصوات خافتة.

قالت امرأة لطيفة ناعمة: «أوليفيا فاندربول.. نعم، أوليفيا عانت لسنوات، وفي النهاية صار وزنها خمسة وسبعين باوندًا، ولم تعد قادرة على تناول طعام صلب». «مسكينة أوليفيا، لم تعد مثلما كانت بعد مرضها مرة أخرى قط».

«يقولون إن سرطان العظم هو الأسوأ».

«بالتأكيد، لا أستطيع قول شيء غير أن وفاة الأنسة كليف السريعة كانت نعمة، فلم يكن لديها أحد يعتني بها».

فكرت هاربيت: لم يكن لديها أحد ليبي؟

لاحظت السيدة وايتفيلد أن هاربيت تحقق إليها غاضبة فابتسمت لها، لكن هاربيت أدارت وجهها بعيدًا، وهدقت إلى السجادة بعينين محمرّتين تغمرهما الدموع، كانت قد بكّت كثيرًا منذ عودتها من المخيم حتى شعرت بالخدر والغثيان، وصارت الآن غير قادرة على البلع، في الليلة الماضية عندما استسلمت للنوم أخيرًا، رأت في حلمها حشرات: سربًا أسود غاضبًا يخرج من فرن في منزل أحدهم.

سألت السيدة ذات الوجه الناعم السيدة وايتفيلد بصوت بالكاد مسموع: «لمن هذه الطفلة؟»

قالت السيدة وايتفيلد: «آه...»، ثم أخفضت صوتها.

في تلك الإنارة الخافتة انعكس الضوء من الفوانيس وتلألأ من خلال دموع هاربيت؛ كل شيء صار ضبابياً الآن ينصهر ويتلاشى. جزء منها -بارد وغاضب- وقف بعيداً يسخر منها لأنها تبكي، هي حين تلاشت السنة لهب الشموع وانفجرت في أشكال منشورية خبيثة.

كانت مؤسسة دفن الموتى تقع في شارع مين بالقرب من الكنيسة المعمدانية، ضمن مبنى على الطراز الفيكتوري فيه أبراج صغيرة وصلبان حديدية عالية. كم مرة عبرت هاربيت بجواره على دراجتها متسائلة عمّ يحدث في تلك الأبراج خلف القباب الصغيرة والنوافذ المسدلة ستائرهما؟ في بعض الأحيان في الليل بعد حدوث وفاة يلوح ضوء غامض في أعلى البرج خلف الزجاج الملون؛ ضوء يذكرها بمقالة عن المومياوات قرأتها في مجلة ناشيونال جيوغرافيك قديمة، كانت الكاتبة تحت الصورة تقول: كهنة التحنيط يعملون حتى وقت متأخر من الليل لتحضير فراعنتهم لرحلتهم الطويلة إلى العالم السفلي (معبد الكرنك بعد حلول الظلام، وضوء مخيف يشتعل). في كل مرة كانت ترى الضوء في البرج، تسري قشعريرة في عمودها الفقري، فتسرع في التحريك على دراجتها نحو المنزل، أو عندما تكون عائدة إلى البيت بعد تدريبات الجوقة في الكنيسة في ليالي الشتاء المظلمة، تشد معطفها حولها وتجلس مختبئة في المقعد الخلفي لسيارة إيدي:

بعد الجوقة تغني الفتيات وهنّ يقفن على الحبل في حديقة

الكنيسة:

دينغ دونغ، جرس القلعة

وداعًا يا أمي

أرقديني في المقبرة

إلى جانب أخي الأكبر

أيًا كانت الطقوس الليلية التي تحدث في الطابق العلوي، ومهما يكن فيها من تقطيع وتجفيف وتحنيط لأحبة رحلوا، فإن الطابق السفلي كان غارقًا في رهبة فيكتورية مخدرة. كانت الردهات وصالات الاستقبال فسيحة لكنها غارقة في الظلال، والسجاد ثخين داكن اللون، والأثاث قاسٍ غير نظيف (كتبات صغيرة عتيقة وكراسي قابلة للطي)، وهناك حبل مخملي يمتد حاجزًا عند أسفل السلم ~~لل~~سجاد أحمر ينسحب تدريجيًا إلى ظلام يشبه أفلام الرعب.

كان متعهد الدفن رجلًا لطيفًا قصير القامة يدعى السيد ميكبيس، وكانت له ذراعان طويلتان وأنف دقيق طويل وساق يجرّها خلفه عند المشي بسبب إصابته بشلل الأطفال. كان مَرِحًا كثير الكلام، وكان محبوبًا على الرغم من طبيعة عمله.

في القاعة كان يعرج من مجموعة إلى أخرى كأنه شخصية بارزة رغم إعاقته، يصافح الأيدي مبتسمًا، كان مرحبًا به دائمًا: يفسح الناس له متسعًا ويدعونه إلى المشاركة في أحاديثهم. شكله المميز وميل ساقه التي يجرّها وعاداته (بين الحين والآخر) في إمساك فخذه بكلتا يديه وسحبها بقوة إلى الأمام عندما تتعطل ساقه المصابة: كل ذلك جعل هارييت تفكر في صورة رأتها في إحدى مجلات الرعب المصورة عند هيلي، يظهر فيها خادم

أحذب في قصر قديم، يسحب ساقه بعنف بكلتا يديه من قبضة هيكल عظمي شيطاني يحاول الإمساك بها من الأسفل.

ظلت إيدي طيلة الصباح تتحدث عن «العمل الجيد» الذي أنجزه السيد ميكيس، أرادت منه أن يترك التابوت مفتوحًا، مع أن ليبي كانت تكرر بإلحاح طيلة حياتها أنها لا تريد أن يرى الناس جثمانها بعد موتها. في حياة ليبي كانت إيدي تسخر من هذه المخاوف، وبعد وفاتها ضربت برغبتها عرض الحائط واختارت التابوت والملابس بعين من يريد أن يقيم عرضًا لهذا ما سوف يتوقع رؤيته الأقارب القادمون من خارج البلدة، وهكذا هي العادات، وهذا ما ينبغي فعله. ولكن اعتراضات أدليد وتات هذا الصباح كانت هستيرية في الغرفة الخلفية، فما كان من إيدي آخر الأمر إلا أن قالت لهما بنبرة حادة: «كما تشاءان! بحق السماء!»، ثم طلبت من السيد ميكيس أن يفلق التابوت.

لاحظت هارييت رائحة مختلفة عن عطر السوسن القوي؛ كانت رائحة كيميائية تشبه رائحة كرات النفطالين، ولكنها تسبب الغثيان أكثر منها: هل هي رائحة السائل الواقي من التحلل؟ لم يكن يجدر بها أن تفكر في هذه الأمور؛ من الأفضل لها ألا تفكر إطلاقًا! لم تشرح ليبي لهارييت لماذا كانت تعارض بشدة فكرة التابوت المفتوح، لكن هارييت سمعت تاتي تخبر أحدهم أنهم عندما كن صغيرات كان «متعهدو الدفن في الريف يؤدون عملهم على نحو سيئ في بعض الأحيان، كان ذلك قبل وجود التبريد الكهربائي، وأُمنّا رحلت في الصيف كما تعلم».

عند سجل الزائرين، علا صوت إيدي بوضوح وسط الهمسات

الخافطة، وكان صوتها أشد وضوحًا من أي صوت آخر: «الحقيقة أن أولئك الناس لم يعرفوا بابا حقًا، فهو لم يكن مهتمًا بمثل هذه الأمور».

قفازات بيضاء وتمتمات خافطة مثلما يكون الأمر في لقاءات «جمعية بنات الثورة الأمريكية»، ساد جو ثقيل خانق في القاعة، كأن الهواء نفسه قد استقر داخل رئتي هاربيت دون أن يغادر. وقفت تات وقد طوت ذراعيها على صدرها، تهز رأسها وهي تتحدث مع رجل قصير القامة أصلع الرأس لا تعرفه هاربيت، كانت تبدو متماسكة وهادئة على الرغم من الهالات السوداء تحت عينيها، وغياب أحمر الشفاه عن شفتيها، وكانت هيئتها باردة وعملية على نحو غريب.

كانت تقول للرجل: «لا! لا! السيد هولت لو فيفر هو الذي أطلق على أبي هذا اللقب عندما كانا صبيَّين صغيرين، كان السيد هولت يمشي في الشارع مع مربيته عندما أفلت منها وهاجم والدي، كان أكبر من أبي حجمًا بثلاث مرات، وبالطبع دافع والدي عن نفسه، عندها ابتعد السيد هولت عنه باكيًا، وأخذ يصيح عليه: أنت متممر حقيقي!»

«كثيرًا ما سمعت أبي يدعو القاضي بهذا اللقب: متممر».

«الحقيقة أنه لم يكن لقبًا ملائمًا لبابا فهو لم يكن رجلًا ضخماً؛ مع أن وزنه قد ازداد في سنواته الأخيرة، وأصبح غير قادر على الحركة مثلما كان سابقًا بسبب التهاب الأوردة وتورم الكاحلين».

عضت هاربيت باطن خدها.

قالت تات: «عندما فقد السيد هولت عقله في آخر أيامه، قالت لي فيوليت إنه كان يصحو من وقت إلى آخر ويسأل: «لا أدري أين صديقي المتمر؟ لم أرَ صديقي المتمر منذ زمن» كان أبي قد رحل قبله بسنوات، وذات يوم ظل مُصِرًّا على ذلك السؤال، وظل يتساءل عن غياب أبي، ويقول إنه لم يره منذ زمن بعيد، فقالت له فيوليت: «لقد أتى المتمر لزيارتك يا هولت؛ أراد أن يراك، ولكنك كنت نائمًا».

قال الرجل الأصلع الذي كان ينظر من فوق كتف تات إلى رجل وامرأة دخلا المكان: «فليبارك الرب قلبه!» ظلت هاربيت جالسة مكانها، ساكنة تمامًا: ليبي! شعرت برغبة في الصراخ، أن تصرخ كما كانت تفعل أحيانًا في الظلام بعد أن تستيقظ من كابوس. ليبي التي تدمع عيناها في عيادة الطبيب؛ ليبي التي كانت تخاف من النحل!

التقت عيناها عيني أليسون المحمرَّتين المتورمتين من البكاء، شدت هاربيت على شفيتها، وأغلقت يديها حتى انغrust أظافرها في راحتيها، ثم حدقت إلى السجادة غاضبة حابسة أنفاسها بقدر كبير من التركيز.

قبل خمسة أيام من النهاية، بدا لهم أن ليبي قد تستفيق من غيبوبتها: تغفم في نومها، وتقلب صفحات كتاب وهمي، لكن كلماتها لم تلبث أن صارت غير مترابطة؛ إذ ما عاد فهمها ممكنًا، ثم انزلقت عائدة إلى ذلك الضباب الأبيض، ضباب الأدوية والشلل. في صباح اليوم الأخير، قالت الممرضة التي أتت لتتفقد لها: «علاماتها الحيوية تتراجع»، في حين كانت إيدي نائمة على سرير

مؤقت بجانبها . كان الوقت كافياً لاستدعاء أدبلايد وتأت للحضور إلى المستشفى . وقبل الساعة الثامنة ، اجتمعت الشقيقات الثلاث حول فراش ليبي ، حيث تباطأت أنفاسها شيئاً فشيئاً ، ثم ... «ثم توقفت» قالت تات مبتسمة ابتسامة صغيرة . كان عليهم أن يقصوا خواتمها لنزعها من أصابعها التي تورمت كثيراً ... كانت يدا ليبي صغيرتين ، ناعمتين كأنهما من ورق ، اليدان الحبيبتان ، المفعمتان بالبقع ، كانتا تصنعان الزوارق الورقية لتطفو بها في المغسلة . والآن ، تورمت يدها حتى باتت كأنها ثمرة الكريب فروت ! (هكذا كانت العبارة التي لم تفتأ إيدي تكررها خلال الأيام الماضية : كالكريب فروت ! ، ولم يكن أمامهم سوى الاتصال بمتجر الحلبي ليأتوا ويقصوا الخواتم التي ضاقت بها أصابعها ...).

ما إن استجمعت هارييت قواها وتمكنت أخيراً من الحديث ، قالت بذهول مستتكرة : لماذا لم تتصلوا بي ؟ بدت مصدومة مما جرى ، وامتزجت كلماتها ببرودة مكيف الهواء في سيارة إيدي ، فبدأ صوتها غير مهذب تحت وطأة ذلك الانهيار الأسود الذي سحقها وجعلها تكاد تفقد عقلها عند سماعها الكلمتين المشؤومتين : «ماتت ليبي» .

قالت إيدي بصبر : «ظننت أنه لا يجوز لي أن أفسد عليك وقتك الطيب قبل أن يصبح الأمر لا مفرّ منه» .

انبتق فوقهما صوت مألوف ، صوت تات : «يا للفتاتين المسكينتين !» كانت أليسون دافنة وجهها بين كفيها وتجهش بالبكاء وتتنحب . صرّت هارييت على أسنانها ، وقالت في نفسها : أليسون هي

الوحيدة التي يفوق حزنها حزني، إنها الوحيدة الحزينة حقاً في هذه الصالة كلها.

وضعت تات يدها -التي ذُكِّرت هاربيت بيد معلمة في المدرسة- برفق على كتف أليسون وقالت: «لا تبكي! ليبي ما كانت لتريدك أن تبكي هكذا».

بدا صوت تات مشوباً بشيء من الحزن، وهو ما لاحظته (بمشاعر باردة) جزء صغيرة داخل هاربيت، ذلك الجزء القاسي الذي ظل يراقب دون أن يتأثر بالأسى. ومع ذلك، تملكته تساؤلات مريرة وقد أصابها دوار لكثرة بكائها وتورمت عيناها حتى كادت لا تريان: «لكنها ليست حزينة بالقدر الكافي! لماذا؟ لماذا تركوني في ذلك المخيم العفن في حين كانت ليبي تُحتضر في فراشها؟» كانت إيدي قد اعتذرت إليها في السيارة... يمكن القول إنها اعتذرت، قالت لها: في البداية، توقعنا أن تتحسن وتتجاوز الأمر. ثم، قلت في نفسي إن من الأفضل لك أن تتذكرها مثلما كانت من قبل... وبعدها لم أعد أفكر في شيء.

قالت تات: «أيتها الفتاتان! ألا تتذكران قريبتينا ديل ولسوندا من ممفيس؟».

تقدمت نحوهم سيدتان متقدمتان في السن، بدتا متراخيتين: إحداهما طويلة القامة محمرة الوجه، والأخرى ممثلة الجسم ذات بشرة سمراء، تحمل حقيبة يد مخملية سوداء مزينة بالحلي. قالت الطويلة ذات الوجه المحمر: «عجباً»، وقفت بصلاصة كأنها رجل، منتعلة حذاء كبيراً مسطحاً، وقد دسَّت يديها في جيبي فستانها الكاكي.

تمت القصيرة السمراء الممتلئة: «فليبارك الرب قلبيهما»، ثم مسحت عينيها بمنديل وردي، وقد بدت حولهما هالتان سوداوان أشبه بعيني إحدى نجومات الأفلام الصامتة).

حدقت هاريت إليهما وفكرت في بركة السباحة في النادي الريفي: الضوء الأزرق، وكيف يصير العالم كله من غير صوت عندما تنزلق تحت الماء بعد أن تأخذ نفسًا طويلاً، قالت في نفسها: تستطيعين أن تكوني هناك الآن! تستطيعين أن تكوني هناك إذا ركزت تفكيرك بالقدر الكافي!

«هاريت... ألا أستطيع استعارتك دقيقة واحدة؟»، أمسكت أديليد يدها وجذبتها كي تقف (بدت شديدة الأناقة في ثوبها الأسود الجنائزي وياقتها البيضاء).

قالت السيدة القصيرة الممتلئة الجسم مشيرة بإصبع كثيرة الخواتم: «فقط إذا وعدتني بإعادتها سريعاً».

تستطيعين مغادرة هذا المكان، تستطيعين مغادرته بعقلك، ما عليك إلا أن تذهبي!

ما الذي كان بيتر آن يقوله لويندي؟ «ما عليك إلا أن تغمضي عينيك وأن تفكري في أمور جميلة».

بلغت أديليد وسط القاعة وتوقفت في مكان وهي تغمض عينيها: «أوه»، كان الناس يمرون بها، صدحت موسيقا ثقيلة من أرغن غير مرئي («قريب من ربي ومنك»... لا شيء مميز؛ ولكن هاريت لا تعلم أبداً ما قد تعده السيدات العجائز مثيراً)، كان الصوت قريباً.

استشقت أديليد نفسًا وقالت: «الفل!». كان أنفها، عند النظر إليه جانبياً، شديد الشبه بأنف ليبي فانعصر قلب هاريت وآلمها... «شمي هذه الرائحة»، أمسكت بيد هاريت وجذبتها كي تقترب من باقة زهور كبيرة موضوعة في مزهرية خزفية.

كانت موسيقا الأرغن زائفة، ففي زاوية خلف الطاولة المرتفعة، رأت هاريت آلة تسجيل ذات بكرات مخفية خلف الستارة المخملية.

حثتها أديليد على الاقتراب: «هذه زهرتي المفضلة! انظري هذه الأزهار الصغيرة، شميها، يا حبيبتى!»

انقبضت معدة هاريت، كان شذا الزهور في تلك الصالة الحارة باذخاً جداً، وكانت له حلاوة قاتلة.

سمعت أديليد تقول لها: «أليست أزهاراً سماوية؟ كانت موجودة في باقة زهور زفافي....».

لمع شيء أمام عيني هاريت، ثم اسودّ كل ما كان واقعاً عند أطراف مجال رؤيتها، وكان آخر ما رآته مصابيح متألئة وأصابع كبيرة، أصابع رجل، أمسكتها من مرفقها.

كان أحدهم يقول: «لا أعلم إن كانت تسبب الإغماء، ولكني واثق بأنها تسبب لي صداعاً في الأماكن المغلقة».

قال الشخص الغريب الذي حملها: «دعوها تستشق الهواء»، كان رجلاً كبيراً في السن، طويل القامة إلى حدٍّ غريب... ذا شعر أبيض وحاجبين أسودين كثيفين، وعلى الرغم من شدة الحر، كان مرتدياً كنزة من غير ياقة فوق قميصه وربطة عنقه.

وعلى نحو مفاجئ، انحنت فوقها إيدي (سوداء كلها مثل الساحرة الشريرة) وحدقت عينان خضراوان باردتان في عينيها لحظة أو لحظتين، ثم انتصبت واقفة، انتصبت وانتصبت وانتصبت وقالت: «خذوها إلى سيارتي!»

قالت أديليد: «سأخذها أنا».

تقدمت وأمسكت بذراع هاريت اليسرى في حين أمسك الرجل العجوز بذراعها الأخرى (كان عجوزاً جداً... لعله في الثمانينيات، أو لعله في التسعينيات)، وسارا بها معاً، عبروا الباب خارجين إلى ضياء الشمس الذي يعمي الأبصار، ساروا بخطوات بطيئة جداً، بخطوات أقرب إلى خطوات الرجل العجوز منها إلى خطوات هاريت، أتها هذه الفكرة على الرغم من تشوش ذهنها. قالت أديليد بصوت بدأ منخفضاً ثم علا: «هاريت، أظنك لا تعرفين من يكون هذا، إنه السيد ج. رودوس سامنر، بيته في الشارع الذي نشأت فيه».

قال السيد سامنر وهو ينفخ صدره مزهواً: «في تشيبوكس».

«بالتأكيد، تشيبوكس، في الشارع نفسه، بعد بيت تريبوليشن، أعلم أنك سمعتنا جميعاً نتحدث عن السيد سامنر يا هاريت، لقد ذهب إلى مصر، كان في وزارة الخارجية».

«أعرف خالتك آدي منذ كانت طفلة صغيرة».

أطلقت أديليد ضحكة عابثة: «لم أكن صغيرة جداً، رأيت أنك ستحبين الحديث مع السيد سامنر لأنك شديدة الاهتمام بالملك توت عنخ آمون، وتلك الأمور».

قال السيد سامنر: «لم أذهب إلى القاهرة منذ زمن طويل، كنت هناك في أثناء الحرب، لقد ذهب إليها كثيرون في ذلك

الوقت». انعطف متجهًا صوب النافذة المفتوحة في سيارة كاديلاك ليموزين طويلة (سيارة مكتب الدفن)، توقف قليلًا عند النافذة كي يتحدث مع السائق: «ألا تتبّه إلى هذه الأنسة؟ سوف تستلقي على المقعد الخلفي بضع دقائق».

أجفل السائق الذي كان وجهه أبيض كوجه هاربيت مع أن على رأسه شعرًا إفريقيًا غزيرًا. شغل الراديو، قال وهو يلتفت يمينًا وشمالًا: «ماذا؟». لم يدر أين ينظر أولاً... إلى الرجل الطويل الأبيض المنحني عند نافذته أم إلى هاربيت التي بدأت تصعد إلى السيارة... «هل هي متوقعة؟»

قال السيد سامنر وهو ينحني أكثر كي ينظر إلى هاربيت التي صارت في عتمة السيارة: «أعلمين ماذا؟ يبدو لي أن ثمة بارًا في هذه السيارة».

بدا على السائق أنه استعاد زمام نفسه فأجابه: «لا، يا سيد، يا زعيم، تلك سيارتي الأخرى»، قال هذا بنبرة متعالية مازحة فيها ودّ مصطنع.

أعجب السيد سامنر بهذه الإجابة فضرب بيده على سقف السيارة وراح يضحك مع صاحبها، قال لها: «لا بأس»، كانت يدها مرتعشتين؛ فعلى الرغم من أنه بدا مالكًا زمام نفسه، كان واحدًا من أكبر وأضعف الأشخاص ممن رأتهم هاربيت... «لا بأس، أرى أن أمورك بخير؟ أليس كذلك؟»

«ليس لي أن أتذمر».

«يسرني سماع هذا»، ثم تحول إلى هاربيت: «والآن، يا فتاة، ماذا يلزمك؟ هل آتيك بزجاجة كوكا كولا؟»

سمعت أديلايد تقول: «أوه، جون! هي ليست بحاجة إليها».

جون، حدقت هاربيت أمامها مباشرة: «أريدك أن تعلمي أنني أحببت خالتك ليبي أكثر من أي شيء في العالم»، سمعت السيد سامنر يقول هذا، كان صوته عجوزاً، مرتعشاً، جنوبياً جداً... «لو ظننت أن تلك الفتاة تقبل بي، لطلبت الزواج بها».

نبعت الدموع في عيني هاربيت، شددت على شفتيها وحاولت ألا تبكي، كان الجو داخل السيارة خانقاً.

قال السيد سامنر: «بعد أن مات والد جدك، طلبت من ليبي أن تأتي وتصير زوجتي، كنا قد صرنا كبيرين...»، ضحك: «أتعلمين ما قالته لي؟»

نقر على باب السيارة عندما لم يستطع التقاط عيني هاربيت... «هممم، أتعلمين ما قالته لي؟ قالت إنها قد تكون قادرة على قبول ذلك لولا أنه يرغبها على السفر بالطائرة، ها ها ها، فقط كي تكون لديك فكرة عن الأمر، يا آنسة، كان عملي آنذاك في فنزويلا».

قالت أديلايد شيئاً من خلفه، تمتم العجوز قائلاً بصوت منخفض: «اللغة عليّ إن لم تكن تلك إيديث من جديد».

ضحكت أديلايد ضحكة لعوباً، في تلك اللحظة، ارتعشت كتفا هاربيت من تلقاء ذاتهما، ثم تفجر نحيبها رغماً عنها.

صاح السيد سامنر بصوت بان فيه كرب حقيقي وسقط ظله عليها من جديد عبر نافذة السيارة: «آه! فليبارك الرب قلبك!»

قالت أديلايد بنبرة حازمة وهي تبعده عنها: «لا، لا، لا، لا أتركها وشأنها! سوف تكون بخير، يا جون».

ظلّ باب السيارة مفتوحًا، وكان نحيب هارييت عاليًا في ذلك الصمت ومنقرًا، ومن المقعد الأمامي، كان سائق السيارة يرقبها عبر المرآة صامتًا وهو يقرأ كتابًا عنوانه «أبراج الحب» (على غلافه صورة دائرة الأبراج)، وسرعان ما سألها: «هل ماتت أمك؟» هزت هارييت رأسها، ارتفع حاجبا السائق في المرآة: «قلت، هل ماتت أمك؟»

«لا».

ضغط على قداحة السجائر في السيارة: «إذا، ليس لديك ما يستدعي بكاءك».

أصبحت قداحة السيارة جاهزة، فأشعل السائق سيجارته وأطلق نفثة طويلة من الدخان عبر النافذة المفتوحة، ثم قال: «لن تدركي معنى الحزن إلا في ذلك اليوم». فتح علبة القفازات وأخرج منها بعض المناديل الورقية وناولها لها فوق المقعد.

سألها: «إذا، من الذي مات؟ أبوك؟»

أجابت هارييت بصعوبة: «خالتي».

«من؟»

«خالتي».

«أوه! خالتك!»، صمت... «هل تعيشين معها؟»

انتظر السائق بضع لحظات، فلم يسمع إجابة، فرفع كتفيه وعاد إلى جلسته، ووضع مرفقه على النافذة المفتوحة وتابع تدخين سيجارته صامتًا. ومن حين إلى آخر، كان ينظر إلى كتابه الذي ظل ممسكًا به بيد واحدة مستقرة على فخذه اليمنى.

بعد مدة من الصمت، سأل هارييت: «متى وُلدت؟ في أي

شهر؟»

همّ بإعادة السؤال، لكن هاربيت أجابت: «كانون الأول».

«كانون الأول»، التفت ونظر إليها، في وجهه تعبير شك... «هل أنت من برج القوس؟»

«العقرب».

«العقرب»، كانت ضحكته مزعجة، بل مستفزة... «يعني هذا أنك عنزة صغيرة، ها ها ها».

في الجانب الآخر من الشارع، دُقت أجراس الكنيسة المعمدانية، أيقظ هذا الصوت الميكانيكي في ذهن هاربيت ذكرى قديمة: ليبي منحنية إلى جانب هاربيت مرتدية سترتها الحمراء الطويلة (عصر يوم خريفي، تحت سماء صافية، وفي مجرى الماء أوراق أشجار حمراء وصفراء)، ويداها على خصر هاربيت، قالت لها: «استمعي!»، صمتتا معًا واستغرقتا في صوت تلك النغمة الخفيفة التي ما زالت ترن في أذنها بعد عشر سنوات. كانت نغمة حزينة، باردة كالصقيع، كأنها نغمة على بيانو صغير للأطفال... نغمة تذكّرها بأغصان الأشجار العارية وسماء الشتاء، وبأشياء فُقدت إلى الأبد.

قال السائق: «هل يزعجك أن أشغل الراديو؟»

لم تجبه هاربيت لأنها كانت تبكي، فشغل الراديو.

سألها: «هل لديك صديق؟».

انطلق صوت بوق سيارة في الشارع، رفع السائق يده محيياً سيارة أخرى. تجمدت هاربيت في مكانها عندما التقت عيناها عيني داني راتليف وأدركت أنه تعرّف عليها. رأت دهشتها منعكسة في وجهه، وفي اللحظة التالية، كانت سيارته قد ابتعدت، وظلت

هاربيت تحدق إلى مؤخرة سيارته المرتفعة بشكل غير مألوف. أعاد السائق سؤاله: «هل لديك صديق؟». فوجئت هاربيت عندما انتهت أنه يميل نحوها من فوق مقعده وينتظر إجابتها. حاولت هاربيت أن تتابع بعينيها سيارة داني راتليف دون أن تثير الانتباه، فرأتها تتعطف يساراً بعد عدة منازل متجهة نحو محطة القطار وساحات الشحن القديمة. وعلى الجانب الآخر من الشارع، بدأ جرس الكنيسة يدق بعنف فجأة مع تلاشي آخر نغمة، معلناً الساعة: دونغ... دونغ... دونغ... دونغ... دونغ... دونغ.

قال السائق بصوت مازح: «لقد أخرجك سؤالي، أليس كذلك؟» فجأة، تبادر إلى ذهن هاربيت أنّ داني راتليف قد ينعطف ويعود إليها، رفعت رأسها ونظرت إلى درجات مؤسسة دفن الموتى، حيث تجمع عدد كبير من الناس... رجال مسنون يدخلون السجائر، وأديلايد والسيد سامنر واقفان جانباً، والسيد سامنر ينحني نحوها... هل يعقل أنه يشعل لها سيجارة؟ رغم أن آدي لم تدخن منذ سنوات، فها هي ذي، عاقدة ذراعيها، مائلة برأسها إلى الخلف كأنها غريبة عن المكان، تنفث الدخان من فمها. وكان السائق يقول بصوت عابر: «الأولاد لا يميلون إلى الفتيات اللاتي يدعين الحياء».

خرجت هاربيت من السيارة، تاركة بابها مفتوحاً، ثم أسرع صاعدة درجات المبنى.

رعشة يائسة باردة تدفقت عبر عنق داني وهو يمر أمام مؤسسة دفن الموتى. شعور شبيه بتأثير الميثامفيتامين، متوزع

في تسعمئة اتجاه في وقت واحد . بحث عن الفتاة ساعات طويلة، مشطاً البلدة شارباً تلو الآخر، دون توقف. والآن، في اللحظة التي قرر فيها أن يتناسى أمر فاريش ويكفّ عن البحث: ها هي ذي أمامه.

ها هي ذي أمامه مع كاتفيش، مع كاتفيش نفسه، هذا أغرب ما في الأمر؟ بطبيعة الحال، لا يمكن لأحد أبداً أن يتوقع تماماً أين يمكن أن يظهر لك كاتفيش، فبفضل عمه، أحد أغنى رجال البلدة، سواء من البيض أو السود، على رأس إمبراطورية أعمال شاسعة: من حفر القبور، وتقليم الأشجار، وطلاء البيوت، وطحن جذوع الأشجار، وإصلاح السقوف، واليانصيب غير القانوني، وصيانة السيارات والآلات الصغيرة. لا يمكن أبداً أن تتوقع أين يظهر لك كاتفيش: يجمع الإيجارات في حي الزنوج لعمه، وينظف النوافذ على سلم في قاعة المحكمة، ويقود سيارة أجرة، أو حتى سيارة لدفن الموتى.

ولكن، فسر لي هذا: هذا الاجتماع العجيب بين أحداث مختلفة، رؤيته الفتاة (دون الناس جميعاً) جالسة مع كاتفيش في المقعد الخلفي في سيارة دفن الموتى لا يمكن أن تكون مصادفة. يعلم كاتفيش أن ثمة شحنة كبيرة جداً من «البضاعة» في انتظار الخروج من البلدة، وفضوله يدفعه لمعرفة المكان الذي يخبئ فيه داني وفاريش تلك الشحنة. نعم، أسئلته الكثيرة وأسلوبه المليء بالتلميحات جعلاه يظهر مرتين دون موعد، يقود سيارته الفرانتورينو ويبحث في كل مكان. كان يتصرف بريبة؛ يتسلل خلف زجاج سيارته المظلل، يمضي وقتاً طويلاً في المرحاض

يفتح الصنابير ويتفقد الزوايا . وفي إحدى المرات، ضبطه داني يتفحص أسفل السيارة، قال له متذرعاً: ظننت أن العجلة مثقوبة، لكن كليهما كان يعلم أن العجلة سليمة..

لا، كاتفيش والفتاة أهون مشكلاته، قال هذا في نفسه مع إحساس قانط بعتمية ما سوف يحدث. استمر في النزول على الطريق الترابي المؤدي إلى خزان المياه، كأنه طيلة حياته يسير في اتجاه هابط: في فراشه، في أحلامه. يمر بهذه الحفرة ذاتها خمساً وعشرين مرة يومياً.. لا، هذا ليس أثر المخدرات فقط... بل إنه الإحساس بالمراقبة الذي لا يفارقه. اقتحام شقة يوجين، ومهاجمة غام، كلاهما يثقل كاهله، يجعله يقفز مذعوراً عند أي صوت. لكن خوفه الأكبر الآن هو فاريش، الذي بلغ توتره حده الأقصى.

عندما كانت غام ترقد في المستشفى، لم يكن فاريش مضطراً إلى التظاهر بالنوم؛ بل ظل يقظاً طوال الليل، كل ليلة، يدور في المكان بخطوات لا تهدأ، ويجبر داني على السهر معه، يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، يخطط بحمى وهوس، وقد أسدل الستائر ليحجب ضوء الشمس. كان يقسم المسحوق المخدر إلى خطوط منتظمة على سطح المرأة، يحدث نفسه بصوت أجش. وحين عادت غام إلى البيت (صابرة، راضية، تخطو ببطء، وعيناها نصف مغمضتين وهي تمر بالباب متجهة إلى المرحاض)، لم يحدث وجودها أي تغيير يُذكر في سلوك فاريش، بل إن قلقه اشتد حتى بات أثقل من أن يُحتمل. على الطاولة الصغيرة بجوار المرأة وشفرات الحلاقة ظهر مسدسٌ محشو كأنه يُعلن عن

الخطر المحدق. كان فاريش يؤمن بوجود عصابات خطيرة تتربص للإيقاع به، وكان يعتقد أن سلامة جدته أصبحت في خطر. كان داني كثيرًا ما يهز رأسه موافقًا على نظريات فاريش، ولكن من عساه يعلم؟ كان دولفوس ريزي (وهو الشخص الذي فقد الجميع الثقة به منذ حادثة الكوبرا) كثيرًا ما يتباهى بعلاقاته مع عالم الجريمة المنظمة. أما تلك الجريمة المنظمة التي تتولى مهمة توزيع المخدرات، فقد كان يُشاع أنها على صلة وثيقة بوكالة الاستخبارات المركزية السي آي إيه منذ حادثة اغتيال كندي.

قال فاريش وهو يضغط بإصبعه على أنفه وينتصب في جلسته: «أنا لست قلقًا على نفسي، بل على غام المسكينة. أي وغد هذا الذي نتعامل معه الآن؟ لا تهمني حياتي أبدًا. لقد طُوردت حافي القدمين في قلب الغابات، واختبأت في حقل أرز موحل أسبوعًا كاملاً، أتتفلس من خلال قصبة بامبو فقط. لا أحد يستطيع أن يلحق بي أي أذى، هل تسمعي؟» قال ذلك وهو يلوح بنصل سكينه القابلة للطي، مشيرًا بها إلى الصورة الثابتة التي تسبق بداية البث التلفزيوني: «لا أحد يستطيع أن يلحق بي أي أذى».

كان داني قد ثبت ساقيه، محاولاً السيطرة على ارتجاف ركبته، وفضل الصمت. كان القلق يتصاعد في داخله بسبب حديث فاريش المتزايد عن سجله الحربي، فهو يعلم جيدًا أن فاريش أمضى معظم سنوات حرب فيتنام محتجزًا في مستشفى للأمراض العقلية في وايتفيلد. عادةً ما كان فاريش يخصص قصصه عن فيتنام لصالة البلياردو، وكان داني يظن أن حديثه كلامًا فارغًا. غير أن فاريش في الآونة الأخيرة كشف له عن سرٍّ مزعوم: أن الحكومة

كانت توقظ السجناء والمختلين عقلياً ليلاً (أشخاصاً وصفهم بالمعتوهين والمفتصبين، أولئك الذين لا بأس بالتضحية بهم) لتزج بهم في عمليات عسكرية سرية لا يُتوقع أن يعودوا منها. تحدّث عن طائرات هليكوبتر سوداء تهبط ليلاً في ساحات السجون، وأبراج الحراسة الخالية من الحراس، والرياح العاتية التي تعصف بين النباتات اليابسة، وعن رجال يرتدون بذلات كاملة تغطي أجسادهم ورؤوسهم، حاملين بنادق كلاشنكوف. ألقى فاريش نظرة حذرة من فوق كتفه، ثم بصق في العلبة التي يحملها معه دائماً، وقال بصوت منخفض يحمل نبرة غموض: «أعرف ما المثير حقاً؟ لم يكونوا جميعاً يتحدثون الإنجليزية».

كان داني قلقاً بسبب استمرار وجود المخدرات في مكان إقامتهم، رغم محاولات فاريش المتكررة والمهووسة لإخفائها ونقلها من مكان إلى آخر عدة مرات يومياً. وبحسب رأي فاريش، كان عليه أن «يجلس عليها بعض الوقت»، قبل أن يتمكن من التصرف بها. لكن، كما يعلم داني، أصبح نقلها مشكلة معقدة منذ أن خرج دولفوس من المشهد. في وقت سابق، كان كاتفيش قد اقترح ربطهم بأحد معارفه، ابن عمه في جنوب لوزيانا. غير أن ذلك الاقتراح ذهب أدراج الرياح عندما ضبطه فاريش متلبساً باستراق النظر تحت السيارة. اندفع فاريش نحوه غاضباً، يحمل سكيناً في يده ويهدده بفصل رأسه عن جسده.

تصرف كاتفيش بحكمة بعد الحادثة؛ اختفى تماماً عن الأنظار، ولم يحاول حتى الاتصال هاتفياً. لكن شكوك فاريش لم تقتصر على كاتفيش وحده، ويا للأسف، امتدت لتشمل داني نفسه. بدا

فاريش كأنه يستمتع بتغذية هذه الشكوك؛ كان يلمح تلميحات خبيثة، أو يتظاهر بثقة مصطنعة كأنه يشارك داني أسرارًا زائفة لا وجود لها. وفي أوقات أخرى، كان يتكئ على كرسيه كأنه كشف أمرًا خطيرًا، ثم يبتسم ابتسامة عريضة ويهتف ساخرًا: «أنت، يا ابن العاهرة! أنت ابن عاهرة». وأحيانًا، كان فاريش يفقد السيطرة تمامًا، يقفز بغتة، ويبدأ بالصراخ متهمًا داني بخيانات وأكاذيب لا أساس لها من الصحة. لم يكن أمام داني سوى خيار واحد لمنع فاريش من فقدان عقله تمامًا، أو الانفجار بالضرب: أن يبقى هادئًا مهما قال فاريش أو فعل. تحمّل داني بصبر اتهامات فاريش كلها (المتفجرة وغير المتوقعة والتي تأتي في أوقات محيرة). كان يجيب ببطء، وبحذر شديد، وبتهذيب كامل، متجنبًا الأكاذيب أو التصرفات المفاجئة. في نهاية المطاف، كانت استراتيجيته تشبه المكافئ النفسي لشخص يخرج من سيارته رافعًا يديه فوق رأسه، مستسلمًا وهادئًا تمامًا.

وذات صباح، قبل شروق الشمس، تمامًا عندما بدأت الطيور تستعد لأولى نغماتها، قفز فاريش واقفًا على قدميه، وراح يهذي ويدمدم ويتمخط تكرارًا في منديل ملوث بالدم. التقط حقيبة ظهر عسكرية وطلب من داني أمرًا أن يأخذه إلى البلدة بالسيارة. وبعد أن صارا هناك، أمره بإنزاله وسط البلدة والعودة إلى البيت وانتظار مكالمته منه.

لكن داني، وقد بلغ به السأم منتهاه من الإهانات والاتهامات التي لا تنتهي، قرر ألا ينصاع هذه المرة. بدلاً من العودة، انعطف عند شوارع البلدة وأوقف سيارته في ساحة خالية قرب الكنيسة

المشيخة. هناك، ترحل من السيارة، وتبع فاريش سيراً على قدميه، محافظاً على مسافة كافية تجنباً لأي مواجهة مفاجئة.

كان فاريش يسير على الرصيف بخطوات واسعة وغازية، وعلى ظهره حقيبته. داني كان يعرف، دون أدنى شك، وجهة فاريش: خزان المياه القديم خلف سكة القطار، حيث خبأ المخدرات. لقد رآه يختفي بين النباتات الكثيفة التي تحيط بمحطة التحويل، ثم لمح طيفه على سلم الخزان، يتسلق بخفة غير متوقعة، وقد أمسك حقيبته بين أسنانه، ليبدو في ذلك الفجر الوردي كشبح عملاق يتماهى مع السماء الوردية.

استدار داني عائداً إلى سيارته. جلس خلف المقود، وقادها إلى البيت مباشرة، وجهه يوحى بالهدوء، لكن عقله كان يعج بالأفكار. المخدرات هناك، في خزان المياه. خمسة آلاف دولار من الميثامفيتامين تنتظر في علو الخزان. عشرة آلاف إذا بيعت. هذا مال فاريش، لا ماله هو. نصيبه من هذه الصفقة لن يتجاوز بضع مئات من الدولارات - المبلغ الذي سيمنحه إياه فاريش، كما يفعل دائماً.

لكن بضع مئات من الدولارات لن تكفي ليفادر البلدة، لن تكفي ليستأجر شقة في شريفبورت أو باتون روج، لن تكفي لبدأ حياة جديدة مع صديقة ويعمل سائق شاحنة على الطرق الطويلة. كان يحلم بشاحنة كبيرة، نوافذها مظلمة، ومقصورتها مكيفة، يطوي بها الطرق السريعة، بعيداً عن البلدة القروية الملعونة، بعيداً عن غام، وعن كورتيس الذي بدأت بثور المراهقة المضطربة تغزو وجهه، بعيداً عن صورته المدرسية الباهتة المعلقة فوق تليفزيون

غام في مقطورتها: يظهر هزيل المظهر، خائف العينين، وشعره الطويل الداكن يغطي وجهه.

كان داني يحلم بالفرار، بأن يترك خلفه كل هذا العبث. أن تتطلق حياته كما تتطلق الشاحنات المزمجرة على الطرق السريعة الواصلة بين الولايات، غريبًا، يبتعد نحو عالم لا يعرف فيه صدى موسيقى الريف التي تذكره دومًا بكل ما يريد أن ينساه.

أوقف داني السيارة وأشعل سيجارة وانتظر. كان خزان المياه نفسه الذي يبلغ ارتفاعه عن الأرض خمسة وأربعين قدمًا برمياً خشبياً يعلوه غطاء مخروطي الشكل، يركز على قوائم معدنية طويلة. كان هناك سلم خارجي متمايل يقود إلى قمة الخزان، حيث يوجد باب يفتح على الماء المخزون فيه.

في مخيلة داني، استحوذت صورة الحقيبة الظهرية على كل شيء، تطارد أفكاره كهدية ثمينة موضوعة على رف عالٍ بعيدة المنال. كلما جلس خلف مقود سيارته، طافت الصورة في ذهنه، تراوده بسحرها الفتان. كان يقود وحده إلى خزان المياه، يجلس هناك، يرفع رأسه ناظرًا إليه ويحلم: الثروة هي خلاصه الوحيد. هذا لو كانت له، ولكنها ليست له.

لقد كانت فكرة صعود السلم إلى الخزان تشلّه خوفًا؛ ماذا لو كان فارش قد نصب له فخًا؟ ربما نشر إحدى درجات السلم لتهوار تحت أقدام المتسلل، أو زود باب الخزان بفخ بندقية تتطلق عند فتحه، أو ربما شيئًا أشد خبثًا. فارش لم يكن شخصًا عاديًا، كان بارعًا في صنع الفخاخ. لقد علّم داني كيفية صنع قنبلة أنبوبية، وأحاط مختبره بفخاخ صنعها من ألواح خشبية ومسامير صدئة، وربطها

بأسلاك مخفية بين الأعشاب لإيقاع المتطفلين. حتى إنه مؤخراً (من خلال إعلان في مجلة «سولجر أوف فورتشن») اشترى أدوات لتركيب سكاكين باليستية تعمل بالنوابض. كان ينهض بعد إنجازه عمله مزهواً، قائلاً بابتسامة لئيمة: «يكفي أن تتعثر بهذا السلك الجميل و... ستُذبح!»، فيما يقرأ داني مذعوراً على ظهر صندوق الأدوات عبارة تقول: «يصيب الهدف في نطاق خمسة وثلاثين قدماً». من يدري كيف فسخ ذلك الخزان؟ إن كان فاريش قد فخخه، فقد فعل ذلك بنية الإيذاء، لا القتل. لكن فكرة فقدان إصبع أو عين كانت كافية لتردد داني. ومع ذلك، كان هناك صوت داخلي، همس لا يهدأ، يصرّ على أن فاريش قد يكون ترك الخزان دون أي فسخ أصلاً. قبل عشرين دقيقة فقط، وبينما كان يقود السيارة إلى مكتب البريد ليسدد فاتورة الكهرباء لجده، اجتاحته لحظة تهاول جامحة، رأى فيها لمحة من حياته الجديدة في جنوب لويزيانا، حياة خالية من كل هذا العبث، فانعطف إلى شارع مين، واتجه نحو ساحة تحويل القطارات، عازماً على أن يصعد الخزان، ويأخذ الحقيبة، ويخبئها في صندوق السيارة داخل الإطار الاحتياطي، ثم يغادر البلدة بلا رجعة، دون أن يلتفت خلفه.

والآن، ها هو ذا، جالس في سيارته، متردداً في الخروج. بين الأعشاب أسفل الخزان، تلمع أضواء فضية واهنة، تزيد من توتره. بيدين مرتجفتين، أشعل سيجارة أخرى، ورفع رأسه نحو الخزان، غارقاً في أفكاره. إذا فقد إصبعاً أو قدماً، فسيكون هذا أفضل من المصير الذي ينتظره إن اكتشف فاريش ما ينويه.

ولكن الأدهى من كل ذلك، هو دلالة أن فاريش قد خبأ

المخدرات في خزان مياه تحديداً، وليس في أي مكان آخر. كانت رسالة واضحة، صفقة متعمدة على وجه داني!

يعرف فاريش تمامًا مدى خوف داني من الماء، خوف يعود إلى حادثة محفورة في ذاكرته منذ الطفولة، حين حاول والدهما تعليمه السباحة بأسلوب قاسٍ وغير مبالٍ. كان داني في الرابعة أو الخامسة من عمره عندما قذف به والده إلى البحيرة من فوق رصيف المرسى، ظناً منه أن الغريزة ستقوده إلى السباحة كما فعل فاريش ومايك وإخوته الآخرون. لكن داني لم يسبح، بل غرق. يتذكر داني بوضوح مروع لحظة الذعر وهو يغوص في الأعماق، شعور الاختناق وهو يحاول التنفس دون جدوى، والطعم المرير للماء البني العكر يملأ فمه وأنفه. يتذكر أيضاً غضب والده وهو يصرخ فيه بعدما اضطر إلى القفز بشيابه لإنقاذه. تلك التجربة تركت في نفسه ندبة لا تتدمل، أبعدته عن الماء وعن المرسى المهترئ، وسلبت منه أي رغبة في تعلم السباحة مجدداً. والأغرب من كل هذا، أن فاريش، رغم معرفته بمخاوف داني، تجاهل المخاطر العملية لتخزين المخدرات في مكان شديد الرطوبة. كان داني قد شهد بنفسه تلك النتائج الكارثية ذات يوم مطير من أيام مارس، حينما كانا في المختبر يحاولان تحويل المادة إلى بلورات. لكن الرطوبة العالية أحبطت كل المحاولات؛ ظلت المادة تلتصق ببعضها ككتلة دبقة من العجين لا نفع منها، رغم محاولتهما المستميتة لجعلها تتصلب فوق المرأة تحت أصابعهما.

في تلك اللحظة، شعر داني باليأس، صفع وجهه بيده كمن

يحاول استعادة اتزانه، ثم ألقى بسيجارتة من نافذة السيارة. شغل المحرك وانطلق في الشوارع، لكنه كان قد نسي تمامًا مهمته الأصلية: دفع فاتورة جدته في مكتب البريد. انعطف بالسيارة ومرة أخرى أمام مؤسسة الدفن. هناك، رأى كاتفيش جالسًا في سيارته، لكن الفتاة لم تكن بجواره هذه المرة، فيما تجمع عدد كبير من الناس أمام الباب.

قال في نفسه: ربما أجد مرة أخرى.

كانت ألكساندريا، البلدة التي عرفها جيدًا، تبدو في عينيه كمدينة مقفرة مستوية، شوارعها شبكة متكررة من اللافتات الرتيبة، كأنها نموذج مصغر للعبة قطارات عملاقة. ومع الوقت، كان الجو يصبح أشبه بحلم سريالي؛ شوارع بلا هواء، سماء بلا لون، مبانٍ مهجورة كأنها مجرد هياكل خفيفة من الخشب، خالية من أي حياة أو أصالة. ظل داني يقول لنفسه: إن استمررت في القيادة بما يكفي، فستجد نفسك تعود إلى نقطة البداية، كأنك لم تغادر قط.

صعدت غريس فاونتين درجات السلم بخطوات متأنية، يكسوها حذر خفيف، حتى بيت إيدي. من خلف الباب، استطاعت أن تتبع أصوات الأحاديث وضحكات الناس، ورنين الكؤوس في أجواء احتفالية صاخبة. عندما دخلت، سارت في الممر الضيق الذي شكّله رفوف الكتب الضخمة ذات الواجهات الزجاجية، كأنها معبر صغير يقودها إلى الغرفة. داخل الغرفة، كان الجو يعج بالحركة والصخب: أزيز مروحة تدور فوق حشد مزدحم؛ رجال خلعوا ستراتهم لتخفيف حرارة الجو، وسيدات توردت وجوههن

من دفع المكان وربما من شراب البنتش المتدفق في الكؤوس. فوق مفرش الطاولة المخرم، استقر وعاء كبير من شراب البنتش، تحيط به أطباق من فطائر الجنوب الشهية وشرائح اللحم، إلى جانب مربيات فضية تلمع تحت الضوء، مملوءة بالفستق واللوز المغلف بالسكر. وبجانبتها، كان ثمة كدس من المناديل الورقية الحمراء، لفتت انتباه السيدة فاونتتين بوضوح. لاحظت أنها مناديل رخيصة، مطبوعة بالأحرف الأولى من اسم إيدي بلون ذهبي.

توقفت السيدة فاونتتين عند الباب قابضة على حقيبة يدها منتظرة من يستقبلها. كان بيت إيدي أصغر حجمًا من بيتها، لكن مع ذلك، شعرت بشيء من الاضطراب. فهي، المنحدرة من عائلة ريفية (كثيرًا ما تصف أسرتها بفخر بـ«المسيحيين الطيبين» مع تأكيد أن أهل المرتفعات أيضًا طيبون)، وجدت نفسها في حالة من الدهشة أمام تفاصيل المنزل. لفت انتباهها وعاء البنتش والستائر الحريرية ذات اللون الذهبي وطاولة الطعام الكبيرة التي تتسع لاثني عشر شخصًا بسهولة، فوق رف الموقد، تدلت صورة ضخمة للقاضي كليف. كان محيط الغرفة يزخر بالكراسي المرتبة بعناية فائقة (كما في مدرسة الرقص)، أربعة وعشرون كرسياً بطابع رسمس، مقاعدها مطرزة بدقة. ومع أن الغرفة بدت صغيرة قليلًا، منخفضة السقف وضيقة لاستيعاب كل ذلك الأثاث الداكن والثقيل، شعرت السيدة فاونتتين بالذعر لرؤيتها.

انتبهت إيديث، التي كانت ترتدي مريلة الكوكيتيل فوق فستانها الأسود الأنيق، إلى حضور السيدة فاونتتين. وضعت الصينية من يدها، وأتت إليها.

«عزيزتي غريس، أشكر حضورك!». لفتت انتباه السيدة فاونتين النظارة السوداء الثقيلة التي كانت تغطي وجه إيديث، نظارة رجالية تذكرها بتلك التي كان يستخدمها زوجها المتوفى بورتر. بدت لها غير لائقة تمامًا لامرأة، وغير ملائمة للموقف. أضف إلى ذلك أن إيديث كانت تحمل كأسًا كبيرة مأخوذة من أدوات المطبخ، لفت أسفلها بمنديل رطب من مناديل عيد الميلاد. ومن محتواها، بدا للسيدة فاونتين أنها تحتوي على ويسكي مع مكعبات ثلج.

لم تستطع السيدة فاونتين ضبط نفسها، فقالت: «يبدو أنكم تحتفلون وتقيمون هذه الحفلة الكبيرة بعد الجنازة».

أجابتها إيدي بنبرة حادة: «لا يستطيع المرء أن يستلقي ويموت، اذهبي وضعي لنفسك بعض المقبلات قبل أن تبرد».

تلبدت السيدة فاونتين للحظة، وارتبكت من إجابة إيديث. ظلت واقفة في مكانها، ساكنة تمامًا، فيما راحت عيناها تتجولان في أنحاء الغرفة بلا هدف. بعد برهة، أجابت: «شكرًا». ثم توجهت بخطوات ثقيلة متيبسة نحو طاولة البوفيه.

في تلك اللحظة، ألصقت إيديث كأسها الباردة بصدغها في محاولة يائسة لاستعادة هدوئها. قبل هذا اليوم، كانت قد ثملت خمس أو ست مرات فقط طوال حياتها، وكلها قبل أن تبلغ الثلاثين وفي مناسبات أكثر بهجة بكثير.

«إيديث، يا عزيزتي! ألا أستطيع مساعدتك في شيء؟»، صوت امرأة من الكنيسة المعمدانية، امرأة قصيرة ممتلئة الوجه، يطفئ

على ملامحها قدر من الطيبة الساذجة، عجزت إيديث عن تذكر اسمها .

قالت للسيدة وهي تربّت على ظهرها وتتابع سيرها بين الضيوف: «لا، أشكر». كانت أنفاسها تتقطع من شدة الألم في أضلاعها، لكنها رغم ذلك شعرت بشيء من الامتنان (وإن بدا غريباً) لهذا الألم الذي يعينها على التركيز... التركيز على الضيوف وسجل المعزّين، والكؤوس النظيفة والمقبلات الساخنة، وإعادة ملء طبق البسكويت المالح وإضافة شراب الزنجبيل الطازج إلى وعاء البنتش من وقت إلى آخر. هذه التفاصيل الصغيرة كانت مهرياً مؤقتاً من مواجهة الحقيقة المؤلمة: موت ليبي الذي لم تستطع حتى الآن أن تستوعبه تماماً. خلال الأيام القليلة الماضية، غرقت في دوامة محموعة من الأطباء والزهور ومتعهدي الدفن والأوراق التي ينبغي توقيّعها، وبشر يتوافدون من خارج البلدة. لم تذرف دموعاً واحدة، كرّست جهودها كله لهذا اللقاء بعد الجنازة (كان عليها أن تلمّع الفضيّات، وأن تنزل كؤوس البنتش الرنانة من عليّة البيت وتغسلها بعناية)، جزء من هذا الجهد كان من أجل الضيوف القادمين من بعيد، أولئك الذين لم يلتقوا منذ سنوات. وعلى الرغم من أن المناسبة كانت حزينة، فإنها لم تخلُ من فرصة لتبادل الأخبار؛ ما أتاح لإيدي مبرراً للحركة المتواصلة، الابتسام، وملء أطباق اللوز المحلى. في الليلة الماضية، ربطت شعرها بخرقه رطبة، ومضت في البيت تحمل ممسحة وسائلاً للتلميع ومكنسة للسجاد: نظّفت المرايا، وربّبت الوسائد، وأزاحت الأثاث، ونفضت الغبار عن البسط والسجاد،

ومسحت الأرض. استمرت في عملها حتى بعد منتصف الليل. رتبت الزهور، وأعادت ترتيب الأطباق في خزانة الخزفيات، ثم اتجهت إلى مطبخها النظيف وملأت المجلى بالماء والصابون وبدأت بغسل كؤوس البنتش الرقيقة المغبرة بيدين مرتعتشتين من شدة التعب. مئة كأس من البلور غسلته قبل أن تخلد أخيراً إلى سريرها قرابة الساعة الثالثة صباحاً، لتغرق في نوم عميق.

قطعة ليبي الصغيرة ذات الأنف الوردي -اسمها بلوسوم، آخر إضافة إلى الأسرة- كانت قد انسحبت مذعورة إلى غرفة نوم إيدي، حيث اختبأت تحت السرير، وفوق خزانة الكتب والخزفيات جثمت قطط إيدي الخمس كلها: دوت، وسالامبو، ورمسيس، وهانيبال، وسَلِم. جائمة في الأعلى متباعدة تلوح بذيلها وتظهر إلى ما يجري بأعين صفراء كأعين الساحرات. في الأحوال العادية، لم يكن وجود الضيوف يروق لإيدي بأكثر مما يروق لقططها، لكن اليوم كان مختلفاً؛ فقد كانت ممتنة لهذا الازدحام، فهو يوفر لها مهرياً ذهنياً من التفكير في أفراد عائلتها الذين لم يكن سلوكهم إلا مصدر خيبة وإزعاج. سئمت منهم جميعاً، خاصة آدي، التي اختارت أن تقضي وقتها مع السيد سامنر، ذلك العجوز البغيض الذي لم يكن له حديث إلا المديح الزائف والغزل السخيف. سامنر، الذي لطالما كرهه أبوهم القاضي، كان يقف الآن مع آدي، بينما هي تمس كمه وتحقق إليه بعينيها، وترشف من كأس بنتش لم تشارك في إعداده، كأس لم تسهم حتى في غسلها. ولم يكن هذا ما أثار استياء إيدي فحسب، بل أيضاً

تھاوں آدی حین کانت لیبی فی المستشفی، فقد تجنبت زیارتھا تماماً خشية أن تضیع علیھا قیلولتھا. سئمت تشارلوت ایضاً، تلك التي تذرعت باعتلال وهمي لتتجنب المستشفی، مفضلة البقاء مستلقية فی فراشھا. وحتى تات، رغم أنها کانت تكثر من زیارتھا للمستشفی، لم تفعل شیئاً سوى اختلاق سیناریوهات واهية، سیناریوهات تلوم فیھا إیدی، كأنھا کان یمكنھا أن تتجنب الحادثة، أو أن تستجیب علی نحو أفضل لذلك الاتصال المشوش من ألیسون. سئمت الطفلتین وبكاءهما المبالغ فیھ، سواء فی أثناء الجنائز أو عند المقبرة، حیث کانتا تبکیان بنفس الاندفاع الذی أظهرتاه عندما مات ذلك القط قبل سنوات. فکرت إیدی بمرارة: لا فرق، لا فرق فی هذا العالم! وحتى دموع التماسیح التي ذرفتھا دلی، ابنة عمھا التي لم تر لیبی منذ سنین طويلة، أثارَت سخطھا. صحیح أن تات قد علقت قائلة: «هذا مثل أن نفقد أمنا من جدید»، لكن إیدی کانت تدرك الحقیقة. لیبی لم تکن مجرد أم أو أخت لھا، بل کانت کل شیء: الصدیقة والأخت والمرشد، الشخص الوحید فی العالم، حیاً کان أو میتاً، الذی تقیم لرأیه وزناً.

علی کرسیین من تلك الكراسی المحفورة ظهورھا علی هیئة قیثارة -کأنھا أصدقاء قدامی یتآزرون فی المصائب، مصطفین عند جدران هذه الغرفة الصغیرة- وُضع تابوت أمهم ذات یوم فی ردهة بیت «تربیولیشن» المعتمدة بالطابق السفلی، قبل أكثر من ستین عاماً. یومھا، حضر قسّ جوّال (من «کنیسة الرب»، ولیس

من الكنيسة المعمدانية) ليقرأ عليهم مقاطع من الإنجيل. تلا مزموراً يتحدث عن الذهب والعقيق، لكنه نطقها بطريقة مضحكة «عاقيق». ومنذ ذلك الحين، صار هذا اللفظ طرفة تتداولها العائلة: «عاقيق!» ... ليبي المسكينة، التي كانت حينها مراهقة نحيلة، شاحبة الوجه، ترتدي فستاناً أسود قصيراً طويل الكمين، صغّرت أمها بعناية عند حاشيته وصدره ليتناسب مع مقاسها. كان وجهها الشاحب، الشبيه بأطباق الخزف، يفتقر إلى اللون، كما كانت حال الفتيات الشقراوات في تلك الأيام قبل انتشار مستحضرات التجميل. بدا وجهها مرهقاً منهكاً من شدة الأسى وقلة النوم، حتى تحول بياضه إلى لون شاحب مريض، أشبه بالطباشير الجاف. أيدي، التي كانت شاهدة على ذلك اليوم، لا تزال تتذكر بوضوح كيف شعرت بحرارة يد ليبي المتعركة بين يديها، وكيف ظلت ليبي تحرق طويلاً إلى قدمي القسّ، متجنبة النظر في عينيه بدافع الحياء. ورغم مرور أكثر من نصف قرن، لم تنسَ أيدي تفاصيل تلك اللحظة: تشققات جلد حذاء القس ذي الرباط، ووميض أشعة الشمس التي تسالت عبر ثيتي بنطاله الأسود، كأنها تلجلجت بين أروقة الذاكرة.

كان موت والدها، القاضي، إحدى تلك المناسبات التي يصفها الناس بـ«النعمة». سادت الجنازة أجواء مرح إلى حدٍّ غريب، فقد امتلأت ردهة الطابق السفلي في بيت «تريبوليشن» بحضور كثير من «المواطنين» ذوي الوجوه المحمرة -وهو اللقب الذي كان القاضي وأصدقائه يستخدمونه بسخرية ودودة للإشارة إلى رفاقهم في رحلات صيد السمك وفي نقابة المحامين والقضاة.

وقف هؤلاء الرجال، متكئين بظهورهم على الموقد، يحتسون الويسكي ويتبادلون القصص عن «المتمر»، اللقب الذي أطلقوه على القاضي في شبابه وطفولته.

وبعد ستة أشهر تقريباً، مات روبين الصغير، ذلك الفقد الذي لا تزال إيدي غير قادرة على احتمال ذكرى تابوته الصغير الذي لم يتجاوز طوله خمسة أقدام. كيف استطاعت تجاوز ذلك اليوم العصيب؟ بفضل حقنة كاملة من المهدئات. لكن الألم لم يكن قابلاً للتخدير؛ كان موجعاً وحاداً كالغثيان أو كأعراض تسمم غذائي. تقيأت ما احتوته معدتها من شاي وكاسترد، ثم رفعت رأسها من ذلك الضباب الكثيف ونظرت، أدهشتها رؤية شخص قصير القامة بدا لها شبيهاً بروبين... يرتدي حذاء رياضي وينطلق جينز، سار في الممر متجهاً نحوها. لوهلة، تسارعت أنفاسها وظنت أنه روبين، لكنها أدركت بعد لحظتين من الذهول أن الصبي لم يكن سوى هال، صديق هاربيت. كيف تسال هذا الفتى إلى الداخل؟ من سمح له بالدخول؟ تقدمت إيدي بخفة في الممر، وقفت خلفه ومدت يدها لتضعها على كتفه.. قفز الفتى مذعوراً، وصرخ صرخة حادة، ثم تراجع مبتعداً عنها، منكشاً على نفسه كفأر أمام بومة.

«هل أستطيع مساعدتك؟»

«هاربيت... لقد كنت...».

قالت إيدي: «أنا لست هاربيت، هاربيت حفيدتي» وشبكت ذراعيها على صدرها ورمقته بتلك النظرة المستمتعة برؤية ضيقه، تلك النظرة التي يكرها هيلي بسببها.

من جديد، حاول هيلي أن يتكلم: «أنا ... أنا ...».

«هيا! قل ما عندك!»

«هل هي هنا؟»

«أجل، إنها هنا. والآن، اذهب إلى بيتك». أمسكته من كتفيه وأدارته بيديها، أدارته صوب الباب.

خَلَص الصبي نفسه من بين يديها: «هل ستعود إلى المخيم؟»

أجابته بنبرة حادة: «هذا ليس وقتًا للعب». والدته هذا الصبي (وقحة لعوب منذ طفولتها) لم تكلف نفسها عناء حضور جنازة ليبي ولم ترسل زهورًا، بل حتى لم تتصل هاتفياً ... «اذهب وقل لأمك ألا تتركك تزعج الناس عندما تكون لديهم حالة وفاة في البيت، اذهب»، صاحت به وهو لا يزال واقفًا أمامها فاغراً فمه. وقفت عند الباب تراقبه وهو ينزل الدرجات ببطء، وحين انعطف عند الزاوية واختفى عن نظرها، عادت إلى المطبخ. فتحت الخزانة أسفل المجلى، أخرجت زجاجة الويسكي، وصبّت لنفسها كأسًا جديدة، ثم اتجهت إلى غرفة المعيشة لتتفقد ضيوفها. كان عدد الحاضرين يتناقص تدريجيًا. كانت ابنتها تشارلوت تقف بجوار وعاء البنتش، بدا مظهرها مزريًا كأنها مبتلة، وجهها وردي كأنها بذلت جهدًا مرهقًا، وعيناها توحيان بدوار أصاب رأسها. رغم ذلك، كانت تشارلوت مبتسمة للسيدة تشافين -صاحبة متجر الزهور- التي كان وجهها يشبه وجه كلب صغير. تحدّثت السيدة تشافين إلى تشارلوت بمودة ظاهرة، وتقول لها بين رشفتين من البنتش: «هذه نصيحتي...» كان صوتها مرتفعًا لأنها -مثل كثيرين ممن فقدوا سمعهم- تميل إلى رفع

صوتها بدلاً من أن تطلب من الآخرين رفع أصواتهم... «نصيحتي لك أن تملئي العش. خسارة طفل أمر فظيع، لكنني في عملي أرى الموت يتكرر كل يوم، وأفضل ما يمكن للمرأة فعله هو أن تشغل نفسها وتُتجنب المزيد».

لاحظت إيدي ثقباً كبيراً في الجزء الخلفي من جورب ابنتها، لكنها لم تعره اهتماماً. لم تكن مهمة الإشراف على وعاء البنتش تستدعي كثيراً من الجهد أو المهارة، وكان بإمكان هاربيت أو أليسون توليها بسهولة، وكان من الممكن أن تكلف إيدي بها أي واحدة منهما لولا أنها شعرت أن من غير اللائق أن تبقى تشارلوت واقفة في هذا الاستقبال وتحقق في الفراغ بتلك النظرة المأساوية. قالت لها هذا بصوت منخفض مضطرب وهي تسحبها نحو وعاء البنتش وتضع المغرفة في يدها: «ولكني لا أعلم كيف أفعل ذلك».

أجابتها: «املئي الكؤوس وقدميها، وإذا رغبوا في المزيد، أعطهم».

نظرت تشارلوت إلى أمها بارتباك كأن المغرفة قطعة معقدة من المعدات، ووعاء البنتش آلة معقدة لا تفهم كيفية التعامل معها. وعلى الطرف الآخر من الطاولة، كانت بعض السيدات من جوقة الكنيسة يقفن بجوار الكؤوس والأطباق، على وجوههن ابتسامات مترددة.

انتزعت إيدي المغرفة من يد تشارلوت، غمستها في السائل، وملأت كأساً ووضعتها برفق على مفرش الطاولة، ثم أعادت المغرفة إلى يد ابنتها. عند أول الطاولة، وقفت السيدة تيغارتن،

وهي سيدة قصيرة القامة، ترتدي ملابس خضراء بالكامل، جعلتها تبدو كضفدع صغير لطيف، بفمها العريض وعينيها الكبيرتين النديتين. التفتت بحركة مسرحية، وضعت يدها المنمشة على صدرها، وصاحت: «يا إلهي! هل هذه الكأس لي؟»

ردّت أيدي بصوت عالٍ ومرح: «بالتأكيد إنها لك!»، وبدأت السيدات يقترين منهما، وبدأت الابتسامات تملأ وجوههن. شدّت تشارلوت كمّ والدتها وسألته بتوتر واضح: «ولكن، ماذا أقول لهن؟».

قالت السيدة تيفارتن بصوت مرتفع: «أليس هذا شراباً منعشاً؟ أظن أنني أشعر بطعم الزنجبيل؟»

همست أيدي لتشارلوت: «لا أظن أنك بحاجة إلى قول أي شيء»، ثم التفتت نحو السيدات المجتمعات وتحدثت بنبرتها المعتادة: «صحيح، إنه شراب البنتش الخالي من الكحول، إنه بسيط جداً، مجرد شيء نتناوله دائماً في عيد الميلاد. ميري غريس! كاثرين! هل ترغبان في كأس؟»

أجابت سيدات الجوقة بصوت واحد: «أوه، يا إيديث! كم هو جميل هذا! كيف تجدين الوقت لكل هذا...».

علّقت ابنة العم لوسيندا، التي اقتربت منهن وقد وضعت يديها في جيبي تنورتها: «إيديث مضيضة بارعة، تستطيع إعداد كل شيء في وقت قياسي».

وفي الخلفية، سُمع صوت أديليد تقول: «أوه، هذا سهل على إيديث لأنها تملك فريزرا!»

تجاهلت إيدي تلك الوخزة، واكتفت بمحادثة قصيرة مع السيدات قبل أن تتسحب مبتعدة، تاركة تشارلوت وحدها عند وعاء البنتش. لم يكن على تشارلوت سوى أن تفعل ما طُلب منها، فهذا أهون عليها...! أهون عليها بكثير ما دامت لن تُضطر إلى اتخاذ أي قرار مستقل أو مواجهة أي مسؤولية تتطلب التفكير. لكن الحقيقة أن خسارة روبين كانت ضربة مزدوجة؛ إذ لم تفقد إيدي روبين فحسب، بل فقدت تشارلوت أيضًا التي كانت تفيض حياة وتألُّقًا. لقد تغيرت ابنتها إلى درجة مؤلمة، كأن روحها قد انكسرت، ودُمِّرت تمامًا. صحيح أن المرء لا يمكنه تجاوز مثل هذه الصدمة بسهولة، ولكن أكثر من عقد من الزمن قد مضى، والناس -بوسائلكم الغامضة- يعرفون كيف يجمعون شتات أرواحهم ليواصلوا الحياة. تذكرت إيدي طفولة تشارلوت، حينما كانت تخبر الجميع بحماس أن حلمها هو أن تصبح مسؤولة عن المشتريات في متجر كبير للأزياء.

وضعت السيدة تشافين كأسها في طبقه المستقر متوازنًا على راحة يدها اليسرى، ثم قالت لتشارلوت: «أزهار البوانسيتيا جميلة جدًا في جنازات عيد الميلاد. قد تبدو الكنيسة معتمة جدًا في ذلك الوقت من السنة».

وقفت إيدي تنظر إليهم وقد طوت ذراعيها على صدرها، تود أن تتكلم مع السيدة تشافين عند أول فرصة مناسبة. كانت لا تزال تفكر في ديكسون، الذي لم يتمكن من القدوم من ناشفيل لحضور الجنازة (بررت له تشارلوت قائلة: لا يستطيع الحضور بهذه السرعة)، لكن باقات الزهور التي أرسلها لفتت نظر إيدي

بشدة. كانت مجموعة رائعة من باقات البرتقال الزاهية وورود الثلج (تبيض بالذوق الرفيع وأناقة الترتيب، حتى بدا مظهرها أقرب إلى لمسة أنثوية رقيقة)، وبكل تأكيد، هذا المستوى من الإتقان في تنسيق الزهور كان يفوق بكثير قدرات السيدة تشافين المعتادة. تذكرت إيدي ما حدث في مؤسسة الدفن، حين دخلت الغرفة التي كانت فيها الأنسة هاتفيلد كيني تساعد السيدة تشافين في ترتيب الزهور. سمعت حينها الأنسة كيني تتحدث بنبرة جافة، كأنها ترد على أمر غير لائق: «من الممكن أن تكون تلك المرأة سكرتيرة ديكسون».

نشقت السيدة تشافين بأنفها ضيقًا وهي تواصل ترتيب أزهار الغلادبولوس، ثم أمالت رأسها قليلاً وقالت بثقة: «لقد أجبت الهاتف وتلقيت الطلبية بنفسني».

تراجعت خطوة إلى الخلف لتتفحص ترتيب الزهور بنظرة خبيرة، وأردفت: «وبالتأكيد، لم يكن في كلامها ما يوحي بأنها سكرتيرة».

لم يعد هيلي إلى البيت. انعطف عند الزاوية، ثم عاد فدار حول البيت إلى أن بلغ البوابة الجانبية. وجد هاربيت جالسة على أرجوحة في فناء بيت إيدي الخلفي، ومن غير مقدمات، اقترب منها وقال: «مرحبًا! متى عدت؟»

توقع أن يسرها حضوره فانزعج عندما لم ير سرورًا، قال لها: «هل وصلتك رسالتي؟»

قالت هارييت: «وصلت». أصابها غثيان بعد أن أكلت اللوز بالسكر، لا يزال طعمه المزعج باقيًا في فمها... «ما كان عليك أن ترسلها».

جلس هيلي على الأرجوحة إلى جانبها: «لقد خفت كثيرًا. وأنا...».

بإيماءة سريعة أشارت له إلى الشرفة البعيدة عنهما نحو عشرين قدمًا حيث كان أربعة أو خمسة من الكبار واقفين خلف النافذة يشربون البنوش ويتحدثون.

استنشق هيلي نفسًا عميقًا، قال هامسًا: «كان الوضع هنا مخيفًا، يقود سيارته في أرجاء البلدة كلها، يسير بها بطيئًا كأنه يبحث عنا، كنت في السيارة مع أمي فتوقف عند الجسر كأنه يترقبنا».

كانا جالسين جنبًا إلى جنب، ولكن كلاً منهما كان ناظرًا أمامه إلى النباتات التي على الشرفة، لا إلى الآخر، قالت هارييت: «أنت لم تذهب إلى الجسر كي تستعيد العربة، أليس كذلك؟»

فوجئ هيلي وقال: «لا! هل تظنينني مجنونًا؟ كان ذلك الرجل يذهب إلى الجسر كل يوم، وفي الآونة الأخيرة، صار يذهب إلى ساحات الحمولة عند سكة القطار».

«لماذا؟»

«وما أدراني؟ ضجرت منذ يومين فذهبت إلى خزان المياه كي أقذف بضع كرات تنس، وهناك، سمعت صوت سيارة، كنت محظوظًا لأنني اختبأت... كانت سيارته، لم أخف في حياتي كلها مثلما خفت حينها، أوقف السيارة وظل بعض الوقت جالسًا فيها،

ثم خرج منها وتجول في المكان، لعله كان يلاحقني، لست أدري». دعت هاربيت عينيها وقالت: «رأيتُه قبل وقت قصير ذاهبًا بسيارته في ذلك الاتجاه... اليوم».

«هل كان ذاهبًا باتجاه سكة القطار؟»

«ربما، لم أعرف أين كان ذاهبًا».

قال هيلي: «أنا مسرور لأنه لم يرني، كادت تصيبي نوبة قلبية عندما خرج من سيارته، بقيت نحو ساعة كاملة مختبئًا بين الشجيرات».

«علينا أن نذهب في مهمة خاصة كي نرى ما يفعله هناك».

ظننت أن تعبير «مهمة خاصة» سيكون أمرًا لا يستطيع هيلي مقاومته، فوجئت عندما أجابها سريعًا بنبرة حاسمة: «لن أذهب، لن أذهب مرة أخرى إلى ذلك المكان، أنت لا تفهمين.....».

كان صوته قد ارتفع ارتفاعًا حادًا، وأحد الكبار الواقفين على الشرفة التفت إليهما. لكزته هاربيت بين أضلاعه.

نظر إليها مستاء، قال بصوت منخفض: «أنت لا تفهمين، كان عليك أن تري ذلك، لو رأيته هناك لقتلني، كان ذلك واضحًا من خلال بحثه في المكان». راح هيلي يقلد تعابير وجه داني: وجه مشوه، وعينان تجسّان الأرض من غير توقف.

«عمّ كان يبحث؟»

«لا أدري، أنا أعني ما أقول لأنني لن أعبث معه بعد الآن أبدًا يا هاربيت، ومن الأفضل لك ألا تعبثي معه، إن علم -هو أو أي واحد من إخوته- أننا ألقينا تلك الأفعى، فسنموت حتمًا، ألم تقرئي ما كان في مقالة الصحيفة التي أرسلتها إليك».

«لم تسنح لي الفرصة لقراءتها».

قال هيلي باختصار: «نعم، كانت تلك جدته، كادت تموت».

انفتحت بوابة حديقة إيدي، وفجأة، قفزت هارييت من مكانها، صاحت: «أودين!»، ولكن المرأة السوداء القصيرة (ترتدي قبعة من قش وفستاناً قطنياً عليه حزام) نظرت إلى هارييت دون أن تدير رأسها ودون أن تجيبها بشيء. كانت شفاتها مطبقتين، ووجهها صارماً، أتت إلى الشرفة الخلفية بخطوات خفيفة وصعدت درجات السلم، اقتربت من الباب.

قالت: «هل السيدة إيديث هنا؟»، يدها فوق حاجبها تحاول النظر عبر النافذة.

بعد لحظة تردد، عادت هارييت وجلست على الأرجوحة، تبدو عليها الصدمة، وقد احمرّت وجنتاها خجلاً شديداً. ورغم أن أودين عجوز نكدة الطبع، ورغم أن العلاقة بينها وبين هارييت لم تكن قطّ وثيقة، لم يكن أحد أقرب منها إلى ليبي. كانتا تبدوان كزوجين قديمين... ليس فقط عند اختلافهما (وكثيراً ما تكون قطّة ليبي محور هذا الخلاف بسبب كره أودين لها)، بل أيضاً من خلال رعاية كل واحدة منهما للأخرى بعناية وودّ وصبر. انتقض قلب هارييت في صدرها ما إن رأتها.

لم تخطر أودين على بال هارييت منذ وقوع الحادثة. فقد كانت أودين ترافق ليبي منذ صباهما في منزل «تريببوليشن». فأين ستتجه الآن؟ وماذا ستصنع؟ أودين امرأة مسنة، واهنة، مثقلة بالعلل، وكثيراً ما كانت إيدي تتذمر قائلة إن وجودها لم يعد ذا فائدة تُذكر في المنزل.

حركة على الشرفة، نادى أحدهم من الداخل: «هنا»، ثم تتحى جانباً ليفسح المجال لتات التي أطلت عند مدخل الشرفة قائلة: «أودين! أنت تعرفيني، أليس كذلك؟ أنا شقيقة إيديث».

«لماذا لم يخبرني أحد بما حدث للآنسة ليبي؟»

«أوه، يا إلهي... أودين...». التفتت إلى الورا نحو الشرفة، وقد ارتسمت الحيرة والخجل على وجهها... «أنا آسفة جداً، لماذا لا تدخلين؟»

«ماي هيلين، التي تعمل لدى السيدة ماكليمر، جاءت لتخبرني، ولم يكلف أحد نفسه عناء المجيء لأخذي، وأنتم... دفنتموها».

«أوه، أودين! لم نتوقع أن يكون لديك هاتف...».

في صمت اللحظة التالية، صرح أحد طيور القرقف بأربع نغمات صافية ومفعمة بالحياة.

«كان بإمكانكم الحضور وأخذي»، تكسّر صوت أودين، وبدأت ملامح وجهها النحاسي جامدة... «أنا أقيم في بايهيل، تعرفين المكان، فقد زرته من قبل».

قالت تات وقد أربكتها الكلمات: «أودين... أوه، أنا...». أخذت نفساً عميقاً وتلفتت حولها... «من فضلك، ألا تدخلين وتجلسين معنا دقيقة؟»

أجابت أودين بحزم: «لا، شكرًا».

«أودين، أنا آسفة جداً. لم يخطر ببالنا أن...».

ذرفت أودين دموعاً وهي تقول: «لقد عملت لدى الآنسة ليبي طيلة خمسة وخمسين عاماً، ولم يُعلمني أحد حتى بدخولها المستشفى».

أغمضت تات عينيها للحظة وقالت: «أودين...»، أعقب ذلك صمت رهيب... «يا إلهي، هذا أمر مريع، كيف يمكنك مسامحتنا؟» «طوال هذا الأسبوع، ظننت أنكم في كارولاينا الجنوبية. كان عليّ العودة للعمل يوم الاثنين، وها هي ذي الآن راقدة تحت التراب».

«أرجوك...»، لمست تات ذراع أودين بلطف... «رجاء، انتظري قليلاً ريثما أحضر إيديث. هل يمكنك الانتظار هنا للحظة؟» هرعت إلى الداخل، واستأنف الحديث على الشرفة (لم يكن واضحاً تماماً). أدارت أودين وجهها الخالي من التعبير، وحدقت في الفراغ، ثم همس صوت رجل قائلاً: «أظنّ أنها بحاجة إلى بعض المال».

اندفع الدم إلى وجه هاريت، فيما ظلت أودين واقفة في مكانها، عيناها جامدتان ووجهها خالٍ من أي تعبير، دون أن تحرك ساكناً. وسط حشد من البيض طوال القامة الذين ارتدوا أبهى ملابس يوم الأحد، بدت أودين صغيرة جداً، شديدة الضآلة: عصفوراً وحيداً يتوسط سرباً من البلابل. كان هيلي قد نهض ووقف خلف الأرجوحة، يراقب المشهد بعينين يملؤهما الفضول. شعرت هاريت بالعجز، لم تكن تدري ما يمكنها فعله. تملكها إحساس بأنها يجب أن تذهب وتقف بجوار أودين (هكذا كانت ليبي تريد منها أن تفعل) لكن ملامح أودين لم تشِ بوداً أو ترحيب. في الواقع، كان في هيئتها شيء غريب أثار الخوف في قلب هاريت. وفجأة، دون أي إنذار، لاحظت حركة على الشرفة. رأت أليسون تندفع خارج الباب، تلقي بنفسها على أودين؛ ما اضطر

السيدة العجوز، وقد ارتسمت على وجهها نظرة ذعر بسبب ذلك الهجوم المفاجئ، إلى التشبث بدرايزين الشرفة لتجنب السقوط إلى الخلف.

كانت أليسون تتحب بصوت عالٍ، نحيبًا حادًا هزّ أعماق هاربيت وأفزعها. أما أودين، فكانت تحرق ببرود من فوق كتف أليسون، دون أن تبادلها العناق أو تبدي أي علامة ترحيب. أتت إيدي، وقفزت على الدرجات، وقالت: «أليسون، عودي إلى البيت»، أمسكتها من كتفيها وأدارتها... «الآن!»

أطلقت أليسون صرخة حادة، وانتزعت نفسها من قبضتها، ثم انطلقت تركض عبر الفناء. تجاوزت الأرجوحة، تجاوزت هيلي وهاربيت، ودخلت السقيفة في فناء بيت إيدي. صدر صوت اصطدام خفيف، أشبه بسقوط مجرفة كانت مستتدة إلى الجدار ارتطمت بالباب.

قال هيلي بصوت خافت وهو يرفع رأسه كي ينظر: «أختك مجنونة».

من الشرفة، ارتفع صوت إيدي واضحًا، قويًا، كأنه يخاطب الجميع. ورغم رسميته، بدا في نبرته شيء من العاطفة والإلحاح: «أودين، شكرًا لقدومك. ألا تدخلين ولو لدقيقة؟»

«لا، لا أريد إزعاج أحد».

«لا تكوني سخيفة! سررنا جدًا لرؤيتك».

ركل هيلي قدم هاربيت بخفة، مشيرًا برأسه نحو السقيفة وقال: «ما مشكلتها؟»

في تلك الأثناء، كانت إيدي لا تزال تحاول إقناع أودين، تقول معاتبة: «فليبارك الرب قلبك، هذا كافٍ، ادخلي الآن، ولو لدقيقة واحدة». لكن أودين بقيت واقفة، ثابتة في مكانها، لا تحرك ساكناً. لم تستطع هارييت التكلم، إذ أتاها من السقيفة القديمة صوت نشيج جاف وغريب، كأنه اختناق مخلوق مجهول. تقلص وجه هارييت... لم يكن تقززاً، ولا حتى الحرج، بل نتيجة شعور غريب ومفزع جعل هيلي يبتعد عنها فجأة، كأنها مصابة بمرض معدٍ. قال هيلي بفضاظة وهو ينظر من فوق رأسها إلى الغيوم وأثار الطائرة التي تخط السماء: «أظنني سأذهب الآن».

انتظر أن تقول له شيئاً، وعندما لم تقل، مضى مبتعداً. لم يسرع في خطاه كما اعتاد منحنيًا برأسه، بل سار بخطوات حذرة، ذراعاه تتأرجحان إلى جانبيه لخفة.

مع صوت انغلاق البوابة، بقيت هارييت تحديق إلى الأرض حانقة. تصاعدت أصوات على الشرفة، أصوات حادة ونبرة مرتفعة. أدركت هارييت، وأدركت بأسى، ما كانوا يتكلمون عنه: وصية ليبي.

تردد أودين بصوتها الصارم: «أين هي؟»

قالت إيدي وهي تمسك أودين من ذراعها كأنها تريد أن تقودها إلى داخل البيت: «لا تقلقي! كل شيء سوف يُنظر فيه قريباً. الوصية محفوظة في خزنتها، وسأذهب مع المحامي يوم الاثنين القادم...».

قالت أودين بنبرة عنيفة: «لا أثق بأي محام، لقد وعدتني الآنسة ليبي بنفسها، قالت لي: يا أودين، إذا حدث أي شيء،

فانظري في خزانتي، ستجدين مغلفاً مخصصاً لك. لا تسألي أحداً، فقط اذهبي وخذيهِ».

قالت إيدي بصوت حازم مائل إلى الهدوء: «أودين... نحن لم نمس شيئاً في بيتها. ويوم الاثنين...».

قاطعتها أودين: «يعلم الرب ما حدث، هو يعلم، وأنا أعلم. نعم يا سيدتي، أعلم جيداً ما قالته لي الأنسة ليبي».

قالت إيدي بصوت لطيف مازح كأنها تكلم طفلة ولكن فيه بحة موحية بأمر مخيف: «أنت تعرفين السيد بيلي ونتوورث، أليس كذلك؟ مكتبه ومكتب صهره في الساحة. لا تقولي لي إنك لا تثقين به!»

«لا أريد شيئاً سوى ما هو لي».

في تلك الأثناء، استغرق عقل هاربيت في تفاصيل صغيرة من حولها، لعلها تهرب من صخب النقاش. كانت أرجوحة الحديقة الصدئة تتأرجح بخفة، بينما نمت طحالب مخملية في شقوق الآجر. شدّت على أسنانها، وبذلت جهداً يائساً لتركيز انتباهها على قوقعة صغيرة عند قاعدة أصيص في الحديقة.

في حين كانت إيدي تقول: «يا أودين، أنا لا أعارضك في ما تقولين. سوف تحصلين على حقك بموجب القانون، فوراً عندما...».

«لا أعرف شيئاً عن القانون، أعرف فقط ما هو صحيح».

كان بياض القوقعة طباشيرياً لشدة قدمها، وكان تقلب الفصول قد نحت سطحها حتى بدت كأنها كتلة من الأسمنت المتفتت. قمتها مكسورة، وعند حافتها الداخلية لمعة لؤلؤية خافتة، تلك

اللمعة التي تشبه ذلك اللون الوردي الفضي الناعم الذي يزين ورود حديقة إيدي. قبل مجيء هاربيت إلى الحياة، كانت العائلة تقضي كل عطلة صيفية على ساحل الخليج، عامًا بعد عام. لكن بعد وفاة روبين، لم تطأ أقدامهم الشاطئ مجددًا. كانت هناك أوعية مملوءة بالأصداف الرمادية الصغيرة، تلك الأصداف ذات الفلقتين التي جمعتها العائلة في تلك الرحلات القديمة. باتت الآن متروكة على رفوف خزائن الخالات، يعلوها الغبار، حزينة كأنها أطياف لذكريات انطفأت. قالت ليبي ذات مرة لهاربيت، وهي تشير إلى إحدى تلك الأصداف: «إنها تفقد سحرها إذا طال بقاؤها بعيدًا عن الماء.» ثم فتحت صنبور الحمام، وسكبت تلك الأصداف في المغسلة، وأحضرت كرسيًا لتقف عليه هاربيت، التي لم تكن قد تجاوزت الثالثة من عمرها حينذاك. بدا العالم حينها ضخمًا في عيني هاربيت الصغيرة، حتى المغسلة! كم بدت كبيرة كما لو كانت حوضًا لا ينتهي! لكن دهشتها كانت أكبر وهي ترى ذلك اللون الرمادي الكثيب يتلاشى عن الأصداف تحت الماء البارد، فتظهر فجأة ألوانها الخفية: الأرجواني العميق، الأسود اللامع، والخطوط الدقيقة التي تشبه أضلاع المخلوقات البحرية، تتراقص فيها ألوان فضية وزرقاء وحمراء مرجانية وخضراء لؤلؤية... ووردية أيضًا! وكم كان الماء باردًا، وكم كان صافيًا! رأت يديها اللتين في الماء كأنهما مقطوعتان عند الرسغين، ورديتين، رقيقتين! التفتت ليبي إليها وقالت وهي تأخذ نفسًا عميقًا: «شمّي! هكذا تكون رائحة المحيط». قرّبت هاربيت وجهها من الماء واستنشقت تلك الرائحة النفاذة، رائحة الملح والبحر،

المحيط الذي لم تره قط، لكنه كان حيًا في خيالها. تذكرت جيم هوكينز في «جزيرة الكنز» وهو يروي عن أمواج متكسرة، وطيور غريبة، وأشرعة سفينة «هيسبانيولا» المنتفخة تحت سماء لا تغشاها غيمة، أشرعة بيضاء كصفحات كتاب مفتوح.

يقولون إن الموت شاطئ سعيد، في صور شاطئ البحر القديمة، تعود عائلتها شابة من جديد، ويكون روبين واقفًا بينهم: القوارب، والمناديل البيضاء، والطيور البحرية التي تحلق عاليًا في وهج الضياء، كل ذلك كان جزءًا من حلم، حلم يظل فيه الجميع سالمين. لكنه كان حلمًا عن حياة مضت، لا عن حياة تُتَظَر.

وما الحياة الآن؟ أشبه برائحة أوراق ماغنوليا صدئة، وأصص نباتات مرصعة بأصداف ذابلة، وطنين نحل متواصل في قيظ نهار لا نهاية له. كانت الحياة الآن تتممات متلاشية تصدر عن ضيوف بلا وجوه، وطينًا وأعشابًا لزجة تحت قطعة من الآجر المكسور الذي ركفته هاربيت بقدمها جانبًا. توقفت عند البقعة التي كانت تحت الآجر، أمعنت في النظر إليها كأنها الحقيقة الوحيدة في العالم. وقد كانت كذلك... على نحوٍ ما.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل السابع

الخزان

تحطم الزمن، ولم يعد لدى هاربيت طريقة لقياسه، فيما مضى كانت آيدا الكوكب الذي تحدد دورته أيامها وساعاتها، وكان روتين آيدا اليومي الثابت والمنتظم ينظم إيقاع حياة هاربيت (الفسيل أيام الاثنين، الخياطة أيام الثلاثاء، الساندويشات في الصيف، والحساء في الشتاء)، كانت الأسابيع تدور بوتيرة منتظمة، ومراحل اليوم المختلفة مضبوطة وواضحة، ففي صباحات الخميس كانت آيدا تنصب لوح الكيّ بالقرب من المغسلة، ويتصاعد البخار من المكواة الضخمة كأنها تتنفس بصعوبة. وفي عصر الخميس صيفًا وشتاءً كانت تهز السجاد وتضربه بالعصا، ثم تعلقه في الخارج ليتعرض للهواء، كان السجاد الأحمر التركي المعلق على درابزين الشرفة يعلن دائمًا: إنه يوم الخميس.

أيام الخميس الصيفية التي لا تنتهي، وأيام الخميس الباردة في أكتوبر، وأيام الخميس الشتوية القديمة عندما كانت هاربيت في الصف الأول تغفو تحت بطانيات دافئة متقلبة بسبب التهاب اللوزتين: كان صوت ضرب السجاد وهدير المكواة البخارية أصواتًا حاضرة وحيّة، لكنها أيضًا حلقات في سلسلة تمتد عبر حياة هاربيت حتى تختفي في غياهب الطفولة المبكرة.

ينتهي النهار عند الساعة الخامسة عندما تخلع آيدا مريلتها على الشرفة الخلفية؛ ويبدأ النهار الجديد مع صرير باب البيت وصوت خطوات آيدا في الممر، وسرعان ما يعلو هدير المكينة

الكهربائية قادمًا من الغرف البعيدة كأنه تحية صباحية وديعة. كان وقع خطوات آيدا في حذائها المطاطي يُسمع في أرجاء المنزل، يتخلله أحيانًا صوت ضحكاتها الجافة الفرحة، تلك الضحكات الساحرة التي تعكس روحها البسيطة، هكذا كانت الأيام تمضي يومًا بعد يوم: أبواب تفتح وأبواب تُغلق، وآيدا تملأ البيت بحركاتها ونشاطها، كانت التفاتة آيدا السريعة عندما تجري هاربت حافية قرب باب المطبخ المفتوح تحمل في طياتها مزيجًا من التوبيخ والحنان: حُبٌّ يظهر رغمًا عن نفسه.

ذكريات كثيرة تركتها آيدا! مأكولاتها الخفيفة: السكاكر الدبقة والمرببات التي تفردها بعناية على خبز الذرة البارد، برامجهما التليفزيونية، نكاتها العفوية وتوبيخها الساخر، وملاعق السكر الممتلئة تفوص كالثلج حتى قاع كأس الشاي المثلج، أغانيها القديمة الغريبة تتبعث حزينة من المطبخ (ألا تشتاقي إلى أمك أحيانًا، أحيانًا؟)

كانت العصافير تزقزق في الفناء الخلفي، والقمصان البيضاء ترفرف على جبل الغسيل، أصوات البيت كانت موسيقى يومية: نقرات ونغمات مكررة كيت كيت كيت كيت، وصوت رنين السكاكين والملاعق الفضية في حوض الصحن، تنوع وضجيج الحياة نفسها.

لكن هذا كله قد زال! دون آيدا تراخى الوقت وغرق في خواء فسيح ساطع، الساعات والأيام النور والظلمة اختلطت ببعضها فلم تعد قادرة على تمييزها، لم يعد هناك فرق بين الغداء والإفطار، أو بين عطلة نهاية الأسبوع وأيام العمل، أو بين الفجر والغسق؛ كأنها تعيش في أعماق كهف مضاء بأضواء صناعية.

مع رحيل آيدا اختفت معها أمور مريحة كثيرة من بينها النوم. عندما كانت هارييت في المخيم كانت تستلقي باكية كل ليلة على الأغطية الخشنة في الكوخ الرطب عاجزة عن النوم، فلم يكن أحد يعرف كيف يرتب السرير بالطريقة التي تحبها سوى آيدا. حتى عندما كانت تقيم في الفنادق أو في منزل إيدي كانت تبقى مستيقظة حتى وقت متأخر من الليل مفتوحة العينين بأسة تحن إلى المنزل وتشعر بعدم الراحة من ملمس الأغطية الغريب والروائح غير المألوفة (عطور ونباتات ومواد تنظيف غير التي كانت تستخدمها آيدا). لكنها أكثر من أي شيء، كانت تفتقد لمسة آيدا، تلك اللمسة التي كانت تبعث الطمأنينة فيها دائماً عندما تستيقظ وحيدة أو خائفة، والتي بدت أجمل وأعلى بعد أن غادرت صاحبته.

ولكن هارييت عادت إلى المنزل والذكريات: بيت مسحور صامت تحفّ به الأشواك، كانت الأشياء مرتبة في جهة هارييت من الغرفة (جهة أليسون في فوضى) تماماً مثلما تركتها آيدا: سرير مرتب، وملاءات بيضاء، وغبار متراكم مثل صقيع خفيف. كان كل شيء كما هو، تحت الغطاء كانت الملاءات لا تزال نضرة، تلك الملاءات التي غسلتها ورتبتها يد آيدا كانت آخر أثر لآيدا في المنزل، وعلى الرغم من شوق هارييت للانزلاق إلى سريرها ودفن وجهها في الوسادة الطرية وشد الغطاء فوق رأسها، فلم تستطع أن تُقدم على تشويه هذا الجنة الصغيرة الأخيرة التي تبقت لها. في الليل، كان انعكاس السرير يطفو على زجاج النوافذ السوداء مشرقاً وشفافاً مثل كعكة زفاف بيضاء مزينة، لكنها كانت وليمة يمكن لهارييت أن تنظر إليها وتشتهيها

فقط: فما إن تستخدم السرير للنوم يضيع حتى الأمل بالنوم. لذلك كانت تنام فوق الغطاء، كانت الليالي تمر قلقة، والبعوض يلسع ساقها ويطنّ حول أذنيها، كانت الصباحات المبكرة باردة، وأحياناً كانت هاربيت تستيقظ نصف نائمة وتمد يدها إلى أغطية لا وجود لها؛ وعندما تقبض يدها على الهواء كانت تسقط مجدداً على غطاء السرير، كانت تحلم وتتلوى مثل جرو صغير في أثناء نومها، تحلم بمياه مستنقع سوداء مغطاة بالجليد، وبدروب ريفية عليها أن تركض فيها مراراً وتكراراً وفي قدمها شوكه مغروسة لأنها حافية؛ أو كانت تحلم أنها تسبح صاعدة في بحيرات مظلمة، ليصطدم رأسها بلوح معدني يمنعها من الخروج إلى سطح الماء ويحول بينها وبين الهواء، تحلم بأنها تختبئ تحت السرير في بيت إيدي من شيء مخيف لا تعلم ما هو (شيء لا تراه)، يناديها بصوت منخفض: «هل تركت شيئاً، أيتها الفتاة؟ هل تركت لي شيئاً؟»، وفي الصباح كانت تستيقظ متأخرة ومنهكة، وزخارف غطاء الفراش مطبوعة على وجنتها، وحتى قبل أن تفتح عينيها كانت تخشى الحركة فتبقى مستلقية ساكنة بوعي خانق بأنها تستيقظ على شيء خاطئ.

وقد كانت هكذا فعلاً، كان المنزل مظلماً بشكل مخيف وساكناً كأنه متوقف عن الحياة، عندما خرجت من سريرها وسارت على أطراف أصابعها نحو النافذة وأزاحت الستارة شعرت كأنها الناجية الوحيدة من كارثة مروعة.

كان يوم الاثنين: حبل الغسيل فارغ! كيف يمكن أن يكون الاثنين بلا ملاءات وقمصان ترفرف على الحبل؟ كان ظلُّ حبل الغسيل الفارغ يتموج على العشب الجاف مُحدثاً وقعاً كثيباً في نفسها.

نزلت إلى الطابق السفلي، وسارت نحو الردهة المعتمة: فمع غياب آيدا لم يعد هناك من يفتح الستائر في الصباح (ولا من يصنع القهوة، أو يناديها بـ«صباح الخير، صغيرتي!»)، أو يقوم بأي من تلك الأشياء اللطيفة الصغيرة التي كانت تفعلها آيدا). كان المنزل يظل معظم النهار معتمًا لا ينيره إلا الضوء الخفيف المتسرب عبر الستائر كأنه غارق تحت الماء.

ومن وراء الصمت الذي لا طعم له (صمت مخيف كأن العالم قد انتهى ومات أكثر الناس)، كان هناك وعي مؤلم بحقيقة أن بيت ليبي الخالي المغلق لا يبعد إلا بضعة شوارع، العشب في فناء الحديقة غير مجزوز، أحواض الزهور جفت وغزتها أعشاب ضارة، وفي الداخل صارت المرايا فارغة بلا انعكاسات، فيما كان الشمس وضوء القمر يتسللان بلا مبالاة عبر الغرف.

كم عرفت هاربيت منزل ليبي في كل أوقاته وأحواله وأجوائه، في خمول الشتاء حين تكون الردهة معتمة وشعلة الغاز تخبو في المدفأة؛ وفي الليالي والأيام العاصفة والمطر يتدفق على النوافذ البنفسجية، والظلال تتساب على الجدار المقابل؛ وفي أيام الخريف الحارة عندما كانت هاربيت تجلس في مطبخ ليبي متعبة ومحبطة بعد المدرسة، تجد عزاءً في حديثها العابر، وتدفع نفسها بحنان أسئلتها الرقيقة.

كانت ليبي تقرأ لها الكتب بصوت عال بعد المدرسة، فصل في كل يوم: أوليفر تويست وجزيرة الكنز وإيفانهو، أحيانًا كان برق أكتوير الذي يلمع فجأة عبر النوافذ الغريبة في تلك الأمسيات يبدو جليًا ومخيفًا في إشراقه، كأن بريقه وبرودته يعدان بشيء لا

يُحتمل، مثل توهج ذكريات قديمة تُستعاد عند حافة الموت مليئة بالأحلام والوداعات المؤلمة.

ولكن دائماً حتى في أكثر الأضواء هدوءاً وكآبة (صوت ساعة على رف الموقد، وكتاب مقلوب على الأريكة)، كانت ليبي نفسها تتألق شاحبة ومضيئة، وهي تتحرك عبر الغرف الكئيبة، وشعرها الأبيض مبعثر مثل زهرة الفاوانيا.

أحياناً كانت تغني لنفسها، وصوتها العذب يتردد بنعومة بين الظلال العالية للمطبخ، ويعلو فوق الهدير العميق للثلاجة:

البومة والقطة انطلقتا في البحر

في زورق جميل أخضر كالبالزلاء

أخذاً عسلًا ومالاً كثيرًا

ملفوفًا في ورقة من فئة خمسة باوندات

وها هي ذي هناك تطرزن، يتدلى مقصها الفضي الصغير من رقبتها بشريط وردي اللون، تحل الكلمات المتقاطعة أو تقرأ سيرة حياة مدام دو بومبادور أو تكلم قطتها الصغيرة البيضاء، طب طب طب.. كانت هاربيت تستطيع سماع خطواتها الآن، الصوت المميز لحذائها ذي المقاس الصغير.. طب طب طب.. وهي تسير في الممر الطويل لتجيب على الهاتف.

ليبي! كم كانت تبدو سعيدة عندما تتصل هاربيت (حتى في وقت متأخر من الليل) كأن صوتها هو الوحيد الذي تشتاق إليه في هذا العالم! كانت تقول: «أوه! إنها عزيزتي! كم هو لطيف منك أن تتصلي بعمتك العجوز المسكينة..»، وكانت بهجة صوتها ودفؤه يملآن قلب هاربيت بالفرح لدرجة أنها (حتى لو كانت وحيدة

واقفة بجانب الهاتف الجداري في المطبخ المظلم) تغلق عينيها وتطأ طئ رأسها، ويغمُرها شعور بالدفع كأنها جرس يدندن.

هل كان أي شخص آخر يبدو سعيداً بسماع صوت هاربيت بهذا الشكل؟ لا: لم يكن هناك أحد. الآن يمكنها أن تطلب ذلك الرقم، تطلبه قدر ما تشاء، تطلبه في كل لحظة حتى آخر الزمان، ولكنها لن تسمع أبداً صوت ليبي يقول لها: يا عزيزتي! يا عزيزتي!

لا: لقد أصبح المنزل فارغاً وساكنًا. رائحة الأرز وعشبة نجيل الهند تملأ الغرف المغلقة. قريباً سيُزال الأثاث ولكن في الوقت الحالي كل شيء لا يزال كما كان عندما غادرت ليبي في رحلتها: الأسرة مرتبة، وأكواب الشاي المفسولة موضوعة في المجفف، والأيام تمر عبر الغرف في موكب غير ملحوظ.

مع شروق الشمس كانت ثقالة الورق الزجاجية الموضوعة على الرف في بيت ليبي تتوهج من جديد، كأنها تعود إلى الحياة بضع ساعات فقط لتغرق من جديد في العمة بعد أن تتجاوزها أشعة الشمس عند الظهيرة، وأواخر العصر تتألق السجادة ذات الزهور (التي كانت ملعب هاربيت في طفولتها) بأشعة الضوء الصفراء التي تتسلل عبر مصاريع النافذة الخشبية، تتساب تلك الأشعة على الجدران كأنها أصابع طويلة، تتحرك ببطء وتعبر في مسارات مشوهة فوق الصور المؤطرة: ليبي في طفولتها نحيلة يبدو عليها الذعر تمسك يد إيدي، وبيت تريبيوليشن العتيق بلونه البني تحيط به أشجار خانقة وتعصف فوقه سماء مرعدة.

سيخبو ضوء المساء بدوره حتى لا يتبقى أي ضوء سوى ضوء خافت أزرق وبارد قادم من مصابيح الشارع (كافٍ لأن ترى أمامك،

لا أكثر) يتلألاً بثبات حتى الفجر. صناديق القبعات والقفازات المطوية بعناية نائمة في الأدراج، والملابس التي لن تلمسها ليبي مجدداً معلقة في خزائن مظلمة. قريباً ستحزم في صناديق وترسل إلى بعثات المعمدانيين في إفريقيا والصين، وربما قريباً ستجلس سيدة صينية صغيرة في منزل مزخرف تحت أشجار ذهبية وسماوات بعيدة، تشرب الشاي مع المبشرين مرتدية أحد فساتين ليبي الوردية التي كانت ترتديها من أجل مدرسة الأحد. كيف سار العالم في الاتجاه الذي سار فيه: بشر يزرعون الحقائق، ويلعبون الورق، ويذهبون إلى مدرسة الأحد، ويرسلون صناديق فيها ملابسهم القديمة إلى إرساليات تبشيرية في الصين ويمضون في أثناء ذلك كله، يمضون مسرعين، صوب جسر منهار ينتظرهم في الظلام؟

وهكذا غرقت هاربيت في تأملاتها الحزينة، كانت تجلس على السلم وحدها أو في الصالة أو إلى طاولة المطبخ، وتضع رأسها بين يديها، أو تجلس بجوار النافذة في غرفتها وتتنظر إلى الأشجار في الشارع، ذكريات قديمة كانت تחדش عقلها وتلسهه: مواقف عناد، ونكران للجميل، وكلمات لا يمكنها استعادتها أبداً. فكرت مرة بعد مرة في ذلك اليوم الذي أمسكت فيه خفافس سوداء في الحديقة وألقته على سطح كعكة جوز الهند التي قضت ليبي اليوم كله في إعدادها. وكيف بكت ليبي مثل طفلة صغيرة، بكت ووجهها بين يديها.

بكت ليبي أيضاً عندما غضبت هاربيت في عيد ميلادها الثامن وأخبرت ليبي أنها تكره هديتها: تعويذة صغيرة على شكل

قلب لسوارها المزخرف، قالت هاربيت بحدة: «لعبة! أردت لعبة!». في وقت لاحق أخذتها والدتها جانباً وأخبرتها أن تلك التعويذة غالية الثمن أكثر مما تستطيع ليبي تحمله.

لكن الأسوأ من ذلك كله: آخر مرة رأت فيها ليبي، آخر مرة على الإطلاق، أبعدت هاربيت يدها عنها، وركضت مسرعة على الرصيف دون أن تلتفت إلى الخلف.

وأحياناً، خلال ساعات النهار الكثيبة (ساعات ضائعة تمضيها في تقليب بليد لصفحات الموسوعة البريطانية على الأريكة)، كانت هذه الأفكار تضرب هاربيت بقوة متجددة، فتذهب إلى خزانة الملابس، وتغلق الباب وتبكي. تبكي ووجهها مدفون في تنانير التافتا وفساتين أمها القديمة المغبرة، وهي تشعر بالغثيان لأنها واثقة بأن هذا الشعور لن يتحسن أبداً بل سيزداد سوءاً.

تبدأ المدرسة بعد أسبوعين، كان هيلي مشغولاً في نشاط يدعى «الفرقة الموسيقية»، كان عليه أن يذهب يومياً إلى ملعب كرة القدم في الحر الخانق، وعندما يأتي فريق كرة القدم للتدريب، كانوا يتجمعون كلهم في كوخ ذي سقف من صفيح ملحق بالصالة الرياضية، حيث يجلسون على كراسي قابلة للطي للتدرب على آلاتهم الموسيقية. بعد ذلك كان قائد الفرقة يشعل ناراً في العراء ويشوي النقانق، أو يخرجون جميعاً ليلعبوا الكرة، أو ينظمون «جلسة موسيقية» عفوية مع الأطفال الأكبر سنًا. أحياناً كان هيلي يعود مبكراً إلى المنزل؛ لكنه في تلك الليالي -كما قال- كان عليه أن يتدرب على آلة الترومبون بعد العشاء.

كانت هاربيت في قرارة نفسها تشعر بالارتياح لغيابه، لأنها محرجة من حزنها الذي كان أكبر من أن تستطيع إخفاءه، ومن حالة منزلها الكارثية، فقد أصبحت والدتها أكثر نشاطاً بعد رحيل آيدا بطريقة تشبه بعض الحيوانات الليلية الصغيرة في حديقة حيوانات ممفيس: تلك الحيوانات الجرابية الصغيرة مدورة الأعين، التي كانت المصاييح فوق البنفسجية التي تثير قفصها الزجاجي تخدعها فتمارس حياتها الليلية تأكل وتتزاوج وتتابع مشاغلها بين أوراق الأشجار متوهمة أنها مخفية عن الأنظار تحت جنح الليل.

ظهرت مسارات خفية خلال الليل، تقاطعت وتفرعت في جميع أنحاء المنزل، وكانت تُعرف من آثار المناديل الورقية وأجهزة استنشاق الربو وزجاجات الأدوية ومستحضرات ترطيب اليدين وطلاء الأظافر وأكواب الثلج الذائب التي تركت دوائر بيضاء على طاولة المطبخ، ظهر حامل لوحات قابل للطي في زاوية مكتظة ومهملة من المطبخ، وراحت تظهر عليه يوماً بعد يوم صورة أزهار مائية بنفسجية اللون (مع أن المزهريّة التي كانت فيها بقيت مرسومة بخطوط قلم رصاص فقط ولم تُكتمل قط). حتى شعرها اكتسب لوناً جديداً بنيّاً غنياً («قبلة الشوكولا»، قرأت هاربيت اسم اللون على الزجاجاة -التي كانت مغطاة بقطرات سوداء لزجة- التي اكتشفتها في سلة القمامة في حمام الطابق السفلي) وفيما كانت تتجاهل السجاد غير المكسوس والأرضيات اللاصقة والمناشف ذات الرائحة الكريهة في الحمام كانت تصب عناية مذهلة على أشياء تافهة.

في أحد الأيام وجدت هارييت والدتها تدفع أكوام الصحف يمينًا ويسارًا لتتمكن من النزول على ركبتيها وتلميع مقابض الأبواب النحاسية باستخدام ملمع خاص وقماش مخصص، وفي يوم آخر أمضت ساعة كاملة بفرك محموم لتنظيف محمصة خبز قديمة فضية اللون حتى أصبحت تلمع كواجهة سيارة ليموزين، متجاهلة فتات الخبز وبقع الزيت والسكر المتناثر على منضدة المطبخ ومفرش الطاولة المتسخ، وبرج كامل من الأطباق المتسخة المكسدة بطريقة متهالكة فوق ماء رمادي بارد في الحوض، ومتجاهلة فوق كل ذلك الروائح العفنة التي كانت تتبعث من كل مكان ولا مكان في الوقت نفسه.

ثم وقفت عشر دقائق أخرى تتأمل عملها بإعجاب، قالت: «أمورنا تسير سيرًا حسنًا، أليس كذلك؟ آيدا لم تكن تتظف الأشياء تنظيفًا جيدًا، لم تكن تتظفها مثلما نظفت هذه المحمصة، أليس هذا أمرًا ممتعًا، نحن الثلاثة فقط؟»

لم يكن الأمر ممتعًا لكنها كانت تحاول. في أحد الأيام قرب نهاية شهر أغسطس نهضت من سريرها، أخذت حمامًا سريعًا، ارتدت ملابسها، ووضعت أحمر الشفاه، ثم جلست على سلم المطبخ وبدأت تقلب صفحات كتاب الطبخ لجيمس بيرد حتى عثرت على وصفة تُدعى «ستيك ديان»، بعدها خرجت إلى متجر البقالة واشترت جميع المكونات.

عادت إلى المنزل وارتدت فوق فستانها مريلة مطبخ مزركشة (كانت هدية عيد ميلاد لم تُستخدم قط)، أشعلت سيجارة، وصنعت لنفسها كوبًا من الكوكاكولا مع قليل من البوربون والثلج،

واحتستها في أثناء الطهي، وعندما انتهت رفعت الطبق عاليًا فوق رأسها، وساروا ثلاثتهن صفًا واحدًا إلى غرفة الطعام، أخلت هاربيت مكانًا على الطاولة، فيما أشعلت أليسون شمعتين، فألقتا ظلالًا طويلة متمائلة على السقف، كان هذا العشاء أفضل وجبة تناولتها هاربيت منذ زمن طويل، لكن الأطباق المتسخة ظلت ثلاثة أيام بعد ذلك مكدسة في المجلى.

دليل على أن وجود آيدا كان له قيمة كبيرة، لا سيما في هذا الجانب الذي لم تكن هاربيت قد توقعته سابقًا: كانت تحد من نشاط والدتها في نواح لم تقدرها هاربيت إلا الآن بعد هوات الآن. كم مرة كانت هاربيت تتوق إلى صحبة والدتها، وتتمنى أن تهض من فراشها وتتحرك وتترك غرفة نومها؟ الآن بين عشية وضحاها تحقق هذا الطلب، وإذا كانت هاربيت تشعر بالوحدة وتكره باب غرفة أمها المغلق دائمًا، فهي الآن لا تعلم أبدًا متى يمكن أن يُفتح ذلك الباب وتخرج منه أمها فتحوم حول كرسيها كأنها تنتظر أن تنطق هاربيت بكلمة تكسر الصمت وتعيد الأمور إلى طبيعتها، لو كانت لدى هاربيت فكرة عما يُنتظر منها قوله لقاتله، ولسرّها كثيرًا أن تساعد أمها، كانت أليسون تعرف كيف تطمئن أمهما دون أن تقول كلمة واحدة من خلال هدوء حضورها الجسدي وحده، ولكن الأمر كان مختلفًا مع هاربيت فقد بدا لها أن عليها أن تقول شيئًا أو أن تفعل شيئًا، لكنها لم تدر ما يمكن أن يكون ذلك الشيء.

كانت ضغط تلك النظرات المترقبة يجعلها عاجزة عن الكلام تشعر بالخجل من نفسها، بل يثير ضيقها وغضبها، وأحيانًا كانت

تشعر بالإحباط والغضب إذا زادت النظرات يأسًا أو استمرت طويلاً، فترغم عينيها على التحديق إلى يديها أو إلى الأرض أو إلى الجدار الذي أمامها، إلى أي شيء يمكن أن يحجب عنها تلك النظرة في عيني أمها.

نادرًا ما كانت والددة هاربيت تتحدث عن ليبي، إذ بالكاد كانت تستطيع نطق اسمها دون أن تنهار بالبكاء، لكن أفكارها كانت تدور حول ليبي معظم الوقت، وكان تيار تلك الأفكار واضحًا كأنها تعبر عنها بصوت عالٍ. كانت ليبي في كل مكان.

كانت المحادثات تدور حولها حتى إن لم يُذكر اسمها. البرتقال؟ الجميع يتذكر شرائح البرتقال التي كانت ليبي تحب أن تطفو على سطح مشروب عيد الميلاد، أو كعكة البرتقال (حلوى حزينة من كتاب وصفات يعود للحرب العالمية الثانية) التي كانت تخبزها أحيانًا. الإجاص؟ أيضًا كانت غنية بالذكريات: مربي الإجاص المحلي بالزنجيل الذي كانت تصنعه ليبي؛ الأغنية التي كانت تغنيها عن شجرة الإجاص الصغيرة؛ اللوحة التي تصور الإجاصة التي رسمتها ليبي عندما التحقت بكلية النساء في مطلع القرن. وبطريقة ما عبر الحديث عن الأشياء فقط كان يمكن الحديث عن ليبي ساعات دون أن يُذكر اسمها، كانت الإشارات غير المباشرة إلى ليبي تطارد كل محادثة؛ كل بلد أو لون، كل خضار أو شجرة، كل ملعقة أو مقبض باب أو طبق حلوى كان مشبعًا بذكرها. وعلى الرغم من أن هاربيت لم تشكك في صحة هذا التفاني، فإنها أحيانًا كانت تشعر بعدم الراحة كأن ليبي قد تحولت من شخص إلى نوع من الغاز الحزين المهيمن الذي

يتسرب عبر فتحات الأقفال وتحت الأبواب.

كان هذا كله ترتيبًا غريبًا للكلام، ولكن ما هو أشد غرابة أن والدتهما كانت قد أوضحت بطرائق لا تحصى دون كلمات أنه لا ينبغي لهما ذكر اسم آيدا، وحتى عندما كانتا تشيران إلى آيدا بشكل غير مباشر كان استياؤها واضحًا. وفي إحدى المرات عندما ذكرت هاربيت دون تفكير اسم ليبي وآيدا في نفس الجملة الحزينة، تجمدت والدتها وقد توقفت كأس الشراب في منتصف طريقها إلى شفيتها.

صاحت بها: «كيف تجرئين؟». وأن هاربيت قد قالت عن ليبي كلامًا جاحدًا وضيعًا، لا سبيل إلى غفرانه.

قالت لها بعد ذلك: «لا تتظري إليّ هكذا»، أمسكت هاربيت يد أليسون المذهولة؛ ثم أفلتتها وهرعت خارجة من الغرفة.

مع أنه كان ممنوعًا على هاربيت أن تعبر عن أساها، فإن حزن والدتها كان يلاحقها كعتاب دائم تشعر أنها مسؤولة عنه. أحيانًا (لا سيما في الليل) يصير ذلك الأسى ملموسًا، يصير مثل ضباب يتخلل البيت كله وتعلو هالة كثيفة منه فوق رأس أمها المطرق وكثفيها المتهدلتين، ثقيلة مثل رائحة الويسكي التي تفوح من والدها عندما يشرب، كانت هاربيت تتسلل إلى باب المطبخ، تشاهد بصمت، في حين تكون أمها جالسة إلى طاولة المطبخ تحت ضوء المصباح الأصفر دافئة رأسها بين يديها وبين أصابعها سيجارة مشتعلة.

ومع ذلك كانت هاربيت تهرب عندما تستدير أمها إليها محاولة الابتسام أو بدء حديث عابر، كرهت أسلوب أمها الطفولي

الخجول عندما بدأت تسير في البيت وتتنظر في الزوايا وفي الخزائن كأن آيدا كانت طاغية وسرّها أنها تخلصت منها. كلما اقتربت منها مبتسمة تلك الابتسامة الخجولة بتلك الطريقة المرتعدة المترددة التي تعني أنها تود أن «تتكلم»، تشعر هاربيت نفسها باردة كالجليد، فتظل ساكنة كأنها حجر عندما تجلس أمها على الأريكة إلى جانبها وتمد يدها مرتبكة وترت عليها.

«لا تزال حياتك كلها أمامك»، كان صوتها أعلى مما ينبغي كأنها ممثلة.

ظلت هاربيت صامتة محدقة إلى «الموسوعة البريطانية» المفتوحة في حضنها على مقالة عن أحد أنواع القوارض اسمه «كيفي»، وهو فصيلة من القوارض في أمريكا الجنوبية تشمل خنزير غينيا.

«المسألة هي...»، ضحكت أمها ضحكة دراماتيكية مختقة، وتابعت: «أمل ألا تعيشي الألم الذي عشته».

أمعنت عينا هاربيت في صورة بالأبيض والأسود لنوع من القوارض اسمه «كايبارا»، إنه العضو الأكبر في عائلة «كيفي»: أكبر القوارض الحية على الإطلاق.

«أنت صغيرة، يا حبيبتي، وقد فعلت كل ما أستطيع فعله من أجل حمايتك، ولا أريد أن تقعي في بعض الأخطاء التي وقعت فيها».

انتظرت والدتها.. كانت تجلس قريبة جداً. وعلى الرغم من أن هاربيت شعرت بعدم الارتياح، فإنها بقيت ساكنة وامتنعت عن النظر إليها، كانت مصممة على ألا تعطي والدتها أي فرصة، كل

ما أرادته والدتها كان مجرد إظهار اهتمام (حتى لو كان تظاهراً وليس اهتماماً حقيقياً)، وهاربيت كانت تعرف تماماً ما الذي سيسعدها: أن تضع الموسوعة جانباً، وتطوي يديها في حجرها، وتضع تعبيراً تعاطفياً على وجهها في أثناء كلام أمها، أم مسكينة! كان هذا يكفي؛ كان ذلك كل ما تحتاج إليه.

لم يكن ذلك كثيراً! ولكن كان في الأمر ظلمٌ جعل هاربيت ترتجف. هل كانت والدتها تستمع إليها عندما أرادت هي الحديث؟ وفي الصمت فيما كانت تحقق إلى الموسوعة بإصرار (كم كان صعباً عليها أن تظل كما هي فلا تجيبها بشيء!) تذكرت كيف دخلت غرفة أمها بخطوات متعثرة دامعة العينين من أجل آيدا؛ وتذكرت كيف رفعت أمها إصبعها بحركة ملكية هادئة، رفعت إصبعاً واحدة فقط، رفعتها بتلك الطريقة.

فجأة انتبهت هاربيت إلى أن أمها نهضت واقفة وراحت تنظر إليها من أعلى، كانت ابتسامتها حادة وشائكة مثل خطاف صيد الأسماك، قالت لها: «هل أزعجك في أثناء قراءتك!» على الفور ندمت هاربيت كثيراً، أزاحت الموسوعة وقالت: «أمي، ماذا؟»

أشاحت أمها بعينيها جانباً وجذبت حافة ثوبها: «لا أهمية للأمر».

«أمي!»، نادتها وهي تسير في الممر، سمعت هاربيت صوت إغلاق باب غرفة نوم والدتها بهدوء شديد.. هتفت: «أمي، أنا آسفة!»

لماذا كانت بغیضة هكذا؟ لماذا لا تستطيع التصرف مثلما يريد الآخرون منها؟ جلست هاربيت على الأريكة محاولة أن تتمالك نفسها، ظلت الأفكار الحادة والمزعجة تجول في عقلها زمنًا طويلًا ثم تحاملت على نفسها وجرت نفسها إلى سريرها. لم يكن قلقها وإحساسها بالذنب مقتصرين على علاقتها بأمرها (ولا حتى على وضعها الحالي)، بل كان يمتد بعيدًا وعميقًا، وكانت أكثر هذه الأفكار تعذيبًا تدور حول آيدا، ماذا إن أصابت آيدا سكتة دماغية؟ أو ماذا إن صدمتها سيارة؟ تحدث هذه الأمور أحيانًا، هذا ما صارت هاربيت تعلمه جيدًا: الناس يموتون، هكذا فجأة، يسقطون على الأرض بلا مقدمات، هل ستبلغ ابنة آيدا أسرتها بذلك؟ أم -وهذا أقوى احتمالًا- ستفترض أنه ليس هناك أحد يهتم بذلك في بيت هاربيت؟

راحت هاربيت تتقلب تحت بطانيتهما الأفغانية الخشنة، وتصرخ بأوامر واتهامات في نومها، ومن وقت إلى آخر كان برق شهر آب يضيء الغرفة بنور أزرق وامض، لن تنسى أبدًا كيف كانت أمها تعامل آيدا: لن تنسى أبدًا، ولن تغفر أبدًا.. أبدًا، ولكنها على الرغم من شدة غضبها لم تستطع أن تقسو على والدتها بسبب الحزن الذي يعتصرها.

كان أكثر الأمور إيلا مأ عندما كانت والدتها تحاول التظاهر بأن الحزن غير موجود، تنهذى على السلم مرتدية بيجامتها، وترمي بنفسها على الأريكة أمام ابنتيها الصامتين كأنها جليسة أطفال بلهاء، وتقترح عليهما نشاطات «ظريفة» كأنهن مجموعة صديقات جالسات معًا. وجهها محمر، وعيناها لامعتان؛ ولكن تحت بهجتها

قلق عنيف وتوتر بائس يجعل هاربيت ترغب في البكاء. كانت والدتها تريد أن تلعب الورق، تريد أن تصنع حلوى... حلوى! تريد أن تتابع التلفاز، تريد منهما أن تذهبا إلى النادي الريفي لتناول شريحة لحم هناك.. كان هذا مستحيلًا؛ لأن المطعم في النادي الريفي لا يفتح أبوابه أيام الاثنين... فما الذي تفكر فيه أمهما؟ ثم إنها تطرح أسئلة بغیضة جدًا، تسأل هاربيت: «هل تريدين حمالة ثديين؟»، أو «ألا تحبين أن تبیت إحدى صديقاتك لدينا؟»، أو «هل تودين الذهاب بالسيارة لزيارة والدك في ناشفيل؟» قالت لهاربيت ذات مرة: «أظن أن عليك أن تقيمي حفلة». قالت هاربيت مستغربة: «حفلة؟»

«أوه، أنت تعلمين.. حفلة كوكا كولا أو آيس كريم للبنات في صفك في المدرسة».

كانت هاربيت مذهولة لدرجة أنها لم تستطع التحدث.

«ينبغي أن تشاهدي الناس، دعيهم يأتون. هتيات هي عمرك».

«لماذا؟»

لوححت والدة هاربيت بيدها باستخفاف وقالت: «قريبًا، ستكونين في المدرسة الثانوية، وسيحين الوقت لتفكري في الذهاب إلى الحفلات الكبيرة أو الانضمام إلى مشجعات الرياضة أو فريق العارضات، كما تعلمين».

فريق العارضات! دهشت هاربيت.

«أفضل أيام حياتك لا تزال أمامك، أظن أن مرحلة المدرسة الثانوية ستكون مرحلتك الذهبية، يا هاربيت».

لم تكن لدى هاربيت أي فكرة عمّ يمكن أن يقال إزاء هذا الكلام.

«هل المشكلة في ملابسك؟ أهذا هو السبب، يا عزيزتي؟» نظرت إليها والدتها بنبرة متوسلة، وأكملت: «هل هذا هو السبب في أنك لا تريدين دعوة صديقاتك إلى المنزل؟» «لا».

«سوف آخذك إلى متجر يونغ لاند في ممفيس، سأشتري لك ملابس جميلة، وأجعل والدك يدفع ثمنها».

بدأت تقلبات والدتها تترك أثرها حتى في أليسون، أو هكذا بدا الأمر، لأنها بدأت تقضي فترة بعد الظهر والمساء خارج المنزل دون تفسير، وبدأ الهاتف يرن أكثر من المعتاد. في إحدى المرات أجابت هاربيت على الهاتف وكانت المتصلة فتاة، قالت إن اسمها ترودي وسألت عن أليسون، لم تهتم هاربيت بمن تكون ترودي ولم تسأل، لكنها كانت تراقب من النافذة عندما توقفت ترودي -شخصية غامضة في سيارة كرايسلر بنية- أمام المنزل لتقل أليسون التي كانت تنتظر حافية القدمين عند الرصيف.

وفي أوقات أخرى كان بمبرتون يأتي لاصطحابها في سيارته الكاديلاك الزرقاء الفاتحة، ويغادران دون أن يلقياً التحية أو يدعوان هاربيت للانضمام إليهما.

جلست هاربيت عند نافذة غرفتها في الطابق العلوي بعد أن ابتعدا في الشارع وراحت تحقق إلى السماء العكرة فوق سكة القطار، رأت في البعيد أضواء ملعب البيسبول وأضواء متجر جامبو.

أين يذهب بمبرتون وأليسون عندما يقودان في الظلام، وما الذي يتحدثان عنه؟

لا يزال الشارع مبتلاً بعد العاصفة الرعدية وقت العصر، وفوقه كان القمر يسطع عبر فجوة في الغيوم، فتفرق حواف الغيوم في ضياء حيٍّ رائع، وخلف الغيوم في المساحة الصافية من السماء كان كل شيء نقيًا واضحًا: نجوم باردة، ومسافات لا نهاية لها. كان ذلك أشبه بالتحديق إلى بركة صافية تبدو لك ضحلة لا يتجاوز عمقها بضع إنشات، ولكنك عندما تلقي قطعة نقود معدنية في تلك المياه الزجاجية تسقط وتسقط وتتقلب وتتقلب دون أن تبلغ القاع.

سألت هاريت أليسون ذات صباح: «ما عنوان آيدا؟ أريد أن أكتب إليها لأخبرها بوفاة ليبي».

كان البيت حارًا وساكنًا، والملابس المتسخة مكدسة فوق الغسالة في كتل كبيرة وقذرة، رفعت أليسون رأسها عن إناء الكورن فلكس، كان وجهها خاليًا من التعبير.

قالت أليسون بعد لحظة طويلة من عدم التصديق: «لا»، ثم أشاحت بوجهها.

كانت قد بدأت مؤخرًا تضع ظلًا أسود على عينيها، فأسبغ عليها هذا مظهرًا مراوغًا كأنها غير راغبة في أي تواصل.

«لا تقولي لي إنك لم تأخذي عنوانها! ما مشكلتك؟»

«لم تعطني العنوان».

«ألم تسألها؟»

صمت.

«هل طلبت منها العنوان؟ ما مشكلتك؟»

قالت أليسون: «تعلم أين نعيش، إن أرادت الكتابة إلينا».

جاء صوت والدتها من الغرفة المجاورة بنبرة مساعدة لكنها

تثير الغضب: «حبيبتي! هل تبحثين عن شيء؟»

بعد صمت طويل عادت أليسون -وعيناها موجهتان إلى الأسفل- إلى تناول طعامها. كان صوت قرمشة الكورن فليكس عاليًا بشكل مزعج، مثل صوت حشرة تأكل أوراقًا في برنامج عن الطبيعة. دفعت هاربيت كرسيها إلى الخلف، وجالت عيناها في المطبخ في حالة من الذعر العاجز: ما اسم البلدة التي ذكرتها آيدا؟ ما اسمها بالتحديد؟ ما اسم عائلة ابنتها بعد الزواج؟ ولكن حتى إن علمت هاربيت فما أهمية ذلك؟

لم يكن لدى آيدا هاتف في ألكساندريا، في كل مرة كانوا بحاجة إلى التواصل معها، كان على إيدي أن تذهب إلى منزلها بالسيارة، لم يكن منزلًا بالمعنى الحقيقي، بل كوخًا بنيًا متداعيًا في فناء من تراب مرصوص، بلا عشب أو رصيف، فقط طين. كان الدخان يتصاعد من مدخنة صغيرة معدنية صدئة في الأعلى، عندما توقفت إيدي ذات مساء شتوي ومعها هاربيت في السيارة، تحملان كيك الفواكه واليوسفي هدية عيد الميلاد لآيدا.

تذكرت هاربيت عندما ظهرت آيدا بباب كوخها وقد فوجئت بمصاييح السيارة فأخذت تمسح يديها بمريلتها المتسخة، فشعرت باختناق مفاجئ وحزن شديد من هذه الذكرى. لم تدعُهما آيدا إلى الدخول، ولكن نظرة سريعة من خلال الباب المفتوح ملأت قلب هاربيت حيرة وحزنًا: علب قهوة قديمة، وطاولة عليها غطاء من قماش مشمع، وكنزة معلقة على وتد في الجدار، وكنزة قديمة تفوح برائحة الدخان (كنزة رجالية) ترتديها آيدا في الشتاء.

فتحت هاربيت أصابع يدها اليسرى ونظرت خفية إلى الجرح الذي أحدثته في راحة يدها بسكين سويسرية في اليوم الذي أعقب جنازة ليبي، في كآبة المنزل الخائقة، جعلتها طعنة السكين تطلق صرخة مفاجئة من الألم، ارتطم السكين بأرضية الحمام، وانفجرت دموع جديدة من عينيها اللتين كانتا متورمتين أصلاً لكثرة بكائها، ضغطت على يدها بشدة، وشدت على شفتيها، فيما راحت نقاط الدم السوداء تسقط على البلاط الغامق؛ نظرت حولها إلى زوايا السقف كأنها تنتظر عوناً من الأعلى.

كان الألم مبعث راحة غريبة، بارداً ومنعشاً، أفلح بقسوته في تهدئتها وجعل أفكارها مركزة، فقالت في نفسها: عندما يتوقف هذا الألم، عندما يلتئم هذا الجرح، لن يكون حزني على ليبي شديداً هكذا.

تحسن جرحها، ولم يعد يؤلمها كثيراً إلا عندما تغلق قبضة يدها بطريقة معينة، ظهرت ندبة بلون النبيذ مكان الجرح، كان مظهرها لافتاً كأنها بقعة صغيرة من صمغ وردي، كان النظر إليها ممتعاً بطريقة غريبة، إذ ذكرتها بلورنس العرب، الذي كان يحرق نفسه بأعواد الثقاب، من الواضح أن مثل هذه الأفعال تبني شخصية الجندي. كما قال في الفيلم: «الحيلة، هي ألا تبالي بالألم.»

في المخطط العظيم والمعقد للمعاناة، كما بدأت هاربيت تفهمه الآن، كانت هذه حيلة تستحق أن تتعلم.

هكذا انقضى شهر آب، وفي جنازة ليبي، قرأ القس من سفر المزامير: «أسهر الليالي وحيداً كعصفور منفرد على السطح». الزمن شافٍ للجروح كلها، هكذا قال القس، ولكن متى؟ فكرت هاربيت في هيلي، وهو يعزف الترومبون في ملعب كرة القدم تحت الشمس الحارقة، فذكرها هذا أيضاً بتلك المزامير، «سبحوا له بصوت البوق؛ سبحوا له بالعود والقيثارة!»، لم تكن مشاعر هيلي عميقة، يعيش في المياه الضحلة المشمسة حيث الدفء والنور دائمان، فرأى عشرات الخادmates يأتين ويذهبن، ثم إنه لا يفهم أسأها على ليبي، فهيلي لا يحب كبار السن، وكان يخاف منهم، بل إنه لا يحب جده وجدته اللذين يعيشان في بلدة أخرى. لكن هاربيت كانت مشتاقة إلى جدتها وخالاتها المسنات (خالات أمها)، كن مشغولات جداً فلم يمنحها كثيراً من الاهتمام، وكانت تات منهمكة في توضيب أشياء ليبي: تطوي ملأاتها، وتلمع فضياتها، تلف السجاد، وتصعد على السلم لتفك الستائر، وتحاول معرفة ما يجب فعله بمحتويات خزائن ليبي وصناديقها الخشبية وخزانات الملابس.

قالت تات عندما اتصلت بها هاربيت على الهاتف وعرضت المساعدة: «عزيزتي، أنت ملاك لأنك تعرضين المساعدة»، وعلى الرغم من أن هاربيت ذهبت إلى هناك، لم تستطع إجبار نفسها على السير في الممر الأمامي، إذ صُدمت تماماً بالتغيرات الجذرية التي طرأت على منزل ليبي: أحواض الزهور المليئة بالأعشاب الضارة، والعشب المهمل الذي نما بشكل عشوائي، واللمسة المأساوية للإهمال.

كانت ستائر نوافذ ليبي الأمامية قد أُزيلت، وكان غيابها صادمًا؛ وداخل المنزل فوق المدفأة في غرفة المعيشة لم يكن هناك سوى بقعة باهتة كبيرة حيث كانت المرأة معلقة.

وقفت هاربيت على الرصيف خائفة، ثم استدارت وركضت عائدة إلى بيتها، شعرت بالخجل من نفسها تلك الليلة، هاتصلت بتات كي تعتذر.

قالت تات بصوت لم يكن ودودًا بالقدر الذي كانت هاربيت تأمله: «لا بأس! كنت أتساءل عمّ حدث». «أنا... أنا...».

قالت تات وقد بدا صوتها مرهقًا: «عزيزتي.. أنا متعبة، هل تريدني شيئًا؟»
«بدا لي البيت مختلفًا».

«نعم، إنه مختلف، لقد كان قاسيًا الذهاب إليه، أمس جلست إلى الطاولة الصغيرة في المطبخ الذي صار ممتلئًا بالصناديق، وبكيت، وبكيت».

بدأت هاربيت تبكي: «تات، أنا...».
«استمعي، يا عزيزتي! أنت لطيفة لأنك تفكرين في تات، ولكني أستطيع العمل على نحو أسرع إذا كنت وحدي، يا ملاكي...».
بدأت تات تبكي مثلها.. «سوف نفعل أشياء لطيفة عندما أنتهي، هل اتفقنا؟»

حتى إيدي -التي كانت واضحة وثابتة كالملامح المنحوتة على عملة معدنية- قد تغيرت. ازدادت تحولًا منذ وفاة ليبي؛ وغارت وجنتاها، وصارت تبدو أصغر حجمًا، بالكاد رأتها هاربيت منذ

الجنابة. كانت تقود سيارتها الجديدة تقريباً كل يوم إلى الساحة لمقابلة المصرفيين أو المحامين أو المحاسبين. كانت أملاك ليبي العقارية في حالة فوضى، ويرجع ذلك إلى إفلاس القاضي كليف ومحاولاته الخرقاء آخر أيامه لتقسيم وإخفاء ما تبقى من ممتلكاته، انعكست هذه الفوضى على الإرث الصغير المعقد الذي تركه لليبي.

وما زاد الطين بلة: السيد ريكس، الرجل العجوز الذي اصطدمت سيارته بسيارة إيدي، رفع دعوى قضائية ضدها مدعياً «الألم والمعاناة النفسية» لم يقبل بالمصالحة، وكان واضحاً لها أن القضية ستصل إلى المحكمة، وعلى الرغم من أن إيدي كانت متماسكة وتتحمل بصمت، فإن تأثير ذلك كان واضحاً فيها.

قالت أديليد: «الحقيقة، لقد كان خطأك يا عزيزتي».

قالت أديليد إنها تعاني الصداق منذ الحادث، وإنها ليست في حالة تسمح لها بالتعامل مع الصناديق في منزل ليبي، وإنها ليست على طبيعتها. في فترة ما بعد الظهر بعد قيلولتها (قالت تات: «قيلولة») كأنها تتوق إلى قيلولة بنفسها) كانت تذهب إلى منزل ليبي وتكنس السجاد والمفروشات (أمر غير ضروري) وتعيد ترتيب الصناديق التي كانت تأتي قد حزمتهما بالفعل، لكنها وكانت تعبر بصوت عالٍ عن قلقها بشأن ميراث ليبي؛ وكانت تثير غضب تاتي وإيدي على حد سواء بشكوكها الواضحة ولكنها ودية في الظاهر بأن إيدي والمحامين يحاولون خداعها وحرمانها مما تسميه «حصتها».

كل ليلة كانت تتصل بإيدي لتستطققها (بالتفصيل الممل) عمّ جرى في مكتب المحامي ذلك اليوم. (كانت تقول متذمرة إن أتعاب المحامين كبيرة جدّا، وإنها تخشى أن تلتهم أتعابهم «نصيبها»)، كما كانت تنقل لإيدي نصائح السيد سامنر حول أمورهم المالية. صاحت بها إيدي للمرة الرابعة، أو الخامسة: «يا أديلايڊ.. أرجو ألا تخبري ذلك العجوز شيئاً عن أمورنا».

«لم لا؟ إنه صديق للعائلة».

«ليس صديقاً لي».

أجابتها أديلايڊ ببهجة مبالغ بها: «أحب أن أشعر أن هناك من يهتم بمصالحني».

«أفترض أنكِ تعتقدين أنني لا أهتم بمصالحك».

«أنا لم أقل هذا».

«بل قلت!»

لم يكن هذا بالأمر الجديد. أديلايڊ وإيدي لم تتفقا قط حتى في طفولتهما، ولكن الوضع بينهما لم يصل من قبل إلى هذا الحد الواضح من العداء. لو كانت ليبي على قيد الحياة، لكانت قد أصلحت بينهما منذ زمن طويل قبل أن تصل الأمور إلى هذه المرحلة؛ كانت ستتوسل إلى أديلايڊ بالصبر والتروي، ولتوسلت إلى إيدي أن تكون متسامحة مع أختها مستخدمة حججها المعتادة: («إنها أختنا الصغرى... لم تعرف أمّا... أسرف بابا في تدليل آدي...»).

لكن ليبي كانت قد رحلت، ومع غياب من يتوسط بينهما، كان الشرخ بين إيدي وأديلایڊ يزداد برودة وعمقاً يوماً بعد يوم،

إلى درجة أن هارييت (التي كانت في النهاية حفيدة إيدي) بدأت تشعر بعدم الراحة في وجود أديليد، شعرت هارييت بالانزعاج من شعورها هذا، لأنها في الماضي كانت تميل إلى الانحياز إلى جانب آدي عندما كانتا تتشاجران.

إيدي كانت متمرة أحياناً، وهارييت تعرف ذلك جيداً. ولكنها الآن للمرة الأولى بدأت تفهم وجهة نظرها في الخلاف، وتدرك ما تعنيه عندما تصف أديليد أنها «ضيقة الأفق».

كان السيد سامنر قد عاد إلى دياره (في ساوث كارولينا، أو أينما كان يقيم)، ولكن المراسلات تواصلت بينهما فصارت أديليد ترى نفسها مهمة، وقالت لهارييت وهي تريها عنوانه على إحدى الرسائل التي وصلتها منه: «شارع كاميليا! أليس اسماً جميلاً؟ الشوارع عندنا ليست لها أسماء مثل هذه، كم أحب أن أعيش في شارع يحمل اسماً بهذه الأناقة!». كانت تمسك المغلف بعيداً عن وجهها، ونظارتها منخفضة عند حافة أنفها، وهي تنتظر إليه مفتونة، ثم سألت هارييت: «خط يده جميل أيضاً، أليس كذلك؟ خط أنيق، هكذا أراه، فما رأيك؟ أوه.. كان أبي يحترم السيد سامنر كثيراً».

لم تقل هارييت شيئاً، وفقاً لإيدي كان القاضي يعتقد أن السيد سامنر «ماكر ومتلاعب»، أيًا كان ما يعنيه ذلك. أما تاتي -التي كان رأيها هو الفيصل دائماً- فلم تقل شيئاً عن السيد سامنر مطلقاً؛ لكن طريقته كانت تشير إلى أنها ليس لديها شيء إيجابي لتقوله عنه.

قالت أديلاييد: «أنا متأكدة من أن هناك أمورًا كثيرة يمكن أن تتحدثي بها مع السيد سامنر»، وأخرجت البطاقة البريدية من المغلف، وراحت تقلّبها وتتنظر إلى وجهيها: «إنه متحضر جدًا وواسع الثقافة. كان يعيش في مصر، هل كنتِ تعلمين ذلك؟» وكانت تحقق إلى الصورة على واجهة البطاقة في أثناء كلامها (مشهد من المدينة القديمة في تشارلستون)، وعلى ظهرها تمكنت هارييت من قراءة بعض العبارات المكتوبة بخط السيد سامنر المزخرف قديم الطراز: «أمرٌ أهمّ في نظري»، و«سيدتي العزيزة».

قالت أديلاييد وهي تحمل البطاقة بعيدًا وتتنظر إليها برأس مائل: «ظننت أنك مهتمة بهذا، يا هارييت. تلك المومياوات القديمة والقطط وما شابه».

فاجأتها هارييت: «أنت والسيد سامنر.. هل ستعلنان خطبتكما؟» وضعت أديلاييد يدها على قرطها بشرود، وقالت: «هل أخبرتكِ جدتك أن تسأليني ذلك؟»

فكرت هارييت: هل تعتقد أنني بلهاء؟ ثم أجابت: «لا، يا خالتي».

قالت أديلاييد وهي تضحك ضحكة باردة: «آمل.. آمل ألا أكون عجوزًا جدًا في نظرك»، ثم نهضت لترافق هارييت حتى الباب، وألقت على صورتها المنعكسة في المرأة نظرة جعلت قلب هارييت يغور بين أضلاعها.

كانت أياماً صاخبة جداً؛ آليات ثقيلة (بلدوزرات ومناشير آلية) تزمجر في البعيد، وعلى مسافة ثلاثة شوارع كان المعمدان يون يقطعون الأشجار، ويرصفون الأرض حول الكنيسة لأنهم في حاجة إلى مساحة إضافية لإيقاف السيارات، كما قالوا. كان الهدير الآتي من ذلك المكان رهيباً كأنه هدير دبابات أو هدير جيش يقتحم الشوارع الهادئة.

كانت المكتبة مغلقة، والعمال يطلون صالة الأطفال بلون أصفر فاقع يشبه لون سيارات التاكسي، إنه لون فظيع! كانت هارييت تحب تلك الجدران ذات الألواح الخشبية ذات الطابع الأكاديمي التي كانت موجودة هناك منذ بداية ذكرياتها، فكيف لهم الآن أن يضعوا الطلاء الأصفر فوق ذلك الخشب العريق الجميل؟ كانت مسابقة القراءة الصيفية قد انتهت: لم تفرز هارييت فيها.

لم يكن هناك أحد لتحدث معه، ولا شيء لتفعله، ولا مكان تذهب إليه سوى المسيح. كل يوم عند الواحدة ظهرًا كانت تحمل منشفتها تحت ذراعها وتسير إلى بركة السباحة، كان شهر آب يقترب من آخره، وبدأت تدريبات كرة القدم وتدريبات المشجعات الرياضيات، حتى حضانة الأطفال بدأت، وباستثناء الأشخاص المتقاعدين في ملعب الغولف، ويضع ربات بيوت شابات يتشمسن على كراسي الاسترخاء حول البركة، كان النادي الريفي مهجورًا، كان الطقس حارًا في معظم الأحيان وساكنًا كالزجاج، ومن حين إلى آخر تختفي الشمس خلف سحابة، وتهب نسيمات تثير على سطح الماء موجات صغيرة، وتهز مظلة كشك البيع. كانت هارييت تجد متعة في وجودها تحت الماء لأن لديها شيئاً ثقیلاً تعاركة

وتضريه بقدميها، وكانت تستمتع بخطوط الضوء البيضاء التي تشبه أقواس الكهرباء المتوهجة - كأنها صادرة من مولد كهربائي ضخم- وهي تنعكس على جدران المسبح، كانت أحياناً تنسى نفسها تماماً دقائق متواصلة، معلقة في حبال من الضوء والبريق، ضائعة في الصدى والصمت، وبين أشعة الضوء الأزرق.

كانت تمضي أوقاتاً طويلة حاملة تطفو على بطنها فوق صفحة الماء دون حراك، تحديق إلى ظلها، وكان هوديني يفلح في تحرير نفسه بسرعة كبيرة في خدعه المائية؛ فما إن ينظر رجال الشرطة إلى ساعاتهم، ويحررون ياقات قمصانهم، ويصيح مساعده طالباً فأساً، وتصرخ زوجته وتهاوى متظاهرة بالإغماء، حتى يتمكن هوديني من التخلص من قيوده، ويسبح تحت سطح الماء (بعيداً عن الأنظار) بكل هدوء.

في هذا الأمر على الأقل حققت هاربيت تقدماً كبيراً خلال الصيف، وصارت قادرة على حبس أنفاسها أكثر من دقيقة كاملة دون أدنى إحساس بالضيق، وإذا ظلت ساكنة تماماً فهي قادرة على إطالة تلك المدة (ليس أمراً مريحاً تماماً) حتى تقرب من دقيقتين كاملتين، كانت تحصي الثواني أحياناً، ولكنها تنسى إحصاءها في معظم الأحيان: تسحرها العملية نفسها، نشوتها، وظلها المرتسم تحتها (على عمق عشرة أقدام) يتأرجح داكناً على أرضية الناحية العميقة من البركة، ويبدو كبيراً كأنه ظل رجل بالغ، فتقول لنفسها: «غرقت السفينة» متخيلة أنها سفينة تحطمت، وجرفتها الأمواج عبر الآفاق الدافئة، والغريب أن تلك الفكرة كانت تريحها.. لن يأتي أحد لإنقاذي!

كانت تطفو منذ وقت طويل، لا تكاد تتحرك إلا كي تتنفس، عندما سمعت شخصاً ينادي اسمها بصوت خافت جداً، صعدت إلى السطح بدفعة من يدها وركلة من ساقها، صعدت إلى الحرّ ووهج الشمس والطنين المزعج لوحدة التبريد عند صالة النادي، ومن خلال عينين لا تزالان ضبابيتين رأت بمبرتون (لم يكن في نوبته عند وصولها) يلوح لها من فوق كرسي المنقذ، ثم يقفز في الماء، أخفضت رأسها كي تتفادى الرذاذ الذي أثارته قفزته، وغطست تحت الماء (استولى عليها ذعر غير مفهوم)، وسبحت صوب الناحية الضحلة لكنه كان سريعاً فقطع طريقها.

قال لحظة صعوده إلى سطح الماء: «مرحباً!»، وهز رأسه فتطاير رذاذ الماء في كل اتجاه، أكمل: «لقد تقدمت كثيراً خلال وجودك في المخيم! كم تستطيعين حبس أنفاسك الآن؟»، وأضاف عندما لم تجبه هاربيت بشيء: «أسألك جاداً! فلنحسب الوقت، لدي ساعة توقيت».

شعرت هاربيت أن وجهها قد بدأ يحمّر.

«هيا! لماذا لا تريدين؟»

لم تكن تعرف السبب، أسفلها عند القاع الأزرق بدت قدماهما -بخطوط ناعمة زرقاء شاحبة تشبه خطوط النمر- شديديتي البياض، وبدا حجمهما ضعفي الحجم المعتاد.

«كما تشائين»، ظل دقيقة واقفاً مكانه، ورد شعره إلى الخلف، ثم جلس في الماء، فصار رأساهما على سوية واحدة.. «ألا تشعرين بالملل وأنتِ مستلقية في الماء هكذا؟ كريس يزعجه هذا».

قالت هارييت بعد لحظة دهشة: «كريس!»، صدمها صوتها أكثر: كان جافاً ومبحوحاً كأنها لم تتحدث منذ أيام.

«قال لي عندما أتيت كي أحل محله: انظر إلى تلك الفتاة التي تظل مستلقية في الماء كأنها جذع شجرة، أزعجته أمهات الأطفال الصغار بسؤاله عنك، كأنهن يعتقدن أنه سيترك طفلة ميتة تطفو في المسبح طيلة النهار».

ضحك بعد قوله هذا، وعندما لم يتمكن من جعل هارييت تنظر إليه، سبح إلى الجهة الأخرى.

قال لها: «هل تريدين كوكا كولا؟»، كانت في صوته نغمة مرح ذكرتها بهيلي.. «مجاناً! لقد ترك لي كريس مفتاح البراد».

«لا، شكرًا».

«لماذا لم تخبريني أن أليسون كانت في البيت عندما اتصلت ذلك اليوم؟»

نظرت هارييت إليه نظرة شاردة، جعلت حاجبي بمبرتون ينعقدان، ثم ضربت قعر البركة بقدمها، وبدأت تسبح مبتعدة، كان هذا صحيحًا: قالت له إن أليسون ليست في البيت، وأغلقت الخط، مع أن أليسون كانت في الغرفة المجاورة، وفوق هذا: لم تكن تعرف لماذا فعلت ذلك، ولم تستطع حتى أن تخترع سببًا. قفز بمبرتون وراءها، سمعت صوت ذراعيه تضربان الماء، فقالت في نفسها قانطة: لماذا لا يتركني وشأني؟

سمعت صوته: «سمعت أن آيدا ريو قد تركت العمل»، وفي اللحظة التالية، كان قد انزلق ليقف أمامها.

قال لها: «اسمعي!..»، قطع كلامه ونظر إليها: «هل تبكين؟»

غطست هارييت (قذفت في وجهه رشقة ماء كبيرة)، وابتعدت تحت الماء، كانت الناحية الضحلة من البركة حارة مثل ماء الحمام.

سمعتة يناديها لحظة خروجها إلى سطح الماء: «هارييت!»، فتسلقت السلم متعجلة خافضة رأسها، وجرت صوب غرفة تبديل الملابس تاركة خلفها خطًا داكنًا من آثار قدميها على الأرض. ناداها: «لا تكوني هكذا! تستطيعين مواصلة التظاهر بالموت طيلة النهار، هارييت!»، ناداها من جديد لحظة انعطافها خلف الحاجز الأسمنتي كي تدخل غرفة تبديل ملابس السيدات، فشعرت أن أذنيها تحترقان.

شعرت هارييت أن الشيء الوحيد الذي يعطي معنى لحياتها هو التفكير في داني راتليف. كان التفكير فيه يلح عليها ويشعرها بالضيق كأنها تضغط على سن منخورة، لكنها استمرت في فعل ذلك مرة بعد مرة. وفي كل مرة كانت تفكر فيه، كان تغضب بالطريقة التي توقعتها، بشكل يشبه الألم الذي يتفجر من عصب مصاب.

في غرفتها في الضوء الخافت استلقت على السجادة تحديق إلى الصورة الباهتة ذات اللونين الأبيض والأسود التي قصتها من الكتاب السنوي، في البداية فاجأتها الطريقة العفوية التي التقطت بها الصورة، ولكن ذلك تلاشى منذ زمن بعيد، لم تعد ترى في الصورة صبيًا ولا شخصًا حتى، بل تجسيدًا صريحًا للشعر، كانت تكره وجهه كثيرًا لدرجة أنها لم تكن تلمس الصورة

إلا من حوافها، كانت تعتقد أن كل الحزن واليأس في منزلها من عمل يديه، وشعرت أنه يستحق الموت.

لم يمنحها إلقاء الأفعى على جدته أي إحساس بالراحة، فهي تريده هو، لقد لمحت وجهه وقت الجنازة، وهي الآن على ثقة تامة من أمر واحد: لقد عرفها!

التقت أعينهما وتشابكت، أفزعتهما نظراته الدامية العنيفة لدرجة أن مجرد تذكرها يجعل قلبها يخفق بشدة. في تلك اللحظة كان هناك اتصال غريب أو نوع من الإدراك بينهما، على الرغم من أن هاربيت لم تكن متأكدة تمامًا مما يعنيه ذلك، شعرت كأنها تشغل أفكار داني بنفس القدر الذي يشغل هو أفكارها.

تأملت هاربيت ممتعة كيف أزرت الحياة بالكبار الذين تعرفهم كلهم، كلهم دون استثناء. ثمة ما يخنقهم وهم يكبرون، ويجعلهم في شك حتى في قدراتهم... أهو الكسل؟ أهى العادة؟ تتراخى قبضاتهم، ويتوقفون عن الكفاح، ويستسلمون لما يحدث، ويقولون جميعاً: «هذه هي الحياة. هذه هي الحياة، يا هاربيت! هكذا هي، وسوف ترين».

حسناً، هاربيت لن ترى، لا تزال في مستقبل العمر، ولم يشد الوثاق بعد حول كاحليها، لسنوات عاشت في رعب من أن تبلغ التاسعة (كان روبين في التاسعة عندما مات)، ولكن عيد ميلادها التاسع أتى وذهب، فلم تعد تخشى شيئاً، أيًا يكن ما يتعين عليها فعله، فسوف تفعله. سوف تضرب الآن (ما دام أنها لا تزال قادرة على ذلك قبل أن تنهار أعصابها وتخذلها روحها)، وليس هناك ما يساندها سوى وحدتها الهائلة.

تحول انتباهها إلى المسألة الماثلة أمامها، لماذا قد يذهب داني راتليف إلى ساحات التحميل؟ ليس هناك شيء يستحق السرقة، فأكثر المستودعات مغلقة بألواح خشبية، وقد تسلفت هاربيت ونظرت عبر نوافذ مستودع لم يفلقوا نوافذه فوجدته شبه فارغ، ولم تر فيه شيئاً غير بالات قطن قديمة، وآلة اسودّ لونها بفعل الزمن وصفائح مبيدات للحشرات صدئة ملقاة في الزوايا. تبادرت إلى ذهنها احتمالات جامحة: سجناء في عربات قطار مغلقة، وأجساد مدفونة، وأكياس من الأوراق النقدية المسروقة، وهياكل عظمية، وأسلحة مستخدمة في جرائم قتل، واجتماعات سرية.

خلّصت إلى أن ما من سبيل لمعرفة ما يفعله، غير أن تذهب إلى تلك الساحات لترى بنفسها.

لم يكلمها هيلي منذ زمن طويل، فقد أصبح أكبر وأرفع شأنًا من أن يتكلم معها بعدما صار الطالب الوحيد في الصف السابع الذي شارك في الفريق الموسيقي، متناسيًا أنه لم يُدعَ إليه إلا لأن قسم النحاسيات كان ينقصه عازف ترومبون.

في آخر مكالمة هاتفية بينهما (هي التي اتصلت به) كان حديثه كله عن الفرقة الموسيقية، راح يثرثر عن الأطفال الكبار في الفرقة متظاهرًا بأنه يعرفهم جيدًا، ويشير إلى قائدة الطبول والعازفين البارعين في قسم آلات النفخ بأسمائهم الأولى، كان يتحدث بأسلوب حوارى ولكنه رسمي كما لو كانت هاربيت معلمة أو صديقة لوالديه، أخبرها تفاصيل كثيرة عن المقطوعة التي

كانوا يعملون عليها: أغنية لفرقة بيتلز تنتقل الفرقة بعدها إلى عزف «الفواصة الصفراء» مع اصطفاؤها في ملعب كرة القدم على هيئة غواصة عملاقة (تكون مروحتها عضوًا يلوح بها واحد منهم).

استمعت هاربيت في صمت، ولم تعلق أيضًا على روايات هيلي الغامضة والمتحمسة عن مدى «جنون» الفتيان في فرقة المدرسة الثانوية: «لا يقضي لاعبو كرة القدم أي وقت مرح، وعليهم أن يستيقظوا قبل الفجر، وأن يجروا مسافات طويلة، يصرخ بهم المدرب كوغيول طيلة الوقت، شيء يشبه الحرس الوطني! وأما تشاك وفرانك ورسطي وطلبة السنة الثانية الذين في قسم الترومبيت... فهم أشدّ جنونًا من أي أحد في فريق كرة القدم». «هممم!»

«لا يفعلون شيئًا سوى الجدال وتبادل النكات الغريبة، ويضعون نظاراتهم الشمسية طيلة الوقت، والسيد ووبورن لطيف جدًا... ولا يبدو أنه يهتم بأي شيء، فأمس مثلًا، انتظري.. انتظري..» توقف عن الكلام ثم سمعته يتحدث إلى شخص آخر متذمر: «... ماذا؟» دار بينهما حديث جانبي، فانتظرت هاربيت بضع لحظات حتى عاد هيلي.

قال لها: «آسف! عليّ أن أذهب إلى التمرين، يقول أبي إن عليّ أن أتدرب كل يوم لأن التورمبون الجديد كلف مالا كثيرًا».

أنهت هاربيت المكالمة، ثم استندت إلى طاولة الهاتف بمرفقيها، وراحت تفكر في عتمة الممر الساكنة، هل نسي أمر داني راتليف؟ أم أنه لم يعد يهتم؟

فاجأها عدم اكترائها بقله اهتمامه، لم يؤلمها تجاهله كما كانت تتوقع وشعرت بشيء من الرضا بسبب قلة الألم الذي أحدثه ابتعاده.

هطل المطر في الليلة الماضية، وعلى الرغم من أن الأرض كانت مبللة، فلم تستطع هاربيت معرفة إن كانت سيارة قد مرت مؤخراً في تلك المساحة الواسعة المفروشة بالحصى (منطقة تحميل عربات القطن، وليست طريقاً بالمعنى الحقيقي) الواصلة بين ساحات التحويل وساحات الشحن وساحات الشحن والنهر. حملت حقيبتها على ظهرها، ودفترها البرتقالي تحت ذراعها تحسباً لوجود أدلة تحتاج إلى تدوينها، ووقفت عند حافة تلك المساحة الواسعة السوداء، تنظر إلى التدرجات والتقاطعات في السكة الحديدية ومصدات إيقاف القطارات، وعلامات الصليبان التحذيرية البيضاء والإشارات الضوئية المطفأة، وعربات الشحن الصدئة في البعيد، وخلفها خزان المياه المرتفع الواقف على قوائمه المعدنية النحيلة: خزان دائري ضخم ذو قبة مدببة كقبة تين وودمان في ساحر أوز.

في طفولتها المبكرة كانت تشعر بتعلق غامض بخزان الماء لعله بسبب شبهه بتلك القبة، بدا أشبه بحارس غبي ودود، وعندما كانت تخلد للنوم كانت تتخيله منتصباً هناك في الظلام، وحيداً لا يقدره أحد حق قدره. وعندما بلغت السادسة تسلق بعض الأولاد السيئين ذلك الخزان يوم الهالوين، ورسموا عليه وجهاً مخيفاً له عيانان ضيقتان وأسنان كأسنان المنشار، فظلت

بضع ليالٍ بعد ذلك تستلقي في فراشها صاحبة لا تستطيع أن تغفو؛ تفكر في صديقها الضخم (الذي صار الآن غاضباً ولديه أنياب) ينظر عابساً من فوق أسطح البيوت الصامتة.

منذ زمن بعيد اختفت معالم ذلك الوجه المخيف، وكتب عليه أحدهم بطلاء ذهبي «دفعة 1970» لكن تلك الكتابة زالت أيضاً، أحرقتها الشمس، وغسلها المطر سنة بعد أخرى، ارتسمت خطوط التآكل السوداء الكثيبة على واجهته من أعلاه إلى أسفله. ومع أن ذلك الوجه الشرير لم يعد موجوداً، فإنه لا يزال مطبوعاً في ذاكرة هاربيت كما يظل الضوء مطبوعاً في العين بعد إطفاء النور.

كانت السماء بيضاء خالية، قالت في نفسها: على الأقل يكون هناك من يمكنني الحديث معه عندما يرافقني هيلي، هل كان روبين يأتي ليلعب هنا؟ هل جلس على مقعد دراجته، ونظر إلى خطوط سكة القطار؟ حاولت أن تتخيل رؤية هذا المشهد من خلال عينيه، لا يمكن أن يكون المشهد قد تغير كثيراً: لعل أسلاك التلغراف قد تراخت قليلاً، ولعل تلك النباتات المتسلقة كانت أشد كثافة، كيف سيبدو كل هذا بعد مئة عام، بعد أن تكون قد ماتت؟

اجتازت ساحات الشحن ماضية في اتجاه الغابة، تقفز من فوق خطوط السكة، وتدندن لنفسها. كان صوتها عالياً جداً في ذلك الصمت، ولم يحدث من قبل أن سارت وحدها في هذه المنطقة المهجورة، قالت في نفسها: ماذا إن حلّ وباء على ألكساندريا، وماتوا جميعاً ما عداي؟

أجابت عن تساؤلها: إن حدث هذا فسوف أذهب للعيش في المكتبة العامة، أنعشتها هذه الفكرة، تخيلت نفسها تقرأ على ضوء الشموع، والظلال تتراقص على السقف فوق متاهة الرفوف الكثيرة، ستحضر من البيت بعض الأشياء (زبدة الفستق وبسكويت مالح وبطاطانية وبعض الملابس)؛ وستقرب اثنتين من الكنبات الكبيرة في قاعة القراءة لتنام عليهما.

خطت داخل الدرب ودخلت الغابة الظليلة (خضرة وارفة تتخلل أنقاض مدينتها التي توقفت فيها الحياة، فتكسو الأرصفة وتلتف حول البيوت)، كان الانتقال من الدفء إلى البرودة أشبه بالسباحة عبر تيار ماء بارد متدفق من ينبوع في البحيرة، طارت أسراب من البعوض الدقيق مبتعدة عنها هاربة من تلك الحركة المفاجئة مثلما تفر المخلوقات الصغيرة في البركة وتمضي في المياه الخضراء مبتعدة، في ضياء النهار. كان الدرب أضيق مما تخيلته في الظلام، وكان أشد اختناقًا بالنباتات، كانت الأعشاب تنمو في مجموعات كثيفة وكانت الأخاديد في الطين مغطاة بطبقة من الطحالب الخضراء اللزجة.

دوّت من فوقها صرخة صاخبة جعلتها تقفز خائفة: نعيق غراب، لا أكثر. كانت الأشجار المحيطة بالدرب مغطاة بطبقة كثيفة من النباتات المتسلقة فبدت كأنها وحوش بحرية بشعة. سارت بخطوات بطيئة (ناظرة إلى الخضرة الكثيفة فوقها)، فلم تتبهِ إلى طنين الحشرات الشديد الذي كان يزداد شدة كلما تقدمت حتى شمت رائحة كريهة، عندما نظرت إلى الأسفل، رأت أفعى خضراء لامعة ميتة على الطريق أمامها، لم تكن سامة

لأن رأسها لم يكن مديباً، لكنها لم تكن مثل أي أفعى رأتها من قبل، طولها نحو ثلاثة أقدام، وكانت مهروسة عند وسطها، وقد انبجست أحشاؤها منها في كتل داكنة، ولكن لونها كان الأمر المميز فيها: أخضر مصفرًا لامعًا مع حراشف قزحية الألوان تشبه تلك اللوحة الملونة لملكة الأفاعي التي رأتها هي كتاب حكايات خرافية قديم كان لديها منذ طفولتها الأولى. «قالت ملكة الأفاعي للراعي الصادق: حسن جدًا! سأبصق في فمك ثلاث مرات، وعندئذٍ ستصير عارفاً لغة الحيوانات، ولكن حذار أن تكشف سرك لغيرك من البشر كي لا يفضبوا منك ويقتلوك».

لاحظت هاربيت أثر حذاء ضخم مطبوعاً بوضوح في الطين جانب الدرب، وفي الوقت نفسه شعرت في أعماق حلقها بطعم رائحة الموت المنبعثة من الأفعى، فراحت تركض وقلبها ينبض بشدة كأن الشيطان نفسه يطاردها، ركضت دون أن تعرف سبباً لذلك. كانت صفحات دفترها تخفق بصوت عالٍ في ذلك الصمت، وقطرات الماء تتساقط عن الأغصان وتتناثر حولها، ارتفعت شجيرات الإيلانثوس (أشجار متفاوتة العلو كأنها صواعد ناشئة على أرضية كهف) شاحبة مترنحة فوق الشجيرات المتشابكة على الأرض، وجذوعها التي تشبه جلد السحالي تضيء في العتمة.

خرجت إلى ضوء النهار، شعرت فجأة أنها ليست وحدها فتوقفت. كانت الجنادب تقفز مجنونة بين شجيرات السماق، ظللت عينيها بدفترها، وتفحصت المدى المضيء الذي تشويه الشمس..

في زاوية رؤيتها ومضت فجأة ومضة فضية من السماء، أو هكذا بدا الأمر، أجفلت عندما رأت جسمًا داكنًا يتسلق سلم خزان المياه، كان ارتفاعه نحو ثلاثين قدمًا والمسافة بينها وبينه ستين قدمًا تقريبًا. مرة أخرى، رأت اللعنان نفسه: ساعة يد معدنية، تلمع كأنها مرآة للإشارة.

تسارعت دقات قلبها، فتراجعت إلى الغابة، وظلت تنتظر من خلال أوراق الأشجار المتشابكة المبللة بالندى، كان هو بلا شك، شعره أسود ونحيل جدًا، كان يرتدي قميصًا ضيقًا على ظهره كتابة لم تستطع قراءتها، شعر جزء منها بنشوة الإثارة، لكن جزءًا آخر منها أكثر هدوءًا وتجردًا أدرك أن اللحظة لم تكن كبيرة أو درامية كما توقعت، راحت تقول لنفسها محاولة أن تشعر بمزيد من الإثارة: «إنه هو، إنه هو».

انحنى غصن أمام وجهها، فأخفضت رأسها لترى على نحو أفضل، إنه الآن يتسلق درجات السلم الأخيرة، وعندما بلغ أعلى السلم وقف دون حراك فوق الممر الضيق، رأسه منحني ويداه على وركيه أمام السماء الصافية، التفت خلفه التفاتة سريعة، ثم انحنى ووضع يده على الدرايزين المعدني (كان الدرايزين منخفضًا جدًا، وكان عليه أن يميل جانبًا كي يضع يده عليه)، ثم سار بخطوات خفيفة سريعة متجهًا صوب اليسار، فصار خارج مجال رؤيتها.

انتظرت هاربيت، ومرت بضع لحظات، ثم ظهر من جديد في الناحية الأخرى من الخزان، وفي تلك اللحظة تمامًا وثب جندب فاصطدم بوجه هاربيت، فتراجعت مترنحة، وفرقت عصا جافة

عندما انكسرت تحت قدمها، أدار داني راتليف رأسه في اتجاهها (إنه هو، لقد رأيت شكله الجانبي واضحًا جدًا مع أنه كان جائئًا مثل حيوان). يستحيل أن يكون قد سمع هذا الصوت، فقد كان خائفًا وبعيدًا جدًا، ولكنه سمعه بطريقة ما، فقد ظلت نظراته ثابتة في اتجاهها متوهجة وغريبة.

وقفت هاربيت مكانها دون حراك، تمايل غصن متدلٍ أمام وجهها بلطف مع أنفاسها، مرت عيناه الباردتان عليها وهما تتفحصان الأرض، كانتا تشعان بريقًا غريبًا أعمى كالرخام، يشبه الذي كانت هاربيت تراه في أعين الجنود الجنوبيين في الصور القديمة: فتية أحرقتهم الشمس، أعينهم مثل دبائيس مضيئة، يحدقون بنظرات ثابتة إلى قلب خواء عظيم.

ثم أدار وجهه، ولذعرها بدأ ينزل السلم مسرعًا، وهو يلتفت نحوها.

بلغ أكثر من منتصف السلم قبل أن تستعيد هاربيت رشدها، فتستدير وتجري هاربة. جرت بأسرع ما استطاعت عائدة عبر الدرب الرطب وطنين الحشرات، سقط الدفتر من يدها فتوقفت لتلتقطه، كانت الأفعى الخضراء الميتة وسط الدرب لامعة في الظلمة الخفيفة، قفزت من فوقها، ولوحت بيديها أمام وجهها كي تطرد الذباب، وواصلت جريها.

خرجت إلى الفسحة التي فيها مستودع القطن: سقف من صفيح، ونوافذ مغلقة بألواح خشبية تبدو خالية من الحياة. سمعت خلفها من بعيد أصوات تكسر أغصان على أرض الغابة، فذبّ الذعر فيها، فتجمدت مكانها لحظة عاجزة عن اتخاذ قرار.

كانت تعلم أن هناك أماكن كثيرة صالحة للاختباء في هذا المستودع: باللات القطن المكسدة، والعربات الفارغة، ولكنها أدركت أنها لن تستطيع الخروج من هذا المكان إذا حاصرها فيه. سمعت صياحه من بعيد، فشعرت بأنفاسها تتوقف، وضعت يدها على خاصرتها التي شعرت بوخز مؤلم فيها، وركضت خلف المستودع (مرت بجوار لافتات معدنية عليها كتابات باهتة: بورينا تشيكريورد، جنرال نيلز)، وخرجت إلى طريق ترابي (طريق أعرض كثيرًا من ذلك الدرب، يكاد عرضه يسمح بمرور سيارة، يختلط فيه الرمل الأبيض والأسود بصلصال أحمر، وفيه مساحات من الظل تحت أشجار الجميز. كان قلبها يخفق بعنف، وأفكارها مضطربة تتصادم في رأسها مثلما تتصادم قطع نقدية في حصالة، وساقاها ثقيلتان كأنها تجري في الطين أو سائل لزج في أحد كوابيسها، حاولت أن تسرع لكن قدميها لم تستجيبا، ولم تستطع التمييز إن كانت أصوات تكسر الأغصان (كانت عالية بشكل غير طبيعي كأنها أصوات طلقات رصاص) ناجمة عن وقع قدميها على الأرض، أم عن قدمين تطاردانها.

أصبح الطريق منحدرًا انحدارًا حادًا، جرت أسرع فأسرع، أسرع فأسرع، جرت خائفة من السقوط وخائفة من الإبطاء. قدماها تضربان الأرض كأنهما ليستا جزءًا منها أو كأن يداً خشنة تدفعها قدمًا، إلى أن استوى الطريق ثم علا (فجأة) صاعدًا إلى ضفة ترابية مرتفعة: إنه السد.

السد! السد! أبطأت خطواتها، وخففت اندفاعها، تحاملت على نفسها حتى وصلت إلى منتصف المسافة صعودًا، ثم انحرفت

نحو العشب، وهي تلهث لهاثًا ثقیلاً، زحفت على يديها وركبتيها متابعة صعودها.

سمعت صوت الماء قبل أن تراه، وعندما أفلحت أخيراً في الوقوف على ساقبيها المرتعشتين، هب نسيم بارد على وجهها المتعرق، ورأت الماء الأصفر يدور حول الضفاف المنحدرة في دوامات هادئة.

وعلى ضفتي النهر رأت بشرًا من كل الأعمار والألوان سودًا وبيضاء شبابًا وعجائز، يتحدثون ويأكلون السندويتشات ويصطادون الأسماك. سمعت أصوات قوارب آلية تخرخر من بعيد، وفي خضم كل هذا قال صوت ريفي مرتفع، كان واضحًا أنه صوت رجل: «سأخبرك عن الذي أعجبني.. ذلك الذي اسمه إسباني، لقد ألقى عظة جيدة».

«الدكتور ماردي؟ ماردي ليس اسمًا إسبانيًا».

«مهما يكن، إن سألتني فقد كان هو الأفضل».

كان الهواء منعشًا له رائحة الطين، وضمت هاربيت دفتر الملحوظات في حقيبتها الظهرية بيدين مرتعشتين، ونزلت عن السد صوب مجموعة صيادين تحتها مباشرة (انتقل حديثهم إلى مهرجان ماردي غراس، وكانوا يتساءلون إن كان ذلك المهرجان في الأصل إسبانيًا أم فرنسيًا). سارت على ساقبيها الخائرتين، ونزلت إلى ضفة النهر متجاوزة صيادين عجوزين (شكلهما يوحي بأنهما شقيقان؛ يرتديان بنطالين قصيرين حتى الركبة مرفوعين عاليًا فوق كرشين بارزين) مرت بسيدة تتشمس مستلقية على كرسي طويل كأنها سلحفاة بحرية، تضع على كتفيها وشاحًا ورديًا من

نفس لون أحمر شفاهها، ثم مرت بعائلة معها راديو ترانزيستور، وبراد صغير ممتلئ بالأسماك، وأطفال قدرون سيقانهم مليئة بالخدوش، يتزاحمون ويتدافعون ويركضون جيئة وذهاباً، ويتحدى كل منهم الآخر أن يضع يده في دلو طعوم صيد الأسماك، ثم يزعمون ويجرون مبتعدين.

تابعت السير، وبدا لها أن الناس جميعاً يتوقفون عن الكلام لحظة اقترابها منهم (ربما كان ذلك من نسج خيالها! لكن من المؤكد أنه لا يستطيع إيذاءها هنا، لأن الناس كثيرون جداً)، شعرت بتتميل في رقبتها كأن أحداً يحدق إليها، فالتفتت متوترة، وتوقفت في مكانها عندما رأت رجلاً نحيلًا ذا شعر طويل داكن وبنطال جينز، يقف على مسافة قريبة، ولكنه ليس داني راتليف.. بل شخصاً يشبهه لا أكثر.

على الرغم من أن اليوم كان مشمساً وحيوياً مع الناس وحافظات التبريد وصراخ الأطفال لكنه كان متوتراً ومقلقاً بالنسبة إلى هاريت، شعرت بعدم الارتياح فأسرعت في خطواتها، انعكست أشعة الشمس على النظارة الشمسية لرجل سمين إلى الناحية الأخرى من الماء فبدا منفرًا وشفته منتفخة، كان وجهه خاليًا من أي تعبير، ولكن هاريت أشاحت بوجهها عنه كأنه كشر في وجهها.

خطر في كل مكان الآن؛ ماذا إن كان في انتظارها في الشارع؟ إن كان ذكيًا فهذا ما سوف يفعله: يعود أدراجه، ويلتف من الناحية الأخرى وينتظرها، ثم يقفز من خلف سيارة متوقفة أو شجرة، لا بد لها من السير عائدة إلى البيت، أليس كذلك؟ ينبغي أن تظل

عينها مفتوحتين، وأن تسلك طرقاً رئيسةً، وتتجنب أي مسار مختصر عبر أماكن خالية من الناس، أمر في غاية السوء: في الجزء القديم من البلدة، ثمة أماكن كثيرة خالية من الناس، وعندما تبلغ شارع ناتشيز حيث ضجيج البلدوزرات العاملة عند الكنيسة المعمدانية، فمن سيسمعها إن صرخت؟ من سيسمعها إن صرخت في لحظة غير مناسبة؟ لا أحد. هل سمع أحد صوت روبين، على الرغم من أنه كان مع شقيقتيه في فناء بيته نفسه. الآن صارت ضفة النهر ضيقة ومقفرة وفيها حجارة كثيرة، سارت شاردة في أفكارها، وصعدت الدرجات الحجرية المؤدية إلى الشارع (درجات متكسرة نبتت فيها حزم صغيرة مدورة من حشائش)، ثم انعطفت عند آخرها، وكادت تتعثر بطفلة صغيرة قدرة معها طفل رضيع أشد منها قدارة جالس في حضنها، وأمام الطفلين على قميص رجالي عتيق ممدود على الأرض كأنه بساط للرحلات، كانت لشارون أودوم جاثية تحاول إعادة ترتيب مربعات لوح شوكولاته متكسر على ورقة شجر كبيرة غير مستوية، وإلى جانبها ثلاث كؤوس بلاستيكية فيها ماء أصفر اللون بدا لها أنه من ماء النهر، وكانت على الأطفال الثلاثة بثور كثيرة وأثار من لسعات البعوض، ولكن القفازين الأحمرين كانا أهم ما لحظته هاربيت (قفازاها؛ القفازان اللذان أهدتها إياهما آيدا، متسخان وتالفان). كان القفازان في يدي لشارون، وقبل أن تفلح لشارون (التي نظرت إليها مرفرفة بعينيها) في قول كلمة واحدة، جذبت هاربيت ورقة الشجر من بين يديها، فطارت مربعات الشوكولاتة في الهواء، وثبت عليها ورمتها أرضاً. كان القفازان كبيرين واسعين

عند نهايات الأصابع، فانتزعت هاربيت القفاز الأول بسهولة، ولكن لاشارون بدأت تقاومها عندما أدركت غايتها.

زمجرت هاربيت: «أعطني القفازين! إنهما لي!». أغمضت لاشارون عينيها وهزت رأسها، فشدتها هاربيت من شعرها، صرخت لاشارون ورفعت يديها إلى رأسها، وعلى الفور انتزعت هاربيت القفاز الثاني ووضعت في جيبها.

قالت بصوت كالفحيح: «إنهما لي.. يا لصة!»

صرخت لاشارون بصوت غاضب: «إنهما لي! هي أعطتي إياهما!»

أعطتها! فوجئت هاربيت، وأرادت أن تسألها عمّن أعطتها القفازين (أليسون؟ أمها؟) ولكنها عدلت عن سؤالها، كان الطفلان الصغيران ينظران إلى هاربيت بعينين متسعيتين ذعرًا. «هي أعطتي القفازين...».

قالت هاربيت: «أخرسي!». شعرت ببعض الحرج لم يلبث أن تحول إلى غضب شديد... «إياك أن تعودى إلى التسول عند بيتي».

أعقب ذلك لحظات مضطربة، ثم استدارت هاربيت وصعدت الدرجات بخطوات سريعة، وقلبها ينبض بجنون، أزعجها ما حدث كثيرًا حتى أنها نسيت أمر داني راتليف، كانت تقول لنفسها وهي سائرة على الرصيف بخطوات مسرعة، على الأقل.. على الأقل، استعدت القفازين؛ إنهما قفازاي! لم يتبق لها من أيدي غير هذين القفازين، مرت بجانبها سيارة مسرعة في الطريق كادت تصطدمها، فأفاقت من شرودها وتذكرت أنها يجب أن تتبّه إلى الطريق.

لم تكن هارييت فخورة بما فعلت، بل كانت غاضبة ومضطربة قليلاً. كانت الشمس تسطع بشكل مزعج على وجهها. كانت على وشك أن تخطو إلى الشارع مرة أخرى دون أن تنتظر، لكنها توقفت فجأة، ورفعت يدها لتحجب وهج الشمس وألقت نظرة سريعة في كلا الاتجاهين قبل أن تتدفع بسرعة إلى الجانب الآخر.

كان فاريش يغني، وهو يطعن بمفكه قاعدة فتّاحة العلب الكهربائية عند غام: «ما تقدمينه مقابل روحك...». كان مزاجه رائقاً، لكن داني كان على النقيض تماماً؛ كان مضطرباً ومزعوراً تسكنه الهواجس. كان جالساً على درجات سلم الألمنيوم أمام مقطورته يعبث بالجلد الميت حول ظفره، في حين كان فاريش يهتم منشغلاً (وسط مجموعة من الأسطوانات والنوابض والحشيات المتناثرة على التراب). كان عاكفاً على عمله، أشبه بسباك مخبول يرتدي أوفرولاً بني اللون، يتنقل بلا توقف بين مقطورة جدته وموقف السيارات والسقائف. كان يفتح علب الفيوزات، ويمزق الأرضيات، ويفكك أجهزة صغيرة أينما وقعت عليها عيناه.

كان في بحث دؤوب عن الأسلاك المقطوعة والعناصر الموضوعة في غير أماكنها والترانزيسيتورات المخفية، يسعى خلف أي دليل بسيط على حدوث تخريب في الأجهزة الإلكترونية لدى الأسرة. قال بنبرة حادة: «مباشرة» ومدّ يده خلفه: «قلت مباشرة». وعندما اقتربت غام كأنها تهتم بقول شيء، قاطعها سريعاً: «سأصل إلى هذا»، لكن الحقيقة أنه لم يصل إلى شيء

بعد؛ كان الفناء غارقًا في فوضى عارمة، المسامير متناثرة، والأنابيب مبعثرة، والسدادات والمفاتيح والأطباق وأشياء معدنية لا حصر لها متناثرة على الأرض، بدا المشهد كأن قبلة قد انفجرت ناشرة شظاياها من الحديد والخردة على مسافة ثلاثين قدمًا.

على الأرض الترابية كان الرقم الظاهر على شاشة ساعة الراديو (صفران أبيضان على أرضية سوداء) يحدق إلى داني كأنه زوج عيون في الرسوم المتحركة. كان فاريش يعمل على فتحة العلب، ويتحرك وسط تلك القمامة كلها كأنه لا يشغل ذهنه شيء، كانت على وجهه ابتسامة غريبة مع أنه لا ينظر مباشرة إلى داني، من الأفضل أن يتجاهل فاريش، ويتجاهل تلميحاته الخبيثة كلها، وألاعيبه الخفية.. ومع ذلك كان واضحًا أن هناك شيئًا يدور في ذهن فاريش، وكان هذا الأمر يقلق داني؛ لأنه لم يكن يعرف ما هو بالضبط، كان يشك أن هذا الانكباب على «مكافحة التجسس» استعراض موجه إليه.

نظر إلى جانب وجه أخيه، وقال في نفسه: أنا لم أفعل أي شيء. فقط صعدت لألقي نظرة، لم آخذ شيئًا. تبادرت إلى ذهنه فكرة أخرى: لكنه يعلم أنني أردت أن آخذ شيئًا.

وكان ثمة أمر آخر: كان هناك من يراقبه، شخص كان بين الأشجار خلف خزان المياه، لقد تحرك شيء هناك، ورأى لمحة من شيء أبيض كأنه وجه إنسان، كان وجهًا صغيرًا، رأى آثار أقدام طفل مغروسة في الطين، وهذا كان كافيًا ليشعر بالرعب، وعلى

بعد خطوات قليلة وجد إلى جانب أفعى ميتة في الدرب صورة له، صورة صغيرة مشوشة بالأبيض والأسود. صورة له! صورة صغيرة من أيام المدرسة مقصوصة من كتاب سنوي، رفع الصورة عن الأرض ونظر إليها غير مصدق ما يراه، تصاعدت في ذهنه الذكريات القديمة والمخاوف كلها، ذكريات ومخاوف قديمة العهد، واختلطت بالظلال الكثيفة والطين الصلصالي الأحمر ورائحة الأفعى الميتة، كاد يفقد وعيه لشدة غرابة ذلك الموقف الذي يصعب وصفه؛ لرؤية صورته عندما كان صغيراً، وكانت صورته وهو يرتدي قميصاً جديداً تبتسم له من الأرض مثلما تبتسم الصور التي يضعونها على قبور المتوفين حديثاً في المقابر الريفية.

كان الأمر حقيقياً، ولم يكن وهمًا أو خيالاً، فالصورة موجودة الآن في محفظته. لقد أخرجها ونظر إليها عشرين مرة أو ثلاثين مرة، نظر إليها غير مصدق أبداً، هل يعقل أن فاريش قد وضعها هناك؟ هل هي تحذير له؟ أم هي نكتة سقيمة، أم شيء يعبت بعقل داني ويثير قلقه كما لو كان يخطو فوق لغم أو يصطدم بخطاف الصيد المعلق بطريقة مخفية عند مستوى العين؟ ظلت غرابة الأمر تطارده، كان عقله يدور ويدور في نفس الدائرة العقيمة (مثل مقبض باب غرفته الذي يدور بسهولة لكنه لا يفتح الباب)، الأمر الوحيد الذي منعه من إخراج تلك الصورة المدرسية من محفظته والنظر إليها مجدداً في هذه اللحظة كان وجود فاريش واقفاً أمامه.

حدّق داني في الفراغ، وكما يحدث عادة منذ أن تخلص عن النوم، شلته أحلام اليقظة: ريح تهب على سطح يشبه الثلج أو

الرمل، وشخص ضبابي في البعيد، ظن أنها هي، فاقترب أكثر فأكثر حتى أدرك أنها لم تكن هي، بل لم يكن هناك شيء أمامه على الإطلاق، مجرد فراغ فقط.

من تكون تلك الفتاة الملعونة؟ في اليوم السابق فقط كان هناك علبة حبوب إفطار للأطفال موضوعة على طاولة مطبخ غام (نوع من رقائق الحبوب التي يحبها كورتيس في علبة ذات ألوان زاهية) توقف داني متجمداً في منتصف طريقه إلى المرحاض، حدق إلى العلبة، حدق إليها لأن وجه الفتاة كان مرسوماً عليها، إنها هي! وجهها الشاحب، وشعرها الأسود القصير، وهي منكبة فوق صحن من حبوب الإفطار يلقي على وجهها ألماً سحرياً وحول رأسها شرارات ضوء متطايرة وجنيات، جرى إلى العلبة وحملها بين يديه، ثم حار عندما رأى أن الصورة لم تكن لها على الإطلاق (لم تعد صورتها بل صورة طفلة غيرها، طفلة يعرفها من الإعلانات التليفزيونية).

ومضت انفجارات صغيرة عند طرف عينه كأنها أضواء كاميرات تومض في كل مكان، وفجأة تبادر إلى ذهنه (عاد إلى جسده كأنه استيقظ فجأة جالساً على درجات مقطورته المبتلة بالعرق) أنه عندما تظهر تلك الفتاة متسللة في أفكاره، كان يسبقها دائماً في ذهنه شيء يشبه باباً مفتوحاً وعاصفة من شيء ساطع يهب من خلاله.. نقاط من ضوء، شذرات غبار لامعة تشبه مخلوقات صغيرة تحت مجهر... قد يقول التفسير العلمي إنها ناجمة عن المخدرات!

لأن كل إحساس بالحكة وكل قشعريرة كل ذرة غبار صغيرة أو حبة تراب عابرة على سطح عينيك المرهقتين تبدو كأنها حشرة

حية، ولكن معرفة التفسير العلمي لا تجعل الأمر أقل واقعية، في النهاية كانت الحشرات تزحف على كل سطح يمكن تصويره، تترك مسارات طويلة متلوية بين عروق الخشب في ألواح الأرضية، حشرات على جلدك لا يمكنك غسلها حتى لو فركت حتى يهترئ، حشرات في طعامك، حشرات في رثتيك وعينيك وحتى قلبك المتلوي.

مؤخرًا بدأ فاريش يضع على كأس الشاي المثلج الذي يشربه منديلًا ورقيًا (تخترقه قشة للشرب) ليحمي شرابه من أسراب الحشرات غير المرئية التي لا يتوقف عن ضربها بيده ليطردها عن وجهه ورأسه.

وبدوره كانت لداني حشرات، ولكنها والشكر للسماء لم تكن حشرات تزحف أو تدب أو تحفر، لم تكن يرقات ونملات صغيرة تنغل في الروح بل يراعات مضيئة، فحتى الآن في وضوح النهار يراها تتطاير عند أطراف مجال رؤيته، شذرات غبار كأنها ومضات كهربائية: تضيء وتخبو، تضيء وتخبو في كل مكان، لقد استولت عليه المخدرات وتملّكته وصارت لها الآن اليد العليا، كانت تلك المواد الكيميائية (نقية، معدنية، واضحة) تتبخّر وتتبعث إلى سطح وعيه وتؤدي مهام التفكير والكلام بل حتى الرؤية.

قال في نفسه: لهذا السبب أفكر مثل الكيميائي! أعجب بهذا الافتراض الواضح.

كان جالسًا تحت شلال الشرارات المتساقطة حوله كتساقط الثلج في لحظة الإلهام الغريبة تلك، عندما انتبه فزعًا إلى أن فاريش يكلمه، في الواقع أنه كان يكلمه منذ بعض الوقت.

قال له مرتعداً وهو يشعر بالذنب: «ماذا؟»

«كنت أقول: هل تعلم ما يشير إليه حرف D في كلمة رادار Radar؟» مع أن فاريش كان يبتسم، فقد كان وجهه حجرياً محمراً محتقناً بالدم.

اعتدل داني في جلسته مذهولاً من هذا التحدي الغريب ومن الرعب الذي نخر فيه عميقاً، لفّ جسده بحركة متشنجة ليبحث في جيبه عن سيجارة يعلم جيداً أنه لا يملكها.

«إنها من كلمة Detecting. Radio Detecting And Ranging.» فكّ فاريش جزءاً مجوّفاً من فتّاحة اللعب التي يعمل عليها، ورفعها أمام عينيه، ثم نظر من خلاله قبل أن يرميه بعيداً... «هذا واحد من أكثر وسائل المراقبة المتوفرة تطوراً... جهاز موجود في كل سيارة شرطة. يقولون لك جميعاً إن الشرطة تستخدمه لتوقع بمن يسرعون.»

كان داني يفكر... رادار! ما الذي يعنيه فاريش بهذا؟ «كان الرادار اختراعاً ظهر خلال الحرب، اختراعاً سرياً، وكانت له غايات عسكرية. والآن يستخدمه كل مركز شرطة في البلاد من أجل مراقبة تحركات المواطنين الأمريكيين وقت السلم. تلك النفقات كلها! ذلك التدريب كله! أتقول لي إن هذا كله من أجل معرفة من يتجاوز حدود السرعة بخمسة أميال؟» أطلق فاريش ضحكة ساخرة «كلام فارغ!»

هل هذا من صنع خياله، أم أن فاريش ينظر إليه نظرة شديدة التدقيق؟ إنه يعبث بي! يريد أن يرى ما سأقوله. فكر داني في هذا، لكن المشكلة الكبيرة كانت هي أنه يريد أن يخبر فاريش

عن الفتاة، ولكنه لا يريد الاعتراف بأنه ذهب إلى الخزان، فبأي سبب يفسر ذهابه إلى الخزان؟ لكن إغراء التطرق إلى ذكر الفتاة كان شديداً على الرغم من إدراكه أنه لا ينبغي له التكلم في هذا الأمر، فمهما كان حذراً في كلامه ستثور شكوك فاريش نحوه. لا. عليه أن يبقى فمه مطبقاً! من الممكن أن يكون فاريش على علم أنه يخطط لسرقة المخدرات، وربما تكون لفاريش علاقة بوجود الفتاة هناك (لم يكن داني قادراً على فهم هذا الأمر.. لكن ربما).

فرد فاريش أصابعه، وقال: «تلك الموجات القصيرة تترد منعكسة فتحدد موقعك الدقيق، والغاية هي توفير المعلومات». شعر داني بموجة حمى صامتة، وقال في نفسه: إنه اختبار! هذه هي طريقة فاريش، خلال الأيام القليلة الماضية كان يترك في المختبر كميات كبيرة من المال والمخدرات دون رقابة، وبالتأكيد لم يمد داني يده إليها، ولكن من المحتمل أن تكون هذه الأحداث الأخيرة جزءاً من اختبار أشد تعقيداً. هل يعقل أن تكون تلك الفتاة قد جاءت مصادفة إلى باب «مقر الإرسالية» في الليلة نفسها التي أصر فاريش فيها على الذهاب إلى ذلك المكان، في الليلة نفسها التي تحررت فيها الأفاعي؟ ولكن فاريش لم ينتبه إليها فعلاً، أليس كذلك؟

قال فاريش وهو يستشق عبر منخرينه نفساً ثقيلاً في حين كانت بضعة قطع ميكانيكية من فتاحة العلب تتساقط على الأرض: «الفكرة أنهم إذا كانوا يطلقون علينا تلك الأمواج كلها فلا بد أن يكون هناك شخص من الناحية الأخرى. أليس هذا

صحيحًا؟» كانت ملتصقة بطرف شاربه (الذي كان رطبًا) قطعة من الأمفيتامين بحجم حبة البازلاء، أكمل: «كل هذه المعلومات لا قيمة لها إن لم يكن هناك من يتلقاها.. شخص متعلم مدرب، أليس هذا صحيحًا؟ ألسنت محقًا؟»

قال داني بعد صمت قصير: «صحيح». بذل جهدًا ليقول تلك الكلمة بنبرة ملائمة، ولكنها جاءت باردة قليلًا. ماذا يريد فاريش؟ ماذا يريد من هذا الكلام كله عن التجسس وعن المراقبة؟ إلا إذا كان يستخدمه لإخفاء شكوكه الحقيقية.

وفي موجة ذعر مفاجئ قال داني في نفسه: لكنه لا يعلم شيئًا. لا يمكن أن يعلم..! فاريش لا يستطيع حتى أن يقود سيارة. طقطع فاريش برقبتة وقال بنبرة خبيثة: «عجبًا! أنت تعلم هذا».

نظر داني حوله، وقال: «ماذا؟». حُيِّل إليه لحظة أنه تكلم بصوت مسموع دون أن يقصد ذلك، ولكن فاريش بدأ يسير في دائرة صغيرة، وعيناه ثابتتان على الأرض قبل أن يستطيع داني أن يدافع عن نفسه.

قال فاريش: «هذا ليس أمرًا يعرفه الشعب الأمريكي عامة.. أعني التطبيقات العسكرية لهذه الأمواج، وسوف أقول لك أكثر من ذلك، البنثاغون نفسه لا يعلم حقيقة هذه الأمواج. أوه، هم قادرون على توليدها وعلى تعقبها...». أطلق ضحكة صغيرة حادة، وتابع: «لكنهم لا يعلمون طبيعتها أو ممّ تتكون».

لا بد لي من إنهاء هذا الهراء! (أزعجته كثيرًا ذبابة تطن عند أذنه طنينًا متواصلًا مثل تسجيل صوتي يتكرر إلى الأبد في

أحد كوابيسه). قال في نفسه: كل ما عليّ فعله هو أن أكون أكثر انتباهًا، أن أكف عن تعاطي المخدرات، وأن أنام يومًا أو يومين. أستطيع أن آخذ تلك الحقيقة وأغادر البلدة فيما هو لا يزال جالسًا على الأرض هنا يثرثر عن الأمواج اللا سلكية ويواصل تخريب محامص الخبز بمفكه...

قال فاريش: «الإلكترونيات تؤذي الدماغ». نظر إلى داني ممعًا كأنه يشك في أن داني يخالفه الرأي في هذا الأمر.

شعر داني أنه على وشك الإغماء، لقد فات وقت الجرعة التي يتناولها كل ساعة، وعمًا قريب (دون تلك الجرعة) سيجد نفسه في حالة انهيار، يخفق قلبه مرهقًا، وينخفض ضغط دمه انخفاضًا شديدًا، ويصير شبه مجنون لخشيته أن يتوقف قلبه تمامًا؛ فالنوم لا يعود نومًا عندما تفقده تمامًا؛ بل يصبح مثل شيء لا يمكن مقاومته، يكتسحك في النهاية ويسحقك بلا وعي، كجدار أسود شاهق يشبه الموت أكثر من كونه راحة.

وكان فاريش يقول: «فما هي الأمواج اللا سلكية؟»

هذه ليست أول مرة يقص فيها فاريش هذه الحكاية على داني: «إلكترونيات».

«تمامًا! إلكترونيات لا تفهم شيئًا!» انحنى فاريش، وبحركة هستيرية فيها شيء يذكّر بشارلز مانسون⁽¹⁾، نقر على جبهته بقوة مفاجئة: «إلكترونيات! إلكترونيات!»

(1) تشارلز مانسون (Charles Manson) كان مجرمًا أمريكيًا وزعيم طائفة صغيرة عُرفت باسم "عائلة مانسون"، اشتهرت بتنفيذ سلسلة من الجرائم المروعة في أواخر الستينيات.

لمع المفك الذي في يده!

رأى داني المشهد كأنه يُعرض على شاشة سينما ضخمة كريح تهب من مستقبله، رأى نفسه مستلقياً على سريرهِ الصغير المبتل بالعرق، عاجزاً وضعيفاً لدرجة أنه لا يستطيع الحراك، كانت الساعة تدق، والستائر تتمايل، ثم سمع صرير باب المقطورة يفتح ببطء شديد، وفاريش يقترب بهدوء من سريرهِ، وهو يمسك بسكين كبيرة في قبضته.

صاح: «لا!» وفتح عينيه فرأى عين فاريش السليمة تنظر إليه كأنها مثقب كهربائي.

حذق كل منهما إلى الآخر لحظة طويلة غريبة، ثم صاح فاريش به: «انظر إلى يدك! ماذا فعلت بها؟»

رفع داني يديه اللتين حائراً مرتجفاً، ثم رأت عيناه الدم على إبهامه حيث كان يعبث بالجلد الميت عند ظفره.

قال فاريش: «من الأفضل أن تتبته لنفسك، يا أخي!»

في الصباح جاءت إيدي إلى بيت هاربيت لتأخذ تشارلوت (كانت متأنقة في ملابس زرقاء اللون) حتى تخرجها لتناول الفطور قبل اجتماع إيدي مع المحاسب عند الساعة العاشرة. كانت قد اتصلت بها قبل ثلاثة أيام لترتيب هذا الموعد، وكانت هاربيت قد استمعت إلى الجزء الأول من حديثهما (بعد أن ردت على الهاتف، ونادت أمها كي تتكلم مع جدتها) قبل أن تضع سماعة الهاتف الذي في الممر. سمعت إيدي تقول لأمها إن هناك أمراً شخصياً ينبغي أن تتكلما فيه، وإنه أمر مهم، وإنها لا تريد مناقشته عبر الهاتف.

والآن تقف إيدي في الممر رافضة أن تجلس، تنظر إلى ساعتها تارة وإلى السلم تارة.

قالت وهي تعقد ذراعيها على صدرها من جديد، وتطلق أصواتاً صغيرة تدل على نفاد صبرها: «تس تس تس.. لن نصل إلا بعد أن يكون وقت تقديم الإفطار قد انتهى». كانت وجنتاها شاحبتين لكثرة ما عليهما من بودرة، وشفثاها (مرسومتين بحدة على هيئة قوس كيوييد بلون أحمر شمعي تضعه إيدي عادةً عندما تذهب إلى الكنيسة) كانتا أشبه بشفتي سيور ديبرفيل في كتاب «تاريخ الميسيسيبي» منهما بشفتي سيدة. كان زيها المشدود عند الخصر والمزود بأكمام تصل إلى ثلاثة أرباع الذراع يظهرها بمظهر شديد الصرامة، ولكنه أنيق أيضاً بتصميمه القديم، وهو الزي الذي قالت عنه ليبي إنه يجعل إيدي تبدو مثل السيدة سيمبسون التي تزوجت ملك إنجلترا.

كانت هاريت مستلقية على الدرجة العليا من السلم تنظر إلى السجادة متجهمة، رفعت رأسها وقالت: «لكن، لماذا لا أستطيع الذهاب معكما؟»

قالت إيدي: «هذه المرة، أنا وأمك لدينا أمر ينبغي أن نتكلم فيه»، لم تنظر إلى هاريت بل إلى مكان فوق رأسها. «سأظل صامته».

تحولت عينا إيدي الباردتان الغاضبتان إلى هاريت. كانت نظرتها باردة، وقالت لها: «إنه حديث خاص. بالإضافة إلى أنك لا تستطيعين الذهاب لأنك غير جاهزة للخروج، لماذا لا تصعدين إلى الطابق العلوي وتأخذين حماماً؟»

«إذا فعلت هذا، فهل تجلبان لي معكما حلوى؟»

قالت تشارلوت وهي تنزل السلم مرتدية فستاناً غير مكوي، وشعرها لا يزال رطباً بعد الحمام: «أوه، أمي... آسفة جداً. أنا...». قالت إيدي: «أوه! لا مشكلة!»، لكن نبرة صوتها كانت واضحة أنها منزعجة.

خرجتا معاً، فيما وقفت هاربيت متجهة خلف ستائر الأورغاندي المغبرة تراقبهما وهما تتطلقان بالسيارة. كانت أليسون نائمة لا تزال في الأعلى، عادت إلى البيت في ساعة متأخرة من الليلة الماضية، وكان البيت هادئاً كله كأنه غواصة باستثناء دقات الساعة وهدير مروحة التهوية وهمهمات سخان الماء.

كانت على طاولة المطبخ علبة معدنية فيها بسكويت مالح، اشترت قبل رحيل آيدا وقبل موت ليبي. تكوّرت هاربيت على نفسها على كرسي آيدا وأكلت بضع بسكويتات، لا تزال رائحة آيدا في الكرسي، إن أغمضت عينيها واستشقت نفساً عميقاً، تستطيع أن تشم رائحة آيدا باقية في الكرسي، ولكنها كانت رائحة مخادعة تختفي عندما تحاول التقاطها.

هذا أول صباح لا تبكي فيه عند استيقاظها (أو ترغب في البكاء) منذ ذلك الصباح الذي غادرت فيه مخيم دي سيلبي، ولكنها كانت قلقة لا تستطيع الثبات في مكان واحد على الرغم من صفاء رأسها وجفاف عينيها، فالبيت كله ساكن كأنه في انتظار أمر سوف يحدث.

أكلت هاربيت ما تبقى من البسكويت، ونفضت يديها، ثم وقفت على كرسي، وشبّت على أطراف أصابعها لتتفحص المسدسات في الرف العلوي من خزانة الأسلحة، اختارت أكبر مسدس وأشدها قبْحًا من ضمن مسدسات المقامرین الغريبة (مسدسات درينكرز ذات المقابض المرصعة والفوهات المزدوجة) مسدس كولت الثنائي الذي كان يشبه المسدسات التي ترى رجال الشرطة يستخدمونها (في التلفاز).

قفزت إلى الأرض وأقفلت الخزانة، وضعت المسدس على السجادة بيديها الاثنتين بكل انتباه (كان أثقل وزناً مما يوحى به مظهره)، ثم ركضت إلى المكتبة التي في غرفة الطعام كي تأتي بالموسوعة البريطانية.

مسدسات. انظر: الأسلحة النارية.

حملت المجلد المعني، وذهبت به إلى غرفة المعيشة، استخدمت المسدس لإبقائه مفتوحًا، وجلست على السجادة متربعة. كانت عيناها تجولان بين النص والمخطط البياني، ولكن المصطلحات الفنية أربكتها، بعد نصف ساعة عادت إلى المكتبة لتأتي بالقاموس؛ ولكنه م يكن ذا فائدة كبيرة أيضًا.

عادت إلى المخطط البياني مرة أخرى، وانحنى فوقه مستتدة إلى يديها وركبتيها: واقي الزناد⁽¹⁾، الأسطوانة القابلة للدوران⁽²⁾،

(1) الجزء المعدني الذي يحيط بالزناد لحمايته من الضغط غير المقصود. وظيفته الأساسية هي منع إطلاق النار المرضي.

(2) هي جزء من المسدس الذي يحتوي على الخراطيش. يمكن أن تدور أو تفتح للخارج لتحميل الخراطيش أو تفريغها.

لكن في أي اتجاه تدور؟ المسدس الذي في الصورة غير مطابق للمسدس الذي معها: قفل الحامل⁽¹⁾، مجموعة حامل الأسطوانة⁽²⁾، قضيب اللافظ⁽³⁾.

وفجأة سمعت تكة خفيفة، انفصلت الأسطوانة القابلة للدوران: فارغة. لم تناسب الطلقات الأولى التي جرّبتها ثقوب المسدس، جرّبت نوعاً ثانياً فلم يكن مناسباً، ولكنها رأت في اللعبة بضع طلقات يبدو أنها مناسبة.

سمعت صوت فتح باب البيت قبل أن يتسع لها الوقت لبدء حشو المسدس. تدخل أمها البيت. بحركة سريعة واحدة دفعت بكل شيء تحت كرسي آيدا: المسدس والطلقات والموسوعة، ثم نهضت واقفة.

نادت أمها: «هل جلبت لي حلوى؟»

لم تسمع إجابة، انتظرت هاربيت متوترة تنظر إلى السجادة مصغية إلى صوت خطوات أمها على السلم، وفاجأها سماع شهقات متقطعة كأن أمها تختنق أو تبكي.

وقفت هاربيت في مكانها، حاجباها منعقدان، ويدها على وركيها، ظلت مصغية وعندما لم تسمع شيئاً آخر اقتربت بخطوات حذرة، واسترقت نظرة إلى الممر في اللحظة المناسبة لتسمع باب غرفة أمها يُفتح ثم يُغلق.

(1) المزلاج الذي يُثبت الأسطوانة القابلة للدوران في مكانها، عند تحريره، يمكن فتح الأسطوانة.

(2) الجزء الذي يسمح للأسطوانة بالدوران أو الفتح للخارج. يعمل كمفصل يدعم الأسطوانة.

(3) القضيب المستخدم لطرد الخراطيش الفارغة من الأسطوانة بعد إطلاق النار.

بدا لها أن زمنًا طويلًا قد مضى، نظرت إلى زاوية مجلد الموسوعة التي كانت بارزة قليلاً تحت غطاء كرسي آيدا. ومع استمرار دقات الساعة في الممر دون أي حركة أخرى، انحنى وسحبت الموسوعة من مكانها، واستلقت على بطنها مسندة ذقنها إلى يديها، وقرأت مقال «الأسلحة النارية» من البداية إلى النهاية مرة أخرى.

مرت الدقائق الدقيقة تلو الأخرى. تمددت هاربيت على بطنها، ورفعت غطاء الكرسي ناظرة إلى المسدس ذي اللون الداكن، وإلى علبة الطلقات إلى جواره، شجعها الصمت فمدت يدها تحت الكرسي، وأخرجت المسدس والعلبة. كان ذهنها شديد الانشغال، فلم تسمع خطوات أمها نازلة السلم إلى أن قالت لها من الممر من مسافة قريبة جداً: «حبيبتي!»، قفزت هاربيت، وتدحرجت بضع طلقات من العلبة، التقطت هاربيت الطلقات بيد مرتجفة ووضعتها في جيوبها.

«أين أنت؟»

بالكاد كان لدى هاربيت ما يكفي من الوقت لتدفع كل شيء تحت الكرسي مرة أخرى وتنهض قبل أن تظهر والدتها عند الباب. كانت البودرة قد زالت عن وجهها، أنفها محمر وعيناها دامعتان، فوجئت هاربيت لرؤيتها حاملة بدلة الغراب الصغيرة التي كانت لرويين... كم بدت تلك البدلة سوداء، وكم بدت صغيرة وهي تتدلى من علاقتها المغلفة بالساتان كأنها ظل بيتر بان

الذي حاول إلصاقه عليه بالصابون⁽¹⁾.

بدت والدتها كأنها على وشك قول شيء لكنها تراجعته عن ذلك، نظرت إلى هاربيت مستغربة وسألتها: «ماذا تفعلين؟»
حدقت هاربيت إلى البدلة الصغيرة خائفة، وقالت: «لماذا...»، لكنها لم تستطع إنهاء سؤالها، أومأت برأسها في صمت فقط.
نظرت والددة هاربيت إلى البدلة مذهولة كأنها نسيت ما تحمله بيدها، وقالت: «أوه...»، ثم مسحت طرف عينيها بمنديلها، وتابعت: «توم فرنش سأل إيدي إن كان ابنه يستطيع استعارتها. ستكون مباراة الكرة الأولى مع فريق اسمه «الغريان» أو شيء من هذا القبيل. رأت زوجة توم أنه سيكون أمرًا لطيفًا إذا ارتدى أحد الأطفال ملابس تجعله شبيهًا بالغراب، وراح يجري مع المشجعات».

«إن كنت لا تريدين إعارتهم إياها، فعليك أن تقولي لهم إنهم لا يستطيعون أخذها». ظهرت على وجه والدتها علامات الدهشة، ومرت لحظة غريبة طويلة وكل واحدة منهما تحقق إلى الأخرى. تتحننت أمها وقالت: «في أي يوم تحبين الذهاب إلى ممفيس لشراء ملابس المدرسة؟»

مكتبة

t.me/soramnqraa

«من سيضبطها على مقاسي؟»

«عفوا؟»

«كانت آيدا هي التي تُقَصِّر لي ملابس المدرسة».

(1) مشهد شهير في قصة "بيتر بان" التي كتبها جيمس ماتيو باري، يفقد بيتر بان ظله وعندما يحاول إعادة لصقه، يستخدم الصابون ولكن محاولته تفشل.

همت أمها بأن تقول شيئاً، ثم هزت رأسها كأنها تطرد عنه فكرة مزعجة: «متى ستسسين أمر آيدا؟»

حدقت هارييت إلى السجادة، وقالت في سرّها: لن أنساها أبداً.

«حبيبتي، أعلم أنك أحببت آيدا... ربما لم أدرك كم أحببتها..» صمت.

«لكن.. يا حبيبتي، آيدا كانت راغبة في الرحيل..»
«لو طلبت منها البقاء لبقيت».

سعلت أمها سعلة صغيرة، وقالت: «حبيبتي، أنا حزينة لذلك بقدر ما أنت حزينة، ولكن آيدا لم تكن ترغب في البقاء، كان والدك يتدمر باستمرار منها ومن قلة ما تؤديه من عمل، وكنت أتشاجر معه على الهاتف من أجل هذا الأمر دائماً، ألا تعلمين هذا؟»

رفعت رأسها ناظرة إلى السقف، وتابعت: «كان رأيه أنها لا تؤدي عملاً يتناسب مع المال الذي...»
«لم تكوني تدفعين لها شيئاً».

«هارييت، أظن أن آيدا لم تكن سعيدة هنا منذ وقت طويل، ستال راتباً أفضل في مكان آخر، أنا لم أعد في حاجة إليها. كنت محتاجة إليها عندما كنتما صغيرتين، أنت وأليسون...» استمعت هارييت إليها في صمت دون أن تبدي أي ردة فعل كأنها حجر.

«ظلت آيدا عندنا سنوات كثيرة جداً، كنت أقول لنفسي إنني غير قادرة على الاستغناء عنها، ولكن.. نحن بخير، أليس كذلك؟»

عضت هارييت شفتها السفلى، وظلت تنظر إلى زاوية الغرفة بحركة عنيدة، كانت الفوضى في كل مكان: أقلام متناثرة على الطاولة في الزاوية ومغلقات وأطباق صغيرة ومناديل ومنفضة سجائر ممتلئة جائمة فوق أكوام من المجلات.

نظرت والدتها حولها بياس وقالت: «ألستا بخير؟ ألستا بخير حتى الآن؟ آيدا.. كانت آيدا فضة معي، ألم تلاحظي ذلك؟»

طال الصمت بينهما، وخلال هذا الصمت رأت هارييت بطرف عينها تحت الطاولة طلقة نسيت رفعها عن السجادة.

«لا تخطئي فهمي! عندما كنتما صغيرتين لم أكن لأستطيع الاستغناء عن آيدا. ساعدتني آيدا كثيرًا، كانت عونًا لي في كل شيء لا سيّما في..» تنهدت وتابعت: «وأما في السنوات الأخيرة لم تكن راضية عن أي شيء كان يحدث هنا، أظنها كانت لطيفة معكما، ولكنها صارت تمقتني، تقف عاقدة ذراعيها وتُقيمني..»

ظلت هارييت محدقة إلى الطلقة تحت الطاولة، انتابها الآن قدر من الضجر، كانت تصغي إلى صوت أمها دون أن تسمعه فعليًا. تابعت النظر إلى الأرض، وسرعان ما غرقت في حلم يقظة يعجبها، تخيلت نفسها في آلة الزمن تنقل إمدادات عاجلة لمجموعة الكابتن سكوت في القطب، فكل شيء معتمد عليها. قوائم المستلزمات، قوائم المستلزمات.. ولكن ما أخذه معه لم يكن مناسبًا قط، علينا أن نقاوم حتى آخر قطعة خبز! سوف تنقذهم جميعًا، سوف تنقذهم بهذه المؤن التي تجلبها إليهم من المستقبل: قهوة فورية وأقراص فيتامين سي ودفع مُعَلَّب وزبدة الفستق وبنزين من أجل الزلاجات وخضار طازج من الحديقة ومصابيح كاشفة تعمل على البطاريات.

انتهت فجأة أن المكان الذي يأتيها منه صوت أمها تغير، فرفعت رأسها، لتجد أمها واقفة عند الباب، قالت لها: «أظنني غير قادرة على فعل أي شيء بشكل صحيح، أليس كذلك؟» ثم استدارت وخرجت من الغرفة.

لم تكن الساعة قد بلغت العاشرة بعد، ولا تزال غرفة المعيشة ظليلة لطيفة البرودة، وخلفها أعماق الممر التي تثير انقباضاً في النفس، كانت بقايا عطر أمها الذي يشبه رائحة الفاكهة لا يزال معلقاً في الهواء المغبر.

سمعت صوت قرقرة علاقات الملابس في خزانة المعاطف، بقيت هاربيت واقفة مكانها، وبعد بضع دقائق سمعت أمها تتحرك في الممر، فأسرعت هاربيت إلى الطلقة المنسية، ودفعتها بقدمها حتى صارت تحت الأريكة، ثم جلست على حافة كرسي أيدا وانتظرت، أخيراً بعد زمن طويل تشجعت وخرجت إلى الممر فوجدت أمها واقفة عند باب الخزانة المفتوح تعيد طي بعض المفارش التي أنزلتها عن رف مرتفع.

ابتسمت لها أمها كأن لا شيء قد حدث، وتتهدت بطريقة كوميدية، ثم تراجعت خطوة وقالت: «يا إلهي! أفكر أحياناً في أن علينا أن نضع أمتعتنا في السيارة، وننتقل للعيش مع والدك». نظرت إلى هاربيت، وقالت مبتسمة كأنها تقترح عليها أمراً رائعاً: «هممم؟ ما رأيك في هذا؟»

قالت هاربيت في نفسها يائسة: سوف تفعل ما يعجبها، لا أهمية لما أقول.

قالت أمها وهي تعود إلى طي المفارش: «لا أعلم شيئاً عن رأيك، لكني أظن أن الوقت قد حان لنُصبحَ عائلةً حقيقية».

قالت هارييت بعد تردد: «لماذا؟». أثارت صياغة والدتها للكلام رغبةً في نفسها، فكثيراً ما كان والدها يسبقُ أوامره التعسفية بعبارة: «يجب أن نبدأ في التصرف كعائلة واحدة».

قالت أمها بصوت شاردة: «حسنًا، الأمرُ فوق طاقتي.. تربية فتاتينٍ وحدي».

صعدت هارييت إلى الطابق العلوي، وجلست على حافة النافذة تنظر إلى الشارع، كانت الشوارع خاويةً تحت لهيب الشمس، والغيوم تعبر السماء طيلة النهار. وفي الرابعة عصرًا مشت إلى بيت إيدي، وجلست على درجات المدخل مسندة ذقنها إلى يديها، وانتظرت إلى أن ظهرت سيارة إيدي من خلف المنعطف عند الساعة الخامسة.

ركضت هارييت لاستقبالها، نقرت إيدي على زجاج النافذة وابتسمت، بدت بدلتها الزرقاء أقل أناقة بعد أن تجعدت بسبب الحر، وعندما نزلت من السيارة كانت حركاتها متيبسة وبطيئة، سارت هارييت معها في الممر، وصعدت الدرجات معها إلى الشرفة وهي تشرح لها لاهثة أن والدتها تفكرُ في الانتقال إلى ناشفيل، لكنها صُغقت حين هزّت إيدي رأسها بتهيدةٍ طويلة وقالت: «حسنًا، ربما ليست فكرة سيئة».

انتظرت هارييت أن تتابع كلامها.

«إن أردت والدتك أن تظلّ متزوجة، فعليها أن تبذلَ بعض الجهد». وقفت إيدي لحظةً ثم أدارت المفتاح في القفل وتابعت: «لا يمكن أن تستمر الأمور هكذا».

قالت هارييت بصوت شبه بالك: «لكن، لماذا؟»
توقفت إيدي وأغمضت عينيها كأن صداً أصابها: «إنه والدك، يا هارييت».

«ولكني لا أحبه».

قالت إيدي بنبرة حادة: «وأنا أيضاً لا أعجبني. ولكن إن أراد البقاء زوجين، فمن المنطقي أن يعيشا في ولاية واحدة، ألا تظنين ذلك؟»

قالت هارييت بعد صمت قصير مذعور: «بابا لا يهتم، يعجبه الوضع مثلما هو الآن».

نشقت إيدي بأنفها: «نعم.. أظن هذا صحيحاً».

«ألن تشاقي إلي إذا انتقلنا؟»

قالت إيدي كأنها تذكر حقيقة بهيجة، ولكنها غير معروفة كثيراً: «أحياناً، لا تسير الحياة كما نحب، عندما تبدأ المدرسة...».

قالت هارييت في نفسها: أين؟ هنا، أم في تينيسي؟

«... عليك أن تركز على دراستك، هذا سيُلهيك عن كل شيء».

تبادرت فكرة إلى ذهن هارييت، وهي تنظر إلى يدي إيدي: سوف تموت عما قريب! كانت يداها متورمتين عند المفاصل، مغطاتين ببقع بنية كالشوكولاتة مثل بيض بعض الطيور، كانت يدا ليبي أصفر حجماً وأشدّ بياضاً (مع أنهما تشبهان يدي إيدي)؛ وتظهر عليهما عروق زرقاء.

رفعت رأسها، ففاجأتها عينا إيدي الباردتان المتأملتان اللتان ترقبانها من كُتب.

قالت: «ما كان عليك أن تتركى دروس البيانو».

«تلك كانت أليسون! أنا لم تكن عندي دروس بيانو». يُفاجئ هاربيت دائماً ويهولها أن تخلط إيدي بينها وبين أليسون. «لا بأس! ينبغي أن تبدئي، مشكلتك أنك لا تفعلين ما يكفي يا هاربيت، عندما كنت في سنك كنت أركب الخيل وأعزف الكمان، وكنت أخيط ملابسك كلها، إذا تعلمت الخياطة الآن، فقد يصير لديك اهتمام أكبر بمظهرك».

قالت هاربيت فجأة: «ألا تأخذيني لرؤية بيت تريبيوليشن؟» فوجئت إيدي بهذا، فقالت: «لا شيء هناك لترينه».

«لكن أأنا تأخذيني إلى ذلك المكان، من فضلك؟ أين هو؟»

لم تجبها إيدي، كانت تنظر خلف هاربيت بوجه خالٍ من التعبير. هدرت سيارة مسرعة في الخارج، فالتفتت هاربيت خلفها لترى وميضاً معدنياً يختفي عند المنعطف.

قالت إيدي: «ليس بيتاً»، ثم عطست ونطقت «الحمد لله!». رمشت عيناها، وأخذت تبحث في حقيبة يدها عن منديل، ثم أضافت: «لا! لم يعد في تريبيوليشن ما تستطيعين رؤيته، الرجل الذي يملك المكان الآن مربي دجاج، قد يرفض حتى السماح لنا برؤية المكان الذي كان فيه المنزل».

«لم لا؟»

«لأنه وغد بدين، صار كل شيء هناك خطأً». ربتت على ظهر هاربيت، ولكن ذهنها كان شاردًا، وتابعت: «والآن، اذهبي إلى البيت ودعي إيدي تتخلص من هذا الحذاء ذي الكعب العالي». «إذا انتقلوا إلى ناشفيل، فهل أستطيع البقاء هنا، والعيش

معك؟»

فوجئت إيدي، فقالت بعد لحظة صمت قصيرة: «لماذا يا هارييت؟ ألا تحبين أن تكوني مع أمك وأليسون؟» أجابت هارييت وهي تنظر إليها نظرة ممعنة: «لا». ولكن إيدي اكتفت بأن ترفع حاجبيها كأنها رأت في الأمر نكتة، ثم قالت لها بأسلوبها المرح الذي يثير الغضب: «أوه، أتوقع أن تغيري رأيك في هذا الشأن بعد أسبوع أو أسبوعين». امتلأت عينا هارييت دموعاً، وصاحت: «لا!» صمتت لحظة، كانت متجهمة وغير راضية، وقالت: «لماذا تقولون هذا دائماً؟ أعلم ما أريد، ولن أغير...».

قالت إيدي: «سنعبر ذلك الجسر عندما نصل إليه، أليس كذلك؟ قرأت منذ أيام شيئاً كتبه توماس جيفرسون إلى جون آدمز عندما كان عجوزاً. قال له إن معظم الأشياء التي أقلقته حياته لم تحدث قط، كم من الألم سببته لنا مخاوف لم تتحقق. أو... شيء من هذا القبيل». نظرت في ساعة يدها، وتابعت: «إن كان هذا الكلام يريحك، فأنا أظن أن أمك لن تترك بيتها بسهولة، ولكن هذا رأيي، والآن عودي إلى المنزل!» كانت هارييت واقفة تنظر إليها نظرة وعيد بعينين محمرتين.

ما إن دار بالسيارة حول المنعطف حتى أوقف داني السيارة أمام الكنيسة المشيخية. قال فاريش وهو يتنفس بصعوبة عبر أنفه: «يا إلهي العظيم! أهذه هي؟»

أوماً داني برأسه، كان أثر المخدرات شديداً عليه، فلم يستطع الكلام. كان يسمع أصواتاً صغيرةً مرعبة في رأسه: أشجارٌ تتنفس، طنين أسلاك، أعشابٌ تتصدعٌ وهي تنمو.

التفت فاريش في مقعده لينظر من خلال زجاج السيارة الخلفي: «اللجنة! قلت لك أن تبحث عن تلك الفتاة، أقول لي إن هذه أول مرة تراها؟»

قال داني بنبرة حادة: «أجل». كان مذعورًا من ظهور الفتاة المفاجئ في مرمى بصره مثلما فعلت عند خزان المياه (لكنه لم يستطع إخبار فاريش عن الخزان؛ لم يكن مُفترضًا أن يكون هناك). والآن في تجوالهما العشوائي دون هدف (قال له فاريش: غير مسارك، غير أوقات مرورك، انظر في المرآة دائمًا) انعطف عند الزاوية، فمن رأى؟ من غير تلك الفتاة؟ كانت واقفة على شرفة أحد البيوت.

أصداء متداخلة، أنفاسٌ وومضاتٌ وحركات، آلاف المرايا تتلألأ بين أغصان الأشجار، من كانت العجوز؟ عندما تباطأت السيارة التقتَ عينها عيني داني في ومضةٍ من الحيرة والفضول، كانت عينها تشبهان تمامًا عيني الفتاة... خلال نبضة واحدة من نبضات قلبه، اختفى كل شيء.

ضرب فاريش لوحة العدادات بيده وقال: «انطلق!»

حين وصلا إلى المنعطف، اضطر داني إلى إيقاف السيارة؛ فقد غمرته موجة نشوة عالية، وشعرَ بحدوث شيء غريب، كأنه يشعر باتصال غريب مكثف مع فاريش (سلا لم كهربائية تصعد وتصعد، وأضواء الديسكو تدور في كل طابق). شعر كلاهما بذلك، ولم يحتاجا حتى إلى التحدث، لم يستطع داني حتى النظر إلى فاريش لأنهما تذكرتا بوضوح نفس الشيء الغريب الذي حدث نحو الساعة السادسة في ذلك الصباح: سار فاريش (بعد سهره

طيلة الليل) في غرفة المعيشة بسريره الداخلي حاملاً بيده علبة حليب، وفي اللحظة نفسها ظهرت على شاشة التلفاز شخصية كرتونية ملتحية مرتدية سروالاً داخلياً وفي يدها علبة حليب، عبرت الشاشة، توقف فاريش فتوقفت تلك الشخصية.

سأله فاريش: هل ترى هذا؟

أجابه داني: أجل!

بدأ يتعرق، تلاقت عيناه بعيني فاريش في لحظة خاطفة، وعندما نظرا إلى شاشة التلفاز من جديد، كانت الصورة قد تغيرت. كانا جالسين معاً في السيارة الحارة، وضربات قلوبهما تكاد تكون مسموعة.

قال فاريش فجأة: «هل لاحظت أن جميع السيارات التي رأيناها في طريقنا سوداء اللون؟»
«ماذا؟»

«إنهم ينقلون شيئاً، فلتحل عليّ اللعنة إن كنت أعلم ما هو!»
لم يقل داني شيئاً، كان جزء منه مدركاً أن هذا الكلام فارغ وأنه أحد هلوسات فاريش الفصامي، ولكن جزءاً آخر منه أدرك أنه يعني شيئاً. خلال الليلة الماضية رن الهاتف ثلاث مرات بفاصل ساعة بالضبط بين كل مرة وأخرى، يتصل أحدهم وينهي المكالمة دون أن يتكلم، وبعد ذلك وجد فاريش على إطار نافذة المختبر رصاصة بندقية فارغة، ما معنى هذا؟

والآن يحدث هذا الأمر: إنها الفتاة من جديد... الفتاة. كان مرج الكنيسة النَّضِر المروي لامعاً بلون أخضر مزرق في ظلال

أشجار الزينة: ممرات مبلطة متعرجة، وشجيرات مقلمة، وكل شيء أنيق لامع كألعاب الأطفال.

قال فاريش: «ما لا أستطيع فهمه هو من تكون هذه الفتاة». كان يبحث في جيبه عن الميثامفيتامين... «كان عليك ألا تتركها تذهب».

«يوجين هو الذي تركها تذهب، لا أنا». عض داني باطن خده، لا... إنها ليست مخيلته: كانت الطفلة قد اختفت عن وجه الأرض خلال الأسابيع التي أعقبت حادثة غام عندما كان يتجول بالسيارة في البلدة باحثًا عنها. وأما الآن: فكّر فيها، ثم ذكرها، ثم ظهرت. رآها من بعيد: قصة شعرها الأسود الصينية، وتلك العينان الكارهتان.

تناول كل منهما نشقة من المادة المخدرة، فاستقر وضعهما قليلًا.

قال داني وهو ينشق بأنفه: «أحدهم... أحدهم أرسل تلك الفتاة كي تتجسس علينا»، وفي اللحظة نفسها، ندم لقوله هذا. انعقد حاجبا فاريش، وقال مزمرًا وهو يدعك منخريه الرطبين بظاهريده: «أقول لك؟ إن كان أحدهم قد أرسل تلك الفتاة الصغيرة كي تتجسس عليّ، فسوف أشقها إلى نصفين». قال داني: «إنها تعلم شيئًا!». لماذا يقول هذا؟ لأنها نظرت إليه من سيارة دفن الموتى، لأنها تغزو أحلامه، ولأن هاجسها يسكنه، يسكنه ويعبث برأسه: «إذا، أريد أن أعلم ما كانت تفعله عند شقة يوجين، وإن كانت تلك الملعونة الصغيرة هي التي كسرت مصابيح سيارتي...».

أثارت هيئته الميلودرامية شكوك فاريش.

قال فاريش في حين كان داني يحاول أن يكون حذرًا، وأن يتجنب النظر إلى عينيه: «إن كانت هي التي كسرتها، فلماذا تظنها أتت ودقت الباب كي نخبرنا بالأمر؟»
رفع داني كتفيه. كان يدعك تلك البقعة على ساق بنطلونه، وفجأة، صار شديد الانشغال بتلك البقعة، وصار داني مقتنعًا بأن فاريش يعلم عن تلك الفتاة (بل يعلم عن الأمر كله) أكثر مما يفصح عنه.

لا... ليس لهذا أي معنى! مع ذلك، لا بد أن له معنى!
نباح كلاب في البعيد.

قال فاريش فجأة وهو يتأمل في جلسته: «ثمة شخص... ثمة شخص صعد إلى الشقة، وأطلق تلك الأفاعي على يوجين، النوافذ مغلقة كلها عدا نافذة واحدة في الحمام، ولا يمكن أن يمر عبر تلك النافذة أحد إلا إذا كان طفلًا».

قال داني: «سأتحدث إليك». سأسألها أسئلة كثيرة من ضمنها:
لماذا لم أرك من قبل في حياتي كلها؟ ولماذا أراك الآن في كل مكان؟ لماذا تقترين من نوافذي في الليل مثل فراشة الموت؟
لم ينم منذ زمن بعيد جدًا؛ وعندما يغمض عينيه يصير في مكان فيه أعشاب وبحيرات داكنة وزوارق محطمة عائمة على صفحة مياه قذرة، وها هي ذي هناك بوجهها الأبيض كالعث، وشعرها الأسود كالغريبان، تهمس بشيء في العتمة الرطبة، عتمة الجنادب المغنية... شيء يكاد يستطيع فهمه، لكنه لا...
قال: لا أستطيع سماعك.

«لا تستطيع سماع ماذا؟»

صدمة: لوحة العدادات سوداء، وشجرات التوب الزرقاء أمام الكنيسة، وفاريس ينظر إليه من مقعده. كرر السؤال: «لا تستطيع سماع ماذا؟»

رمشت عينا داني. مسح جبهته، وقال: «انس الأمر!» كان يتعرق.

قال فاريس مبتهجا: «في فيتام، كانت فتيات الهندسة الصغيرات قويات جدا. يركضن حاملات قنابل يدوية حقيقية. بالنسبة إليهن، كان ذلك كله لعبة، وفي وسعك أن تجعل طفلاً يفعل أموراً لا يمكن أن يقدم عليها رجل إلا إذا كان مجنوناً». قال داني: «صحيح. كانت هذه واحدة من النظريات التي يحبها فاريس، ففي طفولة داني، كان فاريس يستخدم هذه النظرية لتبرير جعله كلاً من داني ويوجين ومايك وريكي لي يؤدون العمل القذر بدلاً منه... يجعلهم يتسلقون النوافذ في حين يظل جالساً في السيارة يأكل فطائر بالعسل وينتشي بالمخدرات.

«وإذا ألقوا القبض على طفل... فماذا؟ إصلاحية الأحداث!» ضحك فاريس... «لقد دربتكم على هذا عندما كنتم صغاراً. بدأ ريكي الزحف خلال النوافذ منذ أن صار قادراً على الوقوف على كتفي، وإذا أتى شرطي...».

قال داني في صحو مفاجئ وقد انتصب في جلسته: «يا إلهي!» رأى الفتاة في المرأة سائرة عند ناصية الشارع... وحدها.

كانت هارييت سائرة على الرصيف، خافضة رأسها، غارقة في تفكير عميق. سارت في اتجاه الكنيسة المشيخية (بيتها الكئيب على مسافة ثلاثة شوارع). انفتح باب سيارة متوقفة أمامها بنحو عشرين قدمًا، وكان انفتاحه مفاجئًا.

إنها سيارة داني. تراجعت حتى قبل أن يسنح لها وقت للتفكير في أي شيء، وركضت داخله فناء الكنيسة الرطب، وواصلت ركضها.

كان الفناء الجانبي للكنيسة متصلًا بحديقة السيدة كليبورن التي تزدان بأجمات من أزهار الكوكبية، ويتوسطها مستنبت زجاجي صغير، يليها فناء بيت إيدي الخلفي الذي يفصله سياج خشبي متين يبلغ ارتفاعه ستة أقدام. اندفعت هارييت راکضة عبر الممر المعتم تحدّها من جهة سياج بيت إيدي، ومن الجهة الأخرى صف من الشجيرات الشائكة الممتدة على طول الفناء المحاذي، وهي شجيرات يصعب اجتيازها. توقفت أمام سياج آخر قطع طريقها، كان سياجًا معدنيًا يعود إلى حديقة السيدة دافنبورت. وفي غمرة ذعرها، تسلقت هارييت السياج، لكن بنطالها علق بأحد الأسلاك في الأعلى. أدارت جسدها بحذر لتفكّ ذلك السلك، ثم قفزت إلى الأرض، وهي تلهث بشدة.

سمعت وقع أقدام خلفها تخطو على أوراق الأشجار المتساقطة التي غطت الممر. لم تجد في فناء السيدة دافنبورت أي مكان تختبئ فيه، فتلفتت حولها يائسة، ثم أسرعَت تجتاز الفناء نحو البوابة. فتحت المزلج واندفعت خارجة إلى الممر أمام البيت. كانت قد قررت العودة إلى بيت إيدي، إلا أن شيئًا استوقفها عندما

بلغت الرصيف: من أين يأتي صوت تلك الخطوات؟ لم تملك سوى ثانية واحدة للتفكير، ثم ركضت نحو بيت عائلة أوبراينت. في منتصف الشارع، وقعت عيناها فجأة على سيارة داني عند الزاوية. يعني هذا أنهما قد تفرقا. أدركت بدهاء أهمية تلك اللحظة، فاندفعت بسرعة أكبر تحت أشجار الصنوبر الشاهقة. كانت أوراق الصنوبر الإبرية متناثرة كأنها بساط طبيعي يغطي فناء أوبراينت المظلل بكثافة. توجهت مباشرة نحو الكوخ الصغير الذي يستخدمه السيد أوبراينت كقاعة لطاولة البلياردو. وضعت يدها على مقبض الباب وحاولت فتحه: مقفل. تقطعت أنفاسها، وحدقت إلى الجدران المغلفة بألواح خشب الصنوبر الصفراء، ورفوف الكتب الخالية إلا من بضعة سجلات مدرسية من أكاديمية ألكساندريا. حدّقت إلى المصباح الزجاجي المكتوب عليه «كوكا كولا». كان متدلياً من سلسلة فوق طاولة داكنة اللون. لم تجد مهرياً داخل الكوخ، فاندفعت راكضة من جديد، وانعطفت يميناً. لكن الطريق كان مسدوداً: سياج آخر. فجأة، سمعت نباح كلب في الفناء المجاور. أدركت أن الشخص الذي بقي في السيارة لن يتمكن من الإمساك بها إذا استمرت في الابتعاد عن الشارع، لكن عليها أن تظل يقظة. كان عليها أن تتجنب الوقوع في فخ يجعلها تُجبر على الخروج إلى الشارع مجدداً.

تسارعت ضربات قلبها واشتدّ ألم رئتيها وهي تلهث بقوة. انعطفت يساراً، وكان خلفها صوت أنفاس لاهثة ووقع خطوات ثقيلة يتردد في أذنيها، فركضت بخطى متعرجة داخل متاهة من النباتات والشجيرات المتشابكة. كانت تعبرها مرة وتعود لتخترقها

من جديد، تلتف بحدة عند الزوايا، وتغير اتجاهها كلما سُدَّ طريق أمامها. مضت عبر حدائق غريبة، وفوق أسيجة، واجتازت مروجاً زُيّنت بأروقة وحجارة زخرفية وأراجيح معلقة وأعمدة لحبال الغسيل ومواقد للشواء. مرت بطفل صغير ذي عيين مستديرتين، كان ينظر إليها وقد انعكس في وجهه الذهول والخوف. فجأة، انكمش الطفل وسقط جالساً داخل مساحة صغيرة مسوّرة حيث كان يلعب. وعلى مقربة أمامها، لفت انتباهها رجل مسنّ ذو ملامح غليظة له وجه كوجه كلب بولدوغ. كان يجلس على شرفة منزله، وما إن رآها حتى انتفض نصف وقوف وصاح بها. لوهلة شعرت هاربيت بانفراجة؛ لقد كان أول شخص بالغ تلتقيه في هذا الهروب المحموم، فأبطأت من سرعتها لتلتقط أنفاسها. ولكن، قبل أن تتطرق بكلمة، صرخ الرجل قائلاً: «اذهبي من هنا!».

كانت كلماته كصفعة لها، أذهلتها فتوقفت للحظة وقد اتسمت عيناها دهشة. حدقت إليه، مأخوذة بنظراته الغاضبة وبقبضته المنتفخة الملوّحة كأنها تهم بتسديد ضربة. صاح مجدداً بنبرة أكثر حدة: «نعم، أنتِ! اذهبي من هنا!»

لم تجد هاربيت خياراً إلا الجري. كانت تعرف أسماء بعض سكان هذا الشارع (عائلة رايت، وعائلة موتلي، والسيد والسيدة برايس) لكنها لا تعرفهم معرفة حقيقية تمكنها من أن تطرق أبوابهم وهي مبهورة الأنفاس تبحث عن ملاذ. تساءلت في نفسها بمرارة: لماذا سمحت لهما بمطاردتي إلى هذه الأرض التي لا أعرفها؟ حاولت أن تستجمع أفكارها: فكّري! فكّري! قبل لحظات، مرت بمتجر بدا مكاناً مناسباً للاختباء. كان يعرض علب

طلّاء وستائر من النايلون. قررت العودة إليه، فاندفعت تختبئ خلف خزان غاز قريب. انحنت، مستندة إلى ركبتها، وهي تحاول عبّ الهواء المتهالك من رئتيها. تساءلت بحذر: هل تمكنت من تضليلهما؟ لكن صوت نباح كلب جديد أفزعها، الكلب المربوط عند بداية الشارع الذي اندفع نحو السياج عندما مرت بجواره، أكد لها أن الخطر لا يزال يقترب.

استدارت وتابعت ركضها الأعمى، واندفعت عبر ثغرة في سياج من الشجيرات القصيرة، وكادت تصطدم بشخص مفاجئ أمامها. كان تشيستر، جاثياً على ركبتيه، يمسك خرطومًا للري ويسقي حوضاً مُعداً لزراعة الزهور.

فاجأه ظهورها المفاجئ، فقذف بذراعيه في الهواء كما لو أن انفجاراً حدث أمامه. صاح بدهشة: «انتبهي!»

تشيستر، الذي يعمل في أعمال متفرقة لدى سكان الحي، لم تكن تعلم أنه يعمل هنا. حاول أن يستوعب الموقف وهو يحدق إليها: «ما الذي...؟»

«أين أستطيع الاختباء؟»

«الاختباء! هذا ليس مكاناً يصلح للاختباء». ابتلع ريقه وأشار

إليها بيد موحلة... «هيا! اذهبي!»

تلقت هاريت المذعورة حولها، بحثاً عن أي مهرب. وقع بصرها على إناء زجاجي لإطعام الطيور، وشرفة ذات واجهة زجاجية، وطاولة نزهات أنيقة. في الناحية الأخرى من الفناء، امتد جدار يكسوه بلوط بري كثيف، قطع صف من شجيرات الورد طريق تراجعها.

«قلت لك أن تذهبي، انظري إلى الفجوة التي أحدثتها عندما عبرت السياج!».

كان أمامها ممر مبلط، على جانبيه أزهار السوسن، يؤدي إلى سقيفة صغيرة للأدوات، أشبه ببيت دمي، مطليةً بألوان متناغمة مع طلاء البيت نفسه: أفاريز بلون الزنجبيل وباب أخضر نصف مفتوح. اندفعت هاربيت على طول الممر يائسة، ودفعت الباب لتدخل السقيفة، متجاهلة صياح تشيستر. ألقت بنفسها أرضاً بين كومة من الحطب ولفافة ضخمة من ألواح الفايبركلاس العازلة.

كان الهواء داخل السقيفة ثقيلاً، مشبعاً بالغبار. أغلقت هاربيت أنفها بإصبعيها، وصدرها يعلو ويهبط بعنف، بينما رأسها يكاد ينفجر من شدة التتميل. في الظلمة الخافتة، وقعت عيناها على الأرض، حيث رأت ريشة ممزقة من تلك التي تُستخدم في لعبة الريشة الطائرة، ملقاة قرب رفوف خشبية مصطفة بعناية. رأت مجموعة من صفائح معدنية تحمل كتابات باهتة: «بنزين»، «زيت آلات»، «زيت تبريد».

ثم بدأت تسمع أصواتاً... أصوات رجال. تجمدت في مكانها، انقضى عليها زمن بدا كأنه دهر. خلال تلك اللحظات الثقيلة، بدت الصفائح الثلاث أمامها كأنها آخر ثلاثة أشياء في العالم بأسره، فراحت تفكر: ماذا يمكن أن يفعلوا بي وتشيستر موجود؟ أصاغت السمع، لكن صمماً أَلَمَّ بها لشدة وجيب قلبها، وأنفاسها المتلاحقة. عادت تقول لنفسها: إذا أمسكوا بك، اصرخي! اصرخي وحاولي الإفلات منهم! اصرخي واركضي! لسبب لا تعرفه، كانت

السيارة هي مصدر خوفها الأكبر؛ شعرت في أعماقها أن أمرها سيكون انتهى إذا تمكنوا من وضعها فيها.

كانت متأكدة من أن تشيستر لن يسمح لهم بأخذها، لكنه وحده، وهم اثنان على الأقل. من المحتمل كثيرًا ألا يصمد تشيستر أمام رجلين أبيضين!

تتابعت الثواني، ماذا يقولون؟ لماذا يطول الأمر هكذا؟ راحت تحديق في لوح من ألواح عسل النحل موضوع تحت طاولة العمل، وفجأة، شعرت بوجود شخص يقترب من الباب.

انفتح الباب ببطء، وسقط مثلث من ضوء النهار سقط على الأرضية الترابية. غاض الدم من رأسها وكادت تفقد وعيها. لكنها سرعان ما أدركت أن القادم هو تشيستر، وكان وحده. قال بصوت آمر: «اخرجي الآن!»

كان لصوته وقع كأن حاجزًا زجاجيًا قد تحطم متشظيًا، لتعود إليها الأصوات دفعة واحدة: زقزقة العصافير، وصوت غناء جندب يصدح عاليًا خلف إحدى صفائح الزيت.

«أأنت هنا؟»

حاولت هاربيت أن تبتلع ريقها، ثم نطقت بصوت خافت مجروح: «هل ذهبوا؟»

«ماذا فعلت لهذين الرجلين؟» كان الضوء خلفه، فجعل من الصعب تبين ملامحه. لكن صوته المألوف، بصحته وخشونته، جعلها تتأكد أنه هو... «كانا يتصرفان كأنك سرقت كل ما في جيوبهما».

«هل ذهباً؟»

قال بصبر نافذ: «أجل، لقد ذهباً. فاخرجي من هنا»

نهضت هارييت من مكانها خلف لفافة الألواح العازلة، ومسحت جبهتها بذراعها المملخة بالغبار. كان الغبار يكسو ملابسها، وخيوط العنكبوت تلتصق بجانب وجهها.

قال تشيستر وهو يلقي نظرة داخل السقيفة: «أنت لم تُسقطي شيئاً هنا، أليس كذلك؟» ثم نظر إليها... «انظري كيف صار شكلك!»، ثم فتح الباب كي تخرج... «لماذا يركضان خلفك؟» هزت هارييت رأسها نافية، ولا تزال أنفاسها متقطعة من شدة الجري.

قال تشيستر وهو ينظر من فوق كتفه ويمد يده إلى جيب قميصه ليخرج سيجارة: «ليس أمراً طبيعياً أن يلاحق رجلان مثلهما طفلة، ماذا فعلت لهما؟ هل رميت حجراً على سيارتهما؟» مدت هارييت رأسها كي ترى ما حوله، منعتهما الشجيرات الكثيفة من رؤية الشارع.

أخذ تشيستر نفساً عميقاً عبر منخريه وقال: «هل تعلمين أنك محظوظة بوجودي هنا اليوم؟ السيدة مولفريهيل لم تأت اليوم إلى تمرينات الجوقة، لو كانت هنا لاتصلت بالشرطة لأنك اقتحمت هذا المكان. في الأسبوع الماضي، جعلتني أسلط خرطوم الماء على كلب عجوز مسكين دخل هذا المكان».

أشعل سيجارته وأخذ منها نفساً طويلاً، وضربات قلب هارييت لا تزال تدوي في أذنيها.

قال تشيستر: «على أي حال، ماذا تفعلين هنا؟ ولماذا تتجولين في حدائق الناس كأنك لص؟ سأخبر جدتك بهذا».

«ماذا قال لك؟»

«قالا! لم يقولوا شيئاً، أحدهما أوقف سيارته في الشارع هناك، والآخر أطل برأسه من فوق السياج ونظر إلى الفناء كأنه كهربائي يبحث عن عداد للكهرباء». ثم أشار بيده مقلداً حركات الرجل، فيما كانت عيناه تتجولان في المكان بحذر... «كان مرتدياً أفرولاً، كأنه عامل في شركة ميسيسيبي للكهرباء والنور».

في تلك اللحظة، انقصفت غصن صغير في الأعلى، لم يكن سوى سنجاب عابر، لكن الصوت جعل هاربيت ترتجف.

«ألن تخبريني لماذا كنت تهريين منهما؟»

«أنا... كنت...».

«ماذا؟»

قالت هاربيت بصوت خافت: «كنت أعب». «لا يجوز أن ترهقي نفسك بهذا الشكل!»، ثم رمقها بنظرة فاحصة ذكية وسأل: «لماذا تتظرين خائفة في ذلك الاتجاه؟ هل تريدين أن أمشي معك إلى بيتك؟»

قالت هاربيت: «لا». فقه تشيستر ضاحكاً، فأدركت أنها كانت تومئ برأسها في الوقت ذاته كأنها تقول «نعم».

وضع يده على كتفها، وقال: «أنت مضطربة!» لكنها رأت في عينيه قلقاً واضحاً رغم نبرته المرحية... «اسمعي، سأمر من أمام بيتكم في طريقي. انتظريني دقيقة فقط حتى أغسل يدي بماء الخرطوم، وسنسير معاً».

انعطفنا إلى الطريق السريع متجهين نحو البيت، وفجأة قال
فاريش متوترًا: «سيارات سوداء!»، كان صوته متقطعًا، وأنفاسه
تلهث كأنه مصاب بالربو... «لم أرَ في حياتي كلها هذا العدد كله
من السيارات السوداء!»

أطلق داني صوتًا غامضًا، ومسح وجهه بيده المرتعشة، فيما
لا تزال عضلاته متشنجة وذهنه مضطربًا. إذا نجحنا في الإمساك
بتلك الفتاة، فماذا كانا سيفعلان بها؟

قال متوترًا: «اللجنة على هذا الأمر! كان يمكن لأحد أن يرانا
هناك ويبلغ الشرطة». كان هذا الإحساس يراوده مؤخرًا كثيرًا،
إحساس من يستفيق فجأة وسط حلم متوتر. فكرة مطاردة طفلة
في وضع النهار داخل حي سكني كانت تبدو جنونية. كيف انتهى
بهما الأمر إلى هذا الحد؟ الاختطاف في ولاية ميسيسيبي جريمة
يُعاقب عليها بالإعدام.

قال بصوت مرتفع: «هذا جنون».

لكن فاريش كان مستثارًا، يشير عبر النافذة بحركة عصبية،
وخواتمه الثقيلة اللامعة (في إصبعه الصغيرة خاتم على شكل
حجر النرد) تتوهج تحت أشعة شمس العصر. صاح: «هناك!
وهناك!».

قال داني: «ماذا؟ ماذا؟»

كانت السيارات تملأ المكان، والضوء المنعكس عن حقول
القطن بدا كأنه يتراقص على سطح مائي.
«سيارات سوداء».

«أين؟»

استشعر داني، من سرعة السيارة وتوتر اللحظة، إحساسًا غامضًا كأنه نسي أمرًا مهمًا جدًا أو ترك شيئًا خلفه.
«هناك، هناك، هناك».

«تلك سيارة خضراء».

صرخ فاريش بانفعال: «لا، ليست خضراء! انظر هناك، ها هي ذي! واحدة أخرى!»

ضغط داني على أسنانه وهو يقاوم رغبة عارمة في إطلاق شتيمة، بينما كان رأسه يئن من شدة الضغط. ضربات قلبه كالمطارق، وسرعة الأحداث جعلت العالم من حوله يدور. كان الجنون الذي انزلقا إليه أشبه بدوار ثقيل. هذا هو الجزء الذي يفترض فيه أن تعود إلى رشدك، أن تقف في مكانك، تغيّر اتجاهك، تغيّر حياتك كلها إلى الأبد... لكنه الجزء الذي لم يستطع داني يومًا أن يؤمن بوجوده.

صاح فاريش مرة أخرى وهو يضرب لوحة العدادات بقوة كادت تجعل داني يقفز في مكانه: «انظر هناك! أعلم أنك رأيت تلك السيارة! تلك السيارات تستعد، إنها جاهزة للانطلاق!»

كان الضياء في كل مكان، ضوء زائد، مشوش، يملأ الفضاء كأنه جزيئات من طاقة متوهجة. حتى السيارة نفسها بدت كأنها فكرة غريبة لا تنتمي إلى الواقع.

قال داني: «عليّ أن أتوقف».

«ماذا؟»

«أنا غير قادر على القيادة!» شعر كيف علا صوته وكيف صار هستيريًا، سيارات تتجاوزته بسرعة... ومضات من طاقة ملونة... أحلام متزاحمة.

في ساحة وقوف السيارات أمام مطعم «وايت كيتشن»، جلس داني مسندًا بجبهته إلى عجلة القيادة، محاولًا استنشاق أنفاس عميقة لتهدئة نفسه، في حين كان فاريش يشرح له وهو يضرب راحة يده بقبضته أن سبب إعيائه لا علاقة له بالمخدرات، بل لأنه لم يأكل شيئًا. هذه هي الطريقة التي يتبعها (فاريش) بغية التغلب على فرط الإعياء: يتناول وجبات منتظمة بصرف النظر إن كان راغبًا في الطعام أم غير لا. قال وهو يخز ساعد داني بسبابته: «أما أنت... فأنت مثل غام تمامًا، تنسى أن تأكل، وهذا ما يجعلك نحيلاً كالعظم».

حرق داني في لوحة العدادات، بدا له الهواء مشبعًا بأبخرة أول أكسيد الكربون، ورائحة الغثيان. لم يكن يسرّه أن يرى نفسه يشبه غام، ولكن بهذا الجلد الذي أحرقته الشمس، وهذين الخدين الفائرين، والبنية الهزيلة الحادة، كان هو الوحيد بين أحفادها الذي يبدو فعلاً شديد الشبه بها، لم ينتبه إلى هذا الأمر من قبل.

قال فاريش وهو ينهض قليلاً عن المقعد ويتحسس محفظته: «خذ!»، يسرّه أن يقدم خدماته، ويسرّه أن يصدر التعليمات... «أنا أعلم ما أنت في حاجة إليه، كأس كوكا كولا وسندويتش لحم مسخن جيدًا، سوف تتحسن على الفور».

فتح باب السيارة بقدر من العناء، وتحامل على نفسه كي يخرج (ساقاه متيبستان، وجسده يتمايل كأنه جسد قبطان بحري

عتيق). دخل ليشتري له الكوكا كولا وسندويتش اللحم المسخن. ظل داني جالسًا، صامتًا. وظلت رائحة فاريش معلقة في السيارة الحارة... رائحة ثقيلة، باذخة. آخر ما يريده في العالم هو ذلك السندويتش الحار باللحم، لكن عليه الآن أن يتدبر أمره ويأكله.

ظل أثر صورة الفتاة في ذهنه مثلما يظل أثر طائفة عابرة في السماء: خيال أسود الشعر، هدف متحرك. لكن وجه السيدة العجوز التي رآها على الشرفة بقي في ذاكرته، عندما مر بالسيارة أمام ذلك البيت (أهو بيتها؟) فيما بدا له أشبه بفيلم بطيء الحركة، وقعت عليه عينا تلك السيدة العجوز (عينان قويتان، كلهما ضياء) لكنهما لم تبصره، ومع ذلك اجتاحه شعور مفاجئ، كصدمة خاطفة تحمل في طياتها غثيانًا خفيفًا من إدراك مباغت. لقد عرفها... نعم، عرف تلك السيدة العجوز... عرفها على الفور، لكن من بعيد، كأنها شبح من حلم قديم جدًا.

من خلال واجهة المحل الزجاجية، رأى كيف انحنى فاريش فوق طاولة البيع وهو يخاطب نادلة نحيلة قصيرة تعجبه. كانت نادلات «وايت كيتشن» يصفين إلى قصص فاريش العجيبة باحترام، ولا يُظهرن انزعاجًا من تودده إليهن ومن عينه المصابة ولا من ادعائه الدائم أنه يعرف كل شيء... ربما خوفًا منه، أو لأنهن في حاجة إلى هذا العمل، أو لأنهن لطيفات.

إذا رفع فاريش صوته، وإذا استبدت به الحماسة وراح يلوح بذراعيه، وإذا أوقع فتجان القهوة، فهن يبقين هادئات لطيفات.

أما هو، فكان يتمتع عن استخدام ألفاظ بذئية في حضورهن، حتى عندما يكون فاقداً عقله بسبب المخدرات؛ بل إنه جلب إلى المطعم باقة أزهار في يوم الفالنتين.

من غير أن تفارق عيناه شقيقه، خرج داني من السيارة، ثم انعطف نحو جانب الطريق، متجاوزاً بقعة من الأعشاب اليابسة حتى بلغ كشك الهاتف. كان دليل الهاتف أمامه ممزق الصفحات، نصفه ضائع، لكن لحسن حظه وجد النصف الآخر سليماً، وهو ما احتاج إليه تماماً. بإصبع مرتجفة، بدأ يمرّ فوق الأسماء التي تبدأ بحرف «ك». كان مكتوباً على صندوق البريد الذي أمام البريد «كليف»، ها هو ذا ها هو ذا مكتوب هنا: شارع مارجن، إي كليف.

الأمر الغريب هو أنه تذكر شيئاً. ظل داني واقفاً في كشك الهاتف ذي الحرارة الخانقة، تاركاً لنفسه فرصة استرجاع الذكرى. لقد التقى تلك السيدة العجوز، التقاها منذ زمن بعيد جداً، زمن صار يبدو الآن كأنه جزء من حياة أخرى. كانت معروفة على نطاق واسع (لم تكن معروفة لذاتها، بل لوالدها الذي كان سياسياً كبيراً ومحتالاً). كانت معروفة أيضاً بسبب بيت عائلتها القديم الذي حمل اسم «تريببوليشن». غير أن ذلك البيت اندثر منذ زمن بعيد، ولم يبق من شهرته سوى ذلك الاسم. بالقرب من موقعه القديم، على الطريق العابر للولايات، يوجد مطعم رخيص يحمل اسماً يذكر بالماضي: «ستيك هاوس تريبوليشن». لافتة لا تزال قائمة، مزينة برسم لعزية ريفية بأعمدة بيضاء، رغم أن المطعم مغلق ومهجور منذ سنوات. على جدران ملصقات كثيرة كتب

عليها «ممنوع الدخول»، وفي أحواض النباتات المهمة أمامه، نمت أعشاب برية بلا انتظام. بدا المكان كأن الأرض نفسها قد امتصت ما كان في ذلك البناء من جدة وحياة، لترتد به إلى هيئته القديمة المهجورة، كأنما الزمن تجمد فيه إلى الأبد.

عندما كان طفلاً (لم يعد يذكر في أي صف تحديداً، إذ غدت ذكريات المدرسة كتلة مبهمه، كثيبة ومشوشة)، حضر حفلة عيد ميلاد في بيت «تريبوليشن». تلك اللحظة ظلت محفورة في ذاكرته: غرف فسيحة ذات أجواء موحشة، خافتة الإضاءة، تاريخية، مكسوة بورق جدران قديم وثریات قديمة. كانت صاحبة البيت جدة روبين، ذلك الصبي الذي كان زميل داني في المدرسة. كان روبين يعيش في البلدة، وقد شاهده داني في عصر يوم عاصف في الخريف (كثيراً ما كان داني يجوب الشوارع سائراً على قدميه عندما يكون فاريش في صالة البلياردو) يلعب وحده أمام بيته. وقفاً برهة من الزمن متقابلين... داني في الشارع وروبين في البيت، كانا مثل حيوانين حذرين. ثم، قال روبين: «يعجبني باتمان».

قال داني: «وأنا أيضاً يعجبني باتمان».

بعد ذلك، راح الاثنان يركضان في الشارع جيئة وذهاباً، ظلاً يلعبان إلى أن حل الظلام.

حين دعا روبين جميع زملائه في الصف إلى عيد ميلاده (رفع يده مستأذناً، ثم سار بين الصفوف وسلم كل طفل بطاقة دعوة)، بدا الأمر لداني فرصة سانحة للمشاركة، دون أن يشعر والده أو جدته غام بذلك. لم تكن حياة الأطفال مثل داني تعرف حفلات

عيد الميلاد، بل إن والده كان يعارض ذهابه إليها حتى لو كان مدعوًا (وغالبًا لم يكن أحد يدعوهم). كان يرى في تلك الحفلات إسرافًا لا طائل منه، واعتبر أن شراء هدية لتقديمها مجرد تبذير لا يليق. فلم يكن جيمي جورج راتليف، والد داني، ليقبل أن يدفع ثمن هدية لطفل من عائلة ثرية، ناهيك بأن يرى في الأمر برمته هراء لا مبرر له. أما جدته غام، فقد كانت لها وجهة نظر أخرى؛ إذ كانت ترى أن حضور حفلة عيد ميلاد يجعله مدينًا بالدعوة، ويفتح بابًا للسخرية منه ومن أسرته. كانت واثقة أن أهل البلدة لا يدعونه إلا بدافع السخرية، من ملابسه القديمة المستعارة، ومن طبيعته البسيطة التي تشي بأصوله الريفية. كانت أسرة داني تعيش في فقر شديد، ينتمون إلى «العاديين» من الناس، أولئك الذين لا يجدون في كعك الحفلات وملابسها المزركشة سوى رفاهية لا تناسبهم. وظلت غام تحرص على تذكير أحفادها بهذا الواقع حتى لا ينسوه ويصيروا من «المسرفين».

ظنّ داني أن الحفلة ستكون في بيت روبين (بيته الجميل الذي يعرفه)، لكنه فوجئ عندما سارت السيارة الكبيرة المزدحمة بالأطفال التي تقودها والدته إحدى الفتيات (نسي اسمها)، خارج حدود البلدة. اجتازت السيارة حقول القطن، ثم انعطفت نحو ممر طويل تحفه الأشجار، حتى وصلت إلى بيت ذي أعمدة. بدا المكان غريبًا تمامًا عن عالمه، كأنّ لا صلة تربطه به. وما زاد شعوره بالحرَج أنه لم يجلب معه أي هدية. كان قد حاول في المدرسة أن يغلف سيارة صغيرة قديمة عثر عليها، مستخدمًا ورق

دفاتر مهترئاً، لكنه افتقد الشريط اللاصق، وبدا الأمر عبثياً؛ إذ لم يكن لتلك اللفافة أي مظهر يليق بالهدايا.

لكن، لحسن حظّه، لم ينتبه أحد إلى أنه لم يأت بهدية. أو على الأقل، لم يقل أحد شيئاً. وعندما صار داخل البيت، اكتشف أنه ليس رائعاً كما بدا له من بعيد، بل كان بيتاً متداعياً، تغطي أرضيته سجادات قضمها العث، وتشققت أسقفه، وتساقط الجص عن جدرانها. كانت السيدة (جدة روبين) المشرفة على الحفلة امرأة ضخمة الجسد، ذات هيبة مخيفة وحضور صارم. عندما فتحت الباب لهم، ارتجف وهو يراها تقف عند المدخل في وقفها المتصلبة، مرتدية ثوباً أسود يبدو فاخراً، وحاجباها غاضبان. كان صوتها حاداً، وخطواتها أشد حدة، إذ كانت تقرق الأرض بحذائها وهي تسير بسرعة في الغرفة الواسعة، التي كانت تردد أصداً وقعها. حركاتها سريعة كأنها ساحرة، جعلت الأطفال يصمتون كلما مرت بينهم. ومع ذلك، فعلت ما لم يتوقعه. عند الطاولة المزينة، حيث التّفّ الأطفال للحصول على حصصهم من الكيك، مدت يدها فوق رؤوسهم مباشرة نحو داني (الذي كان يقف بعيداً في الخلف) وقدمت له قطعة مميزة. كانت تلك القطعة بيضاء ناصعة، عليها زهرة كبيرة مصنوعة من السكر بلون وردي، وبضع كلمات من عبارة «عيد ميلاد سعيد». بدا كأنها اختصته بهذه الهدية الصغيرة، كأنه كان الوحيد الذي أرادت أن يأكل تلك القطعة الفريدة.

إذاً، تلك هي السيدة العجوز، إي كليف. لم يرها ولم يتذكرها منذ سنين طويلة. عندما احترق بيت «تريببوليشن» (حريق هائل

أضاء سماء الليل على مدى أميال)، لم يخفِ والد داني وجدته غام شعورًا غريبًا بالارتياح والبهجة، إذ كانا دومًا على قناعة بأن ذلك البيت يجب أن يحترق. لم يستطيعا كبج شعورهما بالمتعة وهما يشاهدان «عليّة القوم» يسقطون درجة أو درجتين بفعل الزمن. أما غام، فقد حملت ضغينة خاصة تجاه بيت «تريببوليشن»، لأنه كان يذكرها بأيام عملها الشاقة في حقول القطن التابعة له حين كانت فتاة صغيرة. كانت تزدرى بشدة تلك الطبقة الحقيرة من البيض (الذين وصفهم والد داني بأنهم «خونة بني عرقهم»)، ممن اعتبروا البيض الفقراء ليسوا أفضل من العمال السود.

نعم، لقد تدهورت حال السيدة العجوز، إي كليف، بشكل مثير للشفقة. كان سقوطها غريبًا وغير مألوف، حزينًا وغامضًا في الوقت ذاته. أما عائلة داني، فلم تكن لها مكانة أصلاً كي تتدهور منها. وروبين (ذلك الطفل الودود والكريم) قد مات منذ سنوات. قُتل إما على يد وضيع مر بالمكان، وإما على يد متشرد هذر أتى من قرب سكة القطار. لم يعرف أحد من قتله.

في صباح يوم الاثنين، وقفت المعلمة السيدة مارتر (امراة سمينة ترفع شعرها دائمًا فوق رأسها، وكانت ذات مرة قد عاقبت داني بإجباره على ارتداء شعر مستعار نسائي أصفر اللون مدة أسبوع كامل بسبب خطأ لم يعد يذكره الآن) في ممر المدرسة تتهامس مع زميلاتهما المعلمات. كانت عيناها حمراوين، كأنها كانت تبكي. وبعدما قرع الجرس، جلست إلى طاولتها وقالت: «يا أولاد، عندي نبأ محزن جدًا».

كان معظم أطفال البلدة قد سمعوا بالخبر مسبقًا، لكن داني لم يكن على علم به. في البداية، ظن أن السيدة مارتر تكذب،

لكن عندما طلبت من الجميع إخراج ورقة وقلم لصنع بطاقات عزاء تُرسل إلى عائلة روبين، أدرك حينها أن الخبر حقيقي. جلس داني ورسم بعناية على بطاقته: باتمان، وسبايدرمان، وهالك، مصطفىين أمام بيت روبين في صف واحد. أراد أن يرسمهم في وضعية حركة، ينقذون روبين ويقضون على الأشرار، لكنه لم يكن موهوبًا في الرسم. فاكتمى بتصويرهم ثابتين، ينظرون إلى الأمام. بعد لحظة من التفكير، أضاف نفسه إلى الصورة، لكنه رسم نفسه على الحافة، كأن شعورًا داخليًا يخبره بأنه قد خذل روبين. في الظروف العادية، لم تكن الخادمة تأتي إلى بيت روبين أيام الأحد، لكنها كانت موجودة في ذلك اليوم المشؤوم. لو أنها لم تطرد داني في وقت مبكر من ذلك المساء، ربما، وربما فقط، كان روبين بقي حيًا!

نتيجة لذلك، صار داني يحس أنه في خطر. كثيرًا ما كان أبوه يتركه مع كورتيس، يجوبان الشوارع وحيدين (في الليل غالبًا). لم يكن لديهما مأوى أو ملاذ آمن يلجآن إليه إذا هاجمهما أحد الأشرار. صحيح أن كورتيس كان يمثل ويختبئ حين يطلب منه ذلك، لكنه لم يكن يفهم أن عليه ألا يتكلم، كان لا بد من إسكاته دائمًا. ومع ذلك، كان وجود كورتيس بجواره يمنحه شيئًا من السلوى، حتى في لحظات خوف كورتيس أو حين تهاجمه نوبات السعال المتكررة. لكن الأسوأ على الإطلاق كانت الليالي التي يجد فيها داني نفسه وحيدًا. كان يختبئ في السقائف أو خلف أسوار البيوت، هادئًا كفأر، أنفاسه سريعة وضحلة في الظلام، منتظرًا أن تُغلق صالة البلياردو أبوابها عند منتصف الليل. حينذاك فقط،

يخرج من مخبئه، ويمضي مسرعاً في الشوارع المظلمة، يلتفت مع كل صوت بسيط، متوجساً. لم يكن لغياب أي مواجهة مخيفة طوال تلك الجولات الليلية إلا أن يزيد من رعبه؛ إذ بدا كأن قاتل روبين شخص خفي، لا يُرى، أو يمتلك قدرات مربية تفوق الطبيعة. بدأت تأتية تلاحقه كوابيس مزعجة: يظهر له باتمان في أماكن مهجورة، يتقدم نحوه بخطوات سريعة، وعيناه شريرتان متوهجتان.

كان داني يفيق من نومه مذعوراً، لكنه لم يكن ممن سيكون (كان البكاء محظوراً في منزله، حتى بالنسبة إلى كورتيس). ومع ذلك، انفجر ذات يوم باكياً أمام الجميع، صدمة لنفسه ولمن حوله. وعندما عجز عن إيقاف دموعه، أمسكه والده من ذراعه، جذبته بقسوة ليوقفه على قدميه، ثم نزل عليه بالحزام، و«أعطاه سبباً وجيهاً للبكاء»، كما اعتاد أن يقول. بعد ذلك، تبعه ريكي لي إلى الممر الضيق، وقال له بصوت خافت: «أظنه كان صديقك».

أما جدته، التي طالما غلفت قسوتها باللفظ، علقت: «ربما كنت تفضل لو مت بدلاً منه!»

في اليوم التالي، عاد داني إلى المدرسة وهو يحاول أن يرفع رأسه. راح يتفاخر بشيء لم يفعله، يحكي قصة مختلفة عن شجاعته. كان يحاول، بطريقة غريبة، أن يحفظ ماء وجهه. فهو لا يخاف شيئاً، أو هكذا كان يريد أن يبدو أمام الآخرين. لكن داخله كان يشعر بضيق يتصاعد كلما فكر في الأمر. كيف تحول حزنه العميق إلى ادعاء، إلى مباهاة فارغة؟ والأكثر غرابة، كيف امتزج حزنه بشعور بالغيرة؟ كأن حياة روبين كانت كلها حفلات وهدايا

وحلوى. لكن الواقع كان قاسياً على داني، ومع ذلك، كان يعرف
أمراً واحداً... على الأقل، لم يمت.

رُن الجرس المعلق فوق باب المطعم عندما خرج فاريش إلى
ساحة وقوف السيارات يحمل كيساً ورقياً. توقف عندما رأى
السيارة خالية، خرج داني من كشك الهاتف بخطى هادئة: ما من
حركات مفاجئة! فخلال الأيام القليلة الماضية، كان سلوك فاريش
غريباً جداً فصار داني يشعر كأنه رهينة عنده.

التفت فاريش ونظر إلى داني بعينين زجاجيتين، سأله: «ماذا
كنت تفعل هناك؟»

قال داني متجهاً نحو السيارة بخطوات سريعة: «أوه، لا شيء!»
كنت أنظر في دليل الهاتف». حرص على أن يظل وجهه محتفظاً
بتعبير محايد؛ كان يدرك جيداً أن أي أمر صغير، أي تصرف
بسيط خارج عن المألوف، قد يشعل غضب فاريش. ففي الليلة
الماضية، أزعجه أمر شاهده في التلفزيون، فهوت يده بكأس
حليب كان يحملها، لتتحطم على الطاولة بضربة قوية.

رمقه فاريش بنظرة عدائية، وتابعه بعينه... «أنت لست أخي».
وقف داني ويده على باب السيارة... «ماذا؟»
وقبل أن يستوعب، ومن دون سابق إنذار، انقضَّ عليه فاريش
فجأة وألقاه أرضاً، وأسقطه بعنف على الرصيف.

عادت هاربيت إلى البيت لتجد أمها في الطابق العلوي تتكلم
عبر الهاتف مع أبيها. لم تفهم مغزى تلك المكالمات، لكنها شعرت

على الفور بأنها تحمل فألاً سيئاً. جلست على السلم، ذقتها متكئاً على راحتها، تنتظر بصمت. مرت الدقائق بطيئة وثقيلة (نصف ساعة، أو أكثر)، لكن أمها لم تظهر. دفعها الفضول والتوتر إلى الصعود تدريجياً، درجة تلو الأخرى، حتى وجدت نفسها عند قمة السلم، تجلس متقرصة وظهرها مواجه لشريط النور المتسلل من أسفل باب غرفة أمها. أرهفت السمع، متلهفة لفهم ما يدور، لكن الكلمات كانت بعيدة وغير مفهومة، على الرغم من وضوح نبرة أمها (صوت مبجوح وهامس).

أخيراً، استسلمت وعادت إلى الطابق السفلي، متوجهة إلى المطبخ. كانت أنفاسها لا تزال قصيرة ومتقطعة، وعضلاتها بين أضلاعها تتقبض بين الحين والآخر بألم حاد. أشعة الشمس التي تسللت من نافذة المطبخ ألقت على المجلى ضياءً أحمر بنفسجياً غنياً، مثل وهج الأيام الأخيرة من الصيف، حين يقترب موسم الأعاصير. أغمضت عينيها للحظة، ثم فتحتهما بسرعة، وهمست لنفسها: «أشكر الرب أنني لم أعد ركضاً إلى بيت إيدي!» ففي لحظة الذعر التي عاشتها قبل عودتها، كادت تقودهم مباشرة إلى عتبة بيت إيدي. إيدي امرأة قوية، نعم، لكنها عجوز، وأضلاعها ضعيفة ومصابة.

أمان البيت كان مصدر قلق إضافي لهارييت. الأقفال قديمة، ضعيفة، سهلة الكسر. الباب الأمامي والخلفي مزودان بمزلاجين عتيقين لا قيمة لهما. حتى الباب الخلفي كان يحمل ذكرى عقابها ذات يوم عندما ظنت أنه عالق، فدفعت عليه بكل قوتها من الخارج، فكسرتة. مرت شهور على ذلك، وما زال جزء من المزلاج

يتدلى بأثسًا من مسمار وحيد في إطار الباب الخشبي المهترئ. نسمة هواء باردة مرت عبر النافذة المفتوحة، داعبت وجنة هاربيت، لكنها زادت من شعورها بعدم الأمان. كل النوافذ في المنزل كانت مفتوحة تقريبًا؛ في الطابق العلوي، في الطابق السفلي، في كل غرفة تقريبًا. تملكها شعور كابوسي بأنها تعيش في منزل مكشوف تمامًا، بلا حماية. فكرت: ما الذي يمنعه من المجيء إلى البيت؟ ولماذا يهتم بأمر النوافذ إن كان قادرًا على فتح أي باب يريده بسهولة؟

دخلت أليسون المطبخ راكضة، ورفعت سماعة الهاتف كأنها تريد الاتصال بأحد الناس. أصغت بضع ثوانٍ.. اكتسى وجهها تعبير غريب، ثم ضغطت المفتاح بإصبعها قبل أن تعيد السماعة إلى مكانها بحرص شديد.

سألتها هاربيت: «مع من تتكلم؟»

«مع بابا».

«حتى الآن!»

رفعت أليسون كتفيها، لكنها بدت مضطربة. خرجت من الغرفة مسرعة خافضة رأسها. ظلت هاربيت دقيقة واقفة في المطبخ، عاقدة الحاجبين، ثم ذهبت إلى الهاتف ورفعت السماعة.

سمعت هاربيت صوت تليفزيون في الخلفية، كانت أمها تقول بصوت شاك: «... لا ينبغي أن ألومك...».

«لا تكوني سخيفة!» ضجر والدها ونفاد صبره واضحان تمامًا من طريقة تنفسه... «إن كنت لا تصدقيني، فلماذا لا تأتين؟»

«لا أريدك أن تقول أي شيء إن كنت لا تعنيه».

ضغطت هاربيت المفتاح بكل هدوء ثم أعادت السماع، لكن عقلها لم يكن هادئاً. في البداية، خشيت أن يكون الحديث بين والديها يدور عنها، لكن ما سمعته كان أسوأ من ذلك. زيارة والدها إلى البيت عادة ما تحمل معها الضجيج والعنف وحضوراً ثقيلاً. ومع ذلك، كانت تصرفاته تتحسن عندما تكون أيدي والخالات موجودات، إذ كان يولي اهتماماً لرأي الناس فيه. وجودهن القريب كان يمنح هاربيت قدراً من الطمأنينة، كما أن هذا البيت كبير، يتيح لها تجنبه معظم الوقت، أما شقته فهي ناشفيل فليست كبيرة... خمس غرف فقط! هناك، لن تكون قادرة على التخلص منه.

وكأنما جاءها ردٌّ على تلك الأفكار... بوووم! شيء ما سقط خلفها فجأة. قفزت في مكانها، وضعت يدها على عنقها، وشعرت بقلبها يتسارع. التفتت لتجد أن إطار النافذة قد سقط، متناثراً معه بضعة مجلات وزهرة جيرانيوم حمراء في أصيص خزفي. حدقت في الأصيص المكسور على الأرض، كأنما تحاول استيعاب ما حدث، فيما ساد المكان صمت غريب. كان التراب الأسود متناثراً على أرضية اللينوليوم، والستائر ساكنة بلا حراك، كأن النسيم قد اختفى فجأة. رفعت رأسها ونظرت متوجسة إلى زوايا الغرفة الأربع.

ألقى ألق الشمس الغاربة وهجاً غريباً على السقف.

همست أخيراً: «من هناك؟» بدت كأنها تخاطب روحاً غير مرئية هبّت عبر النافذة (لا تعلم إن كانت روحاً صديقة أم عدوة).

إحساس غريب تملكها، إحساس بأن هناك من يراقبها. لكن كل شيء كان هادئاً. وبعد لحظات ثقيلة من التوتر، استدارت فجأة وهرولت خارج المطبخ، كأنها تهرب من شيء مظلّم يطاردها، كأن الشيطان نفسه خلفها.

كان يوجين يجلس بهدوء إلى طاولة مطبخ غام، في غسق صيفي دافئ، يضع نظارة قراءة على وجهه يقرأ كتاباً عتيقاً متسخاً، صادراً عن «مكتب الزراعة الفرعي في المقاطعة»، يحمل عنواناً بسيطاً لكنه يثير الفضول: «الحداثق المنزلية: الفاكهة والنباتات التزيينية». يده، التي لدغتها الأفعى ذات يوم، خالية الآن من الضمادات منذ زمن بعيد، لكنها ما زالت تحمل أثر العطب. أصابعها متيبسة، تسند إلى صفحات الكتاب كأنها ثقالة أوراق. عاد يوجين من المستشفى رجلاً مختلفاً تماماً. كأنما في أثناء رقاد الطويل على السرير، مرّ بتحوّل داخلي عميق. كان يرقد مستيقظاً. عيناه مفتوحتان نحو السقف، يصغي إلى ضحكات بلهاء قادمة من التليفزيون البعيد، تعبر الممرات المبلطة ببلاط لامع بلونيه المتناوبين كلوحة شطرنج، متقاطعة بخطوط مستقيمة تنتهي عند باب مزدوج أبيض يفتح إلى عالم مجهول، إلى اللا نهاية. قضى ليلاليه الطويلة في الصلاة حتى الفجر، عيناه شاخستان إلى خطوط الضوء المرتعشة على السقف، تشبه أوتار قيثار صامته تهتز في جو مشبع برائحة المواد المطهرة. صوت أجهزة الأشعة السينية كان يطفئ على الأجواء، طنين روبوتي خافت ينبعث من أجهزة مراقبة القلب، وخطوات

المرضات المطاطية لا تكاد تُسمع، وأنفاس ثقيلة مُعذبة تصدر من الرجل الراقد على السرير المجاور.

تبلورت رؤيا يوجين حول ثلاثة أمور؛ الأول: أدرك أن الرب الرحيم، العادل، قد غضب عليه وعاقبه؛ لأنه لم يكن مستعداً روحياً للتعامل مع الأفاعي، ولم يحظَ بمسحة ربانية تؤهله لذلك. الثاني: ليس كل مؤمن أو مسيحي في هذا العالم مراداً له أن يكون حاملاً لكلمة الرب. يوجين أخطأ عندما ظن أن نشر كلمة الرب (وهو أمر لم يكن مهيباً له من أي جانب) هو السلم الوحيد للوصول إلى النعيم. بدا له الآن أن للرب خططاً أخرى كانت موجودة دائماً، خططاً لا علاقة لها بالكلام. يوجين لم يكن متعلماً، ولم يكن يمتلك القدرة على الخطابة أو التأثير في الآخرين. بل إن تلك العلامة على وجهه، التي بدت كوصمة، كانت كافية لنفور الناس منه؛ إذ رأوها كإشارة من غضب الرب.

لكن السؤال الأهم الذي ظل يشغل تفكيره: إذا كان يوجين غير أهل لحمل كلمة الرب أو نشر الإنجيل، فما الذي يريده الرب منه؟ كان بحاجة إلى علامة ترشده. صلى في سريره، وسط ظلال المستشفى الرمادية الباردة، يناجي الرب طالباً الهداية. وبينما كانت عيناه تتجولان في الغرفة، عادتا مراراً وتكراراً إلى مزهريّة مزينة بشريط أنيق، تحمل قرنفلات حمراء زاهية عند سرير الرجل الراقد بجواره. (رجل عجوز ضخّم، بشرته سمراء متفضّنة تغضّناً لافتاً، وفمه ينفتح وينغلق كفم سمكة أُخرجت من الماء. يداه الجافتان البنيتان المليئتان بشعرات سوداء تتشبّثان بغطاء السرير وتجذبانه بحركات يائسة تثير الذعر في قلب من يراها).

كانت تلك القرنفلات هي الشيء الوحيد الذي أضفى لونا على الغرفة الرمادية الباهتة. عندما دخلت غام المستشفى، عاد يوجين إلى غرفته القديمة، واقفاً عند بابها، ناظراً إلى السرير الذي كان يرقد عليه جاره المسكين، الرجل الذي لم يتبادل معه كلمة واحدة طوال مكوثه هناك. غير أن السرير كان هذه المرة خالياً، فيما بقيت الزهرات الحمراء المتوهجة على الطاولة بجانب السرير. بدت تلك الزهرات كأنها تواسي ألماً لم يزل يوجين يحمله في روحه وفي ذراعه الملدوغة، ألماً أحمر نابضاً كالجمر. ثم، وبشكل مفاجئ، انقشع الحجاب عن بصيرته، وتجلت الحقيقة أمامه. تلك الزهرات لم تكن مجرد نباتات زينة عادية؛ بل كانت العلامة التي صلى إليها طلباً للهداية. كائنات حية صغيرة، رقيقة وناعمة، تتبض بالحياة التي أودعها الرب فيها، مثل قلب يوجين نفسه. عروقتها الدقيقة ترتشف الماء من المزهرية الصغيرة، تتشر شذاها العذب حتى في هذا المكان البارد «وادي ظلال الموت». وفي تلك اللحظة العميقة من التأمل، سمع صوتاً داخلياً مهيئاً يقول له: ازرع بساتين الرب!

كان ذلك هو التحول الثالث والأعظم في حياة يوجين. في اليوم نفسه، حمل أكياس البذور من الشرفة الخلفية، وزرع صفّاً من الملفوف الأخضر وآخر من اللفت الشتوي في رقعة أرض داكنة ورطبة، كانت قبل وقت قريب تحمل إطارات جرار زراعي قديمة موضوعة فوق نايلون أسود. واشترى أيضاً شجيرتي ورد كانتا معروضتين بسعر مخفض في متجر الأعلاف. غرس الشجيرتين بين الأعشاب المتناثرة أمام مقطورة جدته. لكن غام،

كعادتھا، لم تُخَفِ ارتيابھا. بدت لها الشجیرتان كأنھما خدعة خبیثة على حسابھا، وكأنھما كائنات دخيلة غریبة، متسولتان أو متطفلتان جاءتا لتسلبا كل ما عندها. كان یوجین كثيراً ما یراھا واقفة أمام مقطورتھا، تحدد إلى الشجیرتین بنظرات مشحونة بالریبة، كأنھما خطر یهدد توازن عالمھا. وفي أحد الأيام، وبنینما كان یوجین منكباً على العنایة بالنباتات، یسقیھا برشاش الماء ویرش علیھا المبید الحشري بعنایة، تبعته وهی تعرج بخطی متثاقلة، وقالت: «ما أود معرفته هو... من سیعتی بهذه الأشياء؟ من سیدفع ثمن تلك المواد الغالية؟ ثمن السماد والمبیدات؟ من سیسقیھا وینظفھا ویعتنی بها ویتعب علیھا طيلة الوقت؟». رمقت یوجین بنظرة غائمة معذبة كأنھا تقول له إنها تعلم أن هذا العبء الفادح كله، فی نهاية المطاف، سیقع على كاهلھا وحدها.

انفتح باب المقطورة مطلقاً صریحاً حاداً جعل یوجین ینتفض مجفلاً. ودخل دانی، شكله یثیر القلق: قدر، غیر حلیق، غائر العینین، یکاد یموت من الظماً كمن تاه فی صحراء لا نهاية لها. كان نعیلاً جداً لدرجة أن ینطلون الجینز بالكاد یبقی متماسكاً على وركیه.

قال یوجین: «تبدو فی حالة فظیعة».

رماه دانی بنظرة حادة، ثم انهار جالساً إلى الطاولة ووضع رأسه بین یدیه.

«أنت المخطئ فی هذا، علیك أن تكف عن تناول تلك المادة».

رفع دانی رأسه ببطء، نظرتھ الخاویة مخیفة، وقال فجأة: «هل تتذكر تلك الفتاة ذات الشعر الأسود التي أتت إلى باب مقر الإرسالية ليلة لدغتك الأفعی؟»

قال يوجين وهو يفلق الكتيب واضعاً إصبعه عند الصفحة التي كان يقرأ فيها: «ماذا؟ أجل أتذكرها. لا يزال فاريش يثرثر عن ذلك الجنون، ولا يستطيع أحد إسكاته...». «إذا، أنت تتذكرها».

هزّ يوجين رأسه وقال مستغرياً:

«نعم، أستغرب أنك تذكرها الآن!» فكر يوجين لحظة فيما سيقول... «هربت الفتاة مني قبل أن تخرج الأفاعي من النافذة. كانت متوترة، واقفة معي هناك.. على الرصيف. ثم ركضت هاربة مجرد أن انطلق الصراخ من الأعلى». أزاح يوجين الكتيب جانباً... «أستطيع أن أقول لك أمراً آخر، أنا لم أترك ذلك الباب غير مقفل. لا يهمني ما يقوله فاريش، كان الباب مفتوحاً عندما عدنا. و...». توقف فجأة؛ ارتدت رقبته إلى الخلف، ورمشت عيناه ناظرتين إلى صورة صغيرة حملها داني فجأة أمام وجهه. قال له بذهول: «ماذا؟ هذا أنت».

«أنا...» ارتعش داني ونظر إلى السقف بعينيه المحمرتين.

«من أين أتت هذه الصورة؟»

«هي التي وضعتها».

سأله يوجين: «أين وضعتها؟ ما هذا الصوت؟» في الخارج، كان أحدهم ينوح بصوت عالٍ، قال وهو ينهض واقفاً: «هل هذا كورتيس؟»

استشق داني نفساً طويلاً متقطعاً: «لا، إنه فاريش».

«فاريش!»

أزاح داني كرسيه إلى الخلف، وجالت عيناه في الغرفة بجنون، بينما صوت البكاء في الخارج كان يتصاعد، عميقًا ومفزعًا، كأنه صوت شخص يبصق قلبه من شدة الألم. كان الصوت أقرب إلى بكاء طفل غاضب، لكنه أعمق وأشد إيلامًا.

قال يوجين وقد هاله الأمر: «يا إلهي! استمع إلى هذا!»
قال داني: «قضيت وقتًا عصيبًا معه قبل قليل، عند ساحة وقوف السيارات بمطعم وايت تشيكن»، ورفع يديه المتسختين بالتراب، يديه اللتين تقشّر جلدهما.

قال يوجين: «ماذا حدث؟» ذهب إلى النافذة ونظر إلى الخارج... «أين كورتيس؟» كان كورتيس معروفًا بنوبات السعال الشديدة التي تداهمه عند الحزن (لديه مشكلات في القصبات الهوائية أو في التنفس)، وكثيرًا ما كان يحزن أكثر من اللازم عندما يرى شخصًا آخر في ألم.

هز داني رأسه بلا مبالاة وقال بصوت أجش: «لا أدري، سئمت أن أكون مذعورًا طيلة الوقت». فوجئ يوجين عندما رآه يستل من حذائه سكينًا معقوفة مخيفة المظهر، وضعها على الطاولة بضربة ثقيلة. مظهره جامد كالصخر، لكنه ينضح تهديدًا.

قال: «هذه هي حمايتي... منه»، أدار عينيه جانبًا حتى بان بياضهما، ففهم يوجين أنه يقصد فاريش.

توقف صوت البكاء الفظيع. ترك يوجين النافذة وجلس إلى جانب داني. قال له: «أنت تقتل نفسك، عليك أن تحظى بقسط من النوم». كرر داني كلماته: «أحظى بقسط من النوم»، ثم نهض واقفًا كأنه يهم بإلقاء خطبة، لكنه جلس من جديد.

في تلك اللحظة، دخلت غام الغرفة بخطواتها البطيئة مقترية
منهما، تدفع أمامها جهاز المساعدة على المشي، إيقاع خطواتها
ال مميز يُسمع: كليك... كليك... كليك. قالت بصوتها الرقيق
المسال، وبنبرة تحمل مزيجاً من الحكمة والذكريات القديمة:
«كان أبي يقول دائماً إن هناك أمراً غير سليم في أن يجلس
الرجل على كرسي ويقرأ كتاباً»، كأنها كانت تُقدم حكمة عائلية
قديمة، تُشيد بوالدها وكلماته. كان الكتيب موضوعاً على الطاولة،
مدت يدها المرتعشة وحملت الكتيب، حملته على امتداد ذراعيها
وأمعنت في غلافه الخارجي، ثم قلبته ونظرت إلى ظهره...
«فليبارك الرب قلبك يا يوجين!»

نظر إليها يوجين من فوق حافة نظارته: «ما الأمر؟»

قالت غام بعد لحظة صمت متسامح: «أوه، نعم، أكره أن أراك
تبالغ في آمالك، العالم قاسٍ على أمثالنا. وبالتأكيد، أكره التفكير
في معلمي المدارس الشباب المصطفين في الدور قبلك كي
يحصلوا على عمل».

«كيف؟ ألا أستطيع النظر في هذا الكتيب؟». لم تكن جدته
تقصد الإساءة بكل تأكيد: هي امرأة عجوز فقيرة محطمة أمضت
حياتها في العمل الشاق. لم تمتلك شيئاً، ولم تحظ بفرصة
حقيقية أبداً، بل لم تعرف أصلاً كيف تكون الفرصة. لكن، لماذا
يجب أن يعني ذلك أن أحفادها أيضاً لا فرص لهم؟ لكنه لم يكن
يملك إجابة عن هذا السؤال.

قال: «هذا مجرد كتيب حصلت عليه من مكتب الزراعة
الفرعي. كان مجانياً، بإمكانك الذهاب هناك لترين بنفسك. لديهم

كتيبات عن زراعة كل محصول وكل نوع من الخضار والأشجار». طيلة هذا الوقت، كان داني جالسًا صامتًا، محدقًا في الفراغ. فجأة، نهض واقفًا، نهوضًا مفاجئًا جعل كل من يوجين وغام ينظران إليه بقلق. عيناه غائمتان، ووقف يتمايل كأنه يفقد توازنه، وتراجع إلى الخلف خطوة.

قال ليوجين: «يبدو شكلك حسنًا بهذه النظارة».

قال يوجين: «شكرًا»، ثم رفع يده كي يعدّل وضعها على وجهه.

قال داني: «يبدو شكلك حسنًا»، عيناه لامعتان بافتتان مقلق... «ينبغي أن تضع النظارة طيلة الوقت».

استدار. ومع استدارته، خارت ركبتاه من تحته وسقط على الأرض.

اجتمع النعاس الذي كان داني يقاومه منذ أسبوعين كاملين عليه دفعة واحدة، كأنه فيضان جامح انطلق من سد منهار، ليجتاحه بلا رحمة. ومع هذا السيل الجارف، تدفقت إليه ذكريات متاثرة، وأشياء مهملة من مراحل متباينة في حياته، تهاجمه دون ترتيب أو هوادة. وجد نفسه فجأة يعود إلى سن الثالثة عشرة، مستلقيًا على سرير ضيق في ليلته الأولى بـ«صالة الشباب» ذلك المبنى البني من الآجر، حيث كانت المروحة الصناعية تدور على الأرض الأسمنتية بصوت متقلقل، كأنها على وشك القفز والطيران. لكنه عاد أيضًا إلى الصف الأول، طفلًا في الخامسة من عمره، ثم ارتد إلى سن التاسعة مشتاقًا إلى أمه التي ترقد في المستشفى، مشتاقًا إليها بشدة، قلبه الصغير مثقل بالخوف من فقدانها،

وبالرعب من والده الثمل في الغرفة الأخرى. استلقى مستيقظًا، محاصرًا بهذيان مذعور، يتذكر كل تفصيلة في الستارة المطبوعة المعلقة في غرفته. كانت ستارة عتيقة، ربما صنعت للمطبخ. لا يزال داني لا يعلم معنى كلمة «كزيرة»، ولا كلمة «هراوة»، لكنه لا يزال قادرًا على رؤية تلك الحروف البنية لامعة على القماش القطني الأصفر؛ كلمات وأسماء تشكل قصيدة تستحضر كابوسًا باسمًا على رأسه قبعة مرتفعة، كابوسًا جاثمًا إلى جوار سريره... كان داني يتقلب على فراشه، محاصرًا بتداخل الأزمنة والوجوه والذكريات. في تلك اللحظة، كان يعيش أعمار حياته كلها في آن واحد: كان طفلًا صغيرًا، وكان في العشرين من عمره (رجلًا مثقلًا بسجل جنائي، بعبادات ترسخت كطبائع، وبثروة مفترضة يخفيها أخوه في مكان مرتفع يطل على البلدة، ثروة تناديه بصوت حاد مخيف، كأنها تناديه من مخبئها فوق خزان المياه). اختلط في ذهنه خزان المياه بالشجرة التي تسلقها حين كان طفلًا، تلك الشجرة التي رمى منها جروًا صغيرًا ليرى ما يحدث له، ومات الجرو. كانت تلك الذكرى المشؤومة تتشابك مع أفكاره المظلمة عن تمزيق فاريش إربًا، ومع خزي أكاذيب طفولته، حين كان يزعم بأنه يقود سيارات سباق، ويضرب الناس، ويقتلهم بلا رحمة. الذكريات، المدرسة، المحكمة، السجن، والغيثار الذي أصر والده على أن يتوقف عن عزفه لأن (كما قال) الجهد المبذول فيه كان بلا فائدة. أين ذلك الغيثار الآن؟ عليه أن يجده. لكن الناس ينتظرونه في السيارة، وإذا لم يسرع، فسوف يرحلون ويتركونه. تصادم هذه الأزمنة والأمكنة في رأسه جعله يتقلب بلا توقف،

كانما يسعى للهروب من زوبعة تعصف داخله. فجأة، رأى أمه (أمه!) تنظر إليه من النافذة، وجهها اللطيف المتورم غارق في قلق صامت. تلك النظرة جعلته يرغب في البكاء. وجوه أخرى طفت أمامه فجأة جعلته يجفل مذعورًا. كيف يفرق بين الأحياء والأموات؟ وجوه بعضها ودود، وبعضها غريب وعدائي، كلها تتحدث إليه كأنها تعرفه، وتتحدث فيما بينها، على الرغم من أنها لم تلتق أبدًا في الحياة. أشخاص يدخلون ويخرجون من غرفته في جماعات كبيرة مشغولة بأمور غامضة. كان يحاول أن يميز بينهم، أن يعرف من يكون هذا ومن يكون ذاك، لكنه لم يستطع. لماذا هم هنا، في غرفته؟ هذا المكان ليس لهم! أصواتهم تضجّ حوله، متشابكة مع صوت المطر الذي يضرب سقف المقطورة المعدني بالحاح. كانت تلك الوجوه رمادية، بلا ملامح واضحة، بلا تفاصيل تميّزها، كالْمَطَر.

كان يوجين جالسًا بجوار السرير، مرتديا نظارته الغريبة، تلك النظارته التي تجعله يبدو شخصًا متعلمًا. كانت التماعات برق الصيف العارضة تثير وجهه للحظات؛ ما يضيف عليه هالة غريبة في وسط تلك الدوامة البشرية المتقلبة والمحيرة. بدا يوجين والكرسي الذي جلس عليه الشيئين الوحيديين الثابتين في الغرفة وسط كل هذا الاضطراب. وفي لحظات كثيرة، كانت الغرفة تبدو خالية تمامًا، فينتفض جالسًا، مذعورًا من فكرة أنه قد يكون قد مات بالفعل. كان الخوف يسيطر عليه، خوف من أن نبضه قد توقف، وأن دمه بدأ يبرد في عروقه. حتى أشباحه التي ألفها كانت تبتعد عنه.

كان يوجين يردد له بهدوء: «اهدأ! اهدأ!»

يوجين، رغم رخاوته التي تشبه كيك الفاكهة، كان الأكثر لطفًا بين أشقائه، بعد كورتييس. أما فاريش، فقد ورث نصيبًا كبيرًا من طباع والدهم السيئة. يكفي أن والدهم أطلق النار على رأسه، حادثة أفقدت فاريش جزءًا من عقله. ولعل ريكي لي كان صاحب النصيب الأكبر من تلك الطباع، لكنها تخدمه الآن جيدًا في السجن.

لكن يوجين لم يكن يشبه والدهما كثيرًا... لم يرث أسنانه المملخة بالتبغ، ولا عينيه الماعزيتين المليئتين بالشر. كان أشبه بأمه، تلك المرأة البسيطة، التي قضت نحبها وهي تهذي بكلمات عن «ملائكة الرب» الواقفين حفاة الأقدام على المدخنة. امرأة ساذجة، لكنها طيبة، فليباركها الرب! كان يوجين يحمل ملامحها في وجهه؛ عيناه المتقاربتان، أنفه الكبير الذي بدا صادقًا بطريقة غريبة، ووجهه الذي يعكس بساطة الأم. وحتى تلك النظارة، خففت من قبح ندبته. خلف النافذة، انبثق برق أزرق أضاءه من الخلف، وانعكس أثره فوق عينه اليسرى، حيث بدت الندبة كأنها نجمة حمراء صغيرة تتلألأ تحت النظارة. كان يقول له وقد ضم كفيه بين ركبتيه: «المشكلة هي أنني لم أر كيف لم تستطع أن تفصل ذلك الثعبان الزاحف عن بقية الخليقة. إن لم تفعل، فسوف يلدغك». نظر إليه داني بدهشة، متأملًا مظهره الجديد الذي منحته النظارة. بدا كأنه شخص آخر، معلم خرج من حلم غامض، شخص يحمل حضورًا لم يألفه داني من قبل. خرج يوجين من السجن بعادة جديدة: التحدث كثيرًا، يقول

كلامًا لا ترابط فيه (كأنه يكلم أربعة جدران ولا أحد يصفي إليه). في هذا أيضًا، كان يشبه أمه. تلك الأم التي كانت تتقلب على فراشها، تهذي بأحاديث مع زائرين غير مرئيين، تدّعي أنها تتصل باليانور روزفلت، وإشعيا، وحتى يسوع المسيح.

كان يوجين يقول: «تلك الأفعى ليست سوى واحدة من خدم الرب، فهي من خلقه مثلما ترى. حملها نوح على سفينة مع باقي الحيوانات، فلا يمكنك أن تقول: (أوه، الأفعى ذات الجرس شريرة، الرب هو الذي صنع الأفاعي كلها، وجميعها خيرة بقدر ما أراد لها أن تكون. يد الرب هي التي صنعت الأفعى، كما صنعت الحمل الصغير)». رنت عيناه نحو زاوية مظلمة من الغرفة، زاوية بالكاد يصلها النور. تلك النظرة دفعت داني إلى التحديق في الاتجاه ذاته، لكنه فعل ذلك مذعورًا، كأنما يبحث عن شيء غير مرئي. فجأة، تجمد في مكانه، وخنق صرخة خوف بقبضة يده، صرخة كادت تفلت من أعماق روحه عند رؤيته تلك الصورة المتجسدة من كابوسه القديم، مخلوق صغير أسود يتلوّى ويرتعش متوترًا على الأرض عند قدمي يوجين، يكافح بصمت، مرتبكًا ومتوترًا. وعلى الرغم من أنه لم يكن شيئًا يستحق الذكر، كأنًا بالكاد يثير الانتباه، يستدعي الشفقة أكثر مما يثير الخوف، فإن داني شعر بأن حضوره يحمل رهبة غير قابلة للوصف، رهبة تعصف به كأنها تتجاوز حدود العقل. كان ذلك المشهد بالنسبة إلى داني أكثر من مجرد خوف؛ كان رعبًا مطلقًا، يتجاوز حتى مشاهد سفك الدماء.. رعبًا أشبه بطائر أسود يحوم فوقه، يذكره برجال ونساء وأطفال سود يركضون عند ضفة الجدول، يركضون

بحثًا عن الخلاص، في حين تعلو أصوات طلقات الرصاص خلفهم. ذلك الرعب لم يكن مجرد صورة؛ كان طعمًا زيتيًا بشعًا يملأ فمه، شعورًا مريزًا ينساب إلى أعماقه. كان ارتعادًا يجتاح جسده، كأن خلاياه نفسها تتفكك وتتهار. عضلاته كانت تتشنج، وأوتاره مشدودة حتى الحد الأقصى، كأنه يتحلل إلى ريشات سوداء وعظام بيضاء ناصعة.

هاريت أيضًا، استيقظت فجأة في فراشها مذعورة دون أن تدري سبب فزعها. كان ذلك في ساعة مبكرة من ذلك الصباح نفسه، مع أول خيوط شروق الشمس. لم تستطع تذكر ما رآته في حلمها، لكنه ترك في أعماقها شعورًا بالاضطراب. توقف المطر، وغمرت الغرفة سكون غريبة، وكانت معتمة قليلًا. ألقت بنظرها نحو فراش أليسون: دبة محشوة متناثرة هنا وهناك، وكفارو صغير ذو عيينين متقاربتين يحدق إليها بثبات غريب من فوق ملء السرير. لم يظهر من أليسون سوى خصلة طويلة من شعرها، متناثرة فوق الوسادة كأنها شعر فتاة غارقة، يطفو بهدوء على سطح الماء.

بحثت هاريت في درجها عن قميص نظيف، لكنها لم تجد شيئًا. فتحت درج أليسون بهدوء شديد، فرحت عندما وجدت بين الثياب المتسخة قميصًا مكويًا مطويًا بعناية: قميص كشافة الفتيات القديم. أخرجته ببطء، رفعته إلى وجهها، وأخذت نفسًا عميقًا حاليًا: لا تزال فيه رائحة غسيل آيدا... أثر خفيف جدًا من تلك الرائحة.

ارتدت حذاءها بخفة، ثم نزلت السلم على أطراف أصابعها، محاولة ألا تُحدث أي صوت. كان البيت غارقاً في صمت تام، لا يُسمع فيه سوى تكات الساعة الرتيبة. بدت الفوضى في الصالة أقل إثارة للاشمئزاز تحت وهج ضوء الصباح الذي انسكب بغزارة على الدرابزين وعلى سطح طاولة الماهوغياني المغبرة. على السلم، توقفت للحظة، متأملة صورة قديمة لأمها، كانت الصورة تشع بجمال خفي: شفتان ورديتان، وعينان كبيرتان لامعتان، بدا في بؤبؤيهما الذاهلين كأن نجومًا صغيرة تبرق. ابتسمت هاربيت للصورة، لكن سرعان ما عادت للتسلل بخطوات خفيفة، متجاوزة الصورة كما يتجاوز اللص كاميرا مراقبة، حريصة على ألا تُكشف. تابعت سيرها منحنية، حتى دخلت غرفة المعيشة. هناك، انحنى ببطء وسحبت المسدس من تحت كرسي أيدا.

بحثت في خزانة الممر عن شيء يمكنها أن تحمل فيه المسدس، فوجدت كيسًا من النايلون السميك بحمالتين. لكنها سرعان ما لاحظت أن شكل المسدس يبدو واضحًا من خلال النايلون الشفاف؛ فترددت. أخرجت المسدس من الكيس ولفته بعدة بطبقات من ورق الصحف، ثم أعادته إلى الكيس، وعلّقه على كتفها، كأنها تجسد شخصية ويتفتنون في القصة، تتطلق باحثة عن ثروة مجهولة.

لحظة خروجها من البيت، استقبلها غناء طائر بدا كأنه يزقزق في أذنها مباشرة، بنغمات عذبة واضحة، متصاعدة كأمواج موسيقية تتفجر ثم تهدأ قبل أن تتطلق من جديد. على الرغم من أن شهر آب لم ينته بعد، كان الهواء كان يحمل شيئاً

من برودة الخريف، مغبراً وممزوجاً برائحة الصباح الرطبة. في فناء السيدة فاونتين، كانت أزهار الزينيا تلمع كأنها مفرقات صغيرة: حمراء، وبرتقالية، وذهبية. لكنها بدأت تذبل، وراحت رؤوسها تتغضن وتفقد بريقها.

كان الشارع هادئاً ومقفرًا إلى حد غريب، باستثناء زقزقة العصافير الحادة التي ارتفعت بتفاؤل مبالغ فيه، تفاؤل أبله ومتعجل. لم يكن هناك أحد، كل شيء كان ساكنًا. رشاش مياه يخرخر في مرج خالٍ، ومصابيح الشوارع وشرفات البيوت المضيئة تتلألأ في امتدادات طويلة وخالية. حتى وقع خطواتها الخافت على الرصيف كان له أصداً تتردد وتمضي بعيداً.

امتدت أمامها شوارع رطبة، مبللة، سوداء اللون، عريضة، كأنها تمتد بلا نهاية. ومع اقترابها من ساحات الشحن، بدأت المروج الصغيرة المحيطة بالبيوت تتقلص وتصبح أقل اتساعاً، فيما صارت المنازل أكثر بؤساً وأشدّ تقارباً. بعد بضعة شوارع، بالقرب من «البلدة الإيطالية»، مرت بها سيارة منفردة. كانت تدريبات المشجعات الرياضية ستبدأ قريباً، على بعد بضع كتل سكنية فقط، في حديقة «المستشفى القديم» التي تظللها الأشجار. في صباحات الأيام الماضية، اعتادت هاربيت سماع صرخاتهن وحماسهن يملأ الجو هناك.

تجاوزت هاربيت شارع ناتشيز، لتجد الأرصفة وقد أصبحت متكسرة، بالكاد صالحة للسير: ضيقة جداً لا يتجاوز عرضها قدمًا واحدة. على جانبي الطريق، كانت البيوت متداعية، نوافذها مغلقة بألواح خشبية متهاكة، وشرفاتها آيلة للسقوط. في

أفنيتهما، تراكمت خزانات الغاز الصدئة، وأعشاب نمت بلا عناية منذ أسابيع. ظهر كلب تشو أحمر اللون، فراؤه متلبّد، يندفع نحو السور المصنوع من شبك معدني. كان ينبع بشراسة، مكشّراً عن أسنان لامعة خلف فم أزرق اللون. أسفت هارييت عليه رغم شراسته، بدا لها كائنًا منسيًا، لم يفصل أحد فراءه يومًا، وكل ما حظي به في حياته صحن ألمنيوم مدور مليء بماء متجمد، تركه أصحابه في الخارج ليواجه برد الشتاء وحده.

تابعت طريقها، متجاوزة مكتب توزيع طوابع الطعام، ثم متجر البقالة المحترق (ضربته صاعقة، ولم يُستصلح منذ ذلك الحين). انعطفت بعدها في الطريق الترابي المؤدي إلى ساحات الشحن وخزان المياه التابع للسكة الحديدية. لم تكن لديها فكرة واضحة عن وجهتها، ولا عن سبب وجودها هناك، ولا عما ينتظرها. لكنها شعرت، على نحو غامض، أن الأفضل لها ألا تكثر التفكير في الأمر.

تابعت سيرها، حذرة الخطى، وعيناها تتبعان الطريق الترابي أمامها، ذلك الذي تناثرت فيه عصي سوداء وأغصان متكسرة، لا تزال أوراقها عالقة بها، أغصان حطمتها العاصفة العنيفة التي هبت ليلة أمس.

فيما مضى، كان هذا الخزان يمدّ المحركات البخارية بالماء؛ أما اليوم، فلا علم لهارييت إن كان له استخدام آخر. قبل سنتين، جاءت مع صبي اسمه ديك بيلو، وتسلقا الخزان بدافع الفضول، ليعلما إلى أي مدى يمكن أن تمتد رؤيتهما من أعلاه. كان المشهد واسعًا بشكل مدهش، خصوصًا في اتجاه الطريق العابر بين

الولايات، وقد أسرها ذلك المنظر بجماله: آثار المياه اللامعة على سكة القطار، والسقوف المديبة التي بدت كأنها حقل من الأشغال الورقية اليابانية المتقنة، سقوف حمراء وخضراء وسوداء وفضية، مصنوعة من الخشب والنحاس والقطران والصفيح، تمتد في منظر شاسع كأنها تظلل المسافات الأثرية الحاملة. ذلك المشهد كان أشبه بإطلالة على بلد آخر، له طبيعة غريبة وشاعرية، شيء أقرب إلى الألعاب الساحرة. ذكرها ذلك بصور رأتها من قبل عن الشرق، عن الصين واليابان. ومن خلف كل ذلك، كان النهر ينساب كأنه زاحف حي، سطحه الأصفر متغضن ومتلامع، يمتد في مشهد يجعل من السهل تصديق أن آسيا الصاخبة، المتلألئة، العاملة كآلة دقيقة، تقبع هناك خلف الأفق مباشرة. كأن خلف التفافات النهر الأفغانية الموحلة، يكمن عالم مليء بالضجيج، بأصوات مقعقة، ودندنة مليون جرس صغير. أسرها ذلك المشهد تمامًا، حت إنها لم تولِ الخزان نفسه انتباهًا كبيرًا. مهما حاولت الآن، لم تستطع تذكر تفاصيل قمته أو هيئته بدقة. فقط تذكرت أنه مصنوع من الخشب، وأن بابه مقصوص من السطح العلوي. في ذاكرتها، كان الباب صغيرًا، لا يتجاوز قدمين مربعتين، وله مفصلات ومقبض يشبه مقبض خزانة مطبخ. لكن مخيلتها، بنشاطها الجامح، كانت تخلط دائمًا بين ما تتذكره فعلاً وما يملؤه خيالها من فراغات ذاكرتها، وكلما فكرت في داني راتليف، وكيف كان جائئًا فوق الخزان، بوضعية متوترة، يلتفت باستمرار وينظر بقلق من فوق كتفه، بدا لها أنه كان يخفي شيئًا، أو ربما يحاول إخفاء نفسه. لكن ما بقي عالقًا

في ذهنها هو تلك اللحظة التي التقت فيها نظرتها بنظرته. كان في عينيه توتر واضح، ولمعت عيناه فجأة، كأن شعاع ضوء قد انعكس على مرآة لإرسال إشارة. تلك اللمعة كانت أشبه بشيفرة، إنذارًا مكلومًا، أو ربما رسالة معرفة خفية. لا تدري كيف علم أنها هناك: كانت واقعة ضمن مجال إدراكه. وعلى نحو غريب (يقشعر جلدها كلما انتهت إلى ذلك)، كان داني راتليف أول شخص ينظر إليها فعلاً منذ زمن طويل جدًا.

كانت سكة القطار تمتد أمامها، تلمع تحت أشعة الشمس كأنها شرايين من زئبق داكن، تتفرع عند نقاط التحويل بخطوط فضية متموجة. أما أعمدة التلفراف القديمة، فقد أثقلتها النباتات المتسلقة. ومن فوقها، يعلو خزان المياه، سطحه غارق في وهج الشمس. تقدمت هاربيت بخطوات حذرة عبر المساحة الخالية التي نبتت فيها أعشاب كثيفة، وتسلفت حول الخزان، تدور حول قوائمه المعدنية الصدئة التي تبعد عنها نحو عشرة أقدام.

بعد التفاتة سريعة متوترة من فوق كتفها (تأكدت من أن لا شيء يقترب؛ لا سيارات، ولا أصوات، فقط غناء الطيور)، رفعت رأسها تنظر إلى السلم. لاحظت أن الدرجة السفلى أصبحت أعلى مما كانت. ربما يستطيع رجل طويل القامة أن يبلغها بقفزة، لكن بالنسبة إلى أي شخص آخر، كانت المسافة تحديًا حقيقيًا. قبل سنتين، عندما جاءت مع ديك، اضطرت إلى الوقوف على كتفيه لتصل إلى الدرجة، ثم تسلق ديك بعد أن وقف وقفة خطيرة على مقعد دراجته ليحذو حذوها.

كانت الأرض تحتها مغطاة بأزهار صغيرة، وخصل من عشب ميت تطل من بين الحجارة الصغيرة. جنادب كانت تغني بجنون

في كل مكان، صوتهما الحاد بدا كأنها تدرك أن نهاية الصيف وشيكة، وأنها ستموت عما قريب. كان غناؤها الملحّ يضي على الصباح إحساسًا محمومًا وغير مستقر. تفحصت هاربيت قوائم الخزان، كانت العوارض المعدنية على شكل حرف H، ثقبها متطاولة، تبعد الواحدة عن الأخرى نحو قدمين. العوارض تعلو متقاربة تقاربًا بسيطًا إلى أن تصل إلى الخزان نفسه. فوقها، كان الهيكل مدعّمًا بقضيبين متقاطعين قطريًا، يرسمان حرف X. فكّرت: إذا استطاعت تسلق إحدى القوائم الأمامية للخزان رغم المسافة الكبيرة (لم تكن هاربيت ممن يحسنون تقدير المسافات) فقد تتمكن من الاستناد إلى القضيبين المتقاطعين للوصول إلى السلم.

بدأت التسلق بحذر، ومع أن جرح يدها قد شُفي، فإن راحة يدها اليسرى ما زالت تؤلمها قليلًا؛ ما اضطرها إلى الاعتماد على اليد اليمنى أكثر. كانت الثقوب في القوائم ضيقة، بالكاد تتسع لأصابع يدها أو مقدمة حذائها.

تابعت التسلق، أنفاسها تزداد ثقلًا مع كل خطوة. كان الصعود بطيئًا وشاقًا، والمعدن المغطى بطبقة كثيفة من الصدأ يتقشر تحت يديها، متساقطًا كغبار أحمر بلون الآجر. ورغم أنها لا تخشى المرتفعات (تتنشي بتجربتها، وتحب التسلق)، فإن قلة ما يمكنها التمسك به جعلت كل إنش من التسلق يحتاج إلى جهدٍ مضاعفٍ.

قالت في نفسها: حتى لو سقطت، فلن أموت!

فيما مضى، سقطت هاربيت (أو ربما قفزت) من أماكن عالية جداً: من سطح سقيفة الأدوات، ومن الغصن الكبير لشجرة البيكان في فناء بيت إيدي، ومن السقالات العالية المقامة أمام الكنيسة المشيخية. ومع ذلك، لم ينكسر فيها عظم. لكنها الآن، وهي تتسلق، شعرت بأنها مكشوفة أمام أي عين تراقبها من الأسفل. كان كل صوت، كل طقطقة خشبية أو زهزعة طائر، يدفعها إلى أن تشيح بوجهها عن العارضة المعدنية الصدئة التي لم تكن تبعد عن أنفها سوى ستة إنشات. عند النظر إليها عن قرب، بدت العارضة عالماً قائماً بذاته، أشبه بسطح فاحل على كوكب أحمر صديء.

بدأت تشعر بخدر في يديها. تذكرت هاربيت تلك اللحظات في ملعب المدرسة، عندما كانوا يلعبون ألعاب الحرب أو يتأرجحون على قضبان التمارين الرياضية. في تلك اللحظات، كثيراً ما كانت تشعر برغبة كبيرة في إرخاء قبضتها وترك نفسها تسقط. إنها الرغبة نفسها التي راحت الآن تقاومها. أحكمت قبضتها على العارضة، تصرّ على أسنانها، وتجذب جسدها نحو الأعلى، مركزة كل قواها في أطراف أصابعها التي تؤلمها. وفي ذهنها، تسالت أنشودة قديمة من كتاب أطفال تركت أثراً عميقاً فيها منذ الصغر، وبدأت كلماتها تتقاذف كأنها تهدد خوفها:

كثيراً ما أسمعهم يقولون، يا سيد تشانغ،

إنك تضع على رأسك سلة كأنها قبة،

وإن لديك مقصين لتقطيع اللحم،

وإن لديك عودين تأكل بهما...

استجمعت آخر ما لديها من إرادة، وأمسكت بالقضيب المعترض الأقرب إليها، ثم جذبت جسدها صعودًا. في تلك اللحظة، تخيلت صورة السيد تشانغ التي كانت تطاردها في طفولتها. صورته المربعة في كتاب القصص كانت محفورة في ذاكرتها: قبعته الصينية المدببة، وشاربه الرفيع كالخيوط، وعيناه الماندرينيتان المتطاوالتان الخبيثتان. لكن أكثر ما أزعجها كان المقص النحيف الذي رفعه بيده بابتسامة ناعمة مريبة.

تمهلت هاربيت لحظة، تتأمل وضعها بدقة. وصلت الآن إلى الجزء الأكثر صعوبة في التسلق. كان عليها أن تطوِّح بساقها في الهواء لتصل إلى القضيب المعترض الآخر. أخذت نفسًا عميقًا، ثم رمت نفسها في الفراغ.

في لحظة خاطفة، لمحت الأرض تحتها، معوجة وكأنها تقفز نحوها. شعرت للحظة واحدة بأنها تسقط، بأن النهاية قد حانت. لكن في اللحظة التالية، وجدت نفسها جاثمة على القضيب المعترض، متشبثةً به كأنها قردة. صارت الآن على ارتفاع شاهق، كافٍ لأن يُدقَّ عنقها إن سقطت. أغمضت عينيها وأراحت جسدها للحظة، وجنتها ملتصقة بالحديد الخشن.

كثيرًا ما أسمعهم يقولون، يا سيد تشانغ،

إنك تضع على رأسك سلة كأنها قبة،

وإن لديك مقصين لتقطيع اللحم،

فتحت عينيها ببطء، واستوت جالسة، يداها مستندتان إلى العارضة. كم بلغ ارتفاعها عن الأرض؟ بدا لها المشهد مألوفًا، مثلما كانت ذات مرة ممطية غصن شجرة (الطين يلطخ سروالها

الداخلي، والنملات تقرص ساقها). تذكرت ذلك الصيف الذي أعقب سنتها الأولى في المدرسة، عندما تسلقت شجرة عالية ولم تستطع النزول. كان يومًا مشمسًا، يوم ابتعدت كثيرًا عن «مدرسة الإنجيل». أهو اليوم ذاته؟ كانت قد تسلقت الشجرة بلا خوف، بخفة «سنجاب»، كما وصفها سيدة عجوز سمعت مصادفة صوتها الخائف المحرّج ينادي من أعلى الأغصان طالبًا النجدة. وببطء، نهضت هاربيت واقفة، متشبثة بالقضيب المعدني. كانت ركبناها ترتعشان في أثناء نهوضها، أفلتت القضيب الأول وأمسكت بالقضيب المعارض الذي فوقها، تدفع بنفسها بصعوبة شيئًا فشيئًا. عبر ذاكرتها، ظهر ذلك الرجل المعجوز مجددًا: ظهره المحدودب، ووجهه المليء بالبقع الحمراء، ونظرته التي اخترقت الأغصان المتشابكة يوم وجدها على الشجرة. سألها بصوته الأجش: «ابنة من أنت؟». كان يسكن بيتًا رماديًا مجصصًا قرب الكنيسة المعمدانية، هناك عاش وحيدًا. الآن، هو ميت، ولم يبقَ شيء في فناء بيته سوى جذع مقطوع لشجرة جوز البيكاني. تذكرت كيف سمع الرجل صيحاتها الضعيفة (النجدة... النجدة...)، صيحات خافتة بدت كأنها تسبح في الهواء من لا مكان. رفع رأسه يبحث عن مصدر الصوت، ينظر حوله كأن شبحًا همس في أذنه.

تقلصت زاوية القضيبين المتصالبين تحتها، فأصبحت أضيق من أن تقف عليها بثبات. جلست من جديد ممتطية القضيبين معًا، وأمسكت بالقضيبين الآخرين الممتدين في الناحية المقابلة. كانت الزاوية صعبة، ويدها فقدت الإحساس تقريبًا. قلبها كان

ينبض بعنف عندما ألقت بنفسها في الفراغ، ذراعاها المرتعشتان بالكاد قادرتان على الإمساك من شدة إعيائها. في اللحظة التالية، وجدت نفسها متمسكة بالجهة الأخرى، أنفاسها تتلاحق لكنها الآن آمنة.

انزلقت نزولاً حتى بلغت القضيبين المتصالبين السفليين، الحركة كانت أشبه بانزلاقها على درابزين السلم في بيتها. وبينما استندت إلى العارضة لتلتقط أنفاسها، راودها طيف الرجل العجوز مجدداً. مات ميتة مخيفة لا تكاد تطيق التفكير فيها: اقتحم اللصوص بيته، أجلسوه على الأرض قرب سريره، ثم انهالوا عليه بمضرب بيسبول. لم يلحظ الجيران شيئاً حتى وجدوه غارقاً في بركة من دمه، ميتاً.

استندت إلى العارضة المقابلة لترتاح، السلم فوقها الآن، لم تعد المسافة بعيدة، لكنها تعبت. أثقل التعب جسدها وأضعف تركيزها. عندما عندما أمسكت بالدرجة الأولى من السلم، اكتسحت جسدها موجة ذعر؛ انزلقت قدمها، وكادت تسقط. في اللحظة الأخيرة، استطاعت تدارك نفسها. انتهى الأمر، والموقف الخطر مضى سريعاً، حتى قبل أن تستوعب هاربيت ما حدث. أغمضت عينيها للحظة، تمسكت بالسلم جيداً حتى هدأت أنفاسها واستعادت توازنها. وعندما فتحتهما، شعرت كأنها متعلقة بسلم حبال يتدلى من منطاد. امتدت الأرض تحتها على مدى واسع، بدت كمشهد القلعة في كتاب قصصها القديم «من نافذة البرج»:

الروعة ماثلة على جدران القلعة

وقمم ثلجية قديمة في القصة،
عمود ضوء طويل ممتد عبر البحيرات
والشلال الهائج يثب عظيمًا...

ولكن، لا وقت لديها لأحلام اليقظة. أجفلت لسماعها هدير
حصادة من بعيد، فقد ظنت، للحظة قصيرة، أنه صوت سيارة
قادمة. استدارت وتسلفت بقية السلم بأسرع ما استطاعت.

كان داني مستلقيًا على ظهره ساكنًا، وعيناه تحدقان في
السقف. الضوء كان قاسيًا ومزعجًا. شعر بضعف يسري في
أوصاله، كأن حمى أصابته. وفجأة، أدرك أنه أمضى وقتًا طويلًا
ينظر بلا وعي إلى شريط رفيق من ضوء الشمس الساقط على
السقف. من الخارج، سمع صوت كورتيس يغني، كلمة تكررت مرة
بعد مرة وبدت له كأنها كلمة «حلو». ومع بقاءه مستلقيًا، بدأ
يلتقط صوتًا غريبًا، صوت صدمات صغيرة منتظمة، كأن كلبًا
يحك رأسه بقائمه عند سريره.

تحامل على نفسه ونهض قليلًا على مرفقيه، لكن ارتدادًا
عنيفًا أعاده إلى استلقاءه، حينما رأى فاريش. كان فاريش جالسًا
على كرسي يوجين، وذراعه معقودتان على صدره، وقدمه تتقر
الأرض. كان ينظر إليه بعينين صمغيتين متفرستين، وركبته تعلو
وتهبط بلا توقف، ولحيته الرطبة المتهدلة حول فمه بدت كأنها
مبتلة، سكب عليها شيء، أو كأنه يعض شفثيه ويسيل لعابه.

غرّد طائر خارج النافذة، كان طائرًا أزرق، أو هكذا بدا لداني،
طائرًا صغيرًا رقيقًا كالذي اعتاد أن يراه في التلفزيون. حاول

أن يتحرك، وهمّ بالجلوس، لكنه تجمد في مكانه عندما انحنى فاريش نحوه فجأة ووخزه بإصبعه في صدره.

قال فاريش بصوت متوتر، أنفاسه الحارة الكريهة المليئة برائحة المخدرات تلفح وجه داني: «أوه، لا! لا تتحرك! لن أسمح لك!»

قال داني بصوت متعَب: «ماذا؟ دعني أنهض!» أدار وجهه جانبًا.

عاد فاريش إلى جلسته الأولى. لكن للحظة، رأى داني أباه الميت جالسًا على ذلك الكرسي، ذراعاه معقودتان على صدره. رآه عائدًا من الجحيم، ينظر إليه نظرة ازدراء من خلف عيني فاريش.

قال بصوت خافت وهو يعيد داني إلى استلقائه: «أطبق فمك! لا تتطرق بأي كلمة، واسمع ما أقول! أنا الآن المسؤول عنك». استلقى داني من جديد، حائرًا، وهادئًا تمامًا.

قال فاريش: «رأيت جلسات استجواب، رأيت بشرًا أطاحت بهم المخدرات... الإهمال! الإهمال سيقتلنا جميعًا. موجات النوم مغناطيسية»، كان ينقر على جبهته بإصبعيه كأنه يريد أن يحفر كلمات في عقل داني... «هل فهمت؟ هل فهمت؟ بإمكانها أن تمحو عقلك بالكامل. أنت تعرض نفسك لتأثيرات إلكترومغناطيسية قادرة على تدميرك، على تدمير منظومة الولاء في داخلك بالكامل».

قال داني في نفسه: لقد فقد عقله تمامًا! كان فاريش يستنشق الهواء بسرعة عبر منخريه، ويمرر أصابعه

على شعره بعصبية، ثم كثر كأنه تعرض لألم مفاجئ، وأبعد يده عن رأسه كأنه لمس شيئاً لزجاً أو مقرّزاً. زمجر قائلاً عندما رأى نظرة داني مثبتة عليه: «لا تتذاكى معي».

خفض داني عينيه إلى الأرض، لكنه سرعان ما رأى كورتيس مسنداً ذقنه إلى عتبة الباب، ينظر إليه عبر باب المقطورة المفتوح. حول فمه دائرة برتقالية كأنه كان يعبث بأحمر الشفاه عند جدته. بدا على هيئة وجهه كأنه يخفي سرّاً، وهو مستمتع به.

ابتسم داني له وقد سرته هذه المقاطعة، قال له: «مرحباً، يا تمساح!»، لكنه لم يفلح في سؤاله عن تلك الدائرة البرتقالية، لأن فاريش استدار فجأة، وأشار إلى كورتيس بحركة حادة كقائد أوركسترا غاضب، أو كزعيم روسي في نوبة غضب هستيري، وصاح به: «اخرج، اخرج، اخرج».

اختفى كورتيس على الفور مع وقع خطواته على سلم المقطورة المعدني. حاول داني التحرك قليلاً، بدأ برفع جسده عن الفراش ببطء، لكنه ما إن فعل ذلك حتى استدار فاريش نحوه مجدداً، وأشار إليه بإصبعه: «هل قلت لك أن تنهض؟ هل قلت؟»، كان وجهه محمراً، يكاد يكون بنفسجياً من شدة انفعاله... «دعني أشرح لك...». جلس داني مثلما أراد فاريش له أن يجلس.

«نحن نعمل بموجب نظام التأهب العسكري، مفهوم؟ مفهوم؟» أدرك داني ما يريد منه فاريش قوله، قال بنبرة شبه ميكانيكية: «مفهوم».

«إذًا، لا بأس! الآن، دعني أوضح لك. لدينا أربعة مستويات في هذا النظام...» راح يرفع أصابعه الواحدة تلو الأخرى، مشيرًا إلى كل مستوى: «أخضر، أصفر، برتقالي، أحمر». بقيت أصابع فاريش الأربع مرفوعة، مرتجفة... «أظنك تعرف معنى اللون الأخضر من خلال خبرتك في قيادة السيارة».

قال داني بعد لحظة صمت ناعمة، ناعسة، طويلة، غريبة: «انطلق!»

«صحيح، صحيح، في اللون الأخضر، تكون مسترخيًا، غير يقظ، وما من خطر في البيئة المحيطة. والآن، اسمع هذا!» قالها فاريش وهو يشد على أسنانه... «لا وجود للون الأخضر، اللون الأخضر غير موجود».

نظر داني إلى مجموعة أسلاك متشابكة على الأرض، برتقالية وسوداء.

«الأخضر ليس خيارًا مطروحًا، وإليك السبب، لن أقول هذا إلا مرة واحدة». كانت خطواته تذرع المكان (مع فاريش، تلك الحركة لم تكن قط علامة حسنة) ... «إذا هوجمت وأنت في حالة اللون الأخضر، فقد قضى عليك».

من زاوية عينه، لمح داني يد كورتيس الصغيرة الممتلئة تمتد بخفة لتضع علبة سكاكر على طوار النافذة المفتوحة بجانب فراشه. ومن دون أن يصدر صوتًا، مد داني يده وأخذ الهدية. تراقصت أصابع كورتيس فرحًا، ثم اختفت عن الأنظار.

واصل فاريش كلامه: «نحن الآن نعمل وفق النمط البرتقالي، والبرتقالي يعني أن الخطر واضح، أنه مائل، أن عليك أن تبقي

انتباهك منصبًا عليه في كل وقت. أكرر: في كل وقت».

دس داني السكاكر تحت وسادته، قال: «هون عليك، يا رجل! أنت ترهق نفسك». أراد أن يكون صوته موحياً بالراحة، لكنه لم يكن كذلك. استدار فاريش، كان وجهه متلبداً، ضاجاً بالغضب، متكدماً، محتقناً، مضرّجاً بلون قرمزي.

وعلى نحو غير متوقع، قال: «سأقول لك ماذا... أنا وانت سنذهب بالسيارة. أستطيع قراءة ما في عقلك، يا غبي!». صرخ فجأة، وضرب رأسه بقبضته بقوة، ما جعل داني يحدق فيه مذعوراً... «لا تظن أنك قادر على خداعي!».

بينما كان فاريش يعض على شفته محملاً إلى الأرض غاضباً، أغمض داني عينيه لحظة ثم فتحهما من جديد، إنه بحاجة شديدة إلى التبول، قال بنبرة راجية رافعاً يديه أمامه: «اسمع، يا رجل! اهدأ لحظة واحدة!». رفع فاريش رأسه فجأة ونظر إليه بنظرة سريعة وغير موحية بالاطمئنان أبداً: عيناه زائفتان، متراقصتان وتعكسان جنوناً مكتوماً.

وقبل أن يدرك ما حدث، أمسكه فاريش من يافته ورفع ثم سدّد لكمة إلى فمه، وقال بصوت كالفحيح وهو يهزه من جديد ممسكاً بقميصه: «انظر إليك! أعرف ما تُظهر وما تبطن، يا ابن العاهرة!».

تأرجح داني من الألم، شعر بدوار، وتحسس فكه وهو يحاول فتحه ثم إغلاقه ليتأكد من أنه لم يُكسر. همس بصعوبة «فاريش...».

هذه هي اللحظة التي لا يحب أن يصل إليها، فاريش أثقل منه

بما لا يقل عن مئة باوند.

دفعه فاريش فأعاده إلى فراشه: «انتعل حذاءك! سنذهب بالسيارة».

قال داني وهو يدعك فكه: «لا بأس! إلى أين؟». إن كان في السؤال شيء من الاحتجاج ظاهر (كان ظاهرًا بالفعل) فذلك لأن داني هو الذي يقود السيارة دائمًا بصرف النظر عن المكان الذي يكونان ذاهبين إليه.

«لا تتذاكى معي...» صفعه على وجهه بظاهر يده... «إذا نقص المُنْتَج أونصة واحدة... لا! اجلس! هل قلت لك أن تقف؟»
جلس داني بلا حرف، وأدخل قدميه العاريتين الدبقتين في حذائه.

«هذا صحيح، تابع النظر حيث تنظر الآن!»
سُمع أنين فتح باب مقطورة غام. وبعد لحظة، سمعها داني تجرجر شبشبها البيتي على الحصى في الخارج.
نادت بصوت حاد جاف: «فاريش! أنت بخير؟ فاريش؟»
قال داني في نفسه إن هذه هي طبيعتها، هذه هي طبيعتها تمامًا: فاريش هو الوحيد الذي يمكن أن تقلق عليه.
أجابها فاريش: «أجل»، أمسك بمرفق داني وسار به إلى الباب، ثم دفعه إلى الخارج.

طار داني من فوق السلم وحط على الأرض الترايبية منبطحًا. نهض ونفض ثيابه فرأى غام واقفة دون أي تعبير في وجهها: كلها عظام وجلد ميت كأنها سحلية في ثوبها المنزلي الرقيق، أدارت رأسها بحركة بطيئة جدًا، وقالت لفاريش: «ما الذي حل به؟»

كان فاريش واقفًا بالباب، قال: «أوه، لقد حل به شيء، بالفعل!»، ثم صاح: «إنها ترى ذلك أيضًا! أوه، تظن أنك قادر على خداعي». أطلق فاريش ضحكة عالية الصوت، غير طبيعية... «لكنك غير قادر حتى على خداع جدتك».

حدقت غام طويلًا إلى فاريش ثم إلى داني، عيناها نصف المغمضتين تبدوان دائمًا ناعستين بسبب سم الكوبرا، ثم مدت يدها وأمسكت لحم ذراع داني وراحت تدعكه بين إبهامها وسبابتها... راحت تدعكه دعكًا شديدًا، لكن بطريقة مختلة لطيفة بحيث ظل وجهها هادئًا وظلت عيناها هادئتين.

قالت: «يا فاريش! لا يجوز أن تكون قاسيًا عليه هكذا»، لكن شيئًا في صوتها كان موحياً بأن لدى فاريش سببًا وجيهًا لأن يقسو على داني، لأن يقسو عليه فعلاً.

صاح فاريش: «هاه! لقد فعلوها!»، قال هذا كأنه يخاطب كاميرات مراقبة مخفية في صف الأشجار المقابل... «لقد وصلوا إليه... أخي نفسه».

قال داني في الصمت المتوتر النابض الذي أعقب ذلك: «ما الذي تتكلم عنه؟»، فاجأه صوته إذ بدا له ضعيفًا جدًا، غير صادق إطلاقًا.

وفي غمرة تشوشه، تراجع إلى الخلف بخطوة بطيئة، بطيئة. اقتربت غام من درجات سلم مقطورة داني وصعدت إلى حيث كان فاريش واقفًا ينظر إليه بعينين غاضبتين كأنهما خنجران ويتنفس سريعًا من أنفه، أنفاسه حارة وكريهة. وكان لا بد لداني من الإشاحة بوجهه جانبًا لأنه غير قادر على النظر إليها، غير قادر

على رؤية كيف كانت حركتها البطيئة تثير غضب فاريش، تدفعه إلى الجنون، وتجعله يفقد عقله، تجعل عينيه تجحضان حتى وهو واقف هناك ينقر الأرض بقدمه كأنه معتوه. بحق الجحيم، كيف تستطيع غام أن تكون بطيئة هكذا؟ كان الجميع يرى (الجميع عدا فاريش) أن وجوده معها في مكان واحد يجعله نافذ الصبر، يجعله شديد الغضب، عنيفاً، معتوهاً. وبالتأكيد، ما كان فاريش ليغضب على غام، أبداً. يصب جام غضبه على أي شخص غيرها.

وأخيراً، بلغت الدرجة العليا. صار وجه فاريش قرمزيًا، وصار يهتز كله كأنه آلة على وشك الانفجار. مدت يدها بلطف شديد، وربتت على ذراعه.

سألته: «هل هو أمر مهم إلى هذا الحد؟»، كانت نبرة صوتها لطيفة، وكانت موحية بأن الأمر مهم فعلاً.

زمجر فاريش: «مهم، نعم! لن أسمح لأحد بأن يتجسس علي! لن أسمح لأحد بأن يسرقني! لن أسمح لأحد بأن يكذب علي! لا، لا...». قال هذا استجابة ليدها الصغيرة الهشة التي وضعتها على ذراعه.

قالت وهي تنظر إلى داني: «أوه! أيها الفتيان، غام حزينة جدًا لأنكما غير قادرين على التفاهم معاً».

صاح فاريش: «لا تكوني حزينة علي!». وبحركة مسرحية، تقدم أمام غام خطوة كأنه يحميها، كأن داني يمكن أن ينقض فيقتلها معاً، «هو الذي ينبغي أن تكوني حزينة من أجله».

«لست حزينة على أي واحد منكما»، تجاوزت فاريش وسارت بخطواتها الزاحفة فعبرت الباب داخله مقطورة داني.

قال داني يائسًا: «غام، من فضلك!»، تقدمَ بالقدر الذي تجرأ عليه ومد رقبتَه فرأى لمحة أخيرة من فستانها الوردِي تختفي في ظلمة المقطورة... «غام... من فضلك، لا تدخل!».

سمعها تقول بصوت واهٍ: «تصبح على خير! دعني أرتب هذا السرير...».

صاح فارِيش وهو يحرق إلى داني غاضبًا وكان الذنب ذنبه: «لا تهتمي بهذا!»

اندفع داني متجاوزًا فارِيش ودخل المقطورة، قال بصوت معذَّب: «لا، يا غام! من فضلك!». ما من شيء يمكن أن يطلق غضب فارِيش العارم أكثر من أن تضع غام في رأسها أن «تنظف» خلف داني أو يوجين... فضلًا عن أن أيًا منهما لا يريد هذا أبدًا. ذات يوم، منذ سنين (لن ينسى داني ذلك اليوم أبدًا)، دخل مقطورته فوجدها ترش وسادته وملأهات سريرَه بمبيد للحشرات! قالت غام وهي تدخل ركن النوم: «يا إلهي! هذه الستائر قذرة!»

ظهر عند الباب ظل ضخَم: «أنا الذي يتكلم إليك...». قال فارِيش هذا بصوت خافت.. متوعد... «احمل مؤخرتك وتعال إلى هنا، واستمع!». وبحركة مفاجئة قبض على قميص داني من الخلف وشده إليه، ثم سار به نازلًا درجات السلم، ثم ألقاه على الأرض الترابية المرصوفة، ألقاه وسط القمامة المتناثرة في الفناء (كراسي مكسّرة، وعلب بيرة فارغة، وزجاجات صودا، وزجاجات عصير، وميدان بأسره من الترانزيستورات والمسامير والمسننات وأجزاء الآلات المفكّكة). وقبل أن يفلح داني في

النهوض على قدميه، وثب إليه وسدد إلى أضلاعه ركلة عنيفة.
صاح به: «إذا... أين تذهب عندما تقود السيارة وحدك؟ هاه؟
«هاه؟»

غاض قلب داني، أترأه تكلم في نومه؟
«قلت لي إنك ذهبت كي ترسل فواتير غام بالبريد، لكنك لم ترسلها، ها هي ذي على مقعد السيارة منذ يومين بعد أن عدت حيث كنت، عجالات سيارتك متسخة بالطين على ارتفاع قدم، أنت لم تذهب إلى شارع مين حيث مكتب البريد، أليس كذلك؟»
ركله من جديد، تكوّر داني على نفسه وضم ركبتيه بين يديه.
«هل كاتفيش مشترك معك في هذا؟»

هز داني رأسه، مذاق الدم في فمه.
«هذا لأنني سوف أقتل ذلك الزنجي، سوف أقتلكما معاً».
فتح فاريش باب السيارة من الجهة اليمنى وجرد داني من رقبته فأجلسه على المقعد.

صاح به: «عليك أن تقود السيارة!»
رفع داني يده وتحسس أنفه النازف، تساءل كيف يُنتظر منه أن يقود السيارة وهو جالس في المقعد الأيمن. أشكر الرب لأنني لست تحت تأثير المخدرات! قال هذا في نفسه وهو يمسح فمه بظاهر يده، شفته مشقوقة... أشكر الرب لأنني لست تحت تأثير المخدرات وإلا لفقدت عقلي.

صاح كورتيس مبتهجاً وهو يقترب من النافذة المفتوحة:
«أذهب؟»، وبشفتيه الملطختين بلون برتقالي، أصدر صوتاً يقلد صوت إقلاع السيارة: «فرووووم فرووووم فرووووم»، ثم انتبه إلى

الدم على وجه داني، صدمه ذلك.

أجابه داني: «لا، يا عزيزي! أنت لست ذاهباً إلى أي مكان». وفجأة، ارتخى وجه كورتيس. استدار وهو يشهق طالباً الهواء وسار مبتعداً لحظة فتح فاريش الباب من الجهة الأخرى، أطلق صفرة، وقبل أن يدرك داني ما يحدث، كان كلبا فاريش الشرسان قد صارا جاثمين على المقعد الخلفي. أنفاس الكلبة التي اسمها فان زانت في أذنه مباشرة... أنفاس حارة فيها رائحة لحم عطنة. تقلصت معدة داني، هذه علامة سيئة، هذان الكلبان مدربان على الهجوم. ذات مرة، خرجت الكلبة من حظيرتها وعضت ساق كورتيس من فوق بنطلون الجينز، كانت عضه شديدة جعلتهم يأخذونه إلى المستشفى لخيطة الجرح.

قال: «فاريش، أرجوك!». لكن فاريش رد ظهر المقعد مثلما كان وجلس خلف عجلة القيادة.

«أطبق فمك!» كان فاريش ينظر أمامه، عيناه الاثنتان ميتتان... «الكلبان ذاهبان معنا».

تظاهر داني بأنه يبحث في جيبه، «إن كنت سأقود السيارة، فعلي أن أجلب محفظتي». في واقع الأمر، أراد أن يكون معه سلاح من أي نوع، حتى إن كان سكيناً فقط.

كانت السيارة شديدة الحرارة، ابتلع داني ريقه، وقال: «إن كنت سأقود السيارة، فأنا في حاجة إلى رخصة القيادة، سوف أدخل الآن وأجلبها».

استند فاريش إلى ظهر مقعده، ثم أغمض عينيه وظل كذلك

لحظة، ظل ساكنًا تمامًا، أجفانه ترفرف كأنه يحاول أن يطرد عن نفسه نوبة قلبية وشيكة. بعد ذلك، وفجأة، فتح عينيه وزمجر بأعلى صوته: «يوجين!»

قال داني محاولاً أن يعلو صوته فوق النباح الشديد الذي انبعث من المقعد الخلفي: «ماذا؟ لا حاجة لك إلى أن تتأديه، سأذهب بنفسى وأجلبها، فما قولك؟»

مد يده إلى مقبض الباب، صاح فاريش: «رأيت ذلك!»
«فاريش...»

«رأيت ذلك أيضًا!» امتدت يد فاريش إلى ساق حذائه، وقال داني في نفسه: ألدیه سكين هناك؟ رائع!

ظل جالسًا في سكون تام، كانت أنفاسه متقطعة لشدة الحرارة، وكان الألم نابضًا في جسده كله، كان يفكر، ما الطريقة الأفضل للتصرف الآن بحيث لا يهاجمه فاريش من جديد؟

قال أخيرًا: «لا أستطيع قيادة السيارة وأنا جالس هنا، سوف أدخل وأتي بمحفظتي، ثم نتبادل مكانينا».

نظر داني إلى شقيقه حذرًا، لكن أفكار فاريش كانت، في هذه اللحظة، قد رحلت إلى مكان آخر. كان قد استدار فواجه المقعد الخلفي تاركًا كلبه يلحق وجهه.

قال بنبرة متوعدة بالخطر وهو يرفع رأسه أعلى من كلبه: «هذان الكلبان... هذان الكلبان يعنيان لي أكثر مما يعنيه أي كائن بشري، أنا معني بهذين الكلبين مما أنا معني بأي حياة بشرية». انتظر داني، راح فاريش يقبل الكلبين ويداعبهما ويتمتم

لهما بكلمات غير مفهومة مثلما يتمم المرء لطفل صغير. وبعد لحظة أو لحظتين، فتح داني باب السيارة وخرج، ثم سار في الفناء (كان الأفرول الذي ارتداه فاريش قبيحًا بما فيه الكفاية، لكن سببًا واحدًا جعله الآن يجب داني: كان صعبًا على فاريش، إن لم يكن مستحيلًا، أن يخفي المسدس الذي معه).

انفتح باب مقطورة غام مزقزقًا بصوت مطاطي كصوت باب البراد، مد يوجين رأسه من النافذة وقال: «قولي له إنني لا أريد أن يكلمني بهذه الطريقة».

انطلق صوت بوق السيارة مجلجلًا فانفجرت موجة نباح جديدة، خفض يوجين نظارته على أنفه ونظر من فوق كتف داني، وقال له: «لو كنت مكانك لما وضعت هذين الحيوانين معي في السيارة».

ارتد رأس فاريش إلى الخلف وصاح بصوت مجلجل: «عد إلى حيث كنت! الآن!».

استشق يوجين نفسًا عميقًا، ثم دعك نقرته بيده، وقال من غير أن تتحرك شفتاه إلا قليلًا جدًا: «سوف يقتل أحدًا إن لم ينته به الأمر إلى مصحة الأمراض العقلية، دخل هذا الصباح وأراد أن يضرم النار بي».

«ماذا؟»

قال يوجين وهو ينظر إلى السيارة متحفزًا: «أنت كنت نائمًا». لا يعلم ما هو جارٍ في ذهن فاريش، ولا يعلم سبب جلوسه في السيارة، لكن ذلك جعله في غاية التوتر... «أخرج قداحته وقال إنه سيحرق بقية وجهي، لا تذهب معه بالسيارة، ليس في وجود

هذين الكلبين، لا تستطيع أن تعلم ما يود فعله».

صاح فاريش من السيارة: «لا تجعلني آتي إليك!»

قال داني وهو يرمق السيارة بنظرة خائفة متوترة: «اسمع! هل

تعذني بأن تهتم بكورتيس؟»

قال يوجين: «لماذا تقول هذا؟ إلى أين أنتما ذاهبان؟»، رفع

رأسه ورماه بنظرة حادة، ثم أشاح بوجهه.

رمشت عيناه وقال: «لا، لا، لا. لا تخبرني شيئاً، لا تقل أي كلمة

أخرى».

صاح فاريش: «سأعد حتى ثلاثة».

«هل تعذني؟»

مكتبة

t.me/soramnqraa

«أعدك وأقسم أمام الرب».

قال فاريش: «واحد!»

قال داني مع انطلاق بوق السيارة من جديد: «إياك أن تستمع

إلى غام! لن تفعل شيئاً غير أن تحبط عزيمتك».

«اثان!»

وضع داني يده على كتف يوجين. ألقى نظرة سريعة تجاه

السيارة (لم يستطع أن يرى داخلها أي حركة غير حركة الكلبين:

ذيلاهما يضريان زجاج النافذة). قال له: «أسد إليّ معروفاً! قف

هنا لحظة ولا تدعه يدخل». أسرع فدخل المقطورة وتناول من

الرف الذي خلف التلفيزيون مسدس غام الصغير. رفع ساق

بنطلونه ودس المسدس في رقبة حذائه. تحب غام أن يظل

مسدسها محشواً، وكان رجاؤه أن يكون المسدس الآن محشواً: لا

وقت لديه الآن للطلقات، خطوات سريعة في الخارج، سمع يوجين يقول بصوت عالٍ مذعور: «لا ترفع يدك علي!»

شد داني ساق بنطلونه فأنزله، ثم فتح الباب، همّ بأن يقول شيئاً (محفظتي...) لكن فاريش أمسك بياقة قميصه وقال له: «إياك أن تحاول الهرب مني، يا بني!»

نزل الدرجات وجر داني خلفه. وفي منتصف الطريق إلى السيارة، تقدم كورتيس وحاول أن يطوق خصر داني بذراعيه. كان باكياً، أو كان يسعل ويختنق وهو يحاول التنفس مثلما يصيبه دائماً عندما يحزن، أفلح داني السائر خلف فاريش بخطوات متعثرة في أن يربت على رأس كورتيس.

صاح به: «تراجع، يا صغيري! كن طيباً...». كان يوجين يرقب المشهد قلقاً من عند باب المقطورة. وكان كورتيس المسكين يبكي بكاء شديداً، لاحظ داني لطخة برتقالية عند معصم يده حيث ضغط كورتيس بشفتيه.

كان لون اللطخة بشعاً، صامداً. وخلال جزء من الثانية، توقف داني في مكانه، قال في نفسه: لقد سئمت فعل هذا، سئمت كثيراً! لم يدر إلا وقد فتح فاريش باب السيارة من جهة السائق ودفعه داخلها، قال له: «قدها!»

كان سطح خزان المياه أكثر اهتراء مما تتذكره هاربيت. كانت ألواح الخشبية رمادية خشنة متأكلة، وقد تقلّصت أو تشققت في أماكن كثيرة، تاركة فجوات داكنة في مواضع تخلّعت منها

المسامير. وعلى امتداد سطح الخزان، انتشرت عظام أسماك وبقع من زرق الطيور.

من حيث كانت واقفة على السلم، عاينت هاربيت السطح على مستوى عينيها. ثم، أتمت الصعود بحذر وبدأت تسير صوب وسط السطح، قدماها تتلمسان الألواح قبل أن تخطو. لكن فجأة، عندما وطئت قدمها أحد الألواح، أصدر اللوح صريراً حاداً وهبط قليلاً تحت ثقلها (مثلما يهبط مفتاح بيانو عند الضغط عليه)، فشعرت، للحظة، كأن شيئاً قد انخلع في صدرها.

بحذر شديد، تراجعت خطوة كبيرة، تحاول السيطرة على خوفها. عاد اللوح الخشبي إلى مكانه، مطلقاً صوتاً حاداً آخر. واصلت تقدمها، هذه المرة أقرب إلى الحافة حيث كانت الألواح عند الدرايزين تبدو أكثر استقراراً، خطواتها محسوبة، وقلبها يدق بعنف. كان الهواء هنا غريباً، مختلفاً تماماً عن الهواء الذي تحتها. بدا أثقل، أو ربما أخف، مشبعاً بإحساس شفاف، كأنها ليست على أرض ثابتة بل تطفو فوق عالم مهتز. هل هذا ما يسمونه «دوار الارتفاعات» الذي يصيب الطيارين ومتسلقي الجبال؟ لم تكن متأكدة، لكنها شعرت بالغثيان في معدتها، ورأت نقاطاً متوهجة عند أطراف مجال رؤيتها. نظرت حولها، عيناها تجولان في الأفق. من جهة، لمعت سقوف معدنية بعيدة. ومن الجهة الأخرى، امتدت الغابة الكثيفة، خضراء داكنة، غابة عرفت تضاريسها جيداً، حيث لعبت مع هيلي مرات لا تُحصى. هناك، كانا يخوضان حروبهما التي تستمر طيلة النهار، ويتقاذفان كتل الطين الأحمر، يتوغلان في الدغل الوارف المغني، كأنهما في

فيتنام صغيرة يقفز ان فوقها بالمظلة.

دارت حول محيط الخزان مرتين، لم تجد الباب. بدأت تظن أن ما من باب إطلاقاً، لكنها لمحته أخيراً. كان متوارياً تماماً، كان الزمن قد امتصه في السطح الرمادي المتآكل، حتى لم يبق منه سوى أثر باهت، بقعة أو اثنتين من طلاء فضي لم يتقشر بعد عن مقبضه المعدني.

جثت على ركبتيها. ثم مدت يدها في حركة واسعة -مثل حركة ماسحة زجاج السيارة- ودفعت الباب ليفتح. (صرير المفصلات كان حاداً، مريباً، يشبه ذلك الصوت الذي ينذر بالخطر في أفلام الرعب). وعندما أفلتته، سقط الباب مصطدماً بالسطح الخشبي بعنف، فاهتزت الألواح المهترئة تحتها.

في الداخل: ظلمة كثيفة، رائحة خانقة. سحابة من البعوض معلقة في الهواء الراكد، تتراقص في دوائر كسحرٍ شرير. ومن الثقوب الصغيرة في سقف الخزان، انطلقت أعمدة ضيقة من ضوء الشمس، كأقلام رصاص ذهبية، تقطع الظلمة، وتشر في الهواء جزيئات مغبرة متوهجة، تشبه غبار الطلع العالق في نسيم صباحي. كان الماء في الأسفل ساكناً، أسود كثيفاً، كأنه زيت محركات متخثر. حدقت هاربيت في عمق الظلمة، ثم، شيئاً فشيئاً، بدأ شكل غامض يتكشف أمامها: حيوان منتفخ، عائم على جنبه.

أمامها، نزل سلم معدني صدى إلى الداخل، يكاد يكون قد أكل نصفه بالتآكل، يتدلى في الفراغ كأنه فخ منصوب. امتد حتى مسافة ستة أقدام إلى الأسفل، ونهايته توقفت قبل أن تلامس

سطح الماء يبضع بوصات فقط. تأقلمت عيناها تدريجيًا مع الظلمة، ورأت شيئًا يلمع على الدرجة العليا من السلم: حزمة ملفوفة بنايلون أسود، من النوع المستخدم في أكياس القمامة. مسّت الحزمة بمقدمة حذائها بحذر. لم تتحرك. وبعد لحظة تردد، انبطحت على بطنها ومدّت يدها وجسّتها، كان ما بداخلها ناعمًا لكنه صلب! ليس مألًا، وليس شيئًا معدنيًا، بل شيء ينخمس عند الضغط عليه كأنه رمل.

أحاط الشريط اللاصق الحزمة بإحكام، ملفوفًا حولها مرات كثيرة. بدأت هاربيت تحاول نزعها، تشده بيديها، ثم تحاول إدخال أظافرها تحت حوافه. قاومها الشريط في البداية، ثم استسلم أخيرًا، تمزقت طبقاته المتعددة، كاشفةً عن قلب الحزمة. شيء ناعم، بارد، جامد كجسد ميت. شهقت وسحبت يدها سريعًا. ثم، تتأثر من الحزمة غبار دقيق، انتشر فوق سطح الماء كطبقة متألّثة. حدقت إليه هاربيت (أهو سم؟ أم مادة متفجرة؟). لقد رأت المخدرات من قبل، في التليفزيون، في الصور الملونة في كتب الصحة المدرسية، لكنها كانت دائمًا واضحة، يسهل التعرف عليها: سجائر ملفوفة، حقن جلدية، أقراص بألوان زاهية. لكن هذا؟ هذا شيء آخر. لعل هذه الحزمة موضوعة هنا بقصد التضليل! ولعل الحزمة الحقيقية مخبأة في مكان آخر! ولعل هذه ليست إلا كيسًا متقن التغليف من... كيسًا من ماذا؟

بدا لها شيء لامع باهت اللون داخل الكيس الممزق. بحذر شديد، أزاحت هاربيت حافة النايلون، فرأت تجمعًا غريبًا من أكياس بيضاء لامعة كأنها مجموعة من بيوض حشرات عملاقة،

سقط واحد منها واصطدم بالماء فسحبت هاربيت يدها . رأت الكيس يطفو قليلاً، ثم يغوص ببطء تحت السطح، يتمايل مثل قنديل بحر.

لحظة مخيفة مرت بها، خُيِّلَ لها أن هذه أن الأكياس حية! ففي انعكاسات الضوء المتموجة على جدران الخزان، بدت الأكياس كأنها تتبض، تتحرك ببطء، لكن سرعان ما أدركت أنها مجرد أكياس شفافة محكمة الإغلاق، مملوءة بمسحوق أبيض اللون.

مدت يدها بحذر، ولمست واحداً من تلك الأكياس الصغيرة (كان الخط الأزرق الدقيق، السحاب الذي يقفل الكيس، واضحاً في أعلاه). أخرجته من الحزمة وحملته في يدها. بدا لها المسحوق أبيض اللون (مثل السكر أو مثل الملح)، لكن قوامه كان مختلفاً، كان هشاً يتكسر تحت ضغط أصابعها وأشد تبلوراً، وأخف وزناً. فتحت الكيس وقربته من أنفها، لا رائحة له، باستثناء عبق نظيف وإِهْ ذكّرها بالمسحوق الذي كانت آيدا تستخدمه في تنظيف الحمام.

لا بأس! مهما يكن هذا المسحوق فهو يخصه. بحركة صغيرة من معصمها، قذفت الكيس في الماء، راقبته وهو يعوم يعوم للحظة، ثم يهبط ببطء. نظرت إليه، ثم إلى الحزمة السوداء أمامها، ثم من غير أن تفكر كثيراً، من غير أن تسأل نفسها عن السبب أو عن عواقب فعلها، مدت يدها من جديد (أصابعها تغوص وسط تكتل الأكياس البيضاء، المنتظمة مثل حبات في سنبلة) وراحت تخرج الكيس تلو الآخر، وترميها حفنات متتالية، ثلاثة أكياس، أربعة أكياس، خمسة... ترميها في المياه السوداء.

الآن، بعد أن صارا في السيارة، نسي فاريش ما كان يأكله... أو أن هذا ما بدا عليه. قاد داني السيارة بين حقول القطن التي يغمرها ضباب الصباح، مزيجٌ من الحرّ الخانق ورائحة مبيدات الحشرات. كان يختلس النظرات إلى فاريش، المستند إلى ظهر مقعده، يدندن مع أنغام الراديو. وما إن غادرا الطريق الترابي وانعطفا داخلين الطريق الإسفلتي، حتى تبدّل مزاج فاريش المتوتر العنيف، في تحول غريب وغير مفهوم، وصار مسروراً. أغمض عينيه وتهد راضياً مستمتعاً ببرودة الهواء المنبعث من المكيف، مصغياً (وهما يمضيان على الطريق السريع، أوشكا أن يدخلا البلدة) إلى «برنامج الصباح» مع بيتي برونيل وكيسي ماكماسترز على إذاعة «WNAT» التي يزعم مازحاً أن حروفها ترمز إلى «أسوأ ضجيج في البلدة».

كانت المحطة واحدة من أفضل أربعين محطة إذاعية، وهو ما كان يكرهه فاريش عادةً. أما الآن، فقد وجد فيها ما يعجبه، فراح يهزّ رأسه على إيقاع الموسيقى، وينقر بأصابعه على ركبته، ثم على مسند المقعد ولوحة العدادات، غير أن نقراته كانت حادة أكثر مما ينبغي، ما زاد من توتر داني. وكلما تقدمت به السن، ازداد شبهه بوالده: الابتسام الماكر قبل أن يتفوّه بشيء خبيث، وتلك الطاقة التي تبدو مفرطة، والميل إلى كثرة الكلام، وإظهار الودّ المفرط... كلّها مقدمات مألوفة لما يسبق انفجاراته العنيفة. «متمرودا متمرودا». ذات مرة، نطق داني هذه الكلمة في المدرسة، كلمة أبيه المفضلة، فقالت له المعلمة إنها ليست كلمة صحيحة. لكن داني ما زال قادراً على سماع تلك الفرقة

المجنونة في صوت أبيه وهو يقول «متمرود»، ويتذكر كيف يهوي الحزام عليه متزامناً مع وقع المقطع الأوسط من الكلمة. يتذكر عينيه المحدقتين في يديه، تلك اليدين الخشنتين، المنمشتين، بمسامهما الواسعة، ومفاصلهما التي ابيضّت من فرط قبضتهما على حافة طاولة المطبخ.

يعرف داني يديه معرفة حسنة جداً. ففي كل لحظة قاسية من لحظات حياته، ينظر إلى هاتين اليدين كمن ينظر في كتاب، كانتا أشبه ببطاقة للسفر رجوعاً في الزمن، رجوعاً إلى أبيه الذي يضره، إلى بشر على فراش الموت، إلى جنازات، إلى فشل، إلى السخرية منه في الملعب، إلى إصدار الحكم عليه في المحكمة... إلى ذكريات حقيقية أكثر من هذا الشارع الذي يسير فيه ومن عجلة القيادة هذه.

بلغا الآن أطراف البلدة، فمرا بحديقة المستشفى القديم، حيث تمتد ظلال الأشجار الكثيفة. وفي وسطها كانت بضع مشجعات من المدرسة الثانوية يقفزن في الهواء بتشكيل يشبه الحرف V. لم تكن ثيابهن موحدة، ولا حتى متناسقة، غير أن حركاتهن الدقيقة المتناغمة لم تخفِ الفوضى الظاهرة في أدائهن... أذرع تتماوج، وقبضات تضرب الهواء في غير انتظام.

لو كان هذا في يوم آخر، في أي يوم آخر، لكان ممكناً أن يوقف داني السيارة خلف الصيدلية القديمة ويراقب الفتيات سراً. وأما الآن، في أثناء قيادته السيارة بطيئاً تحت الظلال الكثيفة ناظراً إلى شعر الفتيات المربوط وأطرافهن المتحركة حركات سريعة، فقد أذهله ظهور مفاجئ (أمامه) لمخلوق صغير أسود محدودب

الظهر. توقف ذلك المخلوق (في يده مكبر صوت) عن سيره
الرخو البشع، ثم رفع رأسه ناظرًا إليه مباشرة عن الرصيف. بدا
كعفريت أسود، لا يتجاوز طوله ثلاثة أقدام، له منقار برتقالي،
وقدمان كبيرتان بنفس اللون، وهيئة غريبة كأنه مبتلّ بالكامل.
وما إن مرّت السيارة بجواره حتى استدار متابعًا إياها بنظراته،
ناشرًا جناحيه المعتمين كأنه خفاش. وكان لدى داني شعور غريب
مزعج يقول له إنه التقاه من قبل، التقى ذلك المخلوق الذي
بعضه غراب وبعضه قزم وبعضه طفل شيطاني. لم يدر كيف
تذكره (على الرغم من استحالة هذا الأمر) تذكر أنه رآه في
مكان ما، والأغرب من ذلك أن المخلوق تذكره بدوره. رآه من
جديد عندما نظر في المرآة، رآه جسمًا صغيرًا أسود اللون له
جناحان أسودان، رآه ينظر إلى السيارة كأنه رسول صغير غير
مرحّب به آتٍ من العالم الآخر.

تكاد الحدود تختفي! شعر داني بتميل في رأسه. صار
الشارع المخضوضر حوله أشبه بشريط ناقل في كابوس، غابة
من الظلال المحمومة تحيط به من كل جانب، تضغط عليه من
الجهتين.

نظر في المرآة، لقد اختفى ذلك المخلوق.

لا علاقة للمخدرات بالأمر فقد تسرّبت عرقًا من جسده وهو
نائم. لا! لقد فاض النهر متجاوزًا ضفافه، كاشفًا عن القاذورات
والركام البشع الذي كان يرقد في قعره، دافعًا به إلى ضوء
النهار... مشاهد كارثية، أحلام، ذكريات، وأهوال يعجز عن
الاعتراف بها، كلها الآن مطروحة علنًا على الشارع العام. وكان

إحساس داني يقول له (وليس للمرة الأولى) أنه رأى هذا اليوم من قبل، وأنه يقود سيارته في شارع ناتشيز متجهاً نحو شيء قد حدث بالفعل، دعك فمه، يريد أن يبول. على الرغم من الألم في رأسه وفي أضلاعه بعد ضربات فاريش، فقد صار الآن غير قادر على التفكير في شيء غير شدة حاجته إلى التبول، ثم إن صحوته من المخدرات خلّفت في فمه طعمًا معدنيًا كريهاً.

استرق نظرة إلى فاريش، لا يزال منسجماً مع الموسيقى، يومئ لنفسه، ويهمهم مع الإيقاع، وأصابعه تنقر على مسند المقعد. لكن الكلية البوليسية التي في المقعد الخلفي تحملق إلى داني غاضبة كأنها تعلم تمامًا ما كان يجول في ذهنه.

حاول أن ينعش نفسه، سوف يعتني يوجين بكورتيس (على الرغم من هوسه الديني)، وهناك غام أيضاً. اسمها وحده كان كافياً لإطلاق شلال من شعوره بالذنب. لكن حتى وهو يحاول أن يستحضر شعوراً حقيقياً تجاهها، لم يجد شيئاً. أحياناً، حين يسمع سعالها الجاف في منتصف الليل من داخل مقطورتها، كان يشعر بانقباض في صدره، بشيء يشبه الحنان لأنها جدته، لأنها عانت الكثير -الفقر، والعمل الشاق، والسرطانات، والقرحات، والتهاب المفاصل، وكل ما عدا ذلك... ولكن الحب! الحب كان عاطفة لا يشعر بها تجاهها إلا حين يكون في حضرتها، لحظات عابرة تتبدد سريعاً، وخارجها... لا شيء.

لكن ما أهمية أي من كل ذلك الآن؟ كانت حاجته إلى التبول شديدة جداً، شديدة حتى صارت كُرتا عينيه على وشك الانفجار، فأغمض عينيه، ثم فتحهما. حسم أمره: سأرسل إلى البيت مألّاً

فور أن أنقل ذلك الخراء وأستقر!

هل من سبيل آخر؟ لا، لا سبيل سوى هذه الطريق الممتدة أمامه، لا طريق إلى بيت على البحر في ولاية أخرى إلا عبر هذه الرحلة، وعليه أن يركز، أن يرى ذلك المستقبل ماثلاً أمامه، أن يسير نحوه دون تردد، دون توقف.

مرًا بفندق ألكساندريا ذي الشرفة المتراخية ومصاريع النوافذ المهترئة، ذلك المبنى الذي يقال إنه مسكون. ولا عجب في هذا؛ فما أكثر من لقوا حتفهم فيه! يشعر المرء بذلك مُشْعًا من المكان عبر تلك الميئات التاريخية كلها. وقد رجا داني أن يصرخ بالكون كله غاضبًا لأنه رمى به هنا، ولأنه رمى به في هذه البلدة التي هي حفرة من حفر الجحيم، في هذه المقاطعة المفلسة التي لم ترَ مألًا منذ الحرب الأهلية. لم يكن مذنبًا في إدانته الجنائية الأولى؛ كان الذنب ذنب أبيه، هو من أرسله لسرقه منشار آليّ باهظ الثمن من ورشة رجل ألماني ثريّ، كان يجلس هناك يحرس ممتلكاته ببندقيته. ومن المحزن الآن أن يتذكر كيف كان يترقب لحظة إخلاء سبيله من السجن ويحصى الأيام الباقية حتى يعود إلى البيت. لكن ما لم يفهمه آنذاك (وكان أسعد حالًا قبل أن يفهمه) هو أن دخول السجن مرة واحدة يكفي ليظل الإنسان حبسًا إلى الأبد — ليس بين جدران، بل في أعين الآخرين، في نظرتهم إليه كأنه بات شخصًا آخر، وصار هو نفسه يميل إلى العودة، كما يعود الناس إلى نوبات الملاريا أو إلى زجاجات الخمر. ولا مفر من هذا المصير إلا بالذهاب إلى مكان لا يعرفه فيه أحد، حيث لا يعرف أحدٌ عائلته، حيث يمكنه أن يحاول، ولو

لمرة واحدة، أن يبدأ من جديد.

اللافتات تتكرر... الكلمات تملأ الشارع: ناتشيز، ناتشيز،

ناتشيز. غرفة التجارة: ألكساندريا - كما ينبغي أن تكون!

قال داني في نفسه وشعر بالمرارة: لا! ليست الأمور كما ينبغي أن تكون! بل هي كما هي الآن!

انعطف فجأة، انعطافاً حاداً قاده إلى ساحات الشحن. تشبَّث فاريش بمقبض الباب ونظر إليه مدهوئاً «ماذا تفعل؟»

قال داني محاولاً جعل نبرة صوته محايدة قدر استطاعته: «أنت الذي قلت لي أن آتي إلى هذا المكان».

«هل قلت لك هذا؟»

شعر داني بأن عليه أن يقول شيئاً، لكنه لم يهتدِ إلى شيء، يقوله، فهل ذكر فاريش خزان المياه؟ وعلى نحو مفاجئ، وجد أنه غير متأكد من ذلك.

قال متردداً: «قلت إنك تريد التحقق من أمري»، غامر بهذه الكلمات كي يرى ما يمكن أن يحدث.

رفع فاريش كتفيه بلا مبالاة، فوجئ داني حين رآه يستند إلى ظهر مقعده من جديد وينظر من النافذة. لطالما كان التجول بالسيارة كفيلاً بتحسين مزاجه، ولا يزال داني يتذكر تلك الصفرة الخفيفة التي أطلقها فاريش عندما جلس أول مرة في هذه السيارة، وكم أحبَّ التجول فيها. «فلنجلس في السيارة ولنمضِ!» - تلك كانت فلسفته في الأشهر الأولى، حين انطلقاً معاً في رحلة إلى إنديانا، وحدهما، ثم مرة أخرى إلى غرب تكساس، من غير سبب واضح، بلا غاية أو هدف. لم يكن هناك شيء يريدان

رؤيته، لا معالم ولا أماكن سياحية، فقط الطقس الجميل، ولافتات الطريق السريعة تومض وتختفي، والبحث عن أغنيات عابرة على موجة إف إم.

قال فاريش: «أقول لك ماذا؟ فلنذهب ونتناول إفطاراً». تضاربت رغبات داني؛ كان جائعاً، لكنه تذكر خطته، كانت خطة مستقرة، خطة ثابتة؛ فهي سبيله الوحيد إلى الخلاص، وهناك جناحان أسودان يرفرفان عند الزاوية ويدفعان به قدماً إلى مستقبل لا يستطيع رؤيته.

لم يغير اتجاه السيارة، وتابع القيادة، فصارت الأشجار المتزاحمة أشد قرباً من السيارة. ابتعدا كثيراً على الطريق المعبد، ابتعدا حتى لم يعد الطريق طريقاً، بل صار حفراً وحصى. قال: «أحاول العثور على مكان مناسب للانعطاف والعودة». أدرك سخافة كلماته ما إن قالها، ثم أوقف السيارة. لا تزال مسافة السير على الأقدام حتى خزان المياه طويلة، والطريق سيئ، والأعشاب عالية، وهو غير راغب في متابعة القيادة تحسباً لأن تعلق السيارة هناك. بدأ الكلبان ينبحان نباحاً جنونياً، وراحا يقفزان على المقعد ويحاولان شق طريقيهما عبر المقعد الأمامي، فمال داني بجذعه كأنه يحاول الخروج من السيارة، وقال بلا معنى: «ها نحن هنا»، ثم، في حركة خاطفة، أخرج المسدس الصغير من حذائه وسدده نحو فاريش.

لكن فاريش لم يره. كان قد مال جانباً في مقعده، وصار بطنه الضخم ملتصقاً بالباب، وهو ينهر الكلبة فان زانت: «انزلي عن المقعد! قلت لك انزلي!» رفع يده، فانكششت الكلبة، متراجعة

بخوف.

«أتحاولين ذلك معي؟ أتحاولين تمرّدًا قذرًا معي؟»

لم يلتفت إلى داني أو إلى المسدس، فأراد داني أن يلتفت انتباهه، فتحنح.

رفع فاريش يده الحمراء المتسخة، ملوّحًا بها، وقال دون أن ينظر إليه: «مهلك، مهلك! انتظروا عليّ أن أؤدب هذه الكلبة. لقد سئمت منك»، صفعة رأسها بحدة... «أيتها الكلبة القذرة! لا تجربي معي هذه الألاعيب الخبيثة!». التقت نظراتهما، هو والكلبة، في مواجهة متوترة. التصقت أذناها بجمجمتها ولمعت عيناها الصفراوان.

«هيا، افعليها من جديد، وسأضربك ضربًا شديدًا لا، انتظري!». قال هذا وهو يرفع ذراعه بحركة نصف استدارة باتجاه داني، وعينه المصابة تحدّق إليه، باردة وزرقاء كأنها محارة متحجرة: «لا بد لي من تلقين هذه الكلبة درسًا!». ثم التفت إلى الكلبة مجددًا وقال: «هيا جربي! ستكون هذه آخر مرة في حيات...».

ضغط داني الزناد، فانطلقت الرصاصة، مستقرة في رأس فاريش. هكذا كان الأمر؛ سريعًا. اندفع رأس فاريش إلى الأمام وانفتح فمه، وبحركة بدت سهلة إلى حد غريب، وضع يده على لوحة العدادات كي يسند نفسه، ثم التفت إلى داني وعينه السليمة نصف مغمضة، لكن عينه العمياء مفتوحة على اتساعها، انتفخت فقاعة من اللعاب والدم، جعلته يبدو للحظة أشبه بسمكة طينية تلتقط أنفاسها خارج الماء.

أطلق داني النار مجددًا، لكن هذه المرة على رقبتة، وفي

الصمت الرهيب الذي تموّج حوله كدوائر صوتية مترددة، خرج من السيارة وأغلق بابها.. انتهى الأمر الآن ولا مجال للعودة. تطلّع إلى قميصه الملطخ بِنُثار الدم، ثم لمس وجنته، وحين نظر إلى أطراف أصابعه، رأى بقع الدم عليها. كان فاريش قد انهار ساقطاً إلى الأمام واضعاً يديه على حافة لوحة العدادات، ورقبته مهشمة كالعجين. غير أن فمه الممتلئ دمًا كان ما زال يرتجف. أما الكلب الأصغر، ثيبيل، فقد رفع قدميه الأماميتين على مقعد فاريش، بينما تهيأت قدماه الخلفيتان للوثب، عازماً على القفز فوق رأس سيده. وفي المقعد الأمامي، كانت الكلبة فان زانت قد شقت طريقها إلى المقدمة، خفضت خطمها، دارت حول نفسها مرتين، أولاً في اتجاه، ثم في الآخر، كأنها تزن ما يحدث. ثم، بحركة مفاجئة، رفعت مؤخرتها وانزلقت إلى مقعد السائق، أذناها السوداوان منتصبَتان، كأنهما قرنا شيطان. حدقت إلى داني بعينيها الذئبتين، ثم أطلقت نباحاً قصيراً حاداً نافذاً، نباحاً دوى في المكان، تردد صده بعيداً.

كان في نباحها إنذارٌ واضح، كأنه صرخة مدوِّية: «حريق! حريق! حريق! تراجع داني خطوة إلى الوراء. في الأعلى، كانت الطيور التي تطايرت مذعورة عند دوى الطلقات تعود لتحطّ على الأشجار وعلى الأرض. داخل السيارة، كان الدم في كل مكان... بقع حمراء ملطخة الزجاج الأمامي، متناثرة على لوحة العدادات، ملتصقة بالنافذة من جهة فاريش.

أتته فكرة هستيرية: كان ينبغي أن أتناول فطوراً، متى أكلت؟ ومعها، عاد وعيه بجسده فجأة، إدراكٌ حادّ أنه كان بحاجة ماسّة إلى التبول منذ لحظة استيقاظه ذلك الصباح.

إحساس رائع بالانفراج حل عليه وسرى مع دمه، قال في نفسه وهو يزرر بنطاله: كل شيء بخير! ثم...

سيارته! سيارته الجميلة، التي كانت قبل لحظات فقط نظيفة، صارت الآن مسرح جريمة، مشهداً مأخوذاً من مسلسل بوليسي. الكلبان داخلها يتحركان بجنون، يقفزان، يندفعان، فيما جسد فاريش مُكبَّب فوق لوحة العدادات، رأسه متدلٍّ إلى الأسفل، وضعيته مسترخية على نحو غريب، كأنه مجرد رجل يبحث عن مفتاح سقط منه... لولا بركة الدم التي تحيط برأسه، والقطرات الثقيلة التي تقطر على أرض السيارة، وتتناثر على الزجاج الأمامي. نقاط داكنة، لامعة، كأنها أزهار حمراء صغيرة انفجرت على السطح العاكس. في الخلف، كان ثيبل يندفع يميناً ويساراً، ذيله يضرب النوافذ باضطراب، أما فان زانت، فقد جثمت عند سيدها، تدفعه بخطمها دفعات سريعة متكررة -تضغط خده بأنفها، ثم تتراجع، ثم تندفع مجدداً، تدفعه مرة أخرى، ثم تتبع، تتبع بذلك الصوت القصير الثاقب، صوت يحمل إلحاحاً حاداً، ليس مجرد نباح كلبة، بل نداءً واضح لا يمكن الخطأ في فهمه: صوت يطلب النجدة.

دعك داني ذقنه بعصبية، وعيناه المجنونتان تجولان في المكان، كأنهما تبحثان عن مخرج، عن تفسير، عن لحظة توقف فيها الزمن قبل أن يضغط الزناد. أيًا كان ذلك الدافع العارم الذي دفعه إلى إطلاق النار، فقد تلاشى الآن، تاركاً وراءه كثيراً من المتاعب، حتى حجبت الشمس نفسها. بحق الرب... لماذا أطلق النار عليه داخل السيارة؟ لو أنه انتظر ثانيتين فقط! لكن،

لا؛ كان به توقُّ شديد لإنهاء كل شيء، فاندفع وضغط الزناد بدلاً من انتظار اللحظة المناسبة.

جلس القرفصاء، استند بيديه إلى ركبتيه، فاجتاحه الغثيان، ولفحته قشعريرة باردة. قلبه يضجُّ كطبل، وجسده منهك، لم يتذوَّق وجبة حقيقية منذ أسابيع، لا شيء سوى فتات طعام تافه: آيس كريم ببسكويت، ماء غازي... الآن، بعد أن انحسرت موجة الأدرينالين، شعر كأن كل ما تبقى فيه من طاقة قد انطفأ، لم يعد يريد سوى أن يستلقي على هذه الأرض الخضراء الحارة، أن يغمض عينيه وينسى. مكتبة سُرْمَن قرأ

حدّق إلى الأرض، كأنه مغيَّب، كأن شيئاً فيها يسحبه إلى الأعماق. ثم هزَّ رأسه بقوة، قاوم إحساسه بالخدر، وتحامل على نفسه حتى نهض واقفاً. قليل من المخدرات كان كفيلاً بأن ينعشه ويعيده إلى توازنه. مجرد فكرة المخدرات جعلت عينيه تدمعان، لكن لم يكن معه شيء، خرج من البيت خالي اليدين، وآخر ما يريده الآن هو أن يفتح باب السيارة وينبش في جيوب فاريش، أن يلمس نسيج ذلك الأفرول العتيق، القذر، الكريه، أن يبحث داخله ثم يغلقه من جديد.

بخطوات عرجاء، دار حول مقدمة السيارة، لكن فجأة، انقضّت فان زانت نحوه بجنون، فاصطدم خطمها بالزجاج الأمامي محدثاً صوت ارتطام قوي، جعله يتراجع مرتعباً.

وفي خضمّ موجة النباح المفاجئة التي دوّت في المكان، وقف لحظة، ساكناً، أغمض عينيه، حاول أن يلتقط أنفاسه، لكنها خرجت ضحلة، متقطعة. لم يكن يريد أن يكون هنا، لكن ها

هو ذا هنا، ولا خيار أمامه سوى أن يبدأ التفكير، أن يعيد ترتيب
فوضى رأسه، خطوة صغيرة... ثم خطوة أخرى.

كانت الطيور هي أول ما نبه هاربيت، جعلتها تجفل كحيوان
بري استشعر خطرًا غير مرئي. فجأة، ودفعة واحدة، ارتفعت
في الهواء، انطلقت بعنف، رفعت ذراعيها تحمي عينيها، وحين
هدأ المشهد قليلًا، لاحظت أربعة أو خمسة غريان قد حطت
على درابزين سطح الخزان، رؤوسها تلتفت ببطء نحوها تنظر
إليها. رفرف أحدها بجناحيه، ثم طار. ومن الأسفل، من بعيد،
التقطت أذناها صوتًا، شيئًا بدا لها كعواء كلاب، لكنه لم يكن
عواءً عاديًا، كان نباحًا هائجًا. لكن قبل أن يصلها هذا الصوت،
خَيَّلَ إليها أنها سمعت شيئًا آخر، صوتًا خافتًا، انفجارًا صغيرًا،
كأنه فرقعة بعيدة على أرض ملتهبة تحت شمس منتصف النهار،
أتى مع الريح، تلاشى كأنه لم يكن.

ظلت هاربيت جالسة في مكانها، ساقاها نصفهما داخل
الخزان ونصفهما خارجه، وقدماهما تستقران على درجات السلم.
عيناها تجولان في الأفق بتوتر، ثم استوقفتها هيئة أحد تلك
الغريان، بدا مختلفًا، يقظًا بطريقة غريبة، كأنه مخلوق من فيلم
رسوم متحركة، يحمل في ملامحه شيئًا شرييرًا لكنه مألوف. مال
برأسه نحوها، للحظة، بدا كأنه على وشك أن ينطق، أن يقول
شيئًا ما. لكن قبل أن يحدث ذلك، انطلق صوت من الأسفل،
ارتجفت له، فطار الغراب في الحال مبتعدًا.

أصاغت السمع، نصف جسدها داخل الخزان، ونصفه الآخر

خارجة. أسندت ثقلها بيدها، لكن السلم صرّ تحتها بصوت حاد، فشهقت، وأطلقت صرخة صغيرة. بسرعة، رفعت جسمها، زحفت على الألواح الخشبية، ارتكزت على يديها وركبتيها، ثم اقتربت من الحافة ومدت رأسها لتتنظر إلى الأسفل.

هناك، بعيداً عبر الحقول الممتدة نحو الغابة، أبعد بكثير مما يسمح لها بتمييز التفاصيل، رأت السيارة -سيارة داني. كانت الطيور قد بدأت تعود إلى الأرض، تحط واحداً تلو الآخر، فوق الأغصان، وفي الأجمات، وعلى التربة الساخنة. لكن عند السيارة، على مسافة شاسعة، كان داني راتليف واقفاً، ظهره إليها، يده مرفوعتان إلى رأسه، كأن هناك من يصرخ عليه.

خفضت هاربيت رأسها، أفرعتها هيئته المتوترة العنيفة. وبعد لحظة، أدركت ما رأت، فنهضت من جديد، نهضت ببطء.

نعم... هناك لون أحمر قان، قطراته متناثرة على الزجاج الأمامي للسيارة، لونٌ شديد الحمرة، صادم حتى من هذه المسافة البعيدة. ومن خلف هذا اللون، من وراء بقعه المبعثرة، خيّل إليها أنها رأت شيئاً يتحرك، شيئاً مخيفاً، يتلوّى ويندفع، لكن ما هو؟ لم تستطع أن تميّز... مجرد ظل داكن، شيء أشبه بكابوس ينبض داخل السيارة. لكن ما كان واضحاً أكثر هو أن داني راتليف نفسه كان خائفاً... خائفاً من ذلك الشيء في الداخل. خطواته المتراجعة كانت بطيئة وآلية، كأنها مستعارة من مشهد في فيلم، تشبه تلك الخطوات المرتبكة الأخيرة لراعي بقر أصابته رصاصة.

وفجأة، اجتاحتها وهنٌ غريب، إحساس بالخواء كاد يبتلعها. من

حيث وقفت، فوق ذلك الارتفاع، بدا كل شيء أمامها مسطحًا، بلا وزن، بلا أهمية. الشمس فوقها ساطعة بعنف، بيضاء مشتعلة، وفي رأسها عادت تلك الخفة العجيبة، نفس الشعور الذي راودها في أثناء تسلّقها الخزان، ذلك الدافع الغامض إلى إرخاء قبضتها، إلى ترك نفسها تهوي. في داخلها، صوتٌ يقول: أنا واقعة في مشكلة، مشكلة كبيرة! لكنها لم تستطع أن تشعر بذلك حقًا، مع أنه الحقيقة الوحيدة المؤكدة.

في الأسفل، بعيدًا بين الأعشاب، انحنى داني، التقط شيئًا ورفع، لم يكن بحاجة إلى أن تراه بوضوح لتدرك ما هو. خفق قلبها مذعورًا حين فهمت، من خلال حركة يده، أنه كان يحمل مسدسًا. في الصمت المخيف الذي لف المكان، تردّد في أذنيها، للحظة خاطفة، صوت نغمة ترومبيت بعيدة، كأنها آتية من مكان غامض في الأفق. ربما كانت فرقة هيلي تسير بعيدًا في الشرق، وربما كان محض وهم. رفعت عينيها، بحثت عن مصدر الصوت، فرأت هناك، في البعيد، لمعانًا ذهبيًا خافتًا، انعكاس أشعة الشمس على سطح نحاسي، يلمع في السديم البعيد.

طيور... طيور في كل مكان، انفجارات سوداء ضخمة تتطاير في السماء، كأنها غبار ذري، كأنها شظايا متناثرة. كانت الطيور دائمًا نذير شؤم، إشارة إلى أمور مبهمة، كلمات وأحلام وقوانين وأرقام، عواصف من معلومات متشابكة في رأسه، معلومات لا يستطيع فكّ رموزها، كلها تحلق من حوله، محمولة على أجنحتها، تسبح في الهواء. رفع داني يديه إلى أذنيه، كأنما يحاول حجب

الضوضاء التي لا يسمعها سواه، وعندما فعل، وقعت عيناه على انعكاس صورته على زجاج السيارة المائل، الملطخ بالدم. رأى مجرّة حمراء، دوّامة متجمدة على سطح الزجاج، خلف رأسه كانت الغيوم تتحرك ببطء، خفيفة، لا مبالية بكل ما يحدث. اجتاحه الغثيان، كان مستنفذ القوى، بحاجة إلى حمام، إلى وجبة حقيقية، بحاجة إلى أن يكون في البيت، في سريريه، لا هنا وسط هذه الفوضى العفنة.

أطلقت النار على أخي... لماذا؟ لأنني كنت بحاجة ماسّة إلى التبول، فلم أستطع التفكير بوضوح! يا للسخرية، يا للسخف! تخيّل صوت ضحكات فاريش، كان ليسخر من هذا المشهد، تمامًا كما كان يضحك من تلك القصص التافهة التي يقرأها في الصحف: السّكير الذي انزلق وهو يبول من فوق جسر فسقط وسط الطريق السريع ومات، أو ذلك الأحمق الذي استيقظ مفزوعًا على صوت الهاتف عند سريريه، فأمسك بمسدسه وأطلق النار على رأسه!

المسدس كان هناك، على الأرض، بين الأعشاب عند قدميه، تمامًا حيث أسقطه. انحنى ليلقطه، وعيناه تراقبان ثبيل، الذي كان ينحني إلى وجه فاريش، يشمّ خدّه ورقبته بحركة جعلت داني يشعر بالغثيان. أما فان زانت، فكانت تحدّق إليه بعينيها الصفراوين الحارقتين، تتابعان كل حركة يقوم بها، متأهبة، متحفزة. تقدم من السيارة، فقفزت متراجعة، ثم نبحت بعنف، بطاقة متجددة، كأنها تصرخ في وجهه: افتح الباب، فقط افتح هذا الباب اللعين! وفجأة، تذكر داني تلك التدريبات في الفناء

الخلافي، تذكر فاريش وهو يلفّ ذراعه بلحاف سميك وأكياس خيش، ويصرخ بجنون: اقتل! اقتل!، فتتطاير ندفات من القطن في أرجاء الفناء كله.

ركبتاه ترتجفان. دعك فمه بيده، محاولاً أن يستجمع شتات نفسه، ثم مدّ ذراعه بكامل طولها، وجّه المسدس إلى عين فان زانت الصفراء، وضغط الزناد. ثقب بحجم الدولار الفضي ظهر في الزجاج، ومعه انفجر الصراخ والنواح والحركة العنيفة داخل السيارة. شدّ على أسنانه، كأن بإمكانه أن يجبس الصوت بين ضروسه. انحنى مقترباً، عينه تلتصق بثقب الزجاج، ثم أدخل فوهة المسدس فيه، أطلق النار مرة أخرى. بعد لحظة، أمال المسدس، أطلق رصاصة أخرى نحو الكلب الآخر، ثم تراجع، وقذف بالمسدس بعيداً، بكل ما أوتي من قوة، أبعد ما استطاع. وقف هناك، في ضوء الصباح اللاهب، يلهث كأنه قطع ميلاً كاملاً ركضاً. كان الصراخ المتفجر من السيارة أسوأ ما سمعه في حياته، صوتاً لا ينتمي إلى هذا العالم، صرخة آلة معطوبة ممزوجة بنواح معدني مستمرّ، لم يهدأ لحظة. شعر بألم حقيقي ينهش رأسه، برغبة مجنونة في أن يحشر عصاً داخل أذنه ليخرس الصوت.

لكن الصوت لم يتوقف، ولم يكن أمامه سوى أن ينتظر، أن يصمد، أن يحاول ألا يسمع، لكن الزمن تمدّد أمامه، بدت له الثواني طويلة حدّ الاستحالة. بقي واقفاً، ظهره إلى السيارة، لكنه في النهاية استدار، وبخطوات متيبسة سار إلى حيث رمى المسدس. كان صراخ الكلبين لا يزال مدوياً في أذنيه، صراخاً

لا يرحم، فتوقف، جثا على ركبتيه، وأخذ يفتش بين الأعشاب النحيلة، يباعد بينها بيديه، ظهره متشنج، متوتر بسبب ذلك الصراخ الذي لا يهدأ.

لكن المسدس كان فارغاً، لم يبقَ فيه شيء. مسحه داني بقميصه، ثم رماه بعيداً، أعمق ما استطاع بين الأشجار. أراد أن يرغم نفسه على العودة إلى السيارة، أن ينظر إلى الكلبين، أن يرى ما فعل، لكنه لم يحتج إلى ذلك... ففي لحظة، توقف الصراخ فجأة. اجتاحه الصمت على شكل موجات متتالية، كل موجة تأتي بذروتها، ثم تهدأ، كأنها رجع الصرخات التي سبقتها... ثم، اختفى كل شيء.

قال في نفسه: لو تابعت القيادة حتى مطعم «وايت تشيكن» لكانت النادلة الآن آتية لنا بالقهوة، لو لم أنعطف وأدخل هذه الطريق. تريسي... النادلة الهزيلة ذات القرطين المتدليين والمؤخرة المسطحة، تأتيهما بالقهوة دائماً من غير سؤال. تخيل فاريش مُستتباً إلى ظهر مقعده، وقد تكوّر كرشه أمامه، وهو يكرّر حديثه المعتاد لها (كيف يحب أن يأكل البيض؛ لا يريد أن يشربه شرباً، قولي للطاهية إن البيض ينبغي ألا يكون ناضجاً كثيراً)، وداني جالس إلى الجانب الآخر من الطاولة، ينظر إلى رأس فاريش، إلى شعره المتلبّد القذر، الذي يشبه أعشاب البحر، ويفكر في شيء واحد: أنت لا تعلم أبداً كم أرغب في قتلك!

لكن ذلك كله تبخّر، انمحي كحلم يقظة تافه، ووجد نفسه يحدّق إلى زجاجة مكسورة بين الأعشاب. فتح يده، ثم أغلقها، ثم فتح الأخرى، كانت كفّاه باردتين، دبقتين. اجتاحه زعر مفاجئ،

فقال في نفسه: يجب أن أتحرك... يجب أن أتحرك بسرعة!

لكنه لم يتحرك. ظل واقفاً، متجمداً في مكانه، كأن الصلة بين جسده ودماغه قد انقطعت. والآن، بعدما تحطم زجاج السيارة، وبعدها صمت صراخ الكلبين المريع، بدأ يسمع صوتاً آخر، صوت الموسيقى، قادماً من الراديو، خافتاً لكنه واضح. أغنية قديمة بكلمات تافهة عن «غبار النجوم في شعرك»... تساءل بمرارة: هل فكّر أولئك الذين غنّوا هذه الأغنية يوماً في أن شخصاً ما قد يسمعها وهو واقف على طريق ترابي مهجور، قرب سكة قطار منسية، وأمامه جسد هامد؟ لا، لم يفكروا في ذلك مطلقاً. أولئك الناس لا يفعلون شيئاً سوى التجوّل في لوس أنجلوس وهوليوود، يرتدون ملابس بيضاء، نظاراتهم الشمسية داكنة من الأعلى وشفافة من الأسفل، يشربون الشامبانيا ويستشقون الكوكايين من صوان فضية، يقفون في الاستوديوهات الفاخرة، بجوار البيانو الضخم، أوشحتهم اللامعة تتلألأ تحت الأضواء، وكؤوس الكوكيتل بأيديهم، يغنون بكلمات ساذجة... لكنهم لا يفكرون أبداً في أن شخصاً تعيشاً قد يقف هنا، على طريق ترابي، في ولاية ميسيسيبي، يعاني مشكلات لا يمكن حلها، فيما يبث الراديو: التقت الملائكة كلها يوم مولد...

«أولئك الناس لا يضطرون أبداً إلى اتخاذ قرارات صعبة...» قالها في نفسه وهو يحدّق إلى سيارته الملطخة بالدم. لا يضطرون إلى مثل هذه الأمور، فكل شيء يأتيهم جاهزاً مثل مفاتيح سيارة جديدة.

تقدّم نحو السيارة خطوة، خطوة واحدة، فارتجفت ركبته وأخافه وقع قدميه على الحصى، صرخ في نفسه: عليك أن تتحرك! قالها بنبرة هستيرية عميقة، وراح ينظر في كل اتجاه، يسارًا ويمينًا، ثم إلى السماء، يده ممدودة كما لو كان يبحث عن شيء يستند إليه إن سقط. ما ينبغي فعله واضح تمامًا... لكن كيف؟ لا يستطيع تجاهل الحقيقة، حقيقة أنه، في أعماقه، يفضل أن يمسك منشأً آلياً ويقطع ذراعه بالكامل على أن يلمس جثة أخيه ولو بطرف إصبعه.

انخفضت عيناه إلى الداخل، إلى يد فاريش المستقرة على لوحة العدادات، حمراء، متسخة، ممدودة في وضع يبدو طبيعيًا على نحو مزعج. أصابعه ملطخة بالتبغ، والخاتم في إصبعه الصغرى، على شكل حجر نرد. وقف داني هناك، ينظر إليها، ويحاول أن يفكر، أن يجد طريقة لإعادة الأمور إلى الوراء، إلى اللحظة التي سبقت كل هذا، إلى نقطة لم يعد الوصول إليها ممكنًا. كل ما يحتاج إليه هو أن يستشق قليلاً من تلك المادة المخدرة كي يركز أفكاره ويستعيد نشاط قلبه. في الأعلى، في الخزان، هناك ما يكفي... كمية كبيرة من المنتج. لكن، كل لحظة يقضيها واقفًا هنا، بلا حراك، تعني أن السيارة ستظل عالقة في هذا المكان، بين الأعشاب، تحمل بداخلها رجلًا ميتًا، وكلبين بوليسييين، وأجسادًا تتزف ببطء على المقاعد.

كانت هاربيت منبطحة، أصابعها متشبثة بالدرابزين، عاجزة عن التنفس من شدة الذعر. احتقن وجهها، واندفع الدم إلى رأسها لأن قدميها كانتا أعلى من مستوى جسدها، فصارت نبضات قلبها

تُدَوِّي في صدغيها. الصيحات القادمة من السيارة توقفت. ذلك العويل الحيواني الحاد، الذي بدا لها كأنه لن يتوقف أبداً، انقطع فجأة، لكنه ترك وراءه صمماً مشوّهاً فاقداً شكله الطبيعي، كان الصوت ذاته قد مرّقه.

ها هو ذا داني راتليف، يقف هناك بلا حراك، كأنه متجذّر في الأرض. بدا صغيراً جداً وسط تلك المساحة البعيدة الهادئة. كان كل شيء ساكناً، جامداً، كأنها تنظر إلى صورة. كل نصل من أنصال العشب، كل ورقة من أوراق الأشجار، بدت كأنها مغطاة بطبقة زيتية، أو ملصقة في مكانها.

شعرت بألم في مرفقيها، فحرّكت جسدها قليلاً، بالكاد، محاولة أن تجعل وضعيتها أقل إنهاكاً. لم تكن واثقة مما رآته، فالمسافة بعيدة جداً، لكن إطلاق النار كان واضحاً، والصراخ كان واضحاً، ولا تزال تلك الصيحات المدوّية تتردّد في أذنيها: حادّة، غاضبة، يصعب احتمالها حتى في الذكرى. توقفت الحركة داخل السيارة، وصار كل شيء ساكناً تماماً. ضحيته لم تعد تتحرك... أو ربما ضحاياها؟ بدا لها أنها رأت داخل السيارة أكثر من شكل داكن، أكثر من ظلّ داكن. ثم، في لحظة، استدار داني. انقبض قلبها بعنف، كأن يداً خفيّة قد عصرته. راح عقلها يلهث بالدعاء: «يا ربّي، أرجوك يا ربّي، لا تدعه يأت... لا تدعه يصعد إلى الخزان!»

لكن داني لم يتجه نحوها، بل سار نحو الأشجار بخطى سريعة، لم يلتفت إلا مرة واحدة إلى الخلف، ثم توقف في فسحة بين الأشجار. للحظة، كشفت حركته عن شريط من الجلد الأبيض

المصفر بين قميصه وأعلى بنطاله الجينز، لون شاحب بدا غريباً، مختلفاً عن سُمرة ذراعيه الشديدة. انحنى والتقط المسدس، وراح يتفحصه، ثم نهض ومسحه بطرف قميصه، وبحركة واثقة، ألقى به نحو الأشجار. راقبت الظل الداكن للمسدس وهو يدور في الهواء، يتحرك بسرعة، ثم يختفي في عمق العشب.

كانت هاربيت تسترق النظر إلى كل ذلك من فوق ذراعها، تكافح رغبتها الشديدة في الإشاحة بوجهها بعيداً. كان جزء منها يريد أن يرى، أن يراقب كل حركة يقوم بها داني راتليف، لكن إبقاء نظرها مركزاً على تلك البقعة البعيدة تطلّب منها جهداً هائلاً. كان عليها أن تهزّ رأسها بين الحين والآخر لطرد ذلك الضباب الذي أخذ يتسلل إلى رؤيتها ببطء، ضباب يشبه العتمة التي تتسحب فوق الأرقام على لوح المدرسة عندما تطيل التحديق إليها.

وبعد هُنيئة، استدار داني مجدداً وعاد أدراجه نحو السيارة. توقف هناك، ظهره العريض المتعرق مواجهاً إياها، رأسه مائل إلى الأمام قليلاً، وذراعه متدليتان على جانبيه، متصلبتان. كان ظله الطويل ممتداً أمامه فوق الحصى، جسده وظله أشبه بعقريين يشيران إلى الساعة الثانية. وتحت وهج الشمس، بدا النظر إلى ذلك الظل الساكن، البارد، أكثر راحة للعين من النظر إلى الجسد نفسه. ثم، في لحظة، انزلق الظل جانباً واختفى، حين استدار داني وبدأ السير باتجاه الخزان.

انقبضت معدتها. تمالكت نفسها لحظة، ثم بدأت تبحث عن المسدس. كانت أصابعها المرتبكة تحاول إخراجه من أغلفته. وعلى الفور بدا لها أن ذلك المسدس القديم الذي لا تعرف

كيف تستخدمه، والذي لم تكن متأكدة من أنها حشته على نحو صحيح، أصغر كثيراً من أن يقف حاجزاً بينها وبين داني راتليف! خاصة وهي في وضعها هذا، مستلقية على السطح، مكشوفة، غير مستقرة.

جالت بعينيها المتوترة في المكان، تفكر في النقطة التي عليها أن تتخذها موقعاً لها. هل تبقى هنا؟ أم تنتقل إلى الجهة الأخرى؟ أم تنزل قليلاً؟ ثم سمعت قعقة عند أسفل السلم.

اتسعت عيناها، راحت تتلفت حولها متوترة؛ لم تستخدم مسدساً في حياتها كلها، وإن أطلقت النار، فهو لن يسقط فوراً. وحتى لو أصابته، فماذا بعد؟ سطح الخزان قديم، مهترئ، ولا مساحة فيه للتراجع، لا مساحة للهرب.

خطواته على السلم صاعدة!

في لحظة واحدة، اجتاحتها رعب كاسح... فكرة خاطفة، شعور جسدي بحت: أن يمسك بها ويرميها من فوق الخزان. نهضت دفعة واحدة، قدماها متيبستان، عيناها تتسعان في ذعر خام، وهمت بأن تلقي بنفسها، مع المسدس، داخل ذلك الباب الصغير، إلى الماء، إلى العمق... لكن شيئاً أوقفها. ارتدت إلى الخلف واستعادت توازنها، لا! هذا الخزان فخ. ستكون مواجهته في ضوء الشمس خياراً سيئاً، لكنه يبقى أفضل من النزول داخله، حيث لن تحظى بأي فرصة، حيث ستكون محاصرة تماماً.

اقتربت الخطوات على السلم.

كان المسدس ثقيلاً وبارداً، بدا غريباً بين أصابعها المرتجفة. قبضت عليه بيد خرقاء، ثم زحفت جانباً على سطح الخزان،

وانقلبت على بطنها، تمسك السلاح بكلتا يديها، ترحف على مرفقيها، مبتعدة قدر استطاعتها دون أن تطلّ برأسها فوق الحافة. ضاقت رؤيتها، كأن العالم تقلّص، صار مشهدًا واحدًا، لا ترى منه إلا عبر شق ضيق، كفتحة صغيرة في خوذة فارس. وجدت نفسها تنظر من خلاله بانفصال غريب عن الواقع المحيط بها. كل شيء بدا بعيدًا، كل شيء غير حقيقي، باستثناء رغبة حادة، يائسة، رغبة قاتلة في أن تلقي بنفسها في الخطر، كما تفعل فراشة تدور حول نار، أن تهوي مباشرة في انفجار واحد، في وجه داني راتليف.

اقتربت الخطوات.

تقدّمت قليلًا. المسدس يهتزّ بين يديها. اقتربت بما يكفي لتتظر من فوق الحافة، ثم انحنت أكثر قليلًا، وها هو ذا رأسه... قمة رأسه تحتها بنحو خمسة عشر قدمًا.

قالت في نفسها كأنها تخاطبه: لا تنظر إلى الأعلى! وازنت نفسها على مرفقيها وقربت المسدس من وجهها حتى لاصق أنفها، ثم نظرت عبر الماسورة، أحكمت التسديد بأفضل ما استطاعت، ثم أغمضت عينيها وضغطت الزناد.

بوووم...

ارتدّ المسدس بعنف، ضربها بقوة على أنفها، فصاحت وانقلبت على ظهرها واضعة يديها الاثنتين على أنفها. شلال من شرارات برتقالية تدفق في الظلمة خلف أجفانها المغلقة. وفي مكان بعيد داخل عقلها، مكان غائر لا يكاد يُدرك، سمعت الصوت -قعقة المسدس وهو يسقط، ثم اصطدامه بدرجات

السلم، صوت معدني مجوّف، سلسلة من الارتطامات السريعة، كأن أحدهم يمرر عصا على مجموعة قضبان حديدية، لكن الألم... الألم كان طاغياً، ساطعاً، جارحاً، ألمًا لم تعرف له مثيلاً من قبل. تدفق الدم من بين أصابعها دافئاً زلّجاً؛ ينساب من بين أصابعها، يغمر يديها، يملأ فمها بطعمه المعدني الحاد. نظرت إلى أصابعها المبللة بالدم الأحمر، ثم شحب وجهها... للحظة، لم تستطع أن تتذكر أين هي. لم تستطع حتّى تذكر سبب وجودها هنا، في هذا المكان، فوق هذا السطح.

أجفل داني إجمالاً شديداً لحظة الانفجار، فكادت يده تفلت السلم. دوى صوت اصطدام عنيف بالدرجة التي فوقه، ثم ارتطم شيء ما بقوة بقمة رأسه.

لبرهة، ظن أنه يسقط، ولم يدر بأي شيء يتمسك، لكنه، كأنما في حلم، أدرك أن يديه الاثنتين لا تزالان متشبثتين بالسلم. شعر بالألم يسبح في رأسه، تتدفق منه موجات كبيرة تنبض بإيقاع ثقيل، تتردد كدقات ساعة عملاقة، تبقى معلقة للحظة، ثم تذوب ببطء.

شعر بشيء يسقط ماراً به، وبدا له أنه سمع صوت ارتطامه بالأرض. رفع يده إلى رأسه، تحسس التورم الذي بدأ يتشكل، ثم استدار بالقدر الذي تجرأ عليه، محاولاً النظر إلى الأسفل، لعلّه يرى ذلك الشيء الذي ضربه. كانت الشمس في مواجهته، فلم يستطع أن يرى شيئاً في الأسفل غير ظل الخزان، وظل جسده الذي بدا له أشبه بظل فزاعة طيور متطاوّل على السلم.

ومن تلك الفسحة بين الأشجار، عكست نوافذ سيارته ضوء الشمس الشديد فأعمته، أياكون فاريش قد فسخ الخزان؟ لم يكن داني مقتنعاً بهذا، لكنه أدرك الآن أنه لم يعد واثقاً بشيء.

وها هو ذا الآن هنا. صعد درجة أخرى، ثم توقف، وفكر في النزول من جديد كي يرى إن كان يستطيع العثور على ذلك الشيء الذي ضربه في رأسه، لكنه أدرك أن ذلك لن يكون إلا مضيعة للوقت؛ ما جرى هناك في الأسفل قد جرى، وليس عليه الآن إلا أن يتابع التسلق، وأن يركز على مهمة بلوغ القمة. لا يريد أن انفجر به شيء هنا، لكن، إذا انفجر شيء، فاللعنة على كل شيء! قال هذا في نفسه وهو ينظر إلى الأسفل، إلى سيارته المملوطة بالدم.

ما من شيء يفعله غير أن يتابع الصعود. دعك البقعة المتورمة في رأسه، ثم استتشق نفساً عميقاً وتابع صعوده.

استيقظ شيء في هاربيت فاستعادت الشعور بجسدها من جديد، وجدت نفسها مستلقية على جنبها كأنها عادت إلى نافذة ابتعدت عنها، لكنها الآن تتنظر من زاوية مختلفة. كانت يدها مغطاة بالدماء، حدثت إليها لحظة كأنها لا تعرفها.

ثم تذكرت فاستوت جالسة: إنه قادم، ولا وقت لتضييعه. وقفت مترنحة، وفجأة انقضت يدٌ من الخلف على كاحلها، فصاحت وركلتها بقوة حتى تحررت، اندفعت نحو الباب المفتوح دون انتظار، فيما كان وجه داني راتليف المشوه وقميصه المخضب بالدماء يعلوان خلفها على السلم مثل سبّاح يخرج من حوض

كان ضخماً ومخيفاً ومنتبأ، أسرعت هارييت وهي تشهق وتبكي من شدة ذعرها، فنزلت السلم الداخلي نحو الماء، امتد ظله فوق فتحة الباب حاجباً الشمس عنها، سمعت صوت حذائه الثقيل على درجات السلم فوق رأسها، ينزل السلم خلفها.

استدارت هارييت وألقت بنفسها عن السلم، اصطدمت بالماء بقدميها أولاً، غاصت في الظلام والبرودة حتى لامست قدميها القاع، ثم دفعت الماء القذر بذراعيها إلى الخلف بقوة وصعدت إلى السطح من جديد، لكنّ يداً سريعة أطبقت على رسغ يدها فور بلوغها السطح وانتشلتها من الماء، كان قد نزل حتى بلغ الماء صدره، وكانت إحدى يديه متمسكة بالسلم فيما مال بجسده جانباً ليمسك بذراعها، وعيناه الفضيتان المتوهجتان هي وجهه المحروق بالشمس تخترقانها كخنجر.

حاولت التخلص من قبضته، فراحت تتلوى وتنتفض وتكافح بكل ما أوتيت من قوة لم تكن تعلم أنها تملكها، ومع أنها أثارت رداً هائلاً من الماء، لم يكن لذلك أي جدوى، رفعها عالياً (كانت ملابسه المشبعة بالماء ثقيلة؛ فشعرت بعضلاته ترتجف من الإجهاد) فيما كانت هارييت تركل الماء القذر في وجهه.

صاح بها: «من أنت؟» كانت شفته مشقوقة وخداه متسخين غير حليقين: «ماذا تريد مني؟»

أطلقت هارييت شهقة مختقة؛ كان الألم في كتفها لا يحتمل. كان على ذراعه وشم أزرق اللون على شكل أخطبوط غير واضح

وكتابة غير مقروءة بخط إنجليزي قديم.

«ماذا تفعلين هنا؟ تكلمي». هزتها يده القابضة على ذراعها
هزاً عنيفاً فصرخت متأوّهة رغماً عنها، وراحت تركز الماء بيأس
تبحث عن شيء تستند إليه.

فجأة ثبت ساقها بركبته، وهو يضحك ضحكة نسائية حادة،
وأمسك بها من شعرها، ثم دفع وجهها بعنف في الماء القذر، ثم
رفعها من جديد، كان جسده يرتعش كله.

صرخ بغضب: «أجيبيني الآن أيتها العاهرة الصغيرة!»

حقيقة الأمر أن داني كان يرتجف من الصدمة بقدر ما كان
يرتجف من الغضب، تصرف باندفاع ولم يكن لديه وقت للتفكير،
وحتى بعد أن أمسك بالفتاة، لم يكن يصدق ما يحدث.

كان أنفها ينزف دمًا، ووجهها -الذي يتماوج تحت الضوء
المنعكس من الماء- ملوّنًا بالأوساخ والصدأ، كانت تحديق إليه
بنظرة حاقدة منتفخة كأنها بومة صغيرة في قفص.

صاح: من الأفضل لك أن تتكلمي، تكلمي الآن! «دوى صوته
بجنون داخل الخزان، فيما راحت أشعة الشمس المتسللة عبر
السقف المتهالك تتراقص وتتنفس ثقيلة على الجدران المغلقة
الخائقة، كان الضوء يبدو غريباً وبعيداً مثل الضوء الخافت الذي
يتسلل إلى منجم أو في بئر منهارة.

في تلك العتمة بدا له وجه الفتاة كأنه عائم فوق الماء مثل
قمر أبيض، وانتبه إلى صوت أنفاسها السريع الخافت.

صرخ من جديد: «أجيبيني، ماذا تفعلين هنا؟» هزها من جديد بأقصى ما استطاع وهو مائل فوق الماء ومُتشبِّث بالسلم بيده الأخرى، هزها من رقبتها إلى أن صرخت. وعلى الرغم من شدة إرهاقه، فقد اجتاحتها موجة غضب عارم فزمجر زمجرة شديدة جعلت وجهها يمتلئ رعباً وصوتها يخفت فجأة.

شعر بصداع في رأسه، راح يقول لنفسه: فكر، فكر! نعم، لقد قبض عليها، فماذا يفعل بها؟ هو الآن في موقف صعب. طالما أقنع داني نفسه أنه يستطيع السباحة مثلما يسبح الكلب حتى إن كان مُقيّد اليدين، أما الآن وجسده في الماء حتى صدره ويده متشبّثة بسلم متهالك، فلم يعد متأكدًا من ذلك. كم من الصعب أن تسبح؟ الأبقار قادرة على السباحة وحتى القطط، فلماذا لا يقدر عليها؟

انتبه إلى أن الطفلة عادت تحاول التملُّص من قبضته، فرفعها من جديد بحركة عنيفة، وغاصت أصابعه في لحم رقبتها، فصرخت متألّمة.

قال لها: «اسمعيني جيّدًا، تكلمي سريعًا وقولي لي من أنت؛ فربما لا أجعلك تفرقين».

كانت تلك كذبة، بل كان واضحًا أنها كذبة، ومن وجهها الشاحب أدرك أنها تعرف ذلك أيضًا، شعر بالذنب لأنها مجرد طفلة، لكن لم يكن هناك خيار آخر.

قال بصوت ظنّه مقننًا: «سأتركك تذهبين».

أزعجته رؤية الفتاة تتفخ خديها غير مصدقة وتزداد انغلاقًا على نفسها، فقرّبها من الضوء ليستطيع رؤية وجهها على نحوٍ

أفضل. سقط شعاع من ضوء الشمس على جبهتها البيضاء، بدت متجمدة مع أن رقبتها كانت دافئة، وكان يستطيع سماع اصطكاك أسنانها.

هزها مرة أخرى بعنف شديد حتى شعر بألم في كتفه، لكنها على الرغم من الدموع التي انهمرت على وجهها، أطبقت شففتيها ولم تصدر أي صوت، ثم لمح داني بطرف عينه أجسامًا بيضاء صغيرة عائمة على سطح الماء بالقرب من صدره.

تراجع قليلًا (بيوض ضفادع!)، ثم صرخ في اللحظة التي تلت ذلك. فاجأته صرخته؛ كانت حارقة عالية منبعثة من أعماقه.

«يا يسوع المسيح!»

حدّق إلى هذا الشيء الذي رآه فلم يستطع تصديق عينيه، ثم رفع رأسه ونظر إلى أعلى السلم، إلى بقايا الكيس الأسود المتدلّية من الدرجة العليا، كان ذلك كابوسًا، لا يمكن أن يكون حقيقة: لقد تلفت المخدرات، ضاعت ثروته! مات فاريش من أجل لا شيء، إنها جريمة قتل عمد إن أمسكوا به!

«هل أنت من فعل هذا؟ أنت؟»

تحركت شفّتا الطفلة.

لمح داني كتلة من نايلون أسود كأنها فقاعة عائمة على سطح الماء، فجأراً بصوت عالٍ جدًا كأنه وضع يده في النار: «ما هذا؟ ما هذا؟» كان يصيح بها ويدفع رأسها ليقترّب من الماء.

أجابته مختنقة؛ كانت أول كلمات تنطق بها: «هذا كيس قمامة». «ماذا فعلت به؟ هاه؟ هاه؟» اشتدت قبضته على عنق هارييت، وبحركة سريعة دفع رأسها تحت الماء.

لم يسمح الوقت لهارييت إلا باستنشاق نفس سريع، كانت تحرق إلى الماء المظلم بخوف قبل أن يدفعها تحته، تصاعدت بضع فقاعات بيضاء أمام وجهها، قاومت دون صوت وسط صدى طلقات المسدس وومضات الضوء الفوسفورية السريعة، في مخيلتها رأت حقيبة مقلقة تتدحرج على طول مجرى النهر مندفعة مع التيار فوق حجارة مصقولة رطبة، كان قلب هارييت مثل مفتاح بيانو عاطل؛ النغمة العميقة نفسها تتكرر بحدة وإلحاح مثل رؤيا تشتعل خلف أجفانها المغلقة كعود كبريت أو شعلة شيطانية بيضاء وثبت في الظلمة.

وعندما رفعها من شعرها، سرى ألم في فروة رأسها مثلما يسري البرق؛ سعلت سعالاً شديداً أصم أذنيها، وغمرتها الضوضاء والصدى، كان يصيح بكلمات لم تستطع فهمها، وكان وجهه شديد الاحمرار منتفخاً من الغضب ومخيفاً جداً. شعرت بالغثيان والاختناق، فراحت تضرب الماء بذراعيها وترفس بقدميها بحثاً عن شيء تستند إليه، حتى اصطدمت مقدمة حذائها بجدار الخزان، فتمكنك من استنشاق نفس عميق، كان الشعور بالراحة سماوياً لا يُوصف (نغمة سحرية؛ موسيقا من السماء)، شهقت مراراً حتى سمعته يصرخ من جديد، ثم دفع رأسها مرة أخرى فتلاطم الماء حول أذنيها.

شد داني على أسنانه وحاول التمسك، على الرغم من حبال الألم التخينة التي انتشرت عميقاً في كتفيه، كان صرير السلم

واهتزازه يجعله يتعرق، شعر بخفة رأس هارييت وعدم استقراره تحت يده كأنه بالون يمكن أن ينزلق في أي لحظة ويفلت من قبضته، جعلته ركلاتها وضرباتهما يشعر بالدوار، حاول العثور على وضع مريح لكن كان ذلك مستحيلًا، كان متدليًا من السلم دون شيء صلب تحت قدميه، ظل يحرك ساقيه في الماء باحثًا عن شيء يقف عليه، لكن لم يكن هناك شيء.

تساءل كم يستغرق إغراق إنسان حتى الموت؟ كان الأمر فظيعةً، والأسوأ من ذلك أن عليه القيام بذلك بذراع واحدة. طنّت بعوضة عند أذنه طنينًا أثار غضبه، راح يهز رأسه يمينًا ويسارًا ليتجنبها، لكن الظاهر أن تلك اللعينة أدركت أن يديه ليستا حرتين وأنه لا يستطيع ضربها!

كانت أسراب البعوض في كل مكان، وقد عثرت عليه أخيرًا وفهمت أنه لا يستطيع التحرك، وعلى نحوٍ يثير الجنون راحت تغرس إبرها مطمئنة تمامًا في ذقنه ورقبته وفي ذراعيه المرتعشتين.

هيا! هيا! ما عليك إلا أن تنتهي هذا الأمر! هكذا كان يقول لنفسه، كان يمسك بهارييت تحت الماء بيده اليمنى الأقوى، لكن انتباهه كان منصبًا على يده الأخرى التي كانت تمسك بالسلم، لقد فقد جزءًا كبيرًا من الإحساس بها، لذلك ظل يحدق إلى أصابعه للتأكد من أنها لا تزال تمسك بالقضيب المعدني، كان أيضًا خائفًا من الماء ويخشى أن يفقد وعيه إن ظل ينظر إليه، يستطيع الطفل الذي يغرق أن يُغرق معه رجلًا كبيرًا حتى إن كان سباحًا متمرسًا أو منقذ سباحة! لقد سمع قصصًا كثيرة عن

ذلك.

أدرك فجأة أنها كَفَّت عن المقاومة، فانتظر لحظة دون أن يفعل شيئاً، رأسها رخوٌ تحت كف يده، رفع يده قليلاً، ثم استدار لينظر إليها مع أنه لم يكن راغباً في ذلك، ارتاح عندما رأى جسدها يطفو دون حركة في تلك المياه المخضرة.

أرخی قبضته بحذر فلم تتحرك، ثم أحس بألم في ذراعيه مثل وخز الإبر، فمال صوب السلم وتثبت به مستخدماً يده الأخرى، تحررت يده اليسرى فراح يطرد البعوض عن وجهه وظل ينظر إليها بعض الوقت على نحو غير مباشر من زاوية عينه، مثل شخص ينظر إلى حادث سيارة على الطريق السريع.

وعلى حين غرة راحت ذراعاها ترتعشان ارتعاشاً شديداً، وصار شبه عاجز عن التمسك بالسلم، مسح العرق عن وجهه بساعده وبصق شيئاً حامضاً ملأ فمه، وبعد ذلك أمسك بدرجة السلم الذي فوقه وجسده يرتعش كله، ثم استخدم مرفقيه معاً ليرفع نفسه. كان صرير الحديد الصديء شديداً تحت ثقله، وكان في غاية الإرهاق. اجتاحتها رغبة شديدة في الابتعاد عن هذا الماء، أرغم نفسه على الاستدارة، وألقى على جسدها نظرة أخيرة طويلة، ثم دفعها بقدمه ونظر إليها تبتعد عنه ساكنة كأنها جذع خشبي إلى أن غابت في الظلال.

مكتبة

t.me/soramnqraa

لم تعد هاربيت خائفة، شعرت بشيء غريب يسيطر عليها، سلاسل تتقطع، وأقفال تتكسر، والجاذبية تختفي. طفت عاليًا في الفراغ عاليًا وعاليًا، وصارت معلقة في ليل لا هواء فيه، بذراعين مبسوطتين كأنها رائد فضاء، كأنها دون وزن، وفي أعقابها ظلمة راعدة، حولها دوائر متداخلة تتسع وتتسع مثل تلك الدوائر التي تُحدثها قطرات المطر على وجه الماء.

شعرت بالعظمة والغرابة، كانت أذناها تطن، كانت تشعر بدفع الشمس على ظهرها كأنها تحلق فوق سهول من رماد وصحارى شاسعة من الأسى. فكرت: «يجب أن يكون هذا شعور الموت». إذا فتحت عينيها تخيلت رؤية ظلها بذراعين مفتوحتين متوهجًا باللون الأزرق في قاع الخزان مثل ملاك عيد الميلاد.

تحرك الماء برفق تحت جسدها، وكان تدافعه قريبًا من إيقاع التنفس (قريبًا على نحوٍ مريح)، شعرت كأن الماء يتنفس من أجلها، كان التنفس أشبه بأغنية منسية كأنه لحن تُرنمه الملائكة، كان الشهيق أشبه بالموسيقى، والزفير أشبه بالانتصار، لقد حبست أنفاسها مدة طويلة بالفعل، وتستطيع حبسها مدة أطول قليلًا.

أطول قليلًا، أطول قليلًا. وفجأة شعرت بقدم تدفع كتفها، وشعرت بجسدها يدور ماضيًا صوب الجانب المظلم داخل الخزان، بدا الأمر كأن شرارات صغيرة تتساقط حولها، فمضت سابحة في البرد، والنجوم تغمز لها: الشهب، والأنوار البعيدة تحتها، والمدن المتألقة في الفضاء المظلم. ألم حاد يحرق رثتيها ويزداد قوة مع كل ثانية تمر، وكانت تقول لنفسها: أطول قليلًا! أطول قليلًا! عليّ أن أكافح حتى آخر...

اصطدم رأسها بالجدار المقابل، فجعلتها قوة الاصطدام ترتد قليلاً، وفي لحظة الارتداد تلك علا رأسها قليلاً فاستطاعت أن تستشق نفساً صغيراً لجزء من الثانية قبل أن يعود وجهها إلى الماء.

ظلمة من جديد؛ ظلمة أشد إن كان ذلك ممكناً، تبتلع آخر ومضة من الضوء في عينيها. ظلت هاربيت في الماء وانتظرت، وملابسها تتماوج طافية حولها.

كانت في الناحية التي لا يبلغها ضوء الشمس على مقربة من جدار الخزان، وقد رجبت أن تكون الظلال وحركة الماء قد موّهت ذلك النفس الذي استشقتّه، لم يكن إلا نفساً صغيراً جداً لم يبلغ إلا أعلى رئتيها، ولم يكن كافياً لتخفيف الألم الفظيع فيهما، لكنه جعلها قادرة على الاستمرار زمناً أطول قليلاً.

زمنٌ أطول قليلاً.. تخيلت ساعة توقيت تدق في مكان ما، فكرت في الأمر كلعبة، لعبة كانت جيدة فيها، قالت لنفسها: «الطيور تستطيع الغناء، والأسماك تستطيع السباحة، وأنا أستطيع أن أفعل هذا».

وخزات إبر متألّثة مثل قطرات مطر متجمدة راحت تتساقط على رأسها وعلى ذراعيها، أسمنت حار وروائح الكلور وكرات مائية مخططة وأطفال يعومون، ساقف في الصف لأشتري قطعة سنيكرز مجمدة، أو ربما أشتري آيس كريم.. أطول قليلاً، أطول قليلاً. غطست عميقاً، غطست إلى عمق أكبر، غطست في اللا هواء ورئتها تشتعلان ألماً، كانت قمرًا صغيراً أبيض يسبح عاليًا فوق صحارى لا دروب فيها.

كان داني متمسكاً بالسلم يلهث بشدة؛ فمشقة إغراق الطفلة جعلته ينسى مؤقتاً أمر المخدرات، لكن حقيقة وضعه تجلّت له من جديد، أراد أن يمزق وجهه بأظافره، وأن يصرخ بأعلى صوته. بحق الشيطان! كيف سيستطيع الخروج من البلدة بسيارة ملطخة بالدم ودون مال؟ كان يعول على بيع هذه المخدرات حتى لو اضطر إلى بيعها في البارات أو على نواصي الشوارع. لم يبقَ معه سوى أربعين دولاراً (كان قد احتفظ بها لدفع ثمن البنزين، فلا يمكنه تسديد الحساب بالمخدرات). تذكر «أفضل أصدقاء فاريش»؛ أي تلك المحفظة الممتلئة بالأموال التي كان فاريش يحتفظ بها دائماً في جيب بنطاله الخلفي، والتي كان يتباهى بها كثيراً عند طاولة البوكر وفي صالة البلياردو، لكن ما المبلغ الموجود فيها فعلاً؟ هذا ما لا يعلمه داني، وإن ابتسم له الحظ (إن ابتسم له الحظ فعلاً) فقد يكون فيها ألف دولار.

وبالإضافة إلى ذلك لديه خواتم فاريش (الصليب الحديدي لا قيمة له لكن الخواتم ثمينة). مرر داني يده على وجهه المُتعب. أموال المحفظة قد تكفيه شهراً أو اثنين، لكن ماذا بعد؟ ربما يستطيع الحصول على هوية مُزوَّرة، أو يعمل في المزارع في قطاف البرتقال أو التبغ مثل العمال المهاجرين، لكن هذا رجاء بائس، مستقبل بائس إن قُورِنَ بما كان يرجوه من حظ عظيم.

سيبحثون عنه عندما يعثرون على الجثة، المسدس ملقى بين الأعشاب بعيداً عن السيارة، وممسوح جيداً على طريقة المافيا، التصرف الأذكى أن يرميه في النهر، لكنه أصبح الآن -بعد ضياع

المخدرات- أحد الأشياء الثمينة القليلة التي بقيت لديه . كلما فكر في خياراته، بدت له أقل عددًا وأشدُّ بؤسًا .

نظر إلى جسد الفتاة العائم على سطح الماء، لماذا أتلفت مخدراته؟ لماذا؟ كان متطيرًا بشأن هذه الطفلة؛ كان يظن أنها لعنة تلاحقه لكنها الآن بعد أن ماتت أصبح يخشى أنها ربما كانت في الواقع تميمة تجلب له حظًا طيبًا، ربما كان قتلها خطأً فادحًا، أسوأ خطأ في حياته . حاول أن يقول شيئًا لجسدها الجامد في الماء: ساعديني! لكنه لم يستطع إنهاء جملته . منذ اللحظة التي رآها فيها أول مرة خارج صالة البلياردو، شعر بارتباط غريب بها، لكنه لم يكن يستطيع أن يفهمه، لا يزال هذا اللغز يثقل كاهله، لو أمسك بها على أرض جافة لاستطاع أن يجعلها تعترف بذلك الشيء، أما الآن فقد فات الأوان .

التقط أحد الأكياس الصغيرة العائمة على سطح الماء القذر، وكان المسحوق متلبدًا متلاصقًا، لكن ربما يصير قابلاً للحقن إذا عالجه، استطاع التقاط ستة من تلك الأكياس، لم يجرب حقن المخدرات قبل الآن، لكن، لماذا لا يبدأ؟

ألقى نظرة أخيرة، ثم بدأ تسلق السلم، صرّت قضبانه الصدئة وانحنت تحت ثقله، وتمايل السلم بشدة حتى ظن أنه قد يهوي تحته، شعر بالارتياح عندما خرج أخيرًا من الخزان المظلم الرطب إلى الحرارة الساطعة في الخارج، كانت ساقاه ترتعشان عندما وقف، والألم يسري في جسده وعضلاته كأنَّ أحدًا قد أوسعه ضربًا .

كانت هناك عاصفة تتشكل فوق النهر، لا تزال السماء زرقاء مشمسة من جهة الشرق، وأما من جهة الغرب فهي رمادية سوداء بغيوم رعدية سابحة فوق النهر، وظلال السحب تتحرك فوق أسطح منازل البلدة.

تمطى داني وفرك أسفل ظهره. كانت ملابسه مبللة تقطر ماء، وقد التصقت بذراعيه خيوط طويلة من أشنيات لزجة خضراء، لكن وعلى الرغم من كل شيء شعر بتحسن مفاجئ لمجرد خروجه من ذلك المكان المظلم الرطب، كان الهواء رطباً، لكنّ ثمة نسيم خفيف، وقد صار قادراً على التنفس من جديد. خطا على حافة سطح الخزان، ثم تراخت ركبتاه لشدة ارتياحه عندما رأى السيارة من بعيد لم يقربها أحد، ولا شيء خلفها سوى أثر مرور عجلاتها بين الأعشاب الطويلة.

دون تفكير سار سعيداً صوب السلم، لكنه فقد توازنه قليلاً، وقبل أن يدرك ما يحدث سمع صوت طقطقة؛ واخترقت قدمه لوحاً خشبياً مهترئاً، وفجأة مال العالم جانباً: ألواح رمادية مائلة، سماء زرقاء؛ ترنح لحظة وذراعه تلوحان في الهواء قبل أن يفلح في استعادة توازنه، لكن طقطقة جديدة سُمعت كأنها ردّ على الطقطقة الأولى، فسقط داني مخترباً الألواح حتى خصره.

استولت على هاربيت نوبة ارتعاش شديدة وهي لا تزال عائمة ووجهها إلى الأسفل. كانت تحاول خلسة أن تدير رأسها قليلاً لتستطيع استنشاق نفس آخر من أنفها، لكنها لم تستطع ذلك، لم تعد رثتها قادرتين على احتمال المزيد؛ كانتا تتقلصان تقلصاً

مزعجًا مطالبتيّ بالهواء، إن لم يكن هواء فليكن ماء! وفي اللحظة التي انفتح فيها فمها رغمًا عنها، علا رأسها فوق سطح الماء واستنشقت نفسًا عميقًا عميقًا.

كان شعور الراحة كبيرًا لدرجة أنها كادت تُفرقها من جديد، اتكأت بيدها المرتعشة إلى الجدار اللزج وشهقت، ثم شهقت، ثم شهقت؛ هناك هواء لذيذ، هواء حقيقي نقي، هواء يتدفق في جسدها كأنه نغماتٌ موسيقية، لم تدرِ أين هو داني راتليف، ولم تدرِ إن كان يراقبها، ولم تُلَقِ إلى ذلك بالأ؛ فلم يعد أي شيء مهمًا مقابل أن تتنفس، وإن كان هذا آخر نفس في حياتها كلها، فليكن! ومن الأعلى صدر صوت فرقة شديدة، فظنت هاربيت أول الأمر أنه صوت مسدس ولكنها لم تتحرك، فكرت في نفسها وهي تعبّ الهواء: فليطلق عليّ النار! كانت عيناها تكادان تدمعان لشدة ارتياحها؛ فكل شيء أفضل من الفرق.

ثم ارتسمت على سطح الماء الداكن بقعة ساطعة مخملية من ضياء الشمس، رفعت هاربيت رأسها فرأت ساقين متدليتين من فجوة في السقف.

ثم انكسر اللوح الخشبي.

استولى خوفٌ مريع على داني حين تلاطم الماء حوله، تذكر في ومضةٍ مشوشةٍ تحذير والده القديم: عليه أن يحبس نفسه ويفلق فمه. ثم ملأ الماء أذنيه فصرخ صرخةً مكتومةً وحدّق مذعورًا إلى تلك الظلمة الخضراء.

خاص نازلاً، ثم اصطدمت قدماه بالقعر (أعجوبة!). قفز داني وراح يركل بساقيه ويلوح بيديه ويتسلق عبر الماء، ثم صعد إلى السطح كأنه طوربيد. ولما بلغت قفزته أقصاها، أفلح في أن يعبّ جرعة من الهواء قبل أن يعود إلى الماء من جديد.

عتمة وصمت! بدا له أن عمق الماء لا يتجاوز قدمًا واحدة فوق رأسه، وكان سطح الماء فوقه مضيئًا بلون أخضر فقفر مرة أخرى (طبقات من لون أخضر تزداد وتزداد شحوبًا مع صعوده) وعاد إلى الضوء من جديد، وبدا له أن الأمر يصير أشد سهولة إن ظلت ذراعاه إلى جانبيه دون أن يضرب الماء بهما مثلما يفعل السباحون.

وبين قفزة وقفزة، وبين نفس ونفس، راح يحاول توجيه نفسه، كان نور الشمس يتدفق عبر الجزء المنهار في السقف، فبدت الجدران الخضراء اللزجة لامعة ومخيفة، أبصر السلم إلى يساره بعد قفزتين أو بعد ثلاث قفزات.

هل يستطيع بلوغه؟ تساءل وهو يفوص؛ إن قفز باتجاهه تدريجيًا، لم لا؟ عليه أن يحاول؛ فهذا أقصى ما يمكنه فعله. صعد إلى السطح، وعندئذ رأى الطفلة من جديد، كانت صدمة مؤلمة لدرجة أنه شفق في اللحظة الخاطئة، كانت تتشبث بكلتا يديها بالدرجة السفلى من السلم.

أهذا وهم؟ تساءل وهو يفوص في الماء، وسعل فتدفقت فقاعات الهواء أمام عينيه؛ فقد بدا وجهها غريبًا؛ ففي لحظة عجيبة لم يكن ناظرًا إلى وجه الطفلة بل إلى وجه السيدة العجوز: إيدي كليف.

صعد إلى سطح الماء من جديد، فشقق مختقًا. لا، لا شك في الأمر، إنها الطفلة! لا تزال حية ونصف غارقة، تبدو خائفة القوى، عيناها داكنتان في وجهها الأبيض السقيم، ظلت صورتها متوهجة خلف جفنيه عندما غاص تحت الماء.

قفز عاليًا قفزة كأنها انفجار، كانت الفتاة تصارع وتحاول بجهد كبير رفع ركبته لتتسلق السلم، اندفع نحوها مثيرًا موجة كبيرة من الرذاذ الأبيض، وحاول أن يمسكها من كاحلها لكنه أخطأها، وغاص في الماء مجددًا.

قفز مرة أخرى فأمسك بالدرجة السفلى التي كانت صدئة وزلقة فانزلقت من بين أصابعه، عاود القفز رافعًا يديه الاثنتين، وأفلح هذه المرة في الإمساك بالسلم. كانت على السلم فوقه تتساقط كأنها قردة، والماء يقطر منها على وجهه الناظر إلى الأعلى، رفع داني جسده بموجة من طاقة أسعفه بها غضبه الشديد، فزعق المعدن الصدئ تحت ثقله مثلما يزعق كائن حي، ومن فوقه رأى درجة تتشظى تحت قدم الطفلة، رآها تترنح وتتشبث بالقضيب الجانبي، وقدمها تضرب الهواء، فوجئ وقال في نفسه: لن تحتل الدرجة ثقلها! إن كانت لا تحتل ثقلها، فلن تحتل.. رأى كيف تداركت نفسها وكيف صارت إحدى ساقيها على سطح الخزان.

انكسر القضيب بين يدي داني، وبحركة انسيابية سريعة واحدة (مثل انسلاخ عيدان هشة عن غصن) سقط أسفل السلم، سقط مارًا بدرجات السلم التي نخرها الصدأ، وصار في الماء.

دفعت هارييت جسدها إلى الأعلى بيديها المحمرتين من
الصدأ، وانهارت على الألواح الخشبية الساخنة وهي تلهث لهاثاً
شديداً. كان الرعد يهدر في الأفق الأزرق البعيد، والشمس مخفية
خلف غيمة، فيما راحت الرياح تعبث بقمم الأشجار وتهزها.
كان السقف بينها وبين السلم متضعضاً، وألواح المتخلعة
تميل صوب فجوة كبيرة في الوسط. كان تنفسها عالياً ومزعوراً،
وكان الصوت وحده يجعلها تشعر بالغثيان، ولما نهضت على يديها
وركبتها داهمها ألم حاد في جنبها كأنه طعنة.

سمعت داخل الخزان أصوات تخبط شديد في الماء، فانبطحت
على بطنها وهي تتنفس بصعوبة، وراحت تزحف حول الجزء
المتداعي من السقف، انقبض قلبها عندما زعق أحد الألواح
تحت ثقلها ومال بشكل خطر صوب الماء الذي في الأسفل.
زحفت إلى الخلف في اللحظة المناسبة قبل أن ينكسر جزء
من ذلك اللوح ويهوي في الماء، ثم انبعث من تلك الفجوة رذاذ
كبير من الماء في الهواء وتناثر على وجهها وذراعيها.

انطلقت صيحة مخنوقة من الأسفل (تشبه غمغمة شخص
يغرق)، فتبست هارييت من الذعر قبل أن تدفع نفسها قليلاً إلى
الأمام على يديها وركبتها وتتنظر عبر الفجوة، ومع أن النظر عبر
تلك الفجوة جعل رأسها يدور، لكنها لم تستطع منع نفسها، كان
ضوء النهار يتدفق عبر السقف المنهار وينعكس على مياه الخزان
فتتوهج بلون أخضر زمردني يشبه خضرة المستنقعات والغابات
الاستوائية، تلك الخضرة التي تلون مدن ماوكلي المهجورة، وكانت

طبقة الطحالب الخضراء قد صارت متكسرة كأنها قطع من جليد طاف تحيط بها عروق سوداء منتشرة على سطح الماء .

ثم رأت في الماء تخبُّطًا؛ اندفع داني راتليف إلى سطح الماء أبيض الوجه لاهئًا وشعره الداكن يلتصق بجبينه، ويداه تتخبطان في الماء وتحاولان التشبث بالسلم، لكنَّ السلم لم يعد موجودًا، رمشت عينا هاربيت وهي تنظر إلى ذلك المشهد عبر الماء الأخضر، انكسر السلم على بعد خمسة أقدام من سطح الماء، في موضع تعجز عن بلوغه يدا داني الملوحتين في الهواء .

استمرت في النظر مذعورة، في حين غاصت يداها في الماء حتى اختفى آخر جزء منهما تحت السطح، وأصابه المتشنجة تحاول أن تتشبث بالهواء، ثم ظهر رأسه من جديد، لكنه لم يرتفع كثيرًا فوق الماء، كانت أجفانه ترتجف وتتفسه خرخرة بشعة .

استطاع رؤيتها في الأعلى فوقه فحاول أن يقول شيئًا، راح يتخبط في الماء ويكافح مثل طائر مكسور الجناح، شعرت بشعور غريب لا تستطيع تسميته وهي تشاهده يصارع الفرق، فجأة خرجت من فمه كلمات غير مفهومة تلاشت مع لحظة انزلاقه إلى الماء، ثم اختفى تمامًا تاركًا خلفه فقط خصلات شعر كأعشاب مائية وفقاعات بيضاء تشبه الزبد على سطح الماء القذر .

ساد الهدوء، ولم تعد ترى شيئًا سوى فقاعات تغلي على سطح الماء، ثم ظهر رأسه ثانية فوق السطح؛ بدا وجهه ذائبًا، وفمه مثل حفرة سوداء، كان يحاول التشبث ببضعة ألواح عائمة، لكنها سرعان ما غاصت تحت وطأة ثقله، التقت عيناه عيني هاربيت لحظة اختفائه في الماء من جديد . كانت عيناه متهمتين عاجزتين

مثل عيني رأسٍ قطعته المقصلة ثم رُفع أمام حشد من الرعاع.
تحرك فمه وحاول أن يقول شيئاً، لكنه لفظ كلمة مشوشة (غرغرة
وهمسات غير مفهومة) ابتلعها الماء كما ابتلعه.

هبّت ريح قوية فسرت قشعريرة في ذراعي هاريت وارتعشت
أوراق الأشجار كلها. وفجأة، في لحظة واحدة أعتمت السماء
وصارت رمادية داكنة، ثم انهمرت قطرات المطر تقرع سطح
الخزان في موجة طويلة كاسحة كأنها شلال من حصى صغيرة.
كان ذلك المطر دافئاً غزيراً يشبه الأمطار الاستوائية التي
تصيب ساحل الخليج في موسم الأعاصير، علا صوت قعقة
حبّات المطر على السقف المتكسر، لكنها ظلت قادرة على سماع
الغرغرة والتخبط في الأسفل، كانت قطرات المطر تتقاذف مثل
أسماك فضية صغيرة على سطح الماء.

استولت على هاريت نوبة سعال شديد؛ كان الماء قد دخل
أنفها وفمها، شعرت بالطعم العفن في حلقها، فراحت تبصق
على ألواح السقف وقطرات المطر تصفع وجهها، ثم انقلبت على
ظهرها وراحت تدير رأسها يميناً ويساراً والجنون يكاد يصيبها
لسماع الأصوات الفظيعة المنبعثة من الخزان. تبادر إلى ذهنها
أن هذه الأصوات لا تختلف عن الأصوات التي صدرت عن رويين
عندما اختنق حتى مات، تخيلت فيما مضى أن الموت يحدث
بسرعة ودون ألم دون حشرجات أو اختناق مروع، فقط نقرة
أصابع ونفخة من الدخان وينتهي الأمر. شعرت أن تلك الفكرة
جميلة على نحو غريب: ما أجمل الاختفاء عن وجه الأرض! وما
أعذب حلم الاختفاء الآن! أن تخرج روحها من جسدها وتختفي

كأنها لم تكن، ثم تسقط تلك السلاسل فارغة على الأرض.
كان البخار يتصاعد من الأرض الخضراء الدافئة، وفي الأسفل
بين الأعشاب كانت السيارة متوقفة في هدوء غريب، وكانت
قطرات المطر تلمع على غطاء المحرك مثل ضباب خفيف كأن
فيها عاشقين يتبادلان القبل. في السنوات التي أعقبت ذلك
ستظل هذه السيارة تظهر على هذا النحو (مبهمة لا تكشف عن
شيء) في زوايا أحلامها البعيدة والصامتة.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر عندما دخلت
هاربيت البيت عبر الباب الخلفي بعد توقفها قليلاً لتصفى جيداً
(لا أحد هناك)، لم تصادف في طريقها غير السيد غودفري
(الذي لم يبدُ عليه أنه عرفها) والسيدة فاونتتين التي رmqتها
بنظرة غريبة من شرفة بيتها؛ عندما رأتها متسخة كلها، وعليها
بقايا داكنة من الأشنيات التي التصقت بجلدها بعد أن جفت
بسبب الحر، نظرت يميناً ويساراً بحذر، ثم مضت مسرعة في
الممر صوب الحمام في الطابق السفلي، دخلت الحمام وأقفلت
الباب عليها، كان طعم العفن الفظيع يحرق فمها؛ خلعت ملابسها
كلها (كانت الرائحة فظيعة: كادت تتقيأ عندما اقترب قميص
الكشافة من أنفها وهي تخلعه) ورمت بها في حوض الاستحمام
وفتحت فوقها ماء الصنبورين.

كثيراً ما كانت إيدي تروي قصتها عندما كادت تموت فيها
بعد تناولها المحار في حفل زفاف في نيو أورليانز: «لم أمرض
يوماً مثلما مرضتُ آنذاك»، وقالت إنها أدركت أن المحارة فاسدة

لحظة وضعتها في فمها، فبصقتها في منديلها، لكنها انهارت بعد بضع ساعات، أخذوها بعد ذلك إلى المستشفى المعمداني. وعلى النحو نفسه علمت هارييت أنها ستمرض فور تذوقها ماء الخزان؛ كان العفن قد تغلغل في لحمها، ولن يفلح شيء في غسله عنها. غسلت يديها بالماء وغسلت فمها وتغرغرت بالليسترين، ثم بصقتها، ثم ضمت يديها معاً تحت صنبر الماء البارد وشربت وشربت وشربت، لكن الرائحة ظلت تتخلل كل شيء حتى الماء النظيف نفسه، كانت تتبعث من الملابس القذرة في حوض الاستحمام ومن مسامات جلدها حية دافئة. أفرغت في حوض الاستحمام نصف علبة من مسحوق الغسيل، ثم تركت الماء الحار يتدفق في الحوض إلى أن امتلأ الحوض كله رغوة، لكن الطعم البشع ظل باقياً في فمها حتى بعد غسل الفم المخدر كأنه لطخة على لسانها، كان ذلك الطعم يذكرها بوضوح بذلك المخلوق المنتفخ نصف العائم الذي كان يتخبط عند الجدار المظلم داخل الخزان.

نقرات على الباب، وصوت أمها يناديها: «هارييت، هل أنت هنا؟»

لا تستحم هارييت أبداً في الحمام الذي في الطابق السفلي، أجابتها وهي ترفع صوتها فوق صوت الماء المنهمر: «أنا هنا يا أمي»

«هل تعبثين هنا وتجعلين المكان وسخاً؟»

أجابت هارييت: «لا يا أمي»، ونظرت إلى الملابس المتسخة حولها.

«تعلمين أنني لا أحب أن تستحمي هنا».

لم تستطع هاربيت أن تجيبها بشيء، فقد أصابتها موجة تقلصات معدية شديدة، كانت جالسة على حافة حوض الاستحمام تنظر إلى الباب المقفل، وضعت يديها على فمها وراحت تؤرجح جسدها إلى الأمام والخلف.

نادتها أمها: «من الأفضل لك ألا أرى هذا الحمام مُتسخًا».

كان الماء الذي شربته هاربيت من الصنبور على وشك الاندفاع من فمها، استمرت في النظر إلى الباب وهي تتهض من حافة الحوض سائرة على أطراف أصابعها، ويدها على بطنها من شدة الألم. كانت تسير بخطوات بطيئة نحو المرحاض، وعندما رفعت يدها عن فمها اندفع تيار عنيف من ماء أسنٍ رائحته مثل رائحة تلك المياه الراكدة التي غرق فيها داني راتليف.

شربت مزيدًا من ماء الصنبور البارد، وغسلت ملابسها، وغسلت جسدها، ثم أفرغت حوض الاستحمام، ثم دعكته بمستحضر التنظيف، وأزالت بقايا التراب والأشنيات، ثم دخلت الحوض من جديد لتغسل نفسها مرة أخرى، لكن رائحة التفسخ الداكن كانت قد تسربت إلى أعماقها فظلت تشعر أنها غارقة في القذارة حتى بعد الصابون والماء، وأنها لا تزال سابحة في ذلك الماء البشع، وأن عليها أن تُبقي رأسها خارجه كأنها ذلك البطريق الغارق في النفط الذي شاهده في مجلة ناشيونال جيوغرافيك في بيت إيدي واقفًا بيؤس في دلو الغسيل باسطًا جناحيه الصغيرين جانبًا حتى لا يلمسا جسده الملوث.

أفرغت هاربيت حوض الاستحمام ثم نظفته جيداً، وعصرت ملابسها وعلقتها كي تجف، ورشت مادة «الليثول» المعقمة، ثم رشت نفسها بالكولونيا من زجاجة خضراء عاتمة على لصاقتها صورة إحدى راقصات الفلامنغو، صارت الآن نظيفة متوردة، جعلتها الحرارة العالية تشعر ببعض الارتياح، لكنها ظلت مشبعة بذلك الإحساس بالعفن رغم العطر ورطوبة الحمام العابق بالبخار، وظلت تشعر بذلك الطعم الشديد الثقيل على لسانها.

فكرت أن عليها أن تستخدم مزيداً من غسول الفم، وقبل أن تنفذ فكرتها اندفعت من فمها رشقة جديدة من قيء مائي تدفق عنيفاً من جوفها، وبعد أن انتهى، رقدت هاربيت على الأرض الباردة وألصقت خدها بالبلاط ذي اللون الأخضر البحري، وفور تمكنها من الوقوف مرة أخرى، سارت إلى المغسلة متثاقلة الخطى ونظفتها بالممسحة، ثم لفّت نفسها بمنشفة وصعدت إلى غرفتها بخطى هادئة.

كانت مريضة، تعاني الغثيان والدوار، ودون أن تدرك ما تفعله أزاحت الأغطية واستلقت في الفراش الذي لم تتّم فيه منذ أسابيع، ولم تبال بذلك لأنها أحست أن استلقاءها في الفراش رائع وسماوي على الرغم من الألم الذي يقرص معدتها، ثم غرقت في نوم عميق.

أيقظتها أمها وقت الغسق؛ كانت معدتها تؤلمها، وهناك حكة في عينيها كأنهما مصابتان بالالتهاب.

قالت وهي تنهض على مرفقيها متثاقلة: «ماذا؟»

سألتك: «هل أنت مريضة؟»

«لا أدري».

انحنى أمها فوقها ووضعت يدها على جبينها، ثم تفضلت حاجباها، وارتدت مبتعدة عنها.

«ما هذه الرائحة؟»

لم تجبها هاربيت، فانحنى فوقها من جديد وشمّت رقبتها.

سألتها: «هل استخدمت تلك الكولونيا الخضراء؟»

«لا يا أمي!» الآن صار الكذب عادة، لكن من الأفضل دائماً في

حالة الشك أن تقول «لا».

قالت: «هذه ليست كولونيا جيدة». كان والد هاربيت قد

أهداها لأمها في عيد الميلاد، تلك الزجاجة الخضراء التي عليها

صورة راقصة الفلامنغو، قد ظلت على الرف سنوات طويلة دون

استخدام، فصارت معلماً ثابتاً من معالم طفولة هاربيت.

تابعت: «إن أردت أن تضعي عطرًا، فساأشترى لك عطر شانيل

5 أو نوريل كالعطر الذي تضعه جدتك، لكنني أفضل نوريل كثيرًا؛

فرائحته قوية قليلاً...».

أغمضت هاربيت عينيها، فقد جعلها الجلوس تشعر بالغثيان

في معدتها من جديد، ولم تكذب رأسها على الوسادة حتى

عادت أمها من جديد، وكان معها هذه المرة كأس ماء وأقراص

أسبرين.

قالت لها: «لعله من الأفضل أن تشربي قليلاً من حساء اللحم

والخضار، سأتصل بأمي لأرى إن كان عندها شيء منه».

ذهبت لتتصل بأمها وفي أثناء غيابها، نهضت هاربيت من

سريرها متدثرة بوشاح من الكروشيه الخشن وذهبت إلى الحمام

في الممر، كانت الأرض باردة وكذلك مقعد المرحاض، تقيأت قليلاً ثم حل محل التقيؤ إسهال شديد، وعندما غسلت يديها في المغسلة بعدها، صُدمت لرؤية شدة احمرار عينيها في مرآة خزانة الأدوية.

عادت مرتجفة واندست في فراشها، كانت الأغطية ثقيلة عليها، ومع ذلك لم تشعر بالدفع.

ثم رأت أمها تهز مقياس الحرارة، قالت: «هيا، افتحي فمك!»، وأدخلت المقياس في فمها.

استلقت هاربيت ونظرت إلى السقف ومعدتها تغلي، وطعم الماء المستنقي لا يزال في فمها، أتاها في نومها حلم فيه ممرضة من الخدمات الصحية تشبه السيدة دورير تشرح لها أن عنكبوتاً ساماً قد لدغتها، وأنها في حاجة إلى نقل دم لإنقاذ حياتها. أجابتها هاربيت: «بل أنا التي قتلتها».

كانت السيدة دورير وبعض الأشخاص الآخرين يجهزون المعدات لنقل الدم. قال أحدهم: «إنها جاهزة الآن». قالت هاربيت: «لا أريد هذا، اتركوني وحدي».

قالت السيدة دورير: «كما تريد!»، ثم انصرفت.

شعرت هاربيت بالضيق؛ فقد ظلت بعض السيدات واقفات حولها يبتسمن لها ويتهاوسن، لكنّ أيّاً منهن لم تعرض على هاربيت مساعدتها ولم تسألها عن قرارها بأن تموت، على الرغم من أن هاربيت كانت تتمنى في أعماقها أن يفعلن ذلك.

سمعت صوت أمها: «هاربيت»، أجفلت واستوت جالسة، كانت غرفتها مظلمة، ومقياس الحرارة ليس في فمها.

دفعت فتجاناً من المرق صوبها وقالت: «خذي!» كانت الرائحة اللحمية المتصاعدة من الفنجان كريهة.

مسحت هاربيت وجهها بيدها وقالت: «لا أريده».

«عليك أن تشربيه يا عزيزتي»، دفعت أمها الفنجان نحوها بقلق صوبها، كان الفنجان مصنوعاً من زجاج بلون العقيق، وكانت هاربيت تحبه. في أحد الأيام أخرجت ليبي هذا الفنجان من خزانة الخزفيات ولقته بورق الصحف وقدمته إلى هاربيت لتأخذه معها إلى البيت لأنها تعلم أنه يعجبها، والآن في عتمة الغرفة كان الطبق يتألق بلون أسود مع لمحة مشؤومة بلون عقيقي أحمر داخله.

قالت هاربيت: «لا!»، ثم أشاحت بوجهها عن الفنجان وهي تواصل مسح وجهها: «لا، لا!»

قالت أمها بنبرة صارمة لا تحتمل النقاش: «يا هاربيت!»

دفعت الفنجان من جديد تحت أنفها، استسلمت هاربيت لرغبة أمها، فاعتدلت في جلستها وحملت الفنجان، شربته كله، شربت السائل اللحمي المقرز كله محاولة كبح رغبتها في التقيؤ، ثم مسحت فمها بمنديل ورقي أعطتها إياه أمها. وفجأة دون إنذار اندفع كل ما في جوفها صاعداً، فتقيأت على غطاء السرير قطع البقدونس الصغيرة وكل ما في جوفها.

أطلقت والدة هاربيت صيحة صغيرة، بدت أصغر سناً وهي منزعجة، وكان ذلك غريباً! كأنها جليسة أطفال غاضبة في ليلة مزعجة.

قالت هارييت بصوت بائس: «آسفة!»، ومن جديد، أحست بطعم الماء المستتقي مختلطاً مع طعم حساء الدجاج في حلقها. قالت تشارلوت: «أوه يا عزيزتي! يا لها من فوضى! لا، لا تتد...» كان صوتها مذعوراً لأن هارييت (التي غلبها إرهاقها) همّت بأن تستلقي فوق قيئها.

ثم حدث شيء غريب ومُفاجئ جداً؛ إذ انبعث ضوء شديد في وجه هارييت من الأعلى؛ كان ذلك مصباحاً ضمن سقف مستعار في صالة. دُهِشت هارييت عندما أدركت أنها ليست في سريرها ولا في غرفتها، بل على الأرض في ممر الطابق العلوي بين أكوام الصحف المكومة، والأغرب من هذا كله أنها رأت إيدي جاثية إلى جوارها بوجه شاحب عابس دون أحمر شفاه.

رفعت هارييت ذراعها وأدارت رأسها من جانب إلى آخر، تحاول أن تفهم ما يجري، ولكن ما إن فعلت ذلك حتى انحنت أمها فوقها باكية بصوت عالٍ، فمدت إيدي يدها لتبعتها وقالت: «دعيها تتنفس».

ظلت هارييت مستلقية على الأرضية الخشبية القاسية مذهولة تتعجب من وجودها في مكان مختلف، كانت أول فكرة تخطر ببالها أن رأسها ورقبتها يؤلمانها: يؤلمانها بشدة، ثم تذكرت أن إيدي لا تصعد إلى الطابق العلوي أبداً، لا تتذكر هارييت آخر مرة تجاوزت فيها إيدي الصالة التي في الطابق السفلي (تظل تلك الصالة نظيفة نسبياً تحسباً لمجيء ضيوف).

كيف صرت هنا؟ وجهت هذا السؤال إلى إيدي، لكن الكلمات لم تخرج كما كانت تنوي (كانت أفكارها مضطربة ومتداخلة)، فابتلعت ريقها وحاولت من جديد.

أسكتتها إيدي، وساعدتها في الجلوس، نظرت هاربيت إلى ساقها وذراعيها فاستغربت عندما وجدت نفسها مرتدية ملابس مختلفة.

حاولت سؤالها: لماذا صارت ملابسي مختلفة؟ لكنها لم تعرف كيف تطرح هذا السؤال، فتجلجت ولم تستطع إكمال جملتها. أسكتتها إيدي من جديد واضعة إصبعها على شفتي هاربيت، ثم سألت أمها التي كانت واقفة تبكي وخلفها اليسون تعض أصابعها في خوف: «منذ متى وهي على هذه الحال؟» قالت والدة هاربيت: «لا أدري»، وضغطت على صدغها. «هذا مهم يا تشارلوت؛ لقد أصابتها نوبة شديدة».

كانت غرفة الانتظار في المستشفى مضطربة ومتلألئة كأنها جزء من حلم غامض، وكان كل شيء ساطعاً ونظيفاً، ولكن إن دقت النظر ترى المقاعد قديمة ومهترئة. كانت اليسون جالسة تقرأ مجلة أطفال قديمة، فيما تقف سيدتان ترتديان ملابس رسمية وعلى صدر كل منهما بطاقة تعريف تحاولان أن تكلما رجلاً عجوزاً يجلس في الناحية الأخرى من الممر. كان العجوز مائلاً إلى الأمام في كرسيه ميلاً شديداً كأنه ثمل، نظراته تتجه إلى الأرض، ويداه تستندان إلى ركبتيه، وقبعته الكبيرة مائلة على رأسه، كان يهز رأسه ويقول: «نعم، لا يمكن لأحد أن يفهمها، فهي لا تستطيع التحكم في نفسها أبداً».

تبادلت السيدتان النظرات، ثم جلست إحداها بجانبه.

وفجأة تحول المشهد إلى ظلام دامس، كانت هارييت تسير وحدها في بلدة غريبة فيها مبانٍ مرتفعة، وكان عليها أن تعيد بعض الكتب إلى المكتبة قبل أن يحين وقت إغلاقها، لكن الشوارع صارت تضيق وتضيق حتى أصبحت بالكاد تتسع لقدم واحدة. وفجأة وجدت نفسها واقفة أمام كومة كبيرة من حجارة، قالت في نفسها: ينبغي أن أعثر على هاتف!

سمعت صوتاً يناديها: «هارييت»؛ إنه صوت أيدي.

ظهرت ممرضة آتية من باب متأرجح في آخر الصالة تدفع أمامها كرسيًا متحركًا.

كانت ممرضة شابة جميلة ممثلة الجسم، وعلى أهدابها كحل مرسوم على شكل أجنحة غريبة، وتضع حمرة خدود زاهية تمتد حتى حاجبيها؛ هذا ما جعلها تبدو -في نظر هارييت- مثل صور المغنيات في أوبرا بيكنغ.

عادت ذكريات هارييت إلى الأمسيات المطيرة في بيت تات، حيث كانت تستلقي على الأرض ومعها كتاب «مسرح كابوكي الياباني» ورحلة «ماركو بولو المصورة عام 1880». كان قوبلاي خان محمولاً على محفّة ملونة محاطاً بأقنعة غريبة وتنانين أسطورية، اجتمعت اليابان والصين معاً في تلك الصفحات المذهبة في خزانة كتب صغيرة عند أول السلم.

مضوا في الممر المضيء عائمين، تلاشى خزان المياه والجثة التي في الماء في حلم بعيد لم يبق منه شيء سوى ألم حاد في معدتها وصداع فظيع في رأسها؛ كان ألماً شديداً؛ إبراً من الألم تطعنها ثم تتراجع، الماء هو ما جعلها مريضة، وكانت تعرف أن

عليها أن تخبرهم بهذا؛ ينبغي أن يعلموا حتى يستطيعوا معالجتها، لكنها كانت تقول لنفسها: لا يجوز أن أقول لهم، لا أستطيع! ملأها هذا اليقين بشعور غريب من الهدوء الحالم، كانت الممرضة تسير بها في الممر المضيء الذي بدا كأنه مركبة فضائية، مدت يدها بلطف لتربت على خد هارييت، تقبلت هارييت ذلك دون تذمر، فهي مريضة ومطبعة أكثر من أي وقت مضى. كانت يد الممرضة ناعمة لطيفة البرودة، تزينها خواتم ذهبية لامعة.

سألته الممرضة وهي تدفع الكرسي أمامها: «هل أنت بخير؟»، ثم أوقفت الكرسي في زاوية صغيرة شبه معزولة، وجذبت الستارة بسرعة، كانت إيدي تسير خلفهما بخطوات سريعة، ووقع أقدامها يتردد بقوة على البلاط.

قبلت هارييت أن ترتدي ثوب المستشفى، ثم استلقت فوق سرير الفحص وتركت الممرضة تقيس حرارتها.

يا إلهي! نعم، الفتاة مريضة!

تركتها أيضاً تأخذ عيّنة من دمها، ثم استوت جالسة وشربت دون اعتراض فنجاناً صغيراً من دواء سائل طعمه كطعم الطباشير، قالت الممرضة إنه سيريح معدتها. كانت إيدي جالسة على مقعد صغير إلى جانب خزانة أدوية زجاجية وميزان أرضي ذي قضيب منزلق، ثم صارتا وحيدتين بعد أن جذبت الممرضة الستارة وانصرفت.

طرحت عليها إيدي سؤالاً لم تُجب عنه هارييت إلا نصف إجابة؛ فقد كانت شاردة الذهن وطعم ذلك الدواء الطباشيري لا

يزال في فمها، كانت تشعر كأنها تسبح في نهر بارد، مياهه تلمع بضوء فضي غريب يشبه لمعان البترول أو ضوء القمر المنعكس، جذبها تيار تحت الماء من ساقها ومضى بها بعيداً، فيما كان رجل عجوز مخيف يرتدي قبعة من فراء يجري على الضفة ويصيح بكلمات لا تستطيع سماعها.

«لا بأس، اجلسي من فضلك».

وجدت هاربيت نفسها تنظر إلى وجه رجل غريب يرتدي ثوباً أبيض، لم يكن أمريكياً بل رجلاً هندياً بشعر أسود مزرق وعينين حزينتين. سألتها إن كانت تعرف اسمها وأين هي الآن، ثم وجه شعاع ضوء صغيراً نحو عينيها، وفحص أنفها وأذنيها بعناية. تحسس بطنها وما تحت إبطيها بيدين باردتين جداً جعلتاها تتكمش على نفسها من شدة البرودة.

«أهي النوبة الأولى؟»، الكلمة نفسها من جديد: نوبة.

«أجل».

وجه الطبيب سؤاله إلى هاربيت: «هل تذوقتِ أو شممتِ أي شيء غير معتاد؟»

هزت هاربيت رأسها نفياً، لكن عينيها السوداوين الثابتتين أثارتا في نفسها شيئاً من الاضطراب. رفع الطبيب ذقنها بإصبعه برفق، فرأت هاربيت منخرية المحمرّين.

سألتها بصوت حلو كالزبدة: «هل يؤلمك حلقك؟»

سمعت إيدي تقول من بعيد: «يا إلهي! ما هذا الذي على

رقبتها؟»

قال الطبيب: «هذا تغيّر في اللون»، لمس تلك البقعة بإصبعه، ثم ضغط عليها بإبهامه: «هل تؤلمك؟»

صدر عن هاربيت صوت غير مفهوم، لا يؤلمها حلقها بقدر ما تؤلمها رقبتها، ثم إن أنفها (الذي أصابه ارتداد المسدس) يؤلمها كثيرًا عند لمسه، ولم يبد لها أن أحدًا قد لاحظ أنفها مع أنه يبدو لها متورمًا كثيرًا.

استمع الطبيب إلى دقات قلبها، ثم طلب منها أن تمد لسانها، ثم دقق النظر داخل حلقها مُستخدمًا مصباحًا صغيرًا، شعرت بالضيق، وآلمها فكها، فحوّلت عينيها إلى علبة المناديل المعقمة وإلى المواد المطهرة الموضوعة على طاولة صغيرة.

قال الطبيب: «لا بأس»، ثم تهد وأخرج من فمها العود المسطح الذي كان يضغط به على لسانها.

استلقت هاربيت، وشعرت بانقباضات شديدة في معدتها، بضياء برتقالي نابض خلف أجفانها المغلقة.

كان الطبيب وايدي يتحدثان، فسمعتة يقول لها: «يأتي اختصاصي الأمراض العصبية كل أسبوعين، ربما يمكنه القدوم من جاكسون غدًا أو بعد غد».

تابع الكلام بصوته الرتيب، فحدثت وخزة جديدة فظيعة في معدة هاربيت؛ جعلتها تتكور على جنبها وتمسك بطنها بيديها، ثم توقفت الوخزة، فقالت هاربيت في نفسها: لا بأس! انتهى الأمر الآن، لقد انتهى. شعرت بالضعف، لكن ارتياحًا غمرها لأن الألم قد زال.

قالت إيدي بصوت عالٍ: «هارييت!»، كان صوتها عاليًا جدًا فأدركت هارييت أنها غفت أو كادت تغفو: «انظري إليّ».

فتحت عينيها طائفة فواجهها ضوء ساطع مؤلم.

«انظر إلى عينيها، هل ترى كم هما مُحمرَّتان؟ أظنها عدوى».

«هذه أعراض غريبة، علينا أن ننتظر نتائج الاختبارات».

شعرت هارييت بانقباض عنيف في معدتها مرة أخرى، فانقلبت على بطنها مبتعدة عن الضوء، كانت تعلمُ سببَ احمرار عينيها؛ لقد أحرقهما ذلك الماء.

«وماذا عن الإسهال؟ وماذا عن الحمى؟ و... يا ربي! هذه العلامات السوداء على رقبتها! يبدو كأن أحداً قد ضغط على رقبتها وحاول خنقها. إن كنت تسألني...».

«قد يكون هذا نوعاً من أنواع العدوى، لكن النوبات غير مترافقة مع حمى، والحمى...».

قالت إيدي بنبرة مقتضبة: «أعلم معنى هذا؛ لقد كنت ممرضة يا سيدي».

أجابها الطبيب بنبرة مقتضبة مثل نبرتها: «إذن ينبغي أن تعلمي أننا نهتم أولاً بأي اضطراب في عمل الجهاز العصبي».

«والأعراض الأخرى؟»

«الأعراض الأخرى ما زلنا ننظر فيها، مثلما قلت لك، سنعطئها في البداية مضاداً حيويًا، وسنهتم بتعويض السوائل، ينبغي أن نستطيع استعادة استقرار الشوارد وصيغة الدم بحلول يوم غد».

كانت هارييت تتابع الحديث بتركيز شديد منتظرة دورها في الكلام، لكنها لم تعد تطيق الانتظار، فقالت بصوت مُلَحّ: «يجب أن أذهب».

التفت كل من الطبيب وإيدي نحوها، ونظرا إليها باهتمام، رفع الطبيب رأسه بوقار كأنه ملك، وأشار بيده بإيماءة قائلًا: «لا بأس! يمكنك أن تذهبي!»، وفي اللحظة التي همت فيها بالتحرك سمعته ينادي ممرضة.

لكن الممرضة لم تكن خلف الستارة، ولم يأت أحد، انطلقت هاربيت في الممر يائسة، فرأت ممرضة أخرى تتهض من خلف طاولة مكتب، كانت عيناها صغيرتين لامعتين مثل عيني فيل، قالت لها: «هل تبحثين عن شيء؟»، حاولت أن تمسك يد هاربيت لكن حركتها كانت ثقيلة بطيئة.

أخاف ببطء حركتها هاربيت، فهزت رأسها وتابعت طريقها مسرعة في الممر الخالي من النوافذ، كان انتباهها كله مُنصبًا على الباب الذي في آخر الممر المكتوب عليه «سيدات»، وعندما مرّت بجانب ركن يحتوي على بعض الكراسي لم تنتظر إلى الواقفين هناك، لكنها سمعت صوتًا يقول: «قبعة!»، وعلى نحو مفاجئ تمامًا ظهر كورتيس أمامها خارجًا من ذلك المكان، وخلفه رأت الواعظ واضعًا يده على كتف كورتيس وتلك العلامة على وجهه واضحة كعين ثور غاضب، كانت ملابسه سوداء، ووشومه ظاهرة بوضوح: الصاعقة والأفاعي ذات الجرس.

نظرت هاربيت إليهما، ثم استدارت وركضت في الممر ذي الإضاءة الساطعة الذي تفوح منه رائحة المواد المعقمة، كانت الأرض زلقة، انزلقت قدميها تحتها، ثم سقطت إلى الأمام على وجهها، ثم تدحرجت على ظهرها وغطت عينيها بكفيها.

سمعت وقع خطوات أحذية مطاطية على البلاط، ثم رأت

ممرضتها الأصلية (الشابة ذات القرطين المتدليين والمكياج الملون) راكعة بجانبها، قرأت هارييت اسمها على البطاقة المعلقة على صدرها: بوني فينتون.

قالت الممرضة بصوت مرح: «يا عزيزتي، هل أذيت نفسك؟» أمسكت هارييت بذراع الممرضة وحدّقت إلى وجهها ذي الألوان الفاقعة مركزة كل انتباهها عليه، ثم كررت اسمها لنفسها: بوني فينتون، كأن ذلك الاسم تعويذة سحرية تحميها. بوني فينتون، بوني فينتون، بوني فينتون.

كانت الممرضة تقول: «لهذا السبب؛ لا يجوز أن نركض في الممرات»، لكن كلامها لم يكن موجّهاً إلى هارييت، بل بدت كأنها تتحدث إلى شخص آخر. وفي الممر رأت هارييت إيدي والطبيب يخرجان من خلف الستارة، شعرت بنظرات الواعظ تنظران إليها من الخلف وتحرقان ظهرها، فتحاملت على نفسها ونهضت واقفة، ثم ركضت نحو إيدي وعانقتها بقوة.

صاحت: «إيدي، خذيني إلى البيت، خذيني إلى البيت».

«هارييت، ماذا أصابك؟»

قال الطبيب محاولاً أن يبدو ودوداً: «هارييت، إذا ذهبت إلى البيت، فكيف نستطيع معرفة مرضك؟»، لكن وجهه المتهدل كان يحمل شيئاً جامداً تحت عينيه، شيئاً رآته هارييت مخيفاً جداً، فانفجرت في البكاء.

شعرت أن أحدهم يربت على ظهرها بسرعة وبشكل عملي تماماً كما تفعل إيدي، لكن بكاء هارييت ازداد شدة. «هي ليست في وعيها».

أجاب الطبيب: «عادة ما يشعر الناس بالنعاس بعد النوبة، لكن إذا كان توترها شديداً، فيمكننا إعطاؤها شيئاً لتهدئتها».

التفتت هاربيت بخوف، لكن الممر كان خالياً، مدت يدها ولمست ركبتها التي آلمتها عندما سقطت، كانت تركض هاربة من أحدهم، وسقطت وأصابت نفسها. هذا كان حقيقياً، وليس حلمًا. فكت الممرضة بوني ذراعي هاربيت عن خصر إيدي برفق، وقادتها عائدة إلى غرفتها خلف الستارة. فتحت خزانة صغيرة وملأت حقنة من وعاء زجاجي صغير يحتوي على دواء سائل. صرخت هاربيت: «إيدي!»

مدت إيدي رأسها عبر الستارة وقالت بحزم: «هاربيت، كفاك سخفًا! هذه مجرد حقنة».

عندما سمعت هاربيت صوت إيدي الحازم، شهقت وانفجرت في البكاء مرة أخرى. قالت لها: «يا إيدي، خذيني إلى البيت! أنا خائفة، لا أستطيع البقاء هنا؛ هؤلاء الناس يلاحقونني، وأنا...». أدارت رأسها وقطبت حاجبيها عندما غرزت الممرضة الإبرة في ذراعها، حاولت النهوض، لكن الممرضة أمسكت بيدها بلطف وقالت: «لا، لم تنته بعد، يا حلوتي!»

قالت: «إيدي، أنا... لا... لا أريد هذا!» ثم انكمشت على نفسها لتبتعد عن الممرضة بوني التي كانت قد دارت إلى الناحية الأخرى وهمّت بإعطائها حقنة جديدة.

ضحكت الممرضة عند سماع ذلك ضحكة مهذبة، ثم نظرت إلى إيدي طالبة مساعدتها.

صاحت هارييت: «لا أريد أن أنام، لا أريد أن أنام»، شعرت أنها حوصرت، لذا حاولت التملص من إيدي ومن قبضة الممرضة الناعمة: «أنا خائفة! أنا...».

أتاها صوت الممرضة بوني: «هل تخافين من هذه الحقنة الصغيرة يا حلوتي!»، كان صوتها في البداية ملاطفًا لكنه صار باردًا ومخيفًا بعض الشيء: «لا تكوني سخيفة، ليست إلا وخزة صغيرة، ثم...».

قالت إيدي: «والآن، سيكون عليّ أن أذهب إلى البيت...».

«إيدي!»

قالت الممرضة وهي تفرز الإبرة في ذراع هارييت وتحقنها بالسائل: «دعينا لا نرفع صوتنا يا عزيزتي».

«إيدي، لا! إنهم هنا! لا تتركيني! لا...».

قالت إيدي وهي ترفع ذقنها: «سأعود، استمعي إليّ». كان صوتها حادًا جازمًا، فطفى على كلمات هارييت المذعورة، أضافت: «عليّ أن آخذ أليسون إلى البيت، ثم سأتوقف في بيتي قليلًا من أجل بضعة أمور».

التفتت إلى الممرضة وقالت: «هل ستُعَدِّين لي سريرًا في غرفتها؟»

«بالتأكيد يا سيدتي».

دعكت هارييت موضع الوخزة في ذراعها.

سرير! كان لهذه الكلمة وقع مريح يشبه وقع كلمات أخرى تحبها هارييت مثل: دمية، قطن.. يشبه اسمها اسم دميّتها القديمة هوتنتوت، شعرت كأنها تتذوق الكلمة على لسانها؛ كلمة حلوة مدوّرة، ناعمة وقاسية في الوقت نفسه.

ابتسمت للوجهين المبتسمين لها .

سمعت الممرضة بوني تقول: «يبدو أن النعاس بدأ يغلبها».

أين ذهب إيدي؟ كافحت هاريت لتبقي عينيها مفتوحتين، لكن سماءات فسيحة غمرتها مع غيوم تندفع في ظلمة عجيبة. أغمضت عينيها ورأت اهتزاز أغصان الأشجار، ثم غفت سريعاً في سبات عميق.

كان يوجين يتجول في الممرات الباردة، يدها متشابكتان خلف ظهره، حتى جاءت إحدى عاملات المستشفى وخرجت بالطفلة من غرفة المعاينة دافعة إياها على نقالة ذات عجلات، فقرر أن يتبعها من بعيد حريصاً على ألا يلفت الانتباه، ليرى إلى أين ستأخذها.

توقفت العاملة أمام المصعد وضغطت الزر، فاستدار يوجين بسرعة وسار في الممر حتى بلغ السلم. وعندما وصل إلى الطابق الثاني خرج من السلم فسمع رنين جرس المصعد، فتح الباب المصنوع من الستانلس ستيل، وخرجت النقالة إلى الممر تدفعها العاملة بخطوات واثقة.

مضت مبتعدة في الممر، فأغلق يوجين باب السلم بهدوء، ثم لحق بالعاملة تاركاً مسافة بينه وبينها، ورأى عن بعد رقم الغرفة التي دخلتها، ثم عاد أدراجه نحو المصعد. ألقى نظرة متهملة على عدد من رسوم الأطفال المثبتة على لوحة الإعلانات، ونظر أيضاً إلى السكاكر في آلة البيع.

كثيراً ما يسمع الناس يقولون إن الكلاب تتبح قبل وقوع الزلازل، وفي الآونة الأخيرة، لاحظ يوجين أن هذه الطفلة ذات الشعر الأسود تظهر دائماً قبل حدوث شيء ما، أو عندما يكون شيء ما على وشك الحدوث. إنها الطفلة نفسها، ولا شك في ذلك. كان قد نظر إليها ملياً ليلة لدغته الأفعى أمام مقر الإرسالية، وها هي ذي تظهر مرة أخرى. مريوجين ببطء أمام باب غرفتها المفتوح، وألقى نظرة خاطفة: المصباح الخافت في السقف كان يلقي بظلال متدرجة في عمق الغرفة، فلم يستطع رؤية ما في السرير بوضوح، لكنه رأى تحت الأغطية جسداً صغيراً، وفوقه كيساً شفافاً (كأنه قنديل بحر عائم في مياه ساكنة) يحتوي على سائل رائق يتدفق عبر أنبوب ينحدر نحو السرير.

تابع يوجين طريقه حتى وصل إلى براد المياه في الممر، شرب قليلاً، ثم توقف ليتأمل إعلاناً عن أنشطة جمعية خيرية تُعنى بالأطفال والنساء، من مكانه راقب ممرضة تدخل الغرفة وتخرج منها، ثم اقترب مرة أخرى وأطل برأسه من الباب المفتوح. لاحظ أن الفتاة لم تكن وحدها، بل كانت هناك عاملة ذات بشرة سوداء تتحرك في الغرفة، تُعدّ سريرًا بكل هدوء.

تلكاً يوجين عند الباب وحاول ألا يبدو سلوكه مُريباً (بالتأكيد، كانت محاولةً صعبة في ذلك الممر الخالي)، وبعد ذلك رأى الممرضة عائدة بعدد من الملاءات فاستوقفها عند الباب.

سألها بصوت حاول أن يجعله ودوداً: «من هذه الطفلة التي هناك؟»

«اسمها هاربيت، وهي من عائلة دو فريسنس».

«آه!»، كان لهذا الاسم صدى مألوف في ذاكرته، لكنه لم يستطع تذكر السبب. نظر داخل الغرفة: «أليس معها أحد هنا؟»
«لم أرَ والديها، جدتها فقط». استدارت الممرضة، وكان واضحاً أنها أرادت إنهاء الحديث.

لم يشأ يوجين إنهاء المحادثة، فمد رأسه عبر الباب وقال:
«يا للطفلة المسكينة! ما مشكلتها؟»

قبل أن تنطق الممرضة أي كلمة، أدرك يوجين من تعبير وجهها أنه تمادى كثيراً، ثم قالت له: «آسفة! ليس من حفي إعطاء هذه المعلومات».

ابتسم يوجين محاولاً التخفيف من حدة الموقف، وقال:
«أتعلمين؟ أعرف أن هذه العلامة على وجهي ليست جميلة، لكنها لا تجعل مني شخصاً سيئاً».

عادة ما تميل النساء إلى التّساهل مع يوجين عندما يشير إلى هذا العيب الذي فيه، لكن الممرضة اكتفت بالنظر إليه كأنه قال شيئاً باللغة الإسبانية.

رفع يوجين يده بحركة لطيفة وقال: «كان هذا سؤالاً لا أكثر، آسف لأنني أزعجتك يا سيدتي!». تقدم خطوة، لكن الممرضة كانت مشغولة بالملاءات، ففكر أن يعرض عليها المساعدة، لكن هيئتها أوحى له بأنه من الأفضل ألا يلح أكثر.

عاد إلى آلة بيع السكاكر محاولاً تذكر متى سمع بعائلة دو فريسنس، فاريش هو الشخص الذي ينبغي سؤاله عنه؛ فهو يعرف أهل البلدة جميعاً. يتذكر فاريش العناوين والقربات والفضائح وكل شيء، لكنّ فاريش في الطابق السفلي غارق في غيبوبة، ولا يتوقع أن يظل حياً حتى الصباح.

توقف يوجين عند غرفة الممرضات قبالة المصعد: ليس فيها أحد، ثم مال فوق الطاولة متظاهراً بتفحص مجموعة من الصور الملصقة هناك، وبالنظر إلى نبتة في سلة من سلال الهدايا، وانتظر. هي من عائلة دو فريسنس! حتى قبل كلامه مع الممرضة، أقنعه ما جرى في الممر بأن الطفلة ليست واحدة من بنات أودوم (تلك السيدة العجوز تحديداً واضح من حركاتها أن لديها مالا ومركزاً في الكنيسة المعمدانية)، وهذا أمر شديد السوء؛ فلو تبين أن الفتاة واحدة من بنات أودوم، لكان هذا مُنْسَجِماً تماماً مع شكوكه؛ فإن لدى أودوم سبباً وجيهاً لمهاجمة فاريش وداني. بعد لحظة قصيرة، ظهرت الممرضة خارجة من غرفة الطفلة، رمقت يوجين بنظرة غريبة. كانت فتاة جميلة، ولكن مبالغتها في التبرج جعلتها كأنها مؤخرة حصان.

استدار يوجين بحركة حاول أن تكون عادية جداً، ولوَح لها بيده، ثم سار في الممر مبتعداً ونزل السلم، مرّ بمكتب الممرضة الليلية (كان مصباح الطاولة منعكساً على وجهها انعكاساً مخيفاً)، ثم مضى في الممر الخالي من النوافذ قاصداً وحدة العناية المركزة حيث تظل المصابيح مضاءة على مدار الساعة، كان كورتيس وغام نائمان على الأريكة. لا معنى للتجول في الأعلى على نحو يلفت الأنظار إليه، سوف يعود إلى الطابق العلوي بعد انتهاء نوبة عمل تلك الممرضة المتبرجة.

كانت أليسون مستلقية على سريرها في البيت تنظر إلى القمر الظاهر عبر النافذة، لم تكن تشعر بوجود سرير هاربيت

الفارغ الذي كانت ملأته التي تقيأت عليها هاربيت مكومة على الأرض، وكانت تغني دون صوت، ليست تلك أغنية حقيقية وإنما مجموعة نغمات متعاقبة تكررهما تكراراً رتيباً مثل غناء طائر ليلي حزين. لا يكاد وجود هاربيت أو عدم وجودها يمثل أي اختلاف بالنسبة إليها، والآن شجعها السكون في الناحية الأخرى من الغرفة فراحَت تدندن بصوت مسموع جملاً وعبارات عشوائية تتوالى في الظلمة.

وجدت صعوبة في النوم، مع أنها لم تعلم لذلك سبباً. كان النوم ملاذاً لأليسون، وكان يرحب بها بذراعيين مفتوحتين لحظة تستلقي في فراشها. أما الآن فهي ذي مستلقيّة على جنبها، عيناها مفتوحتان، ولا شيء يزعجها تدندن لنفسها في الظلمة. كان النوم يبدو بعيداً كأنه شيء بعيد ومراوغ، يتلاشى مثل الدخان في عليّة فارغة أو مثل صوت البحر في صدفة بحرية.

رقدت إيدي على سرير صغير مجاور لسرير هاربيت، حتى أيقظها ضوء الصباح الساطع مقابل وجهها. أدركت أنها تأخرت؛ فقد كانت الساعة تشير إلى الثامنة وخمس عشرة دقيقة، كما رأت في ساعة يدها. كان لديها موعد مع المحاسب عند التاسعة، فنهضت مسرعة وتوجهت إلى الحمام. هناك استوقفتها صورتها المتعبة في المرآة لحظة؛ ربما كان ذلك بسبب ضوء النيون، لكن.. مع ذلك!

نظفت أسنانها، ثم انهمكت في وضع مكياجها بحرص: رسمت حاجبيها بتأنٍ، ثم وضعت أحمر الشفاه. لم تكن إيدي تثق بالأطباء،

كانت تجربتها تُعلمها أنهم لا يصغون إلى المرضى، بل يفضلون التظاهر بأنهم يعرفون كل الإجابات. يتسرعون في استخلاص النتائج ويتجاهلون أي شيء لا يتوافق مع نظرياتهم، وفوق ذلك كان هذا الطبيب داغو -أو أيًا كان اسمه- أجنبيًا، ما إن سمع كلمة «نوبة» توقف عن الاهتمام ببقية الأعراض التي تعانيها الطفلة، واعتبرها مجرد أعراض «مشكوك فيها»، دارت هذه الأفكار في رأس إيدي وهي تخرج من الحمام وتلقي نظرة إلى حفيدتها النائمة (راحت تتفحصها بفضول شديد كأنها شجيرة مريضة أو نبتة منزلية أصابتها آفة غامضة). هذه الطفلة ليست مصابة بالصرع!

ظلت إيدي تحقق إلى هاربيت بعض الوقت (بنظرة أكاديمية متفحصة)، ثم عادت إلى الحمام لترتدي ملابسها. هاربيت طفلة قوية، لم تكن إيدي قلقة عليها كثيرًا، لكن ما أثار قلقها حقًا كان الوضع الكارثي في بيت ابنتها (الأمر الذي حرّمها من النوم معظم هذه الليلة). الآن وهي تفكر في ذلك تذكرت أنها لم تصعد إلى الطابق العلوي منذ أن كانت هاربيت صغيرة جدًا، كانت تعلم أن تشارلوت تحب الاحتفاظ بكل شيء، وأن هذا الميل لديها قد ازداد بعد وفاة روبين، لكن ما رأيته في البيت كان صدمة كبيرة لها، قذارة! لا توجد كلمة أخرى تصف ذلك! لا عجب أن تصاب هذه الطفلة بالمرض مع كل تلك القمامة المتناثرة في كل مكان، العجيب أنهم لسن جميعًا في المستشفى، رفعت إيدي سحاب فستانها وعضت باطن خدها. أطباق متسخة، وأكوام من الصحف، بل أبراج من الصحف، ولا شك أن هذا يجتذب الحشرات، لكن الرائحة كانت

أسوأ من كل ذلك. تواردت إلى ذهن إيدي سيناريوهات مزعجة كثيرة وهي مستلقية على سرير المستشفى غير المريح ، تتقلب يميناً ويساراً بعد أن جفاها النوم. ربما تكون الطفلة قد تسممت، أو ربما التقطت عدوى التهاب الكبد، أو ربما تعرضت لعضة جرد وهي نائمة. دهشة إيدي الشديدة وإحساسها بالعار منعها من أن تبوح للطبيب الغريب بأي من هذه الشكوك، وحتى في ضوء الصباح البارد هذا، ما زالت تشعر بالعار. ماذا يمكنها أن تقول؟ «أوه، بالمناسبة يا دكتور! بيت ابنتي قذر جداً!»

لا بد أن هناك صراصير في البيت، ولا بد أن هناك ما هو أسوأ من ذلك، لا بد من فعل شيء قبل أن تتصل كريس فاونتين أو أي من الجارات الفضوليات بالهيئات الصحية. مواجهة تشارلوت بالأمر لن تؤدي إلا إلى مزيد من الدموع والأعذار، والاستعانة بزوجها ديكسون الذي يخونها أمر محفوف بالمخاطر؛ لأن ديكسون سيكون له الكلمة العليا في المحكمة إذا وصل الأمر إلى الطلاق (وربما يصل الأمر إلى ذلك). بحق السماء لماذا تركت تشارلوت تلك المرأة السوداء تترك العمل لديها؟

ثبتت إيدي دبوس شعرها، وابتلعت قرصي أسبرين مع كأس ماء (أضلاعها تؤلمها كثيراً بعد هذه الليلة على سرير المستشفى الصغير)، ثم خرجت من الحمام. قالت في نفسها: الطرق كلها تؤدي إلى المستشفى! فمنذ وفاة ليبي لا تزال إيدي تعود إلى المستشفى كل ليلة في أحلامها، تتجول في الممرات، وتصدر وتهبط بين الطوابق باحثة عن أرقام غرف لا وجود لها، وها هي ذي الآن هنا من جديد (في اليقظة) في غرفة مثل الغرفة التي

ماتت فيها ليبي، لا تزال هارييت نائمة، وهذا أمر حسن. قال الطبيب إنها ستنام معظم النهار، بعد زيارة المحاسب وبعد صباح آخر تهدره على التقيب في سجلات القاضي كليف (سجلات كأنها مكتوبة برموز سرية)، سيكون عليها أن تذهب للاجتماع مع المحامي، يحثها المحامي على قبول تسوية مع ذلك الشخص الفظيع الذي اسمه السيد ريكسي، فكرة معقولة تمامًا لولا أن «التسوية المنطقية» التي يقترحها كفيلة بأن تجعلها معدمة، ألقت على المرأة نظرة أخيرة وهي ضائعة في أفكارها (الحقيقة أن السيد ريكسي لم يقبل تلك «التسوية المنطقية»، ستعلم اليوم إن كان قد قبلها أخيرًا)، حملت حقيبة يدها وخرجت من الغرفة دون أن تنبته إلى الواعظ المنتظر عند آخر الممر.

كانت ملاءات السرير منعشة ولطيفة البرودة، ظلت هارييت راقدة في نور الصباح الهادئ، وعيناها مغمضتان. كانت تحلم بدرجات حجرية في حقل وضاء فيه أعشاب كثيفة، لم تكن الدرجات تؤدي إلى أي مكان، بل بدت مثل كتل حجرية غارقة في الزمن مطمورة بين الأعشاب الطويلة. كانت الإبرة الباردة المغروزة في طية مرفقها تؤلمها، يتصل بها أنبوب ثقيل يصعد عبر السقف إلى سماء الحلم البيضاء.

بقيت بضع دقائق تتأرجح بين النوم واليقظة، حتى سمعت وقع خطوات على الأرض (كانت الممرات في المستشفى واسعة وباردة يتردد الصدى فيها كأنها قصور)، ظلت ساكنة تمامًا وتمنّت أن تكون تلك خطوات موظفة لطيفة في المستشفى أتت لتلقي نظرة

عليها ثم تتصرف: هاربيت صغيرة، هاربيت شاحبة، طفلة مريضة. اقتربت الخطوات من سريرها ثم توقفت، أحست هاربيت أن أحدًا قد انحنى فوقها، فظلت راقدة دون حركة، وجفناها يرتجفان، وانتظرت أن يفحصها ذلك الشخص، لكنها عندما فتحت عينيها أجفلت مذعورة عندما رأت الواعظ؛ كان وجهه شديد القرب من وجهها، والندبة على وجهه شديدة الوضوح، حمراء كعرف ديك رومي، وتحت عظم جبينه المشوه كانت عينه الرطبة تنظر إليها نظرة ضارية.

قال لها وهو يميل برأسه جانبًا مثلما يفعل بيفاء: «ابقي هادئة!» كان صوته عاليًا وغنائيًا، فيه غرابة مخيفة، أضاف: «لا حاجة إلى أي ضجة. هل تفهمين؟»

تمنت هاربيت أن تطلق صرخة مدوية، لكن الذعر جمدها في مكانها، وحدقت إليه بعينين متسعيتين.

قال: «أعلم من تكونين، أنت التي كنت عند الإرسالية تلك الليلة» كان فمه بالكاد يتحرك عندما يتكلم.

نظرت هاربيت إلى الباب الخالي، وسرى الألم في صدغيها مثل الكهرباء.

تغضن حاجبا الواعظ وازداد انحناءه فوقها، وقال لها بصوته الغريب ذي النبرة الحادة: «كنت تعبثين بتلك الأفاعي. أظنك أنك التي أطلقت سراحها، أليس كذلك؟»

كانت رائحة الزيت في شعره تشبه رائحة الليلك، تابع: «وكنت تلاحقين أخي داني، أليس هذا صحيحًا؟»

حدقت هاربيت إليه. هل يعلم بأمر خزان المياه؟

«كيف استطعت الفرار مني، هناك.. في الممر؟»

إنه لا يعلم، حرصت هاربيت على البقاء ساكنة تمامًا، في المدرسة لم يكن أحد يستطيع هزيمتها عندما يتنافس الأطفال بالتحديق إلى بعضهم أطول مدة ممكنة، رنّت أجراس مكتومة في رأسها؛ إنها ليست بخير، إنها في حاجة إلى أن تفرك عينيها، وتبدأ هذا الصباح من جديد. كان هناك شيء غريب في وضعية وجهها مقارنة بوجه الواعظ، شيء لا معنى له؛ كأنه انعكاس ينبغي أن تراه من زاوية مختلفة.

ضيّق الواعظ عينيه ناظرًا إليها، وقال: «أنت طفلة جريئة، جريئة جدًا».

شعرت هاربيت بالضعف والدوار، ظلت تقول في نفسها: هو لا يعلم، هو لا يعلم.. عند حافة سريرها مفتاح جرس لاستدعاء الممرضة، رغبت بشدة في إدارة رأسها والنظر إلى ذلك المفتاح، ولكنها أرغمت نفسها على أن تظل ساكنة.

كان يراقبها بتركيز شديد، وخلفه كان بياض الغرفة يمتد إلى البعيد؛ فراغ قاتل مثل ظلمة خزان المياه المغلق التي لا تطاق. قال وهو يقترب منها أكثر: «انظري إليّ! لماذا أنت خائفة هكذا؟ لم يؤذك أحد».

رفعت هاربيت نظرها وحدقت إلى وجهه، لم تتزحزح. «لعلك فعلت شيئاً يجعلك خائفة! أود أن أعلم ما الذي جعلك تتسللين عند بيتي، إذا لم تخبريني سوف أكتشفه بنفسي».

وفجأة، أتى من عند الباب صوت مبتهج يقول: «مرحبًا!»

استوى الواعظ واقفاً والتفت بسرعة ليجد روي دايال واقفاً عند العتبة يحمل كتاب مدرسة الأحد وعلبة سكاكر. قال السيد دايال وهو يدخل الغرفة بثقة وابتسامة عريضة: «آمل ألا أكون قد قاطعت حديثكما». كان يرتدي ملابس عادية بدلاً من البذلة الرسمية وربطة العنق اللتين اعتاد ارتداهما في مدرسة الأحد. كان مظهره رياضياً بحذاء خفيف وبنطال كاكي اللون يذكر بجو فلوريدا الهادئ وعالم البحار الواسع.

«ماذا تفعل هنا يا يوجين؟»

أسرع الواعظ فمد يده للسلام عليه: «سيد دايال!»

تغيرت نبرة صوته فجأة وأصبحت مشحونة بطاقة جديدة، لاحظت هاريت هذا الأمر على الرغم من مرضها وخوفها، وقالت في نفسها: إنه يخشاه!

نظر السيد دايال إلى يوجين وقال: «أوه، صحيح. ليلة أمس دخل المستشفى أحد أفراد عائلة راتليف، أليس كذلك؟ قرأت الخبر في الصحيفة».

«صحيح يا سيدي! إنه شقيقي فاريش، إنه...» حاول يوجين أن يهدئ من روعه وتابع: «الحقيقة أنه تعرض لإطلاق نار».

قالت هاريت في نفسها مذهولة: إطلاق نار!

«عثروا عليه ليلة أمس مصاباً بطلقة في الرقبة، إنه...».

صاح السيد دايال متراجعاً إلى الخلف بحركة هزلية، كان واضحاً منها أنه ليس مهتماً إطلاقاً بأن يسمع شيئاً عن عائلة يوجين. «يا إلهي! يا إلهي الرحيم! أكره أن أسمع هذا! سأحرص على زيارته ما إن يتحسن قليلاً أنا...».

دون أن يمنح يوجين فرصة لتوضيح أن فاريش لن يتحسن، رفع السيد دايال يديه عاليًا كأنه يقول: وماذا بوسعنا أن نفعل؟ ثم وضع علبة السكاكر على الطاولة الصغيرة، وانحنى نحو هاريت مثل دلفين مرح، وقال وهو ينظر إليها بعينه اليسرى: «يؤسفني أن هذه السكاكر ليست من أجلك يا هاريت، كنت في طريقي قبل العمل لزيارة العزيزة أغنيس أبتشرش» (كانت الأنسة أبتشرش عجوزًا مقعدة من أتباع الكنيسة المعمدانية، أرملة مصرفي تحتل مكانة مرموقة في قائمة السيد دايال؛ قائمة من يأمل أن يتبرعوا لصندوق بناء الكنيسة) ... «ومن صادفتُ في الطابق السفلي؟ إنها جدتك! قلت لها: يا آنسة إيديث! أنا...».

لاحظت هاريت أن الواعظ بدأ يتحرك نحو الباب، لكنه توقف عندما رأى السيد دايال ينظر إليه، فعاد إلى مكانه.

سأله السيد دايال: «من أين تعرف هذه الأنسة الصغيرة اللطيفة؟»

بعد أن شعر بالخرج من محاولته الفاشلة للانسحاب، حاول الواعظ أن يجعل حركته تبدو طبيعية، وقال وهو يضع يده على رقبته ويعود ليقف بجانب السيد دايال كأن هذا ما أراد فعله منذ البداية: «نعم، يا سيدي! الحقيقة أنني كنت هنا عندما أحضروها الليلة الماضية، كانت ضعيفة جدًا غير قادرة على السير، كانت طفلة صغيرة مريضة جدًا، هذه هي الحقيقة». قال ذلك بنبرة حازمة كأنه يضع حدًا للحديث دون حاجة إلى مزيد من الشرح. «يعني هذا أنك كنت هنا فقط حتى...» بدا السيد دايال كأنه يحاول إرغام نفسه على نطق تلك الكلمة.. «تزورها! تزور هاريت هنا!»

تتحنح يوجين وأشاح بوجهه وقال: «أخي هنا يا سيدي. وبما أنني موجود في المستشفى، فأنا أحب زيارة الناس وإدخال الراحة إلى قلوبهم، إنها متعة أن تكون بين هؤلاء الصغار وتزرع فيهم بذرة الإيمان الثمينة».

نظر السيد دايال إلى هاريت كأنه يقول: هل كان هذا الرجل يزعجك؟

أشار يوجين نحو التليفزيون وقال: «ليس لدي سوى هاتين الساقين وهذا الإنجيل. أما ذلك الصندوق هناك، فهو أسوأ ما يمكن أن يكون في بيتك لمنع خلاص الطفل، وأنا أسميه صندوق الخطيئة».

فجأة قالت هاريت بصوت نحيل وبعيد: «يا سيد دايال، أين جدتي؟»

نظر السيد دايال إليها بعينيه الباردتين وقال: «أظنها في الأسفل تتحدث بالهاتف، ما الأمر؟»

قالت هاريت: «لا أشعر أنني بخير» وكانت صادقة في قولها هذا.

لاحظت أن الواعظ بدأ يتحرك مرة أخرى نحو الباب، وعندما رأى أنها تنظر إليه، ألقى عليها نظرة سريعة ثم خرج.

انحنى السيد دايال فوقها، ورائحة الكولونيا الحادة التي تشبه رائحة الفاكهة بعد الحلاقة تفوح منه، وقال: «ما الأمر؟ هل تريدين قليلاً من الماء؟ هل تريدين وجبة إفطار؟ أم أن معدتك تؤلمك؟»

«أنا... أنا...» حاولت هاربيت أن تجلس. لم تستطع أن تطلب ما تريده بكلمات واضحة. كانت تخشى البقاء وحدها، لكنها لم تجد طريقة لتخبر السيد دايال بذلك دون أن تكشف عن سبب خوفها.

وفي تلك اللحظة رن الهاتف إلى جانب سريرها.

رفع السيد دايال السماعة وناولها إياها.

قالت هاربيت بصوت واهٍ: «ماما!»

«أهنتك! ضربة رائعة!»

كان ذلك هيلي، كان صوته ضئيلاً بعيداً على الرغم مما فيه من فرح، سمعت هاربيت هسيس خط الهاتف فعلمت أنه يتكلم من الهاتف الذي في غرفته.

«هاربيت! هاه! يا إلهي! لقد دمرته تدميراً! لقد قضيت عليه!»

«أنا...» لم يكن عقل هاربيت يعمل بسرعته المعتادة؛ فلم تستطع الاهتداء سريعاً إلى شيء تقوله، على الرغم من سوء الخط الهاتفي فقد كانت صيحاته عالية جداً، وخشيت هاربيت أن يتمكن السيد دايال من سماعها.

«شيء رائع!» سقط الهاتف من يد هيلي في غمرة حماسه، فسمعت هاربيت صوت ارتطام قوي، ثم عاد صوته قوياً وصاخباً: «لقد نشرنا الخبر في الصحيفة!»

«ماذا؟»

«علمت أن هذا من فعلك. ماذا تفعلين في المستشفى؟ ماذا جرى؟ هل أصابك أذى؟ هل أطلق عليك النار؟»

تحنحت هاربيت بالطريقة المتفق عليها بينهما التي تعني أنها لا تستطيع الكلام.

قال هيلي: «أوه، فهمت!»، ثم أضاف بعد لحظة صمت متجههم:
«آسف!»

حمل السيد دايال علبة السكاكر وهمس لها: «عليّ أن أذهب».
قالت هارييت وقد دهمتها نوبة زعر مفاجئة: «لا، لا تذهب»،
ولكن السيد دايال تابع سيره نحو الباب.
قال دون أن يحرك شفتيه: «أراك لاحقاً عليّ أن أذهب لأبيع
بعض السيارات!»

وفي نفس الوقت، كان هيلي يقول: «أجيبني بنعم أو لا فقط. هل
أنت في مشكلة؟»
حدقت هارييت إلى الباب خائفة، لم يكن السيد دايال شخصاً
لطيفاً أو متعاطفاً، لكنه على الأقل شخص كفء وحكيم وبعيد
النظر ويكره الخطيئة. لن يجرؤ أحد على إيذائها إذا كان السيد
دايال قريباً.

«هل سيعتقلونك؟ هل أنت تحت حراسة الشرطة؟»
«هيلي، هل تستطيع أن تفعل شيئاً من أجلي؟»
قال: «بالتأكيد». فجأة صار هيلي جاداً ويقظاً كأنه كلب صيد.
قالت هارييت وهي تنظر إلى الباب: «عِدْني بهذا!» ومع أنها
كانت تهمس، فإن صوتها كان يصل أبعد مما أرادت في ذلك
الصمت القارس.

«ماذا؟ لا أستطيع سماعك».
«عدني أولاً».

«هارييت، هيا! قل لي!»

قالت: «عند خزان المياه..» استنشقت هاربيت نفسًا عميقًا، لم يكن هناك طريقة لقول هذا إلا بوضوح، تابعت: «هناك مسدس على الأرض. أريد منك أن تذهب...»
«مسدس!»

قالت هاربيت بخيبة أمل: «أريدك أن تأخذه وتلقيه بعيدًا».
لماذا تهتم بخفض صوتها؟ من عساه يعرف مع من تتحدث، أو من يتحدث معه هيلي؟ رأت ممرضة تمر بالباب قبل قليل، والآن مرت ممرضة أخرى ألقت نظرة فضولية سريعة في أثناء سيرها.
«كيف يا هاربيت؟»
«يا هيلي، أنا لا أستطيع الذهاب»، شعرت بأنها على وشك البكاء.

«لكن لدي تدريب اليوم مع الفرقة، وسنبقى حتى وقت متأخر».
غاص قلب هاربيت في صدرها، كيف تستطيع أن تجعله يفعل ذلك؟
قال هيلي: «أو.. يمكنني الذهاب الآن.. إذا أسرع. ستأخذني ماما بعد نصف ساعة».

ابتسمت هاربيت ابتسامة واهنة لممرضة أطلت من الباب برأسها. ما الفرق بين الأمرين؟ ترك مسدس والدها على الأرض لتعثر عليه الشرطة، أو جعل هيلي يأخذه، كل شيء سينتهي بحلول الظهر.

قال هيلي: «وماذا أفعل به؟ هل أخبئه في فناء بيتك؟»
قالت هاربيت بحدة: «لا». كانت نبرتها عالية، ما جعل الممرضة ترفع حاجبيها.

تابعت: «ارمه»، أغمضت عينيها وحاولت أن ترغم نفسها على أن تكمل جملته: «ارمه في...».

قال هيلي مستفهماً: «في النهر؟»

قالت هاربيت: «نعم»، ثم تحركت قليلاً لتسمح للممرضة بأن تصلح وضع وسادتها (كانت امرأة ضخمة عريضة المنكبين لها شعر خشن ويدان كبيرتان).

«وماذا إن لم يفرق في الماء؟»

مرت لحظة قبل أن تفهم هاربيت سؤاله، كرر هيلي السؤال فيما كانت الممرضة تأخذ ورقة بيانات هاربيت الصحية وتخرج من الغرفة بمشيئها الثقيلة المتهادية.

قالت هاربيت: «إنه .. معدني». صُدمت عندما أدركت أن هيلي كان يتحدث مع شخص آخر موجود معه في الغرفة.

عاد إليها سريعاً، وقال: «حسناً! ينبغي أن أذهب الآن».

أنهى هيلي المكالمة، ظلت هاربيت جالسة والسماعة الصامتة على أذنها إلى أن سمعت نغمة الخط الهاتفي. أعادت السماعة إلى مكانها واستندت إلى وسائدتها، وراحت عيناها تجولان في الغرفة متوجستين.

مرت الساعات بطيئةً رتيبةً .. بياض في بياض. لم يكن بين يدي هاربيت ما تشغل به نفسها، لا كتاب تقرأه ولا شيء يلهيها عن ذلك الخوف الذي استبد بها، كانت في خوف من النوم على الرغم من الألم الشديد في رأسها. ترك السيد دايال كتاباً صغيراً، كتاب مدرسة الأحد، يحمل على غلافه صورة طفلٍ وردي

الخدود، يرتدي قبعة صغيرة بالية الطراز، ويدفع أمامه عربة أزهار. هذا كل ما لديها! كتاب لم يكتب لها، بل لأمهات الأطفال الصغار.

شعرت هاربيت بالتقزز، لكنها بعد تردد قرأت الكتاب كله من أوله إلى آخره، ثم بقيت جالسة في صمت، تائهة في فراغ الغرفة. لا ساعة على الجدار، ولا لوحات تستطيع النظر إليها، ولا شيء يوقف ذلك الغليان البائس لأفكارها ومخاوفها.. لا شيء سوى الألم الذي تخترق موجاته معدتها بين الحين والآخر، انتظرت حتى خفت حدة الألم، ثم استسلمت للنوم منهكة لاهثة، شعرت للحظة أنها قد تخلصت من كل همومها، لكن المخاوف عادت لتغزوها بقوة أكبر.

في الواقع، لم يعدها هيلي بأي شيء، من يدري إن ذهب من أجل المسدس أم لم يذهب؟ وحتى إن ذهب، فهل يكون لديه ما يكفي من الفهم ليتخلص منه؟ تخيلت هيلي مع الفرقة الموسيقية وهو يعرض عليهم مسدس أبيها بفخر: «أنت، يا ديف! انظر إلى هذا!». كشرت ودفنت رأسها عميقاً في الوسادة. مسدس أبيها وبصمات أصابعها عليه، وهيلي.. أكبر متشدد في العالم! ولكن من غيره تستطيع أن تطلب منه هذا الأمر؟ لا أحد، لا أحد.

بعد مرور زمن طويل عادت الممرضة مرة أخرى (كان حذاؤها ذو النعل الثخين مهترئاً كله عند حافته الخارجية) لتعطي هاربيت حقنة، بذلت هاربيت جهداً لتدفع بمخاوفها بعيداً، أدارت رأسها وراحت تكلم نفسها، أخيراً استطاعت أن تركز انتباهها على الممرضة؛ وجهها جميل لوّحتة الشمس، فيه تجاعيد ناعمة على

الخدين، وكاحلاها مكتزان، ومشيتها تدل على ثقة وقوة كأنها
قبطان سفينةٍ تمشي على سطحها، وعلى صدرها بطاقةٌ صغيرة
مكتوب عليها: «غلاديس كوتس».

قالت الممرضة بهدوء: «سأحاول أن تكون سريعةً جدًا».
كانت هاربيت أضعف من أن تقاوم كالمعتاد، فانقلبت على
بطنها وكشرت عندما أحست وخزة الإبرة في وركها، لطالما
كرهت الحقن، وفي طفولتها كانت تصرخ وتبكي وتقاوم وتحاول
الفرار، حتى أن إيدي (التي كانت تعرف كيف تعطي الحقن) كانت
تفقد صبرها أكثر من مرة وتشم عن ذراعيها في عيادة الطبيب
وتتولى الأمر بنفسها.

سألت هاربيت بينما كانت تدلك مكان الحقنة: «أين جدتي؟»
«عجيب! ألم يخبرك أحد؟»

صاحت هاربيت: «ماذا؟ ماذا حدث؟ أين هي؟» زحفت جانبياً
في سريرها كأنها سرطان.

قالت الممرضة وهي تعدل الوسائد بهمة واضحة: «ششش!
اهدئي! اضطرت إلى الذهاب إلى مركز البلدة. هذا كل شيء».
نظرت إليها هاربيت غير مصدقة.
تابعت الممرضة: «والآن، عليك أن تستلقي في فراشك
وترتاحي».

لم تعيش هاربيت في حياتها كلها يوماً أطول من ذلك اليوم؛ ألم
نابضٌ يقرع صدغيها بلا رحمة، وأشعة الشمس المتوازية تسقط
بثبات على الجدار، زارتها الممرضة كوتس مرات قليلة كأنها ذلك
الفيل الأبيض الأسطوري الذي لا يظهر إلا مرةً كل قرن. خلال

ذلك الصباح الذي بدا بلا نهاية، أخذت الممرضة عينةً من دمها، وأعطتها قطرةً للعين، وجلبت لها ماءً مثلجاً، وشراب زنجبيل، وطبقاً من الجيلاتين الأخضر الذي تذوقته هاربيت ثم دفعته جانباً، فصدرت عن الملعقة قعقةً على الصينية البلاستيكية.

جلست هاربيت في فراشها، وأصغت بفزع إلى الأصوات التي ترددت في الممر: همساتٌ عند مكتب الممرضات، وضحكاتٌ متقطعة، وقعقة علب، وصرير أجهزة المساعدة في المشي التي يدفعها الناقهون في قسم العلاج الطبيعي. تكرر سماعها صوت امرأةٍ عبر شبكة الاتصال الداخلية، تذكر أرقاماً وتعطي تعليماتٍ غامضة: «كارلا، اذهبي إلى الممر، عاملة صحية إلى الرقم 2.. عاملة صحية إلى الرقم 2..».

راحت هاربيت تسترجع كل ما تعرفه وتحصيه على أصابعها كأنها تجري عمليات حسابية، وتدمدم بصوت خافت غير آبهة بأن يراها أحد فيظنها مجنونة، لا يعلم الواعظ شيئاً عن خزان الماء، ولم يقل شيئاً يشير إلى علمه بأن داني في الخزان (أو بأنه قد مات)، ولكن هذا كان كله قد يتغير إن اكتشف الطبيب أن المياه الملوثة هي التي سبب مرض هاربيت. كانت سيارة داني متوقفة بعيداً عن الخزان، وقد لا يخطر ببال أحدٍ أن يبحث هناك، إن كانوا لم ينظروا في الخزان حتى الآن، فمن يدري؟ ربما لن ينظروا فيه أبداً!

لكنهم قد ينظرون فيه، لا يزال مسدس والدها هناك، كيف تركته هناك؟ كيف نسيت أمره؟ تعلم أنها لم تصب أحداً بذلك المسدس، ولكنهم سيعلمون أن النار قد أطلقت منه، ولا شك في

أن وجوده أسفل الخزان سيكون كافياً لأن يصعدوا ويلقوا نظرة داخله.

وهيلي! أسئلته المزعجة كلها: هل اعتقلتها الشرطة؟ هل هناك شرطي يحرسها؟ سيجد هيلي الأمر مسلياً إن اعتُقلت، لكن هذه الفكرة لا تسرها أبداً.

ثم تبادرت إلى ذهنها فكرة مروعة: ماذا لو كانت الشرطة تراقب السيارة؟ أليست السيارة مسرّحاً للجريمة.. مثلما ترى في التلفاز؟ ألن يكون رجال الشرطة والمصورون الصحفيون محيطين بها؟ صحيح أن السيارة متوقفة في مكان بعيد قليلاً عن الخزان، ولكن هل سيكون هيلي منتبهاً ويتفادى ذلك الحشد إن رآه؟ وإن كانوا هناك، فهل سيستطيع الاقتراب من الخزان أصلاً؟ تعلم أن المستودعات قريبة منه، بل هي أقرب إليه من مكان وقوف السيارة، وقد يبحثون فيها أيضاً، لكنهم بالتأكيد سيوسعون دائرة البحث لاحقاً، وسيصلون إلى الخزان. لعنت نفسها لأنها لم تنبه هيلي إلى ضرورة الحذر، إن كان هناك حشدٌ من الناس، فلن يكون أمامه خيارٌ إلا أن يستدير ويعود إلى البيت.

في وقت الضحى جاء الطبيب ليقطع خيط أفكارها المضطربة، إنه الطبيب الذي اعتادت أن تراه عندما يلتهب حلقها، ولكن هاربيت لم تكن تحبه كثيراً؛ كان طبيباً شاباً له وجه قبيح ولحية كثيفة نمت قبل أوانها، قسمات وجهه جامدة، وطبعه بارد وساخر، كان اسمه الدكتور بريدلوف، ولكن إيدي أعطته اسماً مستعاراً صار واسع التداول على المستوى المحلي: «الدكتور طماع». كان ذلك بسبب أتعابه المرتفعة، ويُقال إن طبعه

غير الودود هو ما منعه من الحصول على منصبٍ أفضل في بلدةٍ أكبر، لكن جفافه الشديد جعل هاربيت تشعر بأنها ليست مضطرةً لأن تظهر ذلك الابتسام الودود الذي تحرص عليه أمام الكبار عادةً؛ ولهذا السبب كانت تحترمه (احترامًا مشوبًا ببعض الضغينة) على الرغم من كل شيء.

في أثناء وقوف الدكتور طماع بجانب سريرها، حرص كل منهما على ألا تلتقي أعينهما، كأنهما قطآن متعاديان، فحسها ببرود، وألقى نظرةً على بياناتها الطبية، ثم سألها: «هل تكثرين من أكل الخس؟»

أجابته هاربيت: «نعم». مع أنها لا تكثر من أكل الخس.

«هل تتقعين الخس في ماء مالح؟»

قالت هاربيت بسرعة: «لا». كانت تلك الإجابة التي توقعت أنه يريد سماعها.

تمتم بشيء عن الزحار وعن الخس غير المغسول القادم من المكسيك، فكر قليلًا، ثم أعاد ملفها الطبي إلى مكانه عند نهاية السرير واستدار ليفادر. رن الهاتف على نحو مفاجئ، فأسرعت هاربيت (على الرغم من الإبرة المفروزة في ذراعها) ورفعت السماعة قبل انتهاء الرنة الأولى.

«مرحبًا!»

كان هيلي، وفي الخلفية سمعت ضجيج الصالة الرياضية. كانت أوركسترا المدرسة الثانوية تتدرب في ملعب كرة السلة على كراسي قابلة للطي، سمعت هاربيت خليطًا من الأصوات: صيحات، ضحكات، وزعيقًا من الكلارينيت، وصيحات من الترومبيت.

قالت له عندما بدأ بالكلام دون توقف: «انتظر، توقف لحظة!». كانت تعلم أن الهاتف في الصالة الرياضية موجود في مكانٍ مزدحم لا يسمح بالحديث بحرية، أكملت: «أجبنني بنعم أو لا. هل وجدته؟»

«نعم، يا سيدتي!». كان يكلمها بصوت لا يشبه أبداً صوت جيمس بوند، ولكن هاريت أدركت أنه يحاول تقليده. «لقد استعدت السلاح».

«هل رميته حيث طلبت منك؟»

صاح هيلي: «هل خذلتك يوماً؟»

في الصمت القصير الذي تلا ذلك، لاحظت هاريت أصواتاً في الخلفية.. حركات وهمسات.

قالت وهي تتنصب في جلستها: «هيلي، من معك هناك؟»

أجابها بسرعة: «لا أحد»، ولكن إجابته كانت أسرع مما ينبغي، سمعت مع صوته شيئاً كأنه ضربة، كأنه يدفع طفلاً آخر بمرفقه. سمعت همسات، ثم ضحكة: فتاة! اشتعل غضب هاريت مثل صدمة كهربائية.

قالت له: «هيلي، من الأفضل لك ألا يكون معك أحد». رفعت صوتها وقاطعت اعتراضاته: «استمع إلي! لأن...».

إنه يضحك! «ماذا؟ ما مشكلتك؟»

رفعت هاريت صوتها إلى أقصى حد تجرأت عليه: «لأن المسدس يحمل بصمات أصابعك».

لم تعد تسمع أي صوت سوى عزف الفرقة وأصوات تدافع الأطفال وهمساتهم.

«هيلي؟»

عندما تكلم هيلي أخيراً، جاءها صوته متقطعاً وبعيداً، سمعته يقول غاضباً كأنه يخاطب شخصاً يزعجه: أنا .. ابتعد عني!». ثم خشخشة بسيطة، وصوت اصطدام السماعه بالجدار، وبعد لحظات جاء صوت هيلي من جديد، قال لها: «انتظري لحظة». ثم صوت اصطدام السماعه بالجدار مرة أخرى، ظلت هاريت مصغية، ثم سمعت همسات متحمسة.

قال أحدهم: «لا، أنت؟»

خشخشة مستمرة. انتظرت هاريت. سمعت وقع أقدام تجري مبتعدة وصياحاً غير مفهوم، عندما عاد هيلي كانت أنفاسه متقطعة.

قال بصوت هامس فيه ضيق واضح: «لقد أوقعت بي». ظلت هاريت صامتةً هي الأخرى، وأنفاسها ثقيلة. كانت بصمات أصابعها أيضاً موجودة على المسدس مع أنه لا معنى بعد الآن من تذكيره بهذه الحقيقة.

سألته بعد صمت ثقيل: «من أخبرت بهذا؟»

«لا أحد. الحقيقة .. فقط كريغ وأنتون .. وجيسिका».

قالت هاريت في نفسها: جيسিকা؟ جيسিকা ديز؟

قال لها وقد صار صوته متدمراً: «ماذا، يا هاريت؟ لا تكوني وضيعة هكذا! لقد فعلت ما طلبت مني فعله».

«لم أطلب منك إخبار جيسিকা ديز»

أطلق هيلي صوتاً يعبر عن انزعاجه.

«لقد أخطأت، كان عليك ألا تخبر أي إنسان، والآن أوقعت نفسك في مأزق، وأنا لا أستطيع مساعدتك».

«ولكن...». كان هيلي يجد صعوبة في العثور على كلمات يقولها، قال أخيرًا: «هذا ليس منصفًا! لم أقل لأحد إنك أنتِ التي فعلت ذلك».

«فعلتُ ماذا؟»

«لا أدري.. مهما يكن ذلك الشيء الذي قلت إنك فعلته».

«ما الذي يجعلك تظن أنني فعلت شيئًا؟»

«نعم.. أنت محقة».

«من ذهب معك إلى الخزان؟»

قال هيلي هذا بصوت مبتئس: «لا أحد. أعني...»، وأدرك متأخرًا أنه أخطأ.

«لا أحد!»

ساد الصمت.

قالت هاربيت: «إذًا، المسدس مسدسك أنت! لا تستطيع إثبات أنني طلبت منك فعل أي شيء» (جيسكا ديز! أهو معتوه؟).

«بل أستطيع!»

«حقًا؟ كيف؟»

قال بصوت جاد لكن دون اقتناع: «أستطيع، وأنا أستطيع أيضًا... لأن...».

مكتبة

t.me/soramnqraa

ظلت هاربيت منتظرة تنمة كلامه.

«لأن...».

قالت هارييت: «لا تستطيع إثبات أي شيء، ثم إن بصماتك موجودة عليه، وأنت تعلم معنى هذا؛ لذا من الأفضل لك الآن أن تفكر جيداً ثم تقول شيئاً لجيسيكا وكريغ وأنتون، إلا إذا كنت تريد الذهاب إلى السجن والموت على الكرسي الكهربائي».

عند هذه النقطة، ظنت هارييت أنها قد بالغت في الاعتماد على سداجة هيلي، ولكن الأمر لم يكن كذلك (بناءً على صمته المصعوق بعد سماعه كلماتها الأخيرة).

أشفقت عليه فقالت: «اسمع، يا هيلي! لن أخبر أحداً عنك».

قال بصوت خافت: «ألن تخبري أحداً؟»

«لا! الأمر بيني وبينك فقط، ولن يعلم أحد به إذا لم تخبره بنفسك».

«ألن يعلم أحد؟»

«اسمع! ما عليك إلا أن تذهب وتقول لكريغ وأولئك الآخرين إنك كذبت عليهم». قالت هارييت هذا وهي تلوح بيدها للممرضة كوتس التي أطلت برأسها من الباب لتودعها لأن وقت عملها قد انتهى. «لا أعرف بالضبط ما قلته لهم، ولكن عليك الآن جعلهم يفهمون أنك اختلقت ذلك الكلام من خيالك».

قال هيلي قانطاً: «ماذا لو عثر عليه أحدهم؟ ماذا سيحدث؟»

«هل رأيت أحداً عندما ذهبت إلى الخزان؟»

«لا».

«هل رأيت السيارة؟»

قال هيلي: «لا». ثم أضاف بعد لحظة حيرة: «أي سيارة؟»

فكرت هارييت في نفسها: ممتاز! لا بد أنه سلك الطريق الخلفي وبقي بعيداً عن الأنظار.

«أي سيارة يا هارييت؟ ما الذي تتحدثين عنه؟»

«لا شيء، هل رميته في منطقة عميقة من النهر؟»

«أجل، رميته من فوق جسر سكة القطار».

«هذا جيد». كان صعوده إلى ذلك الجسر مغامرة، لكن لا يوجد

مكان أكثر عزلة من ذلك: «هل أنت واثق بأن أحداً لم يرك

هناك؟»

«لم يرني أحد، ولكنهم يستطيعون البحث في قاع النهر».

أضاف بعد لحظة صمت: «تعلمين أن بصماتي..» لم تحاول

هارييت أن تخفف من قلقه، قالت: «انظروا لن يذهب أحد للبحث

عن أي شيء إذا لم تشرك جيسيكا والآخرين». مع هيلي لا بد

من تكرار الأمر نفسه مرات كثيرة حتى يفهمه.

ساد الصمت.

«إذاً، أخبرني ما الذي قلته لهم بالضبط».

«لم أخبرهم بالقصة كما حدثت تماماً».

تعلم هارييت أن هذا صحيح؛ فهيلي لا يعلم القصة مثلما جرت

بالفعل.

قالت له: «إذاً، ماذا أخبرتهم؟»

«قلت شيئاً يشبه ما ورد في الصحيفة هذا الصباح عن أن

فاريش راتليف تعرض لإطلاق النار، لم تذكر الصحيفة سوى أن

الشخص المسؤول عن اصطیاد الكلاب الشاردة عثر عليه الليلة

الماضية عندما كان يطارد كلباً فهرب الكلب في ذلك الاتجاه. لم

أقل لهم هذا الجزء من القصة، ولم أذكر موضوع مطاردة الكلب،

لقد اختلقت قصة...».

انتظرت هارييت لتسمع بقية الكلام.

«اختلقت قصة تشبه قصص الجواسيس».

اقتрحت هارييت: «إذا، اذهب واجعلها أشد قريباً من قصص الجواسيس. قل لهم...».

دبت فيه الحماسة من جديد: «أعلم هذا! ستكون قصة رائعة، أستطيع أن أجعلها شبيهة بقصة فيلم من روسيا مع الحب. كما تعلمين.. الحقيبة التي...».

«الحقيبة التي تطلق الرصاص والغاز المسيل للدموع».

«صحيح. الحقيبة التي تطلق الرصاص والغاز المسيل للدموع، والحذاء أيضاً! إنه الحذاء!». كان يتحدث عن حذاء العميلة السرية كليب الذي يحتوي على سكاكين.
«تماماً! هذا ممتاز. هيلي...».

«والقبضة النحاسية.. كما تعلمين.. في ميدان التدريب حيث تسدد لكمة إلى بطن الرجل الأشقر الضخم».

«يا هيلي! لو كنت مكانك لما بالغت في القصة».

قال هيلي مبتهجاً: «لا، أنا لا أبالغ، ولكنها ستكون مثل أي قصة».

قالت هارييت: «صحيح، مثل أي قصة».

«هل أنت لورانس يوجين راتليف؟». أوقف ذلك الرجل الغريب يوجين قبل أن يصل إلى السلالم، كان رجلاً ضخماً الجثة ذا مظهر ودود: شاربته أشقر خشن، وعيناه رماديتان بارزتان قليلاً.
«إلى أين أنت ذاهب؟»

نظر يوجين إلى يديه متردداً، كان ذاهباً إلى غرفة الطفلة من جديد ليرى إن كان يستطيع أن يفهم منها شيئاً، وبالتأكيد لم يكن قادراً على قول ذلك.

سأل الرجل: «هل تمانع أن أسير معك؟»

أجاب يوجين بصوته الودود الذي لم ينفعه كثيراً اليوم: «لا مشكلة على الإطلاق!»

سارا متجاوزين السلالم وصدى خطواتهما يتردد عالياً، حتى وصلا إلى نهاية الممر البارد حيث باب الخروج.

قال الرجل وهو يفتح الباب: «أكره أن أزعجك لا سيما في مثل هذا الوقت، لكنني أرغب في التحدث معك قليلاً إذا لم يكن لديك اعتراض».

خرجوا من الممر المعتم الذي تفوح منه رائحة المواد المعقمة إلى حرارة الشمس الحارقة، دفع يوجين شعره إلى الخلف وقال: «ما الذي يمكنني فعله من أجلك؟». شعر بالإرهاق والتصلب بعد أن قضى الليل كله جالساً على كرسي، وعلى الرغم من قضاؤه وقتاً طويلاً في المستشفى، فإن شمس الظهيرة الحارقة كانت آخر ما يرغب فيه الآن.

جلس الرجل الغريب على مقعدٍ أسمنتي وأشار ليوجين أن يجلس إلى جانبه، ثم قال: «إنني أبحث عن شقيقك داني».

جلس يوجين بجانبه دون أن ينبس بكلمة، من خلال خبرته مع الشرطة كان يعلم أن الحكمة تكمن في أن يظل المرء مقتصدًا في كلامه.

لوح الشرطي بيده، وقال: «يا إلهي! الجو حار هنا، أليس كذلك؟». بحث في جيبه عن علبة السجائر، وأخرج سيجارة، ثم أشعلها دون استعجال. قال وهو ينفث الدخان من طرف فمه: «إن لشقيقك صديقًا اسمه ألفونس دي بينيفيل، هل تعرفه؟»
«أعرفه». كان ألفونس اسم كاتفيش الحقيقي.

«يبدو لي أنه شخص مشغول جدًا»، ثم أضاف الشرطي كأنه يشاركه سرًا: «إنَّ له يدًا في كل شيء سيئ يحدث هنا، أليس كذلك؟»

«لا أعلم شيئًا عن ذلك».

كان يوجين يحاول قدر الإمكان ألا يكون له أي علاقة بكاتفيش، فطبعه المتراخي المتساهل وغير المحترم لم يكن يريجه قط. لم يكن يوجين شخصًا طليق اللسان؛ فهو يرتبك دائمًا ولا يعرف كيف يجيب، كما كان يشعر أن كاتفيش يسخر منه من خلف ظهره.
«ما علاقة كاتفيش بذلك العمل الذي تقومون به هناك؟»

تجمد يوجين (في داخله). بقي جالسًا ويداه متدلّيتان بين ركبتيه، حاول أن يحافظ على تعابير وجهه ثابتة.

كبت الشرطي تنأويه، ثم مد ذراعه على ظهر المقعد. كانت لديه عادة التريبت العصبي على بطنه كأنه يريد التأكد من أن بطنه ما زال مسطحًا بعد أن نجح في إنقاص وزنه قليلًا. قال: «اسمع... نحن نعلم كل شيء عن هذا، يا يوجين! نعلم ما تفعلون هناك. لدينا الآن فريق جنائي في بيت جدتك؛ لذا كن صادقًا معي حتى لا نهدر وقتك أو وقتي».

استدار يوجين ونظر مباشرة إلى وجه الشرطي، وقال: «أنا صادق معك. لا علاقة لي بأي شيء مما هو موجود هناك، في ذلك المكان».

«ولكنك تعلم بأمر المختبر، أخبرني أين المخدرات؟»
«يا سيدي أنت تعلم عن ذلك أكثر مما أعلم، هذه هي الحقيقة».

«إذًا، دعني أخبرك بشيء آخر قد يهمك: لقد أصيب أحد رجالنا بسبب الفخاخ المنتشرة في ذلك المكان. لحسن الحظ سقط الرجل وصاح من الألم قبل أن يخطو خطوة أخرى ويتعثر بأحد تلك الأسلاك ويفجر المكان كله».

قال يوجين بعد لحظة صمت قصيرة: «فاريش لديه مشكلات عقلية، كان في المستشفى». كانت أشعة الشمس في مواجهة عينيه ما سبب له انزعاجًا شديدًا.
«صحيح، وهو أيضًا مجرم مُدان».

كان الشرطي ينظر إلى يوجين بعينين ثابتتين.
قال يوجين وهو يضع ساقًا فوق ساق بحركة متشنجة: «اسمع، أعلم ما تفكر فيه، لدي بعض المشكلات وأعترف بذلك، ولكنها كانت في الماضي. طلبت من الرب أن يغفر لي، وأدّيت ديني للولاية، وحياتي الآن ملك يسوع المسيح».

«آه، نعم»، صمت الشرطي قليلًا، ثم قال: «إذن أخبرني ما دور شقيقك داني في كل هذا؟»

«ذهب داني بالسيارة صباح أمس، وكان فاريش معه، هذا كل ما أعرفه، ولا أعرف شيئًا آخر».

تقول جدتك إنهما تشاجرا .

فكر يوجين قليلاً قبل أن يجيب: «لا أستطيع القول إنها كانت مشاجرة.» لم يكن يريد تعقيد الأمور على داني أكثر مما هي عليه. إن لم يكن داني من أطلق النار على فاريش فلا بد أن لديه تفسيراً، وإن كان هو الفاعل (وهذا ما كان يوجين يخشاه) فهذا يعني أن يوجين لن يستطيع مساعدته، لا بالقول ولا بالفعل.

قال الشرطي: «جدتك تقول إن الأمر كاد يصل إلى تبادل اللكمات. لقد فعل داني شيئاً أثار غضب فاريش».

«لم أرَ ذلك قط»، لم يكن يوجين متفاجئاً من كلام جدته، لم يكن فاريش يتركها تقترب من الشرطة قط، وهي متحيزة جداً في تعاملها مع أحفادها، قد تلوم داني ويوجين على أشياء كثيرة، لكنها دائماً ما تمدح فاريش وترفع من شأنه.

أطفأ الشرطي سيجارته: «إذاً، حسناً! أريد فقط أن أوضح أمراً، هذه مقابلة يا يوجين وليست استجواباً، لن آخذك إلى مركز الشرطة لأقرأ عليك حقوقك إلا إذا اضطررت إلى ذلك، هل نحن متفقان؟»

نظر يوجين في عيني الشرطي ثم أدار وجهه بسرعة وقال: «نعم، يا سيدي! أقدر لك هذا».

«والآن، بيني وبينك فقط.. أين تظن أن داني موجود الآن؟»
«لا أدري».

قال الشرطي بتلك النبرة الهادئة كأنه يشارك سرّاً: «سمعت أن العلاقة بينكما كانت جيدة. لا أستطيع تصديق أنه ذهب إلى مكان ما دون أن يخبرك. هل لديه أصدقاء يجب أن أعرف عنهم؟»

هل لديه صلات خارج الولاية؟ لا يمكن أن يكون قد ابتعد كثيرًا بمفرده سيرًا على الأقدام دون مساعدة».

رد يوجين: «ما الذي يجعلك تظن أنه قد رحل؟ وكيف تعلم أنه ليس مصابًا أو ميتًا في مكان ما مثلما حدث لفاريش؟»
ضم الشرطي ركبتيه وقال: «أمر لافت أن تطرح هذا السؤال لأننا اعتقلنا ألفونس دي بينيفيل هذا الصباح لنسأله نفس السؤال».

فكر يوجين في هذا التطور الجديد: «هل تظنون أن كاتفيش هو الذي فعلها؟»

قال الشرطي دون اهتمام: «فعل ماذا؟»

«أطلق النار على أخي».

ظل الشرطي صامتًا لحظة يحدق إلى الفراغ. ثم قال: «كاتفيش رجل أعمال نشيط، ولا أشك في أنه رأى فرصة لتحقيق مكاسب سريعة من خلال الاستيلاء على أعمالكم، يبدو أن هذا ما كان يخطط له، ولكن المشكلة يا يوجين أننا لا نستطيع العثور على داني، ولا نستطيع العثور على المخدرات، وليس لدينا أي دليل يشير إلى أن كاتفيش يعرف مكانها، هذا يعني أننا عدنا إلى نقطة الصفر، لهذا السبب كنت آمل أن تساعدني قليلًا».

دعك يوجين فمه، ثم قال: «آسف، يا سيدي! الحقيقة أنني لا أعلم كيف أستطيع مساعدتك».

«لا بأس! لعل من الأفضل أن تفكر في الأمر قليلًا لأننا نتحدث عن جريمة قتل كما تعلم».

فوجئ يوجين: «جريمة قتل! هل مات فاريش؟» ظل لحظة غير قادر على التقاط أنفاسه في ذلك الحر الشديد، لم يذهب إلى وحدة العناية المركزة منذ أكثر من ساعة، ترك غام وكورتيس يعودان إليها وحدهما من الكافتيريا بعد أن تناولوا حساء الخضار وحلوى الموز في حين ظل جالسًا في الكافتيريا ليشرب فنجان قهوة.

بدت الدهشة على الشرطي، ولكن يوجين لم يستطع أن يعلم إن كانت تلك الدهشة حقيقية أم مصطنعة.

قال الشرطي: «ألم تعلم؟ رأيتك قادمًا في الممر فظننت...». نهض يوجين واقفًا وبدأ يتحرك مبتعدًا عن الشرطي مرددًا: «اسمع! اسمع! لا بد لي من الدخول. ينبغي أن أكون مع جدتي وأنا...».

مد الشرطي يده قائلًا: «اذهب، اذهب! عد إليهم لتفعل ما عليك فعله».

دخل يوجين عبر الباب الجانبي، ثم توقف لحظة مذهولًا، التقت عيناه عيني ممرضة عابرة في الممر، رمقته بنظرة وقورة وهزت رأسها، وفجأة بدأ يركض وراح حذاؤه يقرع الأرض بصوت عالٍ. مرّ أمام مجموعة ممرضات فاتسعت أعينهن دهشة، وتابع نحو وحدة العناية المركزة، وسمع صوت غام قبل أن يراها؛ كان نواحًا جافًا خافتًا جعله يشعر بألم حاد في قلبه. كان كورتيس جالسًا على كرسي في الممر (بدا عليه الذعر، كان يشهق عاجزًا عن التنفس)، ورأى بين يديه دمية على شكل حيوان لم تكن معه

من قبل، كانت تمسك بيده ممرضة من «خدمات المرضى»، وتحدثه بصوت هادئ (كانت لطيفة معهم عند وصولهم إلى المستشفى، أدخلتهم مباشرة إلى وحدة العناية المركزة دون أي كلام لا معنى له). نهضت واقفة عندما شاهدت يوجين، وقالت لكورتيس: «ها هو ذا هنا! لقد عاد، يا حبيبي. لا تقلق!»، ثم ألقت نظرة نحو الغرفة المجاورة، وقالت ليوجين: «جدتك..».

مضى يوجين صوب جدته باسطة يديه، فالتصقت به وسارا في الممر معاً، كانت تبكي وتنادي فاريش بصوت غريب حاد. أمسكت الممرضة كم الدكتور بريدلوف في أثناء مروره، أومأت برأسها نحو كورتيس الذي كان يتنفس بصعوبة وقد ازرق وجهه كله، وقالت: «دكتور، لديه مشكلة في التنفس».

توقف الطبيب لحظة قصيرة، ونظر إلى كورتيس، ثم قال بصوت جاف: «إيبينيفرين». انطلقت واحدة من الممرضات مسرعة، فيما قال الطبيب لممرضة أخرى: «لماذا لم تعطوا السيدة راتليف مهدئاً؟»

لم يدر يوجين كيف ظهر الشرطي من جديد وسط تلك الممعمة كلها؛ كان هناك عاملون صحيون، وحقنة في ذراع كورتيس («هيا، يا حبيبي! سوف يجعلك هذا تتحسن كثيراً»)، وممرضتان منحنيتان فوق جدته.

قال الشرطي ليوجين رافعاً كفيه: «اسمع! افعل ما عليك فعله».

نظر كورتيس حوله وقال: «ماذا؟»

أوما الشرطي برأسه وقال: «سوف أكون في انتظارك هناك لأنني أظن أن ذهابك معي إلى مركز الشرطة سيسهل الأمر، عندما تكون مستعداً».

نظر يوجين حوله غير قادر على استيعاب ما يحدث؛ بدا كأنه ينظر إلى كل شيء من خلال سحابة، كانت جدته قد هدأت، ومضت بها ممرضتان عبر الممر البارد، فيما كان كورتيس يدعك موضع الحقنة في ذراعه، وقد زال عنه اختناقه وسعاله بأعجوبة. مد الدمية التي بين يديه نحو يوجين ليراها، فاتضح الآن أنها أرنب.

قال وهو يدعك عينيه المتورمتين بقبضة يده: «لي!» ظل الشرطي ينظر إلى يوجين كأنه يتوقع منه أن يقول شيئاً. مسح يوجين وجهه بيده وقال: «هذا أخي الأصغر، إنه متخلف، لا أستطيع أن أتركه وحده».

قال الشرطي: «لا بأس! فليأت معك! سنعثر على حلوى من أجله».

كاد يوجين يسقط عندما اندفع كورتيس إليه وطوقه بذراعيه ودفن وجهه المتسخ في قميصه.

قال كورتيس بصوت مكتوم: «حب».

ربت يوجين على ظهر كورتيس بحركة مرتبكة، وقال له: «لا بأس، يا كورتيس! لا بأس! كف عن هذا، أنا أحبك أيضاً!»

قال الشرطي بتعاطف: «ما أحلاهما! أليس كذلك؟ كان لأختي ولد لديه متلازمة داون، لم يعيش بعد عيد ميلاده الخامس عشر. ولكن، يا إلهي! كنا نحبه جميعاً، وحزنت كثيراً عندما مات».

أصدر يوجين همهمة غير مفهومة، يعاني كورتيس أمراضاً كثيرة، بعضها خطراً، ولكن هذا آخر ما يريد التفكير فيه الآن، انتبه أن عليه رؤية جسد فاريش بضع دقائق على انفراد ليصلي من أجله. لم يكن فاريش يهتم كثيراً بمصيره بعد الموت (أو حتى بمصيره على الأرض)، ولكن هذا لا يعني ألا يتلقى البركة في آخر المطاف. لقد أنعم الرب على فاريش من قبلُ برحمة غير متوقعة؛ عندما أطلقت النار على رأسه بعد حادثة البلدوزر وقال الأطباء إن الآلات وحدها هي التي تُبقيه حياً، ففاجأهم بالنهوض كما نهض أليعازر من الموت. كم عدد الناس الذين نهضوا من بين الأموات، فجلسوا وسط تلك الآلات الطبية وطلبوا أن يأكلوا البطاطا المهروسة! هل يُعقل أن ينقذ الرب روحاً من القبر ثم يلقي بها خارج رحمته؟ إن استطاع أن يرى الجثمان بعينه، فسيعرف الحالة التي كان عليها فاريش في لحظة موته، هذا ما شعر به.

قال للشرطي: «أريد أن أرى أخي قبل أن يأخذه، سوف أبحث عن الطبيب». أوما الشرطي برأسه، فاستدار يوجين ليمضي لكن كورتيس أصابه ذعر مفاجئ فأمسك يده. قال الشرطي: «تستطيع أن تتركه هنا معي، إن أحببت، وسأعتني به».

أجاب يوجين: «لا، لا مشكلة، سأخذه معي». نظر الشرطي إلى كورتيس وهز رأسه قائلاً: «عندما يحدث أمر كهذا، تكون هذه نعمة لهم. أعني أنهم لا يفهمون ما يحدث». رد يوجين: «لا أحد منا يفهمه».

جعلت الأدوية هاربيت ناعسة، سمعت نقرة على الباب: إنها تأتي. اندفعت تأتي إلى الغرفة وصاحت: «عزيزتي! كيف حال طفلي؟»

فرحت هاربيت ومدت ذراعيها محاولة النهوض، ثم بدا لها فجأة أنها في حلم وأن الغرفة خالية، فدعكت عينيها وحاولت إخفاء حيرتها.

لكن تأتي كانت هنا فعلاً، قبّلت خد هاربيت وقالت باكية: «لكنها تبدو بخير، يا إيديث! تبدو يقظة».

قالت إيدي بصوت جاف: «الحقيقة أنها تحسنت كثيراً». ثم وضعت على الطاولة كتاباً، وأضافت: «أظنك ستستمتعين بقراءته». وضعت هاربيت رأسها على وسادتها وراحت تصغي إلى أصواتهما المألوفة، وهما يتحدثان بكلام فارغ لكنه جميل ومريح. ثم وجدت نفسها فجأة في مكان آخر، في ممر ذي لون أزرق داكن، فيه قطع أثاث مغطاة بأقمشة واقية، والمطر يتساقط بغزارة.

جلست في غرفتها ذات الإضاءة الباهرة، وقالت: «تأتي». كان ذلك في وقت لاحق من اليوم نفسه، كانت أشعة الشمس قد انحرفت عن الجدار ورسمت بركة من الضوء الساطع على الأرض. اكتشفت أنهما قد غادرتا، وشعرت بدوار كأنها خرجت للتو من عرض سينمائي في الظهيرة إلى ضوء النهار الساطع، رأت على الطاولة كتاباً كبيراً أزرق اللون، كان مظهر الكتاب مألوفاً: «الكابتن سكوت»، انتعش قلبها للحظة عندما رأت الكتاب، وأرادت التأكد أنها لا تتوهم، فمدت يدها ولمسته، ثم بذلت جهداً لتجلس، على الرغم من الدوار والألم في رأسها، حاولت أن تقرأ قليلاً، لكن

هدوء غرفة المستشفى بدأ يتحول تدريجياً إلى هدوءٍ غريب كأنه من عالم آخر، وسرعان ما انتابها إحساسٌ مزعج بأن الكتاب يتحدث إليها مباشرة... إحساسٌ مرعب؛ فبعد كل بضعة أسطر كانت تظهر جملةٌ تبدو كأنها موجهة إليها بشكل شخصي، كأن الكابتن سكوت قد كتب رسائل مخفية لها بين السطور، حاولت إقناع نفسها بأن الأمر ليس كذلك، لكن الخوف استولى عليها، واضطرت إلى وضع الكتاب جانباً.

مر الدكتور بريدلوف بباب غرفتها المفتوح. توقف لحظة فراها جالسة في السرير، تبدو خائفة ومضطربة. سألتها: «لماذا أنت مستيقظة؟»، دخل الغرفة وتفحص بياناتها الطبية، كان وجهه العريض خالياً من التعبير، ثم خرج من الغرفة، وبعد خمس دقائق دخلت ممرضة مسرعة حاملة بيدها حقنة جديدة.

قالت لها عابسة: «هيا! انقلبي على بطنك». ولسبب ما بدت غاضبة من هاربيت.

أبقت هاربيت وجهها مدفوناً في الوسادة بعد خروج الممرضة، كانت بطانيته ناعمة، سمعت أصواتاً تتسلل من الممر وتطفو فوق رأسها، ثم غرقت سريعاً في خواء واسع وحزين؛ ذلك الفراغ الذي كان يطاردها في كوابيسها الأولى.

سمعت صوتاً عابساً مألوفاً يقول: «لكني لم أطلب شايًا!» كانت الغرفة الآن مظلمة، وفيها شخصان ومصباح واهن ينشر هالة من الضوء الخافت خلف رأسيهما، ثم سمعت هاربيت (ويا لانزعاجها!) صوتاً آخر لم تسمعه منذ زمن بعيد: صوت أبيها.

سمعته يقول بتهذيب مبالغ فيه يحمل في طياته شيئاً من التهكم: «ليس لديهم غير الشاي، باستثناء القهوة والعصير». «قلت لك ألا تذهب إلى الكافتيريا. هناك آلة لبيع الكوكا كولا في الممر».

«لا تشربي الشاي إن كنت لا تريدين شايًا».

ظلت هاربيت راقدة في سكون تام، وعيناها نصف مغمضتين. عندما يكون أبوها وأمها في الغرفة معاً، يصبح الجو بارداً وغير مريح، مهما بلغت درجة تهذيب كل منهما مع الآخر، فكرت ناعسة: لماذا هما هنا؟ ليت تأتي وإيدي كانتا مكانهما! ثم شعرت بصدمة عندما أدركت أن والدها قد ذكر اسم داني راتليف.

قال: «أليس هذا أمراً في غاية السوء؟ كان الناس جميعاً يتحدثون عنه في الكافتيريا». «عن ماذا؟»

«داني راتليف، صديق روبين الصغير. ألا تتذكرينه؟ كان يأتي أحياناً ويلعب في فناء بيتنا».

فكرت هاربيت: صديق؟

أصبحت الآن مستيقظة تماماً، وبدأ قلبها يخفق بقوة جعلتها تبذل جهداً كي لا ترتعش. ظلت مستلقية في السرير، عيناها مغمضتان، وأصغت باهتمام. سمعت والدها يتناول رشفة من قهوته، ثم واصل كلامه: «جاء إلى بيتنا في وقت لاحق، صبي صغير أشعث. ألا تتذكرين؟ قرع الباب وقال إنه آسف لأنه لم يحضر الجنازة؛ إذ لم يجد من يوصله».

ذُمرت هاربيت، وقالت في نفسها: ولكن هذا غير صحيح، كان كل منهما يكره الآخر، أيدا قالت لي هذا.

«أوه، نعم!» صوت أمها أصبح أكثر حيوية، وحمل في طياته شيئاً من الألم. «يا له من مسكين! أتذكره. هذا خبرٌ سيئٌ جداً». تتهد والد هاربيت وقال: «أمرٌ غريب! أشعر كأنهما كانا يلعبان في فناء بيتنا يوم أمس، هو وروبين» ظلت هاربيت مستلقيةً، متيبهةً من الصدمة، وقد هالها ما سمعت!

قالت أمها: «أمر مؤسف جداً! انزعجتُ كثيراً عندما سمعت منذ مدة أنه بدأ يتورط في المتاعب».

«في عائلةٍ مثل عائلته، لا بد أن يحدث هذا».

«ليسوا سيئين كلهم، رأيت روي دايال في الممر، فقال لي إن أحد أشقائه أتى إلى هذه الغرفة ليطمئن على هاربيت».

«أوه، هل أتى فعلاً؟»، تناول والدها رشفة جديدة من قهوته، وتابع: «أتظنين أنه يعلم من تكون؟»

«لن يفاجئني أن يعلم، لعل هذا ما جعله يدخل غرفتها!»

تحول الكلام بينهما إلى أمور أخرى، في حين ظلت هاربيت دافئة رأسها في الوسادة دون أي حركة (جمّدها الذعر). لم يخطر ببالها قطّ أنها قد تكون مخطئة في شكوكها حول داني راتليف، ماذا إن لم يكن هو الذي قتل روبين؟

لم تكن مستعدةً لذلك الرعب الأسود الذي انقض عليها عندما فكرت في هذا كأنه فخ يكاد يُطبق عليها. سارعت إلى محاولة دفع الفكرة جانباً وإبعادها عن ذهنها. داني راتليف مذنب، وهي تعلم ذلك، وهي متأكدة من ذلك. إنه التفسير الوحيد الذي يمكن

أن يكون منطقيًا، هي تعلم ما فعله، حتى لو لم يعلم أحدٌ سواها. مع ذلك حاصرتها الشكوك فجأة؛ شكوكٌ قويةٌ لا تُطاق، جعلتها تلك الشكوك تسقط في هوةٍ من الذعر العميق، فحاولت تهدئة نفسها، داني راتليف قتل شقيقها، وهي تعلم أن هذا صحيح، يجب أن يكون صحيحًا. لكنها حاولت أن تتذكر بالضبط كيف علمت بذلك، فاكتشفت أن الأسباب لم تعد واضحةً في ذهنها كما كانت من قبل، حاولت أن تتذكرها لكنها لم تستطع.

عضّت هاربيت باطن خدّها وهي تتساءل: لماذا كانت على يقين تام بأنه قاتل أخيها؟ في لحظة من اللحظات كانت متأكدة تمامًا. كانت الفكرة تبدو لها منطقية، وهذا ما يهم، لكن ذلك الخوف الذي يصيبها بالغثيان ظل قريبًا منها (مثل طعم القذارة العالق في فمها)، ولن يتركها أبدًا. لماذا كانت واثقة إلى هذا الحد؟ نعم، آيدا أخبرتها بأشياء كثيرة، لكن تلك الحكايات لم تعد تبدو مقنعة تمامًا (المشاجرات، والدراجة المسروقة). ألم تكن آيدا تكره هيلي دون سببٍ واضح؟ ألم تكن تغضب منه نيابة عن هاربيت كلما تشاجرا دون أن تهتم بمعرفة من بدأ المشاجرة؟ لعلها كانت مُحقة! لعله هو الذي فعلها! ولكن كيف لها الآن أن تعلم وأن تكون واثقة؟ انتابها إحساس بالغثيان عندما تذكرت يده البارزة من المياه الخضراء.

قالت في نفسها: لماذا لم أسأله؟ لقد كان هناك.

ولكنها لم تفعل! كانت مرعوبة لدرجة أنها لم تستطع مواجهته، ولم تكن تريد سوى الهروب منه.

نهضت أمها فجأة وقالت: «أوه، انظري، لقد استيقظت هاربيت»
تجمدت هاربيت في مكانها؛ لقد انغمست في أفكارها لدرجة أنها
نسيت أن تبقي عينيها مغمضتين.

«انظري من أتي، يا هاربيت!»

نهض والدها واقترب من سريرها، وعلى الرغم من الإضاءة
الخافتة في الغرفة، فقد لاحظت هاربيت أن وزنه قد ازداد منذ
آخر مرة رآته فيها.

قال لها: «لم تري بابا المعجوز منذ وقت طويل، أليس كذلك؟»
كان يحب أن يطلق على نفسه هذا اللقب عندما يكون في مزاج
جيد، ثم سألها: «كيف حال فتاتي الصغيرة؟»

أجبرت هاربيت نفسها على تحمل القبلة التي طبعها على
جبينها ولمسة يده السريعة على خدها؛ هذه كانت طريقته
المعتادة في ملاطفتها، لكنها كانت تمقتها بشدة، لا سيما أنها
اليد نفسها التي كانت تصفعها أحياناً عندما يغضب.

قال لها: «كيف حالك؟» شمت رائحة السيجار التي تفوح منه.
«لقد حيّرت الأطباء، ولكن هذا جيد، يا فتاتي!» قال ذلك
كأنها حققت إنجازاً أكاديمياً عظيماً أو فازت ببطولة رياضية.
كانت أمها تحوم فوقها قلقة: «لعلها غير راغبة في الكلام يا
ديكس!»

قال والدها دون أن يلتفت: «لا بأس! ليست مضطرة إلى الكلام
إن لم تكن راغبة فيه.»

نظرت إلى وجه أبيها المحمر الممتلئ، وإلى عينيهِ السريعتين
دقيقتي الملاحظة، فشعرت برغبة شديدة في سؤاله عن داني
راتليف، لكنها خافت.

قال والدها: «ماذا؟»

قالت هارييت: «أنا لم أقل شيئاً». فاجأها صوتها، كان واهياً وخشناً.

نظر إليها بعينين دافئتين: «لا، ولكنك هممت بقول شيء، فما هو؟»

همست والدتها بصوت منخفض: «دعها وشأنها يا ديكس!»
أدار والدها رأسه سريعاً دون أن يقول شيئاً بطريقة تعرفها هارييت حق المعرفة.

قالت أمها: «لكنها متعبة!»

قال والدها بتهذيب مبالغ فيه: «أعلم أنها متعبة، وأنا متعب أيضاً، قُدت السيارة ثماني ساعات لأصل إلى هنا، والآن تطلبين مني ألا أكلمها!»

حين انصرفا أخيراً (وقت الزيارة ينتهي عند التاسعة مساءً)، تملك هارييت خوف شديد من العودة إلى النوم، جلست في سريرها وعيناها معلقتان بالباب خشية أن يعود إليها الواعظ، لم تكن زيارة والدها المفاجئة أقل مدعاة للاضطراب، لا سيما في ظل التهديد الجديد الذي طرحته فكرة الانتقال إلى ناشفيل، بيد أن ذلك كله بات الآن أهون ما يقلقها؛ إذ من يدري ما قد يفعله الواعظ بعد أن مات داني راتليف؟

ثم تذكرت خزانة الأسلحة في البيت فغار قلبها بين ضلوعها، لا يتفقد والدها تلك الخزانة كلما أتى إلى البيت (لا يتفقدوها عادة إلا في موسم الصيد)، ولكن إن تفقدوها هذه المرة، فسيكون

ذلك من حظها العاثر، ربما كان إلقاء المسدس في النهر خطأ فادحًا؛ لو أن هيلي أخفاه في الفناء، لكان في مقدورها إعادته إلى مكانه، لكن الألوان قد فات.

لم تفكر قطّ في أنه سيعود بهذه السرعة، وبطبيعة الحال هي لم تصب أحدًا بذلك المسدس (لسبب ما تتسى دائمًا هذه الفكرة) وإن كان هيلي صادقًا فقد صار المسدس الآن في قاع النهر، إذا تفقد والدها الخزانة ولاحظ أن المسدس مفقودًا، فلن يستطيع الربط بين اختفائه وبينها.

لكن ماذا عن هيلي؟ بالكاد أخبرته بجزء من الحقيقة (وهو أمر في صالحها)، ولكنها خشيت أن يكثر التفكير في البصمات؛ ماذا لو أدرك أخيرًا أنه لا شيء يمنعه من الوشاية بها؟ ربما سيمضي بعض الوقت قبل أن يستوعب أن الأمر لن يكون سوى كلمته مقابل كلمتها.

الناس غافلون، لا يعيرون الأمور اهتمامًا، وسرعان ما ينسون، وعما قريب سيكون أي أثر لها قد تلاشى. ألم يكن هذا ما حدث بعد مقتل روبين؟ لقد اختفت الدلائل كلها، عندها خيّم على عقلها فكرة بشعة: أن قاتل روبين (أيًا كان) لا بد أن يكون قد فكر، في لحظة من اللحظات بالطريقة ذاتها.

قالت لنفسها وهي تحديق إلى غطاء السرير: لكني لم أقتل أحدًا؛ لقد غرق، ولم يكن بوسعي الحيلولة دون ذلك.

في تلك اللحظة دخلت الممرضة إلى الغرفة لتطمئن عليها وسألتها بلطف: «هل تحتاجين إلى شيء يا عزيزتي؟»

ظلت هارييت ساكنة تمامًا، ويدها على فمها وعيناها تحدقان إلى غطاء السرير الأبيض حتى انصرفت الممرضة. لم تقتل أحدًا، ولكنها مذنبية في موته، ومن المحتمل ألا يكون قد آذى روبين إطلاقًا.

كان مجرد التفكير في ذلك يصيبها بالغثيان، حاولت أن تصرف ذهنها إلى شيء آخر، لقد فعلت ما كان ينبغي عليها فعله، ومن السخف أن تبدأ الشك في نفسها بعد أن بلغت هذه المرحلة. فكرت في القرصان العائم في المياه الدافئة قرب سفينة هيسبانيولا، حيث كان سطح المياه الساكن يخفي تحته رعبًا غامضًا وسماوات زائفة وهذيانًا شديدًا. السفينة ضاعت، وقد حاولت استعادتها وحدها، كانت على وشك أن تصبح بطلة، لكنها الآن خشيت أنها لم تكن بطلة قط، بل شيئًا مختلفًا تمامًا.

في النهاية حين تعصف الرياح وتخفق جدران الخيمة فوق تلك الشمعة الوحيدة التي تتراقص شعلتها في تلك القارة المفقودة، كتب الكابتن سكوت عن فشله بأصابع خدرة في دفتره الصغير. كان شجاعًا حين سعى لتحقيق المستحيل حين وطأ مركز العالم الميت الذي لم يبلغه أحد قبله. لكنه فعل ذلك عبثًا. تحطمت أحلامه كلها، ولا شك أنه شعر بحزن غامر وهو هناك في الحقول الجليدية تحت الأضواء القطبية، بعد أن ضاع إيفانز وتيتوس أوتيس تحت الثلوج الكثيفة، وبعد أن استسلم بيردي والدكتور ويلسون للموت راقيدين في أكياس النوم يحلمان بسهولة خضراء.

حدقت هاربيت إلى تلك العتمة الموحشة المشبعة برائحة
المطهرات بعينين لا تريان شيئاً. كان هناك ثقل يجثم على
صدرها، وظلمة تملأ وجدانها. علمت أموراً ما كان لها أن تعلمها،
أموراً لم يخطر لها يوماً أنها ستعرفها.
وفي تلك اللحظة بدا كأن الكابتن سكوت يهمس لها من أعماق
الجليد برسالة غامضة: أحياناً النصر والانهيار وجهان لعملة
واحدة.

استيقظت هاربيت في ساعة متأخرة بعد نوم قلق على وصول
صينية الإفطار الكثيبة: جيلاتين بالفاكهة، وعصير تفاح، وطبق
صغير من الأرز الأبيض المسلوق. كانت ليلتها حافلة بالأحلام
المزعجة، رأت فيها والدها واقفاً عند سريرها، وجهه متجهماً،
يذرع الغرفة بخطوات غاضبة، ويوبخها لأنها كسرت شيئاً يخصه.
ثم أدركت مكان وجودها فتقلصت معدتها خوفاً، دعت عينيها
حائرة، ثم انتصبت جالسة وتناولت الصينية. رأت إيدي جالسة
على كنبه عند سريرها تحتسي القهوة (ليست قهوة المستشفى
الرديئة، بل قهوتها الخاصة التي أحضرتها معها في ذلك الترمس
المزخرف)، وتطالع صحيفة الصباح.

قالت لها: «أوه، جيد! لقد استيقظت، ستأتي والدتك بعد
قليل». كان مظهرها نضراً وطبيعياً تماماً. حاولت هاربيت أن تبعد
عنها ذلك الإحساس بالضيق؛ لم يتغير أي شيء في أثناء الليل،
أليس كذلك؟

قالت إيدي: «عليك أن تتأولي فطورك، هذا يوم مهم يا هارييت؛ فبعد أن يفحصك اختصاصي الأعصاب قد يسمحون لك بمغادرة المستشفى عصر اليوم».

بذلت هارييت جهداً لتظل تعابير وجهها ثابتة، لا بد لها من التظاهر بأن كل شيء على ما يرام، وعليها أن تقنع اختصاصي الأعصاب بأنها في أفضل حال، حتى لو اضطرت إلى الكذب. كان من الضروري أن يسمحوا لها بالعودة إلى المنزل، وأن تهرب من هذا المكان قبل أن يعود الواعظ إلى غرفتها أو قبل أن يكتشف أحد ما جرى. لقد قال لها الدكتور بريدلوف شيئاً عن الخس غير المغسول، وعليها أن تتعلق بهذه الرواية، وتبقيها في ذهنها، وتكررها إذا سئلت. يجب أن تحول دون أن يربط أحد بين مرضها وبين خزان الماء.

استجمعت قوتها لتبعد تفكيرها عن هذا الأمر، وأجبرت عقلها على التركيز على صينية الإفطار، ستتأول هذا الأرز كأنها في رحلة إلى الصين، قالت في نفسها: ها أنا ذي هنا! أنا ماركو بولو! أتأول إفطاراً مع قوبلاي خان! لكني لا أعرف أن أكل بهذين العودين؛ لذا سأتناول طعامي بهذه الشوكة.

عادت إيدي إلى قراءة صحيفتها. نظرت هارييت إلى الصفحة الأولى فتوقفت الشوكة في منتصف الطريق بين الطبق وفمها؛ قرأت العنوان: العثور على المشتبه فيه في جريمة القتل. في الصورة كان هناك رجلان يحملان جسداً مرتخياً مبللاً بالكامل، يمسكان به من تحت إبطيه، وجهه أبيض كأنه شبح، وشعره الطويل ملتصق بجانبه رأسه؛ وجهه تشوهت معالمه فبدا أشبه

بتمثال شمعي يذوب أكثر منه بوجه بشري حقيقي: كانت هناك فجوة سوداء معوجة مكان فمه، ومحجراه خاويان مثل جمجمة، لكن على الرغم من هذا التشوه الرهيب، لم يكن ثمة مجال للشك: إنه داني راتليف.

انتصبت هاربيت جالسة في السرير ومالت برأسها جانباً محاولة قراءة المقالة من مكانها، قلبت هاربيت الصفحة. لاحظت إيدي نظرة هاربيت والزاوية الغريبة التي أمالت بها رأسها، فوضعت الصحيفة من يدها وقالت بصوت حادّ: «هل تشعرين بالغثيان؟ هل تريدين أن أعطيك الوعاء كي تتقيئي؟» «هل أستطيع رؤية الصحيفة؟» «بالأكيد».

قلب إيدي الصفحات وناولت هاربيت صفحة الرسوم الكاريكاتيرية، ثم عادت إلى القراءة. قالت: «سوف يرفعون الضرائب في مدينتنا مجدداً، لا أدري ماذا سيفعلون بكل هذه الأموال، لكنني متأكدة أنهم سيبنون مزيداً من الطرق التي لن ينهوا العمل بها أبداً».

حدقت هاربيت غاضبة إلى الصفحة التي أعطتها إياها جدتها، لكنها لم تكن تراها فعلياً. يقولون إنهم عثروا على المشتبه فيه! إن كان داني راتليف هو المقصود بهذا الكلام، وإن كانوا يستخدمون تعبير «مشتبه فيه» فهذا يعني أنه لا يزال حياً، أليس كذلك؟

استرقت نظرة أخرى إلى الصحيفة؛ لكنها وجدت أن جدتها طوتها فلم تعد الصفحة الأولى مرئية، وبدأت تحل الكلمات

المتقاطعة، وقالت: «سمعت أن والدك زارك الليلة الماضية، كيف كان ذلك؟»، كانت في صوتها تلك البرودة التي تتسلل إليها كلما ذكرت والد هاربيت.

«لا بأس!»، كانت هاربيت جالسة في سريرها (نسيّت إفطارها) تحاول إخفاء اضطرابها، ولكنها شعرت بأنها قد تموت إذا لم تر تلك الصفحة الأولى، إذا لم تعلم ما جرى.

قالت في نفسها: إنه لا يعرف اسمي! على الأقل لا تظنه يعرف اسمها، ولو كان اسمها مذكوراً في الصحيفة، لما ظلت أيدي جالسة أمامها هادئة هذا الهدوء كله مشغولة بحل الكلمات المتقاطعة.

عادت تقول في نفسها: لقد حاول إغراقي! من المستبعد جداً أن يتكلم عن هذا الأمر.

استجمعت شجاعته بعد مدة طويلة، وقالت: «أيدي، من يكون ذلك الرجل الذي وضعوا صورته في الصفحة الأولى؟»

قلبت أيدي الصحيفة ونظرت إلى الصورة وقالت: «أوه، هذا! لقد قتل أحدهم، كان مختبئاً من الشرطة في خزان المياه لكنه علق هناك وكاد يغرق، أظنه كان مسروراً جداً عندما أتى من يخرج من الماء». نظرت لحظة إلى الصحيفة «هناك أشخاص من عائلة راتليف يعيشون خلف النهر، أتذكر رجلاً عجوزاً اسمه راتليف عمل بعض الوقت في تربيوليشن. كنت وتاتي نخشاه كثيراً لأن فمه دون أسنان أمامية».

قالت هاربيت: «ماذا فعلوا به؟»

«من تعنين؟»

«ذلك الرجل».

عادت إيدي إلى الكلمات المتقاطعة، وقالت: «اعترف بأنه قتل شقيقه، كانوا أيضًا يبحثون عنه بتهمة تتعلق بالمخدرات؛ لذا أظنهم اقتادوه إلى السجن».

«السجن! هل يقولون هذا في الصحيفة؟»

قالت إيدي بصوت فرح: «أوه، سوف يخرج عما قريب، لا شك في هذا، لا يكادون يمسكون بهؤلاء المجرمين حتى يطلقون سراحهم مجددًا. ألا تريدان أن تتناولتي إفطارك؟»، لم تكن هاربيت قد لمست طعامها بعد.

تظاهرت هاربيت بالعودة إلى أكل الأرز، وكانت تقول في نفسها: إن كان لم يمض، فأنا لست قاتلة! أنا لم أفعل شيئاً... أم إنني فعلت؟

حاولت التركيز على الصينية أمامها، ولكن عقلها كان يجول ويصول كأنه حيوان حبيس. قفزت إلى ذهنها فكرة مخيفة فصاحت بصوت عالٍ: «هل هو مريض؟»

قالت إيدي منزعة دون أن ترفع نظرها عن الكلمات المتقاطعة: «من؟ هل تعنين ذلك الفتى؟ أنا لا أومن بكل هذا الهراء عن أن المجرمين مرضى».

في تلك اللحظة دق أحدهم باب الغرفة دقات قوية ثم فتحه ودخل، فأجفلت هاربيت في سريرها حتى كادت صينية الطعام تسقط.

قال الرجل وهو يمد يده للسلام على إيدي: «مرحبًا! أنا الدكتور باكستر»، ومع أنه بدا شابًا (أصغر سنًا من الدكتور

بريدلوف)، فقد كان الشعر في أعلى رأسه خفيفاً. كانت معه حقيبة طبية جلدية سوداء على الطراز القديم، بدت ثقيلة جداً، أكمل: «أنا اختصاصي الأعصاب».

نظرت إيدي مرتابة إلى حذائه: حذاء رياضي ثخين العقبين، له حافة من جلد أزرق، شيء يشبه الأحذية التي يستخدمها فريق الجري في المدرسة الثانوية.

قال الطبيب وهو يفتح حقيبته ويبدأ البحث فيها: «فوجئت لأنها لا تمطر عندكم. انطلقت بالسيارة من جاكسون منذ الصباح الباكر».

قالت إيدي بحماس وهي لا تزال تنظر إلى حذائه: «أنت الشخص الوحيد الذي لم يجعلنا ننتظر طيلة النهار».

قال الطبيب بلهجة هادئة: «عندما غادرت منزلي في السادسة صباحاً، أخبروني بأن عاصفة رعدية عنيفة ستضرب وسط ولاية ميسيسيبي. وكان المطر هناك غزيراً إلى درجة لا تُصدق» ثم بسط على الطاولة بجانب السرير قطعة قماش رمادية مثلثة الشكل، وراح يرتب عليها بتأن مصباحاً صغيراً ومطرقة فضية اللون وجهازاً أسوداً فيه مؤشرات دقيقة.

أضاف: «قدت السيارة عبر طقس مخيف حتى وصلت إليكم، وقد مرت أوقات خشيت فيها أن أضطر إلى العودة».

قالت إيدي بتهذيب: «عجباً!»

رد الطبيب: «لحسن الحظ، تمكنت من الوصول. كانت الطرق قرب فايدن في حالة سيئة جداً..» ثم التفت ولاحظ التعبير الغريب على وجه هاربيت. فقال: «يا إلهي! لماذا تنظرين إليّ

بهذه الطريقة؟ لا تخافي، لن أؤذيكَ» نظر إليها لحظة ثم أغلق حقيبته بهدوء.

ثم قال: «سأبدأ بطرح بضعة أسئلة عليك» تناول لوحة البيانات الطبية المعلقة على السرير ونظر إليها. كان صوت أنفاسه مسموع بوضوح في هدوء الغرفة.

رفع رأسه وسأل هاريت: «ما رأيك؟ ألسن خائفة من الإجابة عن بعض الأسئلة؟»
«لست خائفة».

قال الطبيب: «حسنًا، ستكون الأسئلة بسيطة جدًا» ثم جلس على حافة السرير وأضاف: «ستتمنين لو كانت أسئلة الامتحانات المدرسية بهذه السهولة. ما اسمك؟»

«هاريت كليف دو فريسنس».

«جيدًا كم عمرك، يا هاريت؟»

«اثنا عشر عامًا ونصف».

«متى يكون عيد ميلادك؟»

طلب من هاريت أن تعد من العشرة إلى الصفر، ثم طلب منها أن تبتسم، ثم أن تعبس، ثم أن تمد لسانها. قال لها أن تتابع حركة إصبعه بعينيها دون أن تحرك رأسها، وكانت هاريت تفعل مثلما يقال لها؛ ترفع كتفيها وتمس أنفها بإصبعها، وتثني ركبتيها ثم تفردهما، ظلت طيلة الوقت حريصة على ثبات تعبير وجهها وعلى هدوء تنفسها.

قال الطبيب: «والآن، هذا الجهاز يُسمى منظار العين». شمت هاريت رائحة كحول قوية، لكنها لم تعرف إن كانت رائحة معقم لليدين أم شيئًا آخر.

«لا داعي للقلق، هذا الجهاز لا يفعل سوى إلقاء ضوء ساطع على عصبك البصري لتحقيق من وجود أي ضغط على دماغك». ظلت هاربيت تحقق أمامها دون أن تحرك عينيها، راودتها فكرة مزعجة: إذا كان داني راتليف لم يمت، فكيف ستمكن من منع هيلي من الكلام عمّا حدث؟ إذا اكتشف هيلي أن داني لا يزال حيًا، فلن يبقى مهتمًا ببصمات أصابعه على المسدس، وسيشعر بالحرية في قول كل ما يعرفه دون خوف من الكرسي الكهربائي. كانت واثقة بأنه سيرغب في الكلام، وعليها أن تجد طريقة لإسكاته!

لكن الطبيب لم يكن صادقًا تمامًا؛ فقد أصبحت الاختبارات أكثر إزعاجًا، أدخل عودًا في حلقها جعلها تشعر بالغثيان، وقرب كرات قطنية من عينيها ليجعلها ترمش، ثم ضرب بمطرقته الصغيرة فانتشر ألم لاذع في أجزاء مختلفة من جسدها. كان يريد أن يرى ردود فعلها على تلك المحفزات. كانت إيدي واقفة إلى جانب السرير، ذراعاها متقاطعتان على صدرها، تراقبه باهتمام. قالت له: «تبدو أصغر من أن تكون طبيبًا!»

لم يجبها الطبيب بشيء، بل ظل مشغولًا بوخز هاربيت بدبوس في يده. سألها: «هل تشعرين بهذا؟»

كانت هاربيت (وعيناها مغمضتان) تتلململ وهو يجرب الدبوس على جبهتها ثم على وجنتها، على الأقل لم يعد المسدس موجودًا، ليس لدى هيلي أي دليل أنها طلبت منه الذهاب إلى الخزان لأخذه، عليها أن تذكر نفسها بأن الأمور -على الرغم من سوءها- لا تزال كما هي: كلمتها مقابل كلمته.

ولكنه سيطرح أسئلة كثيرة؛ سيرغب في معرفة كل شيء، كل ما حدث عند الخزان؛ فماذا ستقول له؟ هل تقول له إن داني راتليف أفلت منها وإنما لم تفعل ما كانت تعتزم فعله؟ أم ستقول شيئاً أسوأ: أنها ربما كانت مخطئة منذ البداية، وأنها لا تعرف حقاً من قتل روبين؟ هل ستقول إنها لا تعلم شيئاً على الإطلاق؟ انتابها ذعر مفاجئ: لا! هذا ليس حسناً! لا بد لي من التفكير في شيء آخر.

قال الطبيب: «ماذا؟ هل آلمتك؟»

قالت إيدي: «هذه علامة حسنة، إن كنت تشعرين بالألم».

ربما! فكرت هاربيت وهي تنظر إلى السقف وتشد على شفيتها فيما كان الطبيب يمرر شيئاً حاداً على أسفل قدمها، ربما كان داني راتليف هو من قتل روبين بالفعل، وإذا كان الأمر كذلك فهذا يسهل عليها الموقف، بالتأكيد سيكون هذا أسهل ما يمكن أن تقوله لهيلي؛ ستخبره أن داني اعترف لها بذلك في النهاية (ربما كان اعترافاً عفوياً، أو ربما لم يقصد قوله أصلاً). وربما تضيف أنه توسل إليها طالباً الصفح، بدأت احتمالات كثيرة تتفتح أمامها مثل زهور سامة، يمكنها أن تقول إنها أظهرت رحمة نحو داني راتليف، وأنها تركت حياته معلقة بخيط رفيع، وأنها شعرت بالشفقة عليه في النهاية وتركته في خزان المياه ليجد من ينقذه.

نهض الطبيب وقال: «لم يكن ذلك مزعجاً جداً، أليس كذلك؟»

سارعت هاربيت إلى القول: «هل أستطيع الآن أن أذهب إلى

البيت؟»

ضحك الطبيب وقال: «ليس بهذه السرعة، سوف أخرج الآن

إلى الممر كي أتحدث قليلاً مع جدتك. هل يزعجك هذا؟»

نهضت إيدي واقفة، سمعتها هاربيت تقول في أثناء خروجهما من الغرفة: «هذا ليس التهاب كبد، أليس كذلك؟»
«لا، يا سيدتي!»

«هل أخبروك بأمر الإسهال والتقيؤ؟ والحمى أيضًا؟»
ظلت هاربيت جالسة في فراشها هادئة. كانت تستطيع سماع صوت الطبيب في الممر، وكانت حريصة على معرفة ما سيقوله عنها، لكن صوته كان بعيدًا وغامضًا، كان منخفضًا جدًا فلم تستطع فهم ما يقال. نظرت إلى يديها الممدودتين على الفطاء الأبيض للسريـر: داني راتليف حي. وعلى الرغم من أنها لم تكن لتتصور هذا قبل نصف ساعة فقط، فإنها الآن تشعر بالارتياح، حتى لو كان هذا يعني أنها فشلت فهي سعيدة، وإن كان ما أرادت تحقيقه مستحيلًا منذ البداية فإن هناك راحة في معرفة أنها حاولت بكل ما أوتيت من قوة.

قال بمبرتون: «أمر عجيب!» ابتعد عن الطاولة قليلًا حيث كان جالسًا يأكل شريحة من فطيرة بالكريما، وأضاف: «لقد ظل هناك يومين كاملين، مسكين! حتى لو كان قتل شقيقه».
رفع هيلي رأسه عن طبق حبوب الفطور ونظر إليه، تمكن (بجهد هائل) من إبقاء فمه مطبقًا.

هز بمبرتون رأسه، كان شعره لا يزال مبللًا بعد الاستحمام، وقال: «تخيل أنه لا يعرف السباحة! ظل يومين كاملين يقفز محاولاً إبقاء رأسه فوق الماء. هذا يذكرني بقصة قرأتها عن الحرب العالمية الثانية؛ عندما سقطت طائرة في المحيط

الهادئ، وبقي الناجون في الماء لأيام محاطين بأسماك القرش. لا يمكنك النوم، عليك أن تستمر في السباحة وأن تبقى متيقظًا حتى لا تقترب منك أسماك القرش وتهش ساقك».

نظر إلى الصورة في الصحيفة وارتجف، ثم قال: «يا له من مسكين! يومان كاملان في ذلك المكان القذر كأنه جرد وقع في دلو، من الحماسة أن تختبئ هناك إن كنت لا تعرف السباحة!»
لم يعد هيلي قادرًا على الصمت، فقال: «لم يحدث الأمر هكذا».

رد بمبرتون بضجر: «بالطبع، كأنك تعرف كل شيء».
راح هيلي يؤرجح ساقيه متحمسًا، انتظر حتى يرفع شقيقه عينيه عن الصحيفة ليكمل حديثه.
قال أخيرًا: «إنها هاربيت، هي التي فعلت هذا».
«هممم!»

«إنها هي، هي التي دفعته إلى الماء».
نظر بمبرتون إليه، وقال: «كيف دفعته؟ من الذي دفعته هاربيت؟ هل تعني داني راتليف؟»
«بالتأكيد؛ هذا لأنه قتل شقيقها».

نخر بمبرتون مستكرًا، وقال وهو يقلب الصفحة: «داني راتليف لم يقتل روبين إلا إذا كنت أنا فعلت ذلك، كنا جميعًا في نفس الصف في المدرسة»

قال هيلي بنبرة واثقة: «لقد قتله، لدى هاربيت دليل على هذا».

«أوه، حقًا؟ أي دليل؟»

«لا أدري، أمور كثيرة، ولكنها قادرة على إثبات ذلك».

«بالتأكيد».

أضاف هيلي، الذي لم يعد قادرًا على ضبط نفسه: «على أي حال، لقد لحقت بهما هناك وطاردهما حاملة مسدسًا، أطلقت النار على فاريش راتليف، ثم أجبرت داني راتليف على الصعود إلى خزان المياه والقفز فيه».

قلب بمبرتون الصحيفة على ظهرها، ونظر إلى رسوم الكاريكاتير وقال: «أظن أن ماما سمحت لك بأن تبالغ كثيرًا في شرب الكوكا كولا».

قال هيلي بغضب: «إنها الحقيقة! أقسم على هذا لأن..» ثم تذكر فجأة أنه لا يستطيع أن يشرح كيف عرف كل هذا، فأخفض رأسه.

قال بمبرتون: «إن كان لديها مسدس، فلماذا لم تطلق النار على الاثنين وتنتهي من الأمر كله؟» دفع الطبق جانبًا ونظر إلى هيلي كأنه ينظر إلى شخص معتوه تمامًا، ثم قال: «كيف تستطيع هاربيت أن تجعل داني راتليف يصعد إلى ذلك الخزان؟ داني راتليف شخص قوي، حتى لو كانت تحمل مسدسًا، فهو قادر على انتزاعه منها في ثانيتين فقط. بل هو قادر على انتزاع المسدس مني في ثانيتين! إن كنت تحب اختلاق الأكاذيب يا هيلي، فعليك أن تبذل جهدًا أكبر من هذا».

قال هيلي بعناد وهو يحدق إلى طبق حبوب الإفطار: «لا أعرف كيف فعلت ذلك، لكنها فعلته. أنا متأكد من ذلك».

«اقرأ هذا بنفسك!» دفع إليه الصحيفة، وأضاف: «انظر كم أنت ساذج. كانت لديهم مخدرات أخفوها في ذلك الخزان، وكانا يتقاتلان من أجلها، عثروا على مخدرات عائمة على سطح الماء، وهذا ما جعلهما يصعدان أصلاً».

بذل هيلي جهداً كبيراً ليظل صامتاً. وفجأة، أدرك أنه قال أشياء كثيرة لم يكن ينبغي له أن يقولها.

قال بمبرتون: «ثم إن هاربيت في المستشفى، وأنت تعلم هذا يا غبي!»

رد هيلي بغضب: «وماذا لو كانت قد ذهبت إلى الخزان حاملة المسدس؟ ماذا لو نشب عراك بينها وبين هذين الاثنين ثم أصيبت؟ ماذا لو تركت المسدس هناك؟ ماذا لو طلبت من أحدهم أن يذهب و...»

قال بمبرتون: «لا، هاربيت في المستشفى لأنها مصابة بالصرع؛ الصرع...» ثم نقر على جبهته وقال: «يا غبي!»

سمعا صوت أمهما من عند الباب: «أوه، يا بمبرتون!» كانت قد جففت شعرها للتو وارتدت فستان تنس قصيراً يظهر ساقها اللتين لوحتهما الشمس، ثم قالت: «لماذا تخبره بهذا؟» قال بمبرتون بتجهم: «لم أكن أعلم أن عليّ ألا أخبره».

«قلت لك لا تخبره».

«آسف، نسيت».

كانت عينا هيلي تتقلان حائرتين بينهما.

قالت الأم وهي تجلس إلى الطاولة معهما: «هذه وصمة عار لأي طفل في المدرسة، سيكون أمراً فظيئاً بالنسبة إليها إذا انتشر الخبر بين الأطفال».

تناولت شوكة بمبرتون وقضمت لقمة كبيرة من بقية الفطيرة، ثم أضافت: «أقول هذا على الرغم من أن سماع الخبر لم يفاجئني. ولم يفاجئ والدك أيضًا، وهذا يفسر الكثير!»
سأل هيلي بصعوبة: «ما هو الصرع؟ هل يعني أن الإنسان يصبح مجنونًا؟»

سارعت أمه إلى القول وهي تضع الشوكة من يدها: «لا، يا فستق! لا، لا، لا، هذا غير صحيح. إياك أن تقول هذا! يعني الصرع أنها تفقد وعيها أحيانًا، تأتيها نوبات، مثل..»
قال بمبرتون: «مثل هذه»، قلّد حالة الصرع فمد لسانه وجحظت عيناه وراح يشد شعره.
«كف عن هذا، يا بمبرتون!»

قال بمبرتون: «رأت أليسون ذلك كله، قالت إن النبوة استمرت نحو عشر دقائق».

لاحظت والدة هيلي ذلك التعبير الغريب الذي ظهر على وجه هيلي فربتت على يده وقالت له: «لا تقلق يا عزيزي! الصرع ليس خطرًا».

قال بمبرتون: «إلا إذا كنت تقود سيارة أو طائرة».
رمقته أمه بنظرة صارمة على غير عاداتها.
نهضت وقالت: «أنا الآن ذاهبة إلى النادي. قال والدك إنه سيأخذك اليوم لتتدرب مع الفرقة، ولكن إياك يا هيلي أن تخبر رفاقك في المدرسة بهذا الأمر! وأيضًا لا تقلق على هاريت! سوف تكون بخير، أوكد لك هذا».

بعد مغادرة أمهما، وبعد سماعهما صوت سيارتها خارجة من الممر أمام البيت، نهض بمبرتون وذهب إلى البراد، وراح يبحث في الرف العلوي، وجد أخيراً ما كان يبحث عنه: علبة سبرايت. وقف مستنداً إلى البراد وقال: «أنت شخص متخلف»، ثم رفع شعره عن عينيه وأضاف: «العجيب أنهم لم يرسلوك إلى قسم التعليم الخاص».

كان هيلي شديد الرغبة في إخبار بمبرتون بأمر ذهابه إلى الخزان، وبأمر المسدس، ولكنه أبقى فمه مطبقاً وراح يحدق إلى الطاولة متجهماً، سوف يتصل بهاريت عندما يعود إلى البيت بعد تدريبات الفرقة. قد لا تكون قادرة على الكلام، ولكنه يستطيع أن يطرح عليها أسئلة وتستطيع أن تجيبه بنعم أو لا.

فتح بمبرتون علبة السبرايت وقال: «ألا تعلم أن اختلاق الأكاذيب كما تفعل الآن يجعلك تبدو غيباً تماماً؟»

لم يرد هيلي، فقد قرر أن يتصل بها فور أن تسنح له الفرصة، إذا استطاع التسلل بعيداً عن المجموعة، فقد يتصل بها من الهاتف العام في المدرسة، وعندما يستطيعان الجلوس بمفردهما في سقيفة الأدوات بعد أن تعود إلى المنزل، سوف تشرح له كل شيء: قصة المسدس، وكيف خططت للأمر كله، وكيف أطلقت النار على فاريش راتليف، وكيف أوقعت داني في الخزان. سيكون ذلك رائعاً. لقد أنجزت المهمة، وانتصرت في المعركة بطريقة لا تُصدق، فعلت هاريت بالضبط ما قالت إنها ستفعله، وتمكنت من الإفلات بكل ذلك.

رفع رأسه ونظر إلى بمبرتون، وقال له: «قل ما تريد، هذا لا يهمني، ولكن هارييت عبقرية».

ضحك بمبرتون وقال: «بالتأكيد عبقرية!» ثم أضاف وهو خارج من الباب: «عبقرية إذا قورنت بك!»

كلمة شكر

أنا مدينة لـبن روبنسون وآلان سليت لما قدماه إليّ من أفكار عن هوديني وعن حياته. مدينة أيضًا لكل من الدكتور ستيبي سوكونف ودوين برينغ لما اضطلعوا به من بحث طبي واسع كبير القيمة، ولتشيب كيد صاحب النظرة الرائعة، ولماثيو جونسون الذي أجاب عن أسئلتني فيما يتصل بالزواحف السامة وأنواع السيارات القوية القديمة في ولاية ميسيسيبي. أود أيضًا أن أشكر كلاً من بينكي، وجيل، وسوني، وبوغي، وشيلا، وغاري، وألكساندرا، وكيبي، وهولي، وكريستينا، وجينا، وآمبر، وبيتر آ، وماثيو ج، وغريتا، وتشيرلي، مارك، وبيل، وإدنا، وريتشارد، وجين، وألفريد، ومارسيا، ومارشال، وإليزابيث، وآل ماكفلوين (ريبيكا ووالدتها)، وناني، وويستر، وأليس، وليما، وبيتر، وستيفاني، وجورج، وماي، وميري، وبروس، وبارون، وبونغو، وسيسيل. وقبلهم جميعاً أود أن أشكر نيل: لم يكن ممكناً أن أنجز هذا الكتاب دونك.

كتب أخرى لدونا تارت

التاريخ السري
الحسون

قيل في كتاب «الصديق الصغير» لدونا تارت الذي فاز
بجائزة و. ه. سميث الأدبية، وكان ضمن القائمة القصيرة
في مسابقة جائزة «أورينج»

«عملُ قاصّةٍ جديدة، عمل ذو طموح رائع!»

- ذا بوسطن غلوب

«بكل بساطة، تارت كاتبة أقوى وأغنى وأعمق من كل من
عداها من الكتاب الواقعيين في جيلها، جنوبيين وغير جنوبيين».

- شيكاغو تريبيون

«قرأت الكتاب كاملاً في يوم واحد لأنني لم أستطع التوقف
عن القراءة، براعتها الفنية لا شائبة فيها أبداً».

- ديل ويليس، ذا بلتيمور صن

«قصة جبارة، يكتفنا سحرها منذ بدايتها القائمة المغربية،
تارت حائكة شديدة البراعة، رواية تبهر أنفاسنا».

- إل

«قصة هائلة، تتحت تارت كل شخصية من الشخصيات بثقة
لا نظير لها».

- نيوز ويك

«كتاب كأنه ثوب مسائي فخم على طراز قديم، نثر غني،
مُسهب، مضبوط ضبطاً بارعاً».

- ذا «أورفان ماغازين»

«إذا لم تقع في حب هاريت كليف دو فريسنس دون تردد، فإن
قلبك مصنوع من أسمنت! تجعلك تارت تقرأ الخيال الأدبي كأنه

حقيقة واقعة. كتابتها رائعة مثل أغنية، تحفظها عن ظهر قلب دون أن تنتبه إلى ذلك».

- فاينناشال تايم

«رواية رومانسية فيها قدر كبير من العاطفة، لا تستطيع التوقف عن تقليب صفحاتها، إنها ممتعة جداً. يفرق القارئ فيها، ويمضي مباشرة إلى حياة تلك الشخصيات».

- فوغ

«تبني تارت سرداً فيه توتر يكاد يكون غير محتمل، وهي تطرح أسئلتها عن الأخلاق والمسلوك الأخلاقي. إنها الرواية التي كنا في انتظارها».

- ذي أتلانتا جورنال - كونستيتيوشن

«الصديق الصغير حكاية انتقام مترامية الأطراف، رواية من غير حشو يحكيها صوت ثري منضبط لا يمكن أن يأتي إلا نتيجة جهد يستمر زمناً طويلاً، ولكنه جهد لا تراه ظاهراً في هذه الصفحات».

- تايم

«حكاية قاتمة عن براءة مفقودة؛ فيها مجموعات شخصيات كفيلة بأن تجعل فلانري أوكونر فخوراً بنفسه».

- بيبول

«دراسة غنية في العرق والطبقة والعائلة مع مجموعة واسعة من الشخصيات».

- 5ذي إيكونوميست

«قصة مثيرة عن فتاة صغيرة ساعية إلى قدر من الفهم وإلى انتقام مُستحق، استطلاع عميق لتلك الحقيقة القاتمة، حقيقة أن الماضي لا يتركنا وشأننا أبداً».

- ذا إيسكووير

«هذه رواية جنوبية حقيقية، جذورها ممتدة في خلفية تمكنها من أن تكون كتاباً جيداً جداً».

- نيويورك ديلي نيوز

«الجو الكثيف العابق في بلدة صغيرة: صيف ولاية ميسيسيبي مندغم اندغاماً جميلاً بما لدى تارت من استحضار صبور رائع للعالم الداخلي عند هاربيت كليف ذات الاثني عشر عاماً. تكتب تارت بمعلّمية واثقة... لوحة متقنة لصيف انتقالي تعيشه فتاة متميزة».

- سفن بيركرتس، بوك

مكتبة
t.me/soramnqraa

DONNA TARTT

في بلدة صغيرة بولاية ميسيسيبي، يُعثر على صبي صغير مشنوقًا من غصن شجرة في حديقة منزل عائلته، ويبقى لغز مقتله بلا حل لسنوات طويلة. لكن شقيقته الصغرى، هاربيت، الفتاة الذكية الجريئة حدّ التهوّر، تعزم على كشف الحقيقة والقبض على القاتل، مستعينة فقط بصديقها الوفي هيلي. تخوض في سبيل ذلك مغامرات مشوقة تحبس الأنفاس، تخوضها بين أروقة ماضي عائلتها وأسرار بلدتها، حتى تجد نفسها في قلب الخطر، وحياتها على المحل.

عن المؤلفة

دونا تارت؛ كاتبة أمريكية حازت استحسانًا نقديًا و جماهيريًا منقطع النظير على رواياتها التي نُشرت بأكثر من أربعين لغة. نشرت روايتها الأولى «التاريخ السري» عام 1992. احتلت قوائم الأعلى مبيعًا فور صدورها، وحققت نجاحًا وشهرة قلما حظي بها كاتب على عمل أول. وفي عام 2003، حصلت على جائزة دبليو إتش سميث الأدبية عن روايتها الثانية «الصديق الصغير» التي رُشحت أيضًا لجائزة المرأة في الخيال. فازت بجائزة البوليتزر وميدالية أندرو كارنيجي عام 2013 عن روايتها الثالثة «الحسون». يعد كثير من النقاد دونا تارت تشارلز ديكنز هذا العصر بسبب التشابهات الجلية بين أسلوبيهما.

لا تخلو قائمة من أعظم الكتاب الأمريكيين على قيد الحياة من اسم دونا تارت، كما يُقترن اسمها دائمًا بجائزة نوبل في الآداب.